



قصص منتخبة للفيلسوف الروسى تولستوي



(الطبعة الثانية)

مطبعة الواعظ بالقاهرة



أحمدك اللهم وأستعين بك وأصلى وأسلم على سيدنا محمد نبيك ورسولك

وبعد فقد اشتهر الكونت لاون تولستوى برواياته التهذيبية ومقالاته الاجتماعية شهرة بلغت به منزلة لا يصبو اليها الا ذوو النفوس الكبيرة من دعاة الاصلاح وقد انتشرت تعاليمه ونقلت كتبه ورسائله الى أكثر اللغات الاوروبية حتى تداولها أهل القارات الخمس وأصبح ذكره حديث القوم فى مجالسهم ومنتدياتهم الادبية

وقد وقع بيدى منذ أربعة أعوام ـ أيام أن كنت طالباً ـ كتاب صغير من كتبه مترجم الى اللغة الانجليزية يحوى طائفة صالحة من قصصه الصغيرة ضمنها كثيراً من آرائه وأفكاره التي تقضى باطراح الاوهام والخرافات والتحلي بالتواضع والتخلى عن الصلف والعتو والاعتماد على طهارة السيرة والسريرة ومعاملة الغير باللطف والاحسان

الى غير ذلك من أغراضه التهذيبية ومراميه الفلسفية التي اشتهرت عنه

ما كدت أقرأ هذا الكتاب لاول مرة حتى تعشقته وأحببت تعاليمه ووددت لو أنني عربت بعض ما فيه من القصص التي تجمع بين الفكاهة وتهذيب النفس لينتفع بها اخواني قراء العربية ويلموا بعض الالمام بطرف من آراء فيلسوف أوروبا العظيم الذى غربت شمس حياته فى فجر القرن العشرين . وقد عاونني فى اخراج الفكرة الى حيز العمل حضرة صديقي الاديب (اسماعيل أفندي يوسف الدروى) فانتخبنا ست قصص من الكتاب وعربناها للقراء

الآن وقد نفذت الطبعة الاولى رأيت أن أجلوها على منصة الطبع مرة ثانية مضيفاً اليها قصة أخرى من نفس الكتاب بمقدمة حاوية لترجمة الفيلسوف فاذا أفادت ونفعت فذلك ظني ورجائي وان كانت دون ذلك فما قصدت الا اصلاحا وما توفيقي الا بالله انه عليم بالنيات

عبد العزيز أمين الخانجى

ترجمة حياة مؤلف الكتاب

تمهيد — قد يتوالى كرّ الجديدين وتمر الايام والاعوام مر السحاب طامسة باقدامها رسوم الاجيال الماضية والناس على ماهم عليه من فطرتهم الاصلية مستسلمون لما ورثوه عن آبائهم من التقاليد والعادات مذمومة كانت أم مرضية فاسدة أم صحيحة ، ويظلون كذلك لا يفقهون معنى لما يرونه من المرئيات ولايحركون ساكنا لما يمر عليهم من صنوف العظات ، الى أن يمن الله عليهم بمن يميط اللثام عن سر ماجهلوه ويكشف لهم الستار عن كنه مالم يتحققوه ، فينبههم من رقدتهم ويرشدهم الى ما كانوا عنه غافلين

أولئك هم أقطاب العلم ورسل التهذيب ومهبط المدنية ونور العرفان ، بهم تهتدي الامم وعلى يدهم يتم صلاح الجماعات ونظام الشعوب ، غير ان الدهر وهو بخيل بامثال هؤلاء الاقطاب لا يكاد يجود بفرد منهم على رأس كل جيل حتى تنصب عليه سهام اللعنات من كل صوب وتتلقاه الناس

بالعداوة والبغضاء ، والسبب واضح جلي فالناس اذا استسلمت مدة من الزمان الى بعض العادات الفاسدة وتوارثت طوال الاجيال العاهات والامراض النفسية بعضها عن بعض ، تصبح بينهم من الصفات اللازمة ولا ينظرون اليها اذ ذاك كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية أنزلها الله على آدم ؛ فاذا ظهر بينهم من هو خال منها غير متحل بها ظنوه ناقصاً ناصبوه العداء ونابذوه الالقاب

نظرة الى كل من اشتهر بفضل أو عرف بشيء من النبل نعلم مقدار ما عانى من الدهر وقاسى من مناوأة الناس فى سبيل الحق . فهذه أئمة المسلمين وهداتهم مثل مالك والشافعى وفلاسفة هذه الامة ودعاة الصلاح فيها كالمعرى وابن رشد وابن تيمية ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا تزال أشخاصهم ماثلة فى أذهاننا ولا نزال نستضيء بنبراسهم قد نغص الدهر عليهم عيشهم وضيق عليهم مذاهبهم

لشذوذهم عن المألوف وخروجهم عن المعروف ولم يرجعهم
ماهم فيه عن سبيل رأوه هو سبيل الحق بل مازالوا في عراك
وكفاح حتى لقوا ربهم فرحين بما قضوا من واجب الارشاد
عليهم غير مكترثين بما لقوا في سبيل الواجب

والكونت تولستوي الذي أقدم الى القراء ترجمة
حياته (مقتضبة من دائرة المعارف البريطانية ومجلة الهلال
الغراء وبعض المجلات التركية) هو أحد أولئك الافراد
القلائل الذين لا يكاد الدهر يجود بواحد منهم حتى يتفانى
الناس في تمجيد خصاله ويغرقون في اجلال ذكره واكبار
شأنه اذ يعمل الفرد منهم على اسعاد نوع الانسان وترقية
حال بني البشر اكثر مما يعمله المئات بل الالوف من
معاصريه

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً الى الفضل حتى عد الف بواحد

***

نشأته الاولى — تشغل حياة تولستوي ثلاثة أرباع
القرن التاسع عشر وعشر سنين من فجر القرن العشرين

اذ كان ميلاده في الثامن والعشرين من شهر أغسطس عام ١٨٢٨ في قرية (ياسنايا بوليانا) في ولاية طولا من أعمال روسيا . فأنت ترى ان شمس حياته بزغت في فجر القرن التاسع عشر وعاش معاصراً لكثير من فحول العلماء والفلاسفة مثل هيجو وغوته وغيرهما من الذين ولدوا ممه في فجر القرن وغربت شموس حياتهم في أصيله

وأسرته المانية الاصل هاجرت في عهد بطرس الاكبر واشتهر منها بطرس تولستوى الذي كان سفيرا لروسيا لدى الدولة العثمانية وأدخل في مصاف الاشراف عام ١٧٢٤ وكان لهذه الاسرة منزلة رفيعة بين الاسر الروسية اذ اشتهر كثير من أبنائها بالسياسة ونبغ آخرون منهم في فن الكتابة .

أما أمه فكانت من بيت مجيد عريق في الحسب وشرف الاصل يعرف بأسرة فولكون وكانت القرية التي ولد فيها الفيلسوف ملكاً لها فأقامته فيها ليقضي أيام طفولته ولكن وافاها القدر المحتوم وهو في ابان نشأته فعهد بتربيته

الى سيدة من ذوات قرابته وانتقل به والده اذ ذاك الى مدينة موسكو حيث عاجلته المنية قبل أن يبلغ السكونت العاشرة من عمره فعهد بتربيته الى سيدة أخرى من ذوات قرابته تدعى بوشكوفا فعادت به الى قرية ياسنايا مقر ولادته وهناك تلقى دراسته الاولية

تعليمه — وما كاد يبلغ الخامسة عشر حتى انتقل الى مدينة قازان وانتظم في سلك جامعتها مدة عامين توفر أثناءهما على دراسة بعض العلوم العالية وفيها درس أيضا بعض اللغات الشرقية غير انه ما لبث ان عافت نفسه الجامعة ودروسها لنفوره من اخلاق تلامذتها فعاد الى قريته ثانية وأكب هناك على مطالعة كتب مشاهير المؤلفين والادباء من الروسيين والفرنسيين والالمان أمثال روسو وهيجو وفولتير وذيكنز وبوشكن وترجنيف وشيللر وغوطه ولكنه كان أكثر تعلقا بمؤلفات روسو ، فعاش عيشة مستقلة لا يحتاج فيها الى مرشد ولا مؤدب الا الدهر وحوادث الايام وتتبعاته الشخصيه .

أوائل شبابه — وقد أخذت الاعتبارات الفلسفية تشغل افكاره في أوائل شبابه فكان شغله الشاغل أيام صباه هو التفكير فى (ماهو الانسان ؟) و (من أين أتى ؟) و (الى أين مصيره ؟) و (ما هى السعادة ؟)الى غير ذلك من المسائل الفلسفية العويصة التي كانت ترد مخيلته تباعا آخذة بعضها برقاب بعض حتى نشأ عنده ميل خاص للمباحثات والمناظرات فكان يقضي طوال الساعات والايام فى مجادلة أقرانه ومناقشتهم فيما يعرض له من الافكار .

انتظامه فى سلك الجنديه — وبينما كان الفيلسوف الشاب على الحال التي وصفناها لك حائرا بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار اذ زاره شقيق له أكبر منه سنا فى قرية (ياسنايا) وكان شقيقه هذا من ضباط الجند الروسى ببلاد القوقاز ، فوصف له حالة الجند وماهم عليه من نضارة العيش ورفاهة الحال وما زال به يحسن له حالته ويرغبه الانتظام بسلكهم حتي رضى وأطاع شقيقه فاصبح فى عداد الضباط وهو فى الثالثة والعشرين من عمره

وعند نشوب حرب القرم انتقل الى الطونه وانضم الى اركان حرب البرنس غورتشاكوف ثم انتقل الى سباستبول حيث عين قائداً لفرقة من المدفعية. وكان لانتقاله من بيئة لاخرى أثر كبير في اثارة قريحته وتوسيع خياله فتغيرت أطواره وتحولت كليته وتبطنت أعماق نفسه بانفعالات كثيرة ظهر على اثرها أهم مؤلفاته التي يصف فيها حالة الجند واهوال الحروب وما يكابده الانسان من فظائعها

رحلته وزواجه — وفي العقد الرابع من سني حياته تطلع الى السفر فسافر سنة ١٨٦٢ وساح في بعض انحاء اوربا ثم رجع الى قريته واقترن في العام الثاني بالسيدة صوفيا ابنة الدكتور بيرس الالماني الذي كان يقيم في موسكو فاضطر تولستوي أن يداول السكنى بينها وبين قريته وكانت قد نضجت مواهبه واتسعت معلوماته لكثرة ما شاهده واختبره بنفسه وكانت الحكومة قد عينته قاضياً في قريته فبدأ بنشر تعاليمه وأخذ يدعو الناس الى السلام والفضيلة سواء أبا القدوة أو بالتعليم

عيشته اليومية — وقد اشتهر بزهده في الحياة وتخليه عن مظاهر الوجاهة فكان في قريته مع زوجته واولاده في منزل بسيط محاط بغابة كثيفة ليس فيه من الاثاث الا الضروري فكان يقوم مبكراً فيلبس ثوبا بسيطا مثل أثواب الفلاحين وهو عبارة عن سراويل واسعة فوقها كساء كالقميص يتمنطق حوله بسير من الجلد .

وكان يتناول طعام الافطار ثم يذهب الى العمل في حرث الارض وتعهد اشجارها وبذر الحبوب ومساعدة ضعفاء الفلاحين فى أعمالهم .

سيرته بين فلاحيه — كانوا يعجبون بتواضعه ويستأنسون بدعته ولطف شمائله فاذا وقع بينهم خلاف تقاضوا إليه وارتضوا حكمه وكان قد أنشأ فى قريته مدرسة ينفق عليها من ماله الخاص لتعليم أبناء الفلاحين وكان يتولى تعليمهم بنفسه ؛ فاشتهرت المدرسة وقصدها أهل المدائن الاخرى المجاورة يلتمسون الاستفادة من آرائه وفلسفته وأنشأ لهم أيضاً مجلة تهذيبية تصدر باسم القرية

وقد بلغ من محبته لفلاحي قريته انه أراد أن ينبذ فكرة الاستئثار بالملك الشخصي وأحب أن يوزع أملاكه بينهم بالتساوي فيشتغل كواحد منهم ولكن زوجته وذوي قرابته أبوا عليه ذلك . تلك كانت حاله بالصيف أما في الشتاء فكان يقيم في موسكو فينقطع عن الاعمال البدنية ويتفرغ للتأليف والتحبير فيؤلف ويراسل ويكاتب

حياته العامية — لا نكاد نذكر اسم تولستوي حتي يخطر على البال مؤلفاته العديدة ورسائله المتنوعة وأشهرها (الحرب والسلم) و (البعث) و (حنا كرانينا) و (القيامة) و (أين المخرج) و (الحب والزواج) و (بم يعيش الناس) و (ديانة المسيح) و (الحياة) و (مملكة الظلام) غير أننا لا نكون مبالغين إذا قلنا ان لرواياته الثلاث الاولى وهي (الحرب والسلم) و (البعث) و (حنا كرانينا) القدح المعلى والمكانة السامية في عالم الادب والتأليف لا في الروسيا فقط بل في جميع العالم الاوروبي . ولا مراء في أن هذه الروايات الثلاث هي الدرة اليتيمه وواسطة القلادة بين درر

مؤلفاته وغوالى حكمه فان رواية (حنا كرانينا) تمتاز بدقة البحث في تصوير ما يحصل عادة فى عالم الزواج من الآلام والاضطرابات التي منشؤها عدم التروي والمضى مع الاهواء النفسية وفي روايته (البعث بعد الموت) وصف الامراض الاجتماعية وصورها بكل ألوانها ومعانيها مع ذكر كيف أن الناس في هذا العصر أصبحوا يتنشقون سموم الظلم والاستبداد ويتجرعون كؤوساً ملؤها الكذب والرياء بدل استنشاقهم الهواء وشربهم الماء . وفى هـذه الرواية يقول الناقد الفرنسى المعروف جول لومتر: «كتب تولستوى روايتيه (الحرب والسلم) و (حنا كرانينا) ثم خجل من الشهرة وبعد الصيت اللذين نالهما أثر ظهورهما فاحتجب فى كسر داره واختفى بين صحائف الانجيل مدة خمسة عشر عاما ثم ظهر في عالم الادب ثانية وفى يده أعجوبة مؤلفاته «كتاب البعث بعد الموت»

ولو أمعنا النظر في حياة تولستوى المعنوية نرى أنها بكل ألوانها ومظاهرها سياسية كانت أم اجتماعية دينية أم

خلقية عبارة عن سلسلة حروب شعواء كان يشنها ذلك الرجل العظيم ضد الظلم والاستبداد ومفاسد المدنية الحاضرة ورذائلها فكان يرى رأى روسو القائل بان صلاح الناس أو فسادهم انما يدخل عليهم من باب المعاشرة والمخالطة ويسلك اليهم من طريق البيئة والجوار ثم نظر الى المدنية الحاضرة المشعشعة بالانوار الكاذبة وفطن الى ما تحت تلك الاضواء من ظلمة المفاسد والرذائل وعلم ان التبعة فى فساد نظام الاجتماع واقع على الرئاسات الدينية والسياسية فوقف حياته على ايقاظ اخوانه فى الانسانية وقضى معظم حياته يدعو الناس الى دينه الجديد (Religion de la bonté) وأساسه ايجاد رابطة المحبة والشفقة بين الناس وعدم مقابلة الشر بمثله ولذا نرى ان روح هذا المبدأ تتجلى في اغلب كتبه وتعاليمه التي تكاد تنطق بلسان واحد بهاتين الكلمتين وهما :

(١) أحبوا بعضكم بعضاً

(٢) لا تقابلوا الشر بمثله

مقارنة بينه وبين أبى العلاء — ذهب بعض كتاب

أوربا الى وجود الشبه بين تولستوي وبين روسو وعزز رأيه بأدلة لا محل لذكرها في هذه المقدمة الوجيزة وانا نرى انه من الظلم أن نختم مقدمتنا دون أن نذكر ما رأيناه من وجوه الشبه بين حياة صاحب الترجمة وحياة ابي العلاء المعري المولود سنة ٩٧٣ م . فكلا الرجلين عاش زاهداً في الحياة وكلاهما ناله من اضطهاد رجال الدين ما نغص عليه عيشه وضيق دونه المذاهب ولكلاهما آراء في الحياة ونظرات في الاجتماع تتفق معنى ومبنى

اشتهر تولستوى بزهده في الحياة وتخليه عن مظاهر الوجاهة على نحو مامر بك في مقدمتنا هذه ، كذلك كان أبو العلاء زاهداً في الحياة متخليا عن ملذاتها يردد قوله :

أتتني من الايام ستون حجة ومامسكت كفاى ثني عنان
ولا كان لي دار ولا ربع منزل وما مسني من ذاك روع جنان
تذكرت أني هالك وابن هالك فهانت على الارض والثقلان

الا إنهما وان زهدا في كل لذات الحياة فقد رغبا في العلم والتأليف اللذين قد ملكاهما واستأثرا بهما ولا شك

ان ذلك كلفهما معاشرة الناس ومجاملتهم الى حد معلوم فان أبا العلاء كان مضطراً الى عشرة الناس لاحتياجه الى من يقرأ له ويكتب عنه ولذلك لم يكد يستقر فى المعرة حتى اشتغل بالتعليم فالتف حوله الطلاب من جميع الاطراف . كذلك كان تولستوى مضطرا لمجاملة زواره العديدين الذين كانوا يقصدونه من أقاصى البلاد يلتمسون الاستفادة من فلسفته وآرائه .

وصف الرحالة ناصرى خسرو أبا العلاء المعرى بقوله « ويحكمها (أى المعرة) رجل ضرير يعرف بأبى العلاء عظيم الثروة يملك عددا ضخماً من العبيد وكان سكان المدينة كافة خدمه أما هو فيحيا حياة خشنة يلبس غليظ الصوف ولا يغادر بيته ولا يأكل الا الشعير وسمعت الناس يتحدثون بأن بابه لا يغلق وأن نوابه يعملون فى تدبير المدينة ولا يلجأون اليه الا فى مهام الأمور الخ » ولو صح هذا الوصف وهو ما أثبت احتماله العلامة طه حسين فى كتاب (ذكرى أبى العلاء) صحيفة ٢٣٠ بقوله : « فمن الظلم للتاريخ أن نمر

بهذا الخبر من غير أن نثبت هذا الاحتمال » لكان مشابها للمعيشة التى كان يعيشها الفيلسوف تولستوي فى قريته بين فلاحيه ومريديه (١)

كان تولستوى يرى أن نظام الاجتماع فاسد يحتاج الى

---

(١) لم نجد فى كل التواريخ التى ترجمت تاريخ حياة ابى العلاء مايحقق قول الرحالة او يثبت احتمال الاستاذ طه حسين فقد اجمع الكل على أنه كان فقيرا لايملك من عرض الدنيا غير القليل التافه وقد رفض هبات الملوك واعطيات الامراء وعاش قانعاً باليسير اذ كان له وقف يحصل منه فى العام على ثلاثين دينار قدر منها لمن يخدمه النصف الا اننا مع ذلك لاننكر ماكان لاسرته التنوخية من الوجاهة وما كان لابى العلاء نفسه من المكانه في نفوس أمراء عصره وقد ذكر الذهبي نقلا عن القفطى « ان صالح بن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى عليه أهلها فنازلها وشرع في حصرها ورماها بالمجانيق فلما احس أهلها بالغلب سعوا الى ابى العلاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال لك حاجة قال : الامير اطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده وكالنهار المبالغ (؟) قاظ وسطه وطاب برده خذ العفو ومر بالعرف واعرض عن الجاهلين . فقال له صالح قد وهبتها لك »

اصلاح وأن فساده ناجم عن الرئاسات الدينية والسياسية كذلك كان يرى أبو العلاء وصرح بهذا الرأى غير مرة في اللزوميات وسقط الزند فمن ذلك قوله :

ساس الانام شياطين مسلطة

فى كل مصر من الوالين شيطان

وكذلك قوله :

مل المقام فكم أعاشر أمة

أمرت بغير صلاحها امراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها

فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

رأى تولستوى فى المرأة قبيح لانه يسيء الظن بها فى كل أطوارها ويرى أن تقطع كل علاقة بينها وبين الحياة العامة فمن ذلك قوله : « على الرجل ان يراقب سلوك امرأته ولا يطلق لها العنان بل يحجبها فى البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة » وقال في موضع آخر فى الزواج : « ان الزواج أصبح فى عصرنا هذا بيننا محض خداع وغش ولكنه

لايزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه سرا من أسرار الدين كالمسلمين والصينيين والهنود أما نحن فلا نرى فيه غير تلك المقارنة الحيوانية »

ولابى العلاء رأى فى المرأة كثير المطابقة لرأى تولستوى فهو كثير الظن بها ويرى أن تعيش بمعزل عن الحياة العامة وتشدد فى طلب الحجاب كما أشار فى قوله :

علموهن النسج والغزل والرد
ن وخلوا كتابة وقراءة

وكذلك قوله :

فحمل مغازل النسوان أولى
بهن من اليراع مقلمات

ومنه قوله فى التائية :

ولا ترجع بايماء سلاما
على بيض أشرن مسلمات
ألا ت الظلم جئن بشر ظلم
وقد واجهننا متظلمات

فوارس فتنة أعلام غى
لقينك بالاساور معلمات

ذكرنا آنفاً كيف أن تولستوى نبذ الاعتقاد القائل بالاستثمار الشخصى وأراد أن يقسم أملاكه بين فلاحيه ويشتغل كواحد منهم فكأنه بذلك يعزز رأى ابى العلاء القائل :

كيف لايشرك المضيقين فى النعمة قوم عليهم النعماء

واقواله فى هذا المعنى كثيرة يقف عليها القارىء فى أكثر (لزومياته)

الى هنا ننتهى من المقارنة بين افكار بطلى القرن التاسع والقرن العشرين بعد الميلاد ، والى هذا الحد نكون قد أنجزنا ماوعدنا به القارىء من ترجمة حياة فيلسوف روسيا العظيم (الكونت لاون تولستوى) الذى أفل نجم حياته فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٠ ليكون على بينة من تاريخ حياة أحد رجال العالم العظماء الذين أفادوا النوع الانسانى بأفكارهم الصالحة وسيرتهم المبرورة وسريرتهم الطاهرة

***

قصيدة أمير الشعراء احمد شوقى بك فى رثاء الفليسوف

(تولستوى) تجرى آية العلم دمعها
عليك ويبكى بائس وفقير
وشعب ضعيف الركن زال نصيره
وما كل يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم
وأنت سراج غيبوه منير
يعانون فى الاكواخ ظلما وظلمة
ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا
عليهم وتغشى دورهم وتزور
ويأسى عليك الدين اذ لك لبه
وللخادميه الناقمين قشور
أيكفر بالانجيل من تلك كتبه
أناجيل منها منذر وبشير
تناول ناعيك البلاد كأنه

يراع في راحتيك له صرير
وقيل تولى (الشيخ) في الارض هائما
وقيل بدير الراهبات أسير
وقيل قضى لم يغن عنه طبيبه
وللطب من بطش القضاء عذير
اذا أنت جاورت (المعرى) في الثرى
وجاور (رضوى) في التراب ثبير
وأقبل جمع الخالدين عليكما
وغالى بمقدار النظير نظير
جماجم تحت الارض عطرها شذى
خباهن مسك فوقها وعبير
بهن يباهى بطن (حواء) واحتوى
عليهن بطن الارض وهو فخور
فقل ياحكيم الدهر حدث عن البلى
فأنت عليم بالامور خبير
أحطت من الموتى قديما وحادثا

عما لم يحصل منكر ونكير

طوانا الذي يطوي السموات في غد

وينشر بعد الطى وهو قدير

تقادم عهدانا على الموت واستوى

طويل زمان فى البلى وقصير

وهل عالج الاحياء بؤسا وشقوة

وقل فساد بينهم وشرور

قم انظروا أنت المالىء الارض حكمة

أأجدى نظيم أم أفاد نثير

أناس كما تدرى ودنيا بحالها

ودهر رخى تارة وعسير

وأحوال خلق غابر متجدد

تشابه فيها أول واخير

عمر تباعا فى الحياة كأنها

ملاعب لاترخى لهن ستور

وحرص على الدنيا وميل مع الهوى

وغش وافك فى الحياة وزور

وقام مقام الفرد فى كل أمة

على الحكم جمع يستبد غفير

وحور قول الناس مولى وعبده

الى قولهم مستأجر وأجير

وأضحى نفوذ المال لا أمر فى الورى

ولا نهى الا ما يرى ويشير

تساس حكومات به وممالك

ويذعن اقيال له وصدور

وعصر بنوه فى السلاح وحرصه

على السلم يجرى ذكرها ويدير

ومن عجب فى ظلها وهو وارف

يصادف شعباً آمنا فيغير

ويأخذ من قوت الفقير وكسبه

ويؤوى جيوشاً كالحصى ويمير

ولما استقل البر والبحر مذهباً

تعلق أسباب السماء يطير

الحكاية الاولى

بم يعيش الناس

كان سيمون صانع أحذية لا يملك من الارض قيد شبر، وكان يقطن كوخا لاحد الفلاحين ويعيش من كسب يده. لقد كان العمل إذ ذاك كاسدا وحركته خامدة، وزاد الطين بله أن سبل العيش كانت مجهدة ونار الغلاء متأججة في كل حاجيات الحياة لذلك كان كل ما يقبضه سيمون ثمنا لعرق جبينه ينفقه فى سبيل الحصول على قوت يتبلغان به هو وزوجه . لم يكن لذلك الشيخ وزوجه الا غطاء جلدى يتقاسمانه سويا ليدفع عنهما قر الشتاء، ولقد استنهرت فتوق ذلك الغطاء فكان هذا هو العام الثانى الذى احتاجا فيه الى شراء غطاء آخر . لذلك خرج سيمون متوكئا على عصاه موليا وجهه شطر القرية حيث يمكنه أن يجمع من بعض القرويين ماهم مدينون به من النقود . فوفى له بعضهم وأمهله البعض ونقده

أحدهم عشرين كوبكاً (١) فلم يكن ذلك المبلغ كافيا لشراء
الغطاء ولكنه كافيا لان يدفعه سيمون ثمنا لبعض كؤوس
من الفوتكا (٢) . بعدئذ قفل راجعا الى منزله كسير القلب
وأخذ يهذى فى طريقه تارة عن غضب زوجه وسخطها عليه
وآونة يخاطب القروى الذى أعطاه العشرين (كوبكا) قائلا :
« قف قليلا ! وانقدنى كل ما أنت مدين به . انك اعطيتنى
عشرين (كوبكا) فقط وادعيت الفاقة ولكن ماذا يهمنى
وماذا عساى أن افعل بهذا المبلغ ؟ انك تملك دورا وماشية
واما أنا فلا أملك الا ما أسد به الرمق . انك تملك الحقول
الغنية بالحب والثمر وأما أنا فاشترى كل حبة من قوت يومى .
انك تستزيد من كل شىء وأما أنا فاحتاج الى أقل شىء فانت
مترف ذو نعمة وأنا شقى ذو متربة اذن يجب أن تدفع . هلم

---

(٢) شراب روسى

(١) الكوبك عملة روسية قيمتها $\frac{١}{١٠٠}$ من الروبيل الروسى اي
أنها تساوى مليما

لاتتردد» وما وصل من هذيانه الى هـذا الحد حتى كان قد انتهى الى معبد مقام عند منعطف الطريق ، فنظر واذا به يرى شبحا أبيض يلوح وراء المعبد فلم يتبينه تماما لان طلائع الليـل أخذت تطرد جيوش النهار من تلك البطاح والوديان ثم أخذ يسائل نفسه ! « ماعسى أن يكون هـذا الشبح ؟ انه حجر أبيض . ولـكنى لم أشاهد هنا حجرا قبل الآن . الا يكون نورا اذاً ؟ ولـكن لا . فان رأسه تماثل رأس الانسان الا انهـا ناصعة البياض وما عسى أن يفعل الانسان هنالك . » ثم اقترب من الشبح قليلا قليلا حتى تجلت امامه حقيقته وزال ما خامر فؤاده من الريب .

ما ذا رأى ؟ رأى رجلا عارى الجسد جالسا بانحناء وراء المعبد لاحراك به ، فتوجس سيمون من نفسه خيفة وهاله ذلك المنظر وظن ان أحد القرويين ظفر به فقتله ثم تركه فى تلك البقعة . فاوسع خطاه وسار من امام المعبد حتى لا يمر بالشبح ، ثم حانت منه التفاتة الى الوراء فرأى الرجل يتبعه بنظراته فدب فى قلبه دبيب من الرعب والاشفاق وأخذ

يفكر فيما اذا كان يرجع اليه ليستقصى خبره ويستفسر عن حاله أو يستمر فى طريقه ، فآثر الاخرى وظن أنه ان دنا منه فهو ليس بناج من شروره وأيضا فهو غير قادر على اغاثة رجل عارى الجسد .

ماخطا سيمون بضع خطوات حتى شعر بتقريع الضمير وأخذ يسائل نفسه : « ماذا أنت فاعل ياسيمون ! أتهرب من إغاثة ملهوف ربما كان على شفا الموت ؟ اتعدو خوفا من أن تساعد نفسا ربما كانت تلفظ آخر انفاسها ؟ إنه من العار أن يقال عن سيمون مر فى طريقه ببائس فلم ينجده وملهوف فلم يغثه ، ثم قفل راجعا نحو ذلك الغريب المسكين واقترب منه فلم ينتبه اليه كأنما بلغ به الضعف الى درجة لم يمكنه معها أن يرفع جفنيه أو يدير عينيه وتأمله فرآه فتى فى مقتبل العمر صحيح الجسم لاتشوبه الكلوم ولا تشوهه القروح ، ثم اقترب منه ثانية فتحرك الغريب وادار رأسه الابيض وفتح عينيه الفاترتين والقى نظرة على وجه سيمون فكانت كافية لان تبعث فى قلبه الرحمة على ذلك الغريب وتملأ فوءاده رفقا

وحنانا على هذا البائس المسكين .

ثم البسه بعض ثيابه وأمره بالحركة حتى يتمشى الدم بين أعضائه وبدأ في المسير فأخذ سيمون يسأله « من أين أنت ؟ وما الذى حدا بك الى هذا المكان ؟أطرقتك بوائق الاحداث أم هل وصلت اليك أيدى المسيئين حتى دفنت حيا بين طبقات الجليد المتجمدة ؟ فاجابه قائلا « انى غريب عن هذه الديار ولم يسىء الى أحد ما ولكنه عقاب الله حق على » فاجاب سيمون :

«يجب أيها الصديق أن تقابل ذلك بالرضاء والتسليم فالله رب الكل ، بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير. والآن أى جهة تقصد » .

« كل الجهات عندى سواء » ، فبدرت على سيمون علامات الاندهاش لان الرجل لم تكن هيئته تشف عن خبث ولم يدل مظهره على أنه من السفلة — واستمر سيمون فى حديثه قائلا : « هلم معى اذاً الى المنزل ريثما تدفىء نفسك قليلا » ثم سارا سويا وأخذ سيمون يهيم قائلا : « انى ذهبت

بشراء الغطاء فعدت الى منزلى بدونه وزيادة على ذلك أحضرت معى رجلا عارى الجسد : ان ماتروينا (١) ليغلى مرجل حقدها عند ماتعلم ذلك » وكان كلما عاودته ذكرى زوجته يطرق برأسه عابسا ولكنه كلما تذكر حالة ذلك المسكين ونظراته المؤلمة عاودته بشاشته وطفح ثغره فرحاً وسرورا

أما (ماتروينا) فقد أنهت كل واجباتها المنزلية فى ذلك الصباح وجلست تفكر في زوجها وماعسى ان يكون قد فعل واذا بها ترى رجلين مقبلين أحدهما سيمون والآخر غريب لم تعرفه فدار بخلدها لاول وهلة أن زوجها احتسى بعض كؤوس من الخمر وما الآخر الا من أعوانه السكيرين ، ثم بدأت تصخب ولكنها انتظرت ريثما ترى ماذا يصنعان: دخل سيمون منكس الرأس خجلا ثم تبعه صديقه الذى ظل واقفا صامتاً لايبدى حراكا فلم تتردد ماتروينا فى أنه من السفلة الاشرار . أما سيمون فقد خلع قبعته واستوى جالسا على أحد المقاعد كأن المياه مازالت جارية فى مجاريها ولم

(١) زوجة سيمون

يحدث شيء يثير غضب زوجه ثم دعا صديقه ليجلس بقربه فقعل . ثم خاطبها قائلا

« الآن ياماترويناقدمى لناماعندك من العشاء » فنظرت اليه شررا وازداد حنقها وأجابته « إنى أعددت كل شيء ولكن ليس للسكاري الذين تلعب برؤوسهم الخمر فتخرجهم عن المألوف »

— « ماترويناا لاتكثري من تهدجك وضعى حدا لثرثرتك يجب أن تعرفى أولا من هوهذا الرجل » فاجابته « إنى لا أشك فى أنه من أبناء الشريرين . فقال ! « كلا فأنت مخطئة » فقاطعته قائلة وأين النقود فصمت سيمون فكان ذلك برهاناً زاد اعتقادها فيها وداعياً قويا حرك فيها عوامل السخط فأخذت تقدح من عينيها شررا وتلفظ من فيها كلمات كلها مقت وغضب وحاولت الخروج إلا أنها كانت تود أن تقف على حقيقة أمر الغريب فخففت من حدتها قليلا وأنتظرت . . . . ثم ابتدرته قائلة « اذا لم يكن هذا الرجل كما أعتقد فمن يكون ؟ »

— هذا ما اردت أن أوقفك على حقيقته من بادىء الامر فاعلمى أننيعند ماوصلت الى المعبد فى رجوعى من القرية رأيت هذا الرجل جالسا بين طبقات الجليد المتجمدة لا ثوب يكسيه ولا دثار يدفع عنه غائلة البرد فأشفقت عليه ودثرته كما ترين ثم آويته الى هنا ولو لم يرسلنى الله فى تلك الآونة لربما قضى نحبه لوقته فخففى من وطأة حدتك واعلمى أنها خطيئة كبرى ياماتروينا وتذكرى أننا سنموت جميعاً يوما من الايام » فتمتمت ماتروينا ببعض كلمات يشتم منها رائحة الغضب والقت نظرة على الغريب وظلت صامتة

— ماتروينا ! ألا توجد فى قلبك عاطفة المحبة — محبة الله

وما سمعت هذه الكلمات من زوجها حتى نظرت الى ذلك الضيف الغريب ثانية فشعرت بعاطفة الرحمة نحوه وقامت لوقتها وأحضرت البقية الباقية مما عندها من الطعام وقدمته لذلك المسكين الذى دفع ثمنه نظرة فاترة وابتسامة لطيفة عبرت عما فى نفسه من الشكر والثناء . وبعد الانتهاء

من أكله أخذت ماترووينا تعيد الى مسامعه نفس الاسئلة التي سأله اياها زوجها من قبل فأجابها بمثل ماأجاب زوجها وختم اجابته بقوله : « ان زوجك دثرني وآواني وانت أسقيتني وأطعمتني فالله يؤتيكما خيرا » ثم باتا وأصبحا فسأله سيمون « ماالذي يمكنك ان تباشره من الاعمال ؟ » فأجابه « ليس بيدي صنعة ما » فاستمر سيمون في كلامه «إن من يريد أن يتعلم فليس من الصعب عليه ذلك » فأجابه « سأتعلم » فبدأ سيمون يعلمه كل يوم درسا من صناعته وكان ميكائيل (١) سريع البديهة فما مر ثلاثة ايام الا وكان يباشر العمل كأنه به منذ سنين عديدة . وبعد الانتهاء من شغله كان يجلس وعيناه للسماء لايتكلم إلا عند الحاجة ولا يميل قط الى المجون والمزاح ، قليل الابتسام ، فلم يروه يبتسم الا مرة واحدة ، عند ماقدمت اليه ماترووينا العشاء في أول ليلة من ليالي حياته الجديدة !

كرت الايام ومرت الاعوام وميكائيل يثابر على العمل

«١» اسم الغريب

مواصلا ليله بنهاره ، حتى ذاع صيته وعلت شهرته بين القرى والربوع المجاورة . وفي ذات يوم بينماهم جالسون في كوخهم واذا بعربة يجرها ثلاثة من الصافنات الجياد تنهب الارض نهبا وتتقدم نحو كوخهم الحقير وما هي الا بضع ثوان حتى رأوا العربة قد وقفت امام الكوخ وقفز منها سيد تلوح عليه امارات الشرف ومخايل النبل، ضخم الجسم أحمر الوجه، طويل القامة . فقام سيمون لوقته وفتح باب كوخه على سعته ثم وقف محييا ذلك الزائر العظيم منحنياً أمامه بكل تؤدة واحترام فقال السيد بكبر « من رئيس العمل في هذا الكوخ » فأجابه سيمون: « أنا ياصاحب العظمة » ثم أمر الشريف خادمه أن يحضر الجلد فأتى به ووضعه على خوان في وسط الكوخ وبعدئذ وجه السيد كلامه الى سيمون قائلا ألا ترى هذا الجلد » فأجاب : « نعم ياصاحب الشرف إنه في غاية الجودة » فقال الشريف بحدة « يالك من أبله أحمق ! أو تشك في ذلك ؟ إنه ذو قيمة عالية وأريد ان تصنع لي منه حذاء على شرط أن يمكث حولا كاملا حافظا لرونقه وشكله

أتقدر ؟ فاضطرب سيمون قائلا « نعم يمكنني ياصاحب النبل » فصاح في وجهه ذلك السيد « يمكنك ! تدبر . يجب أن تعلم لمن ستصنع الحذاء فإن لم يكن كما أمرت سأودعك غيابة السجن ! » فانتفض سيمون فرقا وخوفا وتلعثم لسانه وهمس الى ميكائيل يطلب مساعدته في ذلك المأزق فأومأ اليه برأسه علامة للرضاء فقبل سيمون العمل ثم هم الشريف بالانصراف فودعه سيمون بمثل ماقابله به من التجلة والاحترام . ومما يجدر بالذكر مالاحظه سيمون أثناء وجود الشريف بالكوخ من أن وجه ميكائيل كان يتهلل بشراً وعينيه تتطلعان الى ماوراء السيد شاخصتين الى تلك الجهة كأن امامه شبحاً أو طيف خيال ، فكان ذلك موضع دهشة سيمون وعجب ماترونا !

ثم قال سيمون لصديقه : « هيا ابدأ في العمل أيها الصديق وحذار من الوقوع في الخطأ فان السيد كما رأيت سريع الغضب » فبدأ ميكائيل في صنع الحذاء ولكنه أدهش بعمله ماترونا اذ رأته يهيء الجلد ويخيطه لا على شكل باقي الاحذية

ولكنه على شكل خفاف رقيقة فأسرت ذلك لزوجها الذي ما كاد يراه حتى استولى عليه الذهول وابتدره قائلا « ماذا تصنع أيها الرفيق ! أنت يامن مكثت معي حولا كاملا بدون أن تزل أو تخطيء أتقترف في دقيقة واحدة أعظم الاغلاط .. » وأراد أن يستمر في تأنيبه واذا به يسمع وقع حوافر جواد فصمت ورأى القادم فاذا هو خادم السيد يقول ! « عموا صباحا أيها الرفاق ، إني أتيت لاجل الحذاء » فدهش سيمون واستمر الخادم في حديثه « نعم الحذاء ! فأن سيدي ما كاد يفارقكم حتى فارقته الحياة وأخرجناه من العربة جثة هامدة والآن فقد جئت لاعلمكم أن تصنعوا هذا الجلد خفافاً للسيدة » فبهت سيمون ثم تهلل وجهه وأقبل على ميكائيل يقبله فرحا مسرورا ، ثم أعطياه الخفاف فانصرف

مر العام إثر العام وميكائيل عائش الآن في السنة السادسة من حياته الجديدة لا ينطق الا عند الضرورة ولم تعل الابتسامة شفتيه الا مرتين في خلال هذه المدة الطويلة، وفي ذات يوم بينما هم قعود يشتغلون، كل في عمله واذا باحد

أولاد سيمون صرخ مخاطبا ميكائيل « عماه ! هيا انظر فان امرأة معها طفلتان، مقبلة نحونا » فنظر ميكائيل من أحدى شرفات الكوخ فرأى سيدة معتدلة القوام حسنة الهندام يرافقها طفلتان تتقدم نحو الكوخ

دخلت السيدة فقام سيمون مستقبلا اياها ومرحبا بها ثم سألها الجلوس ففعلت وقال لها « إن السرور ليشملنى اذا أمكننى القيام بما تأمريننى به » فأمرت بعمل حذاءين للطفلتين فأجابها سيمون الى طلبها . وفى تلك الآونة نظر سيمون الى ميكائيل فرأى عينيه محدقتين بالطفلتين لايحول عنهما نظره كأنه يعرفهما من قبل فدهش ولكنه لزم الصمت

ثم ابتدأت ماترونا تسأل تلك السيدة قائلة : « يظهر أن ابنتيك توأمتان » فأجابتها « أجل انهما لكذلك ولكنهما ليستا طفلتى ولا يربطنى بهما رباط صلة أو قرابة » فتعجبت ماترونا وقالت « عجبا ! إنهما ليستا طفلتيك ثم مع ذلك تشفقين عليهما هذه الشفقة وتظليهما باجنحة عطفك وحنانك » فقالت السيدة « وكيف لا أشفق عليهما وقد أرضعتهما من

ثديي » ثم استمرت المرأة فى الحديث واخذت تسرد مجمل حكاية هاتين الطفلتين فقالت : « لقد اختطفت يد المنون روح والديهما منذ ست سنين فى أسبوع واحد فأودع الاب رمسه يوم الثلاثاء وعلى أثره بثلاثة أيام فاضت روح تلك الام وانتقلت الى دار الخلود . أما هاتان الطفلتان فقد ولدتا يوم الخميس الموافق لليوم الثالث من موت والدهما ولليوم الاول من ايام الاسبوع الذى تركتهما فيه امهما وديعة عند رب العالمين . مسكينة امهما ! فقد كانت فقيرة وحيدة ليس لها فى الحياة من يأخذ بناصرها ويقاسمها عزلتها وشقاءها . ومن ذلك اليوم ، يوم الخميس اصبحت هاتان الطفلتان اليتيمتان غريبتين عن العالم اجمع لا تربطهما بأهله أواصر الصلة او القرابة

لقد كنت أنا وزوجي مقيمين فى ذلك الحين فى القرية وكانت تربطنا بوالدى الطفلتين رابطة الجوار وقد ذهبت لأزور تلك المسكينة فى صباح أحد الايام فما كدت أخطو بضع خطوات حتى وجمت ذعرا وهالنى ما رأيت : نعم إنها لساعة رهيبة مخيفه ! رأيت الام ملقاة على الارض فدنوت

منها فاذا هى جثة هامدة تعلو وجهها صفرة الموت وحولها طفلتان فى المهـد تصيحان وتعولان كأنهما علمتا برزئهما فأخذتا تناديان أمهما النداء الأخير وتسمعانها صوت بكائهما قبل فراقها الأبدى .. وهكذا فى ساعة ولدتهما وفى ساعة فقداها .

بعد ذلك انتشر الخبر فتقاطر القرويون الى ذلك الكوخ المشئوم وعنوا بجثة الفقيدة ووضعوها فى الكفن ثم واروها التراب وعيونهم دامعة وقلوبهم يدميها الحزن والأسى — انهم لقوم محسنون .

لم يكن للطفلتين نصير كما ذكرت فتكفلت بهما وتعهدت بتربيتهما ولم يكن لى فى الحياة سوى طفل صغير اغتبطه الموت فكم كنت أشعر بالوحدة لو لم يكن هاتان الطفلتان بجانبي وكم يزداد حبي لهما فهما زهرة حياتي ونضرتها »

وبعد أن انتهت من حديثها ضمت اليها بيمينها احدى الطفلتين ومسحت بيسارها عبراتها المنسجمة فتنهدت ما ترويناوقالت حقا لقد صدق المثل القائل . « إن الانسان يمكنه أن

يعيش بلا أب أو أم ولكنه لا يمكنه ذلك بدون رحمة الله »

ثم ساد السكوت وانبثق نور وضاء من الركن الذي كان فيه ميكائيل وأنار كأنه ضوء الشمس القوى في الصيف فنظروا اليه فاذا هو جالس ويداه على منكبيه وعيناه تتطلعان الى السماء ووجهه يتلألأ وثغره يبتسم .

ماذهبت المرأة بطفلتيها حتى قام ميكائيل وانحنى أمام سيمون وقال « الوداع ! الوداع ! فلقد غفر لى ربى ولم يبق الا أن أسألك عفوك ان كنت هفوت أو أذنبت » ثم تلألأت غرته وعلا وجهه غطاء نوري فانحنى أمامه سيمون قائلا عفواً يا ميكائيل فانك لست بشراً سويا وأنا ليس في قدرتى أن أرغمك على القيام عندي أو أتجاسر أن أسألك أكثر مما أريد أن تجيبنى عنه الآن. انك ابتسمت ثلاث ابتسامات فأشرق النور من محياك فخبرنى أيها الصديق عن سر ذلك الابتسام ومبعث هذا النور الوهاج فأجاب ميكائيل : ان الله أرسلنى لأتعلم ثلاث حقائق وقد أتممتها فابتساماتى الثلاث مظاهر الفرح الذي ملأ قلبي. أما النور فينبعث منى

لأن الله غفر ذنبي وسامحني فقال سيمون : ولم عاقبك الله ؟
وما هي تلك الحقائق التي بعثت لمعرفتها فأجابه «انى كنت
ملكاً في السماء فخالفت أمر ربي اذ أرسلني لأقبض روح
امرأة من عباده فهبطت الى الارض واذا بي أراها مسكينة
هزيلة قد وضعت لوقتها توأمتين فلما رأتني فقهت كنه حقيقتي
وعرفت أنني أتيت في طلب روحها فأجهشت بالبكاء وبصوت
قطعه الغصات العميقة توسلت قائلة : « أيها الملاك الطاهر
رفقاً بامرأة ضعيفة كسيرة القلب قتل زوجها وحرمت من
كل نصير لها في الحياة . أنا غريبة عن العالم أجمع فأمهلني
ريثما تترعرع هاتان اليتيمتان وبعدها أموت راضية مطمئنة
بربك لا تعجل ساعة يتمهما فحياة الطفل بأمه » فرجعت
الى ربي وبلغته رسالتها فأمرني أن أهبط ثانية وأستل روحها
وبعد أن أديت ما أمرت به اردت الصعود واذا بأجنحتي
تسقط وريح شديدة تصدني فوقعت بجانب الطريق . فعلم
سيمون وماترونا حقيقة هذا المخلوق الذي شملاه بعطفهما
وحنانهما طول هذه المدة ثم بكيا روعة وجلالا . أما الملاك

فأخذ يقص قصته وهو يقول: « لقد هبطت الى الارض وأنا لا أعرف ما يعتري الانسان من حر وبرد فكدت أموت جوعا وكادت اعضائى تصير قطعة من الجليد ولكني لم ادر ماذا افعل ؟ ذهبت الي المعبد لآوى اليه فوجدته موصداً فجلست بجانبه واتكأت على جدرانه اتقاء من العاصفة الشديدة وبينا انا كذلك اشعر بألم الجوع والبرد اذ مر عليّ اول مخلوق ارضى وقعت عليه عيني منذ صرت رجلا أشعر واتألم. تمثلت امامى صورته فرأيت فيها قبح النظر متجسما وظننت أن الله لم يخلق افظع منه شكلا فحولت بصرى عنه واما الرجل فما كاد يرانى حتى استولى عليه الرعب وسار من طريق آخر حتى لا يمر بى فملأ اليأس قلبي ولكنى مالبثت أن رأيته راجعاً نحوى ونظراته تنم عن حب كامن وعطف مستتر فدثرني بثيابه وآوانى الى منزله حيث قابلتنا زوجته وعيناها تقدحان شرراً وغضبا ولكنها ما لبثت ان خففت من حدتها وعطفت علي فقدمت لى الطعام وكؤوس الشراب. وإذ ذاك اتممت الدرس الاول من دروسى وتعلمت احدى

الحقائق الثلاث وهى : ماذا يكمن في الانسان فعلمت أنها « الرحمة » وحدها

جاء السيد بعد ذلك بعام واحد فأمر بعمل حـذاء لا يبلى قبل مرور حول كامل ورأيت وراءه رفيقى ملك الموت فعلمت أن الشمس لا تغرب حتى تغرب حياة ذلك السيد واذ ذاك وقفت على سر الحقيقة الثانيـة وهى : « ماالذى لم يحط به الانسان علما » فعلمت أنها « حاجيات نفسه » وهنا ابتسمت ابتسامتى الثانية اذ لم يبق أمامى الا الدرس الاخير وليس بينى وبين ملكوت السموات الا فرج الله النهائى ظللت عائشا معكم أنتظر مشيئة الله الى أن أتت التوأمتان فعرفت الطفلتين ولما سمعت كيف عاشا الى هـذا الوقت وتذكرت قول أمهما (ان الطفل لا يعيش بدون رحمة أمه وعطفها عليه) تحققت بطلان هذه الدعوى ولمـا تساقطت الدموع من عينى تلك المرأة — دموع الرأفة والرحمة — وضمتهما الى صدرها الممتلىء عطفا وحنانا عرفت أن فى قلبها عاطفة سامية هى عاطفة (الرحمة) التى هى سر الحقيقة الاخيرة

وهى . (بم يعيش الناس)

انى لم أظل حيا لانى أخذت الحيطة لنفسى بل لأن الله قيض لى انسانا منحنى بعض ما فى نفسه من (الرحمة) فشملانى هو وزوجه بعطفهما وحنانهما . كذلك اليتيمتان بقيتا تستنشقان نسمات الحياة الي هذا الوقت لا باعتناء أمهما ولكن لان عاطفة الرحمة تحركت فى قلب امرأة غريبة عنهما فعنت بأمرها وبكت من أجلهما فالعالم كله والناس اجمعون لا يعيشون فى هذا الكون بمحض تدبيرهم وارادتهم وبما يعملون لحفظ كيانهم فحسب ولكنهم يعيشون بعاطفة الرحمة التى أودعها الله فى الانسان فهى التى تحفظ فيهم حرارة الحياة.

« ان من يرحم فقد تقرب الى الله لانه هو الذى خلق فيه الرحمة » وبعد ان أتم ميكائيل قوله غنى انشودة الهيبة فاضطرب الكوخ وخر سيمون وأهله مغشيا عليهم ، ثم فتح السقف من فوقهم وظهرت الأجنحة على ذراعى الملك ثم صعد عمود من الدخان الى السماء وهكذا ارتفع الملك الي عرش ربه ولما ثاب سيمون الى رشده وجد كوخه كما كان والتفت يمنة ويسرة فلم ير الا اسرته الاولى

— ٢ —

مشرب سورات[1]

عجبت لكسرى وأشياعه
وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضا
م ويظلم حيا ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب
رسيس الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلا
د لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجباً من مقالاتهم
أيعمى عن الحق كل البشر

« المعري »

(١) قد ترجم صديقنا وتلميذنا احمد افندي شاكر الكرمي

كان فى مدينة سورات فى الهند مشرب يجتمع فيه الكثير من الغرباء السائحين وأهل الأسفار المتجولين من مختلف الاقطار للسمر والحديث . وقد اتفق أن رجلا فارسياً من علماء اللاهوت أم هذا المشرب فى أحد الايام وكان قد صرف أيام حياته يدرس كنه الاله وحقيقته ، غير تارك بحثا كتبه الاولون فى ذلك الموضوع الاقرأه وكتب عنه وما زال هذا شأنه يفكر ويقرأ ويكتب حتى سلب عقله واضطربت عقيدته وانتهى به الامر الى انكار وجود الخالق ثم اتصل خبره بالشاه ، ملك فارس فأمر بأن ينفى من مملكته

هذه القصة ونشرها في كتابه الكرميات تحت عنوان الفلسفة الشرقية ونسب وضعها الى برناردين دوسانت بيير وقد غمط بذلك حق تولستوى لانها من وضع تولستوى ولكنها مقتبسة من اصل فرنسي للكاتب المذكور وقد نقلها حضرته عن الانجليزية من كتاب Twenty three tales from Tolostoy وهو نفس الكتاب الذي ننقل منه هذه القصص وقد لاحظت عليه انه ترك اسطراً منها بدون ترجمة فضلا عن انه اهمل كثيراً في ترجمة كثير من الجمل. ولذلك لم نر بدامن اعادة ترجمتها في كتابنا هذا خدمة للحقيقة

لم يجن المسكين أى ثمرة من مجهود بحثه ودراسته فى المسبب الاول و بدل أن يفهم انه فقد عقله سلك سبيل انكار وجود ارادة عليا مسيطرة على عالمنا الارضى

كان لذلك العالم عبد اسود يتبعه حيثما سار ، فلما ولج باب المشرب جلس العبد على حجر خارج الباب تحت اشعة الشمس واخذ يضرب اسراب الذباب التى كانت تطن حوله ، اما سيده فجلس على اريكة مستطيلة داخل المشرب وطلب فنجانا من الافيون وتجرعه. وبعد ان دب مفعول المخدر فى تلافيف دماغه أخذ يحادث الخادم من خلال الباب المفتوح قائلا

— خبرنى أيها العبد التعس أتعتقد أن هنالك إله أم لا ؟

فأجابه العبد بقوله :

— لاريب فى أن هنالك إله

ثم أخرج توا من منطقته صنماً من خشب وهو يقول

— هذا هو الاله الذى حرسني منذ ولدت . كل انسان فى بلادنا يعبد الشجرة المقدسة التى من خشبها عمل هذا الاله

استرعت هذه المحاورة الدائرة بين اللاهوتي ومولاه انتباه ضيوف المشرب الآخرين وقد أدهشهم سؤال العالم وزادهم جواب مولاه دهشة ، فانبرى برهمي من الحاضرين عند سماعه كلمات العبد وقال

ــ أيمكن أن تصدق أيها البائس الابله أن الاله يحمل في منطقة رجل ؟ ليس هناك الا اله واحد هو برهما وهو أكبر من العالم بأسره لانه خالقه . ان برهما هو الاله الاحد القدير ، وباسمه ، باسمه العظيم بنيت المعابد على ضفاف نهر الكنج حيث يعبده الكهنة البرهميون الذين يعرفون دون سواهم الاله الحق ، لقد مضت عشرات الالوف من السنين وتوالت الانقلابات تلو الانقلابات وهؤلاء الكهنة محتفظون بنفوذهم . ذلك لان برهما الاله الاحد الحق باسط عليهم جناح حمايته .

نطق البرهمي بهذا القول وهو يظن أنه أقنع كل انسان الا أن سمساراً يهوديا من الحاضرين رد عليه قائلا :

ــ كلا ان معبد الاله الحق ليس في الهند ، وما كان الله

ليحمي طائفة البراهمة . ان الاله الحق ليس هو اله البراهمة . بل هو رب ابراهيم واسحاق ويعقوب وهو لا يحمي سوى شعبه المختار شعب اسرائيل . ان شعبنا وحده هو المحبوب عند الله منذ بدء الخليقة . واذا كنا اليوم مشتتين في أنحاء الارض فما ذلك الا لان الله يريد أن يبلونا لانه وعد أنه سيجمع شمل شعبه في يوم من الايام في أورشليم ويرجع حينذاك الى البيت المقدس ، أعجوبة الزمن القديم ، مجده السالف وسيكون اسرائيل يومئذ حاكم كل الشعوب

وبعد أن أتم اليهودي قوله انخرط في البكاء ثم أراد اعادة الحديث لولا أن قاطعه مبشر ايطالي كان هناك بقوله

ـــ ان ما تقوله غير صحيح وانك لتفتري على الله لانه يستحيل أن يحب قومك أكثر من حبه سائر الاقوام ولو كان حقاً أنه فضل بني اسرائيل قديماً فانه قد مضى تسعة عشر قرناً منذ أن أغضبوه وحملوه على تدميرهم وتفريقهم أيدي أسبا في مناكب الارض ، فلم يجلب لهم ايمانهم أدنى سعادة . هذا الايمان طوته يد الفناء اللهم الا ما بقي منه

مقبرا هنا وهناك . ان الله لا يفضل قوما على قوم بل هو
يدعو الجميع — من أراد منهم النجاة والفوز — للالتجاء الى
أحضان كنيسة روما الكاثوليكية التى لا يجد الخارجون عن
حدودها خلاصا

كان فى الحلقة قسيس بروتستانتى ، لم يكد يطرق سمعه
هذا القول حتى امتقع لونه والتفت الى المبشر الكاثوليكى
وقال له « كيف تقول ان الخلاص مختص بمذهبكم ؟ ان
الناجين هم الذين يعبدون الله بروح العزم والاخلاص كما
نص الانجيل وكما أمرت كلمة المسيح » عندذلك التفت تركى
من الموظفين فى جمرك سورات كان جالساً يدخن قصبته
وقال بروح الأنفة للمسيحيين .

— ان ايمانكما بدينكما باطل لان الدين المسيحى
قد نسخ منذ اثنى عشر قرناً بدين محمد الحق . انكما تعرفان
ولا شك أن دين محمد الحق ما زال آخذاً فى الانتشار فى
كلتا القارتين ، أوروبا وآسيا ، حتى فى بلاد الصين المتأخرة
المظلمة وقد قلتما نفسا كما ان الله نبذ اليهود واستشهدتما على

بطلان دياناتهم بذلتهم وعدم انتشار دينهم ، فاعترفوا اذن بصحة الدين المحمدى لانه منتشر متفوق . سوف لا ينجو أحد سوى أتباع محمد خاتم النبيين وينجو من أتباعه أشياع عمر (١) فقط ! أما أشياع على فلا لان ايمانهم باطل

هنا أراد اللاهوتى الفارسى الذى كان من شيعة على أن يعترض لولا أن ارتفع اذذاك ضجيج الحاضرين من مختلفى العقائد ومتباينى الأديان فقد كان فيهم عدا من ذكرنا مسيحيون من الحبشة ولاميون من التيبت واسماعيليون وعباد نار فتناقشوا كلهم فى حقيقة الاله الحق وكيف يجب أن يعبد فتجادلوا واشتدت حدتهم فكان كل واحد منهم يؤكد أن الاله الحق لم يعرف ولم يعبد كما يجب فى غير بلاده الا رجل صيني من أتباع كونفوشيوس كان جالساً جلسة هادئة في زاوية من زوايا النادى يحتسى كؤوس الشاى وهو مصغ لما يقوله الآخرون ولا ينبس ببنت شفة فلاحظه التركى جالساً هنالك فتقدم اليه يقول

— انك تستطيع أن تثبت ما قلته أيها الصينى الصالح .

(١) يريد باشياع عمر أهل السنة والجماعة

أنك تحافظ على هدوئك وسكينتك . ولكن أعلم أنك ستؤيد رأيي أن تجاراً من مواطنيك الذين يأتون الى ملتمسين منى المساعدة أخبروني أن بالصين أديانا كثيرة الا أنكم معاشر الصينيين تعدون دين محمد خيرها جميعا وتقبلون على اعتناقه باشتياق زائد . تفضل اذن وأيدقولى . بين لنا ما اعتقادك فى الاله الحق وفى رسوله ؟

فقال الباقون : نعم . نعم ملتفتين الى الرجل الصينى قائلين له

— ماذا ترى . دعنا نسمع رأيك فى هذه المسألة

عند ذلك أطبق الرجل الصينى عينه وفكر برهة ، ثم فتحها ثانية وقال بصوت هادىء رزين بعد أن اخرج يديه من كميه الواسعين وربعهما على صدره

— سادتى يخيل الى أن الكبرياء خاصة هى التى تقف حجر عثرة فى سبيل الاتفاق على مسائل الأديان واذا تفضلتم على بالاصغاء فسأقص عليكم حكاية تشرح مسألة هذا الاختلاف

لقد جئت هنا من الصين على ظهر سفينة انكليزية طافت العالم وقد اتفق ان فرغ الماء منا فاضطررنا إن نرسو في سواحل سومطرا الشرقية لنتزود ماء ، فاغتنم بعضنا هذه الفرصة ونزل الى اليابسة ، وكان الوقت ظهرا . جلسنا تحت ظلال صف من اشجار جوز الهند على بعد من احدى قرى الجزيرة ، وقد كنا من اجناس مختلفة ولم يكد يستقر بنا المقام حتى ابصرنا رجلا اعمى يقترب منا وعلمنا بعد ذلك انه فقد باصرتيه من كثرة تحديقه بالشمس وهو يحاول ان يعرف ماهي لاجل ان يقبض على نورها وقد صرف وقتا طويلا لتحقيق هذه الامنية بتحديقه المستمر في الشمس ولكنه لم يجن من ذلك اى نتيجة سوى اصابة عينيه من شدة الضوء حتى اصبح ضريراً . فقال حينئذ يخاطب نفسه

— ان نور الشمس ليس سائلا لانه لو كان كذلك لامكن صبه من اناء لآخر ولوجب ان يحركه الهواء كما يحرك الماء وليس هو نارا لانه لو كان كذلك لوجب ان يطفئه الماء وليس هو روحا لانه يرى بالعين ولا مادة لانه لا يمكن

تحريكه ، ومادام نور الشمس غير سائل ولا نار ولا روح ولا مادة فهو لا شيء .

على هذا المنوال اخذ فى القياس والجدل وكانت النتيجة التى جناها من كثرة احداقه بالشمس وتفكيره فى ماهيتها أن فقد بصره ثم عقله وقد ازداد رسوخاً في عقيدته بمدعاه

وكان مع ذلك الاعمى عبد يقوده فلما وصل به الى الظل اجلسه فى مكان ثم التقط جوزة كانت ملقاة على الارض وشرع فى عمل سراج منها . فلف فتيلة من اليافها ثم عصر منها زيتا فى قشرتها وغمسها فيه وبينما كان العبد عاكفا على عمله تنهد الاعمى وقال له

— الم اك محقا عند ما اخبرتك انه لا توجد شمس الا ترى ما اشد الظلام . ومع ذلك فان الناس ما زالوا يقولون ان هناك شمسا ! ! اذا كان ما يقولونه حقا . فليقولوا لى ماهى تلك الشمس ؟ فقال له عبده .

— انا لا اعرف الشمس ولا يعنيني ان اعرفها ، ولكن اعلم ما هو النور وها قد صنعت لنفسى سراجا استطيع

بواسطته ان أخدمك وان أجد ما أريده فى كوخنا . ثم رفع العبد قشرة الجوز قائلا هذه شمسى .

فضحك لهذا القول رجل اعرج له عكاز ان كان جالساً على مقربة منهما وقال :

ــ انك على ما يظهر قضيت كل حياتك ضريراً . لاتعرف ماهى الشمس . انى سأخبرك عن ماهيتها . انها كرة من نار تطلع كل صباح من جوف البحر وتغيب بين جبال جزيرتنا فى كل مساء ، وكلنا نشاهد ذلك ونراه ولو كنت بصيراً لرأيته أيضاً .

فقال صياد كان يستمع حوارهما .

ــ يظهر انك لم تخرج من هذه الجزيرة قط . فلو كنت غير اعرج ولو كنت خرجت الى ما وراء الجزيرة كما اخرج أنا فى قارب الصيد لعلمت أن الشمس لاتغرب بين جبال جزيرتنا ولكنها كما تشرق من المحيط كل صباح تغرب كذلك فى البحر كل مساء . ان ما أقوله لك حق لاننى أراه كل يوم بعينى رأسى . فقاطعه حينذاك هندى من جماعتنا قائلا :

ـــ انه ليدهشني أن يقول رجل عاقل مثلك نظير هذه الترهات . قل لي كيف يمكن ان تنزل كرة من النار في الماء ولا تنطفيء ؟ ان الشمس ليست كرة من نار ، بل هي الاله (ديفا)الذي يركب مركبة تدورحول الجبل الذهبي (مرد) أبد الدهر وقد يحدث في بعض الاحايين ان الثعبانين الشريرين (راغو) و (كتو) يهاجمان ديفا ويبتلعانه فتظلم الارض اذ ذاك ولكن كهنتنا يصلون لاجل خلاصه فيخلص. ان الجهال الذين على شاكلتك والذين لم يتجاوزوا حدود جزيرتهم يتصورون أن الشمس تشرق في بلادهم فقط . وجاء الدور لربان مركب مصري كان حاضراً فقال :

ـــ لا انك انت أيضاً مخطيء. فان الشمس ليست الها ولا تدور حول الهند فقط وحول جبلها الذهبي . اني ركبت كثيراً من البحار فطفت البحر الاسود وسواحل جزيرة العرب وزرت مدغشقر والفليبين فرأيت الشمس تضيء الارض كلها لا الهند وحدها ، وشاهدتها لا تدور حول جبل بل تطلع من أقصى الشرق وراء جزائر اليابان وتغرب في أقصى الغرب

وراء الجزر البريطانية وهذا هو السبب فى تسمية اليابان لبلادهم (نيفون) أى مطلع الشمس ، اننى اعرف هذا حق المعرفة لاننى رأيت بنفسى كثيراً وسمعت أكثر من جدى الذى وصل برحلاته الى أقصى تخوم البحار . كان المصرى يود ان يستمر فى كلامه لولا ان بحاراً انكليزياً من طائفة سفينتنا قاطعه فقال :

ـــ انه لا توجد بلاد يعرف أهلها الشيء الكثير عن الشمس وحركاتها كانجلترا. ان الشمس ـــ كما يعلم كل واحد فى انجلترا ـــ لا تطلع من مكان ولا تغرب فى مكان بل هى تدور دائماً حول الارض ، ونحن على ثقة من هذا لاننا طفنا العالم فكنا حيثما توجهنا نرى الشمس تبرز للانظار فى النهار وتختفى فى الليل كما هو الحال هنا .

ثم أخذ البحار عصا وشرع يخط على الرمل دوائر محاولاً ان يصور حركات الشمس فى السموات ودورانها حول الارض الا انه كان عاجزاً عن توضيح ذلك فأشار الى دليل السفينة وقال :

-- ان هذا الرجل أكثر مني علما بالامر وهو يستطيع أن يوضحه لكم تماماً.

وكان الدليل متوقد الذهن الا أنه كان صامتاً منذ البداية، مصغياً الى كل ما قيل فلم ينبس ببنت شفة حتى دعي للقول فقال والكل مصغ اليه:

-- انكم جميعاً يخدع بعضكم بعضاً وتغشون أنفسكم. ان الشمس لاتدور حول الارض ولكن الارض هي التي تدور حول الشمس وهي في أثناء دورانها هذا تدور حول نفسها مرة في كل أربع وعشرين ساعة. وفي تلك المدة لاتري الشمس في بلاد اليابان والفليبين وسومطرا فحسب بل ترى أيضاً في افريقيا واوروبا واميركا وكثير من البلاد الاخرى. ان الشمس لاتشرق على بعض الجبال أو على بعض الجزر أو على البحار حتى ولا على أرض واحدة فقط، بل هي تشرق على السيارات الاخرى كما تشرق على ارضنا ولو انكم نظرتم الى السموات فوقكم عوضاً عن أن تنظروا الى الارض التي تحت ارجلكم لاستطعتم أن

تعرفوا ذلك كله ، ولما تماديتم فى الاعتقاد بان الشمس تشرق عليكم فقط أو على بلادكم وحدها . هذا ما قاله ذلك الدليل العاقل الذى ضرب فى انحاء الارض وأكثر من رصد السموات العليا

ولما بلغ الصينى تلميذ كونفوشيوس الى هذا الحد قال : وهكذا مسائل الاعتقاد والايمان . ان الكبرياء والعناد هما سبب الاختلاف بين الناس كما حصل من اختلاف أولئك القوم في فهم حقيقة الشمس. ان كل واحد فى الارض يريد أن يكون له إله خاص به على الاقل ، خاص بوطنه وقومه وكل أمة تريد أن تحصر المعبود الحق فى معابدها وهو الذى لا تسعه السماوات أيستطيع معبد من المعابد أن يضاهى ذلك المعبد العظيم الذى شاده الله ليوحد الناس ويجمعهم على عقيدة واحدة ودين واحد ؟

ان كل المعابد البشرية شيدت على مثال هذا المعبد الذى هو دنيا الله . ان لكل معبد جرن ماء معموديته وسقفه المعقود ومصابيحه وصوره أو دماه ونقوشه وكتب تشريعه ،

وذبائحه ومذابحه ورهبانه ، ولكن فى أى معبد من المعابد
يوجد جرن للمعمودية يشبه البحر المحيط ؟ وسقف معقود
كالسماوات ومصابيح كالشمس والقمر والنجوم ؟وأى رسوم
يماثل الاحياء الطاهرة قلوبهم بالحب الذين يعاون بعضهم بعضاً ؟
وأين البركات الكنسية من تلك العطايا الالهية السهلة الفهم
التي يمنحها الله لسعادة الانسان ؟ وأين يوجد قانون ناصع
جلى يفهمه كل انسان مثل ذلك القانون المنقوش فى قلوب
البشر وضمائرهم ؟ وأى ضحية تساوي انكار الذات الذى
يفعله الرجال المحبون والنساء المحبات كل منهما للآخر ؟وأى
مذبح يساوى قلب الرجل الصالح الذى يقبل الله الضحية عليه؟
ان قربى المرء من الله تكون بقدر سمو اعتقاده به تعالى ،
فكلما سما اعتقاد المرء بالله كلما كان أقرب منه وأدنى لتقليد
كماله جل شأنه والتأسى برحمته ومحبته للانسان ، لهذا يجب
ان يمتنع ذلك الذى يرى نور الشمس بأسره مالئاً ارجاء الكون
عن أن يلوم او يحتقر الرجل الخرافي الذى يرى فى صنمه
شعاعاً من ذلك النور نفسه ، بل وان يمتنع أيضاً عن لوم او

احتقار الملحد الذى هو اعمى لا يبصر شعاع الشمس مطلقاً »
هكذا تكلم الصينى تلميذ كونفوشيوس فشمل السكوت
كل من فى النادى وكان ذلك آخر العهد بينهم وبين المجادلة
فى الاديان والعقائد

-٣-

« كم هو نصيب الانسان من الارض »

نهبط بالقارىء الكريم الى قرية صغيرة من قرى بلاد الروس وندخل به احدى اكواخها حيث يرى سيدتين جالستين على مائدة واحدة تتناولان الشاي وتتسامران، احدى هاتين السيدتين وهي الكبرى حضرية يشتغل زوجها بالتجارة وقد جاءت لتقضى بضعة أيام مع شقيقتها القروية الجالسة امامها : وبينما هما فى مسامرات لطيفه وحديث شهى أدى بهما الكلام الى المقارنة بين معيشة اهل الريف ومعيشة أهل المدن فاندفعت الحضرية تبين لشقيقتها نضارة الحياة في المدن وما فيها من الترف والنعيم فى المأكل والملبس والمسكن ثم عددت لها صنوف الملاهي وضروب الرفاهة التي يتنعمون بها .وتدرجت الى وصف أماكن اللهو ودور التمثيل والحدائق والمتنزهات العامة التي يغشونها رياضة للنفس وترويحاً للخاطر كل ذلك وشقيقتها القروية ساكتة لاتبدى ولا تعيد، لان

تلك كانت قد افحمتها بذلاقة لسانها ، الا انها تمكنت أخيراً من تغيير مجرى الحديث قائلة :

ـ أنا قانعة بمعيشتي هـذه البسيطة ولو خيرت بينها وبين معيشتكم لمـا فضـلت سوى ما نحن فيه من بساطة ملؤها السعادة والهناء ، لامراء في ان دخلكم أوفر من دخلنا الا ان طراز معيشتكم يتطلب نفقات كثيرة قد تربو على الدخل ولا يخفى مافي ذلك من سوء العاقبة . فكم من أسر غنية كانت بالامس ترفل في حلل الرفاهة والنعيم أصبحت اليوم بلا مأوى تسأل الناس قوت يومها فلاتجده . أما نحن القرويين فقل ان يوجد بيننا من يعيش عيشة أهل الثراء ولـكننا لانعدم قوت يومنا على أي حال . فاجابتها الـكبرى وقد امتلأت غيظاً :

ـ كفى ياعزيزتي يحق لك ان تقولي ذلك طالما تجدين لذة بمساكنة العجول والخنازير . ما ابعدكم عن محجة اللطف والـكمال أيها القرويون : بل ما ابعدكم عن معرفة ما فيه صلاح معاشكم ومعادكم انـكم تجهدون انفسكم صغاراً وكباراً

دائبين فى العمل ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، ثم تموتون كما عشتم فقراء لاتورثون اولادكم سوى النصب والشقاء.

فأجابتها الصغرى:

— حقاً ان ما نحن فيه من العيش جاف والعمل عندنا شاق إلا أنه لم تتسرب الى ربوعنا مفاسد المدنية ورذائلها بعد وأخلاقنا على سذاجتها خالية من شوائب الاهواء النفسانية ولذا نعيش ماعشنا فى هدوء وسلام . ولكن أنتم فى مدنكم تعيشون فى جو محاط بالمكر والرياء ، لاتأمن الزوجة فيه على بعلها ولا يطمئن الرجل لزوجته . إذا بتم ليلة على وفاق لاتلبثون أن تصبحوا على شقاق . قد يأتى يوم على زوجك فتستغويه احدى الغانيات — وما أكثرهن فى المدن — فتفقدين اذ ذاك هناءك العائلى ونعيمك المنزلى ، أويوسوس له الشيطان بمعاقرة بنت الحان فيصبح من مدمنيها فيضل سواء السبيل ، أويسوقه الطمع الى موائد القمار وهناك البليه والدمار

ثم غيرت المرأتان مجرى الحديث وخاضتا فى حديث آخر خاص بالازياء وكانتاقد أتمتا تناول الشاى فقامتا تستعدان

للنوم اذ كان النعاس قد أثقل أجفانهما .

أما رب المنزل (باهوم) فكان جالساً على الموقدة يسمع حوار المرأتين طوال تلك المدة ثم ناجى نفسه قائلا : « حقا ان شقيقة زوجتى على حق فى بعض ماتقول ، فانا القرويين نعيش ماعشنا فى تعب ونصب ثم يموت الواحد منا كما عاش دون أن يجنى أقل ثمرة من عمله . آه لو كنت املك قطعة صغيرة من الارض لكنت الآن هنىء البال قرير العين لا اخاف حتى رئيس الابالسة » . فسمع حديث نفسه ابليس وكان على مقربة منه فابتسم ضاحكا وقد عزم أن ينيله بغيته ثم يورده موارد الهلكة من حيث أطمعه . وكان بينهما بعد ذلك من الحوادث ماسوف تقرأ خبره فى الفصول التالية :

* * *

أصبح باهوم والطمع يقيمه ويقعده ولاهم له الا امتلاك أرض يصبح فيها صاحب الكلمة المطلقة يأمر وينهى كما يريد. وكان بالقرب من الارض التى يزرع فيها حبوبه قطعة فسيحة من الارض لسيدة من ذوات الاملاك طيبة القلب لينة العريكة

اعتادت أن تعامل جيرانها باللطف والانسانية ، الا انه عرض لها أمر ذوبال ألهاها عن تعهد الارض بنفسها فوكلت أمر زرعها واستغلالها لوكيل أشغالها الذى كان على جانب عظيم من الخشونة وقساوة الطبع فأخذ يذيق ضعاف القرويين جيرانه مر العذاب ويثقل كاهلهم بالغرامات التى كان يفرضها عليهم من حين لآخر . وقد حرص باهوم كل الحرص على منع أسباب التحكك بجاره الغليظ الطبع ولكن رغم ما كان يبذله من الاحتياط والتحرز كانت بعض ماشيته تتسرب الى المزرعة فيقع بينه وبين الوكيل أخذ ورد ينتهى فى الغالب بغرامة يتحملها المسكين طائعاً صاغرا .

أقبل الشتاء ببرده القارس وابيضت ذوائب الجبال وانكمشت الماشية فى زرائبها فارتاح بال (باهوم) وعاش آمناً فى سربه طول فترة الشتاء ، ثم شاع فى القرية أن السيدة صاحبة المزرعة عزمت على بيع أرضها صفقة واحدة وتلا هذه الاشاعة خبر مؤداه أن صاحب الفندق القائم على الطريق العالية يساومها فى شراء المزرعة فذعر أهل القرية لهذا الخبر

وتوجسوا منه خيفة ، لأن صاحب النزل كان أغلظ طبعاً من وكيل السيدة فجمعوا جموعهم وتشاوروا فى الامر ، فقر رأيهم على تأليف لجنة تقوم بشراء الارض. فتألفت اللجنة وأرسلت من قبلها وفداً الى السيدة المالكة لشرائها ، فقبلت السيدة ولم تمانع ، الا أن الشيطان أوغر صدور بعضهم على بعض فتخاذلوا وفشلوا فى مهمتهم وأخيراً عزموا على شراء المزرعة قطعاً بدل شرائها صفقة واحدة وأن يساوم كل منهم سيدة الارض فى القطعة التى يروم ابتياعها . جرى كل ذلك وباهوم ساكت لايحرك ساكناً ينظر والهاً الى المزرعة وهى تباع قطعة قطعة الى أن كان ذات يوم وقد سمع ان أحد جيرانه ابتاع من السيدة قطعة من المزرعة تبلغ الخمسين فدانا وقد دفع نصف ثمنها نقداً وتعهد بدفع الباقى اقساطاً لمدة سنة ، فناجى نفسه يقول : « الى متى أظل ساكناً والارض تباع » ثم حدث امرأته بآماله وقد خاطبها قائلا :

— الا ترين كيف ان أهل القرية يتهافتون على شراء المزرعة ونحن هنا لانحرك ساكناً ؟ كلا ان هذا لا يطاق

يجب أن نسعى فى شراء قطعة من الارض ولو عشرين فداناً على الاقل سيما وأن الحياة أصبحت عبئاً ثقيلا بمضايقة هذا الفظ وكيل السيدة .

ثم فكرا كثيراً فى الامر وتصفحا كل وجوه الرأى وأخيراً قر رأيهما على الشراء ولم يكن عند باهوم سوى بضع عشرات من الروبلات فباع مهرة كانت عنده وباع كذلك نصف مالديه من خلايا النحل وبعض اثاث المنزل وأجر اثنين من أولاده فى احدى المزارع لمدة عام ، وأخذ أجرتهما مقدماً ثم اقترض الباقى من أحد انسبائه فتوفر لديه جملة من المال يمكنه بها شراء قطعة صالحة من الارض . فذهب الى السيدة وساومها فى قطعة من الارض تبلغ الاربعين فداناً وفيها أجمة صغيرة . واتفق معها على دفع نصف الثمن فوراً وتعهد بدفع الباقى اقساطاً على سنتين وحرر على نفسه وثيقة بالمبلغ .

***

تمت المبايعة وسجلت بمحكمة البلدة ووضع باهوم يده على الارض ثم مضى العام وكان المحصول جيداً فوفى ما عليه

من الديون وبذا أصبح يملك قطعة من الارض يجول النظر فيها على بقاع فسيحة شتى الالوان كثيرة النماء ؟ وكان كلما مر بأرضه الجديدة رقص قلبه طربا ونظر اليها بغير العين التى كان ينظر اليها من قبل ، فعاش ردحاً من الزمن لا يعكر صفو حياته الا تسرب مواشى الجيران الى الحقل من حين لآخر. فلولا هذا المعكر لكان هناؤه أتم الا انه احتمل ذلك فى مبدأ الامر واكتفى بتحذير أصحاب المواشى ، غير أن ذلك التحذير لم يجد نفعاً ، فعمد الى التقاضى وأدى به الامر الى مشاكل عديدة أحفظت عليه صدور أهل القرية ، فأخذوا يعادونه سراً وجهراً أو يطلقون مواشيهم، ترتع فى مراعيه عمداً بعد أن كانت تتسرب من نفسها على غير قصد. ثم هو امر اراً باحراق مزرعته وايصال الاذى اليه بطرق مختلفة مما أدى الى شدة البغضاء واتساع خرق العداء وبذا فقد هناءه القديم وأصبح مشغول البال لا يغمض له جفن ولا يهنأ له عيش

وشاع فى ذلك الوقت أن هناك اراضيا زراعية جديدة عرضتها الحكومة للاستثمار وأن الناس من جميع القرى

يهاجرون الى تلك الاراضى . ففكر باهوم فى نفسه وقال : « فليهاجر من أراد من أهل القرية أما أنا فلا أبرح مكانى وسوف انتهز هذه الفرصة لتوسيع ممتلكاتى فاشترى بعض الاراضى التى يتركها أصحابها »

وبينما كان باهوم يمنى النفس بهذه الآمال اذ نزل بضيافته قروى كان ماراً بعزبته فاكرم باهوم مثواه فسأله أين كان فاخبره القروى انه كان يشتغل فى جهات (الفولجا) حيث الاراضى التى كانت تستعمر حديثاً هناك وافضى به الحديث الى وصفها والاطناب فى خصوبتها وجودتها زاعماً أن الشيلم الذى يزرع فى تلك الاراضى ينمو حتى يصير طوله أعلى من قامة الفرس ثم أتم حديثه قائلا : إن أولياء الامور هناك يتبرعون بخمس وعشرين فداناً لكل من اراد استثمار تلك الاراضي الخصبة وان رجلا من أهل قرية باهوم حضر تلك الجهات صفر اليدين خالى الوفاض فاصبح الآن يملك ستة خيول ورأسين من البقر .

فقال باهوم فى نفسه ما الذى يمنعنى من هجر هذه البقعة

الضيقة الى تلك البقاع الفسيحة حيث الربح الوافر والثراء العاجل وانى لأكونن من الحمقى اذا لم انتهز هذه الفرصة السانحة ولكن على أن اتحقق الامر بنفسى أولا »

كان الوقت شتاء فقعد ينتظر أوائل الصيف حتى اذا حل الربيع كان قد أتم معدات السفر فركب زورقا بخارياً أقله حتى سمارا ومن ثم قطع ثلثمائة ميل على اقدامه حتى وصل المكان المقصود فوجد الارض كما وصفها القروى وعلم أن الفلاح المستثمر يعطى قطعة لاتقل مساحتها عن خمسة وعشرين فداناً وان هناك أراضيا أخرى معروضة للبيع قيمة الفدان منها لا تزيد عن ثلاث روابل ففرح باهوم بهذا الاستكشاف وقفل راجعاً الى قريته بعد أن تحقق صدق الخبر وما وصل اليها حتى شرع فى بيع ممتلكاته وتهيئة ما يلزم للمهاجرة هو وافراد العائلة .

وفى أوائل فصل الربيع سافر الى مقره الجديد وحط الرحال فى قرية كبيرة من قرى تلك الاراضي وكان حظه منها هو وأولاده خمسة انصبة بلغ مجموعها ١٢٥ فداناً فى جهات

متفرقة من القرية التي استوطنها أى اضعاف ما كان يملكه في قريته الاولى فاصبح لديه حقل واسع ومرعى فسيح ترتع فيه كثير من الماشية . ثم مضت أيام اشتغل أثناءها باهوم بتخطيط المزرعة وبناء العزبة وشراء الدواب اللازمة للعمل ولذا كان في مبدأ هجرته قانعاً بحياته الجديدة فرحا بما رزقه الله الا انه ما كاد يتم ماشرع فيه حتى تسلط عليه الطمع ثانياً فصار ينظر الى أرضه الجديدة بعين الاستصغار .

زرع في عامه الاول قمحاً فكان المحصول جيداً فطمع في الزيادة غير أن الارض لم تسعفه بطلبته لانها كانت تتفاوت في الخصوبة فلا تصلح جميعها لزراعة القمح فعول على ايجار اراض أخرى تصلح لذلك ففعل الا ان ذلك لم يرق في عينه أيضاً فكان يشكو من بعد الارض وصعوبة النقل ففكر في نفسه قائلا :

لو كنت اشترى قطعة مستقلة خارجة عن نطاق المشروع فأبني عليها ضيعة صغيرة لكان لى من وراء ذلك فوائد جمة » وكانت هذه الفكرة ماثلة بذهنه يفكر بها من حين لآخر .

ثم سار على هذه الوتيرة وهو يستأجر أرضاً ويزرعها فحامدة ثلاثة أعوام وكان الدهر مواتياً له فربح ارباحا وفيرة لجودة المحصول الا أن ذلك كله ما كان ليقلل من طمعه بل كان يزداد تذمراً كلما فكر فى المال الذى يصرفه للمؤاجر . واتفق ان أجر فى العام الثالث قطعة من الارض من بعض القرويين هو وأحد التجار ثم وقع بينهما وبين أصحاب الارض منازعات أدت الى التقاضى واسفرت عن خسارتهما فتذمر باهوم وقال فى نفسه «كل ذلك ما كان ليقع لو أن الارض كانت لى خاصة»

ومن ذلك الحين أخذ يبحث عن قطعة أرض للشراء فأوقعته المقادير فى قطعة صالحة أراد صاحبها أن يبيعها عاجلا تخلصاً من عسر أحاق به وكانت الارض تبلغ مساحتها ١٣٠٠ فدانا فصلها باهوم بمبلغ ١٥٠٠ روبل يدفع نصف ثمنها فوراً ويكتب على نفسه وثيقة بالباقى . وقبل أن يتم البيع بأيام مر عليه بعض التجار وطلب منه علفاً لفرسه فاحتفى باهوم به ودعاه الى تناول الشاى معاً وجلسا يتحدثان ، فسأله باهوم من أين هو آت فاخبره انه آت من أرض بعيدة تابعة لقبائل البشكير

حيث اشترى لنفسه هنـاك ثلاثة عشر ألف فدانًا من
الارض بمبلغ لا يزيد عن ألف روبل فدهش باهوم واستزاده
الخبر فقال الرجل « وما على المرء الا أن يتودد الى الرؤساء
بهدايا فيمنحونه كل ما يطلب . وقـد اشتريت لهم ملبوساً
وسجادة وعلبة من الشاي وبعض النبيذ وهدايا أخرى كلفني
مجموعها نحو مائة روبل وبهذه الوسيلة أكرمني الرئيس بأن
تنازل عن ثمانية كوبكات فى ثمن الفدان الواحد » قال ذلك
وأخرج صك المبايعة يريه لباهوم وهو يقول : « ان موقع
الارض قريب من النهر ومما يزيدها أهمية انها بكر لم تستغل
بعد فافتتن باهوم بأقوال الرجل ولم يتمالك عن استزادته
الحديث والالحاف عليه بالسؤال فأجابه الرجل « إن هؤلاء
القوم يملكون من الارض مالا يقع تحت حصر ولا عدوهم
على جانب عظيم من السذاجة وبلادة الطبع ليس للارض عندهم
أدنى قيمة » فأطبق خاتم الحرص على قلب باهوم وناجى نفسه
قائلا ؟ أنا الآن املك ألف روبل فأى شيء يجبرنى على شراء
قطعة من الارض مساحتها ١٣٠٠ فدانا بينما يمكنني شراء عشرة

أضعاف هذا المقدار بنفس المبلغ دون أن اثقل كاهلي بالدين »

***

لم يتردد باهوم في الامر لحظة واحدة بل ما كاد الرجل يفارق الضيعة حتى كان هو وخادمه على الطريق الموصلة الى قبائل البشكير ليتحقق الامر بنفسه وبعد مسيرة بضع ساعات حط رحاله في احدى القرى ليشتري صندوقاً من الشاي وبعض النبيذ وهدايا أخرى كما أوصاه الرجل ، ثم واصل سيره حتى انتهى الى مكان القبيلة بعد ان قطع مسافة لا تقل عن ثلثمائة ميل . فوجد الامر كما وصفه الرجل ورأي أن القوم يسكنون الخيام بالقرب من مراع فسيحة يخترقها نهر عظيم وجل معيشتهم على اللحوم ومستخرجات الالبان ولا يعنون بزراعة الارض وغرسها مطلقاً ، والنساء هن اللواتى يقمن بكل الاعمال . أما الرجال فلاهم لهم الا الأكل وشرب الشاي والضرب على القيثارة وكلهم أقوياء البنية صحاح الاجسام يقضون فصل الصيف باللهو واللعب ولا يباشرون فيه أي عمل من الاعمال وهم على درجة عظيمة من السذاجة

وبلادة الطبع ولا يعلمون من الروسية حرفاً واحداً وانما يتكلمون بلغة خاصة بهم ، ومن عاداتهم الجميلة، اكرام وفادة الغريب ، اذ ما كاد يقع نظرهم علي باهوم حتى خرجوا من خيامهم والتفوا حوله صغاراً وكباراً يتأملون وجهه وكان بينهم رجل يتكلم بالروسية فتوسط بينه وبين قومه وسأله عن قصده فأخبره باهوم إنه جاء ليصيب عندهم بعض الارض ففرحوا بذلك وأخذوا بيده الى احدى الخيام الكبيرة حيث أجلسوه على وسادة وثيرة وقدموا له أعز مالديهم من المأ كل والمشرب وبعد الانتهاء من الطعام قام باهوم إلى عربته وأخرج ما كان لديه من الهدايا ووزعها عليهم بالتساوى فارتسمت على وجوههم أمارات البشر والسرور ، واخذوا يتكلمون فيما بينهم مدة طويلة وأخيراً أشركوا الترجمان في الحديث فالتفت هذا الى باهوم وقال له : « قد سر القوم من هديتك أيما سرورهم ويشكرونك كثيراً على هذا الصنيع ومن عادتهم اكرام الضيف بكل مافى وسعهم فاطلب ما تريده منهم لقاء هديتك فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اسعافك بمرغوبك »

فأجابه باهوم : « جل رغبتي هو أن أصيب عندكم قطعة من الارض لزرعها واستثمارها لان الارض عندكم خصبة للغاية » فأخبرهم الترجمان بما يقول فعادوا الى حديثهم ثانياً وكان باهوم يجهل لغة القوم وانما رآهم يبتسمون ويضحكون ثم التفت اليه الترجمان قائلا : يقولون انهم سوف يعطونك بكل سرور قدر ما تطلب من الارض فما عليك الا أن تشير بيدك الى قطعة الارض التي تريدها لنفسك فتكون لك » وما كاد الرجل يتم حديثه حتى قامت ضجة بين القوم فسأل باهوم عن جلية الامر فأخبره الوسيط أن القوم قد انقسموا الى فريقين فريق منهم يريد ألا يبت في الامر حتى يحضر الرئيس وآخرون يخالفونهم في الرأى

***

وبينما هم في جلبتهم وضوضائهم اذ برجل ضخم الجثة عريض الاكتاف يلبس قبعة كبيرة من فرو الذئاب قد دخل من باب الخيمة فوجم القوم وسكتوا كأنما على رؤسهم الطير وقد قاموا اجلالا لشأن القادم واكباراً لامره فاخبره الترجمان

أن القادم هو رئيس القوم وقام باهوم مسرعاً وأحضر له نصيبه من الهدية وهى خمسة أرطال من الشاى وبعض الثياب النفيسة فتقبلها الرئيس شاكراً وجلس فى صدر المكان والتف القوم حوله يحدثونه بشأن باهوم فاشار اليهم بالسكوت ثم التفت اليه يخاطبه بالروسية : « اخبرنى القوم بشأنك وما كنت لأرد لك طلباً فاختر القطعة التى ترضاها لنفسك فان لدينا كثيراً من الارض كما ترى » فقال باهوم فى نفسه « كيف أقبل منه ذلك بمجرد القول بلاقيد ولاشرط الايجوز انهم يندمون فى المستقبل فيرجعون ماوهبوه لى من الارض !! » ثم خاطب الرئيس قائلا : « اقدم لكم جزيل الشكر على هذا الاكرام ولكن ألا يجدر بنا أن نستوثق الامر بحجة أو سند فان الاعمار بيد الله والمرء لايأمل ان يخلد طول الدهر الا يجوز أن يأتى بعدكم خلف لايرضى بعملكم فينازعنا فى الارض » فاجابه الرئيس : « إنك محق فيما تقول وسوف يكون الامر كما تريد » فقال باهوم « بلغنى ان أحد التجار اشترى منكم من عهد قريب قطعة من الارض وأخذ عليكم

عقداً بالبيع وأنا احب أن تعاملونى بمثل معاملته »

فاجابه الرئيس حباً وكرامة عند مايتم الاتفاق نكتب عقداً بذلك ثم نسجله فى محكمة البلدة

فسأله باهوم . « وكم يكون الثمن » : فأجابه الرئيس بقوله : « ان الثمن عندنا محدد لا يتغير فاننا نأخذ الف روبل عن اليوم (الكامل) فلم يفهم باهوم ماذا أراد بقوله اليوم الكامل فسأله مستفهماً . « ماذا تعنى باليوم الكامل وكم فدانا يكون » فأجاب الرئيس: « نحن لانستعمل المقاييس فى مسح الارض وانما نقدرها بالسير فيها يوماً كاملا وثمن الارض التى يقطعها المرء مشياً على أقدامه يوما كاملا هو الف روبل »

ففرح باهوم وصاح قائلا : ولكننى اقطع فى اليوم ارضاً كبيرة للغاية » فأجاب الرئيس « كل ماتسيرعلى قدر جهدك يكون ملكا لك على شرط الرجوع قبل غروب الشمس فاذا غربت الشمس ولم ترجع تخسر جميع ما تدفعه من المال »

فقال باهوم : « ولكن كيف السبيل الى معرفة الارض التى اقطعها ؟ » فأجابه قائلا :

— ان ذلك سهل ميسور عليك أن تختار لنفسك بقعة من الارض تسير منها . وعند كل ثنية من الارض تحفر حفرة صغيرة تجعل بجانبها كومة من التراب بفأس صغير يكون معك لهذا الغرض وعند الانتهاء نصل نحن تلك العلامات بحرائة دائر الارض التى تقطعها فى اليوم ولك مطلق الحرية فى أن تسير فى الأرض كما تريد على شرط الرجوع قبل غروب الشمس

فارتاح لذلك باهوم وتقرر أن يبدأ في السير صباح ذلك اليوم ثم أكلوا يومهم فى الحديث والمنادمة حتى اذا اقبل الليل فرشوا له فراشاً وثيرا وتركوه في الخيمة لينام فيها ليلته بعد أن وعده الرئيس بأن يوافيه صباحاً قبل بزوغ الشمس

***

رقد باهوم طول ليلته وهو يبنى لنفسه القصور والعلالى متقلباً على فراش الأمانى والأحلام دون أن يغمض له جفن أو يكتحل بنوم وقبيل الفجر آخذ التعب منه مأخذه وقد تغلب عليه النعاس فأخذته سنة من النوم ثم رأى فيما يراه

النائم أن الرئيس اقبل عليه ينتظره على باب الخيمة فخرج اليه يسأله عن جلية الأمر فوجد أن القادم ليس الرئيس وانما هو الرجل التاجر الذي أرشده الى أراضي البشكير فتقدم منه وقد هم أن يسأله متى حضر واذا به يرى في وجهه صورة الرجل القروى الذى أقبل اليه في قريته الأولى من جهة الفوجافهم أن يصافحه ويترحب به واذا به يرى فى وجهه صورة ابليس اللعين فى شكل بشع ومنظر مريع فأشاح بوجهه الى جهة أخرى فرأى جثة انسان ملقاة على مقربة منه فاقترب من الجثة ليتأمل وجه صاحبها ولكنه ما كاد يقترب منها بضع خطوات حتى ارتد مذعوراً لأنه رأى فيها صورة نفسه . ثم قام من نومه وهو على هذه الحالة ممتقع اللون ترتعد فرائصه فرقاً ونظر الى باب الخيمة فلم ير غير حمرة الشفق فعلم أن ستر الليل أوشك أن يتمزق فلا يمضى القليل حتى يسفر الصباح عن وجهه فهب من فراشه وهو يقول : « ما أكثر ما يرى الانسان فى نومه لاشك انما رأيته هو اضغاث أحلام وها قد قرب الصبح والقوم نيام بعد» ثم ذهب مسرعا نحو خادمه

الذى كان نائماً فى العربة فأيقظه وأمره بالاستعداد ثم اسرع نحو القوم يوقظهم فصحا القوم واجتمعوا فى خيمته ولم يلبث ان وافاهم الرئيس وكانت الشمس قد قاربت البزوغ فأمر باحضار طعام الافطار وعرض على باهوم تناول بعض الشاى فأبى قائلا : « لم يبق متسع من الوقت فلنبدأ بالعمل ان كنا فاعلين »

* **

عند ذلك وقف القوم استعداداً للمسير ثم ركب بعضهم العربات وامتطى آخرون متون الجياد وركب باهوم عربته وسار فى طليعة القوم مع الرئيس وبعد أن ساروا قليلا وصلوا الى تل صغير يشرف على سهل فسيح الارجاء وكانت الشمس قد بدأت فى البزوغ فوقف القوم وتقدم الرئيس قائلا وقد أشار بيده الى السهل : « انظر كل هذا السهل الفسيح ملك لنا ولك أن تسير فيه أنى تشاء » وبعد ان قال ذلك خلع قبعته ووضعها على الارض قائلا . « فلتكن هذه القبعة علامة لمبدأ سيرك فابتدئ فى السير من هنا ثم ارجع اليها ثانية بعد أن تتم دورتك وكل الارض التى تمشى بها تكون ملكا لك »

ولم يتمالك باهوم من اظهار الفرح والسرور عندما رأى ذلك السهل الفسيح وتيقن انه خصب يصلح لزراعة كل انواع الحبوب ثم اسرع من وقته فوضع ماللديه من النقود وهو الالف روبل فى قبعة الرئيس ثم طرح رداءه الخارجى وشمر عن اكمام قميصه ليكون خفيف الحمل فى السير وتمنطق بسير من الجلد شده على وسطه وحمل على ظهره حقيبة صغيرة فيها بعض الزاد وما يلزم لشربه ذلك اليوم ثم امسك بالفأس والتفت يمنة ويسرة ليختار له وجهة للسير وبعد ان وقف برهة ناجى نفسه قائلا : كل الارض سواء ولكن يحسن بى أن أسير نحو الشرق » قال ذلك وحمل فأسه على ظهره وسار يتبع مشرق الشمس

***

وبعد أن قطع نحو ألف ياردة وقف قليلا فحفر الارض، ثم جعل بجانبها كومة من التراب علامة لوصوله تلك البقعة وكان يمشى مشيته الاعتيادية لا يمهل ولا يعدو فقطع بذلك ألف ياردة أخرى وجعل علامة أخرى ، ثم مشى قليلا ونظر

الى التل حيث كان القوم فلم يتبينهم جيدا لانه كان قد ابتعد عنهم كثيراً بمسافة لاتقل عن الثلاثة أميال كما قدرها باهوم في نفسه وكان الوقت ضحى فابتدأ يشعر بحرارة الشمس فقال في نفسه « قد قطعت ربع مايجب أن أقطعه في اليوم وعلى أن أتم المربع في باقي اليوم ولكن لايزال امامي متسع من الوقت » قال ذلك وخلع نعليه وربطهما في وسطه ليرتاح في المشي ثم سار في وجهته الاولى وكان كلما سار وجد الارض أخصب والتربه أجود . فقال في نفسه . « إنه من الحمق ترك هذه البقعة الخصبة ماعلى لو سرت ثلاثة أميال أخرى » فسار فيها وقد جدد الحرص في نفسه همته الاولى حتى أخذ التعب منه مأخذه فنظر واذا بالشمس في كبد السماء فعلم أن النهار قد انتصف فوقف ريثما جعل علامة لوصوله تلك البقعة ثم جلس للغداء فأكل بعض الزاد وشرب قليلا من الماء وانتصب واقفاً وهو يقول . « يجب أن أسير لان الراحة تجلب النعاس واذا نمت قليلا لا آمن من الخسارة » فسار من وقته وقد اراد أن يعطف الى وجهة أخرى اتماما للمربع غير أنه أبصر على

مقربة منه أرضاً منخفضة فقال فى نفسه . « هذه الارض تصلح لزراعه الكتان وما كنت لاترك هذه الفرصة » قال ذلك ومشى حولها حتى اذا ما أتم مسيره وقف عند نهايتها وجعل علامه لوصوله تلك البقعة ايضاً . ثم نظر الى التل فرأى ان حجمه قد صغر جداً فعلم انه قطع كثيراً وانه ان لم يسرع فى الرجوع خسر كل آماله . فأسرع لوقته وهو يقول . « ان الارض التى قطعتها لانسبة بين طولها وعرضها اذ ان الطول سوف يربو كثيراً على العرض ولكن رغم ذلك فقد اصبحت املك قطعة فسيحة من الارض » ثم وقف برهة يحفر الارض بسرعة زائدة لتكون علامة وصوله تلك الجهة وبعد أن اتم عمله انعطف نحو التل يريد الرجوع مسرعاً الا ان كثرة المشى وشدة الحر انهكتا قواه فصار يمشي بصعوبة ويتهادى فى مشيته كالشيخ الضعيف بعد ان كان يهرول . اما قدماه فقد تشققتا وسالت الدماء منها لكثرة ما اصطدم اثناء مشية بالحجارة والحصي وهو لا يعي وتخاذل ساقاه وضعفتا عن حملة اذ كان فى حاجة شديدة الى بعض الراحة ولكن انى

له ذلك والشمس آخذة في الغروب شيئا فشيئا وكان ماعليه
من الحمل يضايقه كثيرا فرمى حقيبته اولا ثم نعليه وخلع
بعد ذلك صدرته وهكذا صار يرمى ماعليه من الملابس حتى
لم يبق عليه سوى القميص والسروال وامسك بيدة الفأس
ليتوكأ عليه وسار يعدو بكل قواه واستمر مدة على هذه
الوتيرة ثم نظر الى الشمس فعلم انها لاتلبث ان تغرب ففزع
لذلك كل الفزع وقال فى نفسه . « رباه ماذا العمل يخيل لى
ان الطمع سيفسد على كل امالى » غير انه مالبث ان تشجع
قائلا . « عار على ان ارجع عن عزمى فاتقاعد عن السير بعد
ان قطعت هذه الشقه الطويلة » فجمع نفسه وسار يمشى بكل
قوته حتى قارب التل فسمع صياح القوم من بعد فتشجع
ثانية واخذ يعدو بكل مافيه من قوة وعزم وكانت الشمس
قد قاربت الغروب فلا يمضى بضع دقائق حتى تختفى عن
الانظار الى ماوراء الشفق الاحمر ، الا ان باهوم كان فى
ذلك الوقت على مسيرة بضع خطوات من سفح التل يسمع
صياح القوم ويميز اصواتهم ويرى قبعة الرئيس عندذلك تذكر

ماراه فى الحلم فقال فى نفسه : « حقاً إن الارض التى قطعتها فسيحة الارجاء بعيدة المدى ولكن هل كتب لى فى لوح المقدور أن أعيش عليها » ثم عاد فتذكر أنه على قيد خطوات من مبدأ مسيره وأنه ماعليه الا أن يجمع عزيمته ثانية فيصل اليها ويملك الارض . فجددت هذه الامانى في نفسه ميت الامل فسار طوراً يتهادى كالشيخ الضعيف وتارة يحبو كالطفل الرضيع حتى وصل سفح التل عند ذلك نظر واذا بالشمس قد غربت وأصبح السهل فى ظلام حالك فتقطعت نياط قلبه وصاح يقول : « أواه قد ذهبت اتعابى أدراج الرياح » الا أن القوم لم ينقطعوا عن صياحهم وندائهم فتذكر ان مكانهم أعلى من مكانه لانه مازال فى سفح التل وأن الشمس لاتزال ظاهرة لديهم فتنفس الصعداء وجمع كل مالديه من قوة وعزم وأخذ يصعد التل فوصل القمة وكانت الشمس لاتزال ظاهرة لديهم ثم عاد فتذكر ماراه فى الحلم فصرخ صرخة مزعجة وارتمى على الارض بالقرب من قبعة الرئيس وقد وضع يده عليها . فقال الرئيس : « انه سعيد الحظ فقد أصاب قطعة كبيرة من

الارض » ثم أسرع خادم باهوم ليرفعه عن الارض ولكنه ما كاد يرفعه قليلا حتى سال الدم من فمه وارتمى على الارض جثة هامدة . فوجم القوم وأطرقوا برؤسهم الى الارض وقد ارتسمت على وجوههم أمارات الكآبة والحزن

وقام خادم باهوم فحفر لسيده قبراً يبلغ طوله ستة أقدام وكان ذلك كل نصيبه من الارض

ابن العراب

بسم الدهر ذات صباح لقروى فقير فرزق طفلا فرح به فرحا شديداً وعلق عليه آمالا كبيرة وأسرع لوقته نحو جاره العزيز مستبشرا فأخبره بالامر وطلب منه ان يكون عرابا للطفل . ولكن جاره العزيز أنف من ذلك ورده خائباً فانصرف المسكين يتعثر بأذيال الخيبة والفشل وقصد جاره الثانى فالثالث ثم الرابع وهكذا حتى طرق ابواب القرية على غير جدوى لا لذنب اتاه أو لجرم اقترفه سوى انه فقير معدم

اظلمت الدنيا فى وجهه أثر هذه الصدمة الشديدة فسخط على الدهر وتبرم من جده العاثر ثم خرج من قريته مولياً وجهه شطر القرية المجاورة بغية أن يجد فيها من لا يأنف من أن يكون عرابا لمولود فقير فسار المسكين (فى طريقه) تتناوبه الاحزان وتتقاسمه الهموم والاشجان لا يلوى فى طريقه على شىء

وما كاد يبلغ نصف الطريق حتى استوقفه رجل طارحه

السلام وسأله عن وجهة مسيره . فأخبره بما وقع له ذلك اليوم ثم ختم حديثه قائلا ! وانى الآن ذاهب الي القرية المجاورة عسانى اجد رجلالا يأنف من ان يكون عرابا لطفلى فابتسم الرجل المجهول ، وقال انا أكفيك مؤونة البحث والتعب دعنى أكون عرابا لولدك. ماسمع القروى المسكين هذه الكلمات التى نزلت على قلبه بردا وسلاما حتى تهلل وجهه بالبشر وتمم بعض كلمات يشكر بها معروف الرجل ولكن عاد فعبس ثانية كمن تذكر امرا فاته فقال وصوتا يتهدج حزنا

آه يامولاى لم تنفرج الازمة بعد . قل لى بربك . أين أجد امرأة طيبه القلب نظيرك تقبل ان تكون عرابته

لاتحزن ياصاح فأنا أرشدك الى امراة صالحة تقبل ذلك عن طيب خاطر . اذهب الى المدينـة وهناك فى الساحة العمومية تجد منزلا مبنيا بالآجر فى مدخله حانوت فاسأل عن صاحب هذا الحانوت وعندما تقابله اخبره بالامر واطلب منه ان تكون ابنته عرابة لولدك فأنه لايردك خائبا

فهز القروي كتفيه بيأس كمن يرتاب في أمر لا يرجوه ثم خاطب الرجل قائلا :

أمثلي يطلب من تاجر غني أن تكون ابنته عرابة لابني لاريب في أنه سوف يهز أبشأني و يزدريني اذا تجاسرت على مثل هذا الطلب

فأجابه الرجل بملء السكينة

لا تدع اليأس يتطرق الى فؤادك بل كن واثقاً بأنه سيجيب طلبك فأسرع ياعزيزي قبل فوات الوقت وغداً صباحا تجدني حاضرا في حفلة التنصير فقفل القروي راجعاً الى قريته وامتطى فرسه وقصد المدينة يبحث عن حانوت التاجر وعند ما اهتدى اليه وترجل عن فرسه قابله التاجر بوجه باش وسأله عن حاجته فاجابه والخجل يكاد يعقد لسانه

اعلم ياسيدي انه ولد لي في هذا الصباح طفل وقد جئت ارجوك ان تتفضل بأن تكون ابنتك عرابته . فسأله التاجر

ومتى تكون حفلة التنصير

غداً صباحا

حسن سوف تكون ابنتى عندك غداً فاذهب مطمئن البال .

وفى اليوم الثانى حضر الرجل المجهول وحضرت ابنة التاجر وبعد أن آتم الكاهن تنصير الغلام انصرف الرجل المجهول ولم يعلم عنه شيئاً بعد ذلك اليوم

***

مضت أيام وشهور كبر أثناءها الطفل وترعرع فأدخله والداه مدرسة القرية فتعلم فيها كل مايمكن أن يتعلم وخرج منها شاباً متين العضل قوى البنية تلوح على وجهه أمارات الجد والاقدام

جاء عيد الفصح فأشرقت منازل القرية وأكواخها بالأنوار وخرج القرويون زرافات ووحداناً وعلى وجوههم سيماء البشر وأمارات السرور . أما طفل الأمس وفتى اليوم فكان يسير وحيداً منفرداً مبتعداً عن الضجيج يفكر فى عرابه المحبوب ذلك الرجل الطيب القلب الذى رضى بكل ارتياح أن يكون عراباً له فى الوقت الذى أنف أهل قريته من هذا

الامر . ثم ناجى نفسه قائلا:

آه لو استطعت مقابلة ذلك الرجل الطيب إذن لكنت أوقف كل حياتى على خدمته واحترامه . ما كاد يصل من حديث نفسه الى هذا الحد حتى التفت الى يمينه وأذا به يرى شيخا يدب على عصاه تلوح عليه الهيبة والوقار وكان يدنو منه باسماء وهو يقول:

— تقدم يابنى ولا توجل أما كنت منذ هنيهة تحدث نفسك مستفهما عن مقر ذلك الرجل الذى رضى أن يكون عرابا لك فى طفولتك فهذه المقادير جمعتك به لتقدم له تحية عيد الفصح .

عند ذلك ارتبك الشاب لهذه المباغتة ولكنه سرعان ماتمالك نفسه وتقدم الى الرجل باسما وشكره على معروفه السابق وقدم له تحية العيد بأن قبله ثلاثا كما هى العادة ثم خاطبه قائلا :

— كم أكون مسروراً ياسيدى اذاشرفتنى بمعرفة اسمك ومكان اقامتك لاقوم نحوك بما يجب للابن نحو عرابه

— لا سبيل الى معرفة اسمى اذ لا يهمك ذلك وأما اذا رغبت أن تعلم مكان اقامتى فما عليك ألا أن تذهب غدا الى هذه الغابة المجاورة وتمشى فيها حتى ينتهى بك المسير الى ساحة صغيرة محاطة بالاشجار الباسقة فتقف فى ذلك المكان قليلا تتامل ماحولك فترى طريقا ينتهى بك الى قصر شاهق تحيط به حديقة غناء هذا هو منزلى وفى فناء هــذا القصر تجدنى فى انتظارك . وما وصل الرجل من حديثه الى هذا الحد حتى رفع الشاب رأسه ليتامل وجه عرابه جيدا واذا به لايرى أمامه سوى الحقول الخضراء وعلى بعد منه يسمع ضجيج أهل القرية فى سرورهم وابتهاجهم بالعيد . فقفل راجعاً وهو كمن فى حلم لا يصدق ماراه وأزمع المسير الى الغابة صباح ذلك اليوم ليتاكد صحة ماسمعه وراه

***

ما كادت الشمس تشرق حتى كان الشاب فى طريقه الى الغابة يعدو فى مشيته ونفسه تنزع الى معرفة سر الرجل حتى اذا انتهى به المسير الى الساحة التي وصفها له عرابه وقف

يتامل برهة فرأى طريقا غاية فى الابداع تحف به الاشجار على كلا الجانبين وينتهى بقصر شاهق محاط ببستان جميل يتلألأ فى تلك البقعة النضرة تلألؤ الكوكب المنير

عند فناء هذا القصر البديع قابله غرابه بوجه باسم ومشى نه الى الحديقة أولا ثم القصر ثانياً متنقلا به من جهة لاخرى يريه مقاصير القصر ويطلعه على محتوياته وكان كلما مشى خطوة زاد تعجبه من محتويات القصر وفرشه الثمين الى أن انتهى بهما المسير الى غرفة مقفلة فوقف الغراب امامها واشار اليها قائلا : « قد انتهينا الآن من طوافنا وقد اطلعتك على كل مافى القصر ولك ان تمرح فيه كيف تشاء وانى شئت ولكن حذار أن تدخل هذه الحجرة »

وما كاد الغراب يفرغ من كلامه هذا حتى اختفى عن الانظار ولم يظهر له اثر بعد ذلك. فقضى الشاب ردحا من الزمن وقد طابت له السكنى فى القصر فعاش هنىء البال قرير العين مدة تقرب من الثلاثين عاما مرت عليه كحول واحد لاغتباطه وسروره

مرت عليه تلك المدة الطويلة وهو في مقام كريم وعيشة راضية ثم تسرب اليه الملل شيئاً فشيئاً فصار يطوف القصر طول يومه يبحث عن شيء جديد يسلي به النفس واذا به واقف ذات يوم امام الغرفة المقفلة ثم تذكر وصية عرابه فتنازعه عاملان عامل الفضول وعامل احترام الوصية . وأخيرا تغلب عليه الفضول ففتح الباب ثم ولج الغرفة وتقدم فيها بضع خطوات فرأى نفسه في بهو فسيح يتوسطه عرش كبير يصعد اليه المرء ببضع سلمات فتقــدم نحوه ورقيه ثم جلس يتأمل ما حوله فوقع بصره على صولجان بديع الصنع بالقرب منه فمد اليه يده ليمسكه وما كاد الصولجان يستقر بين أصابعه حتى سمع ضجة وجلبة وأذا بأركان الغرفه تهتز ثم ارتفع جدران البهو فنظر واذا به يرى العالم أجمع منبسط أمامه وهو ينظر اليه من عل نظر أمامه فرآى البحار والمحيطات تمخر فيها المراكب وتشق عبابها السفن ثم التفت عنه فأبصر عوامل غريبة وأجناساً مختلفة من البشر يخالفونه في الشكل واللباس ثم ادار وجهه الى جهة اخرى فرأى اناساً يقاربونه في شكلهم

ولباسهم يتكلمون بلغة يفهمها فعلم أنهم روسيون مثله فتهلل وجهه وحدثته نفسه أن يبحث عن أهله وقريته بين مئات القرى وما كاد يهتدى اليها حتى خطر بباله أن يتفقد حقل والده فصوب نظره نحو الحقل فرأى أكداس الحصيد منتشرة فى طول الحقل وعرضه على اهبة النقل ثم ابصر رجلا يتسلل الى الحقل بعربته.فظن أن والده جاءليلاليحمل الغلال الى مخازنه ولكنه لم يكد يتبينه حتى علم أنه (واسيلي كوندارتشوف) جاء متستراً بأثواب الليل ليسرق بعض القمح . وعند ذلك انتفض الشاب غضباً وصاح باعلى صوته قم ياأبت فأن اللص يسرق القمح من مزرعتك . وكان الوالد إذذاك نائماً على بعد من المزرعة فقام من فوره ينفض عن نفسه غبار النوم ويناجى نفسه قائلا : « قد نبهني صوت هاتف يقول أن لصاً يسرق الحنطة من الحقل فسوف اذهب الى هناك لاتحقق الأمر بنفسى » قال ذلك وامتطى فرسه ثم اسرع للحقل وهناك رأى اللص (واسيلى) فأمسك بخناقه وساقه الى السجن

عند ذلك اطمأن بال الابن وصوب نظره الى مدينة القرية ليتفقد حال عرابته ابنة التاجر فعلم أنها تزوجت من رجل تاجر ثم نظر فرآها نائمة ورأى زوجها قد قام الى الباب متسللا ثم خرج يمشي فى طرقات المدينة ليلا فاتبعه النظر فرآه قد دخل عند امرأة آخرى علم أنها خليلته ذهب اليها فى تلك الساعة من الليل ليخون امرأته فاستفزه الغضب لهذا الامر وصاح بعرابته ينبهها قائلا :

« ألا انتبهى ايتها الغافله فان زوجك يسلك طريق الغواية » فقامت المرأة من نومها فزعة وتلمست مكان زوجها فلم تجده فتحققت صدق قول الهاتف فلبست ثيابها مسرعة وذهبت تبحث عنه الي أن اهتدت اليه وهو بين احضان خليلته فشب بينه وبينها عراك عنيف ورجعت الى بيتها مغضبة بعد أن أوسعت زوجها شتما وتوبيخا

عند ذلك اطمأن بال الشاب وخطر بباله أن يتفقد حال أمه فصوب نظره نحو البيت فأبصر لصا يحاول كسر الصندوق الذى اعتادت أمه أن تضع فيه امتعتها ووجد أمه نائمة بالغرفة

المجاورة ثم نظر فرآها قد استيقظت على أثر صوت الكسر ورأى أن اللص قد أمسك بيمينه فأساً يريد أن يهوى به على رأس أمه ليقتلها . فلم يتمالك الولد أن هوى بالصولجان على رأس اللص فوقع لساعته قتيلا عند ذلك اهتز اركان العرش وسمع صوت الجدران تنزل ثانية ثم نظر واذا بالغرفة قد عادت كما كانت وبعد برهة فتح الباب ودخل عرابه متقدماً نحو العرش فأخذه بيده وأنزله منه وهو يقول :

« هأنذا أراك قد خالفت امري وارتكبت معصية الدخول الى الغرفة تحذيرى أياك ثم اتبعتها بخطيئة أخرى عندما علوت العرش وتداخلت فيما لا يعنيك وأخيرا ختمت هاتين المعصيتين بجرم افظع اذ قتلت نفساً بشريه ولو تسنى لك أن تمكث هنا نصف ساعة أخرى لكنت تتلف نصف العالم »

قال الرجل هذا القول وأمسك بيد الشاب وقاده ثانية الى العرش وقبض بيده على الصولجان فارتفع الجدران ثانية وانكشف العالم أمامهما مرة أخرى ثم أشار العراب بيده قائلا : « انظر ماذا قدمت لوالدك من اساءة كنت تظنها

مكرمة . هاهو واسيلى اللص قد أمضى سحابة عامه بين جدران السجن مهد الشر والموبقات فازداد غلظا وشراسة وكانت فاتحة شروره بعد خروجه من السجن أن سرق فرسين لوالدك وهاهو الآن يضرم النار فى أجران القمح انتقاما لنفسه من أبيك . كل هذه المصائب أنت السبب فى جلبها لابيك » فنظر الشاب امامه فرأي أكوام القمح تحترق فهلع قلبه اضطرابا ولم يتمكن من أدامة النظر لان العراب التفت الى جهة أخرى وأشار قائلا : « انظر ها هو زوج العرابة مضى عليه عام بعد هجر زوجته ولم يقلع بعد عن شروره وآثامه أما خليلته فقد زادت انغماسا فى شهواتها وها هى عرابتك تندب سوء حظها وتقضى ليلها تعالج همومها بالمسكرات بغية أن تجد الصبر والسلوان . فهل رأيت صنعك لعرابتك والآن انظر لترى ماقدمته يداك لامك المسكينة » فنظر واذا به يرى والدته فى كسر دارها قد أثقلت ظهرها الهموم وهى تقاسى الامرين من تبكيت الضمير وتندب حظها قائلة « ويح نفسى ماأشقاها لقد كان الاولى بى أن يقضى على اللص

فى تلك الليلة المشؤمة من أن تحملنى تلك الخطيئة » . ثم أشار اليه عرابه أن أنظر فنظر واذا به يرى دار السجن وأمامها ثلة من الجنود فقال له : « اترى هذا الرجل انه سفك دماء عشرة من الابرياء وكان لا محيص له من أن يكفر عن سيئاته بنفسه ولكنك عجلت عليه بالقتل فحملك جريرة دمه ودم الذين جار عليهم بالقتل فهل رايت الآن نتيجة عملك وما جلبته لنفسك بطيشك ونزقك . امامك الآن ثلاثون عاما تقضيها فى هذا العالم تضرب بقدمك فى فسيح ارجائه وتعمل جهدك على تكفير ذنبك واذا لم تتمكن من تكفير ذنوبك قبل انقضاء هذه المدة تنال من الجزاء ما كان سيناله هذا اللص » فسأله الشاب وقد اكمد لونه وارتسمت على وجهه علامات الخوف والجزع :

— بربك قل لى كيف اكفر ذنوبى

فأجابه : ذلك ميسور لك اذا تلافيت من شرور هذا العالم بالقدر الذى جلبته اليه وبذلك تكفر عن خطئك وخطايا اللص معاً

— وكيف السبيل الى محو الشر من العالم

ـــ أنا مرشدك الى ذلك . قم الآن وسر فى الارض نحو المشرق وبعد مسير بضعة أيام تصل الى مزرعةفيها بعض رجال فراقب مايعلمون ثم أخلص لهم النصح بما تعلمته فى سفرك وأتم مسيرك نحو المشرق أيضاً الىأن ينتهى بكالمسير الى غابة كذا وفيها تجد كهفا يسكنهشيخمعتكف فقص على هذا الشيخ كل ماتراه وتتعلمه فى طريقك اليه فهو مرشدك الى مايكون فيه تكفير ذنبك ان شاء الله

وبعد أن ودع الشاب عرابه سار يتبع مشرق الشمس كما أمره وهو يناجى نفسه بهذه الاقوال : « كيف يتسنى لى محو الشر من هذا العالم ؟ وكيف يستطيع المرء ذلك دون أن يتحمل خطايا البشر ؟ وهل لادواء الانسانية وشرورها علاج غير ذلك ؟ أخذ يفكر فى ذلك طول طريقه علهيجد حلا لهذه المشكلة ولكن على غير جدوى وكان قد وصـــل الى مزرعة كبيرة ورأى القمح فيها ناميـا وقد طالت سوقه ولم يبق على حصده الا القليل ثم لمحعلىبعدمنهعجلاصغيرا يعدوفى الحقل وقد طار وراءه بعض الرجال يطاردونه بغية إخراجه

من الحقل قبل إتلاف سوق القمح ثم رأى فى الطرف الآخر من المزرعة امرأة تعول وتصيح قائلة :

– بالداهية إنهم سوف يقتنصون العجل فلا يلبث أن يقع صريعا بين أرجل جيادهم . عند ذلك ناداهم ابن العراب بقوله : « ماهذا الحمق تنحوا عن العجل ودعوا المرأة تناديه فلا يكبح جماحه »

فأصغى الرجال لقوله وتنحوا عنه واقتربت المرأة من الحقل تنادى عجلها بقولها : إلى يا (براونى) إلى ياعزيزى الصغير فوقف العجل قليلا يرهف أذنيه نحو الصوت ثم مالبث أن عدا نحوها وارتمى فى أحضانها فرحا

فاغتبط الرجال وفرح العجل وعلى هذه الصورة الجميلة انحل المشكل فتفكر الشاب فى نفسه يقول : « حقا إن الشر لا يعالج بمثله وقد دلنى الاختبار ان الناس يزيدون نار الشر اضطراما كلما حاولوا اخماده بالجبر والعسف . قد أطاع العجل سيدته . ففكر فى ذلك طويلا دون أن يهتدئ الى حل معقول وكان قد ترك الحقل ميمما مسيره حتى وصل الى قرية

صغيرة وما كاد يصل آخر القرية حتى أخذ التعب منه مأخذه فتلفت يبحث عن مكان يرتاح فيه ليلته فرأى منزلا صغيراً في آخر القرية فسار اليه وطلب أن يؤذن له بالمبيت تلك الليلة فاستقبلته صاحبة المنزل بالترحاب واجلسته بالقرب من الموقدة ليستدفىء ثم أخذت تتمم ما كانت فيه من تنفيض أثاث المنزل وترتيبه وكانت قد أتمت كل عملها تقريباً ولم يبق عليها الا تنظيف مائدة الأكل استعداداً ليوم الاحد فمسحتها مسحاً جيداً ثم أحضرت خرقة قذرة تريد تنشيفها وما كادت تضع الخرقة على المائدة حتى اتسخت ثانيــة فأعادت غسلها ورجعت تنشفها بالخرقة عينها فاتسخت مرة أخرى . وكان ابن العراب يراقب عملها بكل انتباه وأخيراً لم يتمالك من ان يقول لها : ماذا تصنعين ياسيدتى ؟ فأجابته : « الا ترانى استعد للغد وقد أتممت كل عمل الا هذه المائدة فقد أعيانى أمر تنظيفها » فأجابها : عبثا تحاولين ياسيدتى تنظيف المائدة بتلك الخرقة القذرة انما يجب تنظيف الخرقة أولا ثم تمسحين بها وهى نظيفة » فامتثلت لقوله وتم الامر كما تشتهى السيدة

فشكرته على نصيحته وعند الصباح شكر حسن ضيافتها وسار في قصده حتى انتهى الى غابة رأى عند مدخلها بضع رجال يصنعون أطار العجلات وعندما اقترب منهم رآهم يدورون حول قطعة من الخشب دون أن يتمكنوا من احنائها فنظر الى قطعة الخشب فرأى أنها غير ثابتة فى الكتلة التى يدورون حولها

فكانوا كلما داروا دار الخشب معهم . فتقدم منهم الشاب وطارحهم السلام ثم سألهم عما يصنعون فأجابوه

— « الا ترى أننا نضع اطاراً للعجلات وكثيراً ما حاولنا احناء هذه القطعة ولكن على غير جدوى » فأجابهم بقوله « كان عليكم أن تتأكدوا من ثبات الخشب فى الكتلة أولا ثم تشرعون فى العمل والا تدور معكم كما تدورون » فعملوا باشارته وتم الامر على أحسن حال وأمضى الشاب ليلته معهم. وعند الصباح قام يضرب بقدميه فى الارض ثانية حتى وصل الى كلأ من الارض فيه بعض الرعاة وقد انتشرت مواشيهم ذات اليمين وذات الشمال فاقترب منهم فرآهم يحرقون بعض

الاعشاب بغية اضرام النار ولكن النار ما كانت لتشتعل
حتى كانوا يرمون عليها بعض الاعشاب الندية فتخمد لوقتها
ثم أعادوا العمل بنفس الطريقة فاصابهم من الفشل ماأصابهم
فى المرة الاولى فتقدم اليهم الشاب قائلا

أراكم أيها الرفاق تستعجلون بوضعكم الاعشاب الندية
قبل شبوب النار وانما عليكم ان تنتظروا ريثما تشب النار تماما
فتضيفوا اليها قدر ماتريدون من العشب

فعملوا باشارته وتركوا النار حتى شبت تماما ثم اضافوا
اليها أعشابا اخرى فاشتعلت واستخدموها فيما يريدون ثم
أقام الشاب بينهم ريثما استراح وقام يتمم مسيره ثانية مفكرا
فى كل ماصادفه فى طريقه وهو يحاول ان يجد لها معنى ولكن
لم يهتد الى شيء . وفى اليوم التالي وصل الى أجمة أخرى وفيها
أبصر الكهف الذى يسكنه الراهب المعتكف فضرب عليه
الباب فسمع صوتا ضعيفاً يقول : من هذا الواقف على الباب
فأجابه الشاب : رجل مجرم أثقلته ذنوبه فجاء يكفر عنها .
ففتح الباب وخرج منه شيخ عجوز أحنت الايام قوس ظهره

وسأله عن جلية أمره فأفضي اليه الشاب بكل ماوقع له فى بيت عرابه وأخبره كذلك بما رآه فى المزرعة حيث كانت الرجال تطارد العجل وكيف نصحهم ثم ختم حديثه قائلا

— « ومن ذلك الوقت علمت أن الشر لايدفع بالشر ولكن لم أهتد حتى الآن الى الطريقة المثلى التى يجب اتباعها لدفع الشر فهل لك ياسيدى أن ترشدنى لذلك » فأجابه الراهب أمض فى حديثك يابنى واخبرنى بما رأيته أيضاً . فعاد الشاب الى حديثه وأحكى له مارآه فى بيت المرأة وقص عليه أمر الرجال الذين كانوا يصنعون اطار العجلات ثم اخبره بما وقع له مع الرعاة

كل ذلك والراهب مطرق براسه يصغى اليه جيداً وعند انتهاء الحديث دخل الى كهفه وعاد ثانية وبيده فأس صغير كالذى يستعمله الحطابون ثم قاده الى وسط الاجمة واشار الى شجرة هناك ثم قال . اقتلع هذه الشجرة من أصولها ثم اقطعها بالفأس الى قطع ثلاث . ففعل ابن العراب كما امره الراهب وعند انتهاء العمل ذهب الراهب الى كهفه ورجع

اليه بقطعة خشب مشتعلة وأمره أن يحرق بها القطع الثلاث حتى تصير كلا منها كالفحمة السوداء وبعد أن فعل ذلك أيضاً أمره بغرس القطع المحروقة في الارض حتى النصف

وعند انتهائه من العمل وضع الراهب يده على كتف الشاب وخاطبه بقوله

ــ « أترى ذلك النهر الصغير عند سفح الجبل . عليك أن تنقل منه الماء بفمك لسقى هذه الاعواد الثلاث . اسق العود الاول كما علمت المرأة واسق الثاني كما أشرت على صانعى العجلات والثالث كما أشرت على الرعاة واستمر على سقيها وتعهدها حتى ترى أن هاته الاعواد الثلاث تنمو وتينع وتصبح كل منها شجرة تفاح صغيرة عند ذلك تكفر عن خطيئتك وتعلم في الوقت نفسه كيف يمكن اقتلاع بذور الشر من جوانب الانسان »

وعند ما انتهى الراهب من حديثه قفل راجعاً الى الكهف وترك الشاب غارقا في بحار التفكير يضرب اخماساً لاسداس ويقلب وجوه الرأى عساه يهتدى الى معني لكل

ماراه وأخيرا لم يربدا من اطاعة أمر الراهب اطاعة عمياء كما أوصاه عرابه فصار ينقل الماء بفمه ويسقى الاعواد طول يومه حتى أعياه التعب وأخذ منه الجوع كل مأخذ فسار الى الكهف ليطلب منه مايسد به الرمق ولكنه ما كاد يدخل الكهف حتى رأى الراهب جثة هامدة فهاله الامر وأسقط فى يده لا يدرى مايصنع وأخيرا تمالك روعه وأخذ ينقب فى اطراف الكهف حتى اذا أصاب شيئاً من الخبز الناشف أكله ونام ليلته بالقرب من جثة الراهب وعند الصباح قام الى فأسه وحفر قبراً للراهب بالقرب من الكهف وبينما هو فى عمله رأى جمعاً من الناس جاءت لتزور الراهب ومعهم بعض الزاد كعادتهم فأخبرهم بموته فأسفوا عليه وعاونوه بدفنه فى الحفرة التى أعدها له من قبل ثم ودعه الحاضرون بعد أن تركوا مامعهم من الزاد وقد وعدوه بزيارته من حين لآخر كما كانوا يزورون ساكن الكهف سلفه ومن ثم اشتهر أمره بين سكان الجهات المجاورة للغابة بأنه لا ينفك عن نقل الماء بفمه من النهر حتى الكهف رياضة للنفس وكبحا لجماح الهوى

فتقاطروا اليه من كل صوب للتبرك به ومعهم كثير من
الهدايا الثمينة فكان يبقى لديه الضروري منها ويوزع الباقي
على الفقراء والمساكين . وكان يمضي نصف يومه في نقل
الماء وسقي الاعواد والنصف الآخر في استقبال زواره
العديدين

مضى عليه حولان لم ينقطع أثناءهما يوما واحدا عن نقل
الماء وسقي الاعواد ولكنها كانت على حالها السابق لم تتغير
مطلقا . وبينما كان ذات يوم جالساً في كهفه سمع وقع حوافر
جواد وصوت انسان يغني فقام الى الباب ليستطلع الامر
واذا به يرى شابا مفتول العضل عليه سيما الشراسة والشر
فسأله ابن العراب عن نفسه وعن وجهة قصده فأجابه الرجل
وقد أمسك بزمام فرسه يوقفه : « أنا لص أقطع الطريق
على الناس وكلما قتلت انسانا كلما ازددت ابتهاجاً فأردد على
الدوام الاناشيد التي تردد صداها هذه الجبال » ففكر ابن
العراب في نفسه يقول: « هذا رجل قد جبل على الاجرام
وطبع على محض الشر فكيف السبيل الى إرشاده انه من

السهل ارشاد أولئكم الذين يأتون الى بمحض ارادتهم يعترفون
لى بذنوبهم ويطلبون الصفح والغفران ولكن كيف الطريق
الى نزع ما كمن فى نفس هذا اللص من الشر وهو يفتخر
بذنوبه ويتيه عجبا بما يقترفه من الاثام » ثم فكر ثانية وقال
فى نفسه « رباه كيف العمل ؟ فقد يأوى هذا اللص الي جهة
قريبة من الكهف فيوقع الرعب فى قلوب زائريه وبذلك
تضيع االثمرة فلا أدرى كيف أعيش بعدها » ثم التفت الى
اللص وخاطبه قائلا . « اعلم ياهذا أن الناس يحضرون عندى
يلتمسون التوبة والغفران باعترافهم عن ذنوبهم فلا يفتخرون
بها مثلك فاقلع انت ايضاً عن شرورك وآثامك والتمس
التوبة قبل فوات الفرصة ان كنت ممن يخافون الله . وان
لم تكن ثمة ندامة فى قلبك فلا تقترب هذه الجهة لان ذلك
يوقع الرعب فى قلوب الذين يفدون على فأن لم ترعو فأن
الله كفيل بعقابك » فاجابه اللص . « أنا لا أخاف الله ولا
اصغى لهذيانك اذ ليس لك على اقل سلطان . انت تعيش
بزهدك وانا اعيش باللصوصية فكلانا يعمل ليعيش واذاً

فالغاية واحدة وان اختلفت الواسطة وحرى بك ان تدخر مافى نفسك من النصائح للعجائز اللواتى يحضرن مجلسك أما أنا فلا أخدع بزخارف الاقوال . ولكن بما انك ذكرتنى بعقاب الله فلا يشرق صباح الغد حتى أكون قتلت نفسين ذكرى لهذه النصيحة وكان بودى أن أقتلك ولكن لا أريد ذلك الآن والويل لك ان اعترضت طريقى بعد اليوم »

ما كاد اللص يتم حديثه ووعيده حتى لوى عنان فرسه وغاب عن الانظار ولم يسمع له خبر بعد ذلك فاقام ابن العراب فى كهفه ثمانية أعوام اخرى فى هدوء وسلام

***

جلس ابن العراب فى كهفه ذات مساء بعد ان فرغ من سقى الاعواد كعادته مترقبا قدوم زائر ولكن لم يحضر اليه أحد ذلك المساء فاكتأب لذلك واستولت على نفسه الهموم والاحزان وأخذ يفكر فى معيشته الجديدة فى الكهف ثم تذكر قول اللص وكيف عاب عليه التعيش بالزهد والمسكنة فأنب نفسه ورجع يوبخ ضميره قائلا : ويح نفسى ماأشقاها !

جئت هنا لاكفر عن خطيئتي واذا بي أضاعف ذنوبي وآثامي . نعم قد صدق اللص في قوله : كلانا يعمل ليعيش انت بزهدك وأنا بسفك الدماء وقتل نفوس الابرياء ليست هذه هي المعيشة التي أتمسك بها لاكفر عن سيئات نفسي ولم تكن هذه الخطة التي انتهجها كفيلة بغسل آثامي بماء الطهر والتوبة . فقد كان على أن أكتفي باليسير من الخبز ولكن ملك الغرور على نفسي فأصبحت أرتاح لمدح الناس اياي بالزهد والتقوى وها أنا ذا قد استولى على الهم لاني لم أجد بين يدي من يتقرب الى بالمدح والثناء . كلا . كلا ! على أن أفر من وجه الناس وألتمس المعيشة في ركن آخر من هذه الغابة حيث لايصل الي أحد منهم »

وما وصل من حديث نفسه الى هذا الحد حتى قام من مكانه وعلى وجهه أمارات العزم الصادق ثم احتمل سلة الخبز وأمسك محراثه بيمينه ليحفر لنفسه كهفاً آخر في ركن مهجور من الغابة وفيما هو في طريقه قابله اللص ففزع منه ابن العراب وولى الادبار الى أن اللص أسرع فأمسك به

وسأله عن قصده فأجابه انه يريد اعتزال الناس فى ركن من الغابة فعاد اللص وسأله : ومن أين لك ماتتبلغ به اذا أنت اعتزلتهم ؟ فقال : « ذلك لا يهمنى بل أعيش بما يقدره لى رب العالمين » فسكت اللص ثم اعمل بمهمازه فى الجواد واختفى بين أشجار الغابة .

فقال ابن العراب فى نفسه : ماعلى لو نصحته مرة ثانية فانه اليوم ألين عريكة من ذى قبل . ثم صاح بأعلى صوته : « مازال أمامك متسع من الوقت للتوبة والندامة فارجع عن غيك ياهذا » فرجع اليه اللص مشهراً خنجره يريد قتله ففر ابن العراب من بين يديه وأخذ يعدو في الغابة بملء فروجه فوقف اللص عن ملاحقته واكتفى بقوله : « هذه هى المرة الثانية وأنت تقف فى وجهى أيها العجوز فحذار فانك لاتفلت من يدى فى المرة الثالثة »

وفى مساء ذات اليوم عند ماذهب ابن العراب ليسقى الاعواد كعادته كانت احداها وهى الأولى موضع اعجابه واندهاشه لانه رآها قد اخضر عودها ودبت الحياة فيها

وافترت عن شجرة تفاح صغيرة . فأشرق جبينه وعاد اليه
الامل وقد أيقن انه سائر فى سبيل التكفير عن خطاياه .
ونظر ذات يوم الى السلة التى احتملها من الكهف السابق
واذا بها فارغة ليس بها شىء من الخبز فتسلل الى الغابة
يبحث عن نبات أو ثمر يعيش عليه واذا به يرى سلة أخرى
من الخبز معلقة على احدى الاغصان فأخذها وعاد الى كهفه
وعاش عليها مدة من الزمان لا يعكر صفو حياته الا وعيد
اللص اذ كلما تذكر تهديده ترتجف أعضاؤه فرقاً خوفاً من
أن يقضى اللص عليه قبل تكفير ذنوبه الا انه فكر فى
نفسه ذات يوم فقال : « أنا أجرمت ومع ذلك أهاب الموت
ألا يمكن أن تكون ارادة المولى أن أكفر عن خطيئتى
بالموت » وما وصل من مناجاة نفسه الى هذا الحد حتى سمع
صوت اللص يصخب ويلعن كمن يخاطب شخصاً آخر فقال
فى نفسه « انما الخير والشر بيد الله » وقام لوقته يريد مقابلة
اللص فرآه ممتطياً فرسه وقد أردف خلفه رجلا آخر . مكبل
اليدين والرجلين يوسعه لكما وضربا ويستنزل عليه اللعنات

طول الطريق . فوقف ابن العراب في وجهه وصاح به :

— الى أين أنت ذاهب بهذا الرجل ؟

— هذا ابن أحد التجار أبى أن يعترف لى أين أموال أبيه ولكنى سوف أذيقه كل صنوف العذاب حتى يقر لى بالمكان

ثم أعمل المهماز في جواده يريد السير ولكن ابن العراب كان ممسكا بالفرس بكل قوته فلم يدعه يمر وقال له بلهجة الغاضب : دع هذا الرجل وشأنه . عند ذلك استشاط اللص من الغضب ورفع يده يريد لطمه وهو يقول : « أتريد أن تذوق طعم العذاب الذى أعددته لهذا الرجل ؟ تنح عن طريقى والا قتلتك شر قتلة » ولكن ابن العراب لم يتزعزع من مكانه بل وقف ثابت الجأش وأجاب اللص بقوله : « لا أدعك تنقل خطوة واحدة دون أن تمر على جثتى وتطأها بسنابك جوادك فانا لا أخاف سوى رب العالمين فهو الذى يثبت قدماى الآن لأجاهد فى سبيل الخير فلتكن مشيئة الله » فأطرق اللص واجماً ثم اخرج سكينا

صغيراً قطع به قيود الشاب ونظر الى الرجل وابن العراب وهو يقول : « اغربا الآن عن وجهي وحذار أن تقف في طريقي مرة أخرى أيها العجوز » فقفز ابن التاجر وانطلق يعدو في الغابة . أما اللص فكان على وشك ان يعلو جواده ثانيــة حينما أمسك الراهب بطرف ثوبه وأخذ في نصحه وارشاده وكان اللص في هذه المرة مطرقاً لاينبس ببنت شفه الا انه عاد فهز رأسه ثانية وركض بجواده نحو الغابة

وفي اليوم التالى لهذه الحادثة وجد الراهب ان الحياة دبت في العود الثانى ونمت شــجيرة تفاح اخرى بجانب الاولى

مرت على هــذه الحادثة عشرة أعوام وقد جلس ابن العراب ذات يوم في كهفه بطمأنينة وســلام وقلبــه يطفح بشراً وسروراً ولا يعكر صفوهنائه خوف أوطمع وكان يفكر في نعم المولى على عباده وكيف ان الله جلت قــدرته هيأ لهم كل مافيه غبطتهم وسعادتهم وانهم هم الذين يوردون أنفسهم موارد البؤس والشقاء ويعملون على تعكير صفو الحياة

باطماعهم وشرورهم ثم انتقل بفكره الى الانسان وما جبل عليه
من شر والى الحياة الاجتماعيـة وما فيها من امراض وآلام
فقال فى نفسه : « عار على ألا أبرح مكانى هذا بل على أن
أسعى فى الارض أرشد الناس الى الطريقة المثلى لنزع الشر
من بين جوانبهم !! وبينما هو غارق فى هذه الهواجس اذا
باللص يمر من أمامه فتركه يمر بدون أن يتعرض له بل قال
فى نفسه : « ان الـكلام مع مثله لايجدى نفعاً لأنه لا يفقه لما
أقول معنى » ولـكنه مالبث أن غير عزمه وقام مسرعا خلف
اللص فرآه مغبر اللون مطرق الرأس خاشع البصر فأشفق
عليه ووضع يده على ركبته وخاطبه قائلا « كن رحيما
بنفسك يا أخى . انك طالما عثت فى الارض فساداً وأهلكت
نفوساً بريئة وكنت شراً ووبالا على الانسانية ومع ذلك فان
الله رحيم بعباده يقبل توبة التائب ويعفو عن اساءة المسىء
فهلا رجعت عن ضلالك وأشفقت على البقية الباقية من
حياتك » فوجم اللص لايتكلم ثم عاد يريد السير ثانية وهو
يقول « دعني وشأني » ولـكن ابن العراب لم ييأس بل طفرت

من عينه دمعة سخينة مسحها بطرف ردائه وأقبل على ارشاده ونصحه فنظر اللص اليه طويلا ثم رمى نفسه عن جواده وركع أمامه يقول :

— ها أنت ياسيدى قد ملكت علي نفسى وظفرت بها أخيراً بعد أن قاومتك عشرين عاماً فافعل بى ماتشاء فانى رهن اشارتك اذ لاطاقة لى بأكثر من ذلك . قد استفزنى الغضب عند ماوقفت فى طريقى تريد نصحى وارشادى فى المرة الاولى ولكن ما كدت تعتزل الناس وتزهد فى أعطياتهم حتى أخذت أقدر أقوالك ونصائحك حق قدرها اذ علمت انك لم تنصحنى لغاية او فائدة وانما قلت ما قلته لمحض الخير والاحسان ومنذ ذلك اليوم قدرت جهادك حق قدره وساقنى عامل الاعجاب بك الى احضار الخبز اليك فى سلة كنت أعلقها على غصن احدى الاشجار القريبة من كهفك

فتذكر ابن العراب عند ذلك تلك الحادثة التى مرت به عند ما كان بضيافة المرأة وكيف انها لم تتمكن من تنظيف المائدة الا بعد أن غسلت تلك الخرقة التى كانت تمسح بها .

كذلك هو لم يتمكن من تطهير قلب غيره الا بعد أن طهر ذات نفسه ثم استطرد اللص حديثه قائلا « ولكن حتى ذلك الوقت كنت معجباً بك فقط ولم تؤثر نصائحك فى نفسى تأثيرها المطلوب الا بعد ما علمت انك لا تهاب الموت »

فتذكر ابن العراب حينئذ ماراه من أمر الصناع الذين كانوا يحاولون احناء القطعة الخشبية وانهم لم يتمكنوا من ذلك الا بعد أن ثبتوا الكتلة فى مكانها تمام الثبات فعلم ان نصائحه لم تؤثر في اللص ذلك التأثير البليغ الا بعد ان طرح عن نفسه رداء الخوف من الموت وأشعر قلبه حلاوة الايمان الصادق » ثم ختم اللص حديثه قائلا « ولكن لم يحترق قلبي بنار التوبة والاخلاص الا حينما رأيتك تشفق على وتبكى لاجلى

عند ذلك أخذ ابن العراب بيده وذهب به حيث الأعواد الثلاثة فرأى ان الحياة قد دبت فى الثالثة أيضاً فأشرق شعاع الامل بين جوانب نفسه وعلم ان الله قد تقبل

توبتـه وغفر خطيئته وتذكر كيف ان الرعاة لم تتمكن من احراق الاعشاب واضرامها الا بعد ذكت النار تماماً فعلم ان اللص لم تتم توبته الا بعد أن ذكت نفس مرشـــده تماما .
عند ذلك قضى نحبه قرير العين هنيء البال بعـد ما أفضى الى اللص بكل ماعلمه وتعلمه ثم اوصاه بارشاد الناس الى طريق الخير بالقدوة الصالحة والمثل الطيب



٥

مكيدة شيطانية

وأما الخمر فهى تزيل عقلا

فتحت به مغالق مبهمات

ولو ناجتك اقداح الندامى

عدت عن حملها متندمات

تذيع السر من حر وعبد

وتعرب عن كنائن معجمات

فان هلكت خروسك ام ليلى

فما أنامن صحابك واللمات

فعنك تعود ابنية المعالى

وأطلال النهى متهدمات

وقد يضحى صحابك اهل سجن

وتلقين الكؤوس محطمات

« للمعرى »

في صباح ذات يوم خرج قروي من كوخه الحقير يحمل تحت ابطه فطور ذلك اليوم موليا وجهه نحو الحقل الذى ما كاد يصل اليه حتى خلع معطفه ورماه تحت احدى الشجيرات بعد أن لف فيه ما معه من الخبز ، ثم شرع فى العمل . وبعد هنيهة أنهكه الجوع وأضنى التعب جواده ، فأطلق سراح الجواد وجلس هو ليأكل ما أعده للفطور ولما تفقد الخبز لم يجده بين طيات ثيابه فأخذ يقلب المعطف بين يديه ويدقق النظر فى كل جزئياته . ولكنه عبثا كان يحاول اذ أن الشيطان كان قد سبقه الى الشجيرة ، وسرق مافى المعطف من الطعام ثم جلس منتظراً صخب القروى ولعناته على سارق الخبز الا ان فأله قد خاب لان القروى مع ما داخله من الاسف لم يتأثر كثيراً لفقد الطعام بل اكتفى بقوله : « ماعلى لو صبرت فان الجوع ليس بقاتلى وربما كان الآخذ فى حاجة الى ذلك الخبز فليهنأ به » قال هذا القول وذهب تواً الى بئر قريب منه حيث أطفأ ظمأه وارتاح قليلا من وعثاء العمل ثم عاد فأمسك بعنان جواده واستأنف العمل ثانية .

آما الشيطان فقد أستاء من عمل القروى إذ رآه أعقل من أن يقع فى الخطيئة فأسرها فى نفسه وعزم ان يخبر رئيسه بالامر وبالفعل ذهب من وقته الى ابليس وقص عليه الحكاية وكيف ان القروى لم يعبأ بفقد الخبز ولم يسخط على آكله بل تمنى له الهناءة والسرور . فما كاد ابليس يسمع ذلك حتى غلى مرجل حقده وانتهر تلميذه قائلا : « انما اللوم فى ذلك راجع عليك لانك لم تقم بمهمتك كما يجب واعلم ان القرويين اذا ابتدأوا ينهجون على هذا المنوال واقتفى اثرهم فى ذلك زوجاتهم فالويل لنا نحن معاشر الابالسة فالامر خطير لا يجمل بنا ان نتغافل عنه فانكص على عقبيك سريعا واصلح خطأك هذا وان لم تنتصر على ذلك القروى الساذج فى ظرف ثلاث سنين فسوف أريك كيف يكون جزاء الإهمال » فعاد الشيطان الى الارض مسرعا وهو ينتفض فرقا وقد تقطعت نياط قلبه من تهديد الرئيس ، وأخذ من وقته يفكر فى حيلة يوقع بها ذلك المسكين فى حبائله ... واخيراً اهتدي الى مشروع وجده كفيلا بنجاحه فتزيا

بزى أحد العمال وتمكن من أن يدخل فى خدمه القروى .

وفى عامه الاول نصحه بأن يبذر حبوبه في أرض رطبة فعمل القروى بنصيحته وكان الجو من حسن حظه جافا فأنتجت الارض محصولا جيدا فتمكن من ملء مخازنه وأصبح لديه كميات وافرة من القمح تزيد عن حاجاته وفى عامه التالى عاد اليه الشيطان ينصحه بأن يبذر حبوبه على ربوة من الارض ثم جاء وقت الحصاد وكان الصيف رطبا فاستفاد القروى من النصيحه وتوفر لديه شيء كثير من القمح يربو عما جناه فى عامه السابق فحار فى أمره ولم يدر ماذا يصنع بكل ذلك القمح الكثير فوسوس اليه الشيطان أن يستخرج منه نوعا من الخمر ففعل ، وكان الخمر المستخرج قويا شديد التأثير فسر بهذا الاكتشاف وأخذ يشرب منه هو وزوجته وأهدى الى أصدقائه الشيء الكثير عند ذلك ذهب الشيطان الى رئيسه فرحا مستبشراً وقص عليه ما فعله لاغواء القروى فقام ابليس مسرعاً ليشاهد الامر بنفسه ويتحقق صدق مقاله ولما وصلا الى منزل القروي وجدا أن صاحب المنزل يستعد

لحفلة ساهرة دعا فيها كل جيرانه الاعزاء ثم رأيا وفود المدعوين تقبل الى المنزل زرافات ووحدانا وصاحبة الدار قائمة بخدمتهم تقدم لهم كؤوس الخمر وبينما كانت تدور عليهم بالاوانى اذا بها قد تعثرت فوقعت الاوانى من يدها وسال الخمر على الارض فاحتدم زوجها غضبا وصاح بها يقول « ما الذى دهاك أيتها العسراء حتى أهرقت هذه الخمرة اللذيذة على بساط الغرفة أظننت أن ما بين يديك من ماء البئر حتى أخذت فى اتلافه واسرافه وما كاد الشيطان يسمع هذه الكلمات حتى غمز رئيسه قائلا « أسامع أنت كلام ذلك القروى الساذج الذى لم يهتم لفقد كسرة الخبز » وبينما كان القروى ينتهر امرأته ويلومها على فعلتها اذا بقروى فقير دخل عليهم متطفلا واستوى جالسا على المائدة ينتظر اكرام صاحب الدار ولما طال به الجلوس تململ صاحب المنزل من جلوسه وتمتم يقول « أنا ليس فى وسعى أن أقدم شرابا لكل من يتطفل على موائدنا » فسمع ابليس هذة الكلمات وسر فى نفسه بهذه النتيجة الا أن تلميذه قال وهو يبتسم : انتظر قليلا فسوف

ترى ما هو اعجب وفعلا ما كاد يتم قوله هذا حتى كان القوم أخذتهم نشوة الخمر فأصبحوا يخادعون بعضهم البعض بالفاظ ملؤها الملق والرياء عند ذلك قال ابليس « اذا كان بعض الخمر يجعلهم على هذا الحال يروغون كالثعالب ويتملقون بعضهم البعض ولكنك سوف تراهم عقب الكأس الثانية كالذئاب المفترسة ينهشون لحوم بعضهم البعض » فما أتم الشيطان هذه الكلمات حتى كان الشراب يدور على القوم ثانية ، ثم ارتفعت من بينهم دواعى الحشمة وأصبحوا يتبادلون وحشى الكلام وقبيح الالفاظ ثم أدى بهم الامر الى المضاربة فالملاكمة فتلألأ وجه ابليس بشراً وهنأ تلميذه بذلك الفوز الباهر قائلا « هذه هى الخطوة الاولى فى سبيل النصر » فأجابه تلميذه « انتظر حتى النهاية تر ما هو أغرب فانهم الآن كالذئاب يكاد أحدهم يفترس صديقه ولكنك سوف تراهم كالخنازير عقب الكأس الثالثة »

عندها دارت الكؤوس عليهم مرة ثالثة فعلت أصواتهم وزاد صخبهم وأصبح كل منهم يلعن ويشتم بلا سبب ومن

غير داع . وبعد برهة وجيزة انفرط عقد جمعهم وأخذوا ينسلون من مكان الدعوة جماعات ووحدانا يترنحون سكراً ويتمايلون ذات اليمين وذات الشمال ، ثم ذهب المضيف اثرهم ليشيعهم ولكنه ما كاد يخطو بضع خطوات حتى تعثر في مشيته فوقع في حفرة مملوءة بالاوحال وتلطخ بها من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فازداد ابليس لهذا المنظر بهجة وسروراً والتفت الى تلميذه يقول « لله درك فلقد كان نجاحك باهراً وفوزك مبينا ولكن خبرني كيف صنعت هذا الشراب فلا ريب انك أضفت اليه بضع نقط من دم الثعالب وهذا ماحدا بهم لان يروغوا ويتملقوا بعضهم البعض في الكأس الاولى ، ثم أظن انك أضفت اليه بعضاً من دم الذئاب ، اذ كان نتيجة ذلك انهم أصبحوا كالذئاب العاوية . وإخالك أتممت العمل بوضع نقط من دم الخنزير حتى أصبحوا يماثلون الخنازير عقب الكاس الثالثة » فقال الشيطان

— كلا فانك لم تصب كبد الحقيقة فليست هي الطريقة وكل ما في الامر اني بذلت ما في وسعي لان أجمل ذلك

ذلك القروى يملك حبوبا أكثر مما يحتاج اليهما فالانسان
يجول فى عروقه دماء الحيوانيه على الدوام وتظل هذه الغريزة
كامنة فى نفسه طالما كان يملك من حطام الدنيا أقل من
ضروريانه يدلك على ذلك ما أظهره القروى عندما تحرشت
به فى مبدأ الامر ولكنه ما كاد يتوفر لديه أكثر مما يحتاج
اليه حتى عماه الغنى وتمادى به الغرور فأخذ يبحث عن دواعى
الملاهى والسرور وهنا سنحت الفرصة لاغوائه فأخذت بيده
الى طريقة من طريق الغواية اذ أرشدته الى صنع الخمر
فاستلذها المسكين لسوء حظه وشربها عذبة سائغة فكان فى
ذلك كالساعى الى حتفه بظلفه فانه ما كاد يكفر بانعم الله
اعطياته خمرة تذهب برشده حتى ظهر ما كمن فى نفسه من
تلك الدماء الخبيثة ـ دماء الحيوانية . فأصبح وحشا ضاريا
بعد أن كان بشراً سويا وهو يظل كذلك وحشا مفترسا
بعيدا عن مناهج الانسانية طالما يعاقر تلك المادة الدنسة

٦

ثلاثة أسئلة

أراد أحد الملوك مرة أن يقف على اجابة ثلاثة أسئلة جالت بخاطره وظن أنه ان تم له ذلك فلا يكون الفشل حليفه قط فى أى مشروع يأخذ على عاتقه القيام به وما كاد هذا الفكر يستقر فى فؤاده حتى أعلن فى طول البلاد وعرضها أن من يجيب الملك على أسئلته الثلاثة الآتية ينال جائزة قيمة أما الاسئلة فهى .

(١) كيف يعرف الانسان الوقت المناسب للشروع فى أى عمل ؟

(٢) من هم الذين يجب الثقة بهم او الابتعاد عنهم؟

(٣) كيف يتسنى له معرفة أهم الاشياء التى يشتغل بها

وما كاد هذا يذاع فى المدائن حتى تقاطر اليه العلماء من كل صوب الا أنهم ذهبوا فى اجاباتهم مذاهب شتى ؟

فقال أحدهم اجابة عن السؤال الاول اذا أراد الانسان

أن يعرف حقيقة الوقت المناسب لبدء كل عمل فما عليه الا
أن يخط جدولا يكتب فيه أسماء الأيام والشهور والسنين
محسوبة مقدما ويواظب تماما علي العمل به وبذلك يمكنه أن
يؤدي كل عمل فى وقته المعين . وقال آخرون : ان من المحال
لأى انسان ان يتنبأ بالوقت المناسب لكل شيء وانما الواجب
عليه ان يراقب بكل دقة وانتباه مجرى سير الاحوال التى
تحيط به ومتى علم ذلك صار من السهل عليه معرفة اى الأشياء
اكثر اهمية فيبدا بها فى وقتها . الا ان بعضهم اعترض عليهم
فقال مهما يكن الملك يقظا وواعيا لكل ما يحدث حوله فانه
لا يتوصل لمعرفة ذلك الا بعقده مجلسا يتضمن كبار العلماء
والعقلاء ليساعدوه بأفكارهم علي تحديد الوقت المناسب
فرد عليهم آخرون بأن هنالك كثيراً من المسائل التى يجب
البت فيها فى الحال ولا يمكن ارجاؤها حتى ينظر فيها المجلس
فالطريقة المثلى لمعرفة ذلك هو التنبؤ بحوادث المستقبل وبما
ان هذا لا يفقهه الا السحرة فالاجدر بالانسان مشاورتهم
فى الامر

وكان ما اصاب الاجابة عن السؤال الثانى من الاختلاف لا يقل عما اصاب سابقه فقال احدهم ان انفع الناس للملك واجدرهم بثقته هم وزراؤه ومستشاروه وقال آخرون الكهنة ورؤساء الدين وقال ثالث نطس الأطباء وقال رابع ان المحاربين وطائفة المجاهدين هم الاكثر ضرورة للملك دون سواهم

اما السؤال الثالث فكان نصيب الاجابة عنه من تباين الآراء كذلك مالا يقل عن سابقيه فأجاب بعضهم بأن انفع الاشياء للملك هو العلم وقال ثان المهارة فى الفنون الحربية وقال غيره الاشتغال بالامور الدينية

ولما راى الملك اختلاف العلماء وتباين افكارهم لم يقتنع باجابتهم فلم ير احدا منهم جديراً بالجائزة المعدة ولما لم يجد الملك ضالته المنشودة فى من وفد الى حضرته من العلماء وكانت رغبته تزداد فى الوقوف على اجوبة صحيحة لاسئلته الهامة عمد الى المفاوضة مع ناسك مشهور بوافر عقله وغزير حكمته فقام لوقته وارتدى ملابس بسيطة لان هذا الناسك

لا يقابل الا العامة) ثم سار نحو الغابة التى اتخذها ذلك العابد مسكنا لا يبرحه. ولما دنا من صومعته ترجل عن جواده وذهب اليه وحيدا تاركا وراءه جنده وحراسه

قرب الملك منه فوجده يحفر فى الارض أمام كوخه فلما وقعت عينا الناسك عليه حياه واستمر فى عمله وبالنسبة لضعف جسمه ونحوله كان كلما جرف بجرفته قطعة من الارض علت زفراته وتصعدت أنفاسه فتقدم نحوه الملك مخاطبا اياه « انى أتيت اليك أيها الناسك العاقل ملتمسا منك الاجابة عن ثلاثة أسئلة . فهلا توليني سرورا بتحقيق أمنيتى . ؟ » فأصغى اليه الناسك الا أنه لم يجبه بكلمة واحدة واستأنف الحفر . فزاد الملك قائلا « انى لا أخالك قد تعبت الآن فأذن لى بالاشتغال برهة حتى تستعيض بعض قوتك » فشكره الناسك وأعطاه المجرفة وجلس هو ليستريح — بعد أن جرف الملك مرتين توقف وأعاد أسئلته ثانيا فلم يعره الناسك أقل انتباه ولم ينبس ببنت شفة وقام لوقته ومد يده للمجرفة يطلبها من الملك الا أن هذا أبى أن يعطيه اياها واستمر فى

الحفر حتى مضت ساعتان وابتدأ قرص الشمس أن يختفي وراء الاشجار واذ ذاك توقف الملك عن العمل وقال للناسك اني قصدتك أيها الحكيم لتجيبني على أسئلتي فان لم يكن لك علم بها فاخبرني حتى انصرف وأعود من حيث أتيت » فقال الناسك بلهجة تدل على الاهتمام « التفت . ألا ترى رجلا مقبلا يعدو نحونا ! ها هو يجب أن نعرف أولا من هو » فالتفت الملك فرأى رجلا ذا لحية طويلة يتقدم مسرعا نحوهما واضعا كلتا يديه على بطنه والدم يسيل من تحتهما

ما كاد هذا الغريب يصل حيث يجلس الملك حتى خر على الارض يصرخ من الالم ويئن أنات متواصلة ففك الملك والناسك ثيابه المضرجة بالدماء والفيا جرحا بليغا يتدفق منه الدم فعني به الملك وضمد جرحه بمنديله ومنشفة كانت عند الناسك ولكن مع كل هذا لم تقف حركة خروج الدم لذلك كان الملك نفسه يزيح العصابة ويمتص الدم بحرارة زائدة ويغسل الجرح مرات عديدة ثم يعيد اليه الضمادة ثانية وهكذا حتى انقطع الدم وانتعش الرجل وطلب جرعة ماء

فأحضر الملك له الوعاء وأسقاه منه كفايته وفي ذلك الوقت مالت الشمس الى المغيب واقبل الليل بنسماته الباردة فحمل الملك والناسك الجريح وادخلاه الكوخ وما كادا يوسدانه الفراش حتى اطبق عينيه واستغرق فى ثبات عميق اما الملك فقد اعيته مشقة العمل وانهكة تعب الحركة فجثا لوقته عند مدخل الكوخ واستسلم ايضا لنوم هادىء طويل

مضت تلك الليلة ونام الملك فيها ملء جفنيه ولما استيقظ فى الصباح أراد أن يعيد الى ذاكرته حوادث الليلة الماضية إلا أنه قبل أن يتذكر أين هو ؟ ومن ذاك الغريب النائم على الفراش الناظر اليه بعينين برّاقتين سمع صوتاً ضعيفاً يقول « سامحنى » فعلم أنه صوت ذلك الغريب الجريح فالتفت اليه وقال يلوح لى أن ليس بينى وبينك سابق معرفة فملام تطلب مسامحتى ؟ » فقال نعم انك لاتعرفنى ولكني اعرفك حق المعرفة . فأنا عدوك الألد الذى حلف لينتقمن منك لانك أعدمت أخاه واغتصبت أملاكه وقد علمت بمجيئك الى هنا منفرداً فعزمت على قتلك عند أوبتك ولكنى

عند ما رأيتك لم ترجع وقد انقضى اليوم خرجت من مكمني لافتش عنك عسى أن التقى بك واذا بحراسك قد عرفوني فأطلقوا عليّ بعض غداراتهم وأصابوني فهربت من أمامهم والدم يتدفق والآلام تزداد حتى رماني الله بين يديك فضمدت جرحي وعطفت عليّ . فما أطهر قلبك وأرق عواطفك ! يارباه اني أتيت لاقتلك ولكنك أنقذتني من الموت وبعثت فيّ الحياة ثانية فلأشكرنك ما حييت ولن أنسى هاتيك الأيادي البيضاء مادام في عرق ينبض ولي لسان ينطق ولأكونن لك الخادم المطيع والعبد الأمين مادمت استنشق نسمات الحياة وسآمر أولادي أن يقتفوا أثري من بعدي فنوقف حياتنا جميعاً لخدمة الملك »

ولا تسل عن سرور الملك وقتئذ فقد كان عظيما ولا شك في ذلك فان الصلح الذي عقده مع عدو من ألد خصومه بدون أن يبذل في سبيله أقل مجهود يعد حتماً صفقة رابحة له . كيف لا وانه بذلك الصلح اجتز اسباب البغضاء التي اضرمت في فؤاد ذلك العدو نار العداء واقتلع بذور الشحناء

التي نبتت في قلبه على توالى الزمن وأقام مكانها في رحبة ذلك القلب نفسه قصور المحبة تظللها أشجار الطاعة ودوحات الاخلاص ثم أمر طبيبه الخاص أن يعني بالجريح عناية تامة ووعده برد كل أملاكه الضائعة . وبعد أن استأذن الملك من الجريح بالانصراف عزم على الرحيل إلا أنه ود أن يقابل الناسك لآخر مرة عسى أن يهديه الى ضالته المنشودة. فوجده يبذر الحب في الأرض فلما قرب منه قال له « أتوسل اليك للمرة الاخيرة أن تجيبني على أسئلتي حتى يطمئن بالى وتكون قد أسديت لى جميلا لا أنساه » فرفع الناسك اليه بصره وقال « إنك لقد أجبت تماماً على كل اسئلتك » فدهش الملك وقال متعجباً « كيف ذلك وماذا تعنى ؟ » فرد عليه الناسك بقوله « ألم تر انك لو لم تعطف علىّ بالامس ولم ترحم شيخوختي وضعفي وتركتني أقاسي آلام العمل وحدى فان عدوك كان لا بد قاتلك وإذ ذاك كنت تمضِ أصبع الندم حسرة على عدم بقائك معى . فاعلم إذاً ان أهم أوقاتك هو وقت اشتغالك بالحفر وأنفع رجل وقتئذ هو أنا وإسداؤك الخير

هو أهم ما اشتغلت به . ثم عند ما وصل الينا الرجل يتخبط في دمائه كان أهم وقتك وقت اعتنائك به لا نك لو لم تضمد جراحه لقضى نحبه بدون أن تطفىء نار بغضائه وتحول عداوته المرة الى صداقة متينة وطاعة دائمة وإذ ذاك كان الجريح بطل ذلك الوقت وما قدمته له من أيادي الخير أهم الاشياء وأنفعها لديك وأكثرها فائدة لك . فاعلم جيداً أن ليس هناك إلا وقت واحد هو من الاهمية بمكان وذلك الوقت هو (الآن) أو البرهة التي أنت فيها وما هذا إلا لانك تكون فيه مالكا ومستجمعاً لكل قواك الحالية وأهم رجل هو من تتكلم معه لانك لست عالماً بما هو مسطر لك في سجل القدر وفعلك الخير له أنفس ما تشتغل به لان لهذا الغرض وحده دون سواه ظهر الانسان على مسرح الحياة .

— ٧ —

الياس

هناك تحت ظل حكومة اوفا عاش رجل يدعى الياس مات والده بعد أن أتم تأهيله بحول كامل غير تارك وراءه إلا ثروة واسعة لا تزيد على سبعة أفراس وبقرتين وما يقرب من العشرين رأساً من الغنم إلا أنه فوق ذلك خلف لفلذة كبده الحزم والجد فكانا نعم الثراء وحبذا الارث العظيم . اجل فقد كان الياس حازما مجداً لا يدع فرصة تمر بدون اقتناص ولا يني فى المثابرة على اصلاح شؤونه فكان يقوم مبكراً والناس نيام ويدلف الى فراشه بعد ان يهجع كل انسان ، وجده وحزمه كانا كفيلين بتوسيع نطاق ممتلكاته وازدياد ثروته التي بلغت فى نهاية الخمسة والثلاثين عاماً مائتين من الخيل ومائة وخمسين رأسا من الماشية والف ومائتين من النعاج فضلا عمن كانوا يمرحون فى مزرعته من الرجال

المأجورين والنساء المأجورات أولئك لرعاية ماشيته وقطعانه وهؤلاء لحلب بقره وأفراسه وعمل الكومس(١) واستخراج الجبن والزبد . ومن ذلك الوقت بسم له الدهر فأصبح الياس رب ثروة وافرة وصاحب أملاك واسعة حسده عليها جيرانه ومواطنوه فقالوا عنه «الياس رجل مبخت خالفه الجد فرافقته السعادة واقبلت عليه الدنيا فأصبحت طوع بنانه» ثم ذاع صيته وعلت شهرته وتهافت على زيارته كثيرون من سراة القوم وتسابق الى معرفته العدد العظيم ممن ودوا التقرب منه فكان يكرم مثواهم ويذبح لهم الذبائح ويقدم لهم كل شهي من الطعام ولذيذ من الشراب

لم يرزق الياس إلا ولدان وابنة كانوا عضده الاقوى أيام بؤسه يفلحون له الارض ويرعون الماشية ويباشرون كل اعمالهم بأنفسهم . أما وقد ارتاش الياس فقد تصارعت بين نفسيهما عناصر المفاسد ، ثم لقى اكبر منهما مصرعة فى عراك وأدمن الآخر على تعاطى المسكرات وانقاد لامرأته فى عدم

---

(١) شراب روسي مخمر يحضر من لبن الافراس

اطاعة أبيه والاذعان لاوامره فانفصل عنه بعد ان لم يطق معه صبراً وقد منحه الياس منزلا يأويه وجاد عليه ببعض الماشية كي تعاونه على الحياة فكانت هذه التجزئة سببا في تصغير ثروته وفاتحة لمصائب جمه ، فعلى اثرها انتشر وباء فتاك حصد كثيراً من اغنامة وتلا ذلك سوء محصول القمح ثم اغارت عليه قبائل الكرغيز فسلبته الصافنات من جياده فأتى هذا ضغثا على إباله ـ وهكذا نخرت عوامل الضعف في ذلك الثراء فانهار عليه بنيانه واخذت عوامل التلاشي تعبث ببقايا تلك الثروة الدارسة ، بينا كان الياس يوسع الخطا نحو القبر ويئن تحت عبء الشيخوخة الثقيل اذ اربى على السبعين وقد انقطعت عنه اخبار ابنه القاصي اما الابنة فعدا عليها المنون واختطفها من بين ابويها وبذلك فقد الشيخ وزوجه آخر نصير لهما في الحياة . . .

نزلت بهما كل هاتيك المصائب واحاطتهما الشدة احاطة السوار بالمعصم فألجأتهما الي بيع كل ما عندهما من بقايا اثاث المجد القديم حتي اصبحا لا يملكان الا ما يسترعورتهما

من ثياب ابلاها الدهر والحدثان وما هي الا عشية وضحاها حتى كنت ترى الشيخ وزوجه في حالة يستمطران معها اكف المحسنين ويسألان العطف بعجوزين تقوس ظهراهما تحت عبء الفاقة والكبر وهكذا انزلهم الزمان في الحضيض بعد السنام وصدمهم بكلكله فاسترد ما اعارهم من مجد مؤثل وعز قديم

بجوار منزل الياس كان يقطن محمد شاه رجل طيب القلب كريم الاخلاق الا انه ليس من ذوى الثراء الواسع ما كاد هذا الرجل يرى ما وصل اليه جاره حتى تذكر مجده الضائع وكرمه الماضي وعاودته ذكرى تلك السعادة التى تقلب بين اعطافها زمنا طويلا فعطف عليهما وقال لهما « هيا عيشا معي ايها الرفيقين واشتغلا بقدر ما تسمح به قوتكما وانا الكفيل بأمر طعامكما ولباسكما وقضاء كل مهامكما » فلم يسعهما الا ان يشكراه علي حسن صنيعه واصبحا من ذلك الوقت مشمولين برعايته بعد ان انتظما في سلك خدمته

لقد بدا لهما المركز حرجا والعمل شاقا في اول الامر

ألا انهما الفاه بتأثير العادة واستمرا يباشران كل ما يقويان
عليه من العمل بهمة ونشاط وكان محمد شاه يرى ان من منفعته
الاحتفاظ بمثل هذين العاملين لانهما تمرنا على كثير من
الاعمال فضلا عما كان يبدو عليهما من اليقظة والنشاط الا
انه من جهة اخرى كان كلما تمثلت امام عينيه شدة السقطة
التى لاقاها هذان المنكودان — سقطة المجد من اعلى قمته
الى اعماق هاوية المذلة السحيقة — هز راسه اسفا وحزنا
واتفق مرة ان وفد على محمد شاه بعض اقاربه القاطنين لزيارته
وبرفقتهم احد المتصوفين (ملا) وبينماهم جالسون يشربون
الكومس واذا بشيخ نقض الدهر مرته يمر من امامهم
فالتفت اليهم صاحب الدار قائلا « الا ترون هذا الرجل
فأجابه احدهم نعم وماذا بعد ! فاستمر يقول : « ان اسمه
الياس ولقد اتى عليه يوم كان فيه اغنى رجل بيننا واكبر
وجيه فى هذه النواحى اما الان وقد قلب له الدهر محنه
فأصبح مشمودا ضريكا فقداشفقت عليه هو وزوجه وشملتهما
بعطفى وادخلتهما فى خدمتى يشتغلان معى بقدر ماتسمح

ارادتهما وانى لا أخالكم قد سمعتم بهذا الاسم من قبل »
فقال الزائر « كيف لا وقد عبقت شهرته في طول البلاد
وعرضها » واستمر المضيف يقول : وهو وزوجه يقيمان معي
الآن ويشتغلان عندى كعاملين » فهز الزائر رأسه بعد أن
بدت على وجهه علامات الاسف وقال متأوها « ما أشبه
الحظ بدورة الفلك فهو آونة يرفع المرء الى سماء السعادة
وجنات النعيم وأخرى يؤدى به الى مقر البؤس والنحوس
ولكن هل قلبه يا ترى مفعم بالحزن والاسى على تلك السعادة
المفقودة والثروة الضائعة ! » فقال محمد شاه

— ومن يدرى فهو يعيش عيشة يحوطها الهدوء وتظللها
السكينة ويباشر العمل بهمة لا تعرف الكلل فقال الضيف
مخاطباً صاحب الدار

— أتأذن لى ببضع دقائق أقضيها في محادثة هذ الشيخ
لا ستجلى بعض أسرار حياته الماضيه

— ولم لا

فناداه صاحب الدار قائلا « تعال أيها الشيخ الجليل

لتشاركنا فى بعض كؤوس من الكومس نقدمها اليك فاقترب الياس محييا سيده وسائر ضيوفه ثم ناوله كأسا الا أنه ما كاد يأخذ منها جرعة نخب الحاضرين حتى أعادها مكانها وجلس بجانب الباب وكذا أتت زوجته وجلست مختبئة وراء الستائر بعد ئذ ابتدا الضيف فى محادثته قائلا :

— اننا على ما أظن مسيئون اليك بوجودك بيننا فان ذلك ربما يذكرك سعادتك الماضية ويعيد اليك أشجانك الحاضرة فتبسم الياس وقال

— ان اردتم ان أحدثكم عن السعادة والشقاء فلا أظنكم مصدقينى والاحرى بكم أن تسألوا زوجتى فهى امرأة وكل مافى قلبها يظهر جليا على لسانها فكلامها الصدق وحديثها هو كل ما يختلج فى أعماق فؤادها — فادار الزائر وجهه نحو الستائر وسأل زوجة الشيخ كيف تقيسين بين سعادتك الغابرة وشقائك الحاضر فأجابته قائلة اصغ الى فسأفضي اليك بالحقيقة . قضيت أنا وزوجى نحواً من خمسين عاما باحثين عن شيء مفقود منقبين عنه في كل مكان فلم نجده

الا الآن ـ نعم في هاتين السنتين الاخيرتين فقط منذ فقدنا كل شيء وصرنا عاملين عثرنا على ضالتنا المنشودة عثرنا على « السعادة » الحقيقية التي لامطمع لنا بعدها

ما تفوهت المرأة بهذا الحديث حتى التفت كل من الجالسين الي الآخر التفاتةدلت على ما داخلهم من الاندهاش الا أنها استمرت في حديثها بكل تؤدة وهدوء . « مكثنا نصف قرن كامل ونحن نفتش عن السعادة بين رياش الغنى وفي قصور الثراء فلم نعثر عليها الا الآن حيث ولت هاتيك الايام كالاشباح وانصرمت تلك الاوقات المشعشعة بأنوار الثروة فسألها الضيف :

ـ كيف ذلك وماذاتعنين بالسعادة ! فأجابته

ـ ما أشرقت علينا شمس الغنى حتى ظهرت من ورائها المتاعب الجمة وتوالت علينا الهموم العديدة . كنا نجلس لنفكر في الاهتمام بأمر أنفسنا قليلا ونودلو تفرغنا لتأدية الصلاة ولكن هيهات ! كنا نحاول النوم ولكن من أين لنا ذلك وجيوش الافكار تتقفانافتطرد عن أعيننا الكرى ، وأشباح

المخاوف والوساوس تتاثرنا فتبعث بنا في ظلمة الليل وسكونه الى حيث نخاف ان يفترس الذئب فلواً أو عجلا أو يسرق اللصوص بعض خيولنا ونعاجنا وهكذا كلما خامر فؤادنا الريب ولعبت بنا الهواجس دفعنا الحذر الى الاستيقاظ عدة مرات

كان يقصدنا الضيوف على اختلاف مشاربهم وتباين طبقاتهم فكنا نضطر الي تضييفهم بما نقدمه لهم من انواع الطعام ومختلف الشراب وما نتحفهم به من الهدايا الفاخرة حتى نحبس السنتهم فلا نكون هدفاً لسهام لعنهم ونسد افواههم فلا ينزلوا علينا وابلا من قذائف اللوم والتقريع

وفضلا عن كل ذلك لم يكن هنالك توفيق بيني وبين زوجتي فكنا على تباين تام وكان هذا مبعثا لاضطرام نار الشحناء التي كانت تتأجج ساعات وأيام . هذه كانت حياتنا سلسلة شقاء متواصل فمن أين اذن تطرق السعادة بابنا ! وكيف نتمتع بالرخاء والهناء وهذه حالنا

أما الآن فنستيقظ من نومنا متبادلين تحية الصباح ثم

نتناول طعام الافطار ونخرج الى العمل حيث نقضى سحابة نهارنا فى هدوء شامل لا يكدر صفوه مكدر وعندالأوبة من العمل نلقى أمامنا من الطعام ما نأكله مريئا ومن الشراب ما نلذ به هنيئا وأمامنـا متسع من الوقت يمكننا من الاهتمام بأنفسنا وتأدية فرائض العبادة لله واذا دلفنا الى فراشنا ننام ملء جفوننا لاتزعجنا الاحلام ولاترهبنا المخاوف والاوهام فهاهى السعادة التى نقبنا عنها نصف قرن ولم نعثر عليها الا فى هذه الايام

ما أتمت المرأه حديثها حتى سخر منها الحـاضرون الا أن الياس استفزه الغضب فقال لهم « لاتسترسلوا فى ضحككم أيها الرفاق فليس فى الامر ما يستوجب المجون والمزاح — وما هى الا حقائق الحياة نسردها لـكم لقد تملكنا الجهـل بادىء بدء فانسجمت عبراتنا حزنا على ذلك العز الضـائع ولـكنها الحقيقة أراد الله أن يرينا اياها ناصعـة فنحن الآن نقصها عليكم لا لمنفعة نترقبهـا أو فائدة ننشدها انمـا هي لفائدتـكم وذكرى لمن يذكر

فقال الملك ان هذه لموعظة بالغة وقول الياس الصدق اذ هو موافق لما ورد فى الاحاديث المأثورة فأمسكوا عن الضحك وأطرقوا كلهم يفكرون فيما دار بينهم من الحديث



محتويات الكتاب

صفحه

كتب اخرى للمعرب

١ خواطر الاميرة لصاحبة السمو قدريه حسين عن التركيه

٢ السراب » » »

٣ سوانح الاميرة » » »

٤ كيف تكون زوجتي رسالة اجتماعيه بقلم المعرب

٥ ملكة قرطبه قيد الطبع بقلم (قدريه حسين) تعريبه

٦ عهد الفتح » » الشاعر التركي نامق كمال »

فيكتور هيجو

(بطل الحرية وشاعر الفرنسيس فى القرن التاسع عشر)

(بقلم)

(الكاتب التركى الاشهر — روحى بك الخالدى)

« ملحق ببعض من نظم ومنثور فيكتور هيجو »

(عنى بنشره)

(صاحب مكتبتى الوفد بشارع الفجاله نمرة ٥٥)

« وشارع الفلكى بمصر »

« الثمن ٨ قروش صاغ »

« طبع بمطبعة الوفد بالفجاله نمرة ٥٥ »

الدور الاول من حياته

(من ولادته سنة ١٨٠٢ الى نفيه سنة ١٨٥٢)

كانت فرنسا فى افتتاح القرن التاسع عشر فى هرج ومرج من هول « الانقلاب الكبير » الذى حدث فيها فغير معالمها وثل فيها عرش الاستبداد وحرر العقول وبدل الظلام بالنور ووضع العدل فى موضع الظلم وجرى بسبب ذلك من الفظائع الدموية ماتقشعر من سماع حديثه الجلود . ابتدأ الانقلاب من سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٧٩٥ . ثم نبغ بونابارت واكتسح بالعساكر الفرنساوية إيطاليا ثم مصر وفلسطين وطاف بهم أوروبا من مشرقها الى مغربها وقهر الملوك والامبراطور والقيصر واستقدم البابا من رومة الى باريس ليلبسه تاج الامبراطورية ويسميه نابليون الاول وأجلس زوجته جوزفين على سرير الملكة مارى انتوانيت ثم لم

يستحسن التاج على رأسها لانها أرملة الجنرال بوهارنه فأبدلها بماري لويز بنت امبراطور المانيا وجعل أخاه الاكبر يوسف بونابارت ملكا على نابولي ثم ملكا على اسبانيا وحشد عساكره في هاتين المملكتين . وكان سيجسبر هوكو والد صاحب الترجمة ضابطا في عسكر الفرنساويين ومأمورا مع جنودهم بالمحافظة على بيزانسون وهي مدينة على طريق السكة الحديدية بين مرسيليا وباريس وكان أبواه نجارا وجده فلاحا

وفي سنة ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وضعت امرأته ماري في تلك المدينة غلاما نحيفا ضعيفا فقيده في سجل نفوس البلدة باسم « فيكتور ماري هوكو » وكان له ولدان اكبر من فكتور أحدهما يسمى ابيل والآخر اوجين . وبعد شهرين من ولادة فيكتور تلقى والده الامر بالمسير الى جزيرة كورسيكا ومنها الى جزيرة إيلبا فحمل اليها امرأته واولاده وأقام فيها الى سنة ١٨٠٥ . ثم دعي سيجسبر هوكو الى

باريس فذهب اليها بعائلته ودخل فى خدمة الملك يوسف بونابارت ورافقه الى نابولى ومعه عائلته فشاهد فيكتور بركان فيزوف وهو في السادسة من عمره وانطبقت في ذهنه صورة هذا الجبل وما تصاعد من فوهته من اللهيب والدخان وارتسمت في مخيلته مناظر ايطاليا الطبيعية وجوها الصافي . فلما كبر ونظم هذه الرحلة وصف هذه المناظر في اشعاره أحسن وصف

ولما ذهب يوسف بونابرت الى اسبانيا ليلبس فيها تاج الملك صاحب سيجسبر هوكو وعاد فيكتور مع امه واخويه الى باريس وسكنوا فى دير فيلبانتين بجوار مدرسة الطب العسكرية التى يقال لها « فال دوغراس » وهى قريبة من البانتيون . وكان فيكتور يقرأ مع اخويه أشعار فرجيل على راهب متضلع فى الآداب اللاتينية واستمر على ذلك الى سنة ١٨١١ وقد ترقى والده وصار قائدا على الجيش وبلغ راتبه الى ثلاثين ألف فرنك اسبانيولى (ريى) ومنحه الملك

يوسف لقب كونت وعينه ناظرا على مطبخه العام . فاحضر حينئذ امرأته وأولاده الي مادريد . فاستفاد فيكتور هوكو من هذه الاسفار فوائد كبيرة وتمكن مع حداثة سنه من مراقبة جمال الطبيعة وحفظ أسماء المدن والبقاع التى مر بها القرون الماضية فاتسعت مخيلته وانفتق ذهنه ونفح بنفحات شعرائنا الاندلسيين فرقت ألفاظه وراقت معانيه وظهر النفس الاندلسي في أشعاره وسمت النفحة الاندلسية من اكثر قوافيه وذكر فى قصيدته التى سماها غرناطة اكثر مدن الاندلس ووصف مافيها من المبانى والقصور وذكر فى غير هذه القصيدة جميع المدن التى مر بها فى طريقه مثل ابزون وعين الغرب التى يقال لها اليوم « فونت أرابى » وقلعة ايرنانى وجعل اسم هذه القلعة عنوانا لرواية من رواياته . ودخل وهو فى مدريد مدرسة أولاد الاشراف وخالط فيها أبناء الامراء من الاسبانيوليين وعرف أخلاقهم وعاداتهم فنظمها فى رواية « ايرنانى » و « ريوبلاس » وغيرهما من مؤلفاتهم

واستعار أسماء كثير من رفاقه ليشخصهم فى قصصه ورواياته وكان يدقق فى أحوال الجند ويتأثر بأصوات أبواقهم وصدى موسيقاهم فأبدع فى وصف حركاتهم العسكرية وفتحهم القلاع ونزولهم مساء ورحيلهم صباحا وسيرهم ليلاً الى غير ذلك الاوصاف التي شخص بها حال العساكر تشخيصا تاما

ولما انقلبت السياسة فى أسبانيا واشتد الخطر على عساكر الاحتلال اعاد الجنرال هوكو عائلته الى باريس ولم يبق عنده الابنهُ الاكبر أبيل فأدخلهُ فى خدمة الملك. ورجع فيكتور هوكو مع أمهِ وأخيهِ الى الدير الذى كان فيه وعكف على مطالعة ماعند أمهِ من الكتب كمؤلفات فولتير وجان جاك روسو وديدرو أحد مؤلفي الانسكوبيدى ومؤلفات السائح كوك وغيرهم وكان لامهِ ألفة بعائلة فوشر احد مستخدمى نظارة الحربية فكانت مادام فوشر تكثر التردد عليها ومعها ابنتها الصغيرة

عادلة - اديل - لتلعب مع فيكتور وأخيه أوجين وتستنشق الهواء الصافي في بستان الدير . ولما ضبطت الحكومة هذا الدير في جملة ما ضبطته من أملاك الرهبان سكنت زوجة الجنرال هوكو بالقرب من دار فوشر فكثر اختلاط فيكتور هوكو بعادلة وألفها حتى صارت فيما بعد زوجته

ولم يمض كثير من الزمان حتى اشتدت الازمات السياسية وتوالت الحوادث المرهبة وعاد نابوليون بالخيبة من سفر موسكو وعاد أخوه يوسف بعساكره من أسبانيا ومعه الجنرال سيجسبر هوكو فالتمس الرجوع لمأموريته والدخول في سلك العساكر الفرنساوية فلم يقبلوه الا برتبته السابقة . و بعدان دارت الدائرة على نابليون الاول وحطت أعمال الحكومة الامبراطورية وعاد آل بوربون الى كرسي المملكة الفرنساوية تقرب الجنرال هوكو الى لويس الثامن عشر وتعلق اليه حتى صار من المقربين لديه فخلع عليه رتبة الجنرالية وسلمه قيادة العسكر . فاراد ادخال ولديه

الاصغرين فى هـذا السلك كما أدخل أخاهما الاكبر من قبل فوضع فيكتور وأخاه أوجين في مدرسة (لوي لوغران) ليدخلهما فيما بعد مدرسة الفنون الحربية وهما من المدارس التى لم يزل يتردد اليهما بعض أبناء الشرق في باريس فاقبل فيكتور هوكو على تحصيل العلوم الرياضـية ولم يترك مع ذلك نظم الاشـعار فنظم عدة قصائد فى الغـزل والمدح والهجو والهزل والرثاء وقصيدة فى الطوفان و بعض الروايات وصار له ملـكة فى الشعر والنثر بحسب ذوق أهل العصر الجديد . ولم يرمباينة بين العلوم الرياضية المبنية على حقائق برهانيـة وبين علوم الشـعر التى كان يظنها الناس خيالات باطـلة وأوهاما كاذبة وان أعذب الشعر اكذبه. بل كان يعتقد بان الشاعر لا بدله من تعلم العلوم الرياضية والطبيعيـة وكان يعتبر تصور حوادث الكون وتخيل مناظر الطبيعة وجمع معانى ذلك فى الذهن ثم افراغ المعانى فى قوالب الالفاظ ونسـجها فى أبيات الشـعر كل ذلك أشـبه بتصوير المسائل الحسابيـة

والهندسة وحل المعادلات الجبرية . ولذا قال بان صباه لم يكن الا تخيلا طويلا ممزوجا بدرس مدقق وان لا مباينة بين التدقيق والشعر لان القواعد الرياضية تطبق فى الشعر كما تطبق فى العلم وقال أيضا ـ ان الكلمة كائن حى فاعلموه ـ

وكان شاتوبريان من أفحل أدباء العصر وله مؤلفات جليلة فى النظم والنثر وقد طاف بلاد الشرق وزار مصر وسوريا واليونان وألف بعد ذلك كتابه المسمى (روح النصرانية) وبحث فيه عن حكمة الديانة المسيحية فطالعه فيكتور هوكو وأعجب به وتشرب منه آراء المذهب الكاثوليكى وسياسة الحزب الملوكى فكتب على دفتره وهو فى المدرسة بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨١٦ ـ اريد ان اكون شاتوبريان أولا شيء ـ . وبعد سنة من هذا التاريخ فتحت الاكاديمية الفرنساوية مسابقة للشعراء وجعلت موضوع السباق ـ فوائد المطالعة ـ فنظم فيكتور هوكو فى هذا المعنى ٣٢٠ بيتا عرضها على لجنة التحكيم ولم يكن له من العمر الا

خمس عشرة سنه فاستحسنوا أبياته واستصغروا سنه و ظنوه
سارقا شعره فلم يعطوه الجائزة واكتفوا بقيد اسمه فى دفتر
الشعراء . وفى السنة التالية بعث الى جمعية ـ لعب الازهار ـ
وهى جمعية أدبية تأسست قديما فى طولوز ـ القصيدة التى
سماها ـ عذارى فيردون وتشبب فيها ببنات تلك المدينة التي
على الحدود الالمانية وبعث أيضا بقصيدة أخري فى مدح
هنرى الرابع فنال بهما جائزة الجمعية . وفى سنة ١٨١٨ أكمل
فيكتور هوجو دروسه فى مدرسة ـ لوى لوغران ـ واستنكف
فى الدخول في امتحان المسابقة لاجل قبوله في المكتب الحربى .
وكتب لابيه بانه عدل عن سلك العسكرية واتخذ الشعر
صنعة يتعيش منها وان لاحاجة له بالراتب القليل الذي له
وأقبل على الجد والاشتغال ومثابرة الاعمال واشترك مع أخيه
الكبير أبيل وكان له مشاركة فى علوم الادب فاسساجريدة
أدبية عنوانها ـ المحافظ الادبى ـ ونشر فيكتور هوكو
الاشعار البديعة والمقالات الانتقاديه

وكان لويس الثامن عشر الذى جلس على سرير الملك سنة ١٨٢٤ عاقلا ماهرا لم يصغ لأقوال الذين يريدون اطفاء نور العلم والحرية واعادة المظالم القديمة بل أعطى الشعب حقوقه وسن لبلاده القوانين وكان ولى عهده اخاه شارل العاشر وله ولد اسمه دوك دوبرى قتله أحد الرعاع وهو خارج من مرسح الاوبرة سنة ١٨٢٠ وخلف دوك دوبري طفلا صغيرا اسمه دوك دوبوردو فنشر فيكتور هوكو في جريدته قصيدة هنأ فيها بالمولود وأخرى رثا فيها الوالد والقصيدتان موافقتان لسياسة الحزب الملوكى فاستحسنهما لويس الثامن عشر واجازه عليهما بخمسمائة فرنك . وفى تلك السنة بعث فيكتور هوكو الى جمعية لعب الازهار فى طولوز بالقصيدة التى عنوانها ـ موسى على النيل ـ فكافأته عليها بالمدالية الذهبية وكانت على شكل الزهرة ومنحته لقب الاستاذ فى جمعيتها

فاشتهر هوكو وانتشر شعره ولقبه شاتو بريان بالولد .

النجيب وفتحت الشعراء له أبوابها فتعارف على الفرد دوفينيه ولامارتين مؤلفا ـ الرحلة الشرقية ـ وسومة وأميل دوشان وغيرهم من شعراء العصر وفحول أدبائه وفرح به جميع المنتصرين للحزب الملوكي لانه على مذهبهم السياسي ودينهم الكاثوليكي وترنموا بأبياته في مجامعهم وانشدوا قصائده في نوادي سمرهم وكان ينظم لهم القصائد الهزلية والمدائح الملوكية على مايوافق مشربهم مثل ـ التلغراف ـ و ـ المفيد السياسي ـ و ـ القريحة ـ وغيرها

فانشرح صدر الشاعر بهذه الشهرة وارتاح باله من جهة تأمين معاشه في المستقبل ولعب الهوى في رأسه فرأى بجانبه صاحبته من الصغر قد انتقلت الى سن الشباب وانتصبت قامتها كالغصن ولبست أثواب الجمال والحسن فهام في حبها واراد الاقتران بها فمنعته أمه لفقر البنت وعدم وجود مهر كاف (دوته) معها وقطعت علائقها مع عائلة فوشر فتألم الشاعر بألم الفراق وأخذ يراسل حبيبته برسائل الحب والاشتياق

ونشرت هـذه الرسائل بمدموته تحت عنوان ـ مراسلات الخطيبة ـ

وفى سنة ١٨٢١ توفت والدته فحزن عليها حزنا شديدا لزيادة حنوّها عليه وكثره إحسانها اليه . ولم يمض شهر على وفاتها حتى تزوج والده بواحدة من الشريفات الغنيات لقلة وارده وكثرة نفقاته وبقى فيكتور هوكو وحيدا فريدا وانتقل من الدار التى كان فيها مع أمه الى مسكن صغير وتضايق في أمر معاشه لقلة مافى يده ولاحتياجه لمن يدبر له البيت ويهيء له الطعام . وأخذ يفكر فى معشوقته وفى الوصول للاقتران بها لان أباه اقتصر بمدسقوط الحكومة الامبراطورية وأبو حبيبته لم يكن من أصحاب الثروة العظيمة فاجتهد فيكتور هوكو فى تحصيل المال وأقبل على النظم والتأليف ونشر سنة ١٨٢٢ ديوان قصائده فكان له رواج عظيم وقرأه لويس الثامن عشر وأعجب به وأحسن على الشاعر من خزينته الخاصة براتب سنوى قدره ألف فرنك

فافترج الشاعر بهذا المعاش وتزوج بعادلة فوشر ولها من العمر ١٩ سنة . وبينماهم فى حفلة العرس على مائدة الطعام نهض أخوه اوجين واجرى أفعالا منكرة وفاه بكلام غير معقول فحملوا ذلك أولا على اكثاره من شرب المدام وذهبوا به الى بيته وفى الصباح وجدوه مختل الشعور وفهموا انه يحب عادلة محبة شديدة وكان يخفي حبها فلما تزوجت بأخيه هاجت عواطفه وذهب عقله فوضعوه فى بيمارستان سارانتون وهو فى ارباض باريس واستمر فيه الى أن مات .

وكانت عادلة بديعة الحسن رقيقة الحواس غير إنها بسيطة الفكر غير مفرطة في الذكاء وكان زوجها متيماً بحبها فسكن مدة عند صهره ولما بلغ راتبه من الملك ٢٠٠٠ فرنك فى السنة خرج بها من دار أبيها وسكنا فى بيت على حدة فولدت له أولادا كبروا فى حياته وهم ليوبولدين ماتت غريقة فى نهر السين وشارل مات فجأة عند صاحبة له فى بوردو وفرانسوا مات فى باريس وعادلة تزوجت على كره

من أبيها وأصيبت بداء الجنون مثل عمها وهى لم تزل فى قيد الحياة فكانت هذه المصائب باعثة على نظم القصائدالتى عنوانها ـ أولادى ـ ورثاهم أيضا فى كتاب ـ التأملات ـ وغيره بارق المراثى . وكان موحداً فى الاعتقاد ولم يتبع مذهب المسيحيين فى البقاء على زوجة واحدة بل شغف بعد ذلك بحب احدى الممثلات واسكنها مع زوجته وعمل عمل القائلين بتعدد الزوجات مع رعايته واحترامه لزوجته الاولى

وأخذ فيكتور هوكو يحرر فى مجلة ـ الموز الفرنساوية ـ التى أنشأها الأديبان سومه وديشان ويتردد على بيت شارل نوديه وكان هذا الفاضل مديرا لمكتبة ارستال وهى احدى المكاتب الاربع الكبيرة فى باريس . ونال معاشا وافرا بسبب هذه الوظيفة وفتح بيته للعلماء والشعراء حتى صار مجمعا للادباء وأسسوا فيه سنة ١٨٢٤ جمعية أدبية على الطرز الجديد . وفى هذه السنة توفى لويس الثامن عشر ولبس أخوه شارل العاشر تاج الملك فمدحه الشاعر بقصيدة عنوانها

- التتويج - فحازت القبول وأنعم عليه الملك بوسام الافتخار من رتبة شيفاليه كما أنعم بذلك على الشاعر الشهير لامارتين ولما نشر فيكتور هوكو ديوانه في المدح والغزل وحاد فيه على مسلك الشعر القديم المسمى (كلاسيك) وسلك في النظم مسلكا جديدا انتقد عليه أصحاب الطريقة القديمة وسلقوه بالسنتهم. ونشر الشاعر - سنت بوف - في جريدة الغلوب بتاريخ ٢ كانون ثاني سنة ١٨٢٧ مقالة انتقادية كانت سببا لتحويل انظار الناس الى الطريقة الجديدة ولتعارف الشاعرين حتى صارا من أعز الاخوان . وكان شارل العاشر قد حاد عن طريقة أخيه العادلة في سياسة الملك وحال الى الاستبداد فنفر منه الادباء والاحرار واغتنم سفير النمسا في باريس هذه الفرصة وندد في أمراء العساكر الذين خدموا مصالح نابليون الاول واهانهم في الكلام فانتصر لهم فيكتور هوكو لان أباه كان في زمرتهم ونظم قصيدة في مدح - العمود - أى العمود الذى رفع لنابليون في ميدان فاندوم وطلى بنحاس المدافع التي

غنمها فى حروبه ونقش عليه أسماء المواقع الحربية والامراء العسكرية . وكان الشاعر فى ذلك التاريخ قد بلغ سن الرجولية وهو السن الذى يتأهل فيه الرجل لحقوق الانتخاب فظن كبقية أدباء العصر المتخوفين من استبداد شارل العاشر ان الحكومة الامبراطورية اكثر عدلا وحرية من الحكومة الملوكية ولذا أقبل على اظهار فضل نابوليون واشهار مجده بدون أن يتعرض بالقدح لآل بوربون . ونشر عقب مدحه العمود قصة كرومول وشرح فى مقدمتها طريقته الجديدة فى علم الادب وشكل جمعية من أنصار هذه الطريقة وفى مقدمتهم الفرد دوفينيه وسنتابون وأميل دوشان والكساندر دوماس وبولانجيه وغيرهم مثل لامرتين وسموا طريقتهم (رومانتيك) كما كان المتقدمون يسمون طريقتهم (كلاسيك) وصار فيكتور هوكو أمام المدونين فى هذه الطريقة الجديدة فانتقد عليه الكثير من أرباب السياسة وحملة الاقلام ولاموه

وجهين أحدهما لمدحه نابوليون واشهاره مجد الحكومة الامبراطورية وثانيهما لعدوله عن مذهب الشعر القديم وسلوكه في النظم والنثر مسلكا جديدا . غير ان الشاعر لم يصغ للوم اللائمين واستمر يتردد على بيت صاحبه شارل نوريه وينشد قصائده امام الحاضرين . ويستميلهم لطريقته واحدا بعد واحد. ولما اتجهت أنظار العموم نحو الشرق بسبب ثورة اليونان وذهاب العساكر المصرية للموره وغدر الدول في وقعة نافارين نشر فيكتور هوكو ديوانه المترجم (بالشرقيات) ولم يزر الشرق ولا رأى نساؤه مثل شاتو بريان ولامارتين ولكنه درس أحواله درسا مدققا وقرأ ماترجم من كتب ادبائه مثل كلستان سعدى وديوان حافظ شيرازى وما ترجم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فراج ديوان الشرقيات لحداثة موضوعه وبحث فيه عن الممالك العثمانيــة والعوائد الشرقيــة وعن بلاد اليونان و إيتاليا واسبانيا وكانت النفوس مشوقة للاطلاع على ما في زوايا الشرق

من الخبايا

ثم نشر قصة عنوانها - آخر أيام المحكوم عليه -
وصور فيها الاضطراب الذى يحصل للمقتول قبل قتله .
وفى سنة ١٨٢٩ وجه الشاعر التفاته نحو المرسح الفرنساوى
(كوميدي فرانسه) وشرع فى اكتساب الرزق من تحرير
الروايات المحزنة التى يسمونها - درام - وحرر رواية
- ماريون ولورم - وهى غانية من غوانى باريس أحبها أحد
الرهبان وكان لها نبأ عجيب على عهد لويس الخامس عشر
ولما اراد مدير المرسح تشخيص الرواية منعه المراقب فرفع
الشاعر شكواه من ظلم مراقب المطبوعات الى الملك فلم يأذن
له بتشخيصها ومع ذلك قربه اليه ولاطفه بالكلام وقال له
- أحب قريحتك الشعرية وليس عندى اشعر منك ومن
ديزوجيه - وزاد فى راتبه حتى ابلغه ٤٠٠٠ فرنك فرفض
فيكتور هوكو هذا الراتب مع شدة احتياجه اليه وشرع
فى تحرير رواية - ايرنانى - فاكملها فى بضعة أسابيع

وشخصت على المرسح الفرنساوى ليلة ٢٥ شباط سنة ١٨٣٠.
واشتد بسببها القيل والقال وعلا فى المرسح الصفير والجدال.
بين أصحاب المذهب القديم والمذهب الحديث فى علم الادب.
وتم النصر فى تلك الليلة لهوكو وشيعته ولم يبق معه من النقد.
سوى خمسين فرنكا فتقدم اليه ملتزم الطبع وبارك له في.
نجاح الرواية ونقده في مقابلة حق طبعها ستة آلاف فرنك.
واستلم منه النسخة الخطية وعقد معه مقاولة على تحرير.
قصة - نوتردام دوبارى - وتسميها فى ظرف ستة أشهر
فاكب الشاعر على المطالعة والتحرير وأكمل تلك القصة قبل.
انتهاء الاجل المحدود فطبعت وكان لها رواج عظيم واسم
الرواية مأخوذ من كنيسة باريس الجامعة وهى بناء فخيم
بالقرب من دار البلدية ودار الحقانية

ولما أصدر شارل العاشر أمره بالغاء الحرية التي منحها
سلفه للشعب وبتعطيل أحكام القانون الاساسي هاج أهالى.
باريس وحدث انقلاب تموز سنة ١٨٣٠ وسالت الدماء.

فى العاصمة ثلاثة أيام بلياليها ففرّ شارل العاشر من فرانسا وتنازل عن الملك لابنه وولىّ عهده دوق انكوليم — وانكوليم بلدة بين بوردو وباريس — غير ان هذا الدوق استعفى أيضا وانتقل الملك بالارث الشرعى الى دوق بوردو وهو حفيد شارل المشار اليه . فالجمهور من الفرنساويين لم يلتفتوا الى حقوق هذا الصبي وانتخبوا عليهم لويس فيليب ابن عم شارل العاشر لقبوله اعطاء الاهالى حقوقهم وتعهده بحماية القوانين . فهوكو — شاعر الملك والمدافع عن حقوق الملكية وناظم القصائد الغراء في ولادة دوق بوردو صاحب الميراث الشرعى وفى رثاء أبيه دوق برّى — لم يهتز لهذه الحوادث بل اظهر استحسانهُ مافعلهُ الشعب ولم يعبأ بالمسائل السياسية وظل يشتغل فى فنون الادب فنشر ديوانهُ المسمى « أوراق الخريف » وشخص على المرسح الفرنساوى سنة ١٨٣١ رواية ماريون دولورم التى منع تشخيصها سابقاً ثم رواية — الملك يتسلى — وهى رواية تاريخية موضوعها

فرانسوا الاول الذى التجأ الى ساكن الجنان السلطان سليمان القانونى من شر عدوه شارلكين . فمنع مراقب المطبوعات اعادة تشخيص هذه الرواية للتعريض فيها بالملوك فرفع الشاعر شكواه الى محكمة التجارة ودافع عنها بنفسه امام الحكام فلم يسمحوا له بالتشخيص ، ولم يجر تشخيصها مرة أخرى الا سنة ١٨٨٢ وكان الذى ربحه فيكتور هوكو من مؤلفاته كافيا لانقاذه من مخالب الفقر واسعاد حاله ففتح بيته للزائرين حتى صار مجمع الادباء ومركز الشعراء وفى جملتهم الكاتب الشهير تيوفيل غوتيه الا ان الشقاق وقع بينه وبين صاحبه القديم الكساندر دوماس ودام الخصام أعواما كثيرة لان غيرة الشعراء والعلماء بعضهم من بعض أشد من غيرة الامراء .

وجفاه أيضا حبيبه سنت بوف الماهر فى فن الانتقاد وقال عن مؤلفاته بأنها ممزوجة بآراء السياسة الملكية والديانة الكاثوليكية والفلسفة السيمونية - وهى التى

وضعها الكنت سن سيمون فى أواخر القرن الثامن عشر وفرض فيها تعلم الصنائع على كل فرد من أفراد الأمة فلم يتبعه الا القليل من الناس مثل كارنو والدرئيس الجمهورية الاسبق - فعمل برأيه ومع جلالة قدره جعل أحد اولاده نجارا والآخر مهندسا وكلاهما من اكابر رجال الدوله ثم ألف فيكتور هوكو (لوكريس بورجيا) وهى أخت قيصر بورجيا الشهير بالاسراف وفساد الاخلاق وكانت بديعة الحسن ولها حديث غريب فشخصت هذه الزواية فى ٢ فبراير سنة ١٨٣٣ فأقبل الناس على استماعها ثم شخصت مرارا على المرسح الذى بباب سن مارتن وكانت الممثلة التى شخصت دور الاميرة نكرونى هى مادموازيل جوليت دروه التى سبت الشعراء بحسنها وعقلها فشغف فيكتورهوكو بحبها وبعد ان تردد على بيتها كثيرا أسكنها فى بيته عند زوجته فلامه أحد اصحابه فحرر اليه يعتذر بان زوجته أذنت له وسامحته على مافرط به من حب جوليت ولم تزل زوجته تحبه وتعزه

واستمرت جوليت فى صحبة الشاعر ورافقته فى منفاه وكانت تحرر له القصائد وهو يملى عليها ودامت معه الى ما بعد وفاة زوجتـه ووافقتـه أيضا في سنى شيخوخته ونشر فيكتور هوكو أيضا رواية « ماري تيدور » وهى ملـكة الانجليز ورواية « انجلوا » وهو أمير ظالم من أمراء الطليان ورواية « روبلاس » وهو اسم خادم الوزير الذى خدعت به ملـكة اسبانيا وكثيرا ماتشخص اليوم على المراسح الفرنساوية هى ورواية (ايرنانى). ورواية (كاوركو) وهي ممـا ترجم من مؤلفات هوكو الى التركية وفيها دفاع بليغ عن المحكوم عليهم بالاعدام وتشنيع هذا القصاص

وما نشره فى هذا التاريخ من الاشعار الموسيقية غـير أوراق الخريف (أغانى الشفق) و (الاصوات الداخليـة) و (الاشعة والظلال) وغير ذلك. فصار فيكتور هوكو بهذه التآليف يعد من فحول أدباء العصر وانتسب لدوق اورليان وزوجته ووجه عليه لويس فيليب نشان الافتخار من

درجة اوفيسيه وأهداه صورته وانتخبته الا كاديمى الفرنساوية عضوا فى جمعيتها با كثرية صوتين فقط بعدان عارض اعضاؤها زمانا طويلا فى قبوله لشدة تمسكهم بالقواعد وأساليب الانشاء القديم ولم يدخلوه بينهم الا بعد ان اشتهر فضله كالشمس فى رابعة النهار . وسنة ١٨٣٩ ساح فيكتور هوكو فى جبال الالب على حدود إيطاليا وسويسرا وشاهد مناظرها البديعة وزار بعد سنتين ضفاف الرين ودرس أحوال بلاد الالمان وكتب سياحته فى مجلدين نشرا بعد موته والف أيضا رواية (بورغراف) التاريخية وبين فيها أخلاق امراء الالمان فى القرون الوسطى فشخصت على المرسح الفرنساوي سنة ١٨٤٣ ولم يقبل عليها الجمهور ولا حصل منها أرباح المشخصين فتكدر الشاعر من سوء طالعه وعدل عن تأليف الروايات وترك رواية (التؤام) الذى شرع فى تأليفها بدون ان يكملها . وكانت الافكار العمومية تحولت عن طريقة الادب الجديد (رومانتيك) وعادت للاقبال على طريقة

(كلاسيك) القديمة لظهور بعض المؤلفات الجديدة . وبمناسبة
ذلك هزأت بعض الجرائد الهزلية بفكتور هوكو وصورته
برأس كبير وهو واقف أمام المرسح بجانب اعلان هذه
الرواية ينظر الى السماء وقد طلع نجم ذو ذنب وكأنه يناجى
ربهُ وهو يقول ـ لماذا جعلت للنجوم اذنابا وتركت
البورغراف بلا اذناب ـ وتطلق كلمة بورغراف على ذوى
الآراء السخيفة في ضروب السياسة والمقصود تركت الرّواية
بلاجمهور يزدحم على باب المرسح فيتألف منهُ ذنب طويل
كما هي العادة فى أقبال الناس على الروايات المهمة واصطفافهم
الواحد وراء الآخر لاشتراء أوراق الدخول . وخرج
فيكتور هوكو من باريس الى جبال البيرنة على حدود
أسبانيا يروض فيها افكاره ويزيل اكداره ولم يلبث فيها
كثيرا حتى فاجأهُ خبر مصابه بابنته وكانت فى التاسعة عشرة
من عمرها وقد فارقها وهى فى أثواب العرس فخرجت
بزوجها تتنزه في زورق على نهر السين فى مدينة فيليكيه

فانقلب بهما الزورق وماتا غريقين قبل أن يمضى على زفافهما أربعة أشهر وزوجها شارل فاكيرى هو أخ الاديب المشهور أوغوست فاكيرى. فزاد كدر فيكتور هوكو واختبر بهذه المصيبة آلام الحياة وهمومها ودخل الحزن قلبه ليعلمه أفانين الرثاء فأجاد وأبدع فى المراثى التى نظمها وأكثرها مدرج فى كتاب ـ التأملات ـ غير إنه من هول هاتين المصيبتين وهما موت ابنته وعدم رواج روايته يئس فى بادىء الامر من هذا العالم الفانى وانقطع رجاؤه بالله وضعف اعتقاده. ورفض الشعر مدة واقبل على الاشتغال بالعلوم السياسية ودرس المسائل الاجتماعية فنشر كتابا عنوانه ـ مكاتيب على الرين ـ حاول فيه حل مسألة الموازنة الاوروباويه وتوهم تقسيم ممالك أوروبا بين فرنسا وبروسيا واراد تقليد لامارتين فى الدخول لميدان السياسة ـ لان الشاعر لامارتين بعدان خدم طويلاً فى كتابته السفارات الفرنساويه وصار سفيرا فى طوسقانه وأثينه ترقى الى مسند الوزارة ولما زار الشرق ناله

شرف المثول بين يدي السلطان عبد المجيد خان وحاز على الالتفات الشاهاني وأحسن عليه بأ بعدية (جفتلك) في ولاية ازميرفأقام فيها وحرر تاريخ الممالك العثمانية في ثمانية مجلدات — ففتح لويس فيليب باب الحكومة لفكتور هوكو وعينه عضوا لمجلس الاعيان سنة ١٨٤٥ فجلس مع أصحاب اليمين وانضم لحزب الاكثرية وهو حزب الوزارة وقال بقولهم وتكلم في بعض المسائل فخطب خطبة في (ماركة الفابريكات) وأخري في (المسألة البولونية) ومدح البابا الحر طلب ارجاع عائلة بونابارت فلم يكن لكلامه تأثير على اعضاء المجلس كما كان لاشعاره وروايات ه تأثير في نفوس الجمهور عند صدورها على المراسح من أفواه الممثلين والمشخصات لانه لم ينل من القوة النطقية ما ناله من القوة القلمية والفكرية

ولما قوى حزب الجمهورية وحدث انقلاب سنة ١٨٤٨ وانزل لويس فيليب عن عرش الملك واعلنت حكومة الجمهورية الثانية على فرنسا انتخب فيكتور هوكو عضوا في مجلس الامة

من ايالة السين وأسس فى تلك السنة جريدة الوقائع (ايفينمان) وكتب عليها (البغض الشديد للفوضوية والهيام فى الشعب والحنو عليه) وكان يعينه في تحرير الجريدة ابناه شارل وفرنسوا واصدقاؤه من أفاضل المحررين مثل بول موراليس وأوغوست فاكيرى وتيوفيل غوتيه والبراوقروا وغيرهم وكان المترشح لرئاسة الجمهورية اثنين وهما نابليون الثالث والجنرال كافينياك فمالت جريدة الوقائع فى خطتها السياسية لنابليون لان فيكتور هوكو كان يترنم في قصائد المدح في العمود ويطرب لذكر نابليون الاول ولذا فانه أحب في بادىء الامر ابن أخيه نابليون الثالث وظن انه يتقرب اليه ويكون متشارا له فرجحه فى الانتخاب على الآخر واكتسب نابليون الثالث أكثرية الاصوات وكانت تزيد على خمسة ملايين ونصف مليون فأعلن رئيسا على الجمهورية واستلم زمام الادارة ولم يلتفت لفيكتور هوكو. فلما خاب ما أمله الشاعر انقلب عن أصحاب اليمين الى أصحاب الشمال وصار من أكبر رؤساء الحزب المخالف

فاتهمه العقلاء بانهُ مذبذب يتردد بين اليمين والشمال ودافع عنه أصحابه بقولهم ان الشاعر لا يهتم بالاحزاب وانما يرى مصلحة الامة فيسير معها . وكان كلما خطب في المجلس خطبة شددوا عليه النكير وذكروه بسوابق أعمالهِ واشعاره . ولما تمت الرئاسة لنابليون مالت نفسه للبس التاج وشرع في أعداد المعدات وتهيئة الاسباب فتظاهر فيكتور هوكو له بالعداوة ونشر في تقبيح سياستهِ فصولا وعرض باسمه في جريدة الوقائع فسماه نابليون الصغير فاتهم مراقب الجرائد ابنيهِ المحررين لتلك الجريدة وحاكمهما والقاهما في السجن . ثم استبد نابليون بالامر وأجرى حادثة ديسمبر سنة ١٨٥١ وألقي القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية وكان اسم فيكتور هوكو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيبته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء واستحصلت له على تذكرة مرور فخرج من باريس فارًا وهنا تم الدور الاول من ادوار حياته

الدور الثانى

— وهو مدة وجوده منفيا —

من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧١

بعد أن فر فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنساوية وأتى بروكسل عاصمة البلجيك وكان فى غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير ويعرفها بان مصروفه فى الشهر لا يتجاوز مائة فرنك وأقبل على التحرير والتأليف وهو يستشيط غضبا فنشر كتابه (نابليون الصغير) وكان أول صاعقة من الصواعق التي رماه بها ثم نشر (تاريخ جرم) فتهافت الناس فى فرانسا وعموم أوروبا على مطالعة هذين الكتابين فمنع نابوليون دخولهما لممالكه وأمر سفيره فى بروكسل بأن يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو

عنها فلم تجسر الحكومة على ذلك الا بعد أخـذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج فـذهب الى جزيرة جرسي التابعـة لانـكلتره وهي جزيرة فى بحر المانش بين فرانسا وجزائر بريطانيا العظمى وجلب اليها عائلته وكانت حبيبته جوليت سبقتهما وأقامت معه فى بروكسل وشاركته فى السراء والضراء وكان فى ضيق من جهة المعاش ولم يكن معـه إلاّ سبعـة ألف فرنك فعرف الجوع بقوله (ان المخمصة تثقب في قلب الانسان ثقبا وتملأه بالحقد) ونشر كتاب (القصاص) سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابوليون أشـد من الأولى وراج رواجا عظيما في فرانسا واوروبا وربح ملتزم طبعه في بروكسل ربحا وافرا لم يعد منه على المؤلف الا اليسير

ولم يزل نابوليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الارض فعارضه فيكتور هوكو ونظم عدة قصائد فى وصف حالة أولئك المضطهدين الذين اخرجوا من ديارهم ظلما وعدوانا فطلب سفير فرانسا في لوندره اخراج هوكو من

جزيرة جرسي وابعاده فاخرجته الحكومة الانكليزية ارضاء لنابليون ولكنها لم تضيق عليه فذهب الى جزيرة كيرنيزى وهى بجوار الجزيرة الأولى فى بحر المانش وتابعة مثلها للانكليز واشترى فيها داراً خربةً مهجورةً مبنيةعلى صخرة عالية مطلة على الاوقيانوس المحيط وتسمى « هوت فيل هوس » فرمها وسكنها واتخذ الطبقة العلياء منها غرفة لأعماله فكان يشتغل فيها بالنظم والتأليف ويفكر في تقلبات الدهر وأحوال العالم وبصره شاخص الي لجة البحر المحيط وكان يعينه في التحرير والمطالعة ابناه وزوجتاه وصاحبه الشاعر، اوغست فاكيري فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات وعرفه بسانحات البال . ثم أخذ يسلى همومه بمطالعة أخبار المتقدمين ودرس سير الانسان في مدارج الترقى والعمران فنشر القسم الأول من كتاب (سير الدهور) سنة ١٨٥٩ ثم ألف قصته الشهيرة المترجمة (بالبؤساء) وكان له صديق

حميم وهو مسيو لوفروا ناظر البحرية فى الوزارة الفرنساوية السابقة أى وزارة المسيو ميلين فكان هذا الاديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته فى البلاد الأجنبية فلما بعث اليه بالمجلدين الاولين من كتاب البؤساء باعهما لملتزم الطبع فى انكلتره بمبلغ قدره ١٢٥ ألف فرنك ذهب انكليزية

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أقبل المترجمون على ترجمته ونشروه فى تسع لغات من لغات أوروبا فى آن واحد وكان أصحاب المطابع تستدعى المسيو لوفروا من جميع الجهات من انكلتره وألمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب الى لوندرة عند الكتبى الشهير فى بلنوستراوود سأله بعنف : —

كم تطلب بحق نشر كتاب البؤساء فى اللغة الانكليزية ؟ : — فأجابه — ثلاثة آلاف ليره انكليزية فتناول دفتر الشك وحرر المبلغ والاسم وقال له — خذ نحن على وفاق

فسمد حال فيكتور هوكو من جهة المماش وذهب عنه الضيق فنظم داره وغرس أرضها بالاشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المتمدن وقصده الزوار وكاتبه الرجال أو كان البعض يحرر عنوانه (فيكتور هوكو في الاوقيانوس) فكانت المكاتيب تصله بهذا العنوان المبهم لسمة شهرته . واشتهر اسمه لاقترانه باسم نابليون وكبره البعد والاعتزال في مخيلات الناس حتى اعتقدوه من أكبر العقول البشرية وكانت العيون ترقب طلوع مؤلفاته كما ترقب شمس الشتاء . وفي سنة ١٨٦٤ نشر كتاب (وليم شكسبير) في الفلسفة وبعدها بسنة نشر ديوان (أغاني الشوارع والاحراج) وفي سنة ١٨٦٦ نشر قصة (المشتغلين في البحر) ووصف فيها مايكابده الفلاحون من المشاق وما يتورطون فيه من الاخطار . وفي سنة ١٨٦٩ نشر قصة (الانسان الضاحك) ولم يأل جهدا وهو في تلك الجزيرة عن الانتصار للاقوام الذين غدر بهم الزمان ورماهم سوء الطالع بالخسران وفعل مافعله فولتير وهو في فيرين فدافع عن عصاة ايرلانده

وعن مكسميليان امبراطور المكسيك وهو أخ امبراطور النمسا اغراه نابليون الثالث على لبس التاج وأمده بالعساكر الفرنساوية ثم تخلى عنه فحاكمه المكسيكيون وقتلوه

ثم ان المسائل العائلية أخلّت براحة الشاعر وأقلقت أفكاره وذلك ان ابنته عادلة أحبة قومندان المركب المحافظ على الجزيرة وتزوجت به رغما عن والدها وذهبت معه الى الهند منشأ الطاعون ومهب الريح الاصفر فمات فيها وعادت لفرانسا مختلة الشعور سنة ١٨٧٢ فادخلوها البيمارستان مثل عمها وهي التي ورثت أباها . وفى سنة ١٨٦٨ توفيت زوجة فيكتور هوكو فى بروكسل بعد أن كفّ بصرها وذهب ابناه فى السنة التالية إلى باريس مع صاحبهما اوغست فاكيرى لينشؤا فيها جريدة (رابل) ويندِّدوا بالحكومة الامبراطورية وذهب فيكتور هوكو إلى بلاد سويسرا ليحضر مؤتمر لوزان ويخطب فيه خطبته المشهورة . ولما جرت الانتخابات في أوائل سنة ١٨٧٠ نشر فيكتور هوكو رسالة اعتراضية عنوانها (لا)

ثم انشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ودارت الدائرة على نابليون فسلم سيفه في ميدان القتال إلى ملك بروسيا وطار الخبر الى باريس فاجتمع رؤساء الحزب الجمهورى فى دار البلدية وأعلنوا الحكومة الجمهورية مكان الحكومة الامبراطورية فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وهى حكومة الجمهورية الثالثة الحالية ولم يعد مانع لفكتور هوكو من الرجوع الى فرنسا . وبذلك تم أيام نفيه .

الدور الثالث

من حياة فيكتور هوكو وهو دور شيخوخته
أي من رجوعه الى فرنسا سنة ١٨٧٠
الى وفاته سنة ١٨٨٥

بعد أن أقام فيكتور هوكو في منفاه ثماني عشر سنة عاد الى باريس مع من عاد من أركان الحزب الجمهوري واستقبله أحباؤه واشياعه وانزلوه على الرحب والسعة فحرر خطابا بليغا للالمانيين يحضهم فيه على الصلح وترك الحرب وكان من رأيه السياسي وضع اتفاق بين الامة الفرنساوية والبروسيانية وتقسيم البلاد بينهما فلم يصغ الالمانيون لخطابه وظلوا هاجمين حتى بلغوا خنادق باريس وألقوا الحصار عليها فترك فيكتور هوكو القلم من يده وأمسك السيف وانتظم في سلك الجنود المحافظين

من الأهالى ودافع عن أوطانه وتألم بآلام اخوانه . ولما
احتلت العساكر البرسيانية باريس هاجر منها أهلها واتخذت
الحكومة الجمهورية مدينة بوردو مركزاً لها عوضاً عن
باريس . وانتخبت إيالة السين فيكتورهوكو مبعوثا لها فى
مجلس النواب فلما قام يخطب عارضه أصحاب اليمين واكثروا
اللغط وأبوا الانصات له فقال لهم (منذ ثلاثة أسابيع رفض
المجلس الاصغاء لغاريبالدى واليوم يرفض الاصغاء لى فاقدم
استعفائى) وغاريبالدى هو من القواد الذين حاربوا لاجل
استقلال ايطاليا وهاجم رومة العظمى وانتزعها من يد البابا
وسلمها الى ملك ايطاليا ليتخذها عاصمة للملك فلما انشبت
الحرب بين فرانسا وبروسيا دخل متطوعا فى العسكر
الفرنساوى ودافع عن فرانسا أشد المدافعة فانتخب مبعوثا
فى مجلس النواب مع كونه طليانى الأصل وكانت الاكثرية
فى المجلس من حزب الملوكيين والرهبانيين فاتهموه بالكفر
والالحاد لتجاوزه على رومة ونزعه سلطة البابا منها ولذا لم

يصغوا لكلامه. وفي ذلك التاريخ أعيد طبع كتاب (القصاص) نكالا في حزب الامبراطورية وكان يباع بالمائة ألف نسخه معاً. ولما كان ابن فيكتور هوكو المسمى شارل في بوردو دخل عند صاحبة له يقضي ليلته فتوفي فجأة في فراشها وحزن عليه أبوه حزنا شديدا فجاء بجثته الى باريس ودفنها يوم حدوث ثورة الكومين وانعطف بالحنو والرأفة على ولديه الاصغرين وهما جورج وجان وبالغ في دلالهما حتى أثر هذا الدلال في أخلاقهما وأصبحت جان لا تستطيع معاشرة زوجها حتى طلقها لشدة ميلها إلى اللهو والخلاعة وبعد وفاة شارل تزوج المسيو لوفروا بزوجته لتربية الولدين لاحياء بيت فيكتور فتبناه الشاعر وأحبه حبا شديداً.

ولزم فيكتور هوكو الحيادة في المسائل السياسية لحزنه على ولده وفلذة كبده غير إنه لم يطق الصبر على ماشاهده من فظائع الرعاع فلامهم على قلبهم العمود المنصوب لنابليون الاول كمالام حكومة فرسايل على إطلاقها القنابل على قنطرة

النصر المنصوبة له وبرأ نابليون الأول مما جناه ابن أخيه على البلاد من الحرب التي جلبت عليهم الويل والدمار وذهب هوكو في أثناء تلك المعامع الى بروكسل والى لوندرة ونشر كتابه المعنون « بالسنة المهولة » وشدد فيه النكير على دخول الاجانب لفرانسا وعلى الفظائع التى أجراها الرعاع والسفلة وهم السكومين . ثم عاد فيكتور هوكو لباريس وانشأ فيها جريدة سماها « الشعب الحاكم » وجعل ثمنها خمسة سنتيمات لكل نسخة ليتمكن الفقراء من مطالعتها . ولم يهدأ بال الشاعر برجوعه لأوطانه واجتماعه على أحبائه وخلانه الا وأصيب بموت ابنه الثانى فرانسوا فصبر على مصائب العمر ونكبات الزمان وسلم الامر لله لأنه كان من الموحدين وعكف على النظم والنثر فنشر سنة ١٨٧٤ قصة عنوانها « ثلاث وتسعون » وتكلم فيها عن الانقلاب الفرنساوى الكبير . وفى سنة ١٨٧٥ انتخب فيكتور هوكو عضواً لمجلس الأعيان (سينا) مجلس فى نهاية أصحاب الشمال ولم

يتكلم فى المجلس الا قليلا مثل طلبه العفو عن مجرمى الكومين — والكومين هم القوّة الحزبية أو الادارة العرفية التى تتشكل فى العاصمة وتحدث انقلاب الدولة ويحصل بسبب ذلك من تعدى الرعاع وتسلط السفلة ماتقشعر من سماعه الجلود . وقد تأسست هذه الادارة المرهبة فى باريس مرتين احداهما سنة ١٧٩٢ والاخرى سنة ١٨٧١ واستمر هذه السنة من ١٨ مارس إلى غاية مايو جري فى أثناء ذلك من التعديات والمظالم فكان فيكتور هوكو يشير فى المجلس بالعفو عما مضى ولم يظهر له اقتداء كبير فى السياسة ولافي الخطابة مثل غامبتا وأمثاله من فحول السياسيين وانما صرف كل قواه فى الاشتغال بعلوم الأدب والتاريخ ونشر (الأقوال والاعمال) و(أولادى) و (معرفة مايكون به الانسان جداًّ) وفي سنة ١٨٧٧ نشر القسم الثانى من (سير الدهور)و (الاملاك العموميه التى تدفع الرسوم) ونشر من سنة ٧٨ الى سنة ١٨٨١ أربع

منظومات فلسفية وهى (البابا) و (الرحمة العالية) و (الاديان والدين) و(الحمار)

وحاز فى شيخوخته احتراما كبيرا وثروة عظيمة زادت على ثلاثة ملايين فرنك ولما بلغ الثمانين من عمره احتفل به أهالى باريس احتفالا عظيما وزنت له المدينة فى ٢٦ شباط سنة ١٨٨١ ووفد عليه المهنئون من جميع الولايات والنواحى واكثر الممالك الاجنبية فاستقبلهم وهو واقف بين حفيده جورج وحفيدته جان وكان مغرما فى حبها وفى حب جميع الاطفال وقد خصهم بالذكر فى أشعاره وتغزل بهم ولذا كان فى جملة الوفود المهنئين وفد من أجمل الاطفال الصغار يحملون له باقات الازهار . ولم يبق أحد فى باريس الا ومرّ ببابه وصاح جمهورهم بالدعاء له فوقف فى نافذته وحياهم كما يحيى الملك شعبه ودموعه تذرف من شدة التأثر والاشفاق . وكان مشاهير الرجال وامراء الناس وأعيانهم كلما جاؤا باريس زاروه فى داره وحضروا مجلسه . وكان فى جملة من زاره

امبراطور البرازيل . فكان الاحتفال ببلوغه الثمانين من أجمل الاحتفالات التى لم يسبق مثلها الا للشاعر الفيلسوف فولتير قبل موته بقليل . ونشر فيكتور هوكو في آخر أيامه منظومة طويلة سماها (رياح العقل الاربع) وغير ذلك من الآثار التى نشرت بعد وفاته

ولما توفي فيكتور هوكو سنة ١٨٨٥ لبست باريس عليه أثواب الحداد والتبس فيها الامر على الغرباء حتى لم يعلموا هل القوم في مأتم عظيم أم في عيد كبير وجيء بجثته فوضعت في تابوت عال تحت قنطرة النصر بعد ان كسيت بالسواد وزينت بالأزهار والرياحين واصطف الشعراء حولها صفوفا واحتاط بهم الفرسان يحملون بأيديهم المشاعل وسهروا عليه طول ليلتهم والناس يمرون امام تابوته أفواجا أفواجا ولما أصبح الصباح اجتمعت الجموع وزينت الصفوف وكانت أكثر المدن الفرنساوية والممالك الاجنبية قد بعثت بالوفود والاكاليل فحملوا الجنازة من تحت قنطرة

النصر الى البانتيون وصار له مشهد لم يسبق لشاعر قبله ولا لفولتير . وكانت وصية هوكو بأن لا يحضر جنازته راهب ولا أحد من الاكليروس وان يدفن كالفقراء . ولذا كانت العربة التي حملوه عليها من عربات الفقراء لا تناسب دبدبة هذا الاحتفال ولم يجر له احتفال ديني بل كان الاحتفال بجنازته أهليا . اه

***

تأبين فولتير (١)

في مثل هذا اليوم – منذ مائة سنه ، مات الرجلُ العظيم ، مات الرجلُ الخالد ، مات فولتير ،

ما مات فولتير حتى أحدودب ظهرهُ تحت أثقال السنين الطوال ، وأثقال جلائل الأعمال ، وأثقال الامانة العظيمة التي عرضتْ على السماوات والارض فأبينَ أن يحملنها فحملها وحدَه ، وهي تهذيب السريرة الانسانية فهذبها فاستنارت فاستقام أمرها

مات فولتير مرذولا محبوبا في آن واحد ، يُبغضه الماضي لانه يجهله ، ويحبه المستقبل لانه عرفه .

كان وهو على سرير الموت محاطا بعاطفتين مختلفتين

---

(١) وهي ترجمة خطبة خطبها فيكتور هيجو في باريس في حفلة تأبين فولتير الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨ بعد مرور قرن على وفاته مع بعض تصرف بقلم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي

شكلا متفنقتين معنى . لانهما جميعاً فى سبيل مجده وفخاره كان ينظر أمامه . فيسره منظر التبجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله . ويلتفت وراءه فيُطربه مَشهدُ البغض والازدراء والحقـد الذى يكنه المـاضي فى صـدره لاولئك الرجال البواسل الذين قاتلوه فانتصـروا عليه

كان فولتير رجلا واكبر من رجل . كان وحـده أُمة كاملة . انه عاهد نفسه على إنجاز عمل فانجزه ولم يخالفْ وعده وكأن الارادة الإلهية المتجلية فى الشرائع تجلّيها فى الطبائع نثرت كنانة هذا المجتمع الانسانى وعجمتْ عيدانه فوجدتْ فولتير أصلبها عودا فانتدبته للقيام بالعمل الذى قام به فاتمه

إنا أتينا هنا الفصل الخطاب فى المسائل الاجتماعيـة . جئنا لنرفع شأن المـدنية ونُـكرمَ الفلسفة اكراماً ينفعها ويفيـدها . جئنا لنتلوَ عـلى القرن الثامن عشر رأىَ القـرن التاسع عشر فيه . جئنا لنُـكرم المجاهدين والعاملين المخلصين اجتمعنا لنمهـد الطريق للوحـدة الانسانية التي يسعى اليها

العلماء والعاملون . والصناع المجدون . وجملةُ القول إنا ما اجتمعنا هـذا الا لنمجـد العاطفة الشريفة الساميـة عاطفة السلام العام

إنا نمجـد السلام حبا فى المـدنية وحرصا على رونقها ورُوائها . فانَّ السلامُ فضيلةُ المدنية والحربَ رذيلتها.

نحن فى هذه اللمحة الـكبيرة فى هذا الموقف المهيب نجثوا على الركب ونعفِّر جباهنا بين يدي الشريعة الادبية ونقول للعالمُ الذى ينُصت لسماع صوت فرنسا (لا قوّة الا قوة الضمير ولا مجد الا مجد الذ كاء) ذلك سبيل العـدل وهذا فى سبيل الحق .

لقد كان شأن المجتمع الانسانى قبل الثورة الفرنساوية على هـذا المثال . الشعبُ فى المـنزلة الدنيا . وفوق الشعب الدين والقضاء . هذا يمثله القضاة وذاك يمثله الاكليروس

أتدرون كيف كان الشعب وكيف كان الدين والقضاة فى ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلا . والدين رياء . والقضاء

ظلما .

ان كنتم فى شك مما أقول فانى أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقتنعا للحائر المتردد

فى ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وُجد شاب مصلوبا فى الطبقة الأرضية من بيت في مدينة طولون فهاج الشعب ولغط الاكليروس وبحثَ القضاةُ . فكانت النتيجةُ أن كان الشابُ منتحرا فسُمى قتيلا . ووالده بريئا فسُمى قاتلا .

هكذا أراد الدينُ وأرادت مصلحته أن يهلك والدُ الفتى لانه كان بروتستانيا ولأنه كان يمانع فتاه أن يتمذهب بالكثلكة انها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ويحيلها العقل . ولكن هان عليهم أمرها ولم يحفلوا بالشريعتين شريعة القلب وشريعة العقل فحكموا أن الشيخ الكبير قتل ولده الصغير

هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة فاسدة . وها

فى شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق الى الميدان العام شيخ أبيض الشعر هو (جان كالاس) ثم جُرد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدت به أطرافه وترك رأسه متدليا

ثلاث رجال تلوثت أيديهم بدم القتيل ، كاهن يحمل الصليب ، وجلاد يحمل القضيب ، وقاض يحمل فى صدره عهدُ القوم اليه بالتنكيل والتعذيب ،

لم يكن الشيخ المسكين وقد شق الخوف مرارته وتمشى قلبه فى صدره لينظر الى الصليب فى يد الكاهن بل الى القضيب فى يد الجلاد

رفع الجلاد القضيب وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح على أثرها صيحة مؤلمة ثم أغمى عليه فتقدم القاضى الرحيمُ وأمر له بالمنبهات فانتعش فضربه الجلاد الضربة الاخرى فوق الذراع الآخر فعاد الى صرخته واغمائه وعادوا الى تنبيهه وانعاشه وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وشجتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثمانى مرات ،

فى الاغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب تقدم الكاهن ومدّ اليه الصليب ليُقبّله فحول وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينين ، فاقبل الجلاد وسدد الى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد وضربه ضربة لصقت صدره بظهره فكانت القاضية

على هذه الصورة مات (جان كالاس)

وماهى الا أيام قلائل حتى عرف الناس ان الفتى مات منتحراً لا مقتولا فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفذ سهم القضاء فيه

اما الحادثة الاخرى فهى عبرة الشباب كما كانت الاولى موعظة الشيخوخة ،

بعد مضي ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الاولى وجدوا فى ايفيل فى ليلة عاصفة صليباً عتيقاً اكل السوس احشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرحا فوق الجسر بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون

من ألقى به من أعلى السور ؟ من ذا الذى دنس هذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذى أجرم هذا الجُرم العظيم ؟

ربما عصفت به ريح أو عبث به عابر طريق أو هوى به ضعف الشيخوخة واعياء الهرم ، لا (لا) كل ذلك لم يكن . لان الدين أبى الا أن يوجد مجرما . هنالك اعلن مطران أميان براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم أوظن انه سيئاً من هذه الحادثة فكتمته

أن الحرمان فى الكثلكة جريمة فظيعة قاتلة حتى اوحى به التعصب الذميم الى الجهل العظيم . كان هذا الحرمان سبباً فى أن القضاء عرف أو ظن انه عرف ان ضابطين اسم أحدهما (لا بار) والآخر (ديتالون) مرّا على جسر ايفيل فى تلك الليلة المشؤومة يترحان سكرا وينشدان نشيدا عسكريا ـ مرا بالجسر وأنشد النشيد فهما المجرمان . وكانت المحكمة مقدس ايفيل ولم تكن بأقل عدلا وانصافا من مجلس الكابيلتون فى طولون . فأمرت بالقبض على الرجال فاختفى ديتالون

وقبض على لا بار وأسلم الى القضاء فاعترف بالنشيد و نكر المرور على الجسر فحكمت عليه محكمة ايفيل بالاعدام وأيد حكمها برلمان باريس فدنت الساعة المخيفة الهائلة

لقد تفننوا فى تعذيب لا بار وارهاقه ليكشفوا عن سر فعلته وعن شركائه فى جريمته . أى جريمة المرور على الجسر وانشاد النشيد .

لقد عذبوه عذابا أليما حتى ان الكاهن الذى جىء به ليسمع اعترافه أغمى عليه حينما سمع قرقعة عظام ركبتيه

مضي هذا اليوم وجاء اليوم الثانى وهو يوم ٥ يونيه سنة ١٧٦٦ وجىء بالشاب المظلوم الى ساحة ايفيل الكبرى حيث تشتغل نار العذاب وتضطرم اضطراما فاسمعوه نص الحكم ثم بتروا يده ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه . ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا بها فى النار

على هذه الصورة مات الشيفاليه دى لا بار كما مات من

قبله جان لاكاس .

أحزنك هذا المنظر يافواتير وآلم نفسك وملك عليك شعورك ووجدانك فصحت صيحة الرعب والجزع فكانت تلك الصيحة الحجر الاول في بناء مجدك العظيم الخالد

هنالك انبعثت نفسك الى النزول في ميدان المجتمع الانسانى لتكف عادية الظالمين . وتقلم اظفار الوحوش الضاربة وجلست في منصة القضاء لتحاكم الماضى على جرائمه وتنتصف منه المستقبل . فانتصفت وانتصرت وكنت من المحسنين

فيا أيها الرجل العظيم : طبت حيا وميتا .

حدثت تلك الحوادث التى ذكرناها على مشهد من المجتمع المهذب الراقى وفي حياة حافلة بالسعادة مغتبطة بالهناء يغدو اليها الانسان لاهيا . ويروح ساهيا . لا يرفع رأسه فيعلم مافوقه . ولا يخفضها فيدرى ما تحته

حدث ذلك وايام البلاط أعياد وفرسايل تتلألأ حسنا وبهاء ورونقا وماء . وظرفاء الشعراء مثل سان اولاير وبوفلير

وجميل برنار لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

حدث ذلك وباريس تتجاهل مايجرى حولها فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية ان يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القضيب الحديد . وان يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد . كان المجتمع فى ذلك التاريخ مؤلفا من قوى عظيمة هائلة قوة البلاط . وقوة الاشراف . وقوة المال . وقوة الشعب الهائج المتدفع . وقوة الحكومة التى كانت أسدا على الرعية ونعامة بين يدي الملك تجثو أمامه خاضعة صاغرة الا أن جثيها كان على جثة الشعب وقوة الاكليروس المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى

تقدم فولتير وحده واثار حربا عوانا على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة المخيفة ولم يره اكبر من أن ينخذل ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر

أتدرى ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الاداة التى تجاري العاصفة فى هبوبها . وتسبق الصاعقة فى

انقضاضها . ما كان له سلاح غير القلم . فبالقلم حارب وبالقلم انتصر .

انتصر فولتير . فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة . فولتير أدار وحده رحى تلك الحروب الهائلة حرب العلم والجهل . والعدل والظلم . والعقل والهوى . والصلاح والفساد . فتم على يديه الغلب للخير على الشر وفاز فوزاً مبيناً كان فولتير قلباً وعقلاً كان له رقة الفتاة في غلالتها (١) . وشدة الاسد في لبدته .

فولتير محى الخرافات الدينية والعادات الفاسدة وارغم أنف الكبرياء وأذل عز الرؤساء . ورفع السوقيّ الى حيث لا يصل اليه ظُلم القاضي وتنطُّع الكاهن

علّم ومدّن وهذب ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر مايكسر سورة النفس فلم تنكسر سورته . ولم

---

(١) الغلالة شعار يلبس تحت الثوب

تفتر عزيمته . بل كان يلقى الاستبداد بالسخرية . والغضب بالاستخفاف . والقوة القاهرة . بالابتسامة المؤثرة .

أقفُ هنا قليلا إجلالا لابتسامة فولتير

فولتير هو الابتسامة . والابتسامة هى فولتير .

أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب وكذلك كان فولتير .

كان عقله ميزان أعماله فما غلبه حتى الغضب للحق .

كنت تراه عابسا مقطباً فما هى الا كرة الطرف أن ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب .

يكاد يكون ابتسامه ضحكا لولا حزن الحكيم وهم العاقل .

كان ابتسامه كبارقة السيف يرتاع لها الاعداء ويرتاح لها الاولياء .

كان يبتسم للقوى فيخجله بتهكمه واستخفافه . وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه .

فلنمجد ذلك الابتسام الذى كانت أشعته كأشعة الفجر تمحو الظلام وتبعث الانوار

نعم الابتسام ابتسام انار الطريق للعدل والحق والصلاح، وكشف عن ظلمات التقاليد

ان ابتسامة فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالاخاء والمودة والحرية والمساواة. فنال العقل منزلته من الاجلال والاعظام. سواء سكن القصر الكبير أو الكوخ الحقير. ولبس المعلم تاج الملك فتصرف فى العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير. ونشر السلام اجنحته البيضاء المجتمع الانسانى فقرت السيوف فى لاغماد. وهدأت الدماء في العروق والارواح فى الاجسام. كل ذلك بفضل ابتسامة فولتير. ولسوف يأتى ذلك. اليوم العظيم. يوم الرحمة بالضعفاء والعفو عن الخاطئين فيبتسم فولتير فى السماء ابتسامة تتلألأ بين لألاء النجوم

فلنمجد ابتسامة فولتير كل التمجيد. ولنكبرها كل

الاكبار .

هل كان فولتير يحلم دائما فلا يستخف حلمه الغضب ؟

كلا ، بل كان يغضب أحيانا فى سبيل الحق

ان التوسط وحفظ الموازنة بين الاخلاق هو القانون العقلى للانسان حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى وحتى لا يهلك بين عاطفتى الحب والبغض . وأن الفلسفة هى الاعتدال واظهار الحقائق واضحة بين مؤتلفات الأعمال والاقوال . ولكن أرى أن حب الحق يجب أن يكون فى مرتبة الغلو حتى تهب عاطفته هبوب العاصفة فتذهب الاقذاء والاقذار

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله . أما الاولى فيكفلها العدل . وأما الثانية فيحرسها الرجاء والامل لذلك يحب الناس القاضى العادل . والكاهن الصالح . لأن الاول صورة العدل . والثانى مثال الرجاء . فاذا انقلب العدل ظلما . والامل يأسا . عافهما الانسان ولوى وجهه عنهما . وقال للقاضى (لا أحب قانونك) وللكاهن (لا أعتقد بدعتك).

وهناك يهب الفيلسوف الغيور غاضبا فيحا كم القضاء أمام العدل والكهنوت امام الله . وكذلك فعل فولتير فكان من المحسنين .

ان الرجل العظيم لا يظهر فى المجتمع وحيدا الا قليلا وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره فهو كالشجرة تكون فى نظر الناظر أطول فى الغابة الشجراء . منها فى التربة الجرداء لانها تكون فى منبتها ومستقرها . وكان فولتير فى غاية من العقول الكبيرة . روسو وديدرو وبوفون وبومارشه ومونتيكيو . أولئك القوم المفكرون هم الذين علموا الناس النظر فى حقائق الأشياء والتفكر الموصل الى اتقان الاعمال وعلموهم أن صلاح القلب اثر من آثار صلاح العقل فاجادوا وافادوا

مات أولئك القوم العظام وهوت من أفقها كواكبهم . ولقد كانوا فى حياتهم جسدا وروحا . اما الجسد فقد طواه القبر . واما الروح فهى الثورة التى تركوها من بعدهم

اجل . ان الثورة روحهم والمظهر الساطع المتلألىء بحكمتهم ومبادئهم .

هم في الحقيقة ابطال الثورة المقدسة التي هي خاتمة الماضي وفاتحة المستقبل .

انك تراهم بعين بصيرتك في كل مواقفها ووقائعها . اذا اخترقت أشعة العقل حجاب المسببات ونفذت الى الاسباب نري في نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقفا وراء دالتون وروسوو وراءه بسبير وفولتير وراء ميرابو ونجد أن أبطال الثورة صنيعة ابطال الفلسفة

ان الكلمة الاخيرة التي أنطق بها في هذا الموقف هي دعاء المجتمع البشري الي التقدم بهدوء وسكون وثبات ووقار

قد وجه الحق ضالته التي كان ينشدها وهي الاخاء الانساني والتعارف النفسي فمن العبث ان تشغل القوة بعد ذلك مكانا من هذا المجتمع . فان فعلت كان أليق الاسماء

بها الاستبداد

ان المجتمع الانسانى انكر على القوة حقها المزعوم وضاق صدره بجرائمها وآثامها فقاضاها بين يدى التمدن ووضع بين يديه جريدة المتهمين فى الرؤساء والزعماء . وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه فقضى التمدن له عليها وجاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

شف ثوب الرياء عما تحته وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبارُ عليها فاصبح الابطال والمجرمون فى نظر الانسان سواء

هدمَ التمدن تلك القاعدة الفاسدة . وهى ان الجرم العظيم أصغرُ من الجرم الصغير . فأدرك الانسانُ ان قتل الشعوب أكبرُ أثما وأعظم جريرة من قتل الافراد واستكبر ان يعتبر الحرب مجدا وهو يعتبر السرقة عاراً وبالجملة عرف ان الجريمة جريمة حيث حلت . وفى أى مظهر ظهرت . وان القاتل لا يغنى عنه من الله شيئا ان يسمى القيصرَ

أو يدعى الامبراطور ولا يخفى على الله من أمره شيء سواء
لبس تاج الملك أو قلنسوة الاعدام

فلنصرح بالحقيقة المقررة الواضحة . ولنحتقر الحرب
أشد الاحتقار .

ان الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود .

ان منظر الدماء والاشلاء افظع منظر

لا يعقل أن يكون الشر طريق الخير . وان يكون الموت
وظيفة الحياة

أيتها الامهات الجالسات حولي خففن في أحزانكن
وقد أوشكت يد الحرب ان تكف عن اختلاس أفلاذ
أكبادكن

أتشق المرأة فنلد . ويغرس الزارع فيكسو الارض
بساطها الاخضر ويجهد العامل فيملأ الخزائن ذهبا وفضة
ويأتي الصانع بعجائب المصنوعات . وغرائب المدهشات
حتى اذا أخذت الارض زخرفها . وفاخرت السماء بنجومها

وكوا كبها وذهبنا لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال

لالا انالا نستطيع ان نخدع أنفسنا وننكر ان الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائقَ محزنةٍ تكدر صفوَها وتنتقص من سرورها

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابةٌ سوداء .

ان الشعب لم يقض كل أربه من السعادة لان الحرب لم تزل باقية .

فلنذكر عند ذكر ملوك الحرب فولتير وجان جاك وديدرو ومنتسكيو ملوك السلام ولنوجه وجهتنا الى تلك الروح العالية . الى تلك الحياة العظيمة . الى ذلك الدفين المقدس . الى فولتير . ولنخضع امام قبره عسى ان يمدنا بروح منه ويهدينا الى حظيرة السلام . فانه بعد مرور قرن على حياته لم يزل في الاحياء الخالدين

ولنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال كفى كفى انها همجية انها تشوه وجه المدنية

ان أسلافنا من الفلاسفة هم رسل الحق الى البشر فلنضرع اليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها وينذروا ان الحياة ملك الانسان وعظيم عليه أن تسلب منه . وان التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والافكار

ان النور لا أثر له بين أضواء القصور . فلنطلبه بين ظلمات القبور

يابنتي قومى للصلاة

قصيدة فلسفية من ديوان أوراق الخريف (١)

يا بنتي قومى للصلاة . ـ انظرى اندعمس الليل ونزل الضباب على الافق وطلع النجم من وراء السحاب كأنه دينار انصتي لم يبق الا مركبة تكر فى الظلام على بعد والكل دخل ليستريح والشجرة على الطريق نفضت غبار النهار بريح المساء (وهى الدبور)

زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية ورقق المغرب حاشيته الحمراء وفضض الليل فى الدجا وجه الماء وامتزجت اثلام المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك واختفى الجميع عن العيان والتبست الطريق على ابن السبيل

---

(١) بقلم روحى بك الخالدى

النهار للأذى والتعب والبغض فلنشرع فى الصلاة

حيث دخل الليل ما أصفي الليل وما أوقره ! الراعى يعود

من الشامية تجأر . والريح تعزف فى نوافذ البرج . والمياه

تركد في المستنقعات . والجميع يتألم ويشكو . لان الطبيعة

من شدة تعبها أمست فى احتياج الى النوم والصلاة والحب

هذه الساعة هى التى يتكلم فيها الاولاد مع الملائكة

سواها فنحن نتضرع فيها لملاهينا القريبة فجميع الاولاد

الصغار يدعون فى آن واحد بدعاء واحد . وهم راكعون

على الارض وأعينهم شاخصة الى السماء وأيديهم مضمومة

وأرجلهم حافية . ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى

ثم ينامون . . وحينئذ تتناثر أحلامهم الذهبية فى حندس

الليل بعد أن تتولد من هوشات آخر الليل . فاذا رأت عن

بعد أنفاسهم متصاعدة وشفاههم محمرة طارت الى ناموسياتهم

كما يطير النحل الى الازهار ورفرفت حولها

فياعجباً لنوم السرير ! وياعجباً لدعاء الصغار ! فهو صوت

حنو ورأفة لاعدوان فيه . وما أحلى هذا الدين الذى يقرأ

الدين ويضحك السن ! هنا مطلع النشيد فى ليلة السعود فينيم الوالد عقله الصغير فى الدعاء كما يضم الطير رأسه تحت جناحه

٢

يابنتى قومى للصلاة — وادعى أولاً وخاصة للتى هزت الليالى الطوال فى سريرك . للتى التقطتك من عالم الذر وأنت نفس لطيفة ووضعتك فى الدنيا وصارت لك أماً شفوقة وقسمت لأجلك نصيبها من هذه الحياة المرة الى قسمين فشربت الحنظل وأسقتك العسل

ثم ادعى لى فانى أحوج منها الدعائك لانها هى منالك صالحة بسيطة صادقة قلبها صاف . ووجهها راض . شفقت على كثيرين ولم تحسد أحداً عاقلة دائمة صابرة على غصص الحياة متحملة للشر بدون ان تعرف فاعله .

وطالما قطفت الزهور ويدها الطاهرة لم تمس قشر

الشجرة الذي عنها (١) ولم تقع بالفخ مع ضحكة سخرها وتختفي دائماً كل سالف ومضى ولا تعرف الافكار الخبيثة التي تمر في الذهن كما يمر الظل على الماء

تجول — واجعلي مثلها دائماً — مافي هذا العالم من الشقاء الملوث للنفس والحظوظ الكاذبة والاباطيل الفانية وكل ما يعقب الندامة وتبكيت الضمير والشهوات التي تزغي على القلب كالرغوة وخواطر الخجل أو المرارة الباعثة على أحمرار الوجه

انا أخبر بالحياة ويمكنني ان أقول لك متى كبرت واقتضي تعليمك بان الجرى وراء السلطنة والسعادة والتغني هو جنون ودناءة وبان كاس (٢) الانتخابات تدور علينا وتسقينا الخزى بدلاً عن الفخار وبان الانسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار

كلما عاشت النفس تعطشت والامور وان شفت بدايتها

---

(١) قيل ان الاديب الماهر في الانتقاد الادبي سنت ريف كان يغازل زوجة فيكتور هوكو ولذا حصل بينهما تقاطع وعداوة

(٢) وهي كاس تجمع فيها الاصوات لانتخاب رئيس المجلس اوغيره

عن نهايتها وظهرت أسبابها فى عاقبتها فالانسان مع ذلك يشيب على الرذيلة وعلى الضلال المنفور منه من كثرة المشى يتيه الانسان ويداخل عقله الشك والكل يترك شيئا على شوك الطريق التى سلكها فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته

قومى اذاً وادعى لى وقولى فى مقام كل دعاء : (ياالله ياالله ياربنا أنت أبونا فارحمنا انك أنت الرحيم فارحمنا فانك أنت العظيم) ودعى قولك يذهب الى حيث ترسله نفسك ولاتقلقى فلكل شىء طريق فلاتقلق على الطريق التى نذهب فيها

لاشىء فى هذه الدنيا الا وله مجرى فالنهر يجرى ملتويا بين السهول حتى يصبّ في البحر والنحلة تعرف الزهرة التى فيها العسل وكل طائر يطير ويقع دائما على غرضه فالنسر يطير ويرتفع نحو الشمس والعقاب يهبط على المقبرة والخطاب (السنونو) يطير فى الربيع والدعاء يصعد الى السماء

فاذا ارتفع صوتك الى الله بالدعاء لى اكون كالغيمة الذى جلس فى الوادى بعدان حط حمله على حافة الطريق واشعر بخفة نفسى لان دعاءك يأخذ بيده وهو صاعد جميع مايثقل على عاتق من الالام والاوزار والخطايا

قوى ادعى لابيك — لاصير أهلاً لرؤية طيف ملك فى المنام كطير الحمام وتشتغل نفسى مع اشتغال البخور أمحى خطاياى بنفسكِ الطاهر ليصير قلبي معصوماً نقياً كأنه صحن الهيكل الذى يغسل في كل مساء

٣

ادعى أيضاً لجميع من يمر على هذه الارض من الاحياء ولجميع الذين اندثرت ما ثرهم بهبوب الرياح وتلاطم الامواج عليها . وللاحمق الذى يفرح بلمعان الحرير وبسرعة عدو الخيل . ولكل من يتألم ويشتغل سواء كان غاديا أو باديا سواء عمل خيراً أو شراً

ادعى للمنهمكات فى اللذات والعاكف على القبلات الى الصباح . ولمن يتخذ وقت الصلاة ايلهو بالرقص أو الجلوس على المائدة ويشتغل بالفحشاء فى الساعة التى تتلو النفس الزكية فيها دعاء لله وإذا فرغت من دعائها رجعت خائفة من ان الله لم يسمع رجاءها

ياولدى ادعى للعذارى المستورات وللمحبوس فى القلعة وللمواهر اللواتى يهن اسم الحب الغالى والعاقل الذى يستغرق فى مطالعاته ويتمكن فى الخلق وللكافر الملعون الذى يطعن فى الشريعة المقدسة . — لان الدعاء لانهاية له لانك تؤمنين عن الذى يجحد والطفولية تقوم مقام الايمان

ادعى ايضاً للذين هم راقدون تحت حجر القبر بالها من حفرة سوداء تفتح أمامنا فى كل آن جميع هذه النفوس الهالكة مفتقرة لمن يزيل عنها صداء الجسم[1] هل سكوتها دليل على انها لاتتألم ؟ ياأولادى للنظر تحت الارض الشفقة على الاموات

(١) : تجاورهذا الجسم والروح برهة * فما برحت تأذى بذاك وتصدأ

٤

اركعي اركعي اركعي على الارض حيث وضع أبوك أباه وحيث امك امها حيث يرقد كل من عاش عليها رقدة عميقة حفرة يمتزج فيها النور بالغبار ويجد الانسان تحت أبيه آباء كالثلج تحت الثلج في بحر لا قعر له

ياولدي حينما تنامين تبتسمين فيأتي الطيف وهو فرح في الظلام الذي غطست فيه فيجفل من نفختك ثم يعود اليك أيضاً وفي النهاية تفتحين عينيك الالهيتين اللتين أحبهما في الوقت الذي يفتح فيه الفجر على الافق جفنه وله أهداب ذهبية فان الفجر عين الهية أيضا

ولكن الاموات لو تعلمين أي نوم ينامون ففراشهم بارد وثقيل على عظامهم ولذا نعهم والملائكة لا يسبحون وهم مجتمعون حولهم وطيف الخيال يثقل عليهم بجميع ماجنته أيديهم ليلهم ليس له فجر والندامة تنقلب دودا في

القبر وتفتت قلوبهم

يمكنك بكلمة يمكنك بقول ان تجعلى ندامتهم تتخذلها
جناحا تطير وان تبعثي بحرارة لطيفة تلذذ عظامهم وان
تجعلى الشعاع يصيب أيضا اجفانهم الغامضة وان توصلى لهم،
خبرا من النور والحياة وشيئا من الرياح والاحراج والمياه

قولى حينما تذهبين وأنت طفلة متفكرة تدورين على
شاطيء البحر المتلاطم أوتحت الشجر الذى يملأ القلب مهابة
بظله ويتضارب الرياح عليه ألا تسمعين صوتا يقول لك
يابنيّ حينما تدعين ألا تدعين لى

هذه شكوى الاموات : فالاموات الذين يدعى
لهم ينبت على قبرهم نبات أشد اخضرارا وأكثر ازهارا
ولكنهم منسيون واحسرتاه ! حتى الشيطان لا يضحك لهم،
ولا ضحكة استهزاء ليلهم بارد مظلم وبعض الشجر الهائل
الذى يظلل قبورهم يغرس دائما عروقه في قلوبهم بلا شفقة عليهم

ادعى ! حتى ان الاب والام والاجداد الذين يطلبون
منا الا الدعاء فقط يزورن فى قبورهم عند سماع ذكرهم

ويعلمون ان على وجه الارض من يتذكرهم بعد ويشعرون
بحصول دمعة في عينهم ا فارغة كما يشعر ثم المحزن بتفتح الزهرة

•

ياحمامتي لا ينبغي لي انا ان ادعي لجميع الهالكين
ولا للاحياء المارقين من الدين ولا لجميع الذين ضمهم القبر
والقبر أصل المعايب

لا ينبغي لي انا الذى نفسه فانية مملوءة بالخطايا وفارغة
من الايمان أن ادعى للجنس البشرى لان صوتى لا يكاد
يكفى ليستغفر الله عن ذنوبي

كلا بل لو امكن أحدا ان يدعى اليوم لهذه الارض
الفاسدة لكان أنت أنت الذي صوتك يسبح ودعاؤك
الطاهر ياولدى يمكنه ان يتكلف بالآخرين

أسئلى هذا الاب العظيم الذى يبسم فى أفقك لماذا
الشجرة الكبيرة تخنق الشجرة الصغيرة ؛ ومن الذى يميل

بالعقل البشرى عن الحق الى الباطل

أسئليه هل الحكمة لا تختص الا بالازلية : لماذا نخضته تحطنا : لماذا تحشر الانسانية فى القبر بلا انقطاع : الاولاد يسيرون في المكان المقدس على الذين افناهم الاثم فهم ازهار يعطرونهم وهم بخور يفوح عليهم وهم أصوات ترتفع الى الله

فلا نترك هذه الاصوات العالية تفعل ولنترك الاطفال جاثين على الركب أيها المذنبون كلنا ولنا ذنوب كلنا على شفا جرف هار فينبغي للطفولية ان تدعو لنا الخ الخ

من فكتور هوجو

— الى خطيبته اديل فوشه —

رسالة كتبها في ساعة يأس بلغه فيها ان خطيبته ستقترن بغيره اطاعة لرغبة والديها [1]

في مثل هذه الايام من السنة الماضية كنا نعد الايام الباقية لنا من أمد الفراق . واليوم نعد الايام الباقية لنا من حرية التراسل قبل ان تنتزلى الى بيتك الجديد وتكافي المعيشة مع الرجل الذى قد اختاره لك والداك واني عالم انه لا يحق لي أن اكاتبك فيما بعد . ولئما تشفع بي ذكرى غرام لا نزال في النفس بقية باقية منه . فان كنت أدعوك الآن رفيقة صباى فلأني لا أزال أطرب لذكرى أيامنا الماضية وأحن الى ربوع صبانا كما يحن

(١) تعريب سليم عبد الاحد

العظيم الى أحضان أمه

تلقيت رسالتك الاخيرة مع بريد هذا الصباح فأحببت ان أجيبك عنها قبل ان تنطوي آخر صفحة من استقلالك فلا يعود يسوغ لك ان تبتسمي لغير زوجك أو تهتمي بغير مرضاته وربما كانت هذه آخر رسالة مني اليك فائذني لي ان أخاطبك باللهجة التي اعتدت مخاطبتك بها قبل الآن لا لك تقولين ان الحب الذي يضم قلبينا سيظل ثابتا الي الأبد وان اكراه أهلك اياك على الاقتران بغيري لا يمكن ان ينسيك حبنا القديم وعهد غرامنا المنصرم

أراك من خلال رسالتك تشكين عني هموما ثقيلة الاعباء فلماذا أنت حزينة يا أديل ولماذا تفسحين للهموم مجالاً في فؤادك المثقل باعباء الغرام ان كان الغد يروعك فان لك من بعده موقفاً تنسين به مواقف الامس اذ تجدين من حب زوجك ما يلهيك عن ذكرى غرام فاض به قلبك ردحاً من الدهر ثم انطوت صفحته وانطفأت شعلته وحل محله حب آخر ربما فتحت لك السعادة من ورائه احضانه

رحيبة .

لعلك تتهميني بفتور في الحب . ولكن متى عرفت ان رسمك لا يبرح من مخيلتي دقيقة واحدة وان قلبي لا يزال يخفق كلما عرض لي ما يذكرني بك ، علمت ان اليمين التي أقسمتها لك تحت تلك الصفصافة سأظل اردّدها حتى آخر نفس من الحياة . فافرحي ولا تحزني يا أديل . ان قلبا وقفته على حبك لن ينفسح لغير رسمك الجميل ومواقف حبنا هذه أرسخ من أن تعبث بها أيدي الزمان

ساحبة وتنقشع يا أديل . فمتى انقشعت لا تعودين تذكرين من أيامنا هذه أكثر مما يذكر الشيخ من أيام طفولته . لأن واجبات الغد ستنسيك أحلام اليوم . وداء الحب المستحكم فيك سيشفيه مرور الزمان وما الذي يهمك غداً ولك في ثغور بنيك ما ينسيك ابتسامة حبيب قديم . ومن محبة زوجك ما يفتح لك أبواب فردوس كنت قد أغمضت عينيك عنه قبلاً لتتمتعي بأحلام زائلة ، فافرحي ولا تحزني

لأ نى أنا أيضا أفرح متى رأيتك فى سعادة وهناء

أري الحياة مملة يا أديل . لم أعد أطرب لشيء فيها كما كما كنت أطرب لها من قبل . لأن الآمال التى كنت أتعلل بها فى الأمس قد زالت فصرت أري الحياة أشبه بدور هزلى يلعبه الانسان فى العالم ثم يفسح الآمال ؟ نعم ان الآمال كثيرة متشعبة . وأنعشها للنفس ما كان مبعثه القلب ومنشأه الحب . ولكن أية لذة للحياة اذا انطوت صفحة تلك الآمال وحل محلها اليأس وانتقلت النفس من حلم هنيء الى يقظة رائعة

تقولين انك عازمة على الانقطاع عن العالم . والاتجاه الى دير تقضين فيه البقية الباقية لك من الحياة . أفما يكفيك أن لك من قلبي ديرا ليس فيه سواك يا أديل . ألا يكفيك أنك تتحولين هنالك من عابدة الى معبودة فتسمعين من مزامير الغرام وأناشيده ما يفتح لروحك الطاهرة فردوسا تتنعمين فيه . فان خطرت لك فيه العبادة

فهنالك تجدينها على أسماها وأنما هى موجهة اليك عند مذبح الغرام

كنت البارحة فى ماهى ... وكانت عيناى شاخصتين كل الوقت الي المقصورة التى كنا فيهاهما لآخر مرّة. وكان فيها رجل ضخم الجثة وبرفقته فتاة حسناء. فى مقتبل العمر وهما يقهقهان لنكات الممثلين ويصفقان لها طربا. فقلت فى نفسى هل هما سعيدان كما كنا في تلك المقصورة منذ أشهر خلت وهل يمكن أن يبلغا من السعادة ما بلغناه منها فى عهد غرامنا القصير

ما أطيب قلبك يا أديل اتطلبين مني ان اسامحك وأنت تعلمين أنى لا أعرف لك سيئة غير ما أسأتِ بهِ الى نفسكِ اذ أحببتنى حبا مخلصا كنت فى غنى عنهُ. فحرامٌ عليك ان تستذنبي نفسكِ الطاهرة وتنسبي اليها ماهى بريئة منه وان كانت سيئات البشر كلها من قبيل ماتستذنبين به نفسك

فما أقدسها ذنوبا تفتح لمرتكبيها أحضان الآلهة وتبلغ بهم الى نعيم تجرى من تحته الانهار . أأنت تذنبين ياأديل؟ اذا من بعدك لا يخطيء في العالم؟ ولن تبقى أبواب السماء مفتوحة إن هى أوصدت في وجوه الملائكة

لي حاجة اليك ياأديل وهي ان تسمحي لى بحفظ صورتك التى أهديتها الي في عيد ميلادك الفائت فانها التعزية الوحيدة الباقية لى بعد مأساتنا هذه . فان أنكرتها على فليس لى الآن أعيدها اليك . ولكن ثقي انك سواء استرجعتها مني أولم تسترجعيها فان رسمك منقوش في قلبي ولن يمحوه مرور الأيام أوكرور الأعوام

سلام الى حين اللقاء وراء «مرسحنا» الفاني . سلام يحمله اليك النسيم في اليقظة ، والملائكة في الحلم .

فكتور

تأبين

— شعراء النيل لفكتور هيجو —

١

ما جلّ فيهم عيدك المأثور إلا وأنت أجل يافيكتور

ذكروك بالمئة السنين وانها عمر لمثلك في النجوم قصير

ستدوم مادام البيان ومارقت

للعالمين مدارك وشعور

ولئن حجبت فانت في نظر الورى

كالنجم لم ير منه الا النور

لولا التقى لفتحت قبرك للملا وسألت أين السيد المقبور

ولقلت ياقوم انظروا انجيلكم هل فيه من قلم الفقيد سطور

من بعده ملك البيان فعندكم تاج فقــدتم ربه وسرير

مات القريض بموت هو جوو انقضي

ملك البيان فانتم جمهور

ماذا يزيد العيد فى اجلاله وجلاله بيراعه مسطور

فقدت وجوه الكائنات مصورا

نزل الكلام عليه والتصوير

كشف الغطاء له فكل عبارة فى طيها للقارئين ضمير

لم يعيه لفظ ولا معنى ولا غرض ولا نظم ولا منثور

مسلى الحزين يفكه من حزنه ويرده لله وهو قرير

ثأر الملوك وظلّ عند إبائه يرجو ويؤمل عفوه المنثور

واعار واترلو اجلال يراعه

فجلال ذلك السيف عنه قصير

ياأيها البحر الذي غمر الثرى ومن الثرى حفر له مقبور

أنت الحقيقة ان تحجب شخصها

فلها على مر الزمان ظهور

ارفع حداد العالمين وعدلهم   كيما يعيد بائس وفقير

وانظر الى البؤساء نظرة راحم

قد كان يسعد جمهم ويجير

الحال باقية كما صورتها   من عهد آدم ما بها تغيير

البؤس والنعمى على حاليهما   والحظ يعدل تارة ويجور

ومن القوى على الضعيف مسيطر

ومن الغنىّ على الفقير أمير

والنفس عاكفة على شهواتها

تأوى الى احقادها وتثور

والعيش آمال تجدّ وتنقضى   والموت اصدق والحياة غرور

« شوقى »

٢

أعجمى كاد يعلو نجمه | فى سماء الشعر نجم العربى
صافح العلياء فيها والتقى | بالمعرى فوق هام الشهب
ماتغور الزهر فى اكمامها | ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمى فيها لؤلؤاً | كثنايا الغيد اوكالحبب
عند من يقضى بأبهى منظراً | فى معانيه التى تلعب بى
بسمت للذهن فاستوهت نهى
مغرم الفضل وصب الادب
وجلتها حكمة بالغة | أعجزت أطواق أهل المغرب
سائل الطير اذا ماهاجكم | شجوها بين الهوى والطرب
هل تغنت أوأرنت بسوى | شعرهوجو بعد عهد العرب
كان حر النفس أوترضى العلى | نظماً الاملاك ان لم يشرب
عاف فى منفاه ان يدنو به | عفو ذاك العاهل المغتصب
شروه بالتدانى ونسوا | انه ذاك العصامى الابى

كتب المنفى سطراً للذى جاءه بالعفو فاقرأ واعجب
ابرىء عنه بعفو مذنب كيف تسدى العفو كف المذنب
جاء والاحلام فى احفادها مالها فى سجنها من مذهب
طبع الظلم على أقفالها بلظاه خاتماً من ذهب
أمن التقليد فيها فغدت لاترى الا بعين الكتب
امر التقييد فيها ونهي بجيوش من ظلام الحجب
جاءها هوجو بشأودونه عزة التاج وزهو المركب
وانبري يصدع من أغلالها باليراع الحر لا بالقضب
هاله أن لا يراها مرة تمتطى فى البحث متن الكوكب
ساءه أن لا يرى فى قومه سيرة الاسلام فى عهد النبي

***

قلت عن نفسك قولا محكما لم تشبه شائبات الكذب
انا كالمنجم تبر وثري فاطرحوا تبرى وصونوا ذهبي

« حافظ ابراهيم »

٣

نوحات ياهوجو تحية شاعر يناجي بها الشعر وبا ممجدا

لقد صدئت بالجسم ووحات حقبة

من الدهر أولئك البقاء مخلدا

أطلت على الدنيا فكانت منارة

لتفريق ما بين الضلالة والهدى

أهرنى ياهوغو يراعك التى

دككت بها عرشا على الظلم مشيداً

له ل اذا ما أسعد الدهر مرة

معيد بها للشرق مجدا وسؤددا

نقد قام فينا أولياء أمورنا

يسومونا ذلا أشق من الردى

وبتنا وباتوا مثلما شاء ظلمهم

فريقين سادات قساة وأعبدا

وخافوا اتحاداً بيننا فتوسلوا
بدينين لتخريق عيسى وأحمدا

وماصاح منا يائس متظلما
وقد مدت الاعناق واستننت المدى

ولا كان منا من يثور حمية
على ظالم أو يستشيط مهددا

ولاقام منا من يهز يراعه
ولاقام منا من يهز المهندا

ولو أن فينا مثل هوغو وقومه
لما سادفينا غير من كان سيدا

لئن أنطق الشيطان بالشعر شاعرا
فذاك بروح القدس كان مؤيدا

ولم أر أسمى منه قدرا وقد غدا
فقيرا عن الاوطان والاهل مبعدا

ولو رام مجدا كاذبا لاصابه
باعراضه عمن تحكم واعتدى

ولـكن نفسا بين جنبيـه حرة
أبت ان يصير الحر عبـدا مقيدا

نضى من يراع صار ما لا يغله
ضراب ولكن يترك السيف مغمدا

« اذا صال فوق الطرس وقع صريره »
فـفي مهجات الخائـنين له صـدى

ألا هـل أتى أقوامنا ان دولة
تدول اذا ماشاعر قام منشـدا

اغار على رب السرير بشـعره
وضعضع ملـكا ظنه الناس سرمدا

وكانت قوافيـه جيوشا تزودت
حياة وموتا للاحبـة والعـدى

تولى بريد الدهر للنـاس نقلها
وأنشـدها فى الخافقـين مرددا

ولم يبق فى أرض الفرنسيس غير من
يقر له بالفضل أو يحفـظ اليـد

فعـاد الى أوطـانه غـير نائم
على غربة أولته ذكرا مؤبدا

وإعلاء أقـدار الرجال وخفضها
أضل وأشقى الشرق والغرب أسعدا

« نقولا رزق الله »

معركة واترلو [١]

هى المعركة الهائله التى انكسر فيها نابليون الاول امام الانكليز والبروسيين فى سنة ١٨١٥ وقد جاءنا البرق اخيراً بان غليوم الثانى تداخر الاحتفال بافتتاح البوغاز الجديد حتى لاتوافق حفلتـه يوم تذكارها مرعاة لخواطر الفرنساويين من هذه الذكرى الشديدة · وقد رأينا لشاعر فرنسا الشـهير فكتور هيكو قصـيده غراء فى وصف هذه المعركة فأثرنا تعريبها بما يقارب الاصل ماأمكن فى معانيها وان لم يكن فى بلاغتها وفصاحة الفاظها فكاهة للقراء باقوال هذا الشاعر المجيد قال

أي واترلو أيها السهل المظل القاتم لقد اصبحت تغـلى برجال القتال كما تغـلى القدر على النار واختلطت جثث القتلى

(١) تعريب المرحوم ناشد نجيب حداد

بين آكامك وغاباتك بصفوف المحاربين الابطال والتقت فيك
أوربا بأسرها من جانب وفرنسا وحدها من جانب وهنالك
كانت الصدمة الهائله والبطشة الكبري التي هدم بها الله
آمال الفوارس الشجعان وولى النصر راجعا عن فرنسا بعد ان مل
من صحبتها ولقاها . اى واترلو أذكرك و بكى ثم اقف
فأقول اأسفاه لان رجالك وهم آخر جنود في آخر قتال كانوا
رجالا عظاما قهروا الارض كلها وطردوا عشرون ملكا عن
عروشهم وقطعوا جبال الالب ونهر الرين وكانت نفوسهم
تخرج مع انفاسهم وهم ينفخون ابواق الكفاح

هذا وقد اخذ الليل يرخى سدوله وأمسي العراك شديدا
كالحا وقام نابليون ينازل الاعداء وقد كادت يده تمس النصر
ودفع والنتون امام جيشه حتى حصره فى غابة هنالك و وقف
والمنظار فى يده ينظر حينا الى ساحة الوغى فيراها مختلطة
اختلاطا شديدا تموج فيه أجساد الرجال ثم ينظر حينا الى
الافق البعيد كمن ينظر فى لج بحر عميق واذا به قد تبسم وقال
هذا كروشي احد قواد فرنسا قد اقبل ولكن خانه النظر ولم

تصدقه الظنون وكان ذلك المقبل بلوشار احد قواد الاعداء فانقلبت عند ذلك هيئة الحرب وتحولت الامال عن مراكزها وزاد مختلط القتال رجالا بالنجدة القادمة كما يزيد لهيب النار عند اشتدادها واخذت مدافع الانكليز تسحق مربعات جنودنا واصبح ذلك السهل تخفق فيه الرايات الممزقة وتعلو منه أصوات القتلى الساقطين وهو كالاتون في التهابه كانه هوة هائلة تخرج منها النيران وتسقط فيها صفوف العساكر مكردسة متناثرة بعدان كانت في نظامها كانها البنيان المرصوص

تلك ساعة هائلة وعراك شديد فيه الرجل العظيم ان غصن النصر قدلوى بين يديه وان وجه القتال قد أخذ يعرض عنه وكان حرسه الامبراطوري واقفا وراءاً كمة هناك وهم زهرة ابطال فرنسا وآخر ما بقي في صدر ذلك البطل من الامل والرجاء

فالتفت الى قواده وقال قدموا صفوف الحراس ولم يكن الا كارتداد الطرف حتى أقبلت تلك العساكر رجال البأس وابطال القتال عليهم ثياب الفاخرة والخوذات اللامعة وأمامهم المدافع الصقيلة تحمل في أحشائها دوي الرعد ووقع الصواعق

وهم يعلمون انهم يمشون الى الموت ويردون مورد الهلاك الذى لا مصدر بعده فالتفتوا الى مولاهم البطل فى وسط تلك العاصفة الهائلة واحنوا رؤسهم تحية وسلاما وصاحوا بصوت واحد ليحيى الامبراطور ثم زحفوا زحفا بطيئا باقدام ثابتة والموسيقى تصدح أمامهم بألحانها وهم يبسمون لمدافع الانكليز كمن يبسم لحفلة عيد اوكؤوس مدام حتى دخلوا فى تلك النار المتقدة وباشروا بوجوههم حر ذاك الوطيس الحامى واطل نابوليون من ورائهم ينظر ما يفعلون فاذا به يجد تلك الالوف المنظمة والرجال الشداد تذوب صفوفها اللامعة امام مدافع الاعداء كما يذوب الشحم تحت زفير اللهيب وهم يقتحمون نيرانها بثغور باسمه وجباه عالية وسيوف مسنودة على الاعضاء ثم ليسقطون جموعا متتابعة في ذلك المعرك الهائل لا يلوون على فرار ولا يعرض احد منهم بوجه عن حر تلك النار ووقف سائر الجيش امام هاتيك الاجساد الساقطة لا يجسر ان يطأ عليها ولا يستبيح ان يدوس بأقدامه تلك الرجال العظام بل يراهم يسقطون قدامه قتلى مكردسين فيبكى ويقف حتى

ضاق السبيل وخابت الآمال وكلح وجه النصر وانكسرت سيوف الرجاء فصاح الجيش الهرب الهرب . كلمه دوى رعدها في الصفوف فعادت على أعقابها هاربة وقد صار الرجل خيالا والراية خرقة ممزقة والبطل جبانا هاربا والدرع حملا ثقيلا ونسور البيارق ريشا ساقطة لايحملها جندى ولا يلوى عليها بطل واجسام الرجال تهوى الوفا تحت سيوف البروسيين ولم يكن الاطرفة عين حتي تلاشي الجيش باسره كما يبيد الدخان في عاصفة الريح وسكتت أصوات القتال جميعا كأن لم يكن ذلك المسكر الجرار شيئا مذكورا ورأى ذلك السهل الواسع اقدام الفوارس هاربة عليه بعد ان هربت منها فوارس الارض كلها ولم يزل سهل واترلوا القاتم يذكر ذلك القتال الى الآن فترتجف ارضه خوفا ورعبا من ذكري انهزام الجبابرة

هو السهل لم يحمل خيول ولا رجالا

ولم يعد النصر القريب به سهلا

تجمع فيه الجيش والنصر قادم

وأدبر عنه الجيش والنصر قد ولى

وقد خفض النسر المحلق رأسه خضوعاً للمكتوب التقادير اذ يتلى
اذا جاءت الدنيا اليك فلا تقل
على الوفد أهلاً ومضت لا تقل مهلا

معركة سيدان [1]

هى الموقعة الهائلة التى انصرم فيها حظ فرنسا وانكسرت رايات نصرها امام الجيش الالمانى وقامت المانيا تحتفل لتذكارها فى هذه الايام أعظم الاحتفال . وقد عثرنا لفيكتور هيكو على قصيدة فى وصفها قال :

هو السهل الواسع موعد الاجتماع العظيم جاءوا وجئنا اليه على قدر فكنا واياهم غابتين حيتين أعاليهما رؤوس الرجال وأشجارهما الاعضاد والارجل والسيوف وأصوات الوغى ثم زحفت الغابة على أختها واختلط القوم وعلا الصياح ودوت طلقات المدافع وتنادت الابطال وثبتت

(١) تعريب المرحوم الشيخ نجيب الحداد

الشجعان وكان كل ذلك أحكام أعدام ألقتها الملوك على الرجال فانفذها الانسان على الانسان واعتد الشقيق قتل أخيه فوزاً ونصراً واعتاد الفرنسويون طريق النصر بعد معارك نابليون الاول فصاروا لا يرون الا انتصاراً ولا يرى أعداؤهم الا انكسارا حتى أخلفت الايام الآمال وابطلت الحرب تلك العادات ومرّ الهالنصر على مركبته يجوز ابطال فرنساوهم لا يبصرونه حتى عادعنهم الى صفوف الاعداء. هذا وقد كان القتال شديدا والمذبحة هائلة والبنادق تصدم البنادق والرصاص يلقى الرصاص والافق أقتم مظلم طلل منه خيالات الموت وتلوح على شفق الاحمر الوان الدماء وقدحامت العقبان تطلب رزقها من الاشلاء وتمد كل مقتل وليمة وكل مذبحة خوانا حتى كان يخيل للناظران الطبيعة قامت تشارك الانسان فى معاركه واهواله وان العناصر والجماد قدصارت عوامل حية فى ذلك المعرك الضنك والجيش فى ميدان هياجه بين أخذ ورد واقبال وادبار كأن كل فرد منه ينتزع النصر من كف عدوه

انتزاعا وقد قامت فرنسا فى جانب والمانيا فى جانب وكل منهما لاترى سوى الموت دليلا ولاغير الحمام رجاء وسكرت الرؤوس بخمر الدماء ودارت كؤوس الممات على الرجال فثبتت كل قدم فى موقفها لاترجع ولاتحيد وكانت الساعة هائلة والعراك شديدا ضيقا والمدافع تصب البلاء على الاجسام صبا والجرحى تسقط مخضبة فتدوس عليها الاقدام جموعا والبارود يدوى بين بروقه ودخانه كأنه ينفخ على الجيوش نارا وحمما والجند لاترى غير الواجب والوطن والمجد والفخر فلاتميل الى غير أصواتها أذنا وبينما الوغى فى أشد احتدامه والجيش يهجم مستبسلا ويستقبل الموت باسما والحديد يقرع الحديد والهاجم يدوس القتيل الساقط وأبواق القتال تنفخ موسيقاها بشدة وزفير وبجال فرنسا تذكر اجدادها وتريدان تقتدى بأسلافها فى ساحات القتال وسوابق النصرات اذا بالرايات قد نكست والاعلام

قد الشوت والرجال قد وقفت والمدافع قد صمتت والسيوف قد نبت عن مضاربها فلا تغمد ولا تتحرك وصوت نابوليون الثالث قد طلع فى ذلك الجمع وهو يصيح كفوا عن القتال فلا اريد ان أموت . فوقفت المدافع عند ذلك عن دويها كانما أصابها اندهاش وجمود وانقطع صليل السلاح كان لم يكن سلاح ولا جنود واقبل النسر جائعا يخطف أحشاء القتلى ويعتدى على ضوارى الاسود

ورأينا البلاد فى مجدها الزا هر من كل حقبة وزمان

ورأينا الابطال من الف عام

ثم من قبلهم الى شرلمان

ورأينا جند الوغى ورجال البأ

س من قادة ومن شجعان

ورأينا أسد المعارك ابطا

ل المنايا وجنة الفرسان

قد رأينا الجميع بعد علاهم

سلموا سيفهم بكف جبان

الحرب

لفيكتور هيكو [1]

ايها الانسان الواقف في وجه أخيك أنت السهم وأنت الوتر فمن الذى يرميك وما هو الساعد الذي ينزع فيك وما بال هؤلاء القوم يذبح بعضهم بعضاً وهم لا يعقلون وأنتم ايها الجند باى حق تحملون السيوف وماذا تصنعون هنا وما هذه المدافع . اى بني الانسان احقر ذبابة وأجهل من نملة مالى اراكم أشد من الاسود بطشا وأقداما وبامر من أنتم هكذا ولاجل من تتقاتلون الا تعلمون ان ليس لكم الا حق واحد وهو ان تحبوا بعضكم بعضا وليس لكم من ربكم الا أمر واحد وهو ان تنموا وتكثروا وتعمروا الارض فما بالكم تعكسون الآية ومابالكم

---

(١) تعريب المرحوم الشيخ نجيب الحداد

لا تطيعون

وأنتم أيها الملوك أنكم تلتفتون حواليكم فلا ترون الا ارضا تريدون امتلاكها ومدنا تطمعون في أخذها وافتتاحها ومجدا تزعمون أنكم تنالونه في انتصاركم ومطامع هي أخلاق الذئاب يعدو بعد الفريق منها على الفريق ويفترس الذئب منها أخاه وأنا ألتفت يمنة ويسارا فلا ابصر الا أمهات تبكي اولادها وقلوبا تندب آمالها. وأرضا مقفرة على عمالها وعيونا غائرة تحت دموعها. وحدادا منشورا على اطلالها. وحياة هاربة من أبنائها وشعوبا يلعب رجالها بالموت لعب الاطفال وهم لا يشعرون

وأنتم أيها الجند الذين. تسمعون. ما بالكم تبصرون ولا تعون انكم تكونون العدد والقوة والرأس والساعد والاغصان والقشرة واللباب والاغصان والاثمار والاوراق بل شجرة العالم بأسرها وتكون الدنيا كلها لكم وكلكم بها وتكونون جبابرة الله ونوع الانسان

والعامل الاكبر فى عمران الاكوان ثم تقدمون على مثل هذا الذل وانتم تعلمون . وتضعون ايديكم فى قيد طفل صغير وهو واحد منكم اتكونون كل هذا ثم تفعلون هذا اذن فالمستحيل موجود وقد أصبحنا نراه رأى العيون

فاذا قام ملك فاهان ملكا اوغضب امير على أمير تجمعون انتم انفسكم وتحشدون اعدادكم وتمدون سلاحكم ويلتقى بعضكم ببعض فى هذا السهل وانتم لاتعلمون لماذا بل انتم لاتعرفون الامير الذى تحاربون من أجله . ولا تعرفون أخاكم الذى تسعون الى قتله . ولا يعلم الواحد منكم ايكون هو القاتل ام هو المقتول فى هذا المعترك الهائل بل هذه المظلمة الشنعاء ياعجبا للشعب يكون الكل فى الكل وهو القوى القادر الامر كيف يرضى بهذه المظالم الوحشية وكيف يقبل ان يساق الى القتال سوقا بالعصي واخذاً بالاعناق لوهم باطل يقال له الملك وظل زائل يقال له النصر يتنعم به رجل فرد فى قصره ويجنيه له ألوف من بني الانسان باثمان الارواح والدماء أليس هذا هو الخسران

المبين . حاشا الله ان يكون المرء عاقلاً قادرا مجتمعا مخلوقا على مثال الله في وقته وحنانه ثم يقدم على قتل أخيه بيديه ويهدم الكون الذي اقامه الله لبناته ويتصور نفسه قهر جموعا من أمثاله وهو لا يفطن انه رهن رجل واحد وان يدا واحدة قد قهرته بأسره قادته الى الموت عنفا وقسوة لمطمع من مطامعها وتركت خلفه أولادا يصبحون من بعده يتامى ونساء يصحن ثكالى وأيامى . وعيونا باكية يحجبها الدمع عن النظر وقلوبا مفطرة جنى عليها الفرد المالك وهي تعاتب القدر . حقا ان ذلك لما تذوب له الاكباد حزنا وأسفا ويكاد يشير سخط الخالق على ارضه فيجعلها قاعا صفصفا . وما الله بغافل عما يعملون

المستقبل لله (١)

هي قصيدة رثائية لفيكتور هيكو نظمها بعنوان نابوليون الثاني ووصف بها ميلاد هذا الطفل وما كان يرجى له من سعد الطالع وحسن الاستقبال ثم ما صار اليه حاله وحال أبيه من قبله وما لقيا من مرارة الفشل وسوء المنقلب بعد تلك الاماني والآمال . ولما كانت قد تقدمت لنا شيء من تعريب قصائد هذا الشاعر الكبير في ما تقدم من جريدتنا اليومية وكنا قد وجدنا له حسن الوقع لدى كثيرين من قرائنا الادباء حبا بالوقوف على تلك القصائد وما حوته من الاجادة والابداع فقد رأينا ان ننقل لهم هذه القصيدة متبعين فيها الاصل ما أمكن خدمة للادب واظهارا لمنظومات أولئك القوم في لساننا العربي . اما القصيدة فهي

في العام الحادي عشر من بداية هذا القرن كانت شعوب لا تحصى وامم لا عدد لها تحدق بقصر اللوفر الكبير

---

(١) تعريب المرحوم الشيخ نجيب الحداد

احـداق الغمام وهى تنظر اليـه بعين المتأمل وتتطلع نحوه
بقاب المؤمل والقصر فى وسطها كانه طور التجلى تلمع من
خلاله بروق الاقبال وتظلل اعالى شرفاته سحائب الآمال
. والناس تموج من حوله امواجا ويقول بعضهم لبعض سيولد
لنا اليوم مولود عظيم واليوم تنتظر الدولة العظمى ميلاد
وارثها . فماذا عسى يرزق الله نابليون الكبير ومن سيكون
ولى عهد هذا الرجل العظيم الذى هو اكبر من قيصر واعظم
من رومه وقد جمع فى يديه مفاتيح الاقدار ومستقبل
الشعوب وازمة الممالك وعنان الدنيا يصرفه كما يشاء ويقلب
كرة الارض عن بنانه كما يريد وبينما هم يتساءلون عن ذلك
النبأ العظيم انفتحت شرفة القصر كما ينفرج الغمام وظهر
على الشعب ذلك الرجل العظيم كأنه يطل على الدنيا باسرها
ويشارف العالم باقطاره من رفعته وجلال قدره فخفتت
عند ذلك الاصوات وعنت الوجوه وسكتت الالسنة
ثم ارتفعت الابصار تنظر مايحمل لها ذلك الجبار بين يديه
بشرى ولاية عهده واذا بها قد اطرقت هيبة واجلالاً لطفل

صغير كان يحمله الامبراطور على ذراعيه كانه يبشر به الارض باسرها ولم يكد ذلك الطفل ينظر للوجود حتى خفقت لانفاسه الضعيفة رايات البلاد كانها تخفق تحت ريح عاصفة وحتى دوت لاهلاله وصوت بكائه افواه المدافع الهائلة. وهو بين يدى أبيه كانه كوكب درى تحمله شمس منيرة من المجد والفخر. ولما أظهر الوالد مولوده لكل تلك الشعوب ورآه تنحنى له عوالى الرؤوس والتيجان أخذته عزة الملك وتولاه زهو الرئاسة والمجد ونظر الى الدنيا وهو فى أبهة نصره وجلاله كما ينظر النسر الى ما تحت معقله من الهضاب وصاح بصوت المنتصر الظافر. المستقبل لى

فاجابه صوت الشاعر من وحى الغيب لا يا مولاي ليس المستقبل لاحدان المستقبل لله فلا يغرنك ما ترى من عظمة الدنيا ومجد الملك وعزة الانتصار وبهاء التيجان ونيل المطامع والآمال فان كل ذلك وهم باطل وظل زائل لا يخيم على فؤاد صاحبه الا كما تخيم السحابة السارية فى كبد السماء. وانت أيها المستقبل الذي ندعوك بالغدو تسير وايانا نجنيا الى جنب

مهما كان الانسان عظيما ومهما كان التماسه منك شديدا لا يقدران تنفرج شفتاك عن الخبر اليقين الا متى آن أوانه. والعلم لله انما الغد شيء عظيم لانه شيء خفيٌ مستتر لا يعرف كنهه أحد ولا تقدران تدركه مقلة انسان بل هو الارض الواسعة يلقي فيها المرء بذار آماله والله ادرى متى يكون نباتها ومتى تجنى منها الثمار. بل الغد برق خاطف لا تدرى ما يكون بعده من عواصف الأيام وسحاب سار لا تعلم متى تنكشف من تحته نجوم السماء وقاتل سفاك يسلب نفائس الاعمار وهادم عنيد يهدم صروح الآمال ونجم سيار لا يثبت في مكانه ولا تقف عليه عين الدليل. بل هو باريس تتبع بابل في دمارها وخرابها وهو شوك المذلة والقهر ينبت على العرش الذي كان بالامس نضرةً ونعيما

انما الغد جوادك ايها الفاتح الكبير يكبوا بك ساقطا يرغى ويزبد من اعيائه وكلاله وانما الغد احتراق موسكو تخرج منها وهي نار جاحمة يطبق دخانها الاقطار فيزيدها ظلاما بعد اذ دخلتها منتصرا فاتحا وبعد اذ كانت عليك بردا

وسلاما بل الغد جيشك العظيم مستتر الجماجم بدد الاجساد بل هو موقعة واترلوا الهائلة ونفيك الى تلك الجزيره القاصية ثم مصيرك من بعد ذلك الى القبر

أنك تقدر يامولاى ان تفتح المدائن وتدوسها بحوافر جوادك وتحل عقد القتال والحروب الاهلية بحد حسامك وتسد النهر الكبير فتمنع مجراه وتأخذ عنان النصر بيدك فلا تترك منه شيأ لسواك وتكسر كل باب يقفل فى وجهك وتفوق كل ذي شهرة ومجد من قبلك وتجعل من مهماز نعلك نجما تهتدى به ابصار جنودك وقوادك فان الله قد اعطاك المدى تمرح فيه كما تشاء وحفظ فى يده الحد الذي يريد ان تقف عنده فلا تتعداه وانك تقدر ان تأخذ الارض باقطارها وتجمع على رأسك العالى كل تيجانها وتلعب بالممالك لعب الاكر من اطرافها الى اطرافها ولكنك لاتقدر أن تأخذ الغد من يد الله.

ان فى تصريف الايام لعبرة وان تقلب الاقدار لذكري. لقد ولد ذلك الطفل الصغير فكان اول تيجانه وهو

في المهد تاج رومة وأول القابه ملك الرومانيين ولقد أظهروه وهو طفل رضيع فعجب الناس كيف يكون الانسان ملكا عظيما ويكون طفلا صغيرا ولقد جمع له أبوه آثار المفاخر ومجد المعارك والغزوات وشق في سبيل مستقبله صفوف جنود ابطال كانت في نظام قتالها كانها البنيان المرصوص وأقام حول سريره المهتز أسوارا متينة من صدور العساكر والقواد وصنع له وجه الدنيا على ما يريد كما يصنع الصانع الماهر قوام التمثال واعدله من صنوف المجد والفخر ما لم يطمع به فاتح ولم يدر في خلد انسان ووضع امامه فرنسا كلها كاسا ملؤها الرجاء والآمال ولكنه قبل ان يمس تلك الكاس أو يذوق من شرابها قطرة ماء أقبل فارس الدهر بجواده فخطف ذلك الصبي من مهد جلاله واردفه في مؤخر سرجه وسار به من بين كل تلك العظائم والامال كما تقتطف الزهرة من وسط بستانها وكما تسقط الثمرة الغضة اذا طرحتها عواصف الريح قبل أوانها

أجل فلقد كان نابوليون الكبير نسرا يحلق في العلاء

ويرمى بابصاره الدنيا ويحوم بجناحيه على العالم بأسره واذا بزوبعة شديدة عصفت به فكسرت جناحيه فسقط من أعلى سمائه كانه شهاب ثاقب وقد ترك وراءه من المجد الباهر أثرا مستطيلا فتهافتت طيور الممالك عليه من كل مكان فاخذت انكلترا النسر وأخذت أوستريا فرخه الصغير

ولقد أقام ذلك الفاتح الكبير اسيرا ذليلا فى جزيرة مهجورة قاصية مدة ست سنين كاملة ذاق فيها مرارة الوحدة والاسر كانه الاسد الهائج فى قفص من حديد . وان الاسود وان كانت شرسة قاسية فان فى صدورها قلوب اباء وهذا الاسد الشديد كان فى صدره قلب والد وكان هذا الوالد يحب وحيده بل ان هذا الرجل الذى ملك الدنيا لم يبق لديه فى محبسه الاخير سوى أمرين يلهو بهما عن مصائبه وأحزانه أولهما صورة ابنه وهى كل فؤاده والثانى رسم اوروبا وهو كل عمله ونتيجة اجتهاده فكان يجلس كل مساء على شاطىء البحر فى منفاه ويرمى بابصاره افاق السماء ويغرق فى بحر عميق من الهموم والافكار

كانه ينظر في الماضي و يكر الطرف على ماتقدم له من الصروف والاحوال . الا انه مع كل ذلك الجمود الطويل واغراق الفكر لم يكن يتذكر آثار سيفه ولا سوابق نصراته ولا دوي المدافع التي كانت تصب البلاء بأمره وتهتز منها الارض تحت اقدام رجاله منها الرايات تباعا كانها سارايات السفائن تكسرها عواصف البحر في هياجه وشدة انوائه . بل كان كل مايتذكره و يشغل افكاره خيال ذلك الطفل الصغير يتراءي له على بعد المدى وشاسع الاميال فيحني رأسه على يده و تجري دموعه على خديه و يصبح من كان لا يشتري الدنيا بدمعة من دموعه وهو يذرفها هدراضياعاً على تذكار طفل صغير كان يعد له مستقبل العالم فوجد ان المستقبل لله

(تم هذا الكتاب في شهر سبتمبر سنة ١٩٢١ م)



كتيب عصري اجتماعي

تأليف

جيمس ستيفنز

عربه وهذبه

حسين رضوان وهبي

بالمجالس الحسبية



بوزارة الاوقاف

﴿ ثمن النسخة ٦ قروش صاغ ﴾

طبع بمطبعة يوسف كوّى بمصر

نهدي هذا الكتيب

الى

امتنا المصرية الكريمة وأبنائها النجباء





مقدمـــة

الحمد لله . والصلاة على رسول الله

(وبعد) فقد وقع تحت نظر احدنا كتاب دبجه يراع الـكاتب الانكليزي الطائر الصيت (جيمس ستيفنز) منتقدا فيه بعض عادات قومه بشكل فكاهي يسر النفس ويغذى العقل . فآثرنا تعريب المهم منه . حتى تستنير به عقول أبناء هذا الوطن

والذي زادنا شوقا لاخراجه الى حيز الوجود . اننا وجدنا كأن مؤلفه مصرى . يعالج أدواء بني جلدته ويذم عادات واخلاقا . هى شائعة بيننا منتشرة . وليعلم المتخرصون بانحطاط الشعب المصرى الكريم . المتشدقون بترفع كل غربي عن كل فعل ذميم . ان في الغرب اخلاقاً وطبائع هي كالتي عندنا ان لم تكن أسوأ وأشنع

هذا مقصدنا والله الهادى لطريق الرشاد م

الغواية

قد كان رجلا لاتابى النساء ان يناديهن بالقاب التدلل وباسمائهن الخاصة . فقد قابل يوما اربعاً وعشرين سيدة من سيدات الشرف يمشين على بساط احمر نفيس باحذية لامعة صغيرة فابتهجن جميعاً بنظراته وسررن . . . .

وهكذا فعلت نظراته بها لاول مرة. لان الفتاة البسيطة لاقبل لها بمقاومة شرير كهذا . وقد كانت فتاتنا ابسط فتاة على ظهر البسيطة . وهي لاتنكر ذلك ولم تكن بساطتها هذه نتيجة جهل باعمال الرجال وحيلهم. كلا ؟ فقد قرأت عنهم الشيء الكثير ولها اخوة من جنسهم احب اليها من ادوات زينتها ـ ولكن المرأة التي لم تعاشر الا الاخوة ضعيفة المقاومة ازاء الرجال الأخر . وقد اكتسبت فتاتنا من حالتها هذه شيئين : اولهما اعترافها بحقوق الرجل الشرعية وثانيهما اجتهادها لمعرفة حال الذكران من غير اخوتها . لانها كانت على يقين ان اخوتها لايتشاوزن غيرهم من الرجال . ومن من النساء لاتحب الزواج من الرجل الذي يخالف مشربه

مشرب اخوتها . فان اراء الجمع قد اتفقت على ان خير الزواج ماكان بعيدا على قدر المستطاع من دائرة عائلة مريده . ولكن الحب في هذه الايام صار تحت سيطرة علم تقويم البلدان . لان عيشتنا صارت محدودة بحدود اربع بيتنا وكل من فيه حرم . عائلتنا وقد تضم من لانهوي . مكان اشغالنا وليس به الا رؤساؤنا . ثم خط الترام الذي يصل هذه البقاع الثلاث وهو المجال الوحيد لحبنا . فليس يستغرب اتحاد الاقارب مادمنا لانجتاز هذه الحدود الاربع

وكلما ازدادت فتاتنا اطلاعاً في قصصها . وحباً لاخوتها كلما بعد عقلها عن تصديق ماتقرأ . فكانت تعجب ببطل القصة كما انها تقف حيرى لعدم استطاعتها فهم ما كتب عنه.

اما وقد بينا صفات الرجل وصفات الفتاة فليعذرنا القارئ اذا اسهبنا في وصف التفاعل الذي نتج من اتحاد هذين العنصرين . . . شعرت فتاتنا عند اول نظرة منه انها ليست كفئاً له وان اخلاقه العالية وصفاته الجميدة فريدة في نوعها فكانت دائمة الاجتهاد في اختراع الكلمات التي ستلقيها

اليه في المقابلة القادمة وتحفظها عن ظهر قلب ثم تتمرن وهي داخل مخدعها على الحركات التي ستتبع هذه الاقوال — وكانت في اول الامر تتجنب مقابلته — ولكنه كان دائم الظهور لها — فاذا دخلت حانوتا تشتري منه شيئاً رأته يجتاز الافريز المقابل وهو ينظر ناحيتها بسكون. واذا ذهبت تروح النفس خارج المدينة اوعلى شاطىء النهر الفته واقفاً بعيداً عنها يمتع ناظريه بمحاسن الطبيعة — وكثيراً مارأته يتأمل معها مياه النهر العميقة وهي تجري بتمهل . وينظر بجانبها الى قفص السباع في حديقة الحيوانات . ويجلس لصقها على مقعد الترام وليس منزله في منطقته فكانت تهب مذعورة من نومها اذ يخيل لها انه واقف وراء نافذة مخدعها وقد اغرقه المطر ولفح وجهه الهواء البارد ينظر بعين اليأس في أفق القنوط . . . .

لم يلق فتانا صعوبة كبرى في نسج خيوط المعرفة . فقد فاجأها يوماً والقى في يدها منديلاً شفعه بقوله لها :

« لقد سقط منك هذا على ما اظن ؟ ... »

وقد كانت في حالة دهش وارتباك شديدين لم تقو معهما

على نكران ذلك ورفضه فأخذته شاكرة صاغرة

وكان منديلا كبير الحجم لاتكاد جعبتها الصغيرة تسعه حتى ظنته غطاء مائدة ثم فكرت قائلة« لعله منديله » وكادت تستغرق في الضحك لولا ان رأته بجانبها يسير لصقها وهو يلقي اليها الكلام خافتاً كهمس النسيم كوّن في اذنها نغما شجياً مطرباً

وكانت مقابلتهما للمرة الثانية على غير انتظار منها . فقد رأته فجأة مقبلا نحوها وعامت من تقطيب جبينه انه يبحث عن شيء يقوله لها . فلما قاربها انحنى مسلما وقال :

« كيف حال منديلك اليوم ؟ » .

وكان السؤال غريباً فلم تمالك ان استغرقت في الضحك ...

وصارت معاملتهما بعضهما لبعض بعد ذلك بلا كلفة لانك اذا ضحكت او مزحت مع اى مخلوق. كان ذلك اقرارا منك بمساواته لك ورضائك به فلا تستطيع بعد ذلك

أن ترجع القهقرى او تمنع عنه اى شيء لديك . ولو كانت شفتيك

والغريب في ذلك انها كانت تظن انه يخافها . لقد كان هذا امر جنوني ولكنه كان حقيقياً . وعضدت الشواهد فكرتها . فقد كان ينظر اليها بعين ملأها خوف يحاول اخفاءه وكانت شجاعته القناع لذلك . فكان لا يتكلم الا بما يصادف قبولا لديها فاذا رأى منها طيف معارضة في اي موضوع سكت عن الخوض فيه وانتقل الى غيره وصدع لها موافقاً لجميع مبادئها وآرائها كأنها نبي وهو كافر مهتد. فكان ذلك مدعاة لدهشها وهي الفتاة التي كانت ترى الرجل قوة هائلة مخيفة . وكان كلما مشى معها تباعد عنها قليلا حتى اذا نظرت اليه اشاح بوجهه معرضاً . فأيقنت في وجهها بشاعة المنظر . وفي صوتها خشونة الوحوش . وفي نفسها عفريتاً ذا شعور متدلية . وفي كلامها تأوهات وتأففات الغول . ولكنها كانت شديدة العجب والحيرة من ان اخوتها لا يخافونها بل كانوا بعكس ذلك يدللونها ويباسطونها

وكان يكلمها في مواضيع لم تسمعها من اخوتها .
مواضيع حيوية لذيذة . فقد قال لها يوما وهو يحاورها :
« ما اصفى اديم السماء وما اشد زرقتها ! » فنظرت اليها فاذا
هي كما قال . ولم يخطر لها هذا الامر ببال قبلا لان هناك
من الحقائق مايمر على الانسان ولا يلتفت اليه حتى اذا دللنا
عليه والفتنا اليه عبدناه وعجبنا به

فكانت الشمس المحرقة اليها معه ارق من النسيم العليل .
ومختلف الزهور ازهى واحلى مما كانت تراها قبلا . واكتست
الدنيا حلة بهجة جميلة لم تشاهدها قبل ان تعرفه . فكان
النعيم يبدو لعينها ويتمثل لها في كل زمان ومكان . والسرور
والضحك يتدفقان من افواه كل كائن . فكانت تسمعهما
يخرجان من اعماق الارض . وكان يخيل لها ان حشائش
البستان التي كانا يمران بها متأبطين تحييهما وتبسم لهما . وان
الشمس المحرقة والشجر يرقصان طربا لسرورهما وان الهواء
لا يصفر ويهب عليلا بليلا الا من اجلهما . . . .

. . . .

ثم تركها ومضى . فلم تره بعد ذلك . ولم تلقه ينظر الى مياه النهر كما كان يفعل او يشاهد الاسود كسابق عهده ولم تشعر بجسمه يلتصق بها في مقعد الترام ولم تحظ عيناها برؤيته واقفاً على افريز الطريق عندما تخرج من حانوت حاجياتها . فلم تقف له على اثر رغم بحثها المتواصل ...

فعادت اليها الشمس كما كانت محرقة نارية وامتلأت السماء بالسحب القاتمة وحملت اليها الرياح الاتربة والرمال . ورأت الاشجار كما كانت جامدة ساكنة يأوى اليها البائسون والفقراء . فكانت تهرب من كل ذلك

وجلست يوماً أمام مرآتها تفكر ثم نظرت اليها وقالت :

« انه كان يخافني ! . . »

وبكت في منديله الكبير . . . . . »

رهبة الزواج

ان من الرجال من يخجلون ويهربون من الحديث احد لوازم حياة الزوجية في اول امرها. وفتانا احدهم . فكان كلما اقترب يوم عقد زواجه كلما ازدادت مخاوفه من ذلك الحديث الطويل الذى يبتدىء صباح يوم العقد ولا ينتهى الا بانتهاء العمر . وصار يشك في قدرته على تحمل هذه التجربة المسماة بالزواج — اجل فقد كان رجلا صموتاً هادئاً

وهو في الحقيقة لا يكره الحديث الا اذا زاد عن حده وكان لديه هذا الحد نصف ساعة فقط . فان زاد عن ذلك صار مملا فيفرغ صبره . ثم لا يلبث ان يضيق صدره فيتحول الى رجل وحشى الطباع سيىء الخلق

وقد كان يقول : « الكلام مع الرجال هين سهل فالرجل يستطيع الصمت اذا اراد والكلام متى شاء لان حبل التفاهم الذى يربط ابناء الجنس الواحد يكفيهم مؤونة

الحديث فتبقى افكارهم في رؤوسهم جديدة مجهزة ساخنة لحين الحاجة اليها . ولكن الامر بعكس ذلك مع النساء . .!

وكانت خطيبته من احسن الحسن عنده — الا في هذا الصدد — فلها نظرات تهدىء ثائره اذا غضب . وتسر خاطره اذا حزن . ولها صوت ـ ولو أنه كسائر الاصوات ـ يطربه ويشجيه ويسحره ويتماوج في اذنه كالموسيقى حلاوة وارتفاعاً وانخفاضاً وظهوراً وخفتاً . او كنوح الحمامة تناجى الفها . فكان يظنه الشمس تسطع على عالم الانغام فتكسبه بهاء وضياء

كان يعجب بمختلف الانغام التى تصدر من حنجرتها ويود لو يلبث صامتاً يسمع لها طول عمره . ولكن الذي كان يقيمه ويقعده ان هذه الحنجرة لا بد لها أن تستريح وان حنجرته لا بد لها أن تبدأ العمل ـ هذا ما كان يخشاه ـ يخشى على ذلك السكون الضارب الاطناب في رأسه أن يكدر !! ...

وكان جاهلاً بعلم المنطق . لا يقدر على صوغ الافعال

والاسماء الى جمل مفيدة بليغة وكان عاجزاً عن تلقف حديث المتكلم والقائه في الفضاء ليلتقطه متكلم آخر . عاجزاً عن التوسع في المواضيع والاسهاب في النظريات والافاضة في الحقائق وتكبيرها حتى تصير نخمة جميلة كفقاقيع الصابون تتطاير في سماء السمر وتامع كفريد الجوهر . وقد حاول مراراً ان يعالج هذا الداء الدوي فذهبت محاولته ادراج الرياح . فكثيرا ماجلس مدهوشاً يسمع مختلف الاصوات والانغام واللغط والكلام . ولا يستطيع الثبات امام تيارها الشديد ولم يقدر الاعلى القاء كلمة او كلمتين وسط السيل الجارف لتضيع غير ملتفت اليها وتدفن بين الآلاف من غيرها . ففضل في آخر الامر ان يكتفي بالسمع دون الكلام . وحافظ بكلياته وجزئياته على هذه العادة التي اكسبته اياها التجربة ولكنه كان يفضل على كل ذلك الاصاخة الى افكاره الخاصة وهي تمر ببطء في دماغه لتدفن بعد تهذيبها في ركن منزو من اركان مخه . لان المجتمع الذي تحويه رأسه لا يتقيد بقيود العادة ويرضخ لاحكام الذوقيات . ولا يقتضي

لفرد فيه ان يلبس حديثه قشرة مذهبة من الرياء والتزلف .
وكان يعتقد ان المحادثة الصحيحة هى ان يسأل احدهم
سؤالاً فيجيبه آخر ويرد عليه ثالث حتى اذا ما احتدمت
المناقشة وكثر الاخذ والرد هرع احدهم الى خزانة الكتب
واخرج منها دائرة المعارف فيأخذون عنها الحقيقة بلا تعب
أو كثير كلام !! ....

ولكنه كان يعترف ان هنالك اقواما يجب ان يتحدث
معهم الانسان في كل وقت وعلى اي حال . ومنهم الزوجة .
ـ فكان يرتعد ويدهش عندما يحصر في دائرة افكاره
الفرص العديدة التي تفتح مجالا للحديث ـ واخيراً قسم ذلك
الى اقسام عدة فمن مائدة افطار الى مائدة غذاء . ومن مائدة
الشاى الى تلك الموائد العديدة التى تكثر منها الزوجة
لالشيء سوى الحديث والتسامر . ويكاد يجن كلما يرى ان
ذلك السكون اللذيذ الذي عرف به طول حياته سوف
تنتهك حرمته اذ كان من عادته ان يأكل منفرداً ملهياً
نفسه بجريدة او كتاب يبسطه على المائدة طرفه على أناء

السكر وطرفه الآخر على صفحة الطعام ... ثم عاد فأدخل ضمن هذا الباب قاعات الجلوس الواسعة والنزه والاسفار . والليل الطويل الساكن الذى هو خير وقت للسمر — كل هذه فرص يجب ان يمارس فيها فن الحديث

وكان يلقي على نفسه هذا السؤال : — « بعد زواج الرجل بالمرأة . ماذا يقول لها ! »

ولم يوصله طول البحث والتفكير الا لهذا الجواب « أسعدت صباحاً . » — ثم عاد فقال :

« وماذا عسى تقول المرأة للرجل ؟ » .... ولكنه لم يجهد نفسه في اجابة هذا السؤال اذ يعلم انه غير مضطر للاجابة على كل سؤال يلقي اليه . فان هناك من الثرثارين من يكون السكوت عنهم خير من الكلام معهم . وعزم ثاني يوم أن يحصر المواضيع التى تتكلم فيها خطيبته ليعد لها العدة في المستقبل — فما انتهى اليوم حتى وقف متحيرا دهشاً . وقد راجع الشيء القليل من الذي حفظه من سيل كلامها المتحدر فكان جل حديثها منحصراً في هذه الكلمات :

«انا.. نحن ـ هذا الحانوت ـ ذلك المخزن. ملابسى ـ حلويات» ولـكنها لم تقف دقيقة واحدة لشرح رؤوس هذه المواضيع من وجهة اخلاقية أو عامية . فالتمس لنفسه العذر اذ كانت اجابته على سؤالاتها العديدة لم تخرج عن دائرة « اى نعم .. وبلا شك » ولـكن هل يستطيع انسان تحمل حياة بتمثل هذه الـكلمات القليله . كلا والف كلا !..

رأى بعين الخيال مائدة الشاى وقد جنس عليها رجل حانق وزوجة غضبي وكل منهما ينظر الى صحيفته ولا ينبس ببنت شفة . ثم رآهما وقد مضت عليهما سنون طويلة وقدمت عشرتهما لبعضهما . وبردت حرارة الالفة وهما لايجسران على النظر الى بعضهما . وكلاهما متوقع انقضاض وحش الـكره المرابط في نفسيهما ينتظر فك قيوده واغلاله. فتأكد في نفسه انه خلق ليكون اعزب لازوجاً . وان سعادته في وحدته . نعم ان البعض ممن هو في حاله وعلي شاكلته قد يجسر على غل نفسه بقيود الزواج . اما هو فلا يقدر ولا يستطيع. فعزم على التماس عذر يبديه لخطيبته حتى

تعفيه من هذة المهمة . وكاد ان يخرج عزمه الى حيز العمل.
ولكنه كان اذا هم بالكلام تبدأه السيدة بسيل من الكلام
يحمله على سفينة الامل والسرور ويلقيه بعيدا عن قصده
بعداً يضله الطريق فلا يعرف كيف يعود اليه . اذ كان
يعتقد أن من يقطع على سيدة حديثها وهي تحدثه كيف
انها اشترت مترا من الحرير بنصف جنيه ليفهمها انه لا يريد
الزواج منها . حيوان ووحش ضار . لان الفتاة تعتبره
مجنوناً فتحملق في وجهه بعجب ويحمر وجهها فيضطر الى
الدخول معها في حديث طويل ليفسر لها سر تصرفه الغريب
«وهذا مانخشاه !»وزد على ذلك ان هناك موانع اخرى داخلية
تعوقه عن تنفيذ هذا العزم ـ منها لمس يديها ـ او لثم شفتيها
او النظر الى عينيها الواسعتين الزرقاوين اللتين تنطقان بلسان
فصيح بما انطوت عليه صاحبتها من صدق وامانة وسذاجة.
كذلك حركاتها ورشاقتها . خفة روحها . شعرها ويداها
وملابسها وحذاؤها . كلها اشياء لا ينساها مطلقا فالامر ليس
كما توهم سهلا .. ولو فرض وتخطى هذه العقبات فهى

لمن تغفر له قوله وتعده اهانة عظمى .وخيانةفظيعة .ولا تقبل عذراً لذلك سوى اعترافه انه يحب غيرها. وهي وان كانت تكره منه ان يسمعها ذلك العذر الا انها تجزم به وتعتقده في نفسها . .

وعلى ذلك فقد علم ان قد سبق السيف العذل. وانه لامحالة متزوجها . فعزم على البحث والاستقصاء عن امور الزوجية والتحرى من الازواج عن آدابها وشروطها وكيفية معاملتها . فعرض في مخيلته أبواب الحديث الذى يروق التكلم فيه بين زوجين . فرأى أن العالم مفعم بأشياء كثيرة سحب ورياح وآلات تطريز . ملوك واصوص. رؤوس وقبعات . أوانى زهور وأوانى حلوى . نوادى وحانات . قصور ومواخير ...

ومن البديهى أن المرء يمكنه التكلم في أي موضوع من هذه . فله أن يسهب في اشكالها والوانها ومنافعها . حركاتها وصفاتها ومآكلها ومشاربها . فسكن اضطرابه وهدأ روعه قليلا . . .

ثم ذهب يستفتي الذين جنوا على انفسهم بالزواج . ويسألهم كيف تحملوا متاعب هذا النوع من الشقاء . وما هي المواضيع التى تتكلم فيها عادة زوجته ولكنه لم يستفد شيئاً يذكر بل رجع بجعبة استفتائه افرغ من فؤاد ام موسى فالبعض رفض. والبعض مزح . والبعض كان رديء التعبير حتى كان من الصعب استخلاص معنى من حديثه . وقال له احدهم . « ان كل مايختص بالامور المنزلية يترك للزوجة والكلام يدخل في هذا الباب » . وقال آخر « ان عبارات نعم — لا — ولماذا . مرشد للمرء به يجتاز أي طريق تدفعه الزوجة لسلوكه — وصرح آخر انه كان يترك المنزل كلما ابتدأت زوجته بالحديث—ونصحه آخر أن لا يعارض المرأة فيما تقول فأن بذلك يطول حديثها وتكثر المناقشة لان اساس الحديث المعارضة » . . . . ثم تزوجها.

بينما كان بجانب زوجته في القطار حل ذلك السكون الذي طالما خافه فحاول استجماع افكاره فالفى رأسه خاوياً خالياً. ففكر في شيء يقوله فلم يوفق . وقد كانت لديه عدة

مواضيع . ولكنه رأي من السخافة والهذيان ان يقول لزوجته « ان هذه النافذة مربعة الشكل ومصنوعة من الزجاج » او « ان سقف هذه العربة مستو مصنوع من الخشب »..!!

مضى على سكوتهما زمن ... خبأت زوجته وجهها بين يديها وأخذ كتفاها يهتزان كأنها تبكي ... فلم يطق صبرا . بل دفعه دافع الحب فبلع ريقه وخاض غمار الحديث فناداها بقوله :

« لماذا تبكين ايتها الحبيبة!؟ »

فقالت بصوت خافت متقطع : ولم ترفع رأسها :

« لست أبكي ياعزيزي انني أضحك ! » . . .



الخيانة

لقد كان رجلا شامخ الانف أزهى من غراب . فاذا أراد مخاطبة احد كلمه بكل تكبر وعتو . وكانت نظراته حادة ثابتة ولا يخرج الالفاظ الا مقاطع مفردة ويلقيها القاء التابع لمتبوعه . ولم يوجه اليه أحد سؤالا مطلقا لعتوه وزهده بل لم يسأل نفسه سؤالا !! اننا نعيش بالسؤال والجواب .ولا يجيب امرؤ على شيء مالم يحرك فيه آخر حاسة الرد عليه ومناقشة تلك الحاسة التي طالما رفعت قوما كما وضعت آخرين

كان يود ان يملك كل شيء .. ولا يريد أن يشاركه أو ينازعه أحـد فيما يملك . وكان يمنح ما في يده بكل كرم وسخاء ولا يحتمل مشاركة احد له فيه ...

وكان يقول : « كل ماهو لى . يجب أن يكون لى وحدى . فاذا كان حيا فيجب أن أستخدمه الى آخر نسمة من حياته . واذا كان جمادا فلا أطيق ان ارى لاحد ما عليه

سبيلا . فان تطلع نظرك الى شيء من متاعى نخذه كله او اتركه لى كله »

وكان سمسارا وبهذه المهنة جمع التراث جمعاً لماً مما جعله ينظر الى المستقبل وهو هادىء مطمئن والى اخوانه ابناء آدم بازدراء واستخفاف . ظانا أن حاله هذه هى احسن حال تسمو اليها نفس انسان

وظل الرزق مبسوطا له ردحاً من الدهر . ولم يبق في نفسه شيء سوى اختيار زوجة يتوج بها هناءه . وكان يتطلع الى ذات ثروة . ولم يطل بحثه حتي عثر على فتاة ذات صفات عالية . وأخلاق سامية جديرة بأن تكون زينة وحلية أى مكان توجد به مهما كان رفيعاً عليا . وقد كانت سليمة الذوق خفيفة الروح جميلة جذابة . تتدفق آيات البلاغة والفصاحة من ثغرها مع مراعاة قواعد اللغة وكانت تعزف على البيانو بمهارة يقصر دونها الوصف . حتي انه لمن الصعب جدا بل من المستحيل ان يلاحظ الانسان عليها خطأ ما

وكل ذلك مما ترتاح اليه النفس وتقر له العين . وكان الرجل يرجو ان يكون كل ما في الدنيا يباع ويشرى ليتبوأ فيها اسمى مكانة من السعادة . ولكن . . . ماذا عسى يعقب الغنى الكبير مع الشح والفقر . لاشك انه يعقبهما ذلك الشيء الآخر الذى لامهرب منه ولا مفر عنه . وبعد ذلك ايضاً شيء لاندرك له كنهاً . . حركة وسكون درج في الاكفان ونشر . وكل تلك آيات متباينات دائمات الحدوث مع التغيير والتبديل . لقد كان علي علم بكل ذلك وعقله وافكاره مثقفة بهذه المبادىء القويمة ولكن قصر ادراكه عن تصور ان زوجته تكون ذات رأى مفكر وحرية وحقوق خاصة وانها ليست كباقي امتعة منزله له عليها مطلق الملكية

بعد زواجهما . . . رأى بعين بصيرته ونقده ان امرأته تكره مايميل اليه عادة . وتحب مايكرهه وترفع قيمة مايحقره مما جعله يحرق الارم غيظا ويعض بنان الندم والاسف

ومن المعلوم لدى كل انسان . ان ربة البيت تجلس بجوار الموقدة وتوجه سهام اللوم والانتقادالى كل ما يجرى حولها . وكان ذلك العمل اليومي مما اثر في نفسه تأثيراً سيئاً ونغص عليه عيشه . ولكن من البديهي ايضا ان الرجل يعتبر كل امرأة كالنعامة حمقاً . وان ابتسامتها الشديدة الوطأة على افئدتنا القاسية على قلوبناهي كل ماتجيزه لها من احلامها الباطلة . والله فطرها على هذا الخلق وليس لنا الا ان نحتمل ذلك ولو اننا نئن تحت هذا العبء الثقيل ..

وقد وجدت زوجته ان امنية نفسه وبهجة خاطره هو ان — « خصيني بحبك من دون الانام قاطبة . وصدقيني حتى ولو كنت على خطأ مبين . فالنساء ينظر اليهن فقط ولا يسمع لهن . واما اذا اردت المشاغبة والمنازعة فاثيرى غضب زوجك واحرجى صدره» واذا كان هو قد نسي تماما ان امرأته قد بيعت اليه بغبن فاحش وقبض ثمنها . فانها لم تنس ذلك ولن تنساه . ولا يمكن ان ننكر حتى

ولو دبرنا لذلك حسبة اقتصادية (اعظم المموهات) انها اصيبت بضرر فادح . فقد ذهبت لقمة سائغة بدون كلمة تودد او استعطاف — الا ان الوحوش لها بعض الامتياز

ومما كان يزيد نار حشاها اضطراما غبنها في شروط التسليم . واهمها فقدها حق وحدتها . وجسمها فضلا عن عقلها تمزقه براثن الندم على كل ذلك

ومما لاجدال فيه ان زوجها دللها ولكن الى حد محدود فكان يأخذها الى الاوبرا ، ويشترى لها نفيس الحلي من در وجوهر ولؤلؤ . ويذهب معها مرتين في كل ثلاثة شهور الى حديقة الحيوانات ويركع بجانبها مرة في الشهر بكل احترام وخشوع .. وقد كان يقبلها ويعطف عليها في بعض الاحيان وكان دائم التأدب معها

ولكن لم يقل لها يوما ان عينيها اجمل ما ينظر اليهما المتعب فيتجدد نشاطه . ولم يقل لها ابدا انه لايمكنه ان يعوضها اذا فقدها يوماً الا بشق الانفس . ولم يشنف سمعها قط بأن لمسة من لمى شفتيها تترك الاشل ارشق الناس

حركة وابرعهم في فن الرقص ولم يقسم لها مرة علي انه يقتل نفسه ويلقيها في بحار التهلكة اذا هي فكرت يوماً في الاعراض عنه — شيئاً من ذلك لم يمتع سمعها به — ومن المحتمل انها لم تكن تود ان تسمع او ترى منه هذه المبالغات ولكنه لم يعرف كيف يلعب معها دوره بمهارة ولم يدر من اين تؤكل الكتف وكانت من جراء هذه الخشونة منه تظن في اعمالها بعض الخطأ ولذلك عمدت الى تربية اقتل واتلف مايربى ويعني به ... ثم عمدت الى تربية الحزن والاسى ...

وكان غيورا الى حد الجنون . ولكن لاعلى حبه بل علي متاعه . وكان بقدر سروره من الغير لاستحسانهم ذوقه وتحبيذه بقدر غضبه على زوجته اذا مدحت احد هؤلاء على ذلك .

وكان لسان حاله دائما يقول لها : اقصري عليّ كل اعجابك وكل علامة ابتهاج واستغراب تبدينها . وكل دقيقة من افكارك لا بد ان تكون لى وحدي لانني اذا فقدت

شيئاً من ذلك فانني لا أملك اذاً شيئاً . انني كريم وطيب معك . فكم من وقفة وقفتها بينك وبين يد الدهر الغشوم وضرباته . وكم من مرة ألطف الهواء الشديد الذي يلامس خديك فاجعله نسيما رقيقا . فقومي انت ايضاً بقسطك من الواجب حتي نسكون سعيدين .

وكان في مكتبه احد عماله . كاتب فاحم الشعر اهيف القد كثير تقطيب الجبين . اذا تكلم كان صوته كمياه الشلال انحدارا . ثم يظل بعد ذلك شهرا صامتاً . ومجمل وصفه انه كان شاباً سوداوي المزاج حزين النفس ذا مطامع . وكان سيده يمدحه على كفاءته ويركن اليه ويحب منه هذه الصفات وكان ينقده في الاسبوع جنيهين اثنين . ولم يكن في رأس هذا الفتي غير ماوصفنا اكثر مما في جوف الزهرة في الحديقة او في رأس العصفور على الشجرة

وقد اتفق يوما ان السيد لزم فراشه بسبب زكام شديد فامر كاتبه هذا ان لا يؤخر الاعمال بسبب بعض عطسات وظل الكاتب في منزل سيده بقربه لاطلاعه على الاعمال .

اسبوعاً كاملا . وقعت عيناه في اثنائه على سيدته،فرأى فيها جمالا ناضرا . وشباباً زاهراً . وحباً فاترا . واكتئاباً ظاهراً ورأت منه فتى صامتاً . وقلباً خافتاً ، وحزنا عميقاً .. لذلك لا يتولانا الدهش او يأخذ منا العجب اذا تجاذب القلبان بعد النظرة الاولى ، وولد فيهما الحب ونما سريعاً غير حاسبين للواجب حسابا ،وان في الانسان لقوة كامنة .يعذر اخفاؤها في بعض الاوقات ينسي الانسان معها نفسه وما ينبغي لها وتدفعه رغما عن قيود الواجب او الدين . وهل يقوى الانسان الضعيف على عصيان ملاك الحب الذى يطير به الى سماء الهناء او يجسر علي الوقوف في وجه سلطان الهوى الذى يقف له قائلا :

« اعطنى نفسك والا اتلفت نفسك ! » .. ؟ ! فاذا كان ذلك حال أقوى الاثنين وهو الرجل . عذرنا اضعفهما بل وعطفنا عليها مشفقين وان الشخص الثالث لهو خيال زائل او طيف راحل لعين المحبين .. واما دخله السنوى علي ضخامته فهو شيء يسخر منه ولا ينظر اليه . فعين الحب

ارفع من ان تتطلع الى المال

في ذات مساء .. نفس حار يقول بسرعة واختلاج « انى احبك »

فأجابها صوته يشق كبد الفضاء في طريقه الى السماء.. « وانا احبك فساعديني والا هلكت ! » . وان قلب النساء لا يسمح لهن بترك شخص يهلك على مرأى منهن . فقالت وهي تتنهد من اعماق قلبها « انى اذا انقذتك ، اهلكت نفسي و .. »

فلم يلبث ان أجابها : « لا بأس ولكن انقذيني ، هل تتركيني تتلف مهجتي . ؟ »

وكان الذي اشتراهما يقول مبتسما حين يراهما : «انكما متاعي وملك يدي ، كلا كما لى انا وحدي ، وليس لاى انسان آخر عليكما من سبيل . فاذا كان الطقس جميلا اركبتكما معي وخرجت للنزهة في الشمس الجميلة . ونذهب ليلا الى الاوبرا نستمع الي المنشد وهو يلقي قصيدته ، واذا ما امطرت السماء

وسمعنا قرع المطر علي زجاج نوافذ المنزل . تعزفان علي البيانو وتسمعانني انغامها الشجية وهكذا نشعر بالسعادة الحقة ويرفرف علينا ملاك الرحمة

. . . .

ولما شفي رجع الى مكتبه وجد ان احد عماله قد تخلف فأقامه ذلك واقعده واثار ثائرة غضبه ومقته .

ولما رجع في المساء الى المنزل لم يجد زوجته فيه . . . .

وهكذا تجري الامور .

الانتقام

كان الليل شديد الحلك مدلهما دامساً. والريح صرصرا عاتية ، والبرد شديدا قارسا . هذا وقد فرغ الطبيب من تناول عشائه وجلس على مكتبه يحتسى كاس خمر تجدد نشاطه بعد الذى فقده من عناء اليوم المنصرم . وانصبت اشعة المصباح علي وجهه وهو يرفعه ليسر ناظره بما في الكأس قبل ان يجرعه ، فأبانت للناظر وجها حليقا وعينين واسعتين وفكاً كبيراً يشهد علي قوة عزمه وشدة ارادته . وكان يبتسم من وقت لآخر وهو يسند ظهره المتعب علي مقعد ليستريح وكيف لا يكون متعبا هكذا وقد باشر رغم اعتراض ستة من فطاحل الزملاء عملية جراحية لم يعرف في عالم الطب انه باشرها طبيب من قبل ، واجراها بدقة وخفة فكانت النتيجة نجاحا باهراً أخرس السنة المتشائمين، ولكن من كان يعهد فيه قوة العزيمة والمهارة القصوي لم يدهش من ذلك ولم يستعظمه وهو المشهور بخفة استعمال المشرط

مع بعد النظر واصابته . وقد اجمع القوم على ان هذا الرجل لم يبلغ هذا الشأو البعيد في فن الجراحة لانه قدصادف هوى في نفسه ! كلا ! فما اتخذه الاحرفةللارتزاق. وقد كان مقدراً له هذا النبوغ في أي فن مارسه .. فلو سلك طريق الجندية لما قصر عن ارتقاء اعلى سلم فيها ولحاز ارفع مرتبة من مراتبها ولو ضرب في عرض الارض مستكشفاً لحاز الاسم الاشهر في عالم الجغرافيا ، ولشيدت له الانصبة والتماثيل اعترافا بفضله في الاستكشاف وتحمل مشاق الترحال — ولو نشأ مهندساً لبنى لنفسه من الحجارة والحديد مستقبلا خالداً وذكرى لاتزول . . . وجملة القول انه خلق ليكون عظيماً .

كان عقله نبراساً متلألئا طالما اضاء له طرقاً فيسلكها وقد ارتد عنها غيره اذ تمنعه حندس الظلماء ، وكثيرا مارسم له جوهر عقله خططا عجز غيره عنها وارتد بصره خاسئا وهو حسير

وكم من وقفة وقفها مساعدوه وجلين دهشين من هول

مايروا تقفز قلوبهم في صدورهم هلعا ورعبا كلما مس مشرطه السريع معين الحياة من المريض

كل هذه الصفات الحميدة والمزايا النادرة التى اجتمعت في هذا الشخص محتها نقيصة واحدة رمته من حالق الى اسفل الدرك وضمست ذكراه من عالم العلم ففقدت به الدنيا عالما والمرضى ملاذاً والاطباء فخراً

فان علاقته بالسيدة (..) زوجة المثري الشهير (..) كانت اشهر من نار على علم تلوكها الالسن في المجتمعات والنوادي وصارت حديث اليوم وفكاهة القوم وما كان بدء ارتباطها الا كسائر الارتباطات الفاسدة :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فوعد فلقاء

وكانت عشيقته في نظر العالم من جميلات النساء ورشيقاتهن ولكنها كانت لديه اجملهن وارشقهن ، وكان لديها عالي الكعب جميلا ككثير غيره ولو انه كان في الحقيقة اعلاهم كعبا واجملهم منظرا

وكان زوجها رجلا مسالماً هادئاً صامتاً .. شفتان رقيقتان

وعينان مملوءتان نوما وكسلا . لايهتم لشيء في العالم سوى مكتبه وحديقته ومخدعه .. ولم يسمع به احد كأنه ليس من ابناء هذا العالم . ولكن آذان العالم قد ملئت بأخبار زوجته من ذلك ان قلبها لا يغلق بابه في وجه طارق ، وان ابتسامتها لاتختبيء عن كل معجب . وان حجرتها الخاصة ماهي الا مجتمع لاصحاب كثيرين ـ كل ذلك لم يستغرب له القوم بقدر ما استغربوا من موقف زوجها ـ هل يتعامى عمدا عن تصرفات زوجته المخلة بالشرف. ام هو ابله لا يسمع ولا يرى وما لبثوا ان ذهبت حيرتهم عند ماعلموا ان طبيب العائلة يزور السيدة بعد هجوع الناس وايوائهم الى المراقد .

وحل عندهم اليقين بعد ان طرد خيال الشك. نعم تيقنوا ان الزوج يتعامى وقد زادهم رسوخا في هذا الاعتقاد ان الطبيب قد القى عنه رداء الحذر والاحتراس وصار يعلن علاقته بها جهارا .. فنصحه اقرانه واروه مركزه الادبي العالي في الهيئة الاجتماعية .. وانذره البعض بمحو اسمه من جدول المجمع العلمي .

ولكن ذلك ما كان يزيده الا طغياناً فلعن الجميع . واشترى امامهم باقة زهور بدينارين وارسلها لمنزل المحبوبة . . . .

وكانت لاتمر ليلة الا ويراه منتصفها خارجاً من منزلها خلسة. ولا ينقضى نهار الا وتمر عربة تقلهما الى منتزهات المدينة جهرا واعلاناً .. لايخشون رقيباً ولا يحسبون للغط القوم حساباً ... وظلا يتقلبان على فراش الهناء ردحاً من الزمن . .

وعدها بالزيارة هذه الليلة . فنظر في ساعته فوجدالليلة في اولوياتها . فمد يده ليقرع الجرس وأمر باحضار العربة . فلم يكد يفعل حتى طرق اذنه صوت الباب يدقه زائر . وما عتم ان دخل خادمه معلناً وجود رجل يطلب المقابلة وناوله بطاقته فقرأ فيها :

جميل مرزا بائع عاديات

فأمر بادخاله . فمثل امامه رجل قصير القامة اسمر اللون كث شعر اللحية والشارب معمم بعمامة هندية وقد حمل في يده صرة . فبدأه الطبيب بالتحية ، وسأله عن سبب زيارته فأجابه الرجل بصوته المحزون :

ـ «ايها الطبيب ! ان زوجتي على فراش الموت فهلم لتراها واسرع »

ـ « الا يمكنك التريث الى الصباح ؟ فاني مقيد بموعد هذه الليلة يمنعني من تلبية طلبك »

فكان جواب الهندي ان جذب رباط الصرة التي في يده وأفرغ مافيها على المائدة فاذا به ذهب وهاج . وقال :

« كل ذلك لك اذا اسرعت معي . . . واني لا أستغرق من وقتك سوى ساعة او اقل فهلا اجبت طلبي ورحمت شباب امرأتي ! !»

ففكر الطبيب هنيهة لان منظر الذهب ذكره بالدائنين الذين حفيت اقدامهم على بابه هذين اليومين . وان تأخير

ساعة لا يؤثر في الموعد المضروب خصوصاً وانه كثيرا ماوافاها متأخرا وانتهى به التفكير الى الاقرار على التوجه فقال للرجل :

— « مامرض امرأتك ؟ » فتأوه الهندي وقال :

— «مرض خبيث . وداء وبيل . الم تسمع بخناجر الموحدين ؟ »

— ابدا ! فما تكون؟

— انها خناجر شرقية قديمة ذات نصل منحن مدبدب وقد علمت اني اتاجر في الآثار .. وعندي في منزلي منها الشيء الكثير . وكان من بينها خنجر من هذه الخناجر الملعونة . .

فقطع الطبيب عليه حديثه قائلا :

— الا تذكر ان عندي موعدا .. فلم كل هذه الاطالة التي لا علاقة لها بمرض زوجتك !!

— سوف ترى علاقتها . فإن امرأتي في هذا اليوم بعد شجار بيني وبينها وقعت على هذا الخنجر فجرح شفتها

فاجابه الطبيب متأففا . وانت تريدني اذاً لأضمد لها الجرح ؟

— كلا !

— فما الذي تريده اذن ؟

— ان هذه الخناجر مسمومة النصال ؟ !

— مسمومة ؟!

— اجل ! وليس هناك في الدنيا من ادناها الى اقصاها من يعرف لهذا السم ترياقا

— وما هي علامات هذا السم التى تظهر على جسم ضحيته؟ !

— نوم ثقيل . . وموت بعد ثلاثين ساعة

— اظنك قلت ان لا ترياق لهذا السم . فلأي شيء تريدني اذن ؟

— نعم لا ترياق له . ولكن المشرط يشفيها

— وبعد ذلك ؟

— اذا اصاب السم اصبعاً وجب قطعه . ولكن الذى

يقيمني ويقعدني ان السم قد اصاب شفتها. فواحسرتاه عليك يا امرأتي ويامصيبتاه !

ولكن الطبيب الذي طالما جدع انوفاً وبتر سيقاناً وسلخ جلد الوجه في احوال افظع من هذه لم يبال بقطع شفة فقال له :

— لاتخف ! فان المصيبة اخف مما تظن . فأنا لااتردد في قطع الشفة اذا كانت حياتها رهينة على ذلك !

فقال الرجل وقد بدت سمات الحزن الشديد على وجهه

— افعل مابدالك . فالله عوني وعونها ..

وقدم له الطبيب كأساً مما كان يشربه ليجمع قواه . فرفضها الرجل بإباء معتذراً بأنه مسلم ومحرم عليه شرب الخمر ولو كان دواء

هذا وقد اخذ الطبيب يجمع في حقيبته الآلات اللازمة حتى اذا ما انتهى وهمّ باقفالها قال له الجندي :

— ماتلك بيمينك ؟

— زجاجة مخدر

فقال الهندي مرتاعاً : لا واستغفر الله اننا مسلمون يارجل والمخدر عندنا حرام !

— فقال له الطبيب مأخوذاً : أو تريد أن اجري لزوجتك عملية بغير مخدر ؟ !

ـ ان النوم الثقيل احدى علامات السم قد استولى عليها وكفاك مؤونة المخدر . فهي لن تشعر ..

واسرعا نحو الباب ففتحه لهما الخادم وركبا العربة فسارت بهما حثيثا وهي تنهب الارض .....

وقفت العربة بباب منزل حقير . فصعد الرجلان الى غرفة النوم وولجا بابها وكان في الغرفة مصباح ضئيل لا يكاد نوره يبدد ظلام الغرفة الدامس فأمسكه الطبيب ووجهه نحو فراش رقدت عليه امرأة نائمة مغطي وجهها الى أنفها بنقاب ابيض . وأما ما بقي فكان ظاهراً يشهد على بياض بشرتها وصفائها وجمالها ورأى الطبيب على شفتها السفلى جرحاً صغيرا

فقال له الزوج :

ارجو سيدي أن يعذرني في ابقاء النقاب كما هو فانني

اضن بوجه زوجتي ان يراه مخلوق . ولكن الطبيب لم يفكر وقتئذ في شيء من ذلك بل اخذ يفحص الجرح بما عرف فيه من الدقة والمهارة ثم رفع رأسه وقال :

ـ اني لا ارى في الجرح التهاباً ما . ويحسن بنا ان نؤجل اجراء العملية حتى الصباح

فصاح الهندى مرتاعا : لا تتوان ياسيدى . وانك لا تدرى عن هذا السم شيئا فانه فتاك . انى اعرفه . واؤكد لك ان حياة المريضة متوقفة على سرعة اجراء العملية . فأسرع ناشدتك المروءة

فتردد الطبيب ولكنه رأى ان صرة الذهب تفلت من يده اذا أبى . وان موقفه من جهة اخرى يكون صعباً حرجا اذا ماتت المرأة فقال :

ـ تقول ان لك خبرة والمام بفعل هذا السم . وتقول ان العملية لازمة لحياتها . فهل انت مصر على ما تقول . الا فاعلم ان وجهها سيصبح مشوها قبيحا !

فقال الهندي : انى اكرر لك قولي فاسرع ، اما عن

تشويه خلقتها فما حيلتي . انى اعلم ان لثم ثغرها سيكون مستحيلا بعد ذلك !

فالتفت اليه الطبيب متغيظا . ولكنه لم يعبأ بل اخرج مشرطه من حقيبته . ووجه ضوء المصباح الى وجهها فرأى عينيها مغمضتين نصف اغماض . ولاحظ ان جفنيها يضطربان ويهتزان فعزم على الاسراع قبل افاقتها . فأمسك الشفة بملقاط وبأسرع من لمح البصر . قطع بالمشرط مرتين وانتزع من الشفة قطعة مثلثة . وما كاد يفعل حتى قامت السيدة مولولة صارخة نازعة عن وجهها النقاب . ووقفت وسط الغرفة وهي لاتفتأ تشير بيدها الى شفتها والدم يقطر منها . وقد عقد الرعب والجزع والاسى لسانها فلم تنطق بكلمة . . . .

ورغما عن تشويه الوجه . . . . فقد رأى الطبيب فيه . . وجها يعرفه بل وجها يألفه بل وجه . . . . عشيقته . . . . . ؟ !

فسقط بجانب الفراش كمن اصيب بضربة على أم رأسه

واحس بالغرفة تدور حوله ، وشعر بأوصال رأسه تتمزق واركانها تتصدع . ورأي في غشوته كما يرى النائم ان وجه الهندي قد تغير وان لحيته الكثة وشواربه الضخمة لم تعد لاصقة برأسه وان المثري (..) زوج عشيقته واقف امامه يضحك بتمهل ضحكة الهزؤ والسخرية

هـذا وقد انتهى صراخ المرأة فوقعت على الفراش مغشيا عليها

ثم قال له الزوج :

— كيف ترى الآن ؟ اظنك صرت من رأيي الآن وان العملية الجراحية كانت لازمة لها ..

فسقط المشرط من يد الطبيب واخذ يعبث بأطراف الفراش ولم يفه ببنت شفة وعاد الزوج فقال :

— اني كنت ادبر منذ مدة طويلة طريقة لانتقامي حتى وقع خطابك الذي يحمل اليها موعد اليوم في يدي فوفقت الى هذه الحيلة .. الا ترى انه لم يفتك موعد اللقاء ؟

فضحك الطبيب مقهقها ضحكة طويلة .. دب منها الخوف في قلب الزوج فخرج من الغرفة صامتاً

والتقي عند الباب بالحوذى فأمره ان يأخذ الطبيب الى منزله لانه في حاجة الى المساعدة .. اما هو فمضى الى حيث لا يعلم . . . .

وقرأ القوم في جرائد صباح اليوم التالي ان السيدة (..) وجدت مائتة في منزل صغير بالضواحى وهي مقطوعة الشفة ـ وان زوجها المثرى الشهير (..) لم يوقف له على أثر ؛ فتولتهم الحيرة والدهش ولكن زاد دهشهم وحيرتهم عند ماقرأوا بعد ذلك ان النطاسي البارع والجراح الماهر الدكتور (..) ذلك الرجل القوي البنية الحديدي الارادة اصبح مجنوناً لا يعقل شيئا ...؟ وهكذا يكون الانتقام



حب العائلة

لما فرغ من عمله ذات يوم ووضع أدواته جانباً . قائلا لرئيس العمل انه سيعمل هذا وذاك حيا اخوانه هاتفاً لهم وخرج متكاسلا يمشي الخيلاء وفي جيبه اجر اسبوع .

ولقد كان لديه من الاسباب مايمنعه عن ترك العمل والركون الي البطالة والراحة من ذلك زوجته وعائلته التي يعولها .

وليس مايسر الانسان قدر قوله لرئيسه انه سيلبس رداء العمل جاهدا في ذلك بكل همة ونشاط . وانه لولا قبس الامل الذي يستضيء به المرء ويأنس لقتل اكثر الناس انفسهم عند اول خطأ يرتكبونه او لدى اول مصيبة تدهمهم وان حمل الجولق يتعب من لم يتعوده . وقليل من الناس من خصهم الله بما يكفيهم مؤونة حمله . وكم يكون الانسان خجلا عند عودته الى زوجته خالي الوفاض بادى الانفاض لايملك بلغة ولا يجد في جرابه مضغة . وكم يكون

مسرورا قرير العين عند دخوله اليها ويده مملوءة بالنضار ، هذا اذا ضربنا صفحا عن العار الذي يلحق من يقتل الوقت كاسلا غير عامل .

وكانت زوجته غير ثابتة الرأي مزعزعة . ولكنها كانت طيبة القلب . وكانت ذات لسان حاد وشعر احمر سريعة استعمال يدها (في الضرب) واما العائلة فكبيرة افرادها مختلفون ، متباينون ، ولم يمر على زواجهما بضعة اسابيع حتى افهمته انه لابد من ان يدير البيت رأس واحد . وهذا الرأس لا يكون رأسه هو ، فعارض في ذلك اشد معارضة ولكنه غلب على امره ولم يكن له رأي يعتد به حتى في امور البيت الاقتصادية

فما هو الا ان تقول له «اعمل هذا او دع ذاك» حتى يجيبها « حسنا ! »

وكانت تكره القائل بأن الزوجة هي رفيق الرجل ومساعده ، بل كانت عقيدتها التي لا تتزعزع ان لا بد للرجل

ممن يأخذ بيده ، وكانت تضرب لذلك الامثال ولها في ذلك اقوال كثيرة منها :

(دع الرجل يسير برأيه اليوم في الطريق الذى يريد ، تراه اخا الشيطان غدا)

ومنها : (اعط الرجل رأسه وهو يفقدها)

ومنها : (لاتوجد اللحيـة والعقل الراجح في رأس واحد)

ومنها : (ان العقل الذي في انملة المرأة ليزن عقـل فرقة من الرجال باكملها)

وقولها : (اذا تواجد رجلان تحاربا . واذا وجد ثلاثة جلسوا الى الشراب ثم يعقب ذلك مشاجرة عنيفة فغرامة للحكومة)

هذا ماكانت تعتقده فى الرجل : ولـكنها بينما هي تدعو الى السلم وتقترح على الحكومة ان تفرض ضريبة على كل رجل ذى عضل اكبر من انملة ذبابة ، كانت هي نفسها من بنات فنلاندا الحربيات ولها من القوة مايمكنها

من قهر ملاكم قوي . واضرب مثلا على ذلك هرب جميع افراد العائلة وتسلقهم جدران المنزل اذا هم لحوا في وجهها سمات الغضب . وفي مقدمة الجميع زوجها ..ولم تكن تعبأ به كثيرا كما كانت تقول له ذلك بصراحة تامة . ولكنه كان رجلا فلا يسلم بذلك المبدأ

وقد عاش دهراً غير قانع بعيشه منغصه . ولم يكن ليخفف عن هذا البلاء وينفس عنه بعض هذا الكرب سوى بعض سويعات كان يقضيها على انفراد مفكرا . وان امرأ يرتكب الموبقات جهرا واعلاناً نازعاً عنه برقع الحياء غير خاش لومة لائم لسعيد . ولكن الذي يقضي وقته بين معاقرة الخمر سرا والحالف منكرا ذلك تسترا لناء عن مسامحة قومه ورضاهم

جاء يوما بطلنا يقرع الباب . وهو لايزال فائرا دمه اثر خلاف مع رئيس عمله يمزق ربطة رقبته غيظا وحنقاً ففتحت له زوجته الباب . وكانت وقتئذ منهمكة في تنظيف المنزل . وكانت لايهدأ لهـا بال ان لم تترك المنزل كصفحة

الطعام نظافة . وكانت السيدة مهيبة الطلعة ذات وقار . ولكنها لم تكن كذلك في ذاك الوقت . اذ ان شعرها الاحمر الجميل كان متلبدا شعثاً . وكان على خديها بعض سخام الفحم . وكان ذراعاها ناصعي البياض مغطيان بالصابون . وبالطبع لم يزد في جمالها انها كانت تلبس حذاء من احذية زوجها . ! !

فلما وقعت عيناها على زوجها واقفاً بالباب في هذه الساعة التي لم يعتد الحضور فيها ذعرت وتقهقرت الى الوراء . ولكنها لم تلبث ان صرخت في وجهه قائلة :

« خبرني بحق السماء ما الذى اتى بك في هذه الساعة من النهار والمنزل مشوش ولما يرتب الاثاث ؟ ! لا تمش على الصابون يارجل ، اما لك عينان في رأسك تبصر بهما ؟ »

فرد عليها قائلا : « انني لا امشي على الصابون برأسي والا لكنت رأيته ، وياله من شيء جميل ان لا يدخل الرجل الى منزله ولا يخرج منه الا زالقاً كما لو كان على الجليد »

فقالت له امرأته صارخة : وألطف من ذلك واجمل ان ابقي الصابون في الصندوق غير عابثة بالمنزل الذى يأويك فيحكى مستودع القاذورات نظافة

ولكني استميحك عذرا على مافرط منى . فان ذلك لايهمك . ولا عجب فرائحة الورد تقتل الدود . وكل طير يأوى الى وكره الذى نشأ فيه . فلا عجب اذا مالت نفسك الى العفونة والقذارة . ولكن اعلم وتيقن انني لم آلف ذلك وطالما انا في المنزل فسأنظفه اردت ذلك او لم ترد »

فقال لها وهو يبحث بنظره عن طريق له وسط الماء (ليكن ماتريدين)

— مالك لاتدخل اذن ؟! مالك قد سمرت في الباب كالابله يرى امامه شيئا خارقا للعادة

فاجابها : عليّ اذن بقارب صغير يحملني . والا فاذا كان الاولاد لايرونني فأنا اخلع ملابسي واعوم

فقالت وقد رشقته بنظرة تهكم : اذا كنت تهتم بالبيت اقل اهتمام او على الاقل اذا كنت ذا فطنة ، لادركت ان

الاولاد يكونون في المدرسة في هذه الساعة . فما احسن من تعاشر وما احلى من تذهب الى . . . دس يارجل في الماء ثم امسح قدميك في الممسحة هناك

فدخل الى الغرفة . وما كاد يجلس حتى فقد ما بقي له من شجاعة ، وكانت زوجته قد تبعته . فألقت عليه نظرة فاحص وقالت :

« لم تخبرني عما حدا بك الى المجيء الآن ؟ »

ومن البديهي انه اذا كان لامفر للانسان من تخطي مأزق . فافضل شيء له السرعة ومثل ذلك مثل حمام الصباح في الشتاء . كلما تريث الانسان في خلع ملابسه وتصور وقع الماء البارد على جسمه . جزعت نفسه واقشعر بدنه . وقف شعر رأسه بلا مسوغ وربما سولت له نفسه الرجوع عن الاستحمام .

وكان ذلك شأنه تماما : فانه لم يكد يسمع هذا السؤال حتى هم واقفا ثم اخرج من جيبه مرتب اسبوع ورمى به على المائدة وقال :

قد تركت العمل!!

قال هذه الجملة ثم ادخل يديه في جيبه ووقف ينظر اليها فرآها وقد جلست بتمهل وهي دائمة الاحداق في وجهه ثم قالت

تعني بذلك انك فقدت مورد رزقك ؟

فاجابها نعم . لقد اخبرت الرئيس ان يغلي عمله ورأسه في اناء واحد ويبيع المرق بعد ذلك للهررة !!

— انك ترمي بنفسك في هوة فانظر

— حقاً ماتقولين ياسيدتي

— وهل لك ان تخبرني ما الدافع لك على ذلك ؟

— نعم لاني رجل ولست فأراً . كما واني لا اود ان اكون قطعة عظم في افواه الكلاب بل. الشياطين تلوكني والرجل قد يكون رجلا في بعض الاوقات

ـ حقا انك تقول الصدق . ان الرجل قد يكون رجلا في بعض الاوقات وانها لشفقة من الدهر ان لا يكون الرجل دائما رجلا . وانه لمن الصعب ان ترى المرأة زوجها

ليس رجلا بل مخلوقا احمق ابله له جسم رجل ورأس طفل

وكانت هذه اول مرة رأى زوجته تشاركه بعض متاعبه . فقد كانت اكثر منه سبقا الى المشاغبة والمنازعة ...

واثر فيه انقلابها العجيب اذ رآها لزمت جانب الصمت والسكوت بخلاف عادتها . وجعل يتطلع الى ذراعيها القويين وقد تركتهما بجانبها ويقول في نفسه « ان النساء كثيرا ماينسين ان ضعفهن قوة وقوتهن ضعف » وان اضعف شيء في الدنيا ربما صار اقواها بتغيير طفيف يوجب العجب والدهش والحجر الصلد يتلاشى تحت تيار المياه . والطفل الصغير يجعل الرجل الكبير يعمل ويشتغل لاجله . والمرأة خلقت للاعتناء بالاشياء وزوجها قبل اولادها محتاج لهذه العاطفة منها . واذا المرأة جاوزت حد الاعتدال فنظرت الى قوتها باكثر مما هي عليه لم تجد قوة الرجل بدأ من التلاشي كما يتلاشى زبد الامواج على الشاطىء . وان الرجل لايمكنه

أن يجمع في فؤاده بين عاطفة الحب والطاعة لامرأة قاسية ظلوم تطالبه بالطاعه قبل الحب . ولو انه من السهل عليه بل مما لامفر له منه اذا كانت كريمة جميلة . والرجل لا يقدر ان يعبد امرأة ويحفظ لنفسه مكانتها في آن معا . فان قوة ذراعيه لتعيره اذا فعل !!

وان الرجل الفاقد لهيبته لرجل ضغن . لان الحقد يتولد في قلبه والمقت ينمو في نفسه لمن افقده هذه المنزلة الشريفة ولا بد ان يحل ذلك اليوم الذي تفقد في نفسه ثورة التحرير من ربقة هذا الاسار . فيضرب الضربة القاضيه . وهكذا كانت الحالة هنا . وما كان دافعه في الحقيقه الى فقد وظيفته الا هذه النزعة . لان امرأته قد قبضت على اعنة الخيل وساقت عربة الزوجية . ولا يسعنا الا الاعتراف بأنها قد احسنت مافعلت الى حد ما . ولكن السائق ذا الحق جالس في مؤخرة المركبة يرغي ويزبد ويندب حقه المسلوب . فلجأ الى فعلته الشنعاء . . ورجع الى امرأته عاطلا وهو يقول في نفسه :

« انها ستحزن بلا ريب. ولكنها مادامت تود الاستئثار بالساطة . فلندعها تكسب عيشها وعيش اولادها »

وقد قدرت الموقف حق قدره . فان لها من الاولاد اربعة . اذ نظرتهم بعين الخيال يصرخون من الم الجوع . ففت في ساعديها. ولم تر نفسها قادرة على عراكه بل بالعكس جلست تتطلع اليه بنظر شارد . الى ذلك الذى سامته سوء العذاب . ولاول مرة منذعرفها رآى الدموع تجول في مآقيها ثم انحدرت كسبك اللجين على خديها . نعم فان المسكينة قد اسندت رأسها الى الخوان واسترسلت في البكاء

فاخذ منه العجب ، واستولى عليه الجزع ، ولكنه لم يقو على رؤية انحدار هذه الدموع . فجرى اليها منعطفاً عليها لاول مرة كذلك قائلا :

« اظن ايتها العزيزة ان عيني لاتخونانني. فهل انت حقاً تبكين ؟ ولم ذلك ؟ انني اذا كنت قد فقدت وظيفتي . فانا قادر علي ايجاد غيرها . وانني لاخاف العمل . وسأجده حالا ، ولو اضطررت الى جر عربة يد أو بيع البرسيم على المنازل.

فبالله الا ما كفكفت عبراتك من هاتيك العينين الجميلتين »

قال ذلك محاولا النظر اليها . نخبأت وجهها لما استحوذ عليها من الخجل اذ ظنت نفسها تحادث غير زوجها . وان يده التي على كتفها يد اجنبية ذلك لانها لم تألف هذه الملاطفة منذ زواجها به

واردف ذلك بقوله : « اني خارج ياعزيزتي في الحال ولا اعود في المساء الا وقد وجدت عملا ، ولو انتزعته من صاحبه بكماشة »

ولم يكد يتم قوله حتى وضع قبعته على رأسه . ثم ازاح الصابونة من طريقه وخاض في المياه الى الباب . ولكنه رجع ثانية ليقبل زوجته وقد كانت نسيت منه هذه المجاملة... ثم خرج الى الشارع رجلا عاملا كما كان

وما ان خرج حتى عادت زوجته الي عملها . وبينما كانت تشتغل ابتسمت لشيء لذيذ مر بذاكرتها ثم جعلت تغني وتنشد طربة ...

وعند فراغها اقبلت على المرآة فصرفت ساعة في ترتيب شعرها وتزيين نفسها . واذناها مصيختان الى وقع اقدام. ثم انصرفت الى المطبخ حيث جعلت من آن الى آخر تلقي نظرة في اناء البطاطس لتباشر انضاجه وهي تقول :

« ان ميعاد حضور الاولاد قرب . وسيكونون على جانب عظيم من الجوع . فوا كبداه ! »

ولكنها لم تفكر في جوع اولادها فقط . فان حرارة القبلة لم تفارق شفتيها . وقد كان شيء في نفسها يهتف بها وهي جذلة

« انه سيعاود ذلك عند ايابه ! »

وهكذا كان شهر العسل الثاني اهنأ واوفر سروراً من الاول



حب الطبيعة

قرب الوقت الذي ستصير فيه اماً للمرة الثانية .فاستحوذ عليها الخوف الذي هو والمرأة جزء لا يتجزأ خصوصاً في حالة كهذه اذ تأتيها الاوجاع وتنتابها الآلام.فخافت وحزنت والخوف من مصيبة قادمة . مصيبة حاضرة

ولكن كل هذه المخاوف والمتاعب لم تكن شيئا مذكورا بجانب شيء آخر اقامها واقعدها ...

كانت طيبة القلب ، مسالمة هادئة ، مطيعة صموتاً ، طالما تناول الفقراء والمعوزين من يدها احساناً . وامتلأت بطون الكلاب الشاردة من طعامها .. كانت تنظر اليها الناس بعين الرضا . ولم يسمع احد انها اختلفت مع احد من صاحباتها .

وكان زوجها من الرجال المتأنقين في ملبسهم المعجبين بشكلهم . طويل القامة متناسب الاعضاء ضحوكا مهذارا لم ير قط عبوساً . وقد ولد طفلا ونشأ طفلا وسيبقى طفلا

ماعاش . وان تجعدات وجهه مهما كثرت . ولون شعره مهما ابيض لن يغيرا من طباعه ولن يطفئا من حرارة قلبه . ولعمري ان الضحكة والابتسامة والمداعبة لن تفارقه حتى على فراش الموت

ولو كانت القبلات الحارة ، والكلام العذب الرقيق ، قضاة منصفين وكانوا المرجع والمرشد والقول الفصل في قضايا الغرام ، لحكموا بأن حبه لزوجته فاق كل حد

ولكنه لم يحبها ... فقد كان من طبعه التغير والتقلب كالجو لايبقى على حال . عجن قلبه من مادة كثيرة الوجود الآن وهي « حب سريع يعقبه فتور ثم نسيان »

ونحن لاننكر ان حبه لو كان متمكنا في قلبه لكان شديداً هائلاً . ولكنه كسحابة الصيف . فكان يتمسك بالحاضر الذي هو امام عينيه . بكل قوة لديه ثم لايلبث ان يغتاظ ، ويقف حائرا عندما لايرى مخلصاً من الماضي الذي هو تاركه . فكان مثله مثل الغريق الذي يتشبث بقطعة خشب عائمة وقد علقت برجليه الاعشاب الذي كان قد

جنح اليها فيما مضى للنجاة . فلا هو يريد ترك الخشبة إذ بها أمن وحياة ، ولا هو بقادر على التخلص من الاعشاب .

وكان لا يعير المستقبل اى اهتمام . ومن منا يفعل ذلك لان المستقبل شيء غير مؤكد . وغير منظور . اما الماضي والحاضر فهما حقيقتان ثابتتان كيف التخلص منهما او عدم الالتفات اليهما ... ؟!

ان ما فعلناه وما نفعله الآن اشياء تلحقنا وتؤثر بنا. وتعيش معنا . وتبقى بعدنا ذكراها . اما ماسنفعله فشيء لايعتد به ولا يؤثر فينا مقدار ذرة . وما هو الا استنتاج مبني على نظريات . وكثيرا ما تتغير النظريات وبالاولى نتائجها . . .

اما وقد رأينا صفات الرجل فلا نعجب اذا علمنا انه شكر ربه عندما تزوج بفتاتنا . واعتقد انه اقتطف بذلك زهرة الجمال. وصارت في حوزته فريدة النساء وربة الكمال. وقصر ادراكه عن ان للجمال زهورا عديدة يتضوع ريحها

وان في النساء كثيرات ينلن الحظ الاوفر من الكمال مع الجمال في اعين من يحبهن

. . . .

وحدث وهي تحمل حملها الثاني . ان اصاب ولدها الجدري . فأخذته عنه بينما كانت تمرضه .. حتى اذا ماشفيا معاً محى المرض الخبيث آية جمالها : فأزال عن خديها حمرة الورد . وفارقت وجهها النضارة التي كانت تعبدها الرجال من اجلها ..

وكان حب زوجها لها كما بينا حب طبيعة .. فما كان يحب منها سوى جثمانها وحسن تكوينه . ولم يلتفت الى ماحواه هذا الجثمان من العواطف . ولم يتعب فكره قط في استكشافه . فكان لايعرف من امر زوجته اكثر مما يعرف اي انسان آخر . فلما ذهب المرض بما احبه . وترك ما لايحبه . تغيرت عواطفه نحوها . .

قرأت ذلك في اعماق قلبه . واكتشفت حقيقة حبه رغم الطلاء الذي كان يطليه به ليظهره بهجا ينبيء عن ثبات

وعدم فتور وكانت اولا تمكن تلك الرابطة بما استطاعت واستطاع جمالها . وتجذب زوجها اليها بمغناطيس جسمها ولمعان عينيها واحمرار خديها .. اما وقد فقدت العده وضاع الجمال عقدة حبل المحبة فلم يبق لديها ماتمنع به رباط المحبة ان ينفصم وكان ذلك ..

كم من الليالي قضتها بعد ابلالها ودموع اليأس تجري حارة على خديها المشوهين ... لايعلم عددها الاّ ها . . وياله من علم يرعب ويخيف

كم من اهانة . فتور واشمئزاز . اصابتها من زوجها ان مجرد تفكرها في ذلك تضرم في رأسها نار القنوط . وتكاد توقف حركةقلبها . . . .

تلك التفكرة والخوف من المستقبل مصيبتان اقامتاها واقعدتاها اكثر من الاوجاع التي ستحل بها وقت الوضع . .

وقد عامت بخسارة جمالها صباح ان زارها زوجها بعد شفائها من مرضها وبعد ان تأكد لديه ان لاخوف عليه من

العدوى . ونظر اليها مسلما ... تحديق فاحمرار وجه . فنظرة غضب ممزوجة باحتقار وكره. ثلاثةاشياء انبأتها بعصير جمالها اكثر من اصفى واشد مرآة لمعاناً . وانها لن تنسى ماعاشت تلك التقلبات الوجهية . فكانت كلما اغمضت عينيها تمثلت لها كما حدثت . . . .

. . . .

واخذت رغم الآلام النفسية التي حلت بها والاوجاع الجسمية التي ينوء من احتمالها كاهل اقوى البشر . تلاحظ زوجها وهو جالس بجانب فراشها التي ستلد فيه ، ولم تسمع منه مخففاً لآلامها سوى هذه الكلمات القلائل (ما هو الا اسبوع وينقضي ثم تنسين كل شيء) ولكنها لم تسترسل الى الفرح لدى سماعها بل تابعت مجرى هذه الجملة حتى وصلت الى متبعها من فؤاده فرأته يقول ذلك ممنياً نفسه بوفاتها بأوجاع النفاس ، نخيل اليها ان حياتها التي كانت والسعادة صنوان لا يفترقان اصبحت على ابواب الابدية

وعرضت على مخيلتها حوادث الكثيرات مثلها اللواتى

لقين حتفهن بحمى النفاس واوجاع الوضع . ورأت امامها شبح الموت ينظر اليها مبتسماً تجول في عينيه الشفقة عليها والرثاء لحالها وهو يحييها .

وهي وان كان الامر قاصراً عليها لما ترددت دقيقة واحدة في رد التحية عليه. .ولكنها فكرت في ابنها الصغير الذي ستتركه بعدها .. وساءلت نفسها : أي قلب شفوق يبقى له اذا ذهبت . . ؟ ! وأي ذراعين يفتحان له ليرتمي بينهما اذا جنح يطلب الراحة والطمأنينة ... ؟ ؟ ! !

وكانت تعلم طباع زوجها . فهو يسلو بقدر ما يحب . لا يلبث ان يذهب هواها من قلبه متى ذهبت . او ذهب جمالها فمن عساها تصبح زوجته اذا هي فارقت الحياة ؟ ! واى خطة تسلك ازاء طفلها المسكين ، طفلها اليتيم ؟ ! قد تشفق عليه بادىء بدء . ولكن اذا هي اتت بأولادها الجدد فماذا يكون مصير ابن الزوجة الاولى .. وما اتت الى تلك النتيجة المؤلمة حتى استولى عليها اليأس والقنوط ، وكانت لا تشك في حصول ذلك ، لانها امرأة تدرى طباع النساء . . رأت بعين الخيال

بل بعين الانكسار والخبال . اطفال من ستأخذ مكانها . قريري العين . منشرحي الخاطر لهم القسط الاوفر من الهناء والحظ الاكبر من رعاية ابويهم . وبحثت عن ولدها فوجدته منزوفي ركن بعيد غير مكترث له ولا ملتفت اليه . . مرذولا مطرودا ممقوتاً .. ولا ذنب له سوى انه ليس من فصيلة اولادها

رأت كل ذلك وهي تنظر الى زوجها .. وما لبثت ان حل اليقين في قلبها محل الشك ، وتأكد لديها ان كل ذلك لامحالة واقع . . . .

. . . .

حتى اذا ماحلت الظلماء .. واختبأت الكواكب وراء السحب القاتمة اضاء المصباح فراشها . فأبان حولها وجوهاً يائسة تتطلع بحزن اليها وهي تفارق الحياة

الحنان المفسد

عند ما نزل من بطن امه استقبل العالم باكيا صارخا صائحا . . وبقي على حاله هذه سبع سنين لم يفتر دقيقة واحدة اللهم الا اويقات الطعام او سويعات النوم هذا اذا لم نعد صوت مضغه وازيزه وغطيطه في نومه ضربين من ضروب الصراخ والجلبة واتى الوقت الذى ابطل فيه الصياح ، لا لرغبة في ذلك ، بل لانصراف ذهنه واعمال فكره فيما يجعل غيره يصيح ويعول . وقد برع في هذا الفن ونبغ ، فاذا ساق سوء الطالع طفلا صغيرا فقابله : رأيت دبوسا ينسل من حيث لا يعلم احد ، وما هو الا لمح البرق حتى يصير هذا الدبوس مع جسم الطفل في اتصال دائم

هكذا ولد وهكذا نشأ

وقال ابوه يوما لامه غضبان اسفا على خبث ابنه واعماله الجهنمية :

« اقسم بكل محرجة من الايمان ان هذا الطفل ليس

من فصيلة البشر . واني اراهن أيضاً على ما اقول . وانه لو رآه احد الشياطين لقال له اين ابوك ابليس .. ولست اشك مطلقا انه خليفة ابليس في الارض وان له من المردة اعواناً ومرشدين .

خسيساً دنيئاً سافلاً متعاظماً
محباً لفعل الشر بل هو دائمه
بغيضاً لكل الناس خلوا من الهدى
تكوّن من خبث تقوت شكائمه

ولقد تعبت يداي وكلتا من ضربه وهو لا يزداد الا سوءاً وعتواً .. ولا أدري متى تحون الساعة التي اشنق فيها لقتلي اياه ، ولو كنت بحاثة اوفيلسوفاً لاثبت بأقوى البراهين وادليت بأقطع الحجج على ان هناك في بعض الرءوس وأولها رأس ابني خداعا ونفاقا وشراً واجراماً اكثر مما في المواخير والحانات من الشرور والخمور والبلايا والمحن والرزايا والاحن . اني والله لولا بقية اعتقاد في طهارتك لجزمت بأن الشقي ليس ابني لانني في حيرة من اين اتى

بهذه الصفات الشريرة ، بل كيف اجتمعت هي فيه وتأصلت بذورها في نفسه ، وكل الناس يعتقدون فيّ الطيبة والصلاح ! ؟

قال ذلك ووقعت عينه على الولد فصاح به غاضباً :

« اغرب عن وجهي ياعصارة السوء والشرور ، ومجمع الخبث والفجور . اقسم بالذي نفسي بيده انني لو امسكت عليك عملاً سافلاً بعد الآن لاتركنك محتاجا الى دليل في سيرك .. نعم لافقأن عينيك ولو كان في ذلك هلاكي »

فقالت زوجته وهي تبكي :

« يالك من اب صخري الفؤاد ! انك بذلك تخرج عن حدود الانسانية وتصير وحشاً فكل من سمع مافهت به لأيقن انه مجرم اعتاد الاجرام وانت تقاضيه ... ولا يدري انه طفل سوف يترك الغواية ويتبع طريق الهداية متى كبر وترعرع (والتفتت الى ابنها وقالت له بحنو زائد) تعال اليّ ياولدي العزيز . تعال الى امك التي تحبك ايها العزيز الصغير »

وفي نفس تلك الليلة عند ماذهب الولد الى فراشه عثرت رجله بشيء تحت الغطاء .. وانتهى البحث الى اكتشاف قرطاس من الورق، فما ان فتحه حتى وجد به وكر زنابير جياع تلتهب شوقاً للذع . ؟ !

فهرب الرجل من القاعة هائما على وجهه كمن اصابه مس من الشيطان ، ولم ينتظر في البيت اكثر من ان وضع قبعته على رأسه وجرى مسرعاً الى غدير قريب وألقى نفسه في الماء . . . وما كاد يفعل حتى طفا على وجه الماء فقاقيع ناشئة عن انفاسه التي كان يخرجها باللعن والصخب . . وكان كلما رفع رأسه مستطلعاً هجمت عليه الزنابير الحائمة بشراهة مزعجة فيسرع بالاختفاء من وجهها في مياه الغدير ومضى عليه وهو في هذه الحال ساعتان اخذ فيهما من الروماتيزم مالا يبرأ منه الا اذا اعيد خلقاً ثانياً

ولما رجع الى منزله ألفى زوجته ملقاة على الارض ملفقة في غطاء الفراش تئن بغير ارادتها لانها كانت مغمى عليها ....

ولم يعرف وجهها لاول وهلة لانه لم يبق فيه موضع غير ملتهب مسموم .. وبعد مضي بضعة ايام قرر الطبيب ان عينها اليسرى فقدت قوتها الباصرة وان اليمنى ربما تلحق برفيقتها

واختفى الولد ردحاً من الزمن .. وبينما احد الجيران يسير في الطريق ابصر قطعة حجر تنبعث بقوة من مصدر غير منظور ثم رآها وقد وقعت على رأس قطة مسكينة لاذنب لها فجعلتها تحفر الارض بأظفارها ألماً وهي تصرخ .. فيمم الرجل مصدر الحجر فوجد الولد مختبئا في كهف صغير ..!؟

فأرجعه الى المنزل .. ومنع والده من قتله حتى لا يرتكب جريمة قتل مع سبق الاصرار

وقد وجد الطبيب الذي يعود الابوين ان ليس هنالك من العقاقير مايسكن من آلام الزوجة اكثر من ضم ابنها وتقبيله . فكانت افكارها وكلامها في صحوها وغيبوبتها وهذيانها منحصرة فيه ، ولنضرب مثالاً على ذلك قولها :

« لم يكن سوى طفل لايعقل . والضرب والعقاب البدني لايجديان نفعاً . اتركوه يمرح ويلعب . . أليس ذلك صفة من صفات الاطفال ؟ ! ! سوف تصير عاقلاً حليماً هادئاً في المستقبل ، اليس كذلك يابني ؟ تعال الى امك ايها العزيز تعال اليّ ياصغيري المحبوب »

وكبر الطفل ونما جسمه ، فصار رجلا ، وكانت أمه ترقب كبره وترى نموه يزداد سريعاً حتى انها كانت تظنه تقلب فجأة من طفل صغير مجنون الى رجل عاقل تفتخر به الامهات وتبتسم له الفتيات . لان عقلها اكثر من ان يتصور ان ذلك الانسان القوي المملوء عضلا كان طفلا صغيراً يختبيء وراء جلبابها كلما اشتد غضب ابيه . فكانت لفرط شغفها به كلما أغمضت عينها ـ لان الاخرى مغمضة من تلقاء نفسها ـ شعرت كأن يديه الصغيرتين تلتفان حول عنقها ووجهه الصغير يختبيء بين احضانها كلما تعب خداه من التقبيل الكثير

في وسط كل هذه المفجعات شب الولد وترعرع ،

فقصر سرواله الذي كان طويلا . وطالت المسافة بين حافة كم قميصه ورسغه . واوشكت رجلاه ان تخترق حذاءه لتجد لها مكاناً . فتغيرت معالمه في كل شيء ، ولكنها بقيت كما كانت وستبقى كما هي في شيء واحد . نعم فان الرجل قد يضيق على رجله الحذاء فيغيره ولكن طبعه لن يضيق على نفسه ولذلك لن يغيره .. فالطبع ملازم له بحالته الاولى صغيراً كان او كبيراً

وكان معروفاً لدى جميع الكائنات الحية المجاورة لمنزله ... فاذا لمحه هر جرى وتسلق شجرة وجمد في مكانه . واذا سمع وقع اقدامه كلب اوقف ذبذبة ذنبه وهرع الى ركن او حجر ليختبيء فيه . وقد عرفت الطيور أنه يحمل في جيبه احجاراً ... وصب اهل البلدة عليه اللعنات حينما رأوا قطة تخترق الشوارع صارخة عاوية وهي تحترق بزيت البترول ، وتحدث القوم عن كلب كان يعوي ويصيح وقد رفع أنفه الى السماء كأنه يستمطر البلايا على الانسانية لشدة الم الضربة التي اصابته ولكنه ما كاد يشكو اوجاعه حتى ارسلت على ام رأسه

ضربة ثانية أراحته من آلام الاولى ... وقد أجمع القوم على أن هناك قلبين كل منهما كفء لمثل هذا العمل ... أولهما قلب بطل قصتنا وثانيهما قلب الشيطان وقد عاد فريق كبير وأخرج قلب الشيطان من هذه المعادلة ...

وأقسم صاحب الكلب بالنجوم ومن نثرها.وبالارض ومن بسطها ليدقنّ عنق من أمات كلبه

وخشى الأب شر الفضيحة في هذا البلد فأخذ زوجته ومضى بها الى بلدة أخرى ولكنها هربت منه ورجعت الى ابنها . فطلق الرجل الاثنين وعاش مطمئناً .

وكانت نسوة البلد اذا قابلن الفتى في الطريق مشين وأنفاسهن المضطربة تصفر من بين أسنانهن وصدورهن تعلو وتهبط ...

واذا لقيه بعض رجال القرية في طريق مشوا والجزع يرفرف على وجوههم وقبضات أيديهم على استعداد وأعينهم لا تتحول عن أن تلاحظه خفية ... فقد اشتهر ذراعه بالطول وعضله بالقوة . وطباعه بالشر وخلقه بالسوء ولم

تسمع أذناه في حياته كلمة شفقة ولم تر عيناه حركة حنو الا من مخلوقين أحدهما فأره الكبير الكاسر الذى اعتاد أن ينيمه معه فهو رفيق وحشته والآخر أمه التي اعتادت أن تقول :

«لامراء ولاشك أن الجميع قد تعصبوا ضده . وتآلفوا عليه ... فهم لا يغفرون له زلة مع أنه لا يزال طفلاً ... أليس لهم أطفال مثله يحنون عليهم . ألا يعلمون أن اعماله نتيجة دم الشباب ... وتلك سنة الله في خلقه . ولن تجد لسنة الله تبديلاً ... ألا يرون انه يتحمل نظراتهم الحادة وكلماتهم القاسية بصبر عظيم .

لكم الله من أوغاد يامن تعذلون ابني وفلذة كبدي . ابحثوا بينكم عن ذلك الشرير الذي تنشدونه. وانت يابني لاتحفل بكلماتهم بل تعال الى أمك.تعال الي ياصغيري العزيز !!...»

ووجده بعض الرعاة صباح يوم ملقي تحت صخرة وقد دق عنقه فتنفسوا الصعداء ولم يلبثوا ان افاقوا من دهشتهم حتى اسرعوا الى البلد حاملين هذه البشرى . فقال البعض انه

سقط من قمة الصخرة. وأكد البعض انه انتحر اذ لم يجد من يأذيه . فالكل تحصنوا ضده . واكتفى البعض بأن نظر اليه بكراهة ممزوجة بسرور وتشفّ .ولكن الشعور الذي عم الجميع بلا استثناء كان الفرح والسرور

اما امه فقد جنت لدى وقع الخبر وظلت في بكاء ونحيب الى ان وافاها القدر المحتوم



رأي في الزواج

بينما الرجل العجوز يتهيأ للجلوس سمع وقع شيء على الارض . فمال اليه والتقطه واذا به زر له . فحفظه في جيبه حتى يعطيه لمدبرة منزله لتخيطه له . وبينما هو يتكلم في مسألة تدبير المنزل وخدمته . وصل به الحديث الى الزواج فقال :

« ان الزواج كباقي العادات ليس طبيعة في الانسان بل هو صفة مكتسبة وأنني . وأظنني على حق في ذلك . أقول ان الانسان لم يولد متزوجا . وان الشبان والشابات الذين لم يذوقوا طعم الزواج. منتشرون بكثرة غير مستغربة. والطبيعة رغم ذلك على ما نعهدها من الاجتهاد في عملية التوالد . نعم اقول واؤكد ان الانسان يولد منفرداً وليس لنا أن نعتبر التوأمين الساميين مثلا صالحاً ننسج على منواله وأراني دائماً اميل الى الاعتقاد ان الحفلات التي تقام للوصل بين اثنين من البشر . هي قيام في وجه العناية الربانية . ولقد

فكرت ايضاً ان انقسام النوع البشري الى ذكر وانثى ليس من الاقتصاد في شيء . ولكنى اخاف ان تكون فكرة الزوجية قد تشعبت جذورها وتمكنت من افئدتنا ونفوسنا حتى انه لمن الصعب بل ربما يكون من المستحيل استئصالها .

وقد اصبح من الطبيعي ان يرى الانسان هذا التقسم . فكل حيوان يولد لابد ان يكون رغم انفه من احد النوعين . ذكراً او انثى .. ولا يذهبن بك الظن الى ان ذلك غير حاصل في مملكة النبات . بل ان الاهبة والتجهيزات العظيمة التي تدل على الحمق والجهل والتي تسبق عادة حفلات الزواج لها نصيب وافر ايضاً في عالمي الحيوان والنبات . كما ان الخطبة ولوازمها التي هي مقدمة الزواج وطريق ذلك الاتصال المخجل . تباشرها بعض فصائل الحيوان . فالذئاب مثلا عشيرة دقيقة جداً في هذا الشأن . اذ الخطبة عندها تباشر بطريقة في غاية الشدة والقسوة . فالذئب الذي يغرمه حب ذئبة من قبيلة اخرى يجب عليه ان يخاطر بحياته في محاولته

اتخاذها زوجة . فعليه ان يستخلصها من عشاقها اجمعين
معرضاً نفسه بذلك لنار غضبهم المحرقة وحر قتالهم الشديد.
فاذا ما ظفر بقتلهم او تشويه اعضائهم. متحملاً شديد الألم.
سافكاً دمه الاحمر على جليد البلاد الروسية الناصع البياض.
ذهب اليها بما بقي له من اعضاء جسمه ليتمم حفلة الزواج

وهذا الضرب من الزواج يوافق قوماً كأهل اسبارطه
الاقدمين فقط . كذلك العناكب . فانها فئة احتقر منها بعض
العادات ولكن لا يسعني الاّ الاعجاب بالبعض الآخر....
وهي تباشر عملية زواجها بطريقه محزنة للغاية . ولو كان لنا
ان نسمي الزواج في جميع الاحوال حادثة محزنة فاننا في
حالة العناكب يجب ان نسميه فاجعة أليمة ونكبة عظيمة .

العناكب فئة سوداوية المزاج كثيرة التشاؤم. سكنها
اركان الجدران فتنسج بيوتها الدقيقة حيث تبقى فيها امداً
طويلاً في حال اشبه بحاله الفلاسفة تدرس الكون وتفكر
في اللانهائية . وكل ما تفعله تسلية لها ولهواً هو قتل الذباب
او الانتحار . ولله درها من شيئين ... وهي كباقي المخلوقات

تولد ولا مفر لها من احد من النوعين سالفي الذكر . وذكر العنكبوت اصغر حجماً من الانثى . وهو قلما يعتني بحياته . اذ ما اسهل عليه عند ما تسد في وجهه طرق المعيشة . ويتعب من الحياة ان يرتكب جريمة الزواج او بعبارة افصح ينتحر . اذ يتخذ له زوجة كبيرة الجثة متوحشة الطباع لا تتردد في قتله عند ما تقارب الوضع . وبما انها كباقي النساء . محبة للهو . ميتة الضمير . تلتهمه . وربما كان ذلك بناء على طلبه ورغبته . فتريحه من عناء الوجود في دنيا الشقاء . كما تكون قد سدت رمق جوعها بدون كثير بحث عن فريسة تأكلها

اني لست على يقين ان كانت العناكب الذكور كثيرة الوجود او نادرته . ولكني قررت الحقيقة السالفة كمثال على عواطف النساء نحو ازواجهن شفقة عليهم اذ لا يطقن رؤيتهم متعبين. وحباً للاقتصاد من جهة اخرى . . . . . . ! ! ؟

واما عن الاسماك وما تتبعه في الخطبة والزواج . فان علمي يحصر منها شيئاً قليلا . اذ جل ما اعرفه ان السمك حيوان مائي قبيح الخلقة قذر يتبع السفن الاميال البعيدة

يقوده ضعيف الامل بأن يلقى اليه بعض الفتات من بواقي الاطعمة

وهناك ايضاً من الكائنات ماتتصيد ازواجاً لها بشباك الغناء . ويكون ذلك عادة في الطيور مثل البلابل والقبر وعصفور الكناري . ولكن ذلك ليس بقاصر على الطيور فقد يتحداها الى ... المغنين والشعراء والموسيقيين والهررة في بعض الاحيان

اما الكلاب فانها منكرة الصوت خشنته ولذلك ليس لها حظ من ذلك ... اما الطاووس فانه يعرض منظر ذيله الجميل على زوجته . التي تكون اذ ذاك قد اخذت بجماله . وفتنت بحسنه . فتحدق به مسحورة وهو يتيه عليها عجباً ويتبختر دلالاً

أما الضفادع فانها كما اظن تجري هذه الاعتبارات من خطبة وغيرها في دياجي الظلم . وانه لشيء يدل على حكمة في الامور . ودقة احساس ورقة شعور

ولننتقل الى خدمة الفنادق والمطاعم نجدها تستافت الانظار — الزبائن هنا وربما الازواج — بياقاتها العالية

وأحذيتها اللامعة . كما وأن مساعدي بائعي الاقمشة يتبعون ما ذكر مع اضافة لبس الاشربة الخضراء . ولم يعرف عن هؤلاء أن خابوا مرة في اصطياد زوجة أو زبون

وهناك من المخلوقات من لا يتزوج مطلقاً (١) اذ تنقسم الواحدة في وقت ما الى جزأين مستقل الواحد عن الآخر تمام الاستقلال . فتراه بمجرد انفصاله ينطلق كأنه قديم معرفة بهذه الدار . وهذا هو اسعد المخلوقات في الوجود على ما أعتقد .

واما انا . . . . . فقد ولدت فريداً وسأعيش كذلك ما حييت . ولن اسمح لنفسي ان تكون امة رق لتحكم الزواج وجبروته »

وما كاد الرجل ينتهي من كلامه الذي فاه به بكل عزم وثبات ويقين واعتقاد حتى انطلق في غاية البشر والسرور سرور من ادى ما عليه من الواجب ؟

---

١ حيوانات ذات خلية واحدة تسمى بالانكليزية (Unicellular Animals).

التعليم العصري

جرع العجوز كأسه دفعة واحدة—ولست ادري هل كان ذلك لان الشمس كانت شديدة الاشراق على غير عادتها او لانه كان قد جرع ثلاثة كؤوس من قبل ... ولكن ما لنا ولهذا

وكان وقتئذ واياي في جدال حاد عن ايهما انضج عرفاناً واكثر علماً واوسع خبرة الاستاذ (...) او الدكتور (...) !؟ اما انا فانضممت الى صف الاخير متمسكاً بأنه صاحب المؤلفات العديدة في فن الفلسفة العقلية. فقال لي صاحبي انه قد اطلع على احداها وهو لا يرى فيها فائدة ما تبل اواماً او تنفع نشئاً . وقال ان الفلسفة ما هي الا غشاء ذهبي يجعل الحقائق اقل ظهوراً واكثر غموضاً . هذا اذا لم يعكس نظرياتها ويظهرها على غير حقيقتها. وانتهى بنا الاخذ والرد الى ما يأتي :—

قال « انا لا اميل الى اي طريقة تتبع الآن في تعليم

الناشئة . فأنت تعرف ان الغرض من التمليم هو ان يؤهل المتعلم لان يكون كفئاً لمقابلة كل طارئة او تغيير تحدثه شرائع التمدن الحديث . فيحفظ لنفسه مركزاً في الهيئة الاجتماعية . وليس هناك اسلوب واحد من لساليب التعليم تتفق مع هذا المبدأ ...

لانك اذا ساقك سوء الحظ وزرت احدى المدارس العصرية . رأيت شاباً طويل القامة رفيع الجسم مفتول الشارب انيق الملبس يجتهد لادخال حقائق مشوشة عديمة الفائدة في عقول اطفال مغلقة لا تفتح ابداً لمثل هذه الحقائق او بمثل هذه الطريقة . واذا سألت طفلا منهم اين تقع لابرادور من الكرة الارضية . واجاب على ذلك انها تقع في الطرف الشمالي من مجموعة جزر برلين لحكمت بأنه مخطىء من وجوه عدة ... ولكن ماذا يعود عليه من النفع اذا كان جوابه على سؤالك صحيحاً ... وانك لو تركت له له حريه القول ولم تعقل لسانه بالارهاب البدني لاجابك على الفور « اني لا اهتم مثقال ذرة بموقع لابرادور » ذلك

لا نه لم يوجـدها هناك ولا يود الذهاب اليها ... وهو على صواب فيما قال ... فماذا تهم لابرادور او جزر النار او ارخبيل اليونان ، لقنه المعلومات الكافية عن بلاده . ثم ارسله الى تلك البقاع ليستخرج الحقيقـة بنفسـه فذلك خير له واولى . ارسله مثلاً الى الاهرام ليصفها لك واعداً اياه بقطعة من الحلوى تراه وقد عاد عالماً بدقائقها اكثر مما لو قرأ اضخم المؤلفات وسمع اصدق الروايات . واستنتاجه الشخصي يربي في راسه قوة اكبر فائدة له من التعليمات العصرية وانا في الحقيقة بمجرد ان نزعنا من اجسامنا كساء الطبيعة الجميل . وانغمسنا في رذائل المدنية ومساوئها . لم نعد نعرف كيف نتعلم او نعلم

لقد استبـدلنا حرية الحياة بقيودها وفضاء الله المملوء حقائق ومشاهدات بأمكنة ضيقة نتعلم فيها ما لا يفيدنا . فأوجدنا جداول الضرب . وكنا بدونها اسعد حالاً واهنا بالاً . وملأنا عقولنا بالجذور اللاتينية وتعلم اللغات الميتة ونحن نعرف اننا سوف لا نستعملها في شيء قط . واجهدنا

النفس باكتشاف الحبوب لتسهيل الهضم . مع اننا كنا لا نعرف لعسر الهضم معنى

ولعلك على يقين ان الطالب في احدى المدارس لن ينال درجة رفيعة ويتخرج من مدرسته الا اذا ساعدته الصحة وعاونته القوة . وأعرب ميلا مربعاً من مختلف اللغات الميتة وهو يعلم ومدرسوه يعلمون انه لن يحتاج في حياته القادمة الى سنتيمتر مربع منها وهو لايدري ماذا جنى حتى يتعلمها ويفضل لو يعلم كيف يزرع البطاطس بدلا من تلك اللغات لان جذور البطاطس اكثر غذاء ونفعاً من الجذور اللاتينية او الحسابية ولانها لا تحتاج الى أعراب او تحليل مثلها

وأن المدنيــة التي هي مسئولة عن جميع مصائب الحياة الحاضرة كالحلاقة والتعطير وشراء الاحذية وغير ذلك تقع عليها تبعة مساوىء التعليم الحديث .

علم البنت كيف تعرف البيضة بالعين المجردة قبل ان تعلمها كيف تنضجها وتهيؤها للأكل — علمها كيف تستطيع

منع يدها من ايصال الاذى لغيرها ولسانها من البذاءة وخلقها من السوء وهي تشب ربة بيت يفيض سروراً ويطفح هناء

علم الفتى الصغير كيف يمنع صديقاً له من ان يحطم دماغه في ساعة حنق او غضب . ولقنه كيف يحترم امه في كبرها وكيف يعطي فقيراً معوزاً بعض ماله من دون ان يتباهى على اقرانه بأنه يستثمر رأس ماله في الجنة بفائدة المـاية عشرة !!... افعل كل ذلك ثم حطم قيود المدنية الحديثة . وعد كما كنت ابن الطبيعة والبساطة وانت تلقي نفسك في دنيا تحسدك جنة عدن عليها ...

ان المدنية الحديثة قد قلبت كل شيء رأساً على عقب ألا ترى اننا بدلاً من ان نقف احتراماً للمزارعين والمدرسين نخضع لاوامر الضباط مع انهم والانسانية على طرفي نقيض ..! ألا ترى ان المجالس الاستشارية ملأى بأقوام لا يدرون في الفلاحة او الزراعة اكثر من انها فن يشبع بطونهم ويقر عيونهم !!. انحتقر المزارعين ونزل

من كرامة المدرسين مع انهما يشغلان ارقى الوظائف العمرانية التي يتوقف عليها نماء الجموع !!

فتعساً لهذه المدنية — وقبحاً لهذا الزمن»

وما كاد يفرغ من حديثه حتى اخذ كأساً وشرب ما فيها دفعة واحدة وانصرف غاضباً؟



تصحيح خطأ

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٤	٦	مرار	مراراً
١٦	٣	للعمر	للسمر
٣٤	١	يروا	يرون
٣٥	٢	وصديقته	وحديقته
٣٧	١٢	لأستغرق	لا أستغرق
٤١	١	مرتاحا	مرتاعا
٥٧	١	كفكف	كفكفت
٦٤	١٣	متبعها	منبعها
٦٥	٤	وهي وأن	وهي أن
٦٦	٤	منزو	منزوياً
٦٧	١٠	تحون	تحين
٨١	٥	ققد	فقد
٨٨	٢	الجموع	المجموع

الأعمال الذهبية

لا كان من عاش لنفسه فقط

تأليف

الكاتبة الانجليزية الذائعة الصيت

شارلوت يونج

تعريب

مصطفى شهدي و مصطفى حلمي

صاحب « نسمات الربيع » و« عظة الشباب »

ضابط بوليس نقطه ديرمواس « أسيوط » سابقا

ثمن النسخه عشرة قروش صاغ

مطبعة السفور بشارع سيف الدين المهراني نمرة ٥ بالفجالة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

***

لاشيء افعل في النفس الحساسة من عمل مجيد يدل على نبل مقصد وشرف مبدأ يقوم به فرد أو جماعة لا انتظاراً لشكر واطراء ولا رغبه في بلوغ جائزة أو صلة بل شعورا بما يقضى به الواجب نحو الله والوطن والانسانية والدين

وليس في الكون ما يستحق الثناء الطيب والاحترام الحقيقى أكثر من تقديس الواجب وحب الخير والصبر على تحمل المكاره حبا في جلب منفعة ودفع مضرة وتضحية المصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة وعطف الانسان على اخيه الانسان

. . . . . .

تلونا معجبين سلسلة تلك الاعمال الذهبية التي يجدها القاريء على الصحائف التالية فتركت فى نفسينا ذلك الاثر الذى يشعر به كل من يقدر الاعتراف بالجميل وتحس به كل نفس نزاعة للخير

فرأينا أن نقل تلك الاعمال واجب تقضى به الانسانية والاخلاص للوطن الكريم

شرعنا في نقلها محافظين على ما أرادت الكاتبة من تدوين اعمال بعض الغربيين فقط وذلك ما يقضي به واجب الامانة في النقل — شاعرين بأن كثيرا من الشرقيين قام كذلك بما يذهّب صحف التاريخ ويخلد جميل الذكر والاثر

وعزمنا بمشيئة الله على اصدار جزء قائم بذاته نعدد فيه تلك الاعمال بيد الفخر والاعجاب اعترافا بفضل ذوي الفضل وتخليدا لكل عمل ذهبي مجيد

وعسي أن يلاقي هذا العمل قبولا يشجعنا على القيام باتمام ما شرعنا فيه والله يتولانا جميعا بفضله ويعدنا بروح من عنده ويهدينا سواء السبيل ؟

شهدي وحلمي

من هى شارلوت يونج ؟

ولدت سنة ١٨٢٣ وتوفيت سنة ١٩٠١

ولدت شارلوت ماري يونج في اوتربورن القريبة من ونشستر(١) وصرفت معظم سنى حياتها فى مسقط رأسها وكان ابوها رجلا ذا وجاهة واعتبار

وقد كانت من الذكاء والفطنة والقدرة والحذق والنجابة والنبوغ والادب على جانب عظيم

والآنسة شارلوت كاتبه تحير بمهارتها الالباب وتدهش بفصاحتها العقول يكاد يلمس الانسان ذكاءها النادر وفطنتها الغريزية من بين سطورها بعد ان يعجب كل الاعجاب باسلوبها البديع الساحر وكلامها العذب السلس

يشهد لها بذلك مئات المجلدات التى حظيت بحمل نفثات قلمها السيال وزانت عقود اجيادها درر بلاغتها وجواهر الفاظها

ومن جملة ما املاه فكرها الصائب وذهنها الصافى على يراعتها السيالة ما كتبته فى التاريخ العام والتاريخ الطبيعي وغيرهما . ففى كتاب (التاريخ الانكليزى) لها ثمان مجلدات ضخمة تتضمن سير ابطال كثيرين

---

(١) ونشستر بلد واقع على نهر اتش الذى يصب في بحر المانش عند مدينة سوثمبتن

ومن اعمالها الخيرية التى قلما كان يجاريها فيها احد تبرعها بالمبالغ الطائلة والنفائس النادرة لتشييد المدارس وعمل المستشفيات سيان ذلك فى بلادها او فى بلاد اجنبية

وبالجملة فقد كانت حياة هذه الكاتبة البارعة مملوءة بالفوائد المادية والادبية التى عادت على الجنس البشري . ولو لم يكن لها غير كتاب (الاعمال الذهبية) لكفاها فخرا ونبلا . فهو كتاب من خير ما اخرج للناس فى هذا العصر يمثل الانسان كيف يكون حبه لبلاده وابناء جنسه قبل نفسه ويصور له ما يقتضينه اداء الواجب من صبر وثبات وشجاعة

فسلام علي أمرىء يفني جسمه ولا يفني ذكره بما قدمت يداه من فعل صالح وعمل ذهبي مجيد

ما هو العمل الذهبي

ان ما نود ان نبسطه امام عينيك ايها القاريء الكريم لهو سلسلة اعمال ذهبية مجيدة خلدت لاصحابها الفخر على مر الدهور وتعاقب العصور وذهبت صحائف تاريخهم فتراهم ماتوا ولم يمت اسمهم وفنوا وبقي ذكرهم تتناقل الالسن اعمالهم بالاعجاب وافعالهم بالاجلال والاعظام

وقبل الشروع فى ذكر حلقة تلك الاعمال المجيده يجدر بنا ان نعرف ما هو العمل الذهبي وما هي قيمته وما هيته لتنجلى لنا حقيقة امره وحسن نتائجه ومزاياه

ليس العمل الذهبي هو مجرد الاقبال والاقدام او البسالة والشجاعة . او الجلد والصبر على تحمل المشاق ومعاناة الصعاب وملاقاة الشدائد وخوض الاخطار واقتحام المصائب . فلقد قاسى (بيزرو) (١) من الاهوال والشدائد ما تقشعر منه

---

(١) ولد فرانسسكو بيزروفي تركسللو في احدي مقاطعات الاندلس الغربية سنة ١٤٧١ م ومات فى سنة ١٥٤١ م وقد شب ككثيرمن ابناء قومه وجنسه فى ذلك الحين ميالا للحروب والمعارك . ففى سنة ١٥٣١ سافر من بناما ومعه ثلاث سفن ومائه وثمانون رجلا لمهاجمة امبراطورية بيرو الغنية العظيمة وقد تم له ما اراد انما بعد ان استعمل منتهي ما يكون من الفظاظة والغلظة والقسوة

الابدان ويقف القلم عند وصفه حائرا منذهلا عندما قاد رجاله لمهاجمة امبراطورية بيرو (١) . اذ لم يدفعـه لملاقاة تلك الرزايا واحتمال تلك البلايا الا جشع فى نفسه وطمع فى طبعه هيأهما له كسب شيء طالما تاقت نفسه له. فلم تكن بسالته وشجاعته واقدامه والحالة هذه تستحق اى اعجـاب . ولم تكن مخاطرته بنفسـه ورجله مما تشكره عليها الانسانية

وانه لم يكن ليكترث بما كان حوله وقتئذ. من أهوال ومصائب في سبيل الحصول على امنية طمع فيها ورغبة طمحت اليها نفسه ضحي في سبيلها ولاجلها آلافا من اهل بيرو الضعفاء للساكين الذين لم يكن لهم وقتئذ حول ولا قوة

وان هناك لبسالة تظهر فى المتصلفين المتعظمين تجعلهم يسرون ويبتهجون لاقتحام الاخطـار والاستخفاف بالمهالك وازدراء الاهوال واحتقار اعظم الصعوبات وتدعوهم لطلب القتال

وان هـذه الاعمال لا تستحق باى حال من الاحوال ووجه من الوجوه ان نسميها اعمالا ذهبية

***

انما العمل الذهبي يجب ان يكون اكثر من ان يظهـر المرء عدم الخوف او يتباهي بالاقدام او يظهر البسالة والشجاعـة . وان انجاز الواجب واتمامه يستلزمان منحه الاهمية الحقيقية

---

(١) احدى جمهوريات امريكا الجنوبية

واعارته الالتفات الصحيح

ولقد كان ذلك الواجب السبب الوحيد في بقاء الحارس في مركزه واضطراره لعدم مبارحته عند باب « بومبيي (١) » عند تطاير شرر البركان وقذف تلك المواد الملتهبة الذائبة فى الجو ورمي كل مابجوف الارض من معادن مذابة واشياء محترقة مما يقشعر لرؤياه الجسم . كنت ترى الناس يخرجون من منازلهم ذرافات ووحدانا يولولون ويصرخون ويستغيثون وهم هائمون على وجوههم لايلوون على شيء لاهم لهم ولا اهتمام الا البحث عن مكان يأوون اليه فيأمنون شر تلك المصائب التى يقذفهم بها جوف الارض وتلك الرزايا التي تصب فوق رؤوسهم بعد أن كانوا آمنين مطمئنين في منازلهم بين اهلهم واولادهم . كان هذا يجرى و (الحارس الامين) واقف في مكانة لايتحرك من مركزه وكأنه غير حافل به . لم ترض نفسه ان يرتد عن المكان الذي يجب عليه الا يتركه . لم يقبل شممه وعلو نفسه أن يقصر في اداء ذلك الفرض اللازم الى ان غلبه دخان البركان الهائج ومواده الملتهبة وصدمته حجارته وصخوره المتطايرة فاخمدت انفاسه

---

(١) مدينة قديمة العهد على خليج نابلى عند سفح بركان فيزوف تماما ولقد دفنت تحت رماد هذا البركان عند انفجاره فى سنة ٦٠م وقد صرفت حديثا مبالغ طائلة على عمل جملة سراديب توصل اليها فدلت بقاياها على مجدها القديم وفخرها الزائل

وحطمت جسمه الطاهر وذهب ضحية اداء الواجب

ولو انك ذهبت بعد أن هدأ البركان وهدأت بعده خواطر القوم لرأيت يد ذلك الحارس . الامين مرفوعة كانه يمنع عن فمه التراب وعن انفه الدخان ولخاطبته قائلا أيها الجندي الروماني الباسل أيها البطل الصنديد الهائل لم لم تجد لنفسك ملجأ امينا تلجأ اليه او تأوي الي جبل يعصمك من تلك المقذوفات؟ ولكن لا فقد ناداك واجبك قائلا لاعاصم لك اليوم من امر ربك فابق في مكانك ومت شريفا نبيلا ولا تمت موت الجبان الخائن الذي ترك واجبه وفر من وجه الموت ولم يقم باعباء مافرض عليه طلبا لتلك الحياة الدنيئة

يارعاك الله بأبيك خفف عن نفسك قليلا وخفف ذلك الدمع المنهمر من مآقيك حزنا وأسفا علي ذلك البطل وقل لى بربك هل يطلب من جندي اكثر من هذا الرضوخ وهذه الطاعة وذلك الانقياد للاوامر وتأدية الواجب بهذا الشكل الشريف وهل فى قدرة جيش من الجيوش أن يبقي ويثبت في وجه عدوه بغير هذا الاذعان وتلك الطاعة ؟ او هل يتيسر لسفينة من السفن ان تمخر عباب الاقيانوس وتلاطم امواجه الهائجة بغير ذلك الرضوخ وتلك الطاعة ؟

كلا .

ان الطاعة والرضوخ والاذعان لهي اصعب واجب واقسى

فرض علي الانسان ولكن ليس في الحياة شيء عليه رونق (العمل الذهبي) وبهاؤه وصبغته الالهي

***

ومما يكسب العمل الذهبي حسنا ورواء ان فاعله يشعر من نفسه شعورا حقيقيا لاتشوبه شائبة ان هذا العمل انما هو واجب عليه قضاه وأداه وان يعرف ان لاشكر على واجب ولا ثناء . فلا ينتظر مكافأة ولا جزاء وان لا يكون جوابه اذا سئل عما فعل الا ان يقول : هذا دين وجدت نفسي مدينا به للانسانية والشرف فاحببت ان اؤديه بكل امانة وشعرت ان الواجب يقضي بقضائه

وان جوهر العمل الذهبي لهو في الحقيقة خشوع وعبادة وصلاح كما ان حب النفس هو بلا شك البلاء بعينه وهو الذي يمحو عن الاعمال الجيدة بهاءها ويزيل عنها حسنها ورواءها

انا اذا ارجعنا البصر كرتين لوجدنا ان العزيمة والشجاعة والحمية والاقدام والمروءة هي التي تهب الانسان حب خدمة المجموع وأن الطبع الغريزي هو الذى يجعل المرء يضحي كل نفيس ثمين ويخاطر بكل غال ذى قيمة في سبيل الدين والوطن والواجب والاهل والاقرباء . ويجعل الانسان يرضخ لكل شيء ويتحمل كل شيء ويقابل الموت بصدر رحب ووجه باش

***

كان من اهالى سويسرا صبيان فقيران لايملكان من حطام الدنيا شيئا .قدعضهما الفقربنابه واناخ بهما وجر عليهما كلا كله وكان لهما والد يقاسي سكرات الموت وهو راقد على فراش المرض لامعين له ولا ناصر ولا رفيق ولا صديق اللهم الا اذا عددنا معاناة الداء وتحمل البلوي والفقر المدقع والبؤس والشقاء معينا او ناصرا . ولم يكن لهذين الصبيين مابه يسدان رمقهما ويطفئان غلتهما أو مايقوم بلوازم ذلك المريض المسكين الذى لاحول له ولا قوة كاستحضار طعام او شراب او دواء.وبينماهما غارقان في بحر الحيرة والقنوط واليأس اذ علما أن بالمدينة سائحا انجليزيا يدفع مبلغا طائلا من النقود ثمنا لنسرين صغيرين هو في احتياج لهما

وكانا يعرفان وكراً من اوكار النسور على جبل شاهق وهو صعب المنال ويعد الوصول اليه معجزة من المعجزات لمناعة المكان وحسن تحصينه وارتفاعه العظيم ولم يدر بخلد انسان فى يوم من الايام أن يحاول الصعود الى ذلك الوكر لما في ذلك من الخطر العظيم والبلاء الجسيم .

غير أن حب الولدين لابيهما المريض كان اعظم من كل شيء وان عاطفة الحب الحقيقي لتتغلب على كل عاطفة فانساهما ذلك الحب نفسيهما وما كان يحيق بهما من هول وخطر وتسلقا ذلك الصخر العالى فامسكا النسرين ونزلا بسلامة الله ترعاهما

رعايته وتحرسهما عنايته وذهباتواً الى ذلك السائح فانقدهما المبلغ واستلم الطير

ألا ان هذا وربى لهو عمل مجيد وجدير بان نسميه عمـلا ذهبيا يخلد لهذين الصبيين مجداً وفخرا على مر الايام وكر الاعوام

***

كذلك كان فعل ذلك الخادم الروسي الامين عندما هاجمت الذئاب عربة سيده حال سيره فى الغـابة اذ قدم نفسـه لتلك الوحوش الضارية ضحية يفتدى بها الخيل التي تجر العربة حتي تحمل سيده الى مكان امين

وقد فعل ذلك بطيب نفس غير مدفوع بسوي حبه واخلاصه لسيده ومولاه

***

ومثل هذا وذاك ما فعله (مدير الدفة) في بحيرة (ايرى) احدى البحيرات الخمس العظيمة بامريكا الشمالية عنـد ما شبت النار في السفينة التي كان يقودها ولما ان رأى ان قـد تطـاير شررها وعلا لهيبها وان الخطب يكاد يتفاقم ذهب توا الى الآلات المحركة حيث منشأ تلك النيران واستلم بنفسه (الترس) الذى عليه مدار سير السفينة وحركتها وصار يديره وهو كتلة موقدة جاعلا وجهته المرفأ فبلغه بعد ان احترق جسمه ومات موتا فظيعا

فى حال انه نجي مئات من الانفس كانت معه فى السفينة

*
**

ومما يستحق ان يذكر بالاعجاب والاكبار مافعله الدكتور تومبسون فى واقعة نهر الالما (١) عندما خاض صفوف الاعداء وصار يتعهد جرحاهم ويسعفهم بكل ما تصل اليه يـده من ماء وقوت ودواء غير هياب من القنابل والنيران التي تصب فوق رأسه

وان انسانا يخاطر بحياته ويقتحم المصاعب ويمضى ليلة ظلامها دامس حالك بين جيوش الاعداء وفي ارضهم شفقة بهم ورحمة وانقاذا للذين كتب عليهم ان يضحوا حياتهم فى سبيل الدفاع عن وطنهم العزيز لهو جدير بان تذهب صحائف تاريخـه وان يقام له تمثال من ذهب ليكون موعظة حسنة وعبرة يعتبر بهـا اولو الالباب

*
**

ويشبه هـذا تمام المشابهة مافعـله (الدكتور هاى) ابان الفتنة التي حصلت فى الهند عند ماثار الجنود الهنود ضد الحامية

---

(١) نهر الالما موجود في جنوب الروسيا يصب في البحـر الاسود وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٥٤ نشبت بالقرب من مصبة معركة هائله هزم فيها الجيش الانجليزي الفرنسى التركي المتحالف الجيش الروسى . ولكن بعد ان خسر خسائر فادحة

الانجليزية فى سنة ١٨٥٧ فى بنارس (١) واستمرت الى سنة ١٨٥٨
وكان كل انجليزى او انجليزية يهرب من وجه ذلك الجيش الثائر
الا هذا الطبيب فلم ترض نفسه ان يترك مرضاه الذين كانوا فى
اشد الاحتياج الى عنايته ومواساته ولو ان فيهم من كان يود
أن يقبض روحه من بين جنبيه من هؤلاء الجنود الثائرين

***

ولا يحسن بنا أن ننسي تلك السيدة الشريفة النبيلة الكريمة
الخلق التى اوقفت نفسها على تخفيف آلام المرضى وتضميد
جرح الجرحي وتعزية أهل القتلى ونار الحرب تستعر والمقذوفات
النارية تكاد تلتهمها وسنابك الخيل تكاد تحطمها والرصاص
المتطاير يكاد يخترق صدرها وهي حاملة اناء الماء تبحث عن ظمآن
فتطفىء غلته وتسلى كربته وتزيل وحشته

حقا لقد كان ينسى الجريح جراحه والمريض مرضه عند مايرى
ذلك الملك الطاهر يخترق الصفوف واناء الماء على رأسه البديع
وشعره مبلل بالعرق من شدة التعب

وأن من اوجب الواجبات ان نعد هذا عملا مجيدا ونضيفه
الى سلسلة تلك الاعمال الذهبية

***

---

(١) بنارس ـ او المدينة المقدسة هي احدى مدن الهند
الشمالية العظيمة

ولم تخل الاعصر الاولى اعصر الهمجية والتوحش وعبادة الاوثان ايام انكان الجهل مخيما علي عقول الناس والغباوة ضاربة اطنابها بينهم من اعمال مجيدة كهذه كما يدلنا التاريخ . فالناس في كل زمان فيهم الصالح والطالح والحسن والقبيح والعاقل الحر الذى يفتدى بلاده واهله بروحه وماله والجاهل المنافق الذى لاهم ولا اهتمام الا لذاته الفاسدة وشهواته الكاذبة . والباسل المقدام الذى يضحي نفسه في سبيل انقاذ ابناء جنسه . والنذل الجبان الذى لايعرف للوطنية معنى ولا للمروءة مبنى

ما اقدس تضحية النفس بعد المال في سبيل منفعة تعود علي الانسانية وبنيها او علي الوطن المفدى والدين المحبوب . وما اقل ما كتبنا عمن ماتوا شهداء اعمالهم الذهبية المجيدة.وما اعجزنا عن ايفائهم حق شكرهم . الا ان الانسان لو اوتي من البلاغة شيئا كثيرا ومن الفصاحة ما اعجز الاولين واقعد المتأخرين وودلو يفيهم ماينبغي لهم من الاعجاب والثناء والاكبار والاطراء لـكان من العاجزين

وان كل ما اوردناه هنا مما مر بك ذكره لم يكن الا تقوى وصلاح وعبادة كان مصدرها اما اليأس والقنوط واما الشجاعة والاقدام او الصبر والثبات وفي كل هذه الاحوال كان حب النفس بعيدا بعد الثريا عن الثرى او بعد جهنم عن المتقين الابرار والجنة عن الملحدين الاشرار

وعلى ذكر عدم حب النفس لا ينبغي أن ننسى قصة ذلك الضابط الامريكى الباسل ابان الحرب الامريكية الداخلية التى نشبت في سنة ١٨٦١ وأخمدت نيرانها في سنة ١٨٦٥ عندما نقلوه وقد جرح جرحا بليغاً كاد يودى بحياته فأضجعوه على وسادة في أحسن مكان مريح بالباخرة التى كانت تنقل الجرحي الى « نيويورك » واذا به يرى بالقرب منه جنديا جريحا يئن من شدة الالم ويشكو ويتذمر وهو يتلوي كالافعي ولا يستقر له قرار . فقال في نفسه ما جعل هذا الجريح يئن هذا الانين الا جراحه المثخنة وآلامه الشديدة وعدم راحته في نومه . وانى لاول من يشعر بوطأة هذه الجراح ويحس بالآلام التى تتسبب عن عدم الراحة في النوم . واذ ذاك أشار بطرف أصبعه للممرضات اللاتي دهشن وأخذ منهن العجب كل مأخذ عندما سمعنه يطلب بالحاح نقله مكان ذلك الجندي الجريح واحضاره الى مكانه

ألا هكذا فلتكن الرأفة والشفقة والعطف والحنان على الانسان ولتكن طيبة النفس وكرم الاخلاق

***

تصبح الارض جنة قطوفها دانية لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة اذا عطف الانسان على أخيه الانسان وأحب

لغيره ما يحب لنفسه واستمسك بالعروة الوثقى فحمد الله حق
حمده وسبحه وشكره على آلائه ونعمه وعلم أن المال لا يبقي
بقاء العمل الصالح وأن الآخرة خير من الاولى وما الدنيا الا
دار فانية سرعان ماتنقضى أيامها وتمضى لذاتها وتتدهورمسراتها
وأن بذل النفس في سبيل النفع العام خير ما يشكر عليه المرء .
وما احسن ما قيل

ألا لا تغـرنك الحيـاة بزينـة
فزخـرفها زور وحاجاتهـا كذب
وما الذهب الابريز شيء يسرني
ولا الجوهر اللماع شيء له أصبو
ولـكن اذا كان الالى يعرفونني
وحـولي يلتفون عنـدهم حسب
وكلهـم فى القـول والود مخلص
لاصبحت الدنيا هى المورد العذب

نجاة أهل مدينة

على يد فرد منها سنة ٥٠٧ ق . م .

من أعجب مادون فى بطون كتب التاريخ الروماني القديم صنيع ذلك البطل الباسل « هوريشص كوكليس » الذي كان شدة حبه لشعبه وبلاده باعثا قويا له على المخاطرة بنفسه في سبيل انقاذ غيره من أهل وطنه

وتبتدىء سيرة ذلك المقدام من سنة ٥٠٧ قبل الميلاد أى بعد خروج الملوك من روما وسعيهم سعيا متواصلا للرجوع اليها بمساعدة سكان الاتروسكانيين سكان « اتروريا » احدي أقسام ايطاليا القديمة وبذلهم كل نفيس لديهم فى سبيل تحقيق أمنيتهم .

وكان من زعماء الاتروسكانيين وكبار رجالهم واحد يدعى «لارس بورسنا» الذى عندما توسل اليه أولئك الملوك استدعي حزب « تركونيص صبربص» (١) مع ابنه سكستص وجمع قواته وجيوشه ليغير على مدينة روما

---

(١) كان هذا سابع ملوك روما المنفيين وآخرهم وقد حكم من سنة ٥٣٤ الى ٥١٠ ق.م. وكان ابنه سكستص مشهورا بالفظاظة والغلظة كما كان أبوه متصفا بالظلم والجور

وما كاد أهلها يشتمون رائحة هذا الخبر حتي علوا أسوار المدينة وآتي الناس اليها جماعات وأفراداً يلتمسون المأوى والاحتماء. وكان نهر التيبر هو أحصن ما يحميهم من أعدائهم وكان لا يمكن اجتيازه اذ ذاك الا بواسطة قنطرة خشبية واحدة عند نهايتها قلعة حصينة غير أن طليعة جيش الاتوسكان العرمرم احتلت القلعة في برهة وجيزة ولم يكن ثم سبيل لخلاص المدينة من يد هذا العدو القادر الا تدمير تلك القنطرة حتى يظل الجيش في الجهة الاخرى المقابلة للمدينة ولا يستطيع دخولها

ولم يكن تدمير تلك القنطرة بالشيء اليسير في مثل ذلك الوقت العصيب خصوصا وقد صار جيش العدو على قاب قوسين أو أدني وقرب أن يدخل المدينة ويسحق أهلها سحقا أو يأسرهم فيذيقهم مر العذاب ويسومهم النكال

ولكن هوريشص البطل انتقى اثنين من أخصائه وخاطب قومه قائلا : أنا يا اخواني وأهل وطني الاعزاء أقوم بحماية الجهة القريبة من العدو من القنطرة ورفيقاي هذان يساعدانني وأنتم تدمرون القنطرة وتكسرون أخشابها بعزمكم وقوتكم وبذا ينصرنا الله على عدونا نصراً عزيزاً

ومشى جيش العدو يتقدم الى القنطرة فما كان أعظم ذهوله بل قل وضحكه عندما رأى ثلاثة أشخاص بمفردهم واقفين لملاقاة جيش يعد بعشرات الالوف

وكانت القنطرة ضيقة جدا لا تسمح لاكثر من ثلاثة أن يسيروا دفعة واحدة . . فتقدم الاعداء ثلاثة ثلاثة حتى دخلت طليعة الجيش وما كادوا يتوسطون النهر حتى سمعوا فرقعة الخشب وهوى الجميع الى النهر

ولم يكن باقي الجيش لكبره وكثرة عدده رأى ما حل برفقائه فكنت تسمع المتأخر يقول الى الامام والمتقدم يقول الي الوراء

ومع أن القنطرة دمرت كل التدمير الا أن أهل روما أتوا بمعاولهم وهدموا الباقي منها بكل شهامة وعزم

ورأى أهل روما ثبات هوريشص ورفيقيه وقوة جأشهم وارادتهم فكانوا يصيحون بملء أفواههم ويشيرون بأيديهم أن ارجع ياهوريشص ـ تعال يالورشص(١) ـ أقبل ياهرمنشص(٢) قبل أن يحل الدمار أو يلحق بكم العدو الأذى

وولى رفيقا هوريشص الادبار واذا بهما قد سقطا في النهر وبينما هما يلتفتان لما حولهما اذا بهما يريان هوريشص واقفا في مكانه لايزعزعه ما حوله فودا لو رجعا اليه وبقيا معه الي النهاية ولكن قد فات ما فات

ومرت لحظة واذا بدوي كقصف المدفع هو صوت ما بقى من خشب القنطرة قد سقط في النهر معارضا فاصبح سدا منيعا

---

(١) و (٢) رفيقا هوريشص

وقد تطايرت نقط المياه من قوة السقوط فلطمت تلك المبانى الشامخة العظيمة التي كانت على الشاطىء وانعكست عليها أشعة الشمس فسطعت كأكليل أو تاج مرصع هو تاج الفخر والفوز لذلك البطل المقدام هوريشص

وقد بقى باقى الاعداء خلف استحكاماتهم ومتاريسهم التى لم تكن سوى جثث قتلاهم المتجمعة في النهر ككثيب من الرمل الى أن تم هلاكهم وحل بهم الدمار والفناء . كل ذلك وهوريشص واقف وحده بكل ثبات وعزيمة — أمامه ذلك الجيش العرمرم تسعون الف مقاتل وخلفه ماء ذلك النهر الفائض العظيم .

وقد رماه أحد الاعداء بسهم اقتلع احدى عينيه وآخر فى فخذه والى هنا انتهى عمله وانقضى واجبه الشريف . فالتفت الى «بالاتنص» (١) ورأى عليه ايوان منزله الابيض فنظر اليه نظرة كأنه يودعه ثم أرجع البصر ونظر الى نهر التيبر قائلا : « أيها النهر المبارك العظم الذي يفتديك الرومان بأرواحهم وأفئدتهم عش أبدا ودم ما بقى الوجود فكلنا فداؤك وكلنا عنك مدافعون »

وما تفوه بهذا الكلام الا وقد ألقي بنفسه فى النهر المزبد الهائج ودمه يسيل من جروحه فيلون الماء بلون قرمزى مرعب

---

(١) . احد التلال السبعة التى كانت روما مشيدة عليها

مخيف . وكادت تتلاشى قواه وينضب عزمه وهومثقل بدروعه فكان يغوص تحت الماء تارة ويطفو فوقه أخرى وقلوب الرومانيين تكاد تنفطر حزناًوأسفاً وألماً ويودون لو يفتدونه بحياتهم أو ينجونه بأية وسيلة ولكن لا سبيل الى ذلك أصلا

وكم لله فى خلقه من عجائب تحار فى فهم كنهها العقول . . . رجل أصبح بلا شك من الهالكين مثخن بالجروح والدم يسيل غزيرا منها والتيار يجرى بسرعة زائدة والمياه تطفو وتزبد ولا يشك أحد فى هلاكه اذا به يصل الى الشاطىء سالما . . . .

أجل . قد أراد الله لهذا القلب الاسدي أن يحمل تلك الاعضاء التى أضعفها التعب وأنهكها النصب وألا يصبح صاحبه من المغرقين

وقد وقف ذلك البطل الي البر ينظر الى ما حوله بفرح لا يوصف .

ولا تسل عن جماهير الرومانيين الذين أتوا من كل فج والتفوا حوله هذا يضغط على يده سروراً وذاك يقبله بين عينيه حبوراً وهذا يصيح «ليحيى بطلنا هوريشص» وذاك « يعيش مفتدينا الهمام » ثم حملوه على رؤوسهم ودخلوا المدينة بين مهلل ومكبر وصائح صياح النصر والظفر والفتح المبين

***

قل لى بأبيك هل كان من اسم أكثر شرفاً وأسمى منزلة وأرفع

قدراً وأعلى مقاماً عنـد هؤلاء القوم من اسم كوكليس — أو ذى العين الواحدة ؟

وقد كان مع عرجه وعدم قدرته على قيادة جيشأو رئاسة حزب بعـد ما كان من أمره محبوبا لدى مواطنيه محترما مبجلا لدى كل انسان

ومما يدلك على شـدة تعلق القوم به ومحبتهم له أن حصلت مجاعـة ببلادهم ووقع قحط بارضهم فسارع كل روماني فى روما وكان عددهم ثلاثمائة الف ويزيدون باحضار ما يكفى من الطعام والشراب يوما كاملا له دفعة واحدة مخافة ان يشكو الحاجة فى أي وقت ما

ولقد أقاموا له بعد ذلك تمثالا ذكرى لعمله الذهبي وتخليدا لصنيعه المجيد وبقى هذا التمثال ناطقا بما فعله ذلك البطل الى أن نهب « البلبيان » (١) مدينة روما وسلبوا أمتعتها ونفائسها وما كان فيها من ذخائر وتحف

***

كذلك كانت « قنطرة ستامفورد» فى بلاد الانجليز التى كان

---

(١) لقد كان هؤلاء القوم يعيشون فى الاصل فيما بين نهرى الالب والفستولا وقد أغاروا على روما فيسنة ٤١٠ ونهبوا كل مافيها وقد أغار على المدينة فىسنة ٤٥٥ قوم آخرون ينسبون الى الاول وكانوا يقطنون فى أواسط جرمانيا وجنوبها

يحرسها بطل واحد من أهل الشمال بعـد المعركة التي وقعت في سنة ١٠٦٦ ميلادية وتفصيل ذلك أن «الاميرتوستج نجل جدون» طلب من ملك البحار الباسل البطل « هارالد هاردرادا » ملك النرويج ان يأتي ليغزو انجلترا

ولما سمع بذلك ملك الانجليز «هارولد» جمع قواته الهائلة وسار بسرعة الريح من سسكس (١) الي يوركشير (٢) وقابل الغازين وهم سائرون الهوينا لانهم لم يكونوا متوقعين تلك المقابلة الفجائية كما أنهم لم يكونوا لابسين عددهم الحربية اعتقادا بأنهم ذاهبون لاستلام مفاتيح مدينة « يورك »

وقد حارب هؤلاء المساكين وهم لا يشكون في فشلهم وعجزهم أمام ذلك الجيش العرمرم الـكامل العدد والعدد . وقد وضعوا علمهم فى وسط المعمعة وبدأ ملـكهم ينشد لهم أنشودة الاقدام والحماسة ثم دار هو وأشداء رجاله حول ذلك العلم المنتصب ولم يلبث أن فاجأته ضربة من يد محارب كانت سببا فى ازهاق روحه وتبعه رجاله المخلصون . . . . غـير أن الباقين لمـا رأوا ما حل بملـكهم دب الرعب في أفئـدتهم وجاشت فى صـدورهم جياشة الخوف والذعر فارتدوا على أعقابهم الى سفنهم التى كان العدو قد حطمها ودمرها كل التدمير ولم يبق منها الا ألواح طافيـة على وجه الماء وكانت هي السبيل الوحيد لعبورهم نهر الاوس

---

(١) و (٢) مقاطعتان بانجلترا

وهنا وقف ذلك البطل المتقدم الذكر وحـده مدافعاً عن أهل وطنه وعشرائه مانعا تقدم الجيش الانجليزى بكل وسيلة استطاعها .

ولم يكن في وسع المحار بين الانجليز أن يهاجموه مرة واحدة بل كانوا يفقدون واحدا فواحدا

وقد استمر فى موقفه مدافعاً دفاع الابطال وأذكرهنا مع الخجل انة قتل غيلة بعد أن أبلى بلاءاً حسنا بطعنة رمح من يد نذل جبان من أعدائه زحف على حافة النهر وتحت القنطرة وتمكن من احكام طعنه من احدي فتحات أخشابها فمات مأسوفا عليه من أبناء وطنه الذين بكوه بدموع من دم والذين تمكنوا بواسطة بسالته واقدامه وشجاعته من النجاة من الموت الزؤام

***

كذلك كان «روبرت بروس» أثناء احدى جولاته في سنة ١٣٠٦ حيث نجى أفراد جيشه باجمعهم بشجاعته وبسالته بمفرده

وذلك أن قوات «ادوارد الاول» العظيمة هزمته شرهزيمة في « مثفن » وبذا خسر كثيرا من أصدقائه ومحبيه وأتباعــه . وقد فر جيشه الصغير هائما على وجهه بين التــلال والوديان تارة يضرب خيامه فى الادغال والغابات وأخري يعبر البحيرات فى زوارق صغيرة . وكان بين رجال الجيش عــدد عديد من النساء قضى أيامه فى حالة يرثى لها

وكان الصيادون من رجال الجيش يأتون بالحيتان والظباء والوعول للطعام. والنساء ينتشرن ليجمعن القش وأوراق الاشجار فيضعنها تحت جلود تلك الحيوانات المذبوحة ليكون لهن وللرجال فراشا

وكان « السيرجيمس دوجلاس »(١) أكرمهم خلقا وألطفهم معشراً اديباً ظريفا لا تمل مجالسته فكان يفكه الجميع بجميل الفكاهات ويطربهم ببديع النوادر والحكايات كما كان الملك نفسه يقص عليهم بعض أساطير الاولين رافعا صوته ليسمع كل أتباعه وهم جلوس بين الجبال يطلبون الراحة

غير أن عدوهم الالد «لورد أوف لورن» كان لا يغفل طرفة عين عن مطاردتهم حتى أنه فأجأهم قرب نهر التاي فى مكان لا يزال يعرف بحقل الملك بجيش يربو على الالف محارب حين لم يكونوا سوى ثلاثمائة

وقد قتل كثير من الخيل كما جرح «السيرجيمس دوجلاس» و «جلبرت دي لا هاى» واصبح الباقون تحت خطر الوقوع في قبضة الاعداء لذبحهم أو التنكيل بهم لولا أن «روبرت بروس»

---

(١) كان السير جيمس دوجلاس من أشراف اسكوتلندا وقد انضم الى جانب بروس فى سنة ١٣٠٦ وقاد في سنة ١٣١٤ الجناح الغربى من جيش اسكتلندا فى بنوكبرن (٢) لورد أوف لورن كان حما لجنا كومين الذي ذبحه بروس فى سنة ١٣٠٦

أرسلهم أمامه فى طريق ضيق منحدر وأوقف نفسه عند مدخل هذا الطريق وهوراكب جواده الكريم ومرتد عدته ودرعه وكان يحمي المكان بعزم الليوث وهمة الابطال الكرام وليس له من مساعد أو معين . ولا شك فى أن انتصار مثل ذلك البطل المقدام الغارق في الزرد والدروع الذي يشبه العمالقة الاقدمين قوة وبأسا وطولا وعرضا وهو على ظهر جواده على أعدائه الهمجيين الذين لم يكن لكل منهم سوى قميصه القصير ورداءه المخطط ودرقته الصغيرة كان محققا وظفره مؤكدا

غير أن هؤلاء الاعداء مع ما هم عليه من الهمجية والتوحش كانوا ذوي حركات خفيفة لا تكاد تثبت أقدامهم في مكان . لهم قدرة على تسلق التلال والاحجار ومهارة فى الوثب والجري لا يبالون بان يصعدوا على القمم والصخور التي حوله مخاطرين بحياتهم رخيصة كما كان يخاطر هو بها

وكان لورن يرى بعينيه بسالة ذلك الفارس البطل على بعد فأخذته الدهشة والعجب وقال فى نفسه والله ان هذا ليذكرني بما كان يفعله «جول ماك مورن» وهو يحمي أتباعه من «فنجال» (١)

(١) فنجال هو بطل هؤلاء القوم الايرلنديين الذين كانوا مشهورين بضخامة أجسامهم وطول قاماتهم وبسالتهم في الحروب واقدامهم وجسارتهم النادرة . وكان فنجال هذا قائد لجيش من هؤلاء الناس في النصف الثانى من القرن الثالث . وكان جول ماك

وكان ما قاله لورن غاية ما يقال عندهم اطراء لبطل وثناء على همة فارس مقدام.

وفى هذا الوقت عزم ثلاثة من الرجال الاشداء الاقوياء ان يندفعوا بكل جهدهم واستطاعتهم ويتقدموا لانقاذ سيدهم ومولاهم «بروس» من هذا العدو اللدود الذي تشدد فى مضايقته

وكان الملك واقفا وعلى يمينه بحيرة وعلى يساره هوة وهو لا يكاد يعرف كيف يقود جواده او يديره واذا بالثلاثة قد انقضوا عليه فى وقت واحد . فجذب احدهم لجام حصانه واخذ الثاني بركابه ووثب الثالث من ارض عالية واجلس نفسه وراءه على الجواد . وقد بتر ذراع الاول بضربة من سيف الملك ووقع الثاني فداسته الاقدام وبعد نزاع عنيف سقط الاخير وقد شق سيف الملك جمجمة رأسه وكان لباسه الخارجى مشدوداً على رقبته حتى انه كان يلفظ النفس الاخير بصعوبة ولذلك اضطر بروس لان يفك الدبوس الذي كان يربط صدر رداء الرجل المقتول وتركه فى قبضة يده.

ولطالما عد المكدوجاليين او رجال لورن ـ ذلك سببا للنصر في نجاة عدوهم

مورن قائدا لفرقة تطارد هذا الجيش وقد دارت رحى الحرب بين الفريقين مرارا عدة كان النصر فيها حليفا لفنجال. فلما رأى جول ماك مورن ذلك رجع فأحبه وصار من اتباعه المخلصين الذين يفتدونه بأرواحهم وكل عزيز لديهم

هذا — وقد رأينا ثبات ذلك الروماني في حماية بلده وأهل وطنه . وذلك البطل النرويجي الذى مات وهو يوسع الطريق لرفاقه كي يبلغوا سفنهم بعد أن هزموا شر هزيمة . وكيف أن روبرت بروس خاطر بنفسه لينجي جيشه الصغير — فلا يليق بنا أن ننسى قصة ذلك الجندى الفرنسى الباسل الذى ضحي حياته في سبيل نجاة جيش كامل فى مدى تلك الحرب الرهيبة الطويلة التي يسمونها حرب السبع سنوات من ١٧٥٦ الى ١٧٦٣ والتى شبت نيرانها بين فردريك الأكبر ملك بروسيا «بالمانيا» والجيوش النمساوية الروسية الفرنسية المتحالفة

وكان ذلك عند ما أرسل «لويس الخامس عشر» ملك فرنسا جيشا جرارا الى المانيا فاستولى في سنة ١٧٦٠ على «كلستر كامب» من احصن مواقعها

وفى ليلة الخامس عشر من شهر اكتوبر من هذه السنة أرسل ضابط شاب اسمه «الشفاليه دى أساس» لـكشف مكان جيش العدو فخرج منفردا وسار مخترقا غابة لا تبعـد الا قليلا عن رجاله . وبينما هو يجد السير اذا به قد وجد نفسه محاطا بنفر من جنود العدو صوبوا سهامهم وسددوا حرابهم نحو صدره فكادت تخترقه. وقال قائل منهم موجها خطابه اليه : « اذا تكلمت أيهـا الشاب او بدت منك لفظة او حركة كنت بلا ريب من الهالـكين » . ففهم دى أساس قصدهم بذلك. اجل فهم ان جيش العدو كان يتقدم بهدو وسكينة نحو الجيش الفرنسى حتى اذا اقبل الظلام واسبل

ستاره فاجأه فاذاقه النكال واجلاه عن مواقعه

فهم ذلك فهانت عليه نفسه وحياته فداء لباقي الجيش . فداء لبلاده وملكه . فداء لامته ومواطنيه فلم يسعه وقد غلى فى عروقه دم الوطنية الصحيحة وحب البلاد ـ الا ان ينادي بأعلى صوته قائلا « أيها الجيش الفرنسى المحبوب المظفر خذوا حذركم من عدوكم فقد صار منكم على قاب قوسين او ادنى » . وقد حمل الهواء كلماته الى آذان الجيش فاخذوا اهبتهم للحرب وصاروا على قدم الاستعداد والحذر وافسد بعمله هذا خطة العدو الذى ما لبث ان تقهقر الى الوراء مخافة هجوم الجيش الفرنسى

نعم ان ذلك الضابط الشريف البطل قد اخترقت جسمه حراب الاعداء ودهسته خيولهم الا انه كان سببا فى ابطال عملهم ونجاة جيشه باكمله .

وقد بلغ من خسة «لويس الخامس عشر» ودناءته انه لم يشعر باهمية هذا العمل وحسنه وعظمه ولم يقدره حق قدره الا ان «لويس السادس عشر» عند ما ارتقي العرش بعد اربعة عشر سنة اصدر امره بان يعطي راتب كبير لا ينقطع أبدا ما دام على قيد الحياة فرد من سلالة « دي اساس »

ولم يمح مرور قرن باكمله مملوء بالفتن والثورات والتقلبات ذكرى ذلك البطل وما قدمه من عمل ذهبي جيل لانك اذا تفقدت اواخر الاسطول الفرنسى تجد باخرة عظيمة تحمل ذلك لاسم العظيم المبجل «دي أساس»

راعية نانتير

« ٤٨٣ م »

لقد كان مرور أربعمائة عام على تأسيس الدولة الرومانية كافياً لتهذيب سكان فرنسا وشمال ايطاليا الاقدمين وترقيق حواشيهم وتسهيل قيادهم والانة عريكتهم . فكان هؤلاء القوم « الا من كان يسكن منهم في الشمال الغربي لفرنسا » يشبهون الرومانيين تمام الشبه صارت أسماؤهم لاتينية ولغتهم لا تينيه . وذووا المناصب منهم والمقامات جعلوا أنفسهم والرومانيين سواء كما كانت محاكمهم وقضاتهم وقوانينهم وعاداتهم .ولباسهم واحوال معيشتهم وملاهيهم ونواديهم واحزابهم وجمعياتهم وجميع شؤونهم تكاد تكون رومانية بحتة

واعتنق السواد الاعظم منهم الدين المسيحي ولو ان عبادة الاوثان والاصنام كانت لم تزل منتشرة بين سكان القرى المتنائية والجهات الجبلية.

وبينما كان القوم هادئين مطمئنين في بلادهم يسرحون ويمرحون ويلهون ويطربون ولا يحسبون لطوارىء الحدثان حسابا واذا بقوم همجيين وحشيين من سكان أواسط أوروبا وشرقها قد انقضوا عليهم انقضاض الصواعق فنغصوا عيشهم وبدلوا راحتهم عناء وفرحهم ترحا ونعيمهم تعاسة وشقاء.

أجل فان هؤلاء القوم وكانوا يدعون « بأمة الفرنك »

(الذى اشتق منها اسم فرنسا) قد نزلوا على « الرين » وقاموا على الاهالى المسالمين الهادئين بهجمات عنيفة . فكان الانسان يسمع فى كل حين أن الفرنك يخربون القرى ويهتكون الاعراض . ومع أن البلدان المحصنة بالاسوار والجدر كانت توقفهم قليلا وتعطل سيرهم الا أنهم كانوا يسلبون النفائس وينهبون الامتعة من الضياع والمزارع المجاورة وكانوا لا يكتفون بذلك بل اذا اغتصبوا كل ما تصل اليه أيديهم ساقوا الماشية بعد أن يخرجوها عنوة واقتداراً وأحرقوا المنازل والبيوت وأسروا من كان من السكان ذا بنية قوية وصحة جيدة ليكون لهم عبداً رقيقاً ذليلا

وانه لكذلك والناس فى فزع ورعب وخوف وذعر لا يهدأ لهم بال ولا يهنأ لهم عيش مما يكابدونه ويلاقونه من أعدائهم اذ رزق فلاح غني فى قرية نانتير ابنة دعاها باسم قديم معناه « الفتاة البيضاء » غير أن الفرنساويين عرفوها باسم جنفياف (١)

ولما بلغت هذه البنت السابعة من عمرها أتى اثنان من الاساقفة الى هذه القرية فتجمهر أهلها فى الكنيسة التى غصت بكل طبقات الناس الذين أقبلوا يلتمسون بركات هذين الاسقفين ويتزودون بدعائهم وكانت جنفياف قد ذهبت أيضا الى الكنيسة وما ابتدات الصلاة الا وقد سمع القوم صوتا أطربهم وأنعش قلوبهم كأنما هو احدى نغمات الموسيقى الشجية . . . . وما كان

(١) ولدت سنة ٤٢٢ م وماتت سنة ٥١٢ وهي قديسة باريس

هذا الا صوت جنفياف الصغيرة تناجى ربها و تدعوه وتتوسل اليه

وسر بها الاسقف جرمانس حتى انه استدعاها اليه فكلمها برقة ولطف ودعاها للاكل معه ثم أهدى اليها وساماً نحاسياً جميلا ليكون معها تذكارا

ومن هذا الوقت شعرت جنفياف بلذة خفية و نذرت أن توقف حياتها على عبادة الله وتسبيحه وذكره . وقد عادت الى البيت كعادتها تحرس غنم أبيها وتغزل صوفها وهي جالسة تحت الاشجار تلاحظها وقلبها خاشع مفعم بالايمان والعبادة

وبعد أن مات والداها ذهبت لتعيش مع عرابتها وهي على عادتها من العبادة والدعاء وحب الخير لجيرانها والاحسان للفقراء والمساكين

وفى سنة ٤٥١ كان سكان فرنسا وشمال ايطاليا فى ذعر وخوف لا يستقر لهم قرار ولا يطمئن لهم خاطر ذلك لان «أمة المنغول» من الأمم الآسيوية هاجمتهم وهم فى بلادهم تحت قيادة «الزعيم عطيل»

نزل هذا الزعيم من شواطىء نهر الطونة ومعه جيش عرمرم من هؤلاء الناس القساة القلوب القبيحى المنظر الذين تبعث هيئاتهم البشعة وسحنهم المشوهة الرهبة والخوف فى قلب كل انسان .

وما كادت الاخبار تنبىء بوصول هذا البلاء المداهم حتى عم الذعر والرعب سكان البلاد الاصليين وأمة الفرنك معاً ولم

يرواجيماً بدأ من التصافي والتضامن والولاء ليكونوا يداً واحدة تدفع هذا الخطب المدلهم الذى خبأته لهم الايام

وأوشك كل انسان وقد رأى أن لا بد له من الفرار ان يجمع ما خف حمله وغلا ثمنه من متاع ونفائس لينجو به وبنفسه غير أن جنفياف بطل هذه القصة ذهبت الى القنطرة الوحيدة التى على نهر السين وهناك وقفت صائحة فى القوم بصوت جهورى يتمثل فيه الجد فى القول والعزم على العمل قائلة .

أيها الناس انكم لو رجعتم الى مواطنكم وعكفتم على الدعاء والعبادة والتوبة عما جنته أيديكم من آثام وذنوب ودافعتم عن انفسكم بحزم وعزم وثبات بدل أن تتركوا بلادكم لهؤلاء القوم الهمجيين القساة يأخذونها غنيمة باردة ولقمة دسمة سهلة الازدراد كان ذلك خيراً وأولى . وتأكدوا انكم لو فعلتم كما نصحتكم . وتبعتم ما أشرت به عليكم أمدكم الله بروح من عنده ونصركم على عدوكم وفزتم بفتح مبين

وسمع القوم كلامها فظنوا بها جنة أو فى عقلها دخلا فأرادوا رشقها بالحجارة لانها تعترضهم فى سبيلهم حتى يفوت وقت الفرار ويدركهم عدوهم حتى انهم ما كادوا يقومون بتنفيذ ما أرادوا حتي رأوا راهباً تبدو عليه الهيبة والوقار وهو يحمل هدية سنية أرسلها « الاسقف جرمانس » صحبته الى جنفياف

رأوا ذلك فعلت وجوههم حمرة الخجل لانهم فى الحال

تذكروا ما كان من أمرها مع هـذا الاسقف العظيم الذى كان يجلها ويحترمها ويتفانى فى اكرامها فتوسلوا اليها أن تصفح عن خطأهم فابتسمت لهم شاكرة وقالت لهم هيا الى ما أمرتكم به قبل أن تفوت الفرصة فتندمون ولات ساعة مندم

*
* *

وفى مدى أيام قليلة سمع القوم أن « عطيل » عزم على أن يحاصر اورليان غير أن «ايشيس» القائد الرومانى العظيم الذى رجع من ايطاليا وضم رجاله الى الامتين المتحالفتين — أمة الفرنك وسكان شمال ايطاليا — تمكن من هزم «عطيل» ورجاله شر هزيمة حتى انهم ولوا الادبار لا يلوون على شىء

غير ان ما حصل لهم لم يكن كافياً لردهم عن غيهم فلم تنتـه سلسلة فظاعتهـم وقسوتهم التى كانوا ينشرون حلقاتها فى أنحاء أوربا . فكنت تراهم يجوبون البلاد لسلب ما تصل اليه أيديهم ونهب ما يصادفونه فى طريقهم من مال ومتاع وقتل من يتعرض لهم أو يقف فى سبيلهم

*
* *

ومضى على ما تقدم سنين قلائل فعاودت أمة الفرنك الكرة وأرادت أن تحاصر الرومان فى باريس نفسها غير أن الحصون كانت من المنعة بمكان عظم فلم يتمكنوا من الدخول الى المدينة لا أن المجاعة والقحط ضربا أطنابهما بين سكان باريس المساكين

فاستولى اليأس على نفوسهم وكادوا يسلمون المدينة غير أن عزيمة جنفياف وشجاعتها ووثوقها بربها وايمانها به لم يتزعزع ولم ينقص فلما لم تجد من الرجال من كان فى وسعه ان يخاطر بالخروج الى المحاصرين لطلب قوت للنسوة اللاتى كن يولولن جزعا والاطفال الألى كانوا يصرخون جوعا خرجت هي فى سفينة صغيرة وسارت بها فى النهر بسم الله مجريها الى أن وصلت سالمة حيث تعسكر أمة الفرنك

وهناك وقفت ببسالتها واقدامها متضرعة متوسلة راجية بكلمات تلين الصخر الأصم أن يرسلوا لاخوانهم فى الانسانية ما يسدون به رمقهم

ولقد أصابت فوزاً كبيراً ونجاحاً باهراً خصوصا ولم يكن هناك ما يعوق سير القوارب الملأى بالطعام التى أرسلها الفرنك بواسطة النهر

ولقد نظر القوم الي جنفياف نظرة اعظام واجلال بل قل نظرة هيبة واحترام . نظروا اليها كشيء مقدس عظيم أو كملك من السماء . وحسبوها احدى « عذارى الحرب » الذين كانوا يعتقدون بتقديسهن واحترامهن

***

غير أن المفكر الحكيم يري أن مدينة ليس من بين سكانها العديدين من ينزع الى الشجاعة أو يقدم على عمل يكون من

ورائه انقاذها ونجدة أهلها الا امرأة واحدة لسهل فتحها وقهرها والاستيلاء عليها فهي والحالة هذه لاقدرة لها على حفظ مركزها والمحافظة على كيانها ما دام أهلها جبناء متقاعدين

ووقع من الامور ما جعل جنفياف تتغيب عن باريس . وما علم « هلبريك » قائد جيوش الفرنك بغيابها حتى قام بخيله ورجاله ودخل باريس عنوة واقتداراً . غير أنه وقد تم له النصر وظفر بما أراد وقع في بحر من الهواجس والفكر خوفا مما عسى أن يناله من تلك العذراء الباسلة المقدامة اذا هي أتت وشاهدت ماحدث لذلك أصدر أمره بان تغلق أبواب المدينة وأن يكون الحراس متيقظين على الدوام فلا يفتحونها الا اذا دعت الحاجة الضرورية لذلك ولا يدخلون جنفياف مهما حاولت أو اتخذت الى ذلك سبيلا .

وعلمت جنفياف وقد أتت عند أبواب المدينة — أن هلبريك قد أمر باعتقال كثير من نبلاء باريس ووجهائها وأنه عازم على قتلهم جميعاً

وكان الفرنك قد عزموا على أن يحتلوا المدينة دون أن يلحقوا بها أى دمار أو خراب لذلك لم يحرقوا المنازل أو يذبحوا الاهالي غير أنهم وقد كانوا يظهرون احتقارهم للرومان وازدراءهم لجبنهم وعجزهم كانوا فى الوقت نفسه يعجبون بتمدينهم ونبوغهم فى الصناعة والفنون

وكان لاهل القرى أن يدخلوا المدينة أيان شاءوا ومتى أرادوا فكان هذا سببا فى أن جنفياف الباسلة وقد لبست ملابسهم وتبرقعت ببرقعهم تمكنت من دخول المدينة مارة بين الحراس والرقباء المنتشرين فى كل مكان كأنها احدى فتيات القرى اللاتى يرحن ويجئن فى النهار مرات عديدة

وجعلت وجهتها بلا خوف ولا وجل « قاعات الرومان الكبرى » حيث كان هلبريك ذو الشعر الطويل والمنظر الهائل البشع فى لهو وطرب هو ورجاله فى وليمة فاخرة أعدها لهم فى ذلك اليوم لم ير أهل باريس مثلها فى حياتهم فقد كان فيها يخالف عاداتهم ومشاربهم على خط مستقيم . كانت وليمة لا يستطيع القلم ان يصورها تصويرا حقيقيا أو يصفها وصفا مطابقا للحقيقة غير أن الانسان يمكنه أن يصورها لذهنه بعض التصوير بأن يتخيل مكانا متسعا يسع المئات والالوف كله مفروش بالنبيذ والعظام والفتات وفضلات طعام هؤلاء القوم الهمجيين . كذلك يتصور كثيرا من الفرنك الوحشيين وشعرهم الذى أحرقته الشمس معقوص على رؤسهم وطرفه مدلى على ظهورهم كأذيال الخيل ولحاهم وحواجبهم حليقة وشواربهم طويلة جدا ليس عليهم من اللباس الا ما يسترعوراتهم من جلدمتين مشدود على خصورهم وكل متقلد سيفه الطويل بعضهم نائم وبعضهم يأكل وبعضهم يدهن شعره بالدهن والشحم والبعض الآخر يترنم باناشيد

الحرب وهو جالس الى المائدة وفى صدر المكان زعيمهم وقائد جيوشهم الذى كان أتباعه تمردوا عليه وعصوا أوامره وكادوا يفتكون به لتجاوزه الحد فى الانهماك فى الملذات والمعاصى قبل هذه الواقعة بسنوات قلائل ـ كان جالسا وشعره الطويل المجعد مسترسل على كتفيه وبعض الغلمان قائم بين يديه يدير عليه كؤوس الخمر المعتقة .كان هذا منظراً رهيباً مخيفاً خصوصاً عند عذراء طاهرة نقية الذيل ورعة متعبدة كجنفياف

ولربما يتسرب الى ذهن القارىء أن هـذه الفتاة الخشوع خافت جمعهـم أو هابت منظرهم أو أرعبها ما هم فيـه من سكر وهرج . كلا فان من كانت كجنفياف لا تهاب الردى ولا تخشى الحمام لايرعبها مارأت من قوم همجيين هي على بينة من طباعهم الوحشية وأخلاقهم السافلة وعاداتهم المرذولة القبيحة

تقدمت تلك الباسلة الى القوم ولا يعلم أحـد ما قالت لهم وماوجهت من تانيب وسباب ولا يدرى انسان ما كان منها غير أن هلبريك كاد يقتله الخوف ويقضى عليـه الرعب حينما رآها وقد توسطت جموعهم ولم يسعه وهو ينتفض أمامهـا كريشة فى مهب الرياح أو كعصفور بلله القطر الا ان يقضي بتنفيذ ماطلبت منه دون تأخير ولا تأجيل وهو اطلاق سراح المسجونين وفك أسر المأسورين وتأمين الاهالى الخائفين

فلا عجب والحالة هذه اذا عد أهل باريس جنفياف مخلصتهم

وفاديتهم ومنقذتهم من الظلم والاستبداد ونظروا اليها كقديسة طاهرة مباركة وأحلوها فى سويداء قلوبهم وانطبعت محبتها فى أفئدتهم

وقد امتد بجنفياف زمنها حتى رأت « كلوفيس بن هلبريك » ملكا بعد أبيه على أمة الفرنك وقد تزوج بأميرة مسيحية تدعى الاميرة « كلوتلدا » فى سنة ٤٩٣ ميلادية وقد اعتنق هو أيضا الدين المسيحي

وقد رأت وضع أساس « كنيسة نوتردام » وهي من أقدم وأبدع كنائس العالم . وأخذت على عاتقها مع كثيرين من رجال الدين بث روح التسامح والرحمة والشفقة والعطف والحنان وعمل ما يأمر به الله من العدل وعمل الخير والبر والتقوى بين هؤلاء السفاكى الدماء القاسين — أمة الفرنك

وقد ماتت فى سنة ٥٢٢ م بعد تتويج الملك كلوفيس باشهر ثلاث — ماتت بعد أن قضت حياة طيبة مفعمة بأعمال الخير والاصلاح والتقوى وكان سنها ثمانية وتسعين عاما

***

ولربما كانت مآثر « عذراء أورليان أوجان دارك » تماثل تمام المماثلة مآثر جنفياف الا أننا لانريد أن نضمها الى أعمالنا الذهبية حيث كان اعتقادها انه انما كان يوحى اليها ما عملته بلا واسطة لذلك لم يعاملها الانجليز كما عامل « هلبريك » ملك الفرنك جنفياف مخلصة باريس وفادية أهلها

مفاتيح كاليه

١٣٤٧ م

لم يكن ملوك الانجليز — عند ما كانوا يأملون ذلك الامل الوهمي البعيد فى الاستيلاء على ملك فرنسا والحصول على تاجها وعرشها — ينظرون بعين الطمع نظرة المتربص لفريسته الا الى «كاليه» تلك المدينة التي لو احتلوها واستولوا على قلعتها لكانت لهم منفذا يتسربون منه الى داخلية البلاد

وهكذا عندما انتصر «ادوارد الثالث» ملك الانجليز فى سنة ١٣٤٦ على « فيليب السادس » ملك الفرنسيس وهزمه شر هزيمة فى معركة « كريسى » كان أول شيء فعله الملك ادوارد بعد فوزه ذهابه الى مدينة كاليه ومحاصرتها

وكانت كاليه فى ذلك الحين محصنة تحصيناً منيعاً تحيط بها الاسوار السميكة وتكتنفها القلاع والحصون وتخفرها الحراس الاشداء بالليل والنهار لذلك رأى ملك الانجليز أنه ليس من الحكمة أن يهاجم المدينة ما دامت بهذه المنعة . والحقيقة أن حماية الاستحكامات والمحافظة عليها كانت فى العصور الوسطى أحسن وأفيد من مهاجمتها . نعم ان المحاربين كانوا يستعملون المدافع فى موقعة « كريسى » هذه غير أنها لم تكن قد بلغت فى ذلك الحين حداً يخاف منه كما هو الحال فى عصرنا خصوصا لو

كانت المدينة التي يحاربون لاجلها منيعة التحصين متينة الاسوار
وقد أقبل الملك ادوارد أمام المدينة يتبعه جيشه المنصور وكبار قومه وأشراف مملكته وعظمائها وأبطال المحاربين كلهم يرفلون فى عددهم الحربيــة ودروعهم الزردية وفرسانه ممطين صهوات جيادهم المطهمة يتبع كلا منهم ثلاثة من الرجال الاقوياء الاشداء ورماة السهام حاملين أقواسهم وسهامهم وكان مع الملك أيضا ولى عهده ووارث عرشه الذى أبلى بلاءاً حسناً في موقعة كريسى فاستحق نيشان البطولة الذهبي مع انه لم يكن يتجاوز السابعة عشر من عمره والبطل المعروف السير ولترمانى وكذلك كل ذى مقام سام ومنصب عظيم فى انجلترا . وأمام هــذا الجيش يخفق لواء الملك العظيم عند أبواب كاليه التى كان يرفرف فوقها علم فرنسا الازرق المحلى بالازهار الذهبية والى جانبــه علم المحافظ «السير جون دى فيين»

ولما صار هــذا الجيش على مقربة من المدينــة أوفد الملك رسولا من قبله مرتديا أفخر الملابس المزركشة بالذهب والاحجار الكريمة والمنقوش عليها أسلحة الجيش الانجليزي وأمامه الطبول تدق الي السير جون دى فيين ليفاوضه فى أمر تسليم المدينة الى الملك ادوارد الثالث ملك انجلترا وفرنسا كما كان يدعو نفســه غير أن السير دى فيين محافظ كاليه ذلك الرجل الوطنى الحر قال للرسول اذهب الى مولاك وأبلغه عنى انى لا اسلم المدينة الى

آخر لحظة من حياتي ما دام فيّ وفى أهالى كاليـه عرق ينبض وانتا جميعا نحافظ عليها بأرواحنا لملكنا وولى نعمتنا فيليب السادس

فرجع الرسول الى الملك وقص عليه ما سمع فثار ثائره وغضب وزمجر وأمر بمحاصرة المدينة فى ذلك الحين

وفى الحال نصبت خيام الجند حول المدينة فملأت الرحب وشغلت مكانا عظيما من السهل غير أن ذلك الجيش المحاصر لم يقم بعمل هجمات على المدينة

وكان أهالى كاليه ينظرون من خلال الحصون والاسوار فيرون الاعداء لابسين ملابسهم الجلدية تحت دروعهم وعددهم أو حاملين حرابهم وسهامهم وجهتهم القرى المجاورة التى يأتون منها بالماشية والطيور والحبوب والبقول غصباً وسلباً بعد أن يسوموا أهلها العذاب ويذيقوهم صارم العقاب حتى اذا ما تم لهم ما شاءوه منها أحرقوها وتركوها قاعاً صفصفاً

وبعد زمن كانوا يرون الانجليز أيضا يجدون ويشتغلون فى نقل الاخشاب وعمل الاكواخ الخشبية أمام الخيام ثم يفرشونها بعد اتمامها بالقش الذى أحضروه معهم من تلك القرى التى أحرقوها

وتم ذلك فكان معسكرهم عبارة عن مدينة صغيرة منتظمة الشوارع حسنة الوضع والترتيب يؤمها التجار من كل صوب فى

يوم السبت من كل أسبوع فيكون بها شبه سوق يباع فيها جميع أصناف الاطعمة والخبز وطعام المواشى كذلك

وكان التجار الانجليز والتجار الفلمنكيون يفدون أيضا زرافات ووحداناً براً وبحراً فيبيعون جميع أنواع الملابس والخبز والدقيق والاسلحة وكل ما يحتاج اليه الانسان فى معيشته اليومية

وقد فهم السير دى فيين مما رأى أن ادوارد الثالث لا يود التعريض برجاله لخطر الهجوم الذى لا يفيده شيئا وانما أراد بذلك أن يسد عليهم الطريق فى البر والبحر فيمتنع ورود الاطعمة والملابس وحاجات المعيشة اليهم فيضطره ذلك بعد أن يفرغ ما عندهم من زاد ومؤن الى تسليم المدينة

غير أن السير دى فيين كان يؤمل أن ملك فرنسا فيليب السادس لا بد وأن يبذل جهده فى جمع جيش آخر يناضل الجيش الانجليزى ويقهره وبعدئذ يأتى ليخلص المدينة قبل أن يحل بها القحط والمجاعة فلا يجدون أمامهم وسيلة الا التسليم والخضوع لاوامر ملك الانجليز

لذلك كان عزمه أكيداً على المدافعة والصبر الى النهاية مهما كان فى الامر من شدة وبلاء

ومضى على ذلك زمن طويل وتعهد السير دى فيين مخازن الطعام فوجدها قد أوشكت أن تفرغ فلم يرأمامه وسيلة أحسن

من أن يبعد الناس الذين لا حول لهم ولا قوة ولا استطاعة أن يحاربوا وليس لديهم أيضا مؤن لا نفسهم - ففى صباح يوم أربعاء أمر باحضار كل ضعيف فقير فى المدينة وفى الحال حضر أمامه ألف وسبعمائة من الانفس بين رجال ونساء وأطفال فأفهمهم حقيقة الحال وأطلعهم على جلية الامر وأمر باخراجهم من المدينة فداء لباقى أ .لها

ولقد كان منظر هؤلاء التعساء المساكين وهم يولولون ويصرخون ويستغيثون ووجوههم الضئيلة الصفراء وأجسامهم النحيلة تدل على سوء حالهم مما يدعو الى الشفقة عليهم والرحمة بهم غير أن السير دى فيين لم يفعل الا ما رآه موافقاً لمركزه الحرج مع أنه بكى أسفا حيث لم يكن عنده طعام يعطيه لاولئك القوم الذين لو بقوا فى المدينة لماتوا جوعاً أو عاقوه عن تخليص المدينة ونجاتها

وكم كان حزنهم لمفارقتهم دياراً شبوا فوق أرضها وتحت سمائها وطردهم من أعز موطن لديهم ليحلوا بين قوم هم أعداؤهم الذين يودون الفتك بهم والعبث بحياتهم . فانهم فى طريقهم لابد وأن يخترقوا صفوف الجيش الانجليزى المحاصر ولا مندوحة لهم من المرور بين خيامه . ومن يدرى ماذا يفعل بهم ذلك الجيش الطامع فى الاستيلاء على مدينتهم بأكملها ؟

مشى القوم والرعب يملأ أفئدتهم والجوع يقضم أحشاءهم

الى أن بلغوا المعسكر الانجليزى الذى قام اليهم عنـد ما رآهم وسألهم عن سبب خروجهم من مدينتهم وولوتهم وبكائهم فأخبروه الخبر وأحاطوه علماً بالقصـة فرقت قلوب الجند اليهم وتحركت شفقتهم فهدأوا أرواعهم وطيبوا خواطرهم وأخذوهم الى الملك الذى أمر فى الحال بالمحافظة عليهم الى حين تركهم المعسكر كله بعد ان يستريحوا ما شاءوا وأن يقدم لهم طعاماً فاخراً

وقد أمر كذلك لـكل منهم بمبلغ صغير من النقود حتى أنه كثيراً منهم كانوا بعد تركهم المعسكر يدعون للانجليز وملكهم

وقد حدثت أمور عدة بينما الملك ادوارد مقيم فى مدينته الخشبية وأهالى كاليه يحرسون أبوابها وقلاعها وأسوارها فان « دافيد الثانى »[1] ملك أيقوسيا « اسكتلندا » فى ذلك الحين قام بجيشه ورجله لغزو انجلترا فى حال غياب ملـكها

غير أن الملـكة فيليبة الحـكيمة التى كانت قائمة بمهام المملكة حال غياب الملك جمعت القوات ونظمت الجيوش وأرسلتهم لملاقاته

وفى صباح يوم من أيام الخريف عبرت سفينة بوغاز دوفر الفاصل بين انجلترا وفرنسا تحمل خطابا من الملـكة فيليبة تبشر

---

(١) دافيد الثانى ولد سنة ١٣٢٤ وتوفى سنة ١٣٧١ م. كان ملكا لايقوسيا وخلف والده (روبرت بروس) في سنة ١٣٢٩ وقد غزا انجلترا فى سنة ١٣٤٦ برجاء من ملك فرنسا ولـكنه هزم وأخذ أسيراً وما زال في أسره الى سنة ١٣٥٧

فيه بان الجيش الايقوسى قد هزم شر هزيمة في « نفيلز كرسى » بالقرب من « درهام » وأن ملكه قد أخذ أسيراً غير أن أحد الكبراء واسمه « جون كوبلند » لايرضى أن يسلمه اليها. فكتب الملك بعد أن أحاط بما جرى خبراً الى (جون كوبلند) يدعوه للحضور اليه بكاليه فصدع الرجل بأمر الملك وسافر ساعة وصول الامر اليه ولما بلغ كاليه قابله الملك بالترحيب والاجلال لامره خصماً عنيداً من أخصام انجلترا .

فركع كوبلند عند ذلك أمام الملك وقال « ان الله يامولاى قد منّ على عبدك الخاضع لامرك المتقلب فى نعمك المخلص لعرشك وأمتك فأوقع فى يده ملك أيقوسيا أسيراً وانه جل وعلا هو الذى قضى بذلك فأرسل الي ذلك الكنز الثمين لانه يعطى من يشاء ويحرم من يشاء وليس فى استطاعة أحد أن يعارضه فيما يقضى به . فلا وجه والحالة هذه لاحد من الناس مهما كان عظيما ان يشاركنى فى كنزى أو يستلبه منى فان ذلك ليس من حقوقه لهذا يامولاى أضرع الى أعتابكم السنية أن لاتعدوا رفضى تسليم هذا الاسير لصاحبة المقام السامى الملكة ذنباً عظيما أذنبته أو جرماً فظيعاً ارتكبته فاني يامولاي ملك يديك وحدك ولم أحلف يمين الطاعة الا لك نفسك

فلم يغتظ الملك من سماعه هذا الكلام ولم يعبس فى وجه الرجل وانما أخذ بيده فأوقفه وأنعم عليه برتبة الفروسية وأمر

له بمعاش يتقاضاه سنوياً قدره خمسمائة جنيها انجليزيا . وأمره بعدئذ بتسليم الاسير للملكة بصفتها نائبة عنه متصرفة فى أمور المملكة مدة غيابه

وقد فعل كوبلند ما أمر به وسلم الاسير للملكة فأمرت بسجنه فى « حصن لندن »

وبعد ذلك بقليل أى قبل « يوم القديسين » [1] بثلاثة أيام كان اسطول صغير جميل يمخر عباب بوغاز دوفر قاصداً فرنسا فركب الملك وولي عهده وفرسانه الى الشاطىء لملاقاته للترحيب بالملكة فيليبة الجميلة وحاشيتها من السيدات اللائى جئن بعدد وافر ليرون أزواجهن أو أبناءهن أو أخوتهن فى المدينة الخشبية

ولا تسل عما أقيم من زينات باهرة وولائم فاخرة وحفلات راقصة اكراماً للملكة وصاحباتها . وكان الفرسان يتبارون فى أعمال الفروسية ويأتون بالالعاب المدهشة على ظهور خيولهم على مرأى من السيدات وملكتهم الواقفة بين جموعهم والجميع يهشون ويطربون ويمرحون

وقد كان ملك فرنسا مفرقاً جيشه الباقي على المدن والقلاع المجاورة لذلك كان يحصل كثير من المناوشات بين الجيشين الانجليزى والفرنسى عندما يخرج الاول طلباً لطعام الخيل .

---

(١) اليوم المحبب الى القديسين جميعهم وهو اول يوم فى شهر نوفبر ويسميه الانجليز « All Saints' Day »

ولكم كان يقع من كل من الفريقين أعمال يعجب بها الانسان كل الاعجاب

وكانت أهم نقط الخلاف بين الجيشين هو منع ادخال الطعام والحبوب الى المدينة فكان الجيش الفرنسى يجتهد ويبذل جهده فى استحضارها وادخالها بالقوة أو تهريبها والجيش الانجليزى يقف فى سبيلهم فيسلبهم اياها أو يتلفها قبل دخولها

وكان ما يرد للمدينة من الطعام لايكاد يكفى أهلها ولولا ماقام به ملا حان من أهالى كاليه من الاعمال الجليلة لمات أهلها جوعا من أمد بعيد

كان ذانك السائحان من أهالى «ابفيل» وهي بلد على نهر سوم تبعد ستين ميلا عن جنوب كاليه ولهما خبرة تامة بالساحل فكثيراً ما كانا يخرجان بعدة زوارق صغيرة كلها ملأى بالخبز واللحم فى ليالى الخريف الحالكة ولا يزالان يسيران تحت جنح الظلام حتى يدخلان المدينة خلسة . وكثيراً ما رآهما اسطول الانجليز فطاردهم ولولا لطف الله بهما وتظليلهما بحمايته لبلغهما ذلك الاسطول واستولى على ما معهما .. الا أنهما كانا يفران منه فرار الاسد ويدخلان المدينة سالمين

ومر الشتاء بأكمله على هذه الحال . وأقبل عيد الميلاد « العيد الصغير » الذى قضاه الملك ادوارد الثالث وملكته وجيشه فى هناء وسرور وصفاء وحبور متمتعين باطايب

المأكولات متلذذين بأفخر المشروبات رافلين فى الحلل الجديدة الجميلة مهنئين بعضهم بعضاً بالصحة الجيدة والنعيم والرفاهية رافعين الى الملك والملكة التهانى داعين لهما بالظفر والنصر المبين وقضاه أهالى كالينه فى بؤس وشقاء وتعاسة

وحل عيد الفصح « العيد الكبير » فوقع فيه عقد قران « كونت أوف فلاندر » بايزابلا ابنة الملك ادوارد . وكان ذلك الكونت الصغير ميالاً لجانب الجيش الفرنسى يحبه ويعزه أكثر من الجيش الانجليزى ولم يقبل ذلك القران الا مكرها لذلك لم يكن يلتفت الى خطيبته الا قليلا مع انها كانت على جانب عظيم من الجمال والابهة بهية الطلعة جميلة الشكل معتدلة القوام فى الحول الخامس عشر من سنى حياتها

وقبل ليلة الزفاف باسبوع والخلد بينما كانت ملابس العروس وحليها وجواهرها تجهز والملك والملكة مشتغلان باعداد الهدايا للمحبين والمدعوين ولأفراد الجيش . خرج العريس طلباً للصيد ومعه معيته وما كاد يبتعد عن أعين الجيش الانجليزى حتى أمر رجاله بالانصراف وأسرع هو الى باريس حيث لاقاه الملك فيليب بالاجلال والترحيب والاحترام وأنزله عنده مكرماً معززاً .

فأثار فعل الكونت ثائر ملك الانجليز وهيج سخطه وغضبه فحلف بشرف آبائه وأجداده وعظمة تاجه وسلطانه انه لا بد له

من الاستيلاء على كاليه مهما كلفه ذلك من مال ورجال . وأمر في الحال بتشييد قلعة خشبية عظيمة على الساحل وضع فيها بعد اتمامها كثيرا من الآلات والمعدات الحربية وأوقف على حراستها مائة واربعون من أشداء الرجال وأمرهم بمراقبة الساحل مراقبة شديدة . وقد قاموا بما عهد اليهم خير قيام حتى ضيقوا الخناق على الملاحين الذين يهربان الاطعمة ليلا الى كاليه

وقد شعر القوم المحاصرون داخل المدينة بشدة وطأة الجوع وأصبحوا على بينة بآلامه غير أنهم في الوقت نفسه كانوا يتشجعون بما توحيه اليهم ضمائرهم من أن الدفاع عن الوطن المحبوب فرض مقدس لا يصح التهاون به وأن ملكهم لا بد وأن يكون يجمع الجيوش لنصرتهم وتخليصهم

وفي الحقيقة ان الملك فيليب لم يكن متقاعدا فانه جمع جيشا عرمرماً وأتى به ذات ليلة الى « تل سنجات » وسنجات هذه ثغر فرنسي قديم جداً واقع على بوغاز دوفر وهناك عسكر خلف الجيش الانجليزى مباشرة

ورأى القوم الجائعون حراب الجند الفرنسى تبرق وسيوفه تلمع وأعلامه تخفق فكان هذا أحسن منظر رد اليهم الحياة وأنعش أنفسهم .

وكان لا يزال للمدينة طريقان آخران يتمكن الجيش الفرنسى من الدخول الى كاليه منهما أحدهما على طول شاطىء البحر والآخر

وسط المستنقعات والادغال ولم تكن ثم سوى قنطرة واحدة يمكن عبور النهر بواسطتها غير أن الاسطول الانجليزى كان ملازماً للسواحل مراقباً أية حركة من حركات العدو «واللورد» دربى يحرس القنطرة وبالقرب من المدينة قلعة حصينة شيدها الانجليز كل هذا يمنع الجيش الفرنسى من تنفيذ غرضه ويحول بينه وبين دخول المدينة

وقد رأى الملك فيليب والحالة هذه أن يوفد من قبله مندوباً الى الملك ادوارد يدعوه للقتال فى ساحة واسعة بعيدة عن المدينة غير أن الملك ادوارد أجاب انه أقام عاماً كاملا أمام أبواب كاليه وانه صرف النقود الطائلة والمبالغ الباهظة على هذا الحصار وانه قد صار صاحب المدينة وسيدها وملكها بغير منازع ولا معارض وهو لذلك لا يرضى بالخروج الى خصمه كما طلب .

وقد دارت المفاوضات بين الملكين مدة ثلاثة أيام لتخليص أهالى كاليه الابطال الامناء غير أنها ضاعت سدى وذهبت أدراج الرياح فلم ير الملك فيليب بعد ذلك الا أن ينصرف حانقاً برجاله راجعاً من حيث أتى وقد شاهد أهل كاليه ذلك الجيش وهو يتوارى عن أعينهم كأنه سحابة صيف ظهرت وبرهان ما انقشعت

وأقبل شهر أغسطس ثانيا وقد مثل بهم الجوع تمثيلا وكاد يقتلهم قتلا حتى ان أضخمهم جسما وأصلبهم عوداً وأقواهم

وأكثرهم صبراً لم تعدله طاقة على تحمل هذا البلاء العظيم وعمهم جميعا اليأس فلم ير المحافظ السيردى فيين البطل بدأمن ان يتوجه الى القلعة الكبرى وهنـاك أعطى اشارة تدل على أنه يريد أن يفاوض الاعداء فى أمر ذى بال

ولما بلغ الخبر الملك اختار «اللورد باست والسير ولترماني» للتوجه الى المدينة ومقابلة المحافظ للاتفاق على شروط التسليم

وأطلع السيردي فيين المندوبين أن القوم قد أوشكوا على الهلاك ولم تعد لهم طاقة على احتمال ألم الجوع وانهم مستعدون لتسليم المدينة على شرط أن يقنع الملك باحتلالها والاستيلاء على قلعتها وأن يترك الجند والسكان يذهبون بسلام الى داخلية البلاد

غير أن السير ولتر أجابه بقوله ان سيـده الملك قد تحمل المشاق وصرف المصاريف العظيمـة لتأخير فتح المـدينة والاستيلاء عليها الى ذلك الوقت ولهـذا فهو لا يرضى الا ان تكون المدينة وأهلها تحت تصرفه المطلق يفعل بها ماشاء وشاءت ارادته. يذبح من يذبح ويسبى من يسبى ويأخذ ويستولى ويأسر ويسجن وليس من يعارضه فى أمر أو يراجعه فى عمل لأن أهـل كاليه قد اضطروه للتغيب عن مملـكته مـدة طويلة كما انهم أضروا بأسطوله ضرراً بليغاً. الا أن السيردى فيين أجابه قائلا ان هذه الشروط صعبة لا نقبلها ولا نقر عليها فاننا لم نفعل الا ما يحتمه علينا الشرف والذمة والاخلاص لملكنا وبلادنا

العزيزة . بالله خبرني اذا كنتم أنتم فى مكاننا اما كنتم تفعلون كما فعلنا وتدافعون عن أرضكم وتذودون عن شرفكم الى آخر لحظة من حياتكم ؟ ان فى استطاعتنا ان نتحمل أكثر مما يمكن أن يتحمله انسان يكون فى مركزنا الحرج هذا ولا نسلم المدينة أبداً الا اذا ضمنتم لنا سلامة أهلها فاننا لانرضى أن يمس أقل فرد منا ضرر أو يقع عليه الا ما يقع علينا جميعاً فيجب أن نكون أسوة واحدة فى الشدة والرخاء واليسر والعسر . لذلك أنا أتوسل اليكم بحق الانسانية والمروءة والشفقة والرحمة ان ترجعوا الى الملك وان تضرعوا اليه ليكون رحيما بقوم لم يؤدوا الا واجباً مقدساً ولا أخاله الا متنازلا عن عزمه

غير ان الملك مازال مصمما على عزمه وهو التنكيل بأهل كاليه بعد الاستيلاء عليها بالرغم من توسلات السيرولتر ورفيقه وأشراف حاشيته وأمرائها .

غير أنهم ما زالوا به يتوسلون اليه ويرجونه ويستحلفونه بمجده وعظمته وكرمه وسماحته ورحمته وشفقته الى ان قبل أن يسامح أهل المدينة على شرط أن يحضر ستة من كبرائها وعظمائها اليه عاريي الرؤوس حفاة الاقدام وفى رقابهم المقاود كالانعام وهم يحملون مفاتيح المدينة وان يكونوا تحت تصرفه المطلق يقضى بهم كما يشاء .

ولما أن بلغ الخبر مسامع السيردى فيين رجا السير ولترمانى

أن يمهله الى ان يستشير أهل بلده. وفى الحال أمر أن تدق أجراس السكنائس وأن يجتمع الناس فى سوق المدينة . ولما تم اجتماعهم قام فيهم خطيبا مبينا لهم الغرض من ذلك الاجتماع وقد قص على مسامعهم شروط ملك الانجليز القاسية وهو لا يتمالك نفسه من البكاء . وقد قال لهم فى الختام والامر أيها الاخوان اليكم فاما أن نموت جميعا شرفاء واما أن يفتدى ستة اخوانهم الباقين

ولم يكد يتم كلامه حتى دوى بينهم صوت عظيم هو صوت أغنى وجهاء البلد « يوستاش دى سنت بيير » وهو من أسرة عريقة فى المجد من أسر كاليه وكان سنه وقتئذ ستين سنة قام ذلك الرجل العظيم يقول بصوته الجهورى «اخوانى وأبناء بلدى كبيركم وصغيركم عظيمكم وحقيركم ان أملى فى الله عظيم وانى ليسرنى أن أموت فداء عنكم ايها الاحباب فان الفرد لو استطاع أن يفتدي السكل كان ذلك خيراً وأولى لذلك أنا أقدم نفسى بكل سرور لاكون أول الستة »

وما كاد يتم كلامه حتى علت أصوات الباقين بالبكاء والنحيب ورموا أنفسهم على أقدامه يقبلونها شاكرين له تقديم نفسه فداء عنهم. وفى الحال قام وجيه آخر من كبار المثرين له منزلة سامية واعتبار بين القوم وقال وأنا أضم نفسى لصديقي يوستاش وأكون ثانى الستة وكان اسم ذلك الرجل «جان دير» وقام بعده «جاك ويسان» وهو أيضا من الاغنياء المعتبرين وضم نفسه الى الآخرين اللذين

كانامن أولاد أعمامه وتبعه أخوه «بيير» ثم قام أيضا اثنان آخران
من الوجهاء لا يعرف اسماهما وتم الستة الذين رضوا بطيب خاطر
أن يفتدوا أهل بلدهم المحبوبين

وقد امتطى السير دى فيين صهوة جواده لانه كان قد أصيب
بجرح من شظية من شظايا العدو وكان لم يزل أعرجاً وسار معهم
الى الباب الكبير يتبعهم جميع أهل المدينة يبكون بكاء مراً الا
أنهم نظراً لاطفالهم المساكين ونظراً لما يقاسونه من ألم الجوع
لا يستطيعون أن يطلبوا منهم الرجوع

وفتحت أبواب المدينـة حيث خرج المحافظ مع الستة ثم
أغلقت وراءهم وساروا جميعاً الى أن وصلوا خيمة السير ولتر
وهناك توسل السير دى فيين اليه أن يبذل جهده فى خلاصهم
فوعده السير ولتر وقد سمع قصة هؤلاء الابطال وعلم أنهم كبراء
المدينة وعظماؤها بأنه سيسعى لدى الملك بكل طريقة ممكنة حتى
لا يكون الا خيرا

ورجع السير دى فيين الى المدينـة وهو لا يستقر له قرار
يسائل نفسه عما يكون من أمر هؤلاء الرجال وينتظر الاخبار
على أحر من الجمر

أما الرجال الستة فقد سيقوا الى حضرة الملك وهو جالس
وسط حاشيته وما كادوا يدخلون عليه حتى ركعوا أمامه باحترام
وتقدم اليه أولهم قائلا مولاي الملك :

ترون فى حضرة جلالتكم ستة من كبراء ووجهاء كاليه وعظمائها قدأتوا يحملون لعظمتكم مفاتيح المدينة والقلعة طائعين لاوامركم خاضعين لما تأمرون به فداء لاهل بلدهم الذين قاسوا من الذل والبؤس ما لا يتصوره عقل انسان

وما كاد الرجل يتم كلامه حتى بدأ التأثر على وجوه نبلاء الانجليز وأشرافهم الذين كانوا فى مجلس الملك والفرسان الذين كانوا يحيطون بهم من كل مكان وشعروا عند ذلك بعظم العمل المجيد الذى عمله هؤلاء الكرام الابطال من أنهم يضحون حياتهم العزيزة ليفتدوا باقى اخوانهم فأذرفوا الدموع الغزيرة شفقة ورحمة بهم . الا أن الملك مع ذلك لم يظهر عليه التأثر ولم تأخذه عاطفة رحمة نحو هؤلاء التعساء المساكين بل أمر أن يبتعدوا عنه فى الحال وأن يؤخذوا الى ساحة الاعدام فتقطع رؤوسهم .

وما زال السير ولتر يدافع عنهم بعزم وقوة ويقول للملك انه اذا صمم على اعدامهم كان ذلك مشيناً بجلالته وسمعته كعار لا يمحوه كر الايام وحل على قومه من بعده أو فى حياته جزاء حقاً من جنس هذا العمل فكما يدين الفتى يدان . وساعده فى الدفاع كل من كان حاضرا فى المجلس الا أن هذا كله لم يجد نفعاً

وأرسلوا فى طلب السياف حسب أمر الملك الذى لا قدرة لهم على رده وقد حضر ينتظر الاذن باعدامهم واذا بالملكة

«فيليبة» الحنونة الشفيقة قد أقبلت والدموع تنحدر من مآقيها وهي تجهش فى البكاء وقد رمت بنفسها على أقـدام الملك بين أولئك الاسرى وخاطبته قائلة :

مولاي الجليل : انه منذ أن عبرت البحر وتحملت مشاق السفر بعـد أن كنت السبب فى خلاص انجلترا العزيزة وأتيت لاتمتع برؤيا جلالتكم وأطمئن بنفسي على صحتكم لم أطلب من لدن عظمتكم ما يصح أن يكون مكافأة لي على عملي فان شئتم أن تأمروا لى بشيء فلا يكون الا اطلاق هؤلاء الاسرى واخلاء سبيلهم وردهم الى بلادهم معززين مكرمين

فنظر اليها الملك ملياً وهو صامت لا يتكلم وبعد ذلك قال « لقـد كان رجاؤك لى أيتها الملـكة العزيزة لا يمكننى رده ولا رفضه لذلك لاأرى الا تسليم هؤلاء الرجال اليك تتصرفين فيهم كما تشائين » وكم كان سرور الملكة فيليبة عند ذلك فقد قامت فى الحال وهى تشـكر الملك بكل لسان وقد أمرت بالرجال فأحضروا لها فى خيمتها الخصوصية حيث أنزلتهم منزل الترحيب والتكريم وحيث حيتهم أحسن تحية وقدمت لهم من أفخر الاطعمة ما لم يذوقوا طعمه أو يشموا رائحته منذ حصار مدينتهم

وبعـد أن استراحوا واطمأنوا صرفتهم مزودة كلا منهم بهدية فاخرة وخلعة سنية

واحتل السير ولتر مانى بعـد كل ذلك المدينة هو ورجاله

مبقيا السير دي فيين وباقي أشراف المدينة ووجهائها وفرسانها الى ان يفتدوا أنفسهم

وقد طرد باقى أهل كاليه من العامة والاصاغر لان الملك كان قد عزم على أن يتخذها مقراً هو ورعيته الانجليزية لتكون له سلما يتوصل به الى ارتقاء عرش الامة الفرنسية بعد أن يقهر بلادها ويدوخ عبادها

وقد كانت منازل « جان دير» أحد الاشراف الستة وقصوره من نصيب الملكة وفى أحدها ولدت ابنتها « مرغريت » بعد اقامتهم بكاليه بزمن يسير

وقد شك البعض من صحة هذه القصة لانها لم توجد فى سوى كتب المؤرخ (فرويسارت ـ « ١٣٣٧— ١٤٣٠ » الذى كتب تاريخا اضافيا عن فرنسا وانجلترا وأيقوسيا واسبانيا عن الفترة بين سنة ١٣٢٥ ـ ١٤٠٠) ولكن الحقيقة هى أن ادوارد الثالث كان حانقا أشد الحنق على أهل كاليه نظراً لانهم أضروا باسطوله ضررا بليغاً فقد أغرقوا كثيرا من قطعه بطرق هي أشبه بطرق القرصان لذلك رأى ان لا لوم عليه اذا هو مثل بهم أفظع تمثيل .

***

وعلى كل حال نحن لا يسعنا أن ننسى لهؤلاء الستة الابطال الذين قدموا حياتهم العزيزة بغير ثمن فداء لمواطنيهم بمحض رغبتهم عملهم الذهبي الذى دون لهم المجد والفخر الى يوم النشور

مرغريت ابنة السير توماس مور

١٥٣٥ م

«السير توماس مور» أشهر من أن يذكر فهو ذلك البطل العظيم والسياسى الداهية والرجل الامين الذى كان يعتمد عليه الملك « هنرى الثامن » ويعتد باقواله ويعمل بارشاده ونصحه

وقد كان فضلا عن ذلك رجلا وجيهاً معتبراً ذا خلق دمث وطبع لين كريما حليما رحب الصدر باش الوجه محبوباً لدى كل من عرفه مطيعاً لوالده يتفانى فى ارضائه وأداء طلبه ولو كلفه ذلك فوق طاقته

وكان والده « السير جون مور » قاضيا ومع أن السير توماس كان نائب الملك اى « كبير مجلس اللوردات » فانه مع ذلك لم يكن ينس فى يوم من الايام وهو ذاهب الى الديوان أن يركع بخشوع أمام أبيه طالبا منه الرضاء والدعاء امام جمهور الموظفين والاهالى . ومن هنا يرى أن المثل القائل « ان الطفل المطيع سوف يغدو والداً مطاعاً » لم يكن يظهر باجلى مظاهره ويتمثل تمثيلا حقيقيا كما كان فى أسرة « مور »

وكان من عادة الاباء فى هاتيك الايام ان يقصوا أبناءهم عنهم ويسيئوا معاملتهم ويبالغوا فى القسوة عليهم فلا يجلس الابناء حال حضور آبائهم ولا يقتربون منهم ثم يضربونهم ضرباً

مبرحاً لاى ذنب بسيط وقع منهم

أما السير توماس مور فقد كان يحب بناته مرغريت واليصابات «اليزابث» وسيسيلى وابنه «جون» حباً جماً ولا يمر عليه وقت من الاوقات يكون معهم دون ان يلاطفهم ويداعبهم ويقص عليهم النوادر الادبية والفكاهية لذلك كانوا جميعاً يتفانون فى حبه وطاعته ويكادون يطيرون شوقاً اليه اذا هو غاب عن ميعاد أوبته

وكانت زوجته العزيزة المحبوبة قد توفيت حال صغر أولادها جميعاً لذلك رأى من مصلحته ومصلحتهم أن يقترن بأرملة هى « اليس مدلتون» ولم يكن لها سوى ابنة واحدة اسمها مرغريت وتبنى أيضا فتاة مسكينة يتيمة اسمها « مرغريت ججز»

وكان يسكن مع أسرته هذه قصراً فخما تحيط به الحدائق الغناء والمروج النضرة يشرف على نهر التيمس فى حى لا يقطنه سوى أهل العلم والفضل والكبراء والعظماء والاشراف وأصحاب الحيثيات من الانجليز وغيرهم من السياح الاجانب

وكان جميع أهل ذلك الحى يتمتعون بالنزهة فى تلك الجنة الدنيوية بين تلك الحدائق البديعة وذلك النهر الجميل ويقضون أطيب الاوقات وأتعس الساعات مصغين الى حكم السير توماس مور وما ينطق به من آيات بينات معجبين بفضله وذكائه مسرورين بلطائفه ونوادره الجميلة . فرحين بمحادثة بناته الجميلات الاديبات

اللائى كن صورة حقيقية لوالدهن فى دماثة الاخلاق ولين الطباع والرقة والنبل والبشاشة والفضل

وكان الملك هنرى الثامن نفسه وقد اشتهر بالحزم والذكاء والفطنة والظرف واللطف يرحل الى ذلك الحى بيخته الملوكى فيمضى وقتا سعيداً اما فى التكلم مع السير توماس مور فى علم الهيئة وعلم اللاهوت أو فى المزاح اللطيف معه أو فى مداعبة بناته والضحك معهن أو سماع للموسيقى وقد كن جميعاً ماهرات فى العزف بها

وقد تزوجت أولئك الاوانس الفاضلات المهذبات وهن صغيرات غير أنهن بقين مع أزواجهن ووالدهن فى بيت واحد

وكان زوج مرغريت كريمة السير توماس شابا أديباً جميل الطلعة سامى الصفات خفيف الروح رقيق المزاج راقى الاخلاق اسمه «وليم روبر» مهنته محام وكان السير توماس معجباً به مغرماً بمحادثته وبقلبه مفعما بحبه والاخلاص اليه وهكذا كانت السعاده ترفرف بأجنحتها علي رؤوس هؤلاء القوم والنعيم يحيط بهم من كل صوب تبسم لهم الطبيعة كل صباح ومساء ويحييهم ضوء الشمس نهاراً ونور القمر ليلا ويداعبهم النسيم العليل . فلله در المصور الباقارى الماهر «هلبين» حيث نقل للناس عن معيشتهم السعيدة الهادئة صورة تكاد تمثل الحقيقة أحسن تمثيل.

غير أن الايام من عادتها أن تدور والدهر قلب واذا مابلغ

شيء نهاية الاتقان وغاية الرفعة أخذ في الهبوط والنزول كذلك حصل بتلك الاسرة التي كانت تعد من أسعد البشر وأهنأهم حالا . فان مملكة هنري الثامن أصبحت في اضطراب ولم يكن لرجال الحكم والدين في ذلك الوقت الا أن يتساءلوا هل زواج الملك « بكاترين الارجونيه » (١) زواج قانوني أو يحرمه الشرع ؟

ورأى السير توماس مور أن الملك كان متبعاً هواه سائراً بارادته عازما على تطليق زوجته بدون اذن البابا . وذلك مما لا ينطبق في شيء على مبادئه — أي السير توماس — فلم ير خيراً له من أن يستقيل ليريح ضميره وشرفه ونفسه

وما كان أشد سروره واكثر حبوره عند ما شعر وقد تخلى عن مركزه بأنه خال من المسئولية العظمي التي كانت ستلقى على كاهله وأصبح مستريح البال مطمئن الخاطر . غير أن تلك المدة لم تطل فانه لما أريد تتويج الملكة « حنه بولين » أرسلوا

---

(١) ابنة فردننذ ملك الارجون باسبانيا وأرملة الامير أرثر ولي عهد الدولة الانجليزية التي ترملت بعد زواجها بعام واحد ثم تزوجها الملك هنري الثامن وبعد مرور تسعة عشر عاماً على زواجه بها بدأ يشك في صحة زواجه شرعا حتى طلقها بعد ذلك بأربع سنين

بطاقة يدعون بهـا السير توماس للحضور فى تلك الحفلة الشائقة العظيمة وأرسل له مبلغ عشرين جنيها يشترى بها بدلة من الملابس ملائمة لمثل ذلك الاحتفال الملوكى الفخم

غير أن عزة نفسه وسمو شرفه وكرم خلقه لم تسمح له بقبول الدعوة فرفضها وهو عالم بالخطر الذى كان يتهدده والعقاب الصارم الذى يحل به من جراء مخالفة أمر الملك والملكة

ولم يذهب ظنه بعيداً فان الملك عزم على اعـدامه غير أنه لايخفى أن اعدام رجل عظيم محبوب لدى عظماء الامة وكبرائها ومعروف لدى كل فرد من أفرادها لم يكن من السهل اللهم الا اذا كان قد ارتكب اثمـاً فظيعا وجنى جناية كبرى يستحق عليها هـذا العقاب العظيم . ولم يكن ذلك ليخفى على الملك ورهطه فاتهموا السير توماس بأنه أخذ رشوة وهو فى وظيفته وهذا لا يليق برجل مثله متربع على دست أكبر المناصب القضائية : أما موضوع تلك التهمة فهو أن سيدة قدمت له فى رأس السنة كأساً ذهبية وقدمت له أخرى قفازاً حريرياً بديع الصنع مملوءً بالذهب.

وقد ظهر بعد التحقيق والتدقيق انه شرب الخمر فى الكأس وانه رأى من الغلظة والخشونة والبعد عن التمدن والادب أن يرفض هدية سيدة فى رأس السنة خصوصاً وأنه قد قبل القفاز ورد الذهب لصاحبته ولم يشأ قبوله أبداً

وبعد ذلك اتهموه بتهمـة أخرى فحواها انه وافق امرأة

«٥»

يدعونها «راهبة كنت» [1] واتحد معها على نسبة أمور ماسة بالملك

وقد أرسلت هذه القضية لفحصها وتحقيقها بواسطة الملك هنرى ومجلسه الخاص وينبغى أن لا ننسى على كل حال أن السير توماس قد أضر بنفسه وكاد يرمى بها الى التهلكة ـ حيث صرح بما يجول فى خاطره وجاهر بآرائه دون خوف ولا وجل. مع أنه فى الحقيقة كان يحب الملك جداً ويشفق عليه لانه كان على بينة من أخلاقه وصفاته عالما بظرفه ولطفه وسلامة نيته وحسن طويته

ولم تكن تلك التهمة فى الحقيقة غير ادعاء وبهتان ليس لها حقيقة قصد بها الملك أن يطلع على مبلغ ما يكنه له السير توماس وما يضمره من خير أو شر وأراد بها أيضا الوقوف على أشياء أخرى لم يكن يودها من السير توماس وقد عرف كل شيء . ولما انفض الاجتماع وترك السير توماس الحصن حيث كانت الجلسة برئاسة الملك ركب النهر «شلسى» ووجهه يطفح بشراً وصدره

---

(١) راهبة كنت هى اليصابات بارتن ـ كانت فى الاصل خادمة وقد ادعت انها تخبر بالغيب وتحدث بالالهام وقد اختصت بخلوة فى دير سنت سيلشرسنة ١٥٢٧ وقد حرضها أحد الرهبان أن تقول أنها ألهمت أن هنرى الثامن لم يكن مقبولا عند الله وأنه لم يكن ملكا . فلما سمع بذلك أمربها فشنقت فى تيبورن بتهمة التحريض على الثورة

يفيض سروراً حتى أن وليم روبر الذى كان ينتظره فى قارب ظن
انه سلم من ايدى الظالمين الذين يودون الايقاع به فخاطبه بلهجة
يتمثل فيها الاخلاص والفرح قائلا

لا بد يا سيدى أن الامر سائر كما تروم وبرئت مما نسب
اليك لانى أرى علامات السرور مرتسمة على وجهك . فقال
السير توماس الامر كما ذكرت يا بنى والحمد لله على كل
حال فقال اذن أنت حر الآن يا سيدى مطلق السراح فأجابه
السير توماس قائلا : — الست تعلم يابنى ان كل سرورى وراحة
نفسى فى أن أرض ربى ومبدئى وشرفى ؟ ألا انه ليكفينى فرحاً
انى لم اطاوع هوى الشيطان فأخالف مايوحيه الىّ ضميرى .

وهكذا كانت كل اجاباته انه سعيد حيث استطاع أن
يجاهر بما يدور فى خلده دون جبن ولا خوف وانه ما زال
متمسكا بمبدئه الشريف لا يتحول عنه قيد شبر

وقد كان يعلم عاقبة ما فعله الملك وانه ان أظهر رضاه الآن
وسكت وغض طرفه فأنه لن يسكت بعد حين لهذا قال لابنته
والاسف والاسى يتمثلان فى وجهه وقد جاءت تنقل اليه
البشرى بأن تهمته قد زالت وقضيته قد تركت فى زوايا الاهمال .
« لا تظنى يا ابنتى العزيزة أن الشىء اذا تأجل لاجل قريب
يكون قد سقط وزال فان عقابى لم يسقط وانما تأجل » وسأل
السير توماس مرة مرغريت قائلا لها كيف حال الملكة الجديدة

بوسيرها وأخلاقها فاجابته ابنته على الفور قائله الحال كأحسن ما يكون أيها الوالد فلا يمر يوم دون أن تقام حفلات الرقص الزاهرة فيؤم القصر الملكي جميع الاشراف والكبراء والعظماء ولا يمضى وقت دون أن تعقد مجالس الانس والطرب . وليس فى البلاط من لا يحب الملكة ويثنى على اخلاقها الكريمة وصفاتها المحمودة

فقال الرجل عند ذلك وقد ظللت وجهه سحابة من الغم والحزن انه ليحزننى يابنية أن يؤول هذا الملك الى الدمار وأن يحل البؤس والشقاء بهذا العرش العظيم فان القائمين بأمره لايفكرون فى غير لهوهم وسرورهم تاركين أمر المملكة لمن لايحسنون تدبيره . ان رقصها هذا فى كل يوم سيكون سببا فى قطع رؤوسنا جميعا غير انه يجب ان تتأكدى انه لا يمضى كثير على ذلك حتى تقطع رأسها ايضا ويحل بها ما حل بنا وكل آت قريب

ولم يكن السير توماس يشك فى أن الحكومة سوف تستدعيه لتحقق معه فى وقت قريب لتقتص منه ارضاء لاغراض الملك فاراد أن يقلل من خوف اولاده وأحفاده اذا جاء رسول الحكومة يدعوه للمحاكمة فاتفق مع أحد الضباط من أصدقائه الاقدمين أن يأتى فى وقت معين ورسم له كيف يمثل دوره بمهارة وفطنة

وبينما القوم جلوس الى مائدة الغذاء والبشر باد على وجوههم

اذا بهم يسمعون ضجة فى الخارج وصياحاً ينبعث من الردهة فتملكهم الذعر وأخذ منهم الخوف وصاروا يتساءلون عن السبب واذا بأحد الضباط قد توسط الحجرة التى هم فيها وقال انى بأمر جلالة الملك أدعو السير توماس للحضور الى المحاكمة . . . وقد قال ذلك مجداً تبدو على وجهه علامات النشاط والاحترام فى وقت معاً نظراً لمقام السير السامى

فصاحوا جميعاً بصوت واحد وقد قاموا من أماكنهم الا ان السير توماس أشار اليهم بالجلوس وهو يبتسم وقد شكر الضابط على تمثيل دوره بمهارة عجيبة وشرح لهم حيلته التى عملها معهم وطمأن خواطرهم وهدأ روعهم . الا انه وقد مضى الهزل فقد صار دور الجد على قاب قوسين أو أدنى فانه فى اليوم الثالث عشر من شهر ابريل سنة ١٥٣٤ أتى رسول الملك يدعو السير توماس الى الحضور فى «لامبث» ليحلف اليمين معترفا برئاسة الملك على كنيسة انجلترا وأن البابا ليست له عليها أية سلطة تخول له أى حق من حقوقه القديمة ولما كان يعلم عاقبة المخالفة ايضا لم ير بداً من الذهاب غير أنه فى هذه المرة لم يسمح لاحد من أهل بيته بالنزول معه الى النهر حيث تتبادل القبل وكلمات الوداع الجميلة التى تبعث فى القلب الامل والفرح فنزل مسرعاً وقد أغلق خلفه الباب الخارجى للحديقة مصطحباً صهره وليم روبر فقط

وهكذا تغلب عزمه على حبه وقبل ان ينزل الى اليخت

المعد لنقله نظر الى البيت الذى يضم بين جدرانه أعز المخلوقات اليه والسماء التى طالما أظلته وهو يداعب أحفاده ويلاطف بناته والنسيم الذى كثيرا ما هب عليه وهو سعيد بين أفراد أسرته والحديقة التى طالما جلس فيها يلاحظ صغاره وهو جذلان قرير العين . والاشجار التى غرسها بيده فنمت تحاكى باعتدال جذوعها اعتدال خلقه وقوام مبدئه وبلين أغصانها لين طباعه وشيمه .

نظر الى هذا كله نظرة وداع لان فؤاده أحس أن هذه آخر مرة يتزود فيها بالنظر الى ذلك الوطن المحبوب الذى كان به قبل ذلك سعيدا

وبلغ الكنيسة وأوقف أمام المجلس وبالرغم من التهديد والوعيد لم يرض بان يحلف أو يوافق الا على ما يختص باستتباب الامن فى البلاد وراحة العباد أما سيطرة الملك على الكنيسة ورئاسته عليها وتصرفه فيها فلم يقبل أن يعترف به بوجه ما

ويقال أن الملك فى هذه الآونة كاد يطير سروراً بهذا البطل الذى لم يشأ أن يخالف ضميره ويقوم اليه فيصافحه ويشكره على تمسكه بمبادئه القويمة لولا أن الملكة أوغرت صدره وأفهمته بأن ما فعله السير توماس يعد مخالفة لاوامر الملك رئيسه وولى نعمته

وقد بقى السير توماس معتقلا فى حصن لندره تحت أمرة

« رئيس دير وستمنستر »

وهناك ذهبت اليه زوجته البسيطة المسكينة التى لم تتوفق لفهم السبب الذى دعاه لان لا يقر بغير ما يعتقد وما زالت به تؤنبه وتوبخه وتقرعه وتسمعه قوارص الكلم قائلة له «اما كان الاجدر بك أيها المعتوه الغبي أن ترضى الملك فتصبح رافلا فى نعمائه تجر ذيل العز والابهة تيها بتعطفاته بدل بقائك فى هذا السجن الموحش لا أنيس لك الا الفيران ولا سمير الا الجرذان ولا تسلية الا ذاك الظلام الحالك . لا تعرف ليلك من نهارك ولا امسك من غدك ! ! . »

فلم يجب وقد سمع كل كلامها وهو ساكت ساكن بغير قوله « يا لك من مسكينة . الا تعلمين أن هذا المنزل الذى أقيم فيه الآن أقرب الى الله من قصر تحيط به البساتين وتكتنفه الحدائق؟ »

وما زالت به تشبعه تأنيبا فيشبعها حكما ومواعظ حتى ضاق ذرعها وعيل صبرها فلم تقل له وقد بلغت روحها الحلقوم سوى «يالك من تعيس مسكين قد ذهب الخطب بعقلك فلم تعد تدرى ما تقول »

ومع جهلها حالته الحقيقية وغموض أمره عليها فانها كانت تحبه حبا جما لا تشوبه شائبة . حب اخلاص وطهر . حتى أن الحكومة عند ما أمرت بمصادرة أملاكه وأمتعته باعت تلك

السيدة الفاضلة ملابسها بعد حليها و نفائسها لتقوم بما يلزمه من النفقات داخل السجن

وكانت زيارات ابنته مرغريت وخطاباتها التى ترسلها اليه أعظم تسلية لتلك النفس الشريفة التى آثرت الموت على مخالفة الضمير .

وكانت محاكمته فى « قاعة وستمنستر » فى اليوم الاول من شهر يوليه سنة ١٥٣٥ وقد حكم عليه — كما كان ينتظر — بالاعدام وقد أرجعوه الى الحصن حتى يحل يوم تنفيذ الحكم فبينما هو راكب فى الزورق الذى يقله هو والحراس اذا بابنته المحبوبة « مرغريت » التى كانت واقفة تنتظر آخر نظرة من والدها العزيز لم تمالك احساسها ولم تقو على شعورها فرمت بنفسها الى زورقه مزاحمة الحراس الى ان وصلت اليه فطوقت رقبته بذراعيها ودموعها اللؤلؤية تهطل بغزارة على وجنتيها الذابلتين وهى تصيح بقولها أبى . أبى ، رداو لى أبى ، ردوا لى أبى ! ! !

فقبل الوالد الحزين فاها وباركها ودعى لها بخير وقال لها يا بنية كل أمر بيد الله والمرء فى هذه الحياة لايملك لنفسه ضرا ولا نفعاً . فثقى بربك وتشجعى واعلمى انى سعيد حيث أموت مرضيا شرفى وضميرى .

فطوقته عند ذلك بذراعيها ثانيا فقبلها فى نحرها الجميل وهى

لاتنفك تصيح ابى ! ابى ! منظر لم يتمالك الحراس أنفسهم عنده من البكاء ووقفوا مبهوتين مأخوذين بما يجرى أمامهم من تلك الشفقة الابوية والحب البنوى.

وأبعدها الحراس مخافة من ينم عليهم فيلاقون أصرم عقاب وأقسى عذاب. فلم تر تلك الابنة المسكينة والدها بعد ذلك.

الا انه قبل تنفيذ الحكم عليه بليلة واحدة حرر اليها كتاباً بقطعة من الفحم وجدها فى السجن يقول لها فيه مامعناه ان نفسه لم تشعر بارتياح حقيقى وغبطة لامزيد عليها فى حياته كما شعرت يوم انقبلته تلك القبلة التى تفيض حباً ومعزة ويطلب منها ان تمشى فى جنازته بنفسها ويرجوها فى الختام ان تبلغ تحياته القلبية وتشوقاته الى جميع أفراد الاسرة المحبوبين

ولم ينقص ايمان الرجل ابداً طول مدة سجنه ولم تتغير أخلاقه وطباعه كما بقى له أدبه الجم ولطفه الغزير وبشاشته المعهودة

وحان يوم حمامه فأخذ الى ساحة الاعدام وهناك صعد سلم الآلة وهو ثابت الجأش قوى الجنان هادئا ساكتاً كأنه صاعد الى غرفته الخصوصية فى قصره ولما استقرت قدماه على سطح الآلة قال للمنفذ أنظر هل ترانى معتدلا كما تحب ؟ فأجابه الرجل نعم ومسح بسرعة البرق دمعة ترقرقت فى مآقيه حزناً وأسفاً على ذلك البطل الذاهب ضحية الاغراض والمطامع . . ونفذ فيه الحكم.

أما جسمه الذى استلمه أهله فقد دفن فى قبره الخاص الذى

أعـده لنفسه قبل مماته فى « كنيسة شلسى » وأما رأسه فقد علقت على قضيب طويل وضع على قنطرة لندن العظمى .

وكان المار على تلك القنطرة يرى اذا هو رفع طرفه قليلا تلك الملامح والصفات التى لم يغيرها مرور الايام الا قليلا ويتمثل له فى عينى تلك الرأس مبدأ الرجل القويم وجده وحزمه ونبله

ولم يمض على ذلك أيام قلائل الا وقد تعهـدوا الرأس فلم يجدوا لها أثراً وأجدوا البحث لـكن على غير جدوى فاتهموا ابنته مرغريت بانها هى التى سرقتها وبذلوا قصارى الجهـد فى التوصل الى معرفة الحيلة التى تمكنت بها من استلاب رأس أبيها غير أنهم لم يتوصلوا الى ذلك .

وسيقت مرغريت للمحاكمة امام المجلس المخصوص « بتهمة سرقة رأس رجل اعتبره القانون خائناً لملـكه وبلاده فأمر بفصلها » وسمعت التهمة فلم تفكر بل قالت بكل صراحة وجراءة : أجل انا التى أخذتها وهى عنـدى وفى حوزتى أحتفظ بها لنفسى كما أحتفظ بحياتى وحاشا أن أسلمها لأى مخلوق على الارض قبل أن تفارق روحى جسدى .

وقد تضاربت اقوال الناس بخصوص الطريقة التى توصلت بها من اخـذ رأس والدها فمن قائل انها بينما كانت مارة تحت القنطرة وهى فى زورق اذ نظرت الى رأس والدها وقالت أيتها الرأس العزيزة التى كثيراً ما لقيت منهـا النصائح والحـكم والتى

طالما رقدت فى حجرى هـذا : هل لك أن تسعدينى فتنزلى فى هـذا الحجر الذى يشتاق اليك ويحن الى ايامك ؟

فلم تكد تتم كلامها حتى سقطت الرأس اليها فأخذتها . . . ومن قائل غير ذلك . انما الامر المعقول الذى لا يختلف فيه اثنان انها لا بد وأن تكون قد اتفقت مع بعض معارفهـا على سرقة الراس فلما أن قالت ما قالت انتزعها من مكانها ورماها اليها فأخذتها وسارت الى حال سبيلها .

ومهما يكن فى الامر فانها حصلت على كنز ثمين لا يقوم بثمن وذخر نفيس تفتديه بحيـاتها . كيف لا وهذا الذخر هو رأس والدها العزيز المحبوب الذى كان مثـالا للاستقامة والشرف والضمير والذى كان محبوبا عنـد كل من سمع به عرفه أم لم يعرفه .

أما المجلس فقد رأى بعد المناقشة والمجادلة أن يصرفها من أمامه دون ان يوقع عليها حكما ما بعد أن تنـازل لها عن رأس والدها تحتفظ بهـا كما تشاء دون أن تخشى أمراً فخرجت وهى تـكاد لا تقوى على المشى فرحاً وسروراً بهذا الظفر المبين

وانقضى أجل مرغريت المحتوم بعـد أن مضى على تلك الحوادث تسع سنوات أى فى سنة ١٥٤٤ وكانت أوصت قبل موتها أن يضعوا فى نعشها رأس والدها لتؤنسها فى قبرها ففعلوا ودفنت فى كنيسة سنت دى نستان فى كنتربرى عفى الله عنها وغفر لها .

الجنود في الجليد

١٦٧٢ م

قلما يسمع انسان من انسان أو يقرأ فى سفر من الأسفار أو يعثر فى بطون التواريخ اذا هو جد فى البحث وكد فى التنقيب والتفتيش عن قائد كان جنده يتفانون فى حبه واجلاله وتعظيمه واكباره والاعجاب ببسالته وشجاعته وكرم خلقه واحلاله فى المنزلة الأولى من أفئدتهم كالفيكونت الماريشال « تيورن » (١) أمير أمراء الجند لفرنسا فى زمن لويس الرابع عشر .

تعجب الجيوش بالقائد الذى يحرز قصب السبق فى مضمار الانتصارات على أعدائه ويفتح الممالك والمدن غير أن جنود تيورن لم يكونوا ليعبأوا بانتصاراته وفتوحاته وفوزه وانما كانوا يحبونه حباً جماً لا لشىء غير كرمه وطيب عنصره وعلو نفسه وشرف مبدأه .

كان هذا القائد العظيم اذا انتصر فى معركة من المعارك وأبلى فيها بلاء حسنا يسطر له آيات المجد والرفعة على مر الدهور يكتب فى تقاريره ومذكراته « لقد انتصرنا » حتى يكون لرجاله

---

(١) الجنرال تيورن (١٦١١ — ١٦٧٥) عين قائدا عاما للجيوش الفرنسية فى سنة ١٦٦٠ وكان أعظم القواد الحربيين الفرنسيين فى القرن السابع عشر

نصيب فى الثناء والحمد والفخر والكرامة وحتى ينالهم ما يناله من حظوة أو سعادة . واذا فشل فى مهمة أو خاب فى موقعة يكتب فى تقاريره « لقد فشلت » حتى يتحمل وحده عبء المسؤولية والتأنيب ويعرض نفسه لما عساه يقع من لوم أو عقاب

وكان هـذا البطل كذلك يشاطر جنوده السراء والضراء ويقاسمهـم الشدة والرخاء وكثيرا ما كان يضع نفسه موضع الشرف فى الجيش أى فى مقدمته حيث هجمات العدو وحيث تتساقط نيران مدافعهم

* * *

صدرت الأوامر الى الماريشال تيورن وجنوده بالزحف على شمال المانيا لمهاجمة حاكمها فى ذلك الحين « فردريك وليم »[1] كان ذلك ابان اشتداد البرد ونزول الامطار والثلوج وكانت طرق الجيش وعرة مخيفة وزادها وعورة ماكان اذ ذاك من تراكم أكوام الجليد حتى أن الجنود كانوا فى أشد مايكون من التعب

(١) ولد بسنة ١٦٢٠ وتوفى سنة ١٦٨٨ وكان حاكما على « براندنبرج » وهو الجزء الشمالى من المانيا والذى تحول الى «مملكة بروسيا» فى سنة ١٩٠١. وفى سنة ١٦٧٢ تعاهدت معه هولاندا على حماية المملكة من مطامع لويس الرابع عشر وكان فردريك يدعي « صاحب حق الانتخاب » لانه كان أحد الثمانية أمراء الذين كان لهم حق انتخاب امبراطور المانيا

والعناء غير أنهم تحملوا كل هــذه الصعوبات والمتــاعب وقابلوها
بصدر رحب ووجه باش فى سبيل مرضاة قائدهم الشفيق العظيم

ومما يروى انهم بينما كانوا يخوضون مستنقعا كادت تتجمد
مياهه من شدة البرد شــكا بعض صغار الجنود وتذمر لذلك
واظهر استياءه لمعاناة هــذه الاخطار فما كان من بعض كبراء
العساكر الا ان قال : يجب ان نعتمد جميعا على قائدنا بل والدنا
الماريشال تيورن ولنتأكد جميعا انه مهتم بامرنا الآن اكثر
منا وانه يبحث عما يخفف آلامنا ومتاعبنا ويخلصنا مما نحن فيه
الآن . الا ترى انه يرعانا اذا نمنا ويهش لنا اذا استيقظنا ويهتم
بقضاء مصالحنا وتوفير أسباب الراحــة لدينا . ليس تيورن الا
والدنا الشفيق الرحيم فمن يتذمر منا الآن لا يكون سوى جاهل
طائش بسيط .

وفى ليلة أخرى بينما كان يتعهد المعسكر بنفسه ويدور حول
الخيــام اذ طرق أذنه تذمر وشكوى فأصغى الى جهــة الصوت
فسمع بعض العساكر يتألم من صعوبة السير فى تلك الايام ويشكو
ما يلاقيه من نصب فى اجتيازه مستنقعات الثلوج والجليد وما
كاد ذلك البعض يتم شكواه وتذمره حتى رد عليه جندى كان
قد شفى حديثا من جراحه المثخنة قائلا . الا انما انتم جاهلون
بأبينا الرؤوف لا تعرفونه حق المعرفة انه وأبيكم لا يعرضنا
لخطر المشى فى هذه الاصقاع الا اذا كان يرمى لغرض بعيد صائب

لا تصل افكارنا البسيطة الضئيلة الى ادراك كنهه . وما كان أحلى على فؤاد تيورن من سماع ما قاله ذلك الجندى الامين . ولم يكن يخلو حديث له من اظهار مزيد سروره وحبوره من رضاء جنده عنه وحبهم له وميلهم اليه

وتفشى مرة وباء فتاك بين فرق الجيش المختلفة فقام يتعهد المرضى ويسليهم ويذهب عنهم بحلاوة حديثه وعذوبة الفاظه ما يجدونه من ألم الداء ويرى ما ينقصهم من المهمات واللوازم فيقوم بقضائه . فكان عند مروره بين الخيام يخرج اليه الجنود ليشاهدوه ويروا ذلك الوجه الوضاء الذى يطفح بشرا وذلك الثغر الذى يبسم بابتسامة الحب الابوى والاخلاص الاكيد وكانوا اذا رأوه هللوا قائلين لتحيي أيها الوالد الرءوف ولتعش لنا فما دمت انت فى صحة وعافية فنحن لا نرهب الموت ولا نخشى الحمام بل ولا نخاف شيئا تحت هذه القبة الزرقاء

وكان من بين الطرق التي عبرها الجيش وديان ضيقة جدا بين تلال على جانبيها وكانت الجند تستغرق زمنا طويلا جدا فى عبور مثل تلك الوديان . وقد حدث مرة أن الجيش كان يجتاز أحد الوديان التى على هذه الصورة فى يوم برده زمهرير قتال . وقد أخذ التعب من الماريشال تيورن كل مأخذ فلم ير بداً من الجلوس ليستريح تحت أغصان شجرة من أشجار ذلك الوادى وماهي الا دقائق قليلة حتى غلبه النعاس واستولى عليه سلطان

النوم واستيقظ بعد مدة فوجد الثلج يتساقط بغزارة فيغطى سطح الارض غير أنه في الوقت ذاته وجد نفسه تحت خيمة ضربت له من معاطف بعض الجنود الذين رأوه وقد نام واوشكت الدنيا ان تمطر فأسرعوا وهم ينتفضون بردا بخلع ارديتهم ووضعها على أغصان الشجرة لتقى قائدهم المحبوب مما عساه يصيبه من أمطار وثلوج . وقد تحملوا ما أصابهم من زمهرير ذلك اليوم بصبر وثبات وشجاعة حبا فيه وتفانيا فى الاخلاص اليه . الا أن الماريشال دهش كل الدهشة من مخاطرة هؤلاء الجند المخلصين بحياتهم فداء له وقال بلهجة التعجب والاستغراب ماذا تعملون أيها الرجال فقالوا جميعهم انا انما نحرس والدنا الشفيق و «رئيسنا المحبوب .»

ولما كان هذا العمل مما يخل بنظام الجيش فانه أنبهم على تخلفهم عن باقي اخوانهم واللحاق بهم .

وقد تحملوا تانيبه اللطيف لعلمهم ان الواجب يقضى عليه بذلك كما تأثر هو كل التأثير بهذا الحب المسكين والاخلاص الاكيد والولاء الذى لاتشوبه شائبة

پراسكوڤيا لوبولف
(١٨٠٥) م

كانت الحكومة الروسية من منذ قرن أكثر استبداداً وظلما وجوراً منها فى وقتنا الحاضر . وكانت كثيرة الوسواس والظن فى الشك والتخمين

وكان من عادتها أنها اذا ظنت السوء بأحد وخشيت أن يحدث منه مالا تحمد عقباه أو أوجست منه خيفة أو خمنت وقوع أمر ذى بال منه نفته الى «سيبريا» ليعيش فى برد ذلك الاقليم القارس بين أراضيه المقفرة الواسعة ونواحيه الموحشة الشاسعة .

فالمجرمون الحقيقيون يرحلون وهم فى السلاسل والاغلال ويسامون العذاب هناك ويشتغلون فى المناجم

اما المجرمون السياسيون فيسمح لهم بأن يعيشوا هناك مع عائلاتهم ولهم مرتب أسبوعي ضئيل جدا يتعاطونه من الحكومة واذا لم يكف هذا المرتب سد حاجاتهم أمكنهم أن يختاروا عملا خاصا يعملونه كالصيد أو الاشتغال بالزراعة كما تسمح لهم حالة الجو وبذلك يستطيعون أن يحصلوا على شيء يساعدهم على عيشهم المر وحياتهم التعيسة

ولقد كانت پراسكوڤيا لوبولف ابنة لأحد قواد الجيش الروسى وقد نفته الحكومة الى سيبريا لاسباب مجهولة

***

وان المتبصر ليرى أن مصائب النفي قد خفت وطأتها كثيراً في عصرنا هذا . أما في السنين المنصرمة فقد كانت بلاياه لا تكاد تحصى ولا يمكن أن تستقصى

ولم يكن النفي عبارة عن البعد عن الاهل والاوطان وفراق الاحباب والاخوان فقط بل سقوطا من عزة الملك والسعادة . والرفاهية والسيادة . والترف والنعيم . والهناء المقيم الى حضيض الذل والشقاء . والفقر والبلاء والتعاسة التي ما بعدها تعاسة

بلاد بردها قارس وهواؤها زمهرير وشتاؤها تسعة أشهر تكون الارض في خلالها ناصعة البياض من تراكم الثلوج فلا يتيسر للمرء ان يبرح كوخه على قدميه خشية تهاطل الامطار الغزيرة التي لا تنقطع ليلا ولا نهارا وخيفة أن يسقط على هذا الثلج سقوطا لا قيام بعده . لا ترى الشمس فيها أسابيع متوالية . لا نبات فيها الا الطحلب ولا أنيس فيها الا الوحشة ولا رفيق الا الفقر المدقع ولا صاحب الا القهر ولا صديق الا الهم والعذاب الاليم وقد حكم على القائد لوبولف بالاقامة فيها طول حياته .

كانت اقامة ذلك التعيس المنكود الحظ في قرية « اشيم » شمالي مدينة « تبولسك »[1] وكان مرتبه هو وزوجته وابنته اثنى عشر مليما تقريبا في اليوم

وكانت پراسكوفيا في ذلك الحين تبلغ الثالثة من عمرها

---

(١) عاصمة حكومة تبولسك وكانت قديما عاصمة سيبريا

وكانت أمها امرأة صالحة تلقت خبر الحكم على زوجها بالصبر والثبات ولم يزعزع هذا النبأ السيء المحزن شيئاً من ايمانها

وكانت فى منفاها بل قل فى سجنها الابدى تعتنى بالمصالح المنزلية وتشتغل بجد ونشاط فترتب حاجاتها وتنظف كوخها الحقير وهى هى بنت الكرام الاماجد التى نشأت فى مهد العز وعاشت عيشة الترف والدلال فى بيوت النعمة والخير بين الخدم والحشم والعبيد والاتباع

ولم تكن پراسكوفيا عند ما شبت وترعرعت تساعد أمها فقط بل كانت تخرج فى بعض الايام فتشتغل فى حصاد «الشيلم» وهو نوع من النبات الذى ينمو بتلك الجهات فتحصل فى آخر النهار على بعض حزم منه كأجر لها

ولقد كانت تلك المسكينة تحسب نفسها أسعد البشر وأهنأهم بالا وهى بين الثلوج المتراكمة والضباب الكثيف والظلام المستمر . وما زالت كذلك لا تفكر الا فى عملها ولا تسعى الا وراء راحة والديها الحزينين اللذين لم يخبراها عن سبب كآبتهما وحزنهما الى ان بلغت الحول الخامس عشر من سنى حياتها .

وهنا بدأت تشعر بحال والديها وما هما فيه من شقاء وعناء وكآبة وحزن فى ذلك المنفى الابدى البعيد عن العمران .

وتسلط عليها الفكر ايما تسلط حتى لم تكن تفتكر فى شىء حال قيامها أو قعودها أو شغلها أو راحتها الا فى حال والديها

وسبب نفيهما عن وطنهما الذى نشآ فوق أرضه واستظلا بسمائه

وكان أبوها قد قدم استعطافا لمحافظ سيبريا يتوسل اليه أن يسعى فى خلاصه ويرفع أكف الضراعة الى أعتابه أن يكون سبباً فى رد الحياة الى أسرة شقية تقاسى آلام الحياة وغصص العيش دون أن تجنى ذنبا أو ترتكب اثما أو تقترف جرعة . ولما أعياه الانتظار وعيل منه الصبر تبدلت راحته عناء ونعيمه شقاء فقد كان أمله وطيداً فى همة المحافظ . وقد كان بعد أن قدم الاستعطاف يبنى قصوراً باذخة من الآمال وكان هذا سببا فى راحته قليلا أما ولم يرد اليه من المحافظ شىء فقد تدهورت آماله وساءت أحواله وظهر اليأس فى وجهه ظهورا جلياً فلم يعد يفكر حتى ولا فى اعداد مستقبل حسن ولا شىء ترتكن عليه ابنته المسكينة التى كان يراها تشتغل بيديها كما يشتغل العبيد الارقاء الذين خلقوا للتعاسة والشقاء

ولقد بعث هذا اليأس الشديد والقنوط المستمر «پراسكوڤيا» من مرقدها وأيقظها من سباتها العميق وتأملاتها وملذاتها الصبيانية فلم تعد تفكر الا فى ذلك كما مر بالقراء

ولم يكن لپراسكوڤيا هم الا الصلاة الحارة يوميا والتوسل الى الله أن يرسل لهم ملائكة الرحمة فينقذوهم من سجنهم المظلم ويبعدوهم عن منفاهم المخيف . وما زالت حالتهم لا تتغير مدة ليست باليسيرة وپراسكوڤيا لا تغفل عن التضرع الى الله سبحانه

وتعالى طالبة منه بقلب يملأه الخشوع والطهارة أن ينظر اليهم بعين رحمته اذ تسرب الى نفسها شعاع ضعيف من الامل بفكرة دارت فى خلدها فكادت تسلب حياتها وتنسيها البقية الباقية من راحتها . أما هذه الفكرة التى تسلطت عليها والتى صارت شغلها الشاغل فهى السفر الى « سنت بطرسبرج » عاصمة بلاد الروس لتطلب العفو لابيها من « القيصر » مباشرة

ولم تكن تلك الفكرة لتبرح فؤادها فى وقت من أوقات النهار فكانت تلازمها عند ما تصبح لتشتغل وعند ما تذهب عند الفراغ لتتفسح بين أشجار الصنوبر وعند ما تخلع ملابسها لتنام ولا تزال سابحة فى بحار الفكر غارقة فى التصورات والتأملات باسطة ذراعيها الى الخالق أن ينعم عليها بالشجاعة والجلد والصبر حتى تؤدى لابيها وأمها أحسن خدمة وتجلب لهما أعظم سعادة يتمنيانها هى رجوعهما الى وطنهما المحبوب

وكانت كلما همت أن تكاشف والدها بما يدور فى خاطرها وما يدور فى خلدها تخونها قواها فلا تستطيع أن تنبث ببنت شفة لعلمها بصعوبة مشروعها الذى تود أن تضحى حياتها فى سبيل اتمامه . فاذا أرادت أن تفاتح والدها بكلمة ما فى هذا الخصوص تلعثم لسانها واحمر وجهها خجلا واضطرب فؤادها لانها كانت تظن أن والدها يهزأ بأفكارها الصبيانية ويحسب أنها ما زالت بنتا صغيرة اذا سمع منها أية كلمة مما تنوى عليه

ومضى عليها حين من الدهر وهى بين أقدام واحجام وقوة وضعف وعزيمة وجبن الى أن تغلب عليها اقدامها وشجاعتها ورأت أن لا مانع يمنعها من أن تبوح بما يخالج ضميرها لوالدها وأن تتوسل اليه بأن يقبل التصريح لها باتمام مشروعها الذى حرمها التفكر فيه نومها وسلب راحتها

وجاء اليوم الذى عزمت فيه أن تكلم أباها فخرجت أولا بين أشجار الصنوبر الكثيفة والهواء البارد يهزها بشدة فلا تميل لصلابتها وكان البرد قارسا والجو مظلما الا أن پراسكوڤيا لم تكترث لشيء من ذلك بل ذهبت الى ناحية منفردة وبدأت تصلى وتتوسل الى الله أن يمدها بروح من عنده وأن يهبها الصبر والشجاعة وأن يجعل والدها يسمع توسلاتها ويرثى الى شكواها فيسمح لها بالمسير دون معارضة ولا مجادلة

وليس يخاف أن التوسل والرجاء لايجابان فى بعض الاحيان لحكمة لا يعلمها الا الله فان پراسكوڤيا لما رجعت وقابلت والدها وقصت عليه أمرها وأوقفته على ما يجول بخاطرها ظل ساكتا لا يتكلم ولا يشير كأنه لا يسمع شيئا ولا يفهم ماتقول ابنته الى أن انتهت من حديثها واذ ذاك نادى زوجته فلما أن دخلت عليه قال لها « ان ابنتنا صارت ولية صالحة فهى تود أن تسافر الى بطرسبرج لتخاطب الامبراطور بشأننا وتسعى لديه فى خلاصنا» وقص على زوجته ماسمعه من ابنته بلهجة لاتخلو من يأس وتسلية فى وقت معاً

وما كادت الام المسكينة تسمع هذا الكلام حتى اكفهر وجهها فقالت مغضبة. الا ينبغى لك أيتها الابنة التعيسة الحظ أن تباشرى عملك وتلتفتى الى واجبك بدل أن تتكلمى هذا الكلام الفارغ الذى لا ينفع ولا يجدى بثمرة فصاحت پراسكوڤيا بحزن ويأس وانحدرت دموعها من مآقيها على خديها الذابلين فلم تجد أمها بداً من أن تداريها وتلين لها المقال حتى تسكت فقالت لها بلهجة لينة وصوت عذب . اليك يا پراسكوڤيا تلك الخرقة لتمسحى المنضدة وتعدى الغذاء وبعدئذ يمكنك أن تسافرى الى « بطرسبرج » عند ما تشائين

ومرت الايام وپراسكوڤيا لا تنفك عن طلب التصريح لها بما عزمت عليه ورغبتها تزداد يوما عن يوم فى السفر وتجشم تلك المشقات العظيمة واحتمال هذه الصعاب الجسيمة حباً فى خلاص والديها وراحتهما الى الابد . وزاد الحاحها حتى اضطر والدها أخيرا أن يخاطبها بصوت تناهى فى الغلظة ناصحا لها ألا تذكر ذلك أمامه مرة أخرى

وانصرفت سنين ثلاث وهى ساكنة مستسلمة لما يأتى به القضاء غير أنها لا تغفل عن الصلاة والتضرع ليلا ولا نهاراً

ومرضت أمها فى ذلك الحين مرضا كاد يودى بحياتها حتى كان الامل بشفائها واهيا ضعيفا . غير أن الله سبحانه وتعالى لم يرد لهذه الاسرة المنحوسة شقاء فوق شقائها وبلاء فوق بلائها

فرد اليها الحياة وهدأ بخصوصها خواطر زوجها التعيس وابنتها المسكينة وجيرانها البؤساء الذين كانت تعطف عليهم وتحن اليهم وتواسيهم عند نزول الكروب

وما كان لاحد أن ينكر عناية پراسكوڤيا بأمها مدة مرضها فلقد كانت تقضى نهارها وهى جالسة بالقرب من سريرها تصلى تارة وتقضى حوائجها مرة أخرى ولا تنام ليلها الطويل بل تصرفه كذلك فى الصلاة والبكاء . حتى اعتل جسمها وتغير لونها وصارت أمها تتقدم فى الشفاء وهى يقاربها المرض . حتى شفيت والدتها تماما ورأت ماحل بأبنتها فأمرتها بالراحة التامة ومنذ ذلك الحين رجعت اليها قوتها بالتدريج

وتحسنت حالة پراسكوڤيا حتى صارت كذى قبل فبدأ والدها وأمها يعتقدان بان پراسكوڤيا لم تكن طفلة صغيرة كما كانا يعتقدان بل هى الآن غيرها من قبل

واجترأت پراسكوڤيا على التكلم مع والديها عن عزمها ثانيا فلم يضحكا منها ولم يهزءا بأفكارها بل توسلا اليها ألا تتركهما فى أيام شيخوختهما وتعرض نفسها لمشاق السفر ومخاطر الطريق . فلم تجد لتوسلاتهما جوابا غير ذرف الدموع وارسال العبرات ومع ذلك فلم تعدل عن عزمها ولم تفكر فى أن تنس ما صممت عليه. وكان من أكبر العوائق التى تحول دون تنفيذ عزمها عدم وجود «جوازمرور» لها فلوسافرت بضع ايام بدونه لأرجعت

بالرغم منها الى « اشكيم » ثانيا

وقدم والدها الى « تبلسك » يلتمس اصـدار الامر باعطاء « جواز سـفر » لابنته التى لم تود الرجوع عن عزمها . وكرر الطلب والح فى ذلك غير أن جميع طلباته أهملت ولم يلتفت اليها بل ضرب بها عرض الحائط

وكادت پراسكوڤيا تيأس من الحصول على ذلك الجواز لولا أن أتاح الله لها وجود أحد اخوانهم فى المنفى وقد علم بقصدها ولم يسعه بعـد رفض رجائه اياها للعدول عن السـفر الا كتابة ملتمس للحكومة يطلب فيه جوازاً لپراسكوڤيا

ومضت أشهر ست كانت پراسكوڤيا فى أثنائهـا بين الرجاء واليأس تتقلب على فراش الانتظار وهى أحر من الجمر. وفى نهاية تلك المدة ردت الحكومة بأن لامانع يمنعها من السفر وأرسلت لها جوازاً بذلك

ولم تكن پراسكوڤيا بنفسـها من المجرمين المنفيين فلم يكن يسرى عليها قانون النفى بل كان لها الخيار فى السفر أيان شاءت وفى أى وقت أرادت . غـير أن والدها وقـد رأى الحكومة أذنت لها بالسفر استولى عليه اليأس واستحكم على نفسه القنوط وسرعان ما أختطف من يد ابنته « الجواز » وأقفل عليه صندوقاً كبيراً مصرحاً بأنه لم يحمله على الكتابة بطلب الجواز لابنته الا علمه علم اليقين وتحققه التام من أن الحكومة لاتصرح له بشئ

من ذلك ولا تلتفت الى مكاتباته . أما وقد جاء الامر على عكس ما كان ينتظر فانه لا يسمح لبنت ضعيفة — لاحول لها ولا قوة في الثامنة عشرة من عمرها بالسفر فى ذلك الاقليم الموحش المقفر الذى تضل فيه أبطال الرجال وكبار المكتشفين . نعم ان هناك طرقا معلومة يعرفها المسافرون الى بطرسبرج ولكن أين لبراسكوفيا المسكينة أن تعرف تلك الطرق وهى ما كانت تخرج من أحضان والديها الا الى الحقول لتأدية واجبها اليومى !

ورأت براسكوفيا ذلك من أبيها فكادت تموت قهراً ونظرت أمها ما حل بها فوعدت وعد حر صادق بأنها لا تمنعها عن السفر متى رضى أبوها . وما زالا به براسكوفيا تشكو اليه ضجرها من عدم السفر وتؤكد انها تموت غما اذا لم يتم قصدها وأمها تساعدها حتى اضطر الوالد المسكين أخيرا الى التسليم بسفر ابنته بعد أن قال « لك يا بنية أن تذهبى حين تشائين فليس لنا فيك فائدة بعد ذلك . سافرى الى حيث أردت واتركينا نندبك ايامنا المعدودة الباقية . ومن يعلم اذا كنا نلتقى بعد ذلك فى الارض أو فى السماء ؟.. ثم اعلمى يا ابنتى العزيزة انك لن تتمكنى من مقابلة « القيصر » أو الوصول اليه بأى حال من الاحوال . وهل تظنين انك اذا قابلتيه ... وهذا من رابع المستحيلات ... تكونين قادرة على التكلم بحضرته وطلب العفو منه والصفح عنا كما لو كنت تتكلمين بحضرة والدك . يا براسكوفيا أنت ما زلت

طفلة صغيرة . وان تصوراتك ما زالت صبيانية . فارجعى عن عزمك لتريحى أفئدتنا من عذاب عظيم واعلمى ان مقابلة الملوك ليست بالشيء السهل الذى يستهان به فأين النقود الكافية لسفرك وأين ملابسك الفاخرة التى تقابلين بها القيصر ؟ هل تظنين انك تقابلينه بهذا الثوب الخلق وتلك الهيئة الزرية ؟ نعم ان وجهك الجميل يبعث الرحمة والعطف والحنان فى قلب الحجر الاصم ولكنه لا يبعثها فى قلب « القيصر » تدبرى يا ابنتى فى أمرك ان كنت حكيمة والا فانت حرة فيما تفعلين»

ولم تصادف كلمات الوالد هوى فى نفس الابنة فلم تزل مصرة على قصدها عازمة على تنفيذ مأربها . وقالت ان العناية التى ساعدت على ايجاد « جواز السفر » تساعد أيضا على تذليل العقبات التى تعتور طريقها الوعر

ورغبتها الشديدة فى تنفيذ ما عزمت عليه جعلتها تستهين بكل الصعوبات التى تنتظرها وسهل عليها رؤية والديها يرتعان فى بحبوحة السلام والطمأنينة والراحة والرخاء والسعادة كلما يثنى العزيمة ويثبط الهمة

ولم يكن همها فى تلك الآونة الا أن يكون سفرها برضاء والديها وألا يكون هذا الالحاح داعيا لغضب قلبيهما عليها وألا يعتبرا رغبتها الشديدة فى السفر خروجا عن حدود الادب أو مخالفة لأوامرها

فبعد توسلات ورجاء وتضرع وبكاء أمكنها أن تنال رضاءهما وأن يسمحا لها بالسفر . وكان اليوم الثامن من شهر سبتمبر هو اليوم المحدد للسفر

ففى فجر هذا اليوم قامت پراسكوڤيا وهى بين فرح السفر وحزن الفراق ولبست ثيابها وحملت على كتفها جراباً صغيراً فيه طعام قليل . وقام اليها والدها وفى يده جميع ما ادخروه من نقود وهو « روبل » (١) روسى بعد أن قالت له ان هذا المبلغ البسيط خير لهم أن يبقوه عندهم فربما احتاجوا اليه فى غيابها اذ لافائدة لها فيه فهو لا يسمن ولا يغنى من جوع وبعد أن أقنعها والدها بضرورة أخذه اضطرت أخيراً الى وضعه فى جيبها

وجاء اثنان من فقراء المنفيين وعرضا عليها جميع ما ادخراه من نقود قليلة فأبت بكل لطف وشكرت لهما احساسهما العالى وشعورهما الشريف ووعدتهما أن ينالا عفو القيصر مع والديها عند ما تصل الى بطرسبرج

ولما أشرقت شمس ذلك الصباح كان الناظر الى الحجرة التى اجتمع فيها القوم يرى سكوناً رهيباً ويرى الخشوع ضارباً أطنابه يرفرف بجناحيه فوق هؤلاء الناس . ذلك لأنهم كانوا يصلون لاجل (٢) پراسكوڤيا المسافرة

---

(١) الروبل قطعة فضية من العملة قيمتها عشرة قروش

(٢) من عادات الروس القديمة انه اذا أراد أحدهم السفر

وبعد دقائق قليلة انتهت الصلاة وبدأ القوم يعانقونها . ثم ركعت لوالديها فقبلاها والدموع تجرى على خدودهما . وتم ذلك فانطلقت فى طريقها

فتاة فى الحلقة الثانية من عمرها ليس عليها من الملابس ما يقيها شدة برد هذا الاقليم وليس فى جيبها الا « روبل » واحد تود الارتحال منفردة الى بطرسبرج لملاقاة القيصر وتؤمل أن تسافر سالمة ! ان العناية الالهية ان لم تظللها بحمايتها لأصبحت من غير شك من الهالكين

ولم يرجع المنفيان الفقيران اللذان مر ذكرهما الا بعد أن سارا مع پراسكوڤيا لأبعد طريق يمكنهما الوصول اليه ولو تعدياه لردهما رجال الشرطة المكلفين بحراسة هؤلاء المنفيين المساكين.

ومن حسن حظ پراسكوڤيا أن التقت بجماعة من الفتيات ذاهبات الى أول قرية تمر بها فى طريقها

ومشين معاً يتحدثن ويضحكن واذا بفئة من الشبان قد سكروا بخمرة الغرور وثملوا بارتشاف راح الصبا وقد تحرشوا بهن فى طريقهن فقاومتهم پراسكوڤيا وأنبتهم على سوء فعلهم فردتهم على أعقابهم خاسرين . وانطلقن بعد ذلك فى طريقهن الى أن بلغن القرية سالمات آمنات

اجتمعوا فى محل واحد عند بزوغ الشمس وصلّوا لاجله وطلبوا له السلامة وطيب الاقامة

وعرف أهل القرية پراسكوڤيا فأنزلوها على الرحب والسعة وأحلوها المكان اللائق بها . فقضت ليلتها بين اكرام وايناس ونامت نوما هنيئا غير أنها استيقظت فى الصباح تعبة مخذولة القوى . وما كان أشد انزعاجها وخوفها من وحدتها فى طريقها المقفرة . غير أنها بعد أن مشت مشية المرعوب الوجل تذكرت ذلك الملك السماوى الخليل الذى أرسله الله سبحانه وتعالى «للسيدة هاجر»[1] فظللها بحمايته وعند ذلك تشجعت وامتلأ قلبها خشوعا وصبراً وثباتاً وما زالت تمشى وهى لا تغفل عن الذكر والعبادة والتضرع والتوسل الا أنها ضلت الطريق فلم تنتبه الى ذلك الا عندما هجم عليها الليل بجيوشه ووجدت نفسها فى نفس القرية التى قضت فيها ليلة الامس

***

وكثيرا ما كانت تضل المسكينة طريقها واذا سألت أحداً عن الطريق الموصلة الى بطرسبرج لاتجد الا من يهزأ ويضحك عليها وحق له ذلك فالمسافة طويلة جداً ربما تعذر قطعها على السيارات والمركبات لتراكم الثلوج ووعورة الوديان

ولم تكن پراسكوڤيا تعرف أسماء ماسيقابلها من القرى حتى تسأل عنها واحدة واحدة غير أنها كانت تعرف أن مدينة «كيف»

---

(١) السيدة هاجر جارية السيدة سارة زوجة سيدنا الخليل ابراهيم عليه السلام ولها قصة طويلة ليس هذا محل ذكرها

فى طريقها ولذلك عزمت أن تسأل عنها بدل أن تسأل عن بطرسبرج

ووقفت ذات يوم بينما كانت سائرة ذلك لانها رأت أمامها ثلاث طرق فلم تعرف أيها تسلك وبينما هى حائرة فى أمرها اذ مرت بها عربة فيها بعض السائحين وما كادت تسألهم عن أى الطرق يؤدى الى « مدينة كيف » حتى تلا سؤالها ضحك عال وقائل يقول لك أن تتخيرى ما يعجبك منها فانها كما تصل الى « روما » « وباريس » تصل كذلك الى « كيف » فلم تتكلم ولم تلمهم على ضحكهم بل اختارت الطريق الاوسط وسلكته وكان لحسن حظها هو الطريق المطلوب الا أنه لم يكن فى وسعها أن تعمل حسابا مضبوطا للطريق الذى سلكته لانها ارتبكت وطاش لبها فى أسماء القرى التى مرت بها

وكانت اذا بلغت مزرعة أو قرية صغيرة قابلها أهل الكوخ الذين تطلب منهم أن يأووها بالتجلة والاكرام وبذلوا الجهد فى العناية بأمرها والقيام بما يلزمها . أما اذا وصلت الى قرية كبيرة أو مدينة ارتاب الناس فى أمرها شريرة شاردة فنبذوها نبذ النواة وبالغوا فى اهانتها وطردها

ولنضرب لك مثلا مما وقع لها فى رحلتها هذه لتعلم ماقاسته تلك الطاهرة الفاضلة الكريمة النفس التى أرادت أن تضحى حياتها الثمينة العزيزة فى سبيل خلاص والديها من منفاهما

لم تكد پراسكوڤيا تبعد عن احدى القرى حتى فاجأها

ريح صرصر عاتية سخرتها الطبيعة لتخيفها وتزعجها وتودى بالبقية من أملها فى ذلك الفضاء الواسع الذي لا نهاية له . وكانت المسكينة قد سارت كل نهارها مجدة ولم تسترح برهة واحدة وقد أخذ منها التعب والجوع والعطش فلم يكن بد من أنها تسرع بكل قواها التى أنهكها طول الطريق ووحشة الوحدة وقلة الزاد لتبلغ المنازل القريبة غير أن الطبيعة كانت تجد فى ارهاقها وتجتهد فى معا كستها اذ لم تكد تخطو بضع خطوات حتى اقتلعت العواصف الشديدة شجرة ضخمة جداً أمامها كادت تسقط عليها فتخسف بها الارض لولا أن تداركها الله بعنايته فوقعت الشجرة على مقربة منها

ولم تجد التعيسة أحسن من أن تأوى فى ذلك الوقت الى الادغال القريبة منها وأن تلجأ الى أغصانها الملتفة لتقيها هبوب الرياح وزلزلة العواصف

وقد خيم الظلام الحالك . ظلام البلاد الباردة . فى تلك القفار الموحشة وهى وحدها فى وسط الغابة لا أنيس لها سوى عبادتها وخشوعها واعتقادها فى رحمة ربها ورأفته . واستمرت العواصف والرياح حتي صارت زعزعاً ثم رعدت السماء ثم ارتجت ثم قصفت وقعقعت حتى هدهدت وانفتحت ميازيب المطر الغزير فأغرقت السهول والوديان وصارت پراسكوڤيا المسكينة كأنها فى وسط لجة من الماء واخترقت المياه ملابسها ووصلت الى

جسدها ومع ذلك كانت صابرة مستسلمة لقضاء الله وقدره

وهزمت تباشير الصباح جيوش الظلام المتكاثفة فخرجت پراسكوفيا من مكمنها وظلت سائرة برهة واذا بفلاح يسوق عربة فلما رآها رق قلبه لها ورثى لحالها وهزته الشفقة فأخلى لها مكانا فى عربته وسار بها حتى وسط القرية التالية وقد وصلها حوالى الساعة الثامنة صباحا

ولم تكن ملابس الفتاة مبتلة بالماء الذي انهمر فى الليلة الفائتة فقط وانما كانت ملوثة بالاوحال والاقذار فما كاد الرجل ينزلها من العربة حتى سقطت على الارض ولم تستطع الحركة لان البرد كاد يوقف أعضاءها ويودى بحياتها

وساعد على البرد الجوع والعطش فيالها من حال سيئة ! حال يرثى لها من كان صخرى القلب قاسى الفؤاد

ونظرت المسكينة الاكواخ التى حولها ورأت ما يبدو عليها من النظافة والترتيب ونظرت الى ثيابها وما عليها من الاوحال والاوساخ فاشفقت على نفسها من ذل الطرد والتأنيب ان هي طلبت من أحد أصحاب هذه الاكواخ أن يمدها بكسرة من الخبز او بجرعة ماء أو يأويها عنده حتى تستريح من وعثاء السفر وتعب المسير ومشقة الطريق .

ومع ما كان يبدو عليها من الخجل من نفسها لقذارتها ولما عليها من رث الثياب فان البرد والجوع والعطش تغلبت جميعها

عليها فأرغمتها على الاقتراب من نافذة مفتوحة لاحد الاكواخ حيث شاهدت في الداخل امرأة عجوز تقشر حمصاً فنادتها بصوت لا يقوى القلم على وصفه . صوت ضعيف خافت . صوت أنهك صاحبه الجوع والعطش وأضرّ به البرد القارس . فنظرت اليها العجوز نظرة استهزاء وسخرية ولم يرق فؤادها لتلك التعيسة غير أنها سألتها عن حاجتها فقالت انى أريد أن تسمحى لى بدخول الكوخ برهة أستريح فيها وأجفف ملابسي لان البرد يكاد يقتلني والتعب يقضى على فما كان منها الا أنها ازدادت قسوة وخشونة وطردتها بلا رحمة ولا شفقة

ولم تر فى أى كوخ من أكواخ هذه القرية من يبش فى وجهها أو يرثى لبلوائها أو تهزه عاطفة شفقة أو رحمة عليها . . .

وجلست أخيراً على باب كوخ لتستريح خارجه واذا بصاحبته قد خرجت اليها ودفعتها بكلتا يديها قائلة انها لا تود أن تأوى الى منزلها اللصوص والسفلة الساقطين الاشرار

وتسلط اليأس على پراسكوڤيا فكاد يقتلها غير أنها تذكرت والديها وما يقاسيانه بعدها وتذكرت أيضا مهمتها الشاقة التى آلت على نفسها ألا ترجع دون قضائها فتشجعت وبرقت عيناها سروراً اذ مرّ على خاطرها شعاع ضعيف من الامل فقالت لنفسها ليس لدى وسيلة أحسن من ذهابى الى الكنيسة فهناك لا يتمكن أحد من اعتراضى أو طردى وأستطيع أن أستريح ماشئت

وذهبت الى الكنيسة فرأت بابها موصداً فلم تر بداً من الجلوس على عتبتها الخارجية . وما كاد يستقر بها الجلوس حتى اجتمع حولها نفر كبير من صبيان القرية وصاروا يهزأون بها ويسخرون من ملابسها القديمة المبتلة القذرة ويدعونها لصة آبقة شريدة طريدة لا تستحق الا السجن والعذاب الاليم . . . والله أعلم انها من أنقى الناس سيرة وأصفاهم سريرة وأطهرهم قلباً وأرقهم شعوراً وأسماهم أدباً وأوفرهم كمالا وأكبرهم عقلا وأغزرهم لطفاً . غير أن للدهر تقلبات وللايام أمور يحار العقل فيها . فلو أنت شاهدتها والصبية حولها يهزأون بها وهي مطرقة برأسها تفكر فيما عساه أن يكون من حالها ومصيرها . وتعيد على ذاكرتها مالاقته وما ستلاقيه من الاهوال الجسام والصعاب الشديدة لرأيتها تسخط على الزمان الغادر والدهر الجانى وتتمثل بقول «أبي شهدى» المعرب

مالى وللدهر حتى الدهر يهزأ بي
ولا يرق لبلوائى وأحزانى

الدهر بالناس غدّار له محن
والمرء فى غفلة من دهره الجانى

يا دهر روعت قلبي بالخطوب فهل
بينى وبينك من أمر بذى شان

أمر عجيب فانى دائما أبداً
مسالم لبنى أمى واخوانى

لم أرض يوماً لهم ذلا ولا نصباً
ولست أعـــلم ما للدهر عاداني

***

يأتي الزمان بكل الحادثات ولا
يخشى من اللوم أو يعنو لسلطان
كأنما بيننا والدهـر مشكلة
فـلا يحلها قاص ولا دان

ان رمت يا دهر تعذيبي فذا عجب
أليس يكفيك ما بى أيها الجـانى
أليس يكفيك آلام مبرحـة
من الهموم وأكدارى وأشجانى

ومضى عليها ساعتان كاملتان وهى بين كل دقيقة وأخرى تستقبل الحمام بقلب خاشع خاضع لحكم الله . ولا تشك فى دنو أجلها ان لم يكن فى هذه اللحظة ففى التى تليها غير أنها لم تغفل طرفة عين عن ذكر ربها والصلاة الحارة فى فؤادها والتضرع الى خالقها أن يلهمها الثبات لتحمل هـذا الحكم القاسى ألا وهو الموت بالجوع والعطش

وبينما هى جالسة والأسى ملء فؤادها والدمع ينحدر من مآقيها على خـديها الذابلين اذا بامرأة أتت ناحيتها فلما أبصرت بهـا رق قلبها وهزتها عاطفة الشفقة والحنان فطردت عنها ذلك

الجمع المحتشد من الصبية بعد أن ردعتهم وأنبتهم سيء التأنيب
وسألتها عن قصتها فحدثتها حديثها وما كان من أمرها ليلة أمس
فلم تمالك المرأة نفسها عن الاخذ بيدها لتذهب بها الى كوخها .
الا أن براسكوفيا مدت يدها وهمت بالنهوض غير أنها لم تستطع.

لم تستطع النهوض لهول ما أصابها من البرد الذى أوقف
حركة مفاصلها وجعلها كجسم من خشب أو حديد . هذا وقد
فقدت احدى حذاءيها فى الجليد دون أن تشعر فكان هذا سبباً
فى اصابة رجلها «بالرثية» [1] اصابة يخشى عليها منها. والحقيقة أن
المسكينة تأكدت من أنها لن تبرأ مما انتابها فى تلك الليلة
المشئومة التى مضتها بين الاشجار والادغال

وقد شعر القرويون بأنهم قصروا أى تقصير فى واجب
الضيافة وهالهم ما رأوه من أنفسهم من عدم الميل لمساعدة فتاة
من بنى الانسان تتعذب أمامهم ولا تقوى على الحركة وهم
لايمدون لها يد المعاونة . فلما أن تبين لهم خطأهم أسرعوا باحضار
عربة صغيرة نقلوها فيها الى منزل تلك المرأة الفاضلة التى قضت
معها أياماً عديدة كأنها بين أمها وأبيها

ولما شعرت بأنها برئت بعض البرء مما كانت فيه من المرض
وأن فى استطاعتها متابعة السير أعطاها أحد القرويين حذاء
لتلبسه

---

(١) الروماتيزم

وودعتهم ومشت فى طريقها والتعب آخذ منها لانها لم تشف تماماً فكانت تجبر على الاستراحة مدة يوم أو اكثر نظراً لما تراه من عجزها على متابعة السير أو ما تريه لها الطبيعة من رداءة الطقس . أو ما يقابلها به أهل القرى التى تفد عليها

وكانت المسكينة تجتهد ألا تكون عالة على من تنزل عليه . تأكل وتشرب وتنام دون أن تعمل له شيئاً. كلا وانما كانت تؤدى بعض الخدم المنزلية كالكنس والغسل والخياطة

ولقد رأت من الحكمة ألا تخبر الناس بقصتها وسبب سياحتها وغربتها لئلا يظنون انها محتالة كاذبة تطوف البلاد وتتوسل بهذه الوسيلة لتكسب رضاء الناس وتحصل على شفقتهم ورحمتهم فيمدون لها يد الاحسان وتتمكن من المعيشة بهذه الكيفية . ولا يخفى أن اباءها وشممها وعلو نفسها تأبى عليها سماع كلمة جارحة أو لفظة خارجة تجرح احساسها أو تمس شعورها — فكانت تسأل من تطالع فى عينيه دلائل الصلاح والتقوى أن يمدها بشىء من الطعام أو الشراب حتى اذا عطف عليها وبش فى وجهها ولم يسىء مقابلتها وأجاب طلبها أظهرت له ما هى عليه من التعب والنصب وطلبت منه أيضاً أن يسمح لها بالاستراحة عنده برهة يسيرة فاذا ما دخلت البيت واستراحت واستأنست بأهله أخبرتهم قصتها وروت لهم سبب سياحتها

واذا مسها الضر الشديد ولم يرث لها أحد وظنها الجميع من

الهاربات من وجه العدالة او المتشردات الساقطات أظهرت لهم «جواز سفرها»

وكان كل من اطلع عليه يعجب غاية العجب حيث يعلمون من تلاوته انها ابنة ضابط فى الجيش . وكانت كلما سئلت عما حصل فى طريقها وما قاسته تقول انها كانت تقابل أحسن مقابلة وأن الحسنات التى قدمت لها تفوق الوصف والحصر

وفى مرة ما وقع لها حادث انقطع له رجاؤها وظنت نفسها هالكة لا محالة . . وكاد الخوف يقتلها لهول ما رأت وتفصيل ذلك انها دخلت قرية من القرى وكلما طرقت باباً طردها أهله ولم يشفقوا بها . وبينما هى سائرة فى طريق القرية اذ ناداها رجل عجوز قصير ذو منظر بشع وشكل لا يطمئن الانسان من النظر اليه

وأبصرت به فأزعجها شكله وأرعبها منظره ولم ترقها نظراته الحادة غير أنها رأت أن لا مناص من الذهاب اليه حيث لا شيء يأويها من ذلك الزمهرير وهذا السيل المنهمر

ورأت زوجته فوجدتها أقبح منه شكلا وأبشع منظراً . وما كادت تدخل پراسكوڤيا كوخهما الحقير الذى تنبعث منه روائح كريهة اشمأزت منها نفسها حتى أوصدت العجوز الباب بالدرابيس المتينة

ولم يكن هناك من ضوء سوى نور بسيط جدا ينبعث من موقد قديم عليه بعض قطع الخشب المحترقة التى تكاد تنطفيء

ولاحظت پراسكوڤيا من نظرات الرجل والمرأة معاً واشاراتهما الخفية انهما يريدان بها سوءاً فهلع قلبها من الخوف والجزع

وبدأ الاثنان يسألانها بغلظة وخشونة

من أين أنت آتية أيتها البنت ؟

— من «اشيم» يا سيدى وأنا مسافرة الى « بطرسبرج »

— اذاً لا بد وأن يكون معك مبلغ عظيم من المال لهذه السياحة الطويلة

— ليس معي الآن سوى ثمانين قطعة نحاسية

فقالت المرأة العجوز بصوت أجش ان هـذا هو الـكذب بعينه أأنت مجنونة ؟ وهل يصدق انسان فى الوجود أن أحداً يسافر هـذه المسافة دون نقود أو بمثل مبلغك الذى لا يكفى يومين أو ثلاثة؟

وقد حاولت پراسكوڤيا عبثاً أن تقنعهما انها لا تقول الا صدقا فلم يصدقاها . ولم تتمالك هى من حبس دموعها الغزيرة التى انحدرت على خديها

وبعدئذ أعطياها قليلا من تفاح الارض«البطاطس» لتتعشى به وأمراها أن تنام على «التنور» . فخلعت ملابسها الخارجية ووضعتها بجانبها وقالت فى نفسها لعل صغر المبلغ ينجينى من القتل أنا أود النجاة بنفسى فقط وأتنازل عن هـذا المبلغ اذاً ثمناً لحياتى. وهاهى ملابسى وجرابى يفتشاها ماشاءا . ورفعت

طرفها الى ربها أن يحميها من هذين الآثيمين الشريرين اللذين ينظران اليها نظر السوء والخبث

وقام الرجل وزوجته عندما تأكدا انها نامت وصار كل يهمس الى صاحبه قائلا : — لابد وأن يكون معها نقوداً أكثر مما ذكرت واذا لم يكن معها نقود فلا بد وأن يكون معها أوراق مالية

وقالت المرأة : لقد رأيت خيطاً معلقاً حول رقبتها ومدلى فيه جراب صغير وانى لا أشك أن النقود انما هى فى هذا الجراب

وبعد أن همسا طويلا قالا: وعلى العموم نحن لا نخشى بأس أحد فان أهل القرية لم يروها عند ما دخلت هنا ولا يعلم الناس انها ما زالت فى القرية وعلى ذلك مشت العجوز بحذر واحتراس جهة پراسكوڤيا التى ارتعدت وكادت تصرخ لولا أن الرعب أمسك لسانها وألجمها عن الصياح. وتسلقت المرأة « التنور » فاستوت المسكينة جالسة وبسطت اليها أكف الضراعة أن لا تقربها بسوء ولا تؤذيها وأن تأخذ المال اذا كانت تطمح نفسها اليه

ولم تجبها المرأة بكلمة . . . انما اجتذبت ملابسها وفتشتها تفتيشاً دقيقاً وأخذت حذاءها أيضاً ونفضته لعلها تجد فيه نقوداً ثم لما لم تجد أخذت الجراب من رقبتها فلم تجد فيه الا جواز سفرها . وكان الرجل أثناء ذلك ماسكا المصباح بيديه

لترى على ضوئه . . عندئذ نزلت المرأة عن التنور وذهبت هى وزوجها وناما فى ناحية من الـكوخ

وتسلط الرعب والخوف على المسكينة فلم تنم الا بعـد أن تأكدت من غطيطهما المرتفع أنهما ناما

ولم تستيقظ الا بعد أن أيقظتها العجوز وقت الضحى

وقد أعدا لها فطوراً فاخراً كأنهما يكفران عن ذنبهما ومعاملتهما لها فى الليلة الماضية . وما زالا يلاطفانها ويكلمانها بغاية الحنو والشفقة ويسألانها عن سبب وحدتها وسياحتها حتى قالت لهما طرفاً بسيطاً من قصتها المحزنة

فلما سمعا منها ذلك حلفا لها ايماناً مغلظة انهما فعلا معها أمس ما فعلا ليريا ما اذا كانت شريفة مستقيمة أو شريرة شريدة من هؤلاء الناس الذين يجولون للسرقة والاحتيال وانهما كانا يمتحنان صدقها وانهما ليسا بشريرين ولا شقيين وما كان لهما قصـد سيىء البتة

وقاما يودعانها فشكرتهما وهي تكاد تطير فرحاً لفراقهما ولما خرجت فتحت جرابها فاذا الثمانون قطعة قد صارت مائة وعشرين فعجبت من ذلك غاية العجب ورفعت طرفها الى ربها بالشكر والثناء حيث حوّل قلبيهما من الجحود والقسوة الى اللطف والاحسان

* * *

ومن أفظع ما وقع لها وكاد يطير لها قلبها جزعاً ورعباً انها هبت من نومها مبكراً فى ذات صباح ولم يكن أحـد من أهل القرية التى كانت فيها قد استيقظ بعـد وما كادت تخطو فى الشارع بضع خطوات حتى تجمهر حولها جيش عرمرم من الكلاب فكانت تجرى مستجمعة قواها وتضربهم بعصاها التى كانت تتوكأ عليها فلا يزدادون الا نباحاً وهياجاً

وبينما هى تجرى وكلب يمزق فى ثوبها وهو محافظ على خطواتها اذ زلت قدمها فهوت على الارض . . . وقد شعرت بعجزها عن القيام أو الدفاع خصوصا وقد أحست بفم الكلب على رقبتها يكاد يفترسها فاستودعت روحها الله الذى خلقها واستسلمت للقضاء والقدر . ولم يتمكن الكلب من أذاها اذ سخر الله لها فلاحاً أتى بعصاه فطرد هذا الجمع عنها

وجاء الشتاء ببرده وزمهريره . وأجبرتها عاصفة شديدة مصحوبة بثلوج كثيفة على البقاء ثمانية أيام فى مكان واحد . ولما انتهت ودت السفر غير أن الفلاحين أكدوا لها أن السير على الاقدام فى مثل هاتيك الايام والارض مكسوة بالجليد فهو الموت بعينه حتى اذا كان المسافر من أبطال الرجال . وعلى ذلك أبقوها الى حين وصول عربات [1] يعرفها من طالع عن أحوال البلاد الشمالية شيئا . كانت تحمل المؤن الى « كاترينبرج » [2] نظراً لقرب

(١) هى عربات تسير على الجليد بغير عجل يجرها نوع من الغزال البرى يعرف بالرين دير

(٢) مدينة فى سفح جبال الاورال الشرقية

حلول عيد رأس السنة

وسمع سائقوا تلك العجلات قصتها فرقوا لها وأوسعوا لها مكاناً فى احداها ولم تكن ملابسها الرثة البالية صالحة للسفر فى الشتاء . ومع أن السائقين عندما رأوا حالتها وشدة انتفاضها أعطوها غطاء من أغطية بضائعهم لتتقى به شر الصقيع الا أن البرد اشتد عليها حتى أعياها السفر وأضربها وكادت تهلك .وقد أسرع هؤلاء السائقون الكرماء فاتخذوا مايمكن اتخاذه من الاحتياطات غير أنهم قرروا فيما بينهم أن سفرها بغير عباءة مصنوعة من جلد الغنم تقيها شدة البرد يضر بها ضرراً بليغاً وربما كان موتها محققا لاريب فيه

وسمعت پراسكوڤيا قولهم فولولت وصاحت وخافت ان هم تركوها فى أحدى المحطات ربما لايرثى لها غيرهم فتصبح لانصير لها كذى قبل . واذ ذاك توسلت اليهم ألا يتركوها وأكدت لهم أن فى استطاعتها السفر مهما كانت حالة الجو

ودبت النخوة والرجولية فيهم فجمعوا من بعضهم ثمن رداء من جلد الغنم غير أنهم لسوء الحظ كدوا وتعبوا فى البحث عن مطلوبهم بدون جدوى . لانهم كانوا فى مكان منفرد لايوجد فيه مثل هذه الحاجات . ولم يكن أحد منهم فى غنى عن ردائه. وتوجهوا الى فندق صغير قريب وعرضوا على صاحبته ضعف ثمن ردائها وأخبروها بقصة پراسكوڤيا وأقنعوها بانها ليست

فى حاجة اليه كهذة المسكينة المسافرة غير أنها رفضت ولم تقبل

وفى النهاية قر رأيهم على رأى صائب اذ قال أحدهم :

ليس أمامنا الآن الا طريقة مثلى واحدة هى أن يخلع كل رداءه لها بدوره فتلبسه مسافة فرسخ روسى [1] والا انا أستغنى لها عن ردائى وألبس رداء كل منكم مدة من الزمن

وعلى هذا وافق الجميع

والتفت پراسكوڤيا بهذا الرداء الدافىء الجميل أما صاحبه فقد لف نفسه فى أحد أغطية البضائع ووضع قدميه تحته وجعل نفسه كالقنفذ من شدة البرد . وكان عند نهاية كل فرسخ يخلع أحدهم رداءه ليلبسه صاحب الرداء الذى أخذته پراسكوفيا وفى تلك اللحظه كنت ترى تهليلهم وطربهم وضحكهم على من يخلع رداءه ويلف نفسه فى غطاء البضائع وهو ينتفض كريشة فى مهب الريح

ولم تنقطع پراسكوڤيا عن الصلوات والدعاء طول الطريق والتوسل الى الله أن يحفظ صحة هؤلاء الرجال وأن لا يؤثر فيها البرد حيث قد عرضوها لحظة فى سبيل راحتها وخوفا عليها

ولما بلغوا « كاتريذبرج » وحطوا رحالهم فى نزل صغير أخبرت صاحبته پراسكوڤيا عن أهل البر والاحسان فى هذا البلد . وقد

---

(١) الفرسخ الروسى يعادل ١١٦٦ يارده تقريبا

اختصت بمدحها وثنائها سيدة فاضلة كريمة الاخلاق لينة الطباع سلسة القياد اسمها « مدام ميلين » . فعزمت پراسكوڤيا على أن تذهب اليها فى اليوم التالى وتعرض عليها حالها وتسألها مساعدتها

ولما كان الغد يوم أحد فقد ذهبت الى الكنيسة قبلا وقد نبه الناس اليها ملابسها الرثة التى أبلى جدتها السفر وخشوعها فى الصلاة والعبادة ودعاؤها الطويل ودموعها الحارة. وما كادت تخرج من باب الكنيسه الا وقد اعترضتها سيدة وقالت لها : من أين أنت يا بنية وأين تقصدين ؟ فأجابتها پراسكوڤيا عما طلبت وتوسلت اليها أن تدلها على منزل «مدام ميلين » التى شاع ذكر جودها وصلاحها حتى لم يكن أحد فى البلد الا ويلهج بالثناء عليها. فقالت لها السيدة انى أخاف أيتها المسكينة أن يكون الناس قد بالغوا لك فى وصف مدام ميلين وجودها وكرمها . وأرى أن الاوفق لك أن تتبعينى الى منزلى فأعتنى بك وأنظر فى شأنك وأقضى لك كل ماتطلبين

وكانت السيدة بعد أن قالت ماقالت لاحظت الاستياء يبدو على وجه پراسكوڤيا فلم تر بداً من أن تشير لها الى منزل «مدام ميلين » وأردفت ذلك بقولها : هذا هو المنزل الذى تريدينه فاذهبى اليه بسلام . أما اذا رددت خائبة فأنا هنا بانتظارك أصحبك معى الى منزلى

فلم تجب پراسكوڤيا غير أنها حيتها وسارت تقصد المنزل

واذا بالخدم عند الباب فسألتهم عن ربته واذا بهم يتغامزون وينظرون الى سيدتهم بعين الدهشة والعجب واذ ذاك علمت پراسكوفيا أن السيدة التى قابلتها وكلمتها طول هـذه المدة لم تـكن سوى «مدام ميلين» بعينها

وأبقتها السيدة عندها تمتنى بها أتم اعتناء بقية فصل الشتاء حتى زال ما كان ألم بصحتها من المرض والانحراف بسبب الليلة التى قضتها فى الاحراش كما أنها اجتهدت فى تعليمها كثيراً من الاشياء التى ربما تحتاج اليها فى قضاء مهمتها الشاقة من مثل مقابلتها للحكام وكيفية التكلم معهم ومبادىء القراءة والـكتابة ولم يكن القائد لوبولف وزوجته قد اهتما بتعليمها أى شىء نظراً لما كانا فيه من ضنك وعناء واضطراب

وما تكلمت پراسكوفيا مرة من المرات عن شفقة « مدام ميلين » وعطفها على البائسين ورفقها بالمعوزين الا وقد هطلت دموعها الغزيرة على خديها .وقد أنساها ماأصبحت فيه من الراحة والعافية كل مامر عليها من الشدائد والصعاب الا أبويها فى بؤسهما وشقائهما . والمهمة التى آلت على نفسها أن تقوم بقضائها ومع ذلك فان « مدام ميلين » لم تسمح لها بالسفر ومبارحة كاترينبرج الا عند حلول الربيع فاكترت لها مكانا فى زورق فى نهير «خاما» أحد النهيرات التي تلتقي بنهر الفلجا وأوصت بها

رجلا كان مسافراً الى مدينة «نشني نوفجورد» [1] ومعه حمل عظيم من الحديد والملح .

ولسوء حظها مرض ذلك الرجل فى الطريق واضطر الملاحون أن ينزلوه حسب طلبه فى قرية صغيرة على شاطىء نهير خاما وقد أصبحت پراسكوفيا بعد غيبته بغير معين ولا مساعد ونظراً لان بعض أجزاء نهر الفلجا غير صالح للملاحة كان من المحتم سحب هذا الزورق وأمثاله بواسطة خيول تمشي على الشاطىء. ويجتهد الملاحون اذ ذاك فى التقذيف تسهيلا للخيل ودفعاً للزورق عن الشاطىء مخافة أن يصطدم بحجر فيهلك كل من فيه . . . وبينما كان الملاحون منهمكين فى عملهم هذا اذا بواحد منهم قد انحرف بمقذافه فدفع پراسكوافيا واثنين أخرين ممن فى الزورق فوقع الثلاثة فى النهر غير أن هذا الملاح الذى كان ماهراً فى السباحة خلع بعض ملابسه وغطس وراءهم فأنقذهم جميعاً فى برهة قصيرة الا أن ملابسهم وأجسامهم كانت قد ابتلت وصار يخشى عليهم من شدة البرد خصوصا پراسكوفيا المسكينة فان ماحصل لها كان سبباً فى رجوع بعض المرض اليها

(١) مدينة « نشني نوفجورد» عاصمة مقاطعة بهذا الاسم فى أواسط روسيا وهي شهيرة بسوقها الكبير الذى يعقد فيها فى شهرى أغسطس وسبتمبر والذى يؤمه مئات الالوف من تجار روسيا وأواسط آسيا وغربها

وأنزلها الملاحون عند قنطرة قريبة من مكان النزول الاعتيادى فرأت كنيسة على تل صغير أمامها فقصدتها لتصلى وتدعو ربها قبل أن تبحث عن مكان تأوى اليه ليلتها حسب عادتها . وقد وجدت المكان خالياً ليس به أحد غير أنها سمعت من وراء نافذة أصوات نسوة يدعين دعاء المساء . . . وكان هذا ديراً للراهبات فانعش صوتهن الجميل پراسكوڤيا وشجعها ورد اليها الحياة . وعندئذ قالت فى نفسها : لو سمع الله دعائي وأجاب ندائى لتنقبت بنقاب هؤلاء الراهبات الطاهرات ولوقفت الجزء الباقى من حياتى على عبادة الله وشكره على مننه الجزيلة التى لا تحصى ولا يمكن أن تستقصى

وبعد أن تعبدت ما استطاعت ودعت ما شاءت وتوسلت ما أرادت أبطأت فى مكانها بالدير مشفقة أن تعرض نفسها للذل السؤال أو للاساءة التى تلاقيها اذا هى ذهبت الى نزل لتطلب تمضية ليلتها به وقد رأت أخيراً أن تعيد صلاتها طالبة من ربها أن يثبت ايمانها ويزيدها شجاعة وقوة واقداما وما كادت تنتهى من ذلك حتى أتتها راهبة من الراهبات وقالت لها ان ميعاد قفل الابواب قد حان ولا سبيل للبقاء فى الدير فتوسلت اليها پراسكوڤيا أن تبقيها الى الصباح لانها غريبة الديار بعيدة الدار لا تعرف أحداً وليس معها من النقود ما يمكنها من المبيت فى أحد الفنادق وقد أخرجت كيس نقودها لتريه لتلك الراهبة التى قالت لها ان الامر

يئس بيدها وان كل مايمكنها فعله فى سبيل مساعدتها هو اخبار رئيسة الدير بخبرها وقالت لها پراسكوفيا ان أهل كاترينبرج الاكرمين الافاضل قدغمروها بجودهم وفضلهم ولم يدعوها تحتاج الى شىء ما. فسرت الراهبة من حديثها العذب ولهجتها التى فيها رنة أسى وحزن وللحال سارت معها الى رئيسة الدير

وعلمت تلك الرئيسة خبرها وكانت من الشفيقات الفاضلات. ووقفت على قصتها وعلمت من هى ومن أبوها . أجل عرفت انها پراسكوڤيا لوبولف ابنة ذلك القائد العظيم لوبولف عرفت انها لم تكن من الشاردات الطريدات وعرفت أن لها قلباً شفيقا بين جنبيها وفؤاداً طاهراً شريفاً . كما أنها قرأت خطاب مدام ميلين الذى تشرح فيه حالها وما قاسته وتحض أهل البر والاحسان على مساعدتها والعطف عليها . عرفت كل ذلك فأكبرت شأنها وبالغت فى اكرامها وبذلت قصارى جهدها فى تخفيف آلامها وأشجانها وتسليتها ومؤاساتها وحان ميعاد النوم بعد أن تناولت العشاء فأدخلتها الرئيسة الى غرفتها الخاصة لتنام فيها

وقد رأت شدة تأثير غرقها فى الفلجا على صحتها فألحت عليها فى البقاء بضعة أيام ريثما يتم شفاؤها

وقبل أن تنتهى هذه الايام أصيبت المسكينة بمرض عضال حتى أن الاطباء عند ما استدعوا لزيارتها أظهروا يأسهم من شفائها وأسفهم لعجزهم عن مداواة هذه الابنة المنكودة الحظ .

ومع ما كانت فيه أى وهى تكاد تكون فى حالة النزع الاخير لم تعتقد أبداً ولم يتسرب الى ذهنها أن أجلها انقضى وأنها سوف تموت بل كانت دائما تقول فى نفسها : يجب ألا أقنط من رحمة الله الذى لا أشك فى أنه سيمد فى أيام حياتى الى أن أنتهى من مهمتى التى جئت لاجلها . ان الله لا يرضى أن يموت والداى فى تلك الاصقاع النائية بعيدين عن الاهل والاوطان والخلان دون أن يقترفا ذنباً أو يجنيا جناية . « ان الله بعباده رؤوف رحيم » .

وأخذت صحتها تتحسن انما ببطء شديد حتى أن الصيف انقضى بأكمله دون أن يتم شفاؤها

وقد رأت أن صحتها لا تساعدها على ركوب تلك العربات التى تجرها الخيل فاستصوبت أن تبقى بين الراهبات فى الدير الى أن تصير الطرق صالحة لسير تلك المركبات التى تجرها الغزلان البرية على الجليد

ومر الوقت وحان موعد السفر فزودتها رئيسة الدير بخطاب الى سيدة فاضلة وأعطتها ما تيسر من الطعام واللباس . . . .

وفى صبيحة يوم سافرت پراسكوڤيا فى عربة مغطاة الى موسكو (١) وما زالت تسأل عن تلك السيدة حتى لقيتها فسلمتها الخطاب . ولما قرأته أكرمتها وساعدتها على السفر الى بطرسبرج

---

(١) العاصمة القديمة لبلاد الروسيا

الآن قد وصلت براسكوفيا الى بطرسبرج حيث يقيم القيصر ... وصلت بعد أن قضت ثمانية عشر شهراً فى سياحتها الطويلة المملوءة بالتعب والنصب والمشقات والمخاطر ... وصلت بروبلها وعكازها الذى كانت تتوكأ عليه فما الذى يكون من أمرها يا ترى بعد ما قاست هذه الأهوال والشدائد ؟

* * *

قاست المرّ ألواناً وكادت تيأس وتؤوب بالخيبة والفشل . لولا أن تداركها الله برحمته وعنايته وقبل القيصر أن يؤذن لها بالدخول عليه لسماع قصتها

سمع القيصر ما حصل لها وتصور ما قاسته تلك الابنة المسكينة وقرأ ما يجول فى عينيها وما يبدو على وجهها الجميل من الاخلاص والصدق والطهارة والكمال فأصدر أمره فى الحال بالعفو عن القائد لوبولف ثم التفت اليها وسألها ان كانت لها حاجة أخرى تود قضاءها فقالت :

« ان مولاى ليطوقنى بجوده واحسانه ويغمرنى بنعمه وفضله لو أصدر أمره الكريم أيضا بالعفو عن هذين الشابين المنفيين اللذين مع أبي فانهما ساعدانى بقدر استطاعتهما وودعانى الى مسافة بعيدة وعملا معى كل معروف فى وسعهما »

وقد كان القيصر ينتظر منها غير ذلك . كان ينتظر أن تطلب منه شيئا يختص بمستقبلها وسعادتها وغناها مثلا . غير

أنه لما رأى منها ذلك الخلق الكريم وشاهد أن حب النفس بعيد عنها بعد السماء عن الارض وأنها لا تنسى المعروف والجميل أصدر أمره بالعفو عنهما أيضا ولو أن جرمهما كان جرماً سياسياً .

***

وأصبح من أجل أماني پراسكوفيا . وقد أتمت مهمتها . أن تذهب الى أحد الأديرة فتعبد الله فيه ما بقى من أيامها . وبعد أيام قلائل سافرت الى « نشنى نوفجورد » ثانية حيث تمكنت من مقابلة رئيسة الدير

وكانت مدة سفرها تتنبأ بقرب قدوم والديها وتؤكد أنهما لابد وأن يكونا فى طريقهما آيبين من سيبيريا حيث أرسل اليهما أمر العفو لمن زمن . وما قابلت رئيسة الدير حتى سألتها بلهفة اذا كان عندها أى خبر سار عن والديها . وبعد أن هنأتها الرئيسة بنجاح مسعاها أخذتها من يدها وقالت لها «أجل عندى أخبار السرور والانشراح . عندى لك أخبار الهناء والصفاء » ودخلت معها غرفتها ومنها خرجتا من باب صغير الى ايوان موصل لغرفة الاستقبال التى ما كادت الرئيسة تفتح بابها حتى دهشت پراسكوفيا وكادت تسقط على الارض من هذه المفاجأة الغريبه !

ماذا رأت هذه المسكينة ؟ لقد رأت أباها وأمها وكلاهما

باسط ذراعيه لها . . . :

وهنا لا يقوى القلم على تصوير ما كان يرفرف فوق رءوس القوم من فرح وهنـاء وما كان يبدو على وجوههم من مسرة وارتياح

وركع الوالد والوالدة أمام ابنتهمـا التى خاطرت بحياتهـا لاجلهما الا انها سارعت فارتمت فى حضنيهما وهى راكعة أيضا ودموع الفرح تهطل من مقلتيها على خديها الذابلين وقالت لهما بصوت ملؤه الشفقة والحنان أو تحسبان انى فعلت لكما شيئا ؟ كلا . وانمـا هو الله . هو الله وحـده الذى نجانا وجمعنـا على أحسن حال . فاعبدوه واشكروه وسبحوه بكرة وأصيلا

ومضى الوالدان والابنـة أسبوعاً كاملا فى صفاء وسرور . واضطر القائد بعدئذ أن يسافر مع زوجته الى العاصمة تاركا ابنته تقضى أيامها الباقية فى الدير بعد أن ألح عليها بالرجوع عن عزمها وتوسلت اليه أن يدعها تفعل ما يروق لها

ولم تكن حياة تلك المسكينة بعد ذاك الا ألماً مستمراً ومرضاً لا ينقطع وقـد انحطت قواها وهزل جسمها وصارت أقرب الى الموت منها الى الحياة . . . ومع أنها عاشت سنوات بعد ما مر من الحوادث وتمتعت برؤيا والديهـا مراراً الا أنها كانت تضمحل شيئا فشيئا وصحتها تتأخـر يوماً فيوماً وربيع شبابها يذبل حيناً فحيناً

وقد رآها أحد الناس الذين سمعوا بقصتها وهى فى بطرسبرج فوصفها قائلا «كانت پراسكوڤيا ابنة القائد لوبولف معتدلة القوام رشيقة القد نجلاء العينين مقرونة الحاجبين ذات وجه مستطيل تبدو عليها السكينة والوقار ويتمثل فى وجهها الجميل العفاف بمعناه والطهارة الحقيقية . كما يبدو على شفتيها الحمراوين ابتسامة ملؤها الحزن العميق »

***

ولقد كان نهاية مرضها المزمن فجأة فى التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٨٠٩ ميلادية فبينما كانت فى صباح ذلك اليوم فى الكنيسة مطروحة على سريرها والراهبات يتحدثن حولها وقد رأين من عينيها أنها غير مستريحة لتزاحمهن فانصرفن عنها ليصلين لأجلها وقد بقيت احداهن عندها وظلت تتلو صلواتها وتترنم بأناشيدها بصوت مرتفع اذ أشارت لها متوسلة أن تطالع بصوت منخفض بدل أن تترنم بذلك الصوت الذى كان يقطع عليها صلواتها ودعاءها

ولم تبد تذمراً ولا شكوى مما أصبحت فيه بل ظلت هادئة مطمئنة تنظر الى ماحولها نظرة توديع . وقد جاء المساء فتركنها وذهبن الى غرف النوم

وفى الصباح وجدنها فى نومها العميق الأبدى ويداها فوق صدرها وعلى شفتيها تبدو ابتسامة السعادة الأخروية والنعيم الأبدى

أطفال الوادى المظلم

١٨٠٧ م

الوادى المظلم اسم واد ضيق صغير فى تلك الجبال التى يطلق عليها اسم «قم لانجديل» بانجلترا والتى يوجد فى سفحها وادى وبحيرة جراسمير الجميلين ويصب فى هذه البحيرة الصافية الماء البديعة المنظر جداول صغيرة يخترق أحدها واديا آخر لا يقل عن الاول جمالا وحسنا اسمه وادى «ايزديل» . وهذا الوادى تحصره الجبال الشامخة وتنمو فيه الحشائش النضرة

ويصل أحد طرفى وادى ايزديل الى قرية جراسمير كما يرتفع الطرف الآخر حتى يصل الى سهل صخرى قفر تكتنفه جبال عالية أيضا من كل الجهات . ولم يكن لهذا السهل مخرج أو منفذ الا ذلك المرقى الصخرى الوعر الموصل الى ايزديل وطريق آخر خطر يبلغ طوله ستة أميال يسيرها الانسان على الجبل حتى يصل الى قم لانجديل. وهذا السهل الموحش القفر اسمه ايزديل البعيد وكان عند طرفه العلوى فيما مضى من الزمن كوخ صغير يطلقون عليه اسم « الوادى المظلم » وكان عند هذا الكوخ مباشرة حفرة تتصل بالصخر يغلب على الظن انها كانت قديما بحيرة جبلية صغيرة جفت مياهها فصار الناس يطلقون عليها اسم «البركة العمياء» وكان ذلك الكوخ مسكنا لجندى عجوز أمين اسمه «جورج

جرين» اتخذ مزرعة صغيرة فى ذلك المكان وتزوج امرأة صالحة عمولا نشيطة من صفاتها الجد وحب النظام لذلك كانت تعتنى أشد الاعتناء بترتيب منزلها وتنميق أثاثه البسيط النظيف. كذلك كانت تعتنى بنظافة أطفالها وارسالهم الى المدرسة فى جراسمير كلما سمحت لهم حالة الجو بذلك

وقد حدث فى شتاء سنة ١٨٠٧ أن أعلن أهل بيت من بيوت « قم لانجديل » بيع أثاث منزلهم بطريق المزاد ... وكان مثل هذا البيع فرصة عظيمة يتسابق اليها أهل تلك التلال المتنائية فهناك يلاقون من الترحيب والاكرام مالا يوجد فى المدن وهناك يتمكنون من قضاء كثير من مصالحهم المنزلية كما يلاقون كثيراً من أصدقائهم وخلانهم الاقدمين الذين مضت عليهم شهور وسنون ولم يروهم

لذلك ما كاد يعلن عن بيع ذلك الاثاث حتى خرج جورج جرين وزوجته سارة فى يوم شتاء الا أنه صافى الاديم معتل النسيم تاركين أطفالهما الست فى كوخهم المنفرد تحت ملاحظة أكبرهم وهى فتاة فى التاسعة من عمرها تدعى «أجنس» ذلك لانه لم يكن لهم خادم ولا بواب ولا جار قريب

وكانت أجنس هذه فتاة عاقلة حريصة ذكية فلم يحصل طول ذلك اليوم بينها وبين اخوتها وأخواتها ما يكدر صفو سرورهم وهنائهم ..

وولى النهار وأقبل الليل وقد ابتدأ الضباب يتكاثف على تلك التلال فيحجب النور حتى لا يكاد الانسان يرى يديه أو يميز وجه جاره . وقد كان فى دوى الريح وشدة عصفه ما ينبىء بقرب هبوب زوبعة عظيمة . . . وما هى الادقائق معدودات حتى قصفت الرعد وزمجرت الريح ثم أمطرتهم السماء وابلا وتساقطت الثلوج فغطت الارض بطبقات كثيفة ناصعة البياض

وكان الاطفال طول هذه المدة يتلهفون شوقا ووجداً لرؤيا والديهم اللذين غابا عن ميعادهما ولم يرجعا وقد فات هزيع من الليل

وأعدت « أجنس » الطعام لاشقائها وهو عبارة عن شىء من اللبن والثريد . وبعد الانتهاء جلسوا يصغون ويستمعون علهم يسمعون صوتاً من الخارج

ومرت الساعة تلو الاخرى وهم لا يسمعون وقع أقدام فى الخارج ولم يظهر ما يدل على قرب مجىء والديهم. انما كان الثلج يتزايد فى سقوطه حتى كاد يسد عليهم باب كوخهم بعد أن غطى لهم النوافذ بطبقة سميكة

وكانت أجنس تجتهد فى أن تسلى أولئك الاطفال الصغار الذين كانت تبدو على وجوههم علامات الحزن والغم الاليم ويملأ قلوبهم خوف الوحدة والانفراد فى ذلك الكوخ النائى . فكانوا جالسين حول الموقد لا يستطيعون حراكا . . . . . . وقامت

أجنس الى أخويهـا الصغيرين التوأمين فنقلتهما وقـد ناما وهما جالسان الى مهدهما ثم رجعت الى الباقين وهما ولدان و بنت اسمها « كاترين » وما زالت بهم تطيب خاطرهم وتداعبهم وتلاعبهـم وهى على أحر من الجمر لغياب والديها الى أن كانت الساعة الثانية عشر وقـد غلبهم النعاس فتلا كل منهم دعاءه الذى يتلوه عند النوم طالباً من الله أن يرعاه برعايته وأن يجعله فى حمايته وكلاءته. ثم ناموا جميعا كل فى فراشه المخصص له

وأصبح الصباح ولم يأت الوالدان اذا كانت ميازيب المطر تنهمر وطبقات الثلج تعلو شيئا فشيئا الا أن « أجنس » لم يعل صبرها ولم يضع أملها فى أوبة والديها لانها ظنت انهما لا بد وأن يكونا قد مضيا ليلتهما فى أى كوخ مرّا به أو أن يكون انهمار المطر ونزول الثلوج منعهما كلية عن الأوبة فقضيا ليلهما فى جراميير على أمل أن يعودا فى الصباح

وقامت فألبست اخوتها بعد أن غسلت وجوههم ثم أمرتهم بتلاوة أدعية الصباح وبعدئذ أعدت لهم طعام الافطار فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً

ولما أن رأت أن طعامهم كاد يفرغ وأنه لم يبق لديهم ما يكفيهم طول اليوم لم تشك فى أن أمها قـد أحضرت لهـم ما يحتاجون اليه وأنها تجد السير هى ووالدها للوصول اليهم على جناح السرعة

وكم كان اشتياقها شديداً للتوجه الى جراسمير للسؤال عن والديها والاستعلام عن سبب تأخيرهما غيرأن رداءةالجو وهطول الامطـار ونزول الثلوج ووعورة الطريق كل ذلك كان يمنعها عن قصدها . كما كان يقعدها عن عزمها أيضا تذكرها هؤلاء المساكين الصغار اذا هي تركتهم وحدهم دون عائل ولا نصير

وقامت لتعد لاخوتها الغذاء فلم تجد غير قليل من اللبن والدقيق فاضطرت أن تعمل قليلا من الثريد للطفلين الصغيرين وأن تعمل ما تبقى على شكل فطائر صغيرة على الموقدة للباقين

ورأت استمرار نزول الجليد بشكل مخيف فقامت الى مخزن الوقود وبمساعـدة أخويها تمكنت من ادخال ما يكفيهم منه لمدة أسبوع خوفا من أن يتلفه المطر أو يتراكم عليه الجليـد . وبعدئذ قامت الى ما كان مخزونا من البطاطس غير أنها خافت أن يضره الحر انهى أدخلته الى الكوخ فلم تأخذ غير ما يكفى لا كلة واحدة.ثم ذهبت تلك الابنة الذكية الفؤاد تواً الى البقرة التي كاد يهلكها البرد والجوع فحلبتها فى اناء أدخلته الى الكوخ ثم صعدت الى طبقة الكوخ العليا حيث تمكنت من انزال ما يلزم البقرة من الدريس والحشائش

وكان معها أخواها الصغيرين أيضاً يساعدانها فى ذلك . ولا يخفى أن مثل هذا العمل شاق عليهما خصوصاً وقد خيم عليهم الظلام فى هـذه الآونة فارتعـدت فرائصهما خوفا واضطرت

الاخت أن تنزلها وتستمر هى فى استحضار ما يكفى البقرة عشاء وفراشاً فى تلك الليلة . وقد تم لها ذلك بشق النفس والجهد الجهيد .

وأتى وقت العشاء فقدمته لهم . وبعد أن انتهوا قامت الى أخويها التوأمين الصغيرين فخلعت عنهما ملابسهما وما زالت بهما تغنى لهما تارة وتلاطف أخرى حتى ناما فرجعت الى الباقين وهم جلوس حول النار يصطلون ويصغون الى الخارج آملين أن يسمعوا صوت والديهم

وكاد الثلج والمطر يدخلان من النوافذ والابواب فاحتاطت أجنس لذلك وسدت جميع الثقوب ببعض الخرق القديمة . وما زالوا جالسين الى أن انتصف الليل ولم يعد الوالدان

وناموا كالليلة الفائتة واستيقظوا دون أن يأتى أحد وجلسوا يستدفئون فى الصباح بعد أن قدمت لهم طعام الافطار وجعلوا يتلون دعاء الصباح واحداً واحدا كل بدوره

***

ومضى يومهم كسابقيه وأصبح صباح اليوم الثالث وقد انقطع نزول الجليد والمطر وتغيرت حالة الجو فصفت السماء وسكنت العواصف وخفت وطأة الثلج وسهل المسير نوعا ما

وكان فى الطريق الى جراسمير قنطرة يعبرها من أراد الذهاب الى تلك القرية الا أن الثلوج غطتها فأصبح عبورها مستحيلا

وخرجت أجنس ومعها أخواها الكبيران ترى حالة الطريق وتستنشق أخبار والديها فرأت ما آلت اليه حالة الجو وسرعان ما خطر ببالها خاطر غريب

خطر لها أن تذهب بنفسها الى جراسمير وهى تلك الابنة التى لم تبلغ الحول العاشر من عمرها لتبحث عن والديها وتقف على ما حصل لهما ان خيراً وان شراً

غير أنها وقد رأت ما حل بالقنطرة من تراكم الجليد كادت تيأس لولا أنها رأت حائطا قديما مبنيا من الحجر لو هى تسلقته لا مكنها الذهاب الى القرية من طريق آخر ولو أنه وعر طويل

ولم تكن لتبالى بما قاسته فى صعود ذلك الحائط بمساعدة أخويها اللذين رجعا الى الكوخ ثانيا باشارة من أختهما

ومشت أجنس تلتفت ذات اليمين وذات الشمال وهى خائرة القوى تعبة خائفة لانها ماشية فى مكان منفرد وسط الثلوج والاوحال

وما زالت كذلك وهي تجد السير تارة وتسير الهوينا أخرى الى أن بلغت أول دار فى جراسمير

ودقت الباب فخرج اليها أهل ذلك الحى وقابلوها بالترحاب والاكرام نظراً لما رأوه من حالتها التى تستميل اليها القلوب القاسية . وسألتهم عن والديها فأشفق القوم عليها من أن يكون

بعقلها دخل أو هي ما زالت صغيرة لا تدرك معنى سؤالها .
لانهم عدوّا ذلك عجيب جداً . فنظروا اليها نظرة حنو وعطف
عند ما أكدت لهم صدق قولها وأوقفتهم على جلية أمرها وحالها
هي واخوتها وأخواتها الصغار الذين تركتهم جميعا في الكوخ
دون مواس ولا معين ولا عائل

وما انتشر هذا الخبر في القرية حتى خرج ستون من أشداء
الرجال وأبطالهم يبحثون عنهم بين الاودية والتلال وفي وسط
الثلوج والاوحال فكان آخر ما علموه بعد أن فتشوا تفتيشاً دقيقاً
ورسموا لنفسهم نقطة يتقابلون فيها جميعاً أن بعض معارف جورج
وزوجته نصح لهما أن لا يخاطرا بنفسيهما . وأن يمضيا ليلتهما
في كوخ من الاكواخ فلم يقبلا شفقة منهما وحنوا على أولادهما
الصغار المساكين وسارا دون اكتراث بما كان حولهما من مخاطر
وعناء ولا يعلم أحد ما تم لهما بعد ذلك

وقال بعض سكان تلك الجهات انهم سمعوا حوالى منتصف
الليلة التي حصل فيها البيع ولولة وصراخا واستغاثات فظنوها من
هبوب الرياح وقصف الرعد وشدة سقوط الثلوج والامطار

وقد مر اليوم تلو اليوم وهم يبحثون وينقبون غير أن أتعابهم
ذهبت أدراج الرياح وصار أهالي تلك الجهات يزيلون طبقات
الثلج عن الطريق من لانجديل الى القرية مدة ثلاثة أيام أو يزيد
دون أن يقفوا لهما على أثر

واضطر القوم أخيراً الى استخدام الكلاب الكشافة فى البحث عن الضالين المساكين وكانت هذه أنجع وسيلة فان أحد هذه الكلاب العجيبة وقد وقف بجانب هوة عميقة يغطيها الثلج عند مكان مرتفع صار ينبح نباحا مستمراً دل القوم على أنه قد اكتشف ما كانوا يبحثون عنه

وذهبوا وقلوبهم مضطربة وكلهم متشوق لرؤية ما حل بذينك التعيسين

وهناك فى تلك الحفرة رأوا جورج جرين وزوجته ساره راقدين جنباً الى جنب نوماً عميقاً أبديا

* * *

وقد قصت أجنس قصتها المحزنة على مسامع الام «دورثى ورد سورث» أخت الشاعر الاشهر « ورد سورث »[1] وشرحت لها ما كان من حالها واخوتها خيال غياب والديها وما تحملته هى من مر الصبر وألم الوحدة والانتظار وما عملته حتى تمكنت من اكتشاف ما آل اليه أمر والديها مما لا نشك فى أن القراء يعتبرونه على بساطته من « الاعمال الذهبية » لصدوره من بنت صغيرة هى فى التاسعة من عمرها .

---

(١) هو ذلك الشاعر العبقرى الكبير «وليم ورد سورث» « ١٧٧٠ — ١٨٥٠ » أحد مشاهير شعراء الانجليز رحل بأخته دورثى الى جراسمير حيث صرف الاعوام الاخيرة من حياته

وقد دفن الفقيدان فى يوم صحو جميل من أيام الربيع فى مقبرة «أوسنوالد» فى «كركتون»

وقد قال «ورد سورث» فى ذلك ما تعريبه :

أنظرى نظرة عطف وحنان   يا تلالا دفنت فيها الامانى
ومرى الريح بأن يسرى نسيما   ويحف القبر فى هذا المكان
فيه قلبان مدى العمر أقاما   فى صفاء وسرور وأمان
وكما عاشا سويا فى الدنا   فهما فى القبر أيضاً صاحبان

***

تركا الدنيا وعافا عيشها   فالى الله هما يقتربان
فى رياض الخلد دار لهما   بين جنات السما ينتقلان

***

أيها العاشق داراً زخرفت   لك عيشاً ليس فى الدنيا توان
ليس الا الله باق فى الورى   وجمال العيش مكذوب وفان

***

وكان المار بتلك الجهات بعد أن انتهت أيام المأتم يرى أهل القرى المجاورة يردون ذرافات ووحداناً ولا غرض لهم الا أن يتبنى كل منهم ولداً أو بنتاً من أولاد جورج جرين المتوفى

وقد قر الرأى أخيراً بعد أن اجتمع القوم اجتماعاً وداديا على أن يتكفل أحد المثرين فى تلك الاصقاع المشهورين بالرأفة والجود بالتوأمين معاً وتكفلت أسرة ورد سورث بكاترين . أما

«٩»

أجنس وأخواها فقد كان نصيب كل منهم أسرة لا تقل كرماً وشفقة عن أحسن ما يتصوّر الانسان . وعاش الجميع فى صفاء وسعادة وراحة

وجمعت الاكتتابات وهطلت سحب الجود والكرم على هؤلاء اليتامى حتى أن الملكة شارلوت قرينة الملك جورج الثالث وبناتها وقد علمن بهذا الحادث أرسلن من التحف النادرة والهدايا الثمينة والتبرعات الطائلة مايكفى لاسرة عظيمة أن تعيش طول حياتها فى بحبوحة الامن والسعادة والرفاهية

وما زالت التبرعات تترى كل يوم من كل صوب حتى كادت الآنسة ورد سورث تضطر لرفضها وقد جعلت نفسها وصية عليهم. فعاشوا جميعاً وهم لا ينسون مامر بهم مرددين أجمل الثناء وأطيب الشكر لمن غمروهم بوافر فضلهم وجزيل احسانهم وجودهم

أغوستينا السرقسية

١٨٠٨ م

من أعمال نابليون بونابرت التى تناءت عن العدل وبعدت عن الحق بعد السماء عن الارض عمله على ايقاع الاسرة الاسبانية المالكة فى شراك سياسته واقتناصها بحبال خداعه ومكره وأسره أفرادها بعد أن سلب منها ملكها وسلطانها وتاجها . وأعطاها لاخيه « يوسف بونابرت »[١]

وقد هب الشعب الاسبانى عن بكرة أبيه من مدنى لقروى مشمرين جميعهم عن ساعد الجد والاقدام لمقاومة ذلك الملك الغريب الذى أحلته عليهم يد الخداع والسياسة الكاذبة والمدافعة عن وطنهم الى آخر نقطة من دمهم. ولما رأت الحكومة الجديدة ذلك سلكت من السبل كثيراً واتخذت من الحيطة ما استطاعت لتثبط همة الشعب وتقعده عن الدفاع. غير أن ذلك لم يجدها نفعاً فان حب الوطن كان لم يزل آخذاً من نفوسهم كل مأخذ فكان كل منهم يجود بروحه قبل ماله فى سبيل انقاذه من براثن الظلم والاستبداد ومخالب الاسترقاق والاستعباد

وقد تمثلت حمية القوم بأجلى مظاهرها وتجلت آيات الوطنية

---

(١) ولد فى سنة ١٧٦٨ وكان أكبر اخوة نابليون وحكم كملك على اسبانيا من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٣ وتوفى عام ١٨٤٤

الصحيحة فى حصار « سرقسه »[1] عاصمة ملك الارجون القديمة

ويحف هذه المدينة من جهاتها سهل واسع مغطى بأشجار الزيتون كما تشرف عليها جبال عالية وعلى بعد ميل من جهة الجنوب الغربى للمدينة كانت توجد أرض عالية تعرف « بالتوريرو » مقام عليها دير قديم

ويسير « نهر الابرو » محاذياً لمساكن المدينة ولم يكن عليه سوى قنطرتين احداهما من الخشب والاخرى من الاجر وكلتاهما موصلة للمدينة

ولم يكن هناك من وسائل التحصين سوى سور واحد بنى بالاجر أيضاً يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام أو يزيد قليلا وسمكه ثلاثة . وكان بعضه من بناء الرومان القديم . وكان للمدينة اثنى عشر باباً منها أربعة فى هذا السور الذى كان بناؤه يشهد لمن بنوه بالتفوق فى فن المعمار والذى يزرى بجميع ماكان يجاوره اذ ذاك من بناء حديث . فقد كانت المنازل والكنائس والاديرة مبنية بناء يتوهم الناظر أنه سوف يسقط لرداءة مواده وقبح منظره . وقلما كانت تخلو عمارة من الخلل

---

(١) هى عاصمة مقاطعة فى اسبانيا بهذا الاسم وواقعة على نهر ابرو وهى مدينة قديمة يرجع تاريخ تأسيسها الى عهد الرومان الذين شيدوها واطلقوا عليها اسم «قيصر اوغسته» ومنه اشتق اسمها الحالى وهى الآن شهيرة بالحرير والجلد

وكانت أحسن البيوت مؤلفة من ثلاث طبقات والشوارع ضيقة قذرة متعرجة لا يشذ عنها الا شارع واحد امتاز باتساعه وتنظيمه وطوله كانوا يدعونه بالشارع المقدس

وكان أهل سرقسه كباقي مواطنيهم الاسبانيين أغبياء بلداء ميالين الى الكسل والراحة . لا يراهم الانسان الاعلى أبواب منازلهم يدخنون لفائف التبغ بينما نساؤهم يخرجن والقناع الاسود يغطي رؤوسهن ووجوههن الى الكنائس . لذلك عندما دخلها الفرنسيون فى بادىء بدء عندما احتلوا اسبانيا ظنوا أن أهلها قد انفردوا بالكسل والغباوة وأن المدينة هي أقذر المدن وأردأها لذلك كانوا يحتقرون السرقسيين ويبالغون فى اساءتهم.

***

وقد أرسل القائد «ليفيفر دسنويت» لاخماد الثورة وتسكين الفتنة التى قام بها الاهالى ضد الفرنسيس فى الارجون وقد أوقع بمن قام فى وجهه معارضاً القتل والسلب وتمكن من تبديد شمل الثائرين وكان ذلك فى الثالث عشر والرابع عشر من شهر يونيه سنه ١٨٩٨

ولم يجد الهاربون من ملجأ أمامهم الا مدينة سرقسه فجعلوها وجهتهم وتبعهم الجيش الفرنسى الا أن الاسبانيون

---

(١) كان قائداً فرنسيا شهيراً من قواد الخيالة فى عصر نابليون وقد حارب فى واقعة واترلو ولد سنة ١٧٧٣ وتوفى سنة ١٨٢٢

تمكنوا وقد تحصنوا بمنازلهم من ردهم على أعقابهم

وقد قام «الدون هوذا بلافو»[1] وهو نبيل اسبانى كان رئيساً لاصطبلات الملك بقيادة جيش الثائرين وعدده مائتان وعشرون جندياً فقط. وقد سعى جهده حتى جند ستة آلاف من الاهالى وسلحهم بالعدد اللازمة وبث فيهم روح الحمية والغيرة وبذل النفس فداء للوطن

ولم يكن عنده سوى ستة وعشرون مدفعاً وقليل من البنادق غير أنه فى الحال أمر بجمع بنادق الصيد من أنحاء المدينة وجعل الحدادين يشتغلون أثناء الليل وأطراف النهار بعمل الحراب التى تلزم لهذا الجيش

ورأى الفرنسيون أن أحسن وسيلة لقهرهم هى محاصرتهم فى داخل المدينة فبدأوا بذلك فى السابع والعشرين من شهر يونيه

وكانت قوة الفرنسيس عظيمة جداً ومعداتهم الحربية كثيرة فكان عندهم من المدافع العادية ومدافع الحصار والبنادق البعيدة المرمى مالو صوبت نيرانها الى المدينة الرديئة البناء لدمرتها فى ساعات معدودات

وسرعان ماسقط فى يدهم ذلك المكان المرتفع المعروف باسم « توريرو» ومنه استطاعوا اطلاق رصاصهم وقنابلهم التى

(١) هو دوق سرقسه والقائد العام للارجون ولد فى سنة ١٧٨٠ وتوفى سنة ١٨٤٧

كانت كلما سقطت فى مكان انفجرت وتطايرت شظاياها تخربته تخريباً وتركته قفراً بلقعاً

ولم يكتف ذلك الجيش المحاصر بتصويب نيرانه الحامية الى السور فقط وانما كان يصبها صبا فوق المدينة وليس فيها من بيت كما قدمنا يثبت أمام تلك القنابل التى كانت كالمطر

ولم يجد أهالى سرقسه حيلة تقى منازلهم تلك المصائب ولا وسيلة يحتمون بها غير وضع كتل عظمية من الخشب بجانب حوائط البيوت لتكون صيانة لها من نيران المدافع والبنادق

كذلك أنزلوا المظلات العظيمة التى كانت تمنع عن نوافذهم دخول أشعة الشمس فى الصيف وعملوها على شكل أكياس ملأوها بالرمال والتراب وجعلوها أمام أبواب المدينة كمتاريس بعد أن حفروا كثيراً من الخنادق خلفها

وقد بذلوا ما أمكنهم من مسعى فى زيادة تحصين المدينة وهب باقى الاهالى فكانوا يداً واحدة يشتغلون معا تحت تلك النيران التى تصب فوق رؤوسهم فتحصدهم حصداً

ولم تكن تلك الروح قد دبت فى الرجال وحدهم فان «الكونته بوريتا» وهى فتاة وديعة جميلة قد ألفت جمعية من النساء برئاستها لحمل الماء والطعام للجنود المنوط بهم حراسة الاسوار وحمل الجرحي الى مكان بعيد عن نيران العدو

ولم تثبط همة تلك الاميرة الجليلة طول مدة الحصار فقد

كانت تخاطر بحياتها فتذهب حيث سقوط القنابل لتسقى جريحاً أو تضمد جرحاً أو تقوم بأية مساعدة

وقد أمرت الراهبات بمواساة الجرحى ومراعاتهم وقضاء حاجاتهم كما كلفتهم ايضاً بعمل رصاص كان صبيان المدينة يوصلونه للمحارين .

أما الرهبان فقد كانوا يساعدون الراهبات فى عملهن أو يحملون الدروع والعدد أيضا فيحاربون فى سبيل الدين والوطن

وهكذا كان كل أهل المدينة من رجال ونساء وأطفال كلهم يشتغلون كرجل واحد فى سبيل الدفاع عن حريتهم ووطنهم

وكان الجيش الفرنسى يرى تلك الحركة الهائلة فخشى عواقبها وتمكن بعد الجهد والحيلة من ادخال بعض الجواسيس الى المدينة فبينما كان الاهلون فى عملهم يعدون معداتهم ويؤدى كل منهم ما هو مكلف به اذ انفجر مخزن البارود وكان فى وسط المدينة فدمر أربعة عشر منزلا وقتل مائتى شخص

ورأى الفرنسيس نتيجة عملهم وأن الرعب قد دب فى قلوب السرقسيين فتقدموا بقدم ثابتة يصلونهم ناراً

وكانت القنابل وقذائف المدافع تنفجر بين هؤلاء المساكين فتحصد منهم بالمئات وهم يشتغلون باخراج جثث موتاهم من تحت الردم فى الظلام الدامس

وكانت أسوأ موقعة هى تلك التى وقعت أمام باب «بورتلو»

من أبواب المدينة واستمرت يوماً كاملا . ففيها لم تقو أكياس الرمال على الثبات فى وجه تلك النيران الشديدة وبالرغم من أنهم كانوا يجدون فى اصلاحها ووضعها ثانياً أمام الاسوار فان الرصاص المتطاير كان يزيلها كما يثير الهواء غبارها

وتمكن الفرنسيون من الايقاع بالاسبانيين وذبح عدد عديد منهم حتى لم يكن من المدافعين الا من سقط فى مكانه ميتا

وبينما الاهالى فى حيرة وارتباك وقد وقع فى قلوبهم الرعب والخوف اذ أقبلت امرأة تحمل طعاماً وماء للمحاربين وهى فى الثانية والعشرين من سنى حياتها بهية الطلعة جميلة المحيا معتدلة القوام جذابة التقاطيع يرى الناظر اليها آيات الاقدام والبسالة مرتسمة على وجهها . هى بطلة روايتنا « أغوستينا السرقسية »

ورأت أغوستينا أن الرجال يترددون عن خفر السور خوفاً من أن يلاقوا حتوفهم ويلقوا بأيديهم الى التهلكة فعمدت الى أحد القتلى فانتزعت منه بندقيته وعدته ولبستهما ثم تولت هى بنفسها اطلاق أحد المدافع الضخمة التى تزن قنبلته ستة وعشرين رطلا وكانت اذ ذاك فى مقدمة المكان المحاصر

ودعاها أهل بلدها بعد ذلك عذراء سرقسه غير أنها فى الحقيقة كانت زوجة لاحد رجال المدفعية البواسل الذين استشهدوا فى احدى المواقع وهم يدافعون عن بلدهم

وما زالت زوجته هذه تحمل بندقيته وتؤدى وظيفته لا

لحبها لوطنها فقط بل ولتحصل على الطعام اللازم لاطفالها الصغار الذين لولا ذلك لهلكوا جوعاً من تلك المجاعة التي حلت وانتشرت بكل جهات المدينة

واذا قال قائل أن حب الوطن لم يكن هو الباعث الوحيد لها على اقدامها وانما الشفقة الوالدية هي التي تغلبت لقلنا ان ذلك مردود عليه فان أغوستينا كان في قدرتها أن تؤدي أي عمل آخر تحصل منه على قوت لاطفالها كحمل الماء والطعام للمحاربين أو مواساة المرضى والاعتناء بأمرهم الا أنها فعلت أكثر من ذلك فقد لزمت مكان زوجها الذي وقع فيه قتيلا أي في وسط المعمعة ومكان الخطر

وقد كان ثباتها في موقفها وتوليها أمر اطلاق ذلك المدفع العظيم سبباً في ردهجمات الفرنسيين عن « البورتلو » ونجاته من السقوط في أيديهم. وقد كان القائد الفرنسي يتوهم أنه من السهل الاستيلاء على ذلك المكان الغير المحصن ولكنه لما رأى ما رأى فقد صوابه وضاع رشده فأمر رجاله باعادة الكرة وتجديد الهجمات . وهكذا كان يرمى برجاله للهلاك ويدفعهم بأوامره الصارمة حيث يلاقون الموت الزؤام هذا وأغوستينا لم تتزعزع من مكانها وهي تثير حمية قومها وتحرضهم على الاقدام والثبات

ولما عيل صبر القائد الفرنسي أمر رجاله بتشديد المحاصرة .

وأوشك البارود أن يفرغ من السرقسيين فبادروا بجمع

الكبريت بكميات وافرة وصاروا بكل مهارة يفصلون ملح البارود من أتربة الشوارع ويحصلون على الفحم النباتى باحراق جذوع تلك الاعشاب الضخمة التى تنمو بكثرة فى ذلك المكان

وبعد ستة واربعين يوما كان الجيش الفرنسى محيطا بالمدينة احاطة السوار بالمعصم وقد كادت مخازن القوت تخلو كما لم يكن ثم مكان يخلو من سقوط القنابل والرصاص

وفى الثانى من شهر أغسطس شبت نار عظيمة فى أحد المستشفيات واذ ذاك ظهرت بسالة السيدات ظهوراً جلياً فكن يخاطرن بأنفسهن وهن يحملن المرضى والجرحى بلا خوف ولا حذر . كل ذلك ونار المستشفى تكاد تلتهمهن بألسنتها المندلعة ولهيبها العالى وشررها المتطاير ورصاص العدو يكاد يوقعهن فى أماكنهن

وفى الحقيقة كان عدد من مات من النساء والاولاد لا يقل عن عدد من هلكوا من المحاربين . . . وكانت كل العناية فى ذلك الوقت موجهة الى الذين يخاطرون بحياتهم فيقفون حيث يصوب العدو أفواه بنادقه ومدافعه

وفى ٤ أغسطس زاد العدو قوته وصار يطلق المدافع بقوة هائلة على المكان الذى عرف بعد تلك الموقعة الهائلة بدير « سنت انجرثيا العظيم » وبعد عراك هائل دام زمناً ليس بالقصير تمكن الفرنسيس من دخول ذلك الدير . . . وفى نفس

اليوم تمكنوا من الاستيلاء على جانب عظيم من المدينة يمتد من ذلك الدير الى الشارع المقدس

ولما رأى القائد ليفيفر ان كل شيء قد انتهى تقريباً أراد أن يطلب تسليم المدينة فكتب الى القائد الاسبانى رقعة ما يلى « مركز القائد العام — سنت انجراثيا — تسليم بشروط مخصوصة » . . . . فكان جواب القائد الاسبانى كما يلى : —

« مركز القائد العام — سرقسه — الحرب الى النهاية » .

وكان بين المحاصرين « بالكسر » والمحاصرين « بالفتح » شارع متسع . جعل الاخيرون كل منزل منه ولو كان متهدماً حصناً يحتمون فيه كما جعلوا فى مبدأ ونهاية كل شارع صغير أكواما عظيمة من الاكياس المملوءة بالرمل

ودار القتال ثانيا بين الفريقين فكانت جثث القتلى مكدسة فى الشوارع كأكياس الرمل وظلت زمنا على هذه الحال فتولدت من عفونة الجثث حمى انتشرت بين الاحياء أنفسهم

وفرح الفرنسيون لذلك اذ تأكدوا أن مثل هذه الحمى ستكون أحسن وسيلة لايقاع الهلاك بأهل المدينة وتخريبها تخريبا محققا لا ريب فيه . ولهذا كانوا واقفين للاسبانيين بالمرصاد يطلقون عليهم النيران اذا هم حاولوا دفن موتاهم .

ولما رأى القائد « بلافو » الاسبانى ذلك ربط الاسرى

الفرنسيين بالحبال وساقهم كسوق الانعام آمرا اياهم بحمل جثث الاسبانيين لدفنهم . فلما شاهد الفرنسيس ذلك كفوا عن اطلاق قنابلهم مخافة قتل مواطنيهم . غير أن المرض على العموم قد انتشر بين هؤلاء الابطال كما عمت بلدهم المجاعة الشديدة

وكان من حسن حظ أهالى سرقسه الذين يذبون عن شرف بلادهم وأهليهم أن تمكن « الدوق فرنشسكو » وهو شقيق القائد « بلافو» من الدخول اليها وهو يقود ثلاثة آلاف من الابطال حاملين العدد والمؤن والذخائر

ولم تثبط همة أحد من الارجونيين البواسل وهم يستميتون فى قتال عدوهم بكل بسالة وشجاعة متنقلين من منزل لمنزل ومن غرفة لاخرى مستترين بالظلام الحالك فى بعض الليالى لاتلاف حصون العدو وسرقة معداته الحربية

ومما يروى من هذا القبيل أن أحد أبطال الاسبانيين خرج يحجبه ظلام الليل وما زال ينسل بين جثث القتلى حتى بلغ مواقع العدو فربط فى أحد مدافعه حبلا وجره دون أن يشعر به أحد ولولا أن قطع الحبل منه لفاز به.

وقد اتفق السرقسيين فى اليوم الثامن من شهر أغسطس أنهم اذا لم يتمكنوا من الثبات فى وجه عدوهم وحفظ مواقعهم فى المدينة تقهقروا بانتظام الى نهر الابرو فخربوا قنطرتيه وحموا

الضواحى بكل قواهم ودافعوا عنها الى النهاية

ولم يبق لهم فى ذلك الحين الا ١/٨ من مدينتهم ووقع الباقى فى أيدى أعدائهم

وفى ليلة الثالث عشر من ذلك الشهر اشتد اطلاق مدافع العدو عن ذى قبل حتى نسف دير سنت انجراثيا العظيم واشتعل الجزء الذى يشغله الفرنسيون بالنار ورأى الارجونيون أن منتهى درجات هول الحصار قد حلت الا أنه ما كاد يصبح الصباح حتى شاهدوا أن اطلاق المدافع قد أوقف وأن الشارع الموصل الى «بامبلونا» عاصمة مقاطعة نوار «شمال أسبانيا» مملوء بفرق الجنود الفرنسية يتقهقرون بلا انتظام

وقد فشل الفرنسيون من كل جهة ولم يقووا على الدفاع فقرروا أن يتخلوا عن سرقسه قبل أن يحل بهم الدمار

وكان الفوز حليف الاسبانيين فى ذلك اليوم . وقد انتهت تلك المذابح الفظيعة ولم يبق عليهم الا أن يطهروا شوارعهم وطرقهم من الجثث المتجمعة وأن يمدوا يد الشكر والاخلاص لمخلصيهم ومساعديهم

وقد صدرت الاوامر بعد ذلك أن يعطى «لاغوستينا» مرتب رجل من رجال المدفعية وأن تعطى لها شارة شرف تعلق على ذراعها الايمن اعترافاً بفضلها واقراراً ببسالتها واقدامها وتفانيها فى حب وطنها

الحمى فى اوسمذرلى
١٨٢٥

أوسمذرلى قرية صغيرة فى مقاطعة يوركشير الانجليزية لاتبعد كثيراً عن مدينة «نورث ألرتن» الواقعة على بعد ثلاثين ميلا من شمال غربى «يورك» وقد كانت هذه القرية مهملة كل الاهمال بيوتها مبنية على غير القواعد الصحية وشوارعها قذرة ضيقة لاتراعى فيها وسائل النظافة المطلوبة وذلك لان الجهل كان مخيما على عقول العالم فى ذلك الوقت

لهذا لم يكن بالامر العجيب انتشار حمى خبيثة بين أهالى تلك القرية وفتكها بهم فتكا ذريعا فى خريف سنة ١٨٢٥ فان العدوى صارت تتنقل من بيت لبيت ومن شخص لآخر حتى تعذر وجود أناس أصحاء يعتنون بالمرضى ويقضون لهم حاجاتهم

ومن بين الأسر التى نزلت عندها الحمى منزلا رحبا وتوطنت جرثومتها بين جميع أفرادها أسرة أرملة مسكينة كانت فى أيامها الاولى ترتع فى بحبوحة النعمة وتجر ذيل العز والسعادة غير أن الدهر أناخ بها وأقعدها فأصبحت من المعوزين الذين يستحقون الرحمة والاحسان

وكانت قبلا تتعيش من مبلغ يرسله لها أخوها الذى استوطن أمريكا واحترف بالتجارة وقد مات ذلك الاخ الشفيق قبل ابتداء تلك القصة بعام بعد أن طال زمن مرضه واعتناء ابنته الوحيدة

« ماری لوڤل بيـكارد » التى لمـا رأت نفسها وحيدة بتلك الاقطار فكرت فى أن تأتى الى وطنها الاصلى حيث تزور أقرباءها الانجليز .

وقد آبت الى الديار التى خلقت بها وبزغت عليها أول شمس فيهـا واستنشقت قبل كل النسمات نسماتها . فقوبلت بالترحيب والاكرام ومضت بين أقربائها زمنا طويلا سعيداً لا يعكر جو صفائه معـكرا الا أنها ذكرت عمتها المريضة فرأت أن الواجب يقضى عليها بالسفر اليها لتواسيها وتخدمها وقد انتهزت فرصة سفر بعض معارفها الى اسكتلندا فصاحبتهم الى « بنريث » وهى مدينة فى مقاطعة « كمبرلند » تبعد سبعة عشر ميلا عن جنوب شرقى « كارليل » ومن ثم واصلت سيرها بمركبة الى « نورث الرتن » ثم اتخذت عجلة من عجلات نقل البريد الى أوسمذرلى

وقد عزمت على أن تمضى ثلاثة اسابيع ثم تعود ثانياً حيث تقابل رفقائها فى « بنريث » وكان اول خطاب لها فى ذلك المكان تصف فيه صاحبة المنزل الذى حلت به « اى عمتها » مؤرخا فى الثانى من شهر سبتمبر سـنه ١٨٢٥ وفيه تقول انها امرأة نحيفة الجسم صفراء اللون عيناها سوداوان براقان كأنها ترمى بشرر اذا هى تـكلمت أو نظرت بحـدة الى انسان ذات نشاط عجيب بالنسبة لمن كانت فى سنها . وهى تعيش فى كوخ جميـل يتركب من درجتين ويحتوى على غرف أربع لم أر فى حيـاتى

أنظف منها ولو أنها مفروشة بالقش

وكان لتلك السيدة حفيدان يكاد اعتناؤها بهما يقضي على حياتها فانها لا تستطيع أن تستريح أو تنام برهة من الزمن اذ كان أحدهما مصابا بسعال شديد الوطأة كما كان الآخر وهو طفل لم يمض على ولادته أكثر من أسبوعين مريضا بنفس الداء وكان أبوهما مريضا بالحمى ولا أمل بشفائه أبداً وقد مات أخ له بالجدرى من حين قريب

وأشد من هذا وذاك وقعا على تلك المسكينة ابن لها أصابه دخل فى عقله كان هو الجنون بعينه

وكان الأصحاء يفكرون فى ذلك الوقت فى الفرار من ذلك المرض الخبيث أما مارى فقد كانت تفكر فى تقديم المساعدة لأولئك المرضى التعساء فتعهدت أولا بالطفل الصغير الذى سرعان ما تعلق بها كل التعلق وصار يناديها قائلا «ياعمتى مارى»

وأخذت على عاتقها أيضا التنقل بين منازل المصابين لتعلم الناس كيف يعتنون بمرضاهم مادة لهم يد المساعدة بكل وسيلة استطاعتها حتى اتفقت آراؤهم على أنهم لم يروا فى حياتهم كالآنسة بيكارد شفقة ولطفا وعطفاً وحنواً

أما ما تبرعت به تلك الفتاة الكريمة لهم فلم يعرفه أحد ولا نكون مبالغين اذا قلنا انها نفسها لم تعرفه كذلك فقد كانت تهب وتعطى بغير حساب وهى مع ذلك تخدم وتقضى

وتمرض وتعاون وتؤدى بنفسها كل شىء .

وكانت تقول انه لم يكن لها مساعد فى عملها هذا الا الطبيب الكريم الذى كانت تستدعيه من وقت لآخر

ومع أن الاطباء الذين كلفهم أهل الخير والبر بمواساة المرضى وعيادتهم كانوا كثيرين الا أن ذلك كان اسميا فقط فلم يكن أحدهم ليهتم بما كلف به مطلقا . وكان المرضى لا يعتمدون فى علاجهم الا على العرافات والدجالين من ذوى المكر والدهاء . وبائعى الاعشاب الذين يعرفون خواصها .

وكثيرا ما كانت مارى تثير حربا شعواء ضد معتقدات أهل القرية الخرافية وما يتوهمونه من تلك الاوهام الخزعبلية القديمة وتنصحهم بعدم اتباعها وتوصيهم بنظافة اكواخهم وأمتعتهم حتى تخف عنهم وطأة الوباء . مؤكدة لهم أن اهمالهم هو سبب انتشار الحمى بينهم وفتكها بهم . واليها يرجع الفضل كله فى أنهم هبوا من مراقدهم ونفضوا عن أنفسهم غبار الكسل والخمول وجدوا فى تنظيف فراشهم واكواخهم وجميع أمتعتهم .

وكانت مارى تتكفل بالطعام والدواء لكثير من العائلات التى قضى عليها سوء طالعها بأن يمرض عائلها الذى يقضى لها مصالحها ويقوم باودها فى هذه الحياة الدنيا لذلك ليس فى الاستطاعة أن يحصر الانسان ما قدمته تلك الفتاة الطاهرة من أعمال البر والتقوى ..

وقد قالت انها تود أن تدون كل ما مرّ بها من حوادث
وما انتابها من خطوب فى قرية أوسمذرلى وحاولت ذلك فلم
تتمكن غير أنه من خطاباتها التى أرسلتها الى أقربائها بأمريكا
والتى شرحت فيها طرفا بسيطا مما عملته فى تلك القرية يمكن
الانسان أن يحكم بما كان للفتاة من يد بيضاء وانه لكفاها فخرا
وشرفا اذا كان ذلك كل ما فعلت .

وقد مات ابن عمتها « زوج السيدة بسى » فى الثامن من
شهر سبتمبر وهى التى أطبقت عينيه بيديها . وقد أوقفت نفسها
بعد ذلك على خدمة الطفل الصغير الذى بلغ عمره شهرا واحدا
والذى كان الامل فى حياته ضعيفا جدا لان نوبات السعال التى
كانت تنتابه من وقت لآخر كانت شديدة جدا

وقالت بعد أن سهرت بذلك الطفل الصغير ليلتين : لقد
سهرت اكثر ليلتى الماضية وأنا الاطف الطفل وأعطيه الدواء من
وقت لآخر وقد قلت فى نفسى حيث انى ملزمة بالسهر على هذا
الطفل فينبغى أن أفعل كل ما في استطاعتى . وحيث أن السيدة
أم الطفل وزوجة ابن عمتى المتوفى سوف تنام لاول مرة في بيتها
بمفردها بعد وفاة زوجها فماذا علىّ لو اتخذت لى فراشا بجانب
فراشها لأواسيها وأكون لها أنيسة فى وحدتها . وقد فعلت
ذلك وأرقدت الطفل فى ارجوحته الاطفه مرة وأهش فى وجهه
أخرى وأمه نائمة فى سريرها وهى تعبة مثقلة بالهموم والاحزان

وقد رأيت الطفل وقد تحسن قليلا عما كان فى النهار الدابر ولم أشك فى أنه سينام نوما عميقا هادئا اما فى أرجوحته أو على حجرى الا اذا اشتدت عليه وطأة السعال

وما كادت أمه تذهب الى مرقدها وتنام قليلا حتى ساءت حالته عن ذى قبل وأخذه دور سعال انقطعت معه أنفاسه حتى لم أعد أشك انه مات فلم أجد بداً من أن أوقظ أمه . غير أن قلبه الصغير أخذ يدق ثانيا وقد انتعش قليلا ففرحت وجعلت أمه تذهب ثانيا الى فراشها . ولكن لم تطل تلك المدة فكأنه نشط وفتح عينيه ليودع هذه الحياة التى لم يذق حلوها ومرها الوداع الاخير فانه ما لبث أن أغمض عينيه فجأة وفارقت روحه جسده فى الحال

فحزنت لاجله أيما حزن وأعددت ما يلزمه ودموعى تنهمر كالمطر لانه كان طفلا محبوبا خفيف الروح تعلق بى كل التعلق حتى كأنه عرفنى فلم يكن يسكت الا معي ولا يهدأ الا اذا رآنى أداعبه · وفوق ذلك فقد كان تسليتى الكبرى

* * *

وكانت مارى ترد على أصدقائها اذا هم نصحوها مخافة أن تصل العدوى اليها بقولها : لا تخافوا ولا تحزنوا فان فؤادى ينبئنى أن الله سبحانه وتعالى يحفظنى من كل هم وسوء . واذا قدر وأصبت بالمرض فهذا ما اختاره الله ولا مفر مما أراد .

وقد سكنت مع تلك الأم المحرومة التى قضى عليها سوء حظها بموت زوجها وطفلها المحبوبين فكانت تواسيها آناء الليل وأطراف النهار وتعلمها كيف يكون التصبر والسلوان فكانت تأنس بها وتسكن اليها

ولم يكد ينتهى الاسبوع الاول من موت الطفل حتى مرضت أمه بالتيفوس وتسربت العدوى منها الى الولد الآخر «جامى» الصغير . فلم يشك أهل القرية بأن البيت قد قضى عليه بالخراب وأنه لا أمل بشفاء هذين التعيسين . . . ومضت أيام طويلة لم تكن مارى ترى غير الطبيب الذى كان يأتى اليوم بعد اليوم

وقد امتد أجل مرضهما أحد عشر يوماً لم تتركهما فيها مارى ليلا ولا نهارا الا بقدر ما تذهب لتغير ملابسها . وقد كان هذا عين الصواب فان الطبيب أوصى ألا يتعرض لخدمتهما أكثر من فرد واحد مخافة انتشار العدوى

وقد قالت مارى عن تلك المريضة المسكينة : ان شعورها لم يفارقها لحظة واحدة حتى عند اشتداد وطأة المرض عليها فقد كانت مالكة لجميع حواسها لا تغفل عن ذكر الله وشكره واستغفاره . وكانت فى كل حين تقول ان من أكبر نعم الله عليها أن أرسلنى لمواساتها هى وابنها فى ساعة عجزهما ومرضهما

وقد قبضها الله اليه فى اليوم الثلاثين من شهر سبتمبر .

وبقى جامى الصغير الذى كان مريضاً جداً وكانت مارى لا تغفل عن الاعتناء به

وكان الولد الاكبر وعمره سبع سنوات قادرا على أن يدرك ما حل ببيتهم من الخراب والدمار بعد موت أمه وأبيه وأخيه الاصغر ومرض أخيه « جامى» فكان كلما جلس الى النار ليستدفأ نظر الى مارى نظرة حنان وعطف تقابلها مارى بأحسن منها قائلا : لا أظنك يا ابنة عمى تتركينى بعد الآن أسكن وحدى فان قلبك الشفيق لا يسمح بذلك . أفلا تجعلينى أعيش بقربك حتى أكون سعيداً ؟

وكانت مارى تجيبه بابتسامة لطيفة ترتسم على شفتيها يتمثل فيها الحزن والاسف قائلة : نعم يا عزيزى انى لا أفارقك أبداً طول حياتى : فيظهر السرور على وجه الولد الصغير ويمد يده لها شاكراً

غير أن حياة ذلك التعيس لم تطل فقد كان نصيبه نصيب والديه وأخيه الطفل الصغير فانه مرض مرضاً خطرا قضى على حياته فى الثلاثين من شهر اكتوبر .

ولم تنته مهمة مارى الى هذا الحد فانها ما زالت مع جامى الصغير تعتنى به وتعطيه الدواء وقد كتبت فى الثانى من شهر نوفمبر تقول : — لم يقف فتك تلك الحمى الى الآن عند حد فان وطأتها ما زالت شديدة جدا لا تحتمل . وحيث انى المخلوقة

الوحيدة فى هذه القرية التى لم يصبها المرض ولا تخشى العدوى فأرى من أوجب الواجبات أن أبقى مواسـية للمرضى مخففة لآلامهم فانهم فى أشد الحاجة لمثلى . وانى لفى غاية العجب من انى لم أمرض كباقى الناس الا أن ذلك كما أعتقد من لطف ربى بى ومنه على وانى أسأله تعالى ان يحفظنى أيضا من الصلف والكبرياء والعظمة حتى أنتهى من اداء واجبى هذا

وفى نهاية الشهر رأت أن الحالة العمومية قد تحسنت تحسناً يذكر وأن المرض قل بدرجة محسوسة وهـذا ما جعلها ترضخ لطلبات معارفها فتذهب لمقابلتهم فى « بنريث »

غير أن هـذا السفر لم يؤثر على أحد ولم يحزن انساناً بقدر ما أثر وأحزن جامى الصغير الذى لا يقوى القلم على شدة تعلقه بها وحبه لها

وبالرغم من أنها كانت متعبة ضعيفة ممـا قاسته ولاقته كل تلك المدة الطويلة تشتغل الليل والنهار ولا تستريح الا قليلا ، فان مالاقته من معارفها وأصدقائها من الحفاوة والاكرام خفف عنها ما كانت تجد من تعب ونصب

ولم يمض شهر ديسمبر حتى أرسـل طبيب القرية لها خطابا ينبئها فيه أن عمتها على أبواب الابدية فقد اشتدت وطأة الحمى عليها لدرجة عظيمة

وعبثاً حاول أصـدقاء مارى أن يقعدوها عن السفر فأنها

أبت الا أن ترى عمتها وتخدمها وتقضى لها حوائجها بنفسها
ولم يدع اخوانها وسيلة أوحيلة لارجاعها عن عزمها الا عملوها
مؤكدين لها انه من أعظم الخطر رجوعها ثانياً فى بلد موبوء
خصوصاً وقد تأثرت صحتها كثيرا عن قبل . ولكنها لم تقتنع
وقد سافرت تودعها قلوب المعجبين بفضلها وكرم خلقها
وطيب عنصرها والجميع آسفون خوفا عليها طالبين من ربهم
حفظها وردها سالمة اليهم

وبعد ثمانية ساعات وصلت الى القرية ولا تسل عن فرح
جامى الصغير الذى تعلق بها وصار يقبلها باشتياق وحرارة .
وقد كتبت عن ذلك تقول : ليس فى استطاعتى أن أصف حالة
ذلك الصغير المحبوب عند ما رآنى فانه كاد يطير فرحا وسرورا
وأخذ يدور حولى ويشب على حجرى وأنا جالسة على الكرسى
فيقبلنى فى فمى وبين عينى وكأنه غيرمصدق أنه يرانى بعد غيابي
عنه . وبعد برهة قال « يا عمتى مارى» أهل ستذهبين ثانيا ؟ ؟
بالله عليك عيشى هنا مع جامى ولاطفيه كل يوم أو اذا ذهبت
فخذيه معك . . . !

وباشرت تلك الآنسة الكريمة عملها الشاق ثانيا بكل قوة
ونشاط . وقد عملت لنفسها فراشا فى أحد أركان غرفة عمتها
لتكون فى خدمتها أيان شاءت . وفى هذه المرة وجدت لها
رفيقة هى أخت الطبيب التى أرسلها لتقوم بقضاء المصالح المنزلية

بينما تكون مارى مشتغلة بأمر المرضى

وقد بدأت حالة عمتها تتحسن منذ قدمت غير أن البرودة والرطوبة قد أثرا على مارى كل تأثير فأخذت قوتها فى الاضمحلال. فبينما هى ذات ليلة وحدها اذ أخذتها رجفة أعقبها تشنج فوقعت على الارض لا تستطيع الحركة

وقد لزمت فراشها بعد ذلك عدة أيام وهى خائرة القوى واهنة العزم غير أن الله أكرم من أن يجعل وطأة المرض تشتد على فتاة يكفى أن نقول فى وصفها انها من أكرم الفتيات خلقا وأكرمهن طبعا والينهن جانبا وأنبلهن أصلا وأشفقهن قلبا وأرقهن فؤاداً فعلت ما يجب أن يخلد لها ذكراً ساميا مجيدا على مدى لزمان فقد زال ما كانت تجد وتمتعت بتمام صحتها بعد ايام قلائل

وقد سافرت عقب ذلك الى وطنها الثانى بلاد امريكا بعد ان ودعت ذلك االمكان الذى مضت فيه شهوراً طوالا وهى تعمل فيه عمل الملائكة الابرار

وقد وصلت بالسلامة وهى تحلم بوصولها كما يحلم الانسان بساعات النعيم بين اليقظة والمنام

***

ومضى زمن غير طويل فتزوجت بأحد الاغنياء الاشراف وأصبحت زوجة وأما سعيدة . وجدير بها أن تكون سعيدة

فهل لا تستحق السعادة بكامل صفاتها !

وكانت لا تنسى أن ترسل من حين الى آخر ما تحتاجه عمتها العجوز من نقود ومتاع ذاكرة حفيدها جامى الصغير المحبوب فى كل خطاب أرسلته اليها

ومما ننقله بمزيد الاسف والحزن ان جامى وقد اشتد شوقه الى « مارى العزيزة » حرر اليها خطابا فى سنة ١٨٤٩ يشرح لها اشتياقه ويهديها مايكنه فؤاده الصغير الطاهر من تحيات باهرات وسلامات عاطرات غير أن خطابه قد وصل متأخراً فان مارى الكريمة كانت تقاسى ألم النزع فى ذلك الحين لمرض عضال اصابها لم تبرأ منه فلبت نداء ربها فى يوم صحو جميل من أيام شهر ابريل استيقظت فيه مبكرة ولما سمعت تغريد الاطيار على أغصان الاشجار وخرير المياه فى الحديقة ومداعبة نسيم الصباح للاوراق والازهار قالت ما أهنأك وأجملك من يوم اذا تمتعت فيه بالراحة الدائمة والنعيم الابدى . . . وهنا أغمضت عينيها وأسلمت الروح . . .

***

وانا والحالة هذه اذا عددنا المخاطرة بالروح وتضحية النفس فى سبيل انقاذ الغير عملا مجيدا كانت « مارى لوفل بيكارد » تستحق أن نذكر اسمها ما دمنا أحياء مقرونا بالثناء والاعجاب والاجلال كما نذكر اسم بطل مقدام لقى حتفه وهو فى ساحة الوغى يدافع عن أمته وملكه ويذود عن شرف بلاده ووطنه

أبطال الطاعون

١٦٦٥ م

كانت أعظم وآخر ويلات الطاعون التى حلت بمدينة لندن العظيمة فى سنة ١٦٦٥ وقد كان شديد الوطأة لدرجة لا يتصورها انسان فقد انتشر هذا الوباء الخبيث انتشارا سريعا بين طبقات الناس وسرت روح عدواه فى جميع أنحاء المدينة . ولا ريب فى أن الكثيرين من أهل البر والتقوى قاموا باعمال جليلة نحو الانسانية لمقاومة ذلك الداء الفتاك غير أنه لا يعنينا الآن ذكر هؤلاء ولا ما قاموا به وانما نود أن نقص على القارىء ما كان من أمر احدى القرى الصغيرة التى سرت اليها العدوى واسمها « ايام » فى مقاطعة « دربيشير » بانجلترا

أما القرية المذكورة فعبارة عن مكان ذى منظر بهيج جميل واقع على تل مرتفع يحجبه جبل عال . وهذه القرية بالرغم من جمال منظرها وحسن موقعها وبداعة تحصينها الطبيعى فهى فريسة للأوبئة والامراض وعرضة لانتشارها سريعا نظرا لاحتباس الهواء بذلك الجبل الشامخ

وكان العمل فى بدء هذه السيرة جاريا لمد خطوط المواصلات فى الجبل والقرية اذ ذاك مزدحمة بالسكان الاجانب فضلا عن سكانها الاصليين

وكم كان رعب هؤلاء القوم وخوفهم ودهشتهم ومقدار فزعهم عند ما رأوا أن « خياطا » كان قد ذهب الى لندن حيث أحضر معه بعض الاقمشة ثم عاد فظهرت عليه وعلى أهل بيته أعراض الطاعون وماهى الا عشية أو ضحاها حتى فارقوا الحياة !

أجل لقد كان هذا من الامثلة التى ظهر فيها هذا الوباء بأبشع وأفظع مظاهره فاشتد كرب الناس وهولهم وجزعهم وكادوا من النجاة ييأسون

وكان قسيس القرية وهو « الأب وليم «ومبسن » لم يزل شابا وقد تزوج منذ سنين قلائل أى قبل تعيينه قسيسا بزمن قصير وكانت زوجته وهى فتاة بديعة الجمال فتانة المحاسن خفيفة الروح بهية الطلعة لا تبلغ من العمر الا ستا وعشرين سنة وقد راعتها أخبار الطاعون وزاد هولها موت الخياط وأسرته فى يوم واحد فتوسلت الى زوجها أن يرحل بها وبولديهما الصغيرين جورج وكان فى الثالثة من عمره واليصابات وكانت فى الرابعة الى مكان بعيد يأمنون فيه هذا البلاء المداهم

غير أن « مومبسون» أراها أنه ليس فى استطاعته ترك شعبه فى وقت الضيق ونزول البلاء وهم فى أشد الحاجة اليه . ثم بدأ منذ تلك الساعة يعد المعدات لارسالها هى وطفليها الى مكان أمين . الا أنها بعد تبصر وروية رأت أن الواجب لم يكن يقضى عليها أن تطلب منه الابتعاد وترك هؤلاء الناس وهم فى حاجة

اليه لذلك كفت عن طلبها ورجته ثانيا أن يبقيها معه وأظهرت له عدم الرغبة فى مفارقته مهما كان فى الامر

ورأى رغبتها فى البقاء فألح عليها بالسفر وحاول أن يقنعها فلم يفلح وضاعت توسلاته اليها عبثا . فاتفقا أخيرا على ابعاد الطفلين فقط

وودعت الوالدة والوالد طفليهما وداع من ليس له أمل فى اللقاء وعادا بعد أن استودعاهما الله. وفى نفس ذلك اليوم كتب المستر مومبسون الى لندره يطلب أنجع الادوية وأنفع العقاقير كما أنه حرر كتابا الى «ارل أوف ديفونشير»[1] فى «شاتسورث»[2] يقول فيه بأنه أوصى شعبه ألا يتعدى حدود القرية وألا يذهب الى أية جهة من الجهات المجاورة خوفا من انتشار الوباء وبذلك ينحصر المرض فى جهة واحدة ويكون من السهل عمل الحيطة اللازمة للتخلص منه على شريطة أن يقوم ذلك الرجل بارسال كل ما يلزم لهم من مؤن وأدوية وعقاقير وغير ذلك

وقد وافق «ارل أوف ديفونشير» على ذلك .فكان يرسل رجاله بما يلزم من طعام وشراب أو غيرهما الى مكان معين متفق

---

(١) ارل « Earl » هو لقب الرتبة الثانية بين أمراء الانكليز وديفونشير مقاطعة فى انجلترا

(٢) جهة فى هذه المقاطعة

عليه فيضعون ما معهم ثم يبتعدون واذ ذاك يأتى أهل « ايام » فيضعون ثمن هذه البضائع على حجر فى تلك الجهة ثم يحملونها الى بلدهم

وقد كانت هذه هي الطريقة التى اتبعوها خوفا من انتشار العدوى اذا اختلط الفريقان . واذا شاءوا شيئا جديدا كتب المستر مومبسون خطابا وأعطاه لاحد من القرية فيذهب الى ذلك الحجر حيث يضعه ثم يعود فيأتى أحد رجال « الارل » ويتناول الخطاب بشيء فيطهره بالمطهرات قبل مسكه أو فتحه وما زال الامر كذلك سبعة شهور كاملة

وقد خطب المستر مومبسون فى رجاله قائلا : ان من القسوة والجحود بل من التوحش ان ينتقل مريض منهم الى جهة من الجهات فيبذر فيها بذور هذا المرض الخبيث السريع الانتشار وانه لايحسن بهم أن يحاولوا الرحيل الى القرى المجاورة لهم خوفا مما عساه أن يحصل

ولقد ضاقت بهم قريتهم وأصبحت كأنها سجن مظلم يقاسون فيه أنواع العذاب ويتحملون الشقاء والبلاء فكنت تراهم يرضخون للنصح وهم متألمون متذمرون ولو صحت عزيمتهم على مهاجرة قريتهم والابتعاد عنها لما كان فى طاقة فصيلة عظيمة من الجند منعهم أو ردهم أو التغلب عليهم

وكان تأثير المستر مومبسون عليهم عظيما فمع عدم رضاهم

عن البقاء رضخوا الى أوامره وأصغوا الى كلماته وعملوا بارشاداته فلم يكن أحـد منهم ليخالفه فيبرح القرية . لذلك لم تحدث أية اصابة بالطاعون فى قرية من القرى المجاورة لهم

وسمع المستر مومبسون أن اجتماع الطوائف العظيمة والجماهير الكبيرة فى الكنائس كان سبباً فى زيادة انتشار المرض فى لندره لذلك رأى هو أن يقوم بمهمته الدينية وغيرها خارج القرية

وكانت هناك هوة لا يزيد اتساع قاعها عن خمس ياردات وهى مما تركه لهم مطر الشتاء غير أنها كانت جافة فى الصيف . وفى جانب الهوة الذى فى مواجهة القرية كنت ترى الحشائش النضرة الجميلة وأشجار البندق والدردار والنبق والحور كلها على شكل غابة صغيرة حسنة المنظر بديعة التنسيق . تغرد فيها الطيور المختلفة تغريدها الشجى المطرب فتبعث فى النفس سروراً وانشراحاً . أما الجانب الآخر فكان عمودياً تقريبا مركبا من أحجار وصخور يظللها شجر اللبلاب البرى . . . وكان أحد هذه الصخور مجوفا من قمته فاتخذه المستر مومبسون كقمطر له يضع فيه كتبه وما أشبه ومنبراً للخطابة والوعظ والارشاد

وكانت تلك الحفرة ضيقة حتى أن المصلين كانوا يسمعون صوته ظاهراً جليا وهم بين يديه جالسون أو راكعون على الحشيش الاخضر

وكان الانسان فى أيام الاربعاء والجمعة والاحد يسمع

أصوات الدعاء والابتهال ونشيد الصلوات . كلها تنبعث من تلك الحفرة الصغيرة الجميلة . وكان مومبسون يكرر لهم الوعظ والارشاد فى أيام الآحاد ناصحا لهم ألا يقنطوا من رحمة ربهم فانها وسعت كل شىء

ولم يقتصر عمل هذا الواعظ العظيم على ذلك فقط فقد كان يخرج بهم الى تل قريب تغطيه الاعشاب البرية النضرة ذات الروائح العطرة وهناك يقرأ لهم عن البعث والنشور والحساب والنعيم . وهكذا كان يقودهم من الهوة الى التل ومن التل الى القرية حتى لا تسأم نفوسهم الاقامة فى مكان واحد

***

وكان مومبسون الشفيق العظيم وزوجته الكريمة الرحيمة لا ينفكان ليلا ولا نهاراً عن مواساة المرضى وتسليتهم والعطف عليهم وبذل ما فوق الطاقة فى سبيل حصولهم على الراحة والطمأنينة

وبالرغم مما كانا يبذلانه من الهمة والعناية كما تقدم فقد كان الخمس من سكان القرية فقط هو القادر على الذهاب الى كنيستهم أو بعبارة أوضح الى تلك الحفرة الجميلة التى أهدتهم الطبيعة اياها

***

ومرضت زوجة المستر مومبسون بعد بضعة أيام بالطاعون واشتد عليها المرض حتى اضمحل جسمها وضعفت بنيتها وذبل

غصن قوامها النضير وكانت تعتريها فى بعض الاحيان أدوار شديدة تهذى فيها وتغيب عن الوجود

وكانت كثيراً ما ترفض تعاطى الدواء لانها أصبحت خائرة القوى ضعيفة حتى على الجلوس أو الاضطجاع لتناوله وكان زوجها يتوسل اليها أن تتعاطاه مذكراً اياها بطفليها المحبوبين الصغيرين فكانت تجهد نفسها عند سماعها ذكر ولديها وتتناول منه القدر المطلوب

وقضت على فراش المرض وقتا ليس بالقصير وكان كلما سألها أحد عن حالتها وما تشعر به لا تجيبه الا بقولها انها انما تنتظر ساعتها الاخيرة لتقابل ربها الرءوف الرحيم

واختطفتها يد المنون وهى هادئة ساكنة تردد صلوات زوجها المسكين الذى كان راكعا بالقرب منها

ولا يخفى ما انتاب ذلك المنكود الحظ اذ ذاك من حزن عميق وأسى أليم غير أنه تشجع لايمانه ووثوقه بربه ودفنها فى مقبرة القرية وعمل على قبرها سوراً من حديد

أملى فؤاده الكليم وقلبه الحزين على قلمه خطابين يتضمنان موت قرينته ووصف حالته بعدها . أحدهما لولديه وأوصى أن لا يفتح أو يقرأ الا اذا شبا وترعرعا وبلغا مبلغ الرجال. والثانى الى أسقفه « السير جورج سافيل » الذى أصبح بعدئذ « لورد

«هاليفاكس»

وقد كتب هذين الخطابين واثقا ومعتقداً انه سيلحق بهما
عما قريب موصيا السير جورج بولديه اللذين سيصبحان بعده
يتيمين لا عائل لهما ولا ناصر ولا معين

قال فى خطابه الى ذلك الرجل التقى العظيم

سيدى

انى أحمد الله وأشكره حيث جعلنى على قاب قوسين أو أدنى
من وداع هذه الحياة المملوءة بالاتعاب والاكدار . وان لى
لأملا عظيما فى انه سينزلنى منزل صدق وسيجعلنى عنده
مقربا مقبولا . فان نعمه لا تحصى ولا يمكن أن تستقصى. لقد
كادت تذهب آمالى أو ينقص ايمانى بموت هذه المخلوقة التى كانت
تسليتى فى هذه الحياة المملوءة بالاكدار والاحزان . وانى
لاستحيى الله أن أمد يدى الى هذه النفس التى أودعها بيده بين
جنبى فأنتزعها من مكانها وألقى بها ساخطا متذمراً . لذلك أسأله
تعالى وأنا به مؤمن وبعفوه مصدق أن يمد يده اليها ويسترد
وديعته اليه وينقلها الى دار كرمه كما نقل روح قرينتى من قبل
فنعمت الدار داره ونعم الجوار جواره

وقد اختتم خطابه بكلمات تحرك الجماد وتلين الصخر الاصم
قائلا :

وانى أتوسل اليك أيها السيد الجليل أن لا تنسى طفلى

الصغيرين المسكينين عند ما تتلو دعواتك وتصلى لاجل اليتامى الذين قضى عليهم الحظ بأن يعيشوا بعيدين عن الحب الوالدى

وقد كان فراغه من تحرير هذين الخطابين فى آخر يوم من شهر اغسطس وأول يوم من شهر سبتمبر سنة ١٦٦٦

وفى اليوم العشرين من هذا الشهر حرر خطابا آخر الى عمه يقول ان حالة قريتنا مريعة جدا لا يمكن أن يتصورها الانسان وفظيعة لدرجة لم يدل التاريخ على وجود مثلها فى زمن من الازمان . أجل فانها عبارة عن معرض لجثث الموتى الذين يحصدهم الطاعون حصداً بالعشرات والمئات فى كل يوم . اننا نكاد نكون كأهل « سوروم وجموره » [١] . . . ان أذنى لم تسمع فى حياتها مثل ما تسمع اليوم من بكاء ونحيب وكلمات محزنة تفتت الاكباد . ولم يشم أنفى رائحة هي أكره وأنتن مما يشم الآن ولم تقع عينى على أبشع وأفظع مما تراه فى هذه الايام . هنا كان بالقرية ست وسبعون أسرة مات منها فى أيام قلائل مائتان وتسعة وخمسون شخصا

***

ولم تطرأ طوارىء جديدة الى الحادى عشر من شهر اكتوبر

---

(١) مدينتان فى السهل الواقع شمالى بحر لوط «البحر الميت» وقد دمرتا تدميراً فى زمن البطريارك ابراهام نظرا لخبث أهلها وشرورهم وارتكابهم المعاصى والآثام

وكان هم المستر مومبسون حرق جميع الملابس الصوفية مخافة أن تزيد فى انتشار المرض . وقد قدر الله تعالى أن لا يصاب هـذا الرجل الـكريم ولا خادمته بهـذا الداء المعدى أما خادمه فقد أصابه انما بدرجة خفيفة لا يخاف منها

وقد عاش المستر مومبسون بعـد تلاشى هـذا المرض عدة سنين ثم عرضت عليه بعد ذلك «وظيفة ثانى أسقف» فى لنكولن غير أنه رفضها . ولبى نداء ربه فى سنة ١٧٠٩ ميلادية بعد هذه الحياة التى اختتمت بالاحزان والاكدار انمـا كللتها أعماله الذهبية المجيدة

***

وكان خمسة من العمال فى سـنة ١٧٥٧ يحفرون أرضا قرب قبور « موتى الطاعون » واذا بهـم قد عثروا على بعض أقمشة اكفانهم. ومع أنهم أسرعوا كل الاسراع فى دفنها ثانية الا أن ذلك لم يمنع من وقوعهم جميعا فى شراك المرض وقد مات ثلاثة منهم . وانتشر المرض مرة أخرى فلم يصب به أقل من سـبعين شخصا كلهم قابلوا ربهم بعد حين

النظام

ليس فى الوجود من فرصة ترى الناس مثلا حياً من أمثلة الطاعة والتسليم والاذعان للواجب وعدم الاستئثار بالمنفعة والانانية أكثر من ساعة القنوط واليأس وانقطاع الرجاء عند غرق سفينة وسط الاوقيانوس حيث لا سبيل للنجاة ولا مفر من الموت الزؤام . . فهنا تتجلى آية الانقياد أو العصيان وهنا يظهر حب النفس طلباً للنجاة أو تضحيتها فى سبيل انقاذ الضعفاء ممن لا حول لهم ولا قوة فى تلك الساعة الرهيبة .

* * *

فلنتخذ مثلا حادث الباخرة «أتلانتى» عندما ضلت فى ضباب كثيف على ساحل نوفاسكوشيا وقد خدعتها سفينة أخرى بما اطلقته من المدافع الى ان رماها سوء الطالع فى احضان الصخور والاحجار فاصطدمت بها وتحطمت .

ولما رأى من كان فيها ما حل بها لم يسع عدد عديد منهم الا الوثوب الى زورق النجاة .

ورأى القبطان ان الزورق لايمكن ان يسير وعليه ذلك الحمل الثقيل فلم يسعه الا ان أمر عشرين من الرجال بالنزول منه . وسرعان ما صدعوا بالامر دون تذمر أو تضجر ، نزلوا وهم يهتفون هتافاً غابت معه اصوات تلك الاخشاب المتكسرة

وما كاد يخف حمل الزورق حتى سار فى طريقه غير انه ما لبث ان انقلب فصار عاليه سافله ولـكن البحارة لم ييأسوا ولم يضع جلدهم أو تنفد شجاعتهم بل عملوا جهدهم على ارجاعه كما كان دون ان يفقدوا منهم فرداً ثم بلغوا بعدئذ سلسلة من الصخور تصد هجمات الامواج الطاغية انتظارا للقبطان «هكى» وباقى رفاقهم الذين كانوا متعلقين ببقايا اخشاب المركب

وكان هناك قاربان صغيران جدا لا يمكن ان يسعا ذلك العدد الباقى من الركاب . وقد حاولوا ان يصنعوا رمثاً [1] غير ان تلاطم الامواج وهياج البحر وسوء الحال — كل ذلك حال دون ارادتهم وما زال الناس يفدون زمرة تلو زمرة بواسطة القاربين الصغيرين حتى اذا ما بلغوا الصخر نزلوا عنده الى ان بقى القبطان بمفرده رغماً عن الحاح كثير من الضباط عليه بان يتقدمهم ، ولـكن نفسه لم تسمح بأن يذهب فى مقدمة الناجين وابت عليه شهامته ومروءته الا ان يراهم اولا سالمين

وما كاد ذلك القبطان البطل يضع رجله فى القارب وهو ناظر الى سفينته نظرة الوداع الاخيرة حتى غاص آخر أثر منها بين تهليل البحارة وتحيات الضباط .

(١) الرمث بفتح الراء والميم قارب يصنع من الواح متفرقة تشد بالحبال

ولم ينج من متاع السفينة الا « دليل القبطان » وكان قد استخلصه لنفسه عند ماشعر بالخطر وكذلك الساعة التى كان حفظها والعناية بها منوطان بكاتب سر القبطان فيمسكها فى يده عند اطلاق مدافع السفينة أو عند حدوث اى اهتزاز مخافة أن تفسد عددها وآلاتها

ولقد جرى ذلك الكاتب المسكين على ظهر السفينة عند ماشعر بالخطر المحدق ولكن نظراً لعجزه عن السباحة لم ير خيراً له من ان يتسلق «الصارى» الخلفى وما زال كذلك حتى فتح البحر فاه للسفينة فابتلعها وكاد يتبعها هو كذلك لولا أن تداركه البحارة فرموا اليه بحبل أمسكه فجروه . كل ذلك وهو قابض على الساعة محافظ عليها محافظته على اعز شىء لديه

وكذلك كان مع اهل ذلك المركب عبد أسود معه آلة طرب وهو معتز بها محافظ عليها فلما غلبه الموج على أمره وكاد يزهق روحه اضطر ان يتركها طعمة لذلك الموج الطاغي بالرغم منه وهو ينظر اليها نظر المتحسر الحزين بين سخرية اخوانه واستهزاء اقرانه .

ولم يكن بين هؤلاء الناس من يملك بذلة كاملة من الملابس الا صف ضابط اسمه « صموئيل شانكس » ممن يباشرون قيادة السفينة وما يلزم لانارتها وغير ذلك لم يعبأ بكل ماحدث كأنما هو قد خلق وسط المعامع وأوجدته الظروف كل يوم

في مركب يتحطم فلم يخلع حتى ولا قبعتــه الا حين أوشكت السفينة ان تغيب تحت مياه البحر ليحييها التحية الاخيرة

ولقــد تذكر ان معه «بوصلة» صغيرة مــدلاة فى سلسلة ساعته فناولها للقبطان فـكانت هى والســاعة التى كانت عهدة الـكاتب معوانا لهم على معرفــة الطريق وهاديا يهتدون به الى الميناء .

ولم يمض غير ساعات قلائل حتى بلغوا مدينة « هالفاكس » عاصمة نوفاسكوشيا احدى اقسام كندا من اعمال امريـكا الشمالية فنزلوا فى احــدي محطات صيد السمك حيث قدم لهــم الدفء والطعام

وبعد ان استراحوا ردحاً من الزمن طلب القبطان من أهل البر والاحسان ان يمدوه «بالقوارب» اللازمة لنقل الذين انهكهم التعب وتولى عليهم الرعب وذهب الحــادث بروعهــم . ثم أمر الباقين بالسير على اقدامهم الى مــكان معين فى المدينــة . حتى اذا ما خيم الظلام اجتمع كل رجال السفينة فى حيز واحد وبنظام مدهش لم يغب منهم فرد ولم يفقد احــد وكأنه لم يحدث لهــم حادث ولم يقع لهم أمر .

فانظر بأبيك الى ما أدى اليه اتباع النظام واطاعة الاوامر والتمسك بأهداب الامل حتى فى ساعة الخطــر الشــديد الذى يستدعى اليأس والقنوط

كذلك ليس يغيب عن البال تلك الحادثة التاريخية التى
كانت اطاعة الامر فيها داعيا الى تضحية النفس عن رضاءورغبة
في سبيل انقاذ قوم ضعفاء لا حول لهم ولا قوة

وتفصيل ذلك ان البارجة «بركنهد» التى كانت تستخدمها
الحكومة الانجليزية فى نقل الجنود والمؤن والذخائر الحربية
كانت ميممة صوب خليج «الجوا» الواقع على سواحل افريقيا
الجنوبية على بعد اربعمائة وخمسة وعشرين ميلا شرق مدينة
الرأس وعليها من المسافرين ستمائة وثلاثون منهم مائة واثنان
وثلاثون هم بحارتها والباقون من الجنود وازواجهم وأولادهم

وفى حلك الليل وظلامه الدامس بين ليلتى الخامس والعشرين
والسادس والعشرين من شهر فبراير عام ١٨٢٥ اصطدمت الباخره
بصخر بارز من الساحل الافريقي

وكانت البارجة تسير بسرعة مدهشة جعلت ذلك الاصطدام
شديدا مريعاً لا أمل بعده فى اصلاحها ونجاتها

ولم يكد الضباط والبحارة يشعرون بتلك الصدمة الهائلة
حتى اسرعوا بالصعود الى ظهر البارجة حيث التقوا « بالقائمقام
ستون » الذى أمر الضباط بأن يحفظوا النظام بين جميع الموجودين
ويأمرونهم بالسكوت والطاعة

ثم صدرت الاوامر بعدئذ الى ستين منهم بادارة الآلات التى
ترفع المياه والى غيرهم باعداد قوارب النجاة والى آخرين بطرح

الخيل فى الماء تخفيفا لحمل البارجة . وهكذا وزع العمل بين جميع الرجال

فكنت ترى الجميع يعملون وهم سكوت على جانب عظيم من الثبات والسكينة لاتذمر ولاشكوى ولاصراخ . وقد أنزلوا فى ثلاثة من قوارب النجاة الصغيرة عددا من النساء والاطفال أما القاربان الكبيران فقد سقط أحدهما وابتلعته الامواج ووقعت « المدخنة » على الثانى فاحرقته

وما كادت قوارب النجاة تبتعد قليلا عن البارجة حتى سمع دوى مروع هو صوت انشقاقها شطرين شطر غاص فى لجة المحيط والآخر وثب عليه الرجال فصار يرقص بهم كما كانت ترقص قلوبهم خوفا وهلعاً

ولم يسع قبطان البارجة فى تلك اللحظة الرهيبة الا ان يصدر امره الى كل رجاله ان يطرحوا انفسهم فى اليم مجدين فى السباحة ليلحقوا بالقوارب فيركبوها مع النساء والاطفال

الا ان القائمقام ستون ما كاد يسمع ذلك الامر الغريب حتى صاح بأعلى صوته قائلا : قفوا ولا تفعلوا ايها الرجال والا اغرقتم القوارب بمن عليها

فوقف الرجال سكوتا ينتظرون موتا زؤاماً محققاً لا ريب فيه . وقد آثروه على ان يعرضوا النساء والاطفال لخطر الغرق ! ! !

ولم يكن هناك فرق فى الشجاعة والبسالة والاستسلام لقضاء الله وقدره واطاعة اوامر الرؤساء المخلصين بين الضباط والجنود والبحارة على السواء

ولم تمض الا دقائق معدودات حتى كان أولئك الابطال الكرام بين غارق فى لجج المحيط لسابح متعلق باهداب الامل لقابض على لوح من ألواح البارجة وهو مستسلم لما يأتى به القدر

وعادت القوارب بعد نقل النساء والاطفال الى الشاطىء الذى لم يكن يبعد غير ميلين وصارت تنقذ كل من ظل طافياً على وجه الماء حتى اصبح الصباح فجاءت سفينة ذات شراعين وانقذت أربعين كانوا ما زالوا يجاهدون فى سبيل النجاة وهم على حال لا يقوى القلم على وصفها من التعب واليأس والذعر

وقد استطاع بعض الرجال والخيل السباحة فوصل الى الشاطىء سالما حين أن الاسماك الكبيرة ووحوش البحر ابتلعت عددا ليس بالقليل

وكان عدد من نجا من تلك الفاجعة مائة واثنين وتسعين فرداً . اما الذين ادركتهم المنية فقد خلفوا وراءهم فخراً لا يزول ومجداً يبقى الى ما شاء الله وذكراً يدوم الى يوم يبعثون .

تحية المعربين

لأبطال الأعمال الذهبية

سلام سلام وألف سلام ... على الاكرمين دعاة السلام
أناس قضوا عيشهم فى عناء ... لخير البلاد ونفع الانام
ولم يرهبوا الخطب لما دهاهم ... ولم يفزعوا عند موت زؤام
وكم خلدوا فى الورى مكرمات ... وضحوا حياة لنيل المرام
وكم قدموا من أمور عظام ... وكم جاهدوا فى سبيل الوئام
وكم كان منهم فتاة كعوب ... هى البدر يمحو جيوش الظلام
فتاة تربت بمهد الدلال ... وما روعت بالصروف الجسام
ولم تمد يوماً عليها خطوب ... ولم يرمها بالاساءات رام
ولكن تجلت بقلب الشجاع ... وبأس الكمى وعزم الهمام
أماطت عن الوجه منها لثاماً ... وأردت ليوثاً بحد الحسام
وضحت نعيما وباعت حياة ... كما استعذبت شرب كأس الحمام
لتحمى بلاداً بها قد تربت ... وشبت على حبها والغرام
وكم كان منهم فتى مستهام ... بحب المعالى ورعي الذمام
فتى فى الكريهة ليس هصور ... يريك العجائب يوم الزحام

فضحى الحياة كذلك طوعا فـداء لحب ذويه الـكرام
وكم من رجال عظام تحـلوا بـكل كمال وكل احتشـام
ولم يرتضـوا بالدنايا طباعا فعافوا الدنايا وفعـل اللئام
وقد آثروا العيش بين السجون على العيش فى ذلة أو مـلام

***

أولئـك قـوم كرام عظـام وأنعم بهـم من كرام عظام
هنيئاً لـكم يا رجال المعالى ويا من سموتم الى كل هام
لـكم كل مجد لـكم كل فخر وكل ثناء وكـل احـترام
وفى جنـة الخلد دار أعدت لـكم لتقيموا بها فى سـلام
وتحظوا من الله بالمـكرمات وبالصـالحات وحسن الختام

الكمال لله وحده

وقع في بعض نسخ هذا الكتاب بعض أغلاط مطبعية رغماً عما بذل من الجهد في التصحيح والتنقيح . فرأينا أن نبين الصواب فيما يلي راجين القارىء الكريم أن يكتب بيده تصحيح ذلك الخطأ قبل البدء فى تلاوة الكتاب حتى لا تلتبس المعانى ولا تضيع الفائدة : —

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٩	دففت	دفنت
١٠	١١	وخفف	وجفف
١١	٨	يقصى	يقضي
١١	١٠	الذهنى	الذهبى
١٢	١٢	وكلنا	وكانا
١٨	١٢	حسب	حب
١٩	٩	سكان الاترسكانيين	الاترسكانيين
٢٤	١٣	البلبيان	البربريون
٢٨	٧	ورداءه	ورداثه
٢٨	١٩	قائد	قائداً
٣١	٢١	لاسم	الاسم
٣٢	١٦	واذا	اذا
٣٥	١٧	حتى انهم ما كادوا	وما كادوا
٣٦	١٨	لا ان	الا ان .

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٨	٧	الهو جس	الهواجس
٤٣	٤	ممطين	ممتطين
٤٦	٦	ا لها	أهلها
٤٧	٦	طعاما فاخرا	طعام فاخر
٤٩	١	جنيها انجليزيا	جنيه انجليزى
٥٢	٤	مائة وأربعون	مائة وأربعين
٥٤	٢	ان يريد يتوجه	ان يتوجه
٥٤	٣	على انه	على انه يريد
٥٧	٥	اعرجا	اعرج
٥٩	١	قبلب	اقبلت
٥٩	٦	برؤيا	برؤية
٦١	١٢	ينس	ينسى
٦٧	٩	ان ارض	ان أرضى
٧٧	٨	مدافمهم	مدافعهم
٧٧	٢١	امراء	الامراء
٨١	٣	من منذ	منذ
٨٣	١١	كاجر لها	أجراً لها
٨٨	١٨	ان تنس	ان تنسى
٨٩	١١	وهى احر	وهي على أحر
٩٠	٤	المكتشفين	الكاشفين

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٩٥	١٥	أمرها شريرة	أمرهاوظنوهاشريرة
٩٩	٨	فلو انت	فلو انك
١٠٠	٦	يحلها	يحلنها
١٠٠	١٥	القشاى	القاسى
١٠٤	٢٠	ينتشاها	يفتشانها
١٠٧	٣	مبكراً	مبكرة
١٠٧	١٦	فهو	هو
١١٣	١٩	من الميت	من المبيت
١١٨	١١	ومضى	وقضى
١١٨	١٨	برؤيا	برؤية
١٢٤	١٨	الصميرين	الصغيران
١٢٧	٣	عجيب	عجيبا
١٢٨	٢٠	حيائه	حياته
١٣٣	١٠	بالاجر	بالآجر
١٣٤	٧	وعشرون	وعشرين
١٣٦	٥	للمحارين	للمحاربين
١٤١	١	كسوق	سوق
١٤٤	٧	معكرا	معكر
١٤٤	٢٠	درجتين	طبقتين

كتاب

اعلام الناس

بما وقع للبرامكة مع بنى العباس

تأليف الامام الفاضل والهمام الكامل محمد
المعروف بدياب الاتليدى رحمه الله
تعالى والمسلمين ونفعنا
به وبعلومه آمين

﴿ طبع على نفقة ﴾
المكتبة السعيدية
لصاحبيها سعيد على الخصوصى وولده « عبد الخالق »
بشارع الصنادقية بجوار الازهر الشريف بالقاهرة

المطبعه اليوسفيه بباب الخلق بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله)الذى أنزل الكتاب المبين . على أشرف الأنبياء والمرسلين . وقص عليه أخبار المتقدمين والمتاخرين . وعلمه ما كان ومايكون الى يوم الدين . نحمده اذ جعلنا من امته . ونشكره على عطائه ومننه . ونشهد ان لا اله الا الله هو وحده لا شريك له اذمن علينا بمعرفة أحوال من مضى من الامم . ولم يكشف عنا ستره اذازل بنا القدم .وجعلنا أمة عدولا وسطا وشهدلنا بذلك فى الكتاب المعظم المكرم. فقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فظهر الفضل بما جاء به وتكرم . ونشهد ان سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله الذى قال . أدبنى ربى فاحسن تاديبى . فساد على جميع الانبياء وعليهم تقدم . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم (وبعد)فيقول العبد الفقير الضعيف ذو العجز والتفريط فى أيامه . وكثير التخليط وزيادة آثامه . محمد المعروف بدياب الاتليدى من إقليم المنية الخصيبة . سالنى بعض الاخوان الموفقين ممن لا يسعنى مخالفته أن أجمع له شيئا مما وقع فى زمن الخلفاء المتقدمين من بنى امية والخلفاء العباسيين فاجبته لذلك مع علمى انى لست اهلا لذلك فقد قالوا الامتثال خير من الادب وسميته (إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس)وابتدأت فى ذلك بامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تبركا به وذكره (قيل) لما رجع عمر رضى الله عنه من الشام الى المدينة انفرد عن الناس ليتعرف اخبار رعيته فمر بعجوز فى خباءلها فقصدها فقالت . مافعل عمر رضى الله عنه قال قد اقبل من الشام سالما فقالت ياهذا لاجزاه الله خيرا عنى قال ولم قالت لانه ما انالنى من عطائه منذ ولى امر المسلمين ديناراً ولا درهما فقال وما يدرى عمر بحالك وانت فى هذا الموضع فقالت سبحان الله والله ماظننت ان أحداً يلى على الناس ولا يدرى مابين مشرقها ومغربها فبكى عمر رضى الله عنه فقال واعمراه كل احد افقه منك حتى العجائز ياعمر ثم قال لها ياامة الله بكم تبيعينى ظلامتك من عمر فانى ارحمه من النار فقالت لاتهزأبنا يرحمك الله فقال عمر لست أهزأ بك ولم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً فبينما هو كذلك اذ اقبل على بن أبى

طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما فقالا السلام عليك يا امير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على راسها وقالت واسوأتاه شتمت امير المؤمنين فى وجهه فقال لها عمر لاباس عليك يرحمك الله ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها . بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى الخلافة الى يوم كذا بخمسة وعشرين دينارا فما تدعى عليه عند وقوفه فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر برىء منه شهد على ذلك على وابن مسعود ثم دفعها الى ولده وقال له اذا انامت فاجعلها فى كفنى التى بها ربى (وقال) شرف الدين حسين بن ريان . انه بينما امير المؤمنين عمر بن الخطاب جالس فى بعض الايام وعنده اكابر الصحابه . واهل الراى والاصابة . اذاقبل شاب نظيف الاثواب يكتنفه شابان من احسن الشبان نظيفا الثياب قد جذباه وسحباه واوقفاه بين يدى امير المؤمنين ولبباه : فلما وقفوا بين يديه نظر اليهما فامرهما بالكف عنه فادنياه منه وقالا ياامير المؤمنين نحن اخوان شقيقان . جديران باتباع الحق حقيقان . كان لنا اب شيخ كبير حسن التدبير معظم فى قبائله . منزه عن الرذائل معروف بفضائله . ربانا صغارا واعزنا كبارا واولانا نعما غزارا كما قيل

لنا والد لو كان للناس مثله   اب آخر اغنا غموا بالمناقب

خرج اليوم الى حديقة له يتنزه فى اشجارها . ويقطع يانع ثمارها . لقتله هذا الشاب وعدل عن طريق الصواب . ونسالك القصاص بما جناه . والحكم فيه بما اراك الله فنظر عمر الى الشاب وقال له . سمعت فا الجواب والغلام مع ذلك ثابت الجاش . خال من الاستيحاش قد خلع ثياب الهلع . ونزع جلباب الجزع . فتبسم عن مثل الجمان . وتكلم بافصح لسان . ثم قال . ياامير المؤمنين والله لقد وعيا . ما ادعيا وصدقا . فيما نطقا . وخبرا بما جرى . وعبرا بما ترى . وسانهى قصتى بين يديك . والأمر فيها اليك . اعلم ياامير المؤمنين انى من العرب العرباء ابيت فى منازل الباديه واصبح على اسود السنين العادية . فاقبلت الى ظاهر هذا البلد بالأهل والمال والولد فامضت بى بعض طرائقها . الى المسير بين حدائقها . بنياق حبيبات عزيزات على . بينهن فحل كريم الاصل ، كثير النسل . مليح الشكل . حسن النتاج . يمشى بينهن كانه ملك عليه تاج : فدنت بعض النوق الى حديقة قد ظهر من الحائط شجرها

فتناولته بمشفرها ، فطردتها عن تلك الحديقة فاذا شيخ قد زجر وزفر ، وتسور الحائط وظهر ، وفي يده اليمنى حجر . يتهادى كالليث اذا خطر . فضرب الفحل بذلك الحجر فقتله . وأصاب مقتله . فلما رايت الفحل قدسقط ولجنبه انقلب . توقدت في جمرات الغضب . فتناولت ذلك الحجر بعينه . فضربته به فكان سبب حينه . ولاقى سوء منقلبه . والمرء مقتول بما قتل به ، بعد ان صاح صيحة عظيمة . وصرخ صرخة أليمة ، فاسرعت من مكاني . فلم يكن باسرع من هذين الشابين فامسكاني واحضراني كما تراني . فقال عمر : قد اعترفت : بما اقترفت ، وتعذر الخلاص . ووجب القصاص : ولات حين مناص : فقال الشاب . سمعا لما حكم به الامام ورضيت بما اقتضته شريعة الاسلام . لكن لي اخ صغير ، كان له اب كبير : خصه قبل وفاته بمال جزيل : أو ذهب جليل . واحضره بين يدي : وأسلم امره الى : وأشهد الله علي : وقال هذا لأخيك عندك : فاحفظه بجهدك . فاتخذت لذلك مدفنا ووضعته فيه ولا يعلم به الا انا . فان حكمت الان بقتلي ذهب الذهب ، وكنت أنت السبب . وطالبك الصغير بحقه يوم يقتضي الله بين خلقه . وان انتظرتني ثلاثة ايام . اقمت من يتولى امر الغلام . وعدت وافيا بالذمام . ولي من يضمني على هذا الكلام . فاطرق عمر ، ثم نظر الى من حضر . وقال من يقول على ضمانة . والعود الى مكانه . قال فنظر الغلام الى وجوه اهل المجلس الناظرين . واشار الى ابي ذر دون الحاضرين . قال هذا يكفاني ويضمنني قال عمر . يا ابا ذر تضمنه على هذا الكلام : قال نعم اضمنه ثلاثة ايام . فرضي الشابان بضمان ابي ذر . وانظراه بذلك القدر . فلما انقضت مدة الامهال . وكاد وقتها يزول او قد زال حضر الشابان الى مجلس عمر والصحابة حوله كالنجوم حول القمر وابو ذر قد حضر . والخصم ينتظر فقالا اين الغريم يا ابا ذر كيف يرجع من فر لا نبرح من مكاننا حتى تفي بضماننا فقال ابو ذر وحق الملك العلام ان انقضى تمام الايام ولم يحضر الغلام وفيت الضمان واسلمت نفسي وبالله . المستعان فقال عمر والله ان تاخر الغلام لامضين في ابي ذر ما اقتضته شريعة الاسلام فهمت عبرات الناظرين اليه وعلت زفرات الحاضرين عليه وعظم الضجيج . وتزايد النشيج . فعرض كبار الصحابة على الشابين اخذ الدية واغتنام الاثنية فاصرا على عدم القبول . وابيا الا الاخذ بثار المقتول ،

فبينا الناس يموجون تلهفا لما مر . ويضجون تاسفاً على ابى ذر . اذ اقبل الغلام . ووقف بين يدى الامام وسلم عليه اتم السلام . ووجهه يتهلل مشرقا . وقال قد اسلمت الصبي الى اخواله . وعرفتهم بخفى امواله وأطلعتهم على مكان ماله . ثم اقتحمت هاجرات الحر وفيت وفاء الحر . فعجب الناس من صدقه و وفائه . وإقدامه على الموت واجترائه . فقال من عذر . لم يعف عنه من قدر . ومن فى رحمه الطالب وعفا وتحققت ان الموت اذا حضر لم ينج منه احتراس . كيلا يقال ذهب الوفاء من الناس فقال أبو ذر والله ياأمير المؤمنين لقد ضمنت هذا الغلام ولم أعرفه من أى قوم . ولا رأيته قبل ذلك اليوم . ولكن نظر الى دون من حضر . فقصدنى وقال هذا يضمننى . فلم أستحسن رده . وأبت المروءة ان تخيب قصده . فقال الشابان عند ذلك ياأمير المؤمنين قد وهبنا هذا الغلام دم أبينا . فاستبشر الامام . بالعفو عن الغلام . وصدقه و وفائه واستغزر مروءة أبى ذر دون جلسائه . واستحسن اعتماد الشابين فى اصطناع المعروف . وأثنى عليهما أحسن ثنائه . وتمثل بهذا البيت

من يصنع الخير لم يعدم جوائزه   لايذهب العرف بين الله والناس

ثم عرض عليهما ان يصرف من بيت المال دية ابيهما فقالا انما عفونا ابتغاء وجه ربنا الكريم ومن بيته هكذا . لايتبع احسانه مناً ولا اذى (واحضر) الهرمزان بين يدى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه مأسورا فدعاه الى الاسلام فأبى فأمر بضرب عنقه فقال ياامير المؤمنين قبل ان تقتلنى اسقنى شربة من الماء ولا تقتلنى ظمآن فأمر له عمر بقدح مملوء ماء فلما صار القدح فى يد الهرمزان قال انا آمن حتى اشربه قال نعم لك الامان حتى تشربه فألقى الهرمزان الاناء من يده فأراقه ثم قال الوفاء ياامير المؤمنين فقال عمر رضى الله عنه دعوه حتى انظر فى امره فلما رفع السيف عنه قال اشهد ان لااله الا الله وان محمدا رسول الله قال عمر لقد اسلمت فما اخرك قال خشيت ان يقال انى اسلمت خوفا من السيف فقال عمر انك لفارس حكيم استحقيت ما كنت فيه من الملك ثم ان عمر بعد ذلك كان يشاوره فى اخراج الجيوش الى ارض فارس ويعمل برايه اه * (ومما ذكر) عبد الملك بن بدرون شارح قصيدة عبد المجيد بن عبدون عما وقع لجبلة ابن الايهم حين لطم الفزارى على وجهه لما داس على ردائه وقال له عمر رضى الله عنه دعه يقتص منك

اوماهذا معناه فقال لعمر وهل استوى آنا وهو فى ذلك فقال له نعم الاسلام ساوى بينكما فقال اجلنى الى غد فلما اصبح مضى الى قيصر ملك الروم وارتد ثم ندم وقال

تنصرت الاشراف من اجل لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى منها لجاج ونخوة فبعت بها العين الصحيحة بالعور
فياليت امى لم تلدنى وليتنى رجعت الى الامر الذى قاله عمر
وياليت ارعى المخاض بقفرة وكنت اسيرا فى ربيعة اومضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

(ولما) تنصر جبلة بن الايهم ولحق بهرقل صاحب القسطنطينية أقطعه هرقل بالاموال والضياع ثم ان عمر رضى الله عنه بعث رسولا الى قيصر يدعوه الى الاسلام أو الجزية فلما أراد الانصراف قال هرقل للرسول ألقيت عمك يعنى جبلة الذى اتانا راغبا فى ديننا قال لا قال فالقه ثم ائتنى قال فذهب الى دارجبلة فاذا عليه من القهارمة والحجاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ماعلى على باب هرقل قال فلم أزل أتلطف بالاذن حتى اذن لى فدخلت عليه فرايته قاعد على سرير من قوارير على قوائمه أربعة اسود من ذهب فلما عرفنى رفعنى معه على السرير فجعل يسألنى عن المسلمين فذكرت له خيرا وقلت له قد أضعفوا اضعافا على ماتعرف قال وكيف تركت عمر ابن الخطاب فقلت بخير قال فرأيت الغم فى وجهه لما ذكرت من سلامة عمر ثم انحدرت عن السرير فقال لم تأبى الكرامة التى اكرمناك بها فقلت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا فقال نعم نهى صلى الله عليه وسلم ولكن نق قلبك ولا تبال على ماقعدت فلما سمعته يقول صلى الله عليه وسلم طمعت فيه فقلت ويحك ياجبلة ألا تسلم وقد عرفت الاسلام وفضله فقال أبعد ما كان منى قلت نعم قد فعل رجلا من فزارة اكثر مما فعلت ارتد عن الاسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم رجع الى الاسلام لان الرجل الذى كان تنصر جبلة من أجله لما لطمه وأراد عمر أن يقتص منه كان فزاريا أيضا فقلت له ان امرك اخف من امره ان رجعت الى الاسلام فانك لم تضرب وجوه المسلمين بالسيف كما فعل فقال ان كنت تضمن لى عمران يزوجنى ابنته ويولينى الامر من بعده رجعت الى الاسلام فضمنت له التزويج ولم اضمن له تولية الامر ثم أومأ الى خادم كان على رأسه واقفا فذهب مسرعا فاذا خدم قد جاؤا يحملون الصناديق

بها طعام فوضعت ونضبت موآئد الذهب وصحاف الفضة وقال لى كل فقبضت يدى وقلت رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الاكل فى آنية الذهب والفضة قال نعم نهى صلى الله عليه وسلم ولكن نق قلبك وكل فيما احببت قال فأكل فى الذهب واكلت انا فى الخلنج ثم دعا بطشوط الذهب واباريق الفضة فغسل يديه فى الذهب وغسلت فى الصفر ثم اومأ الى خادم بين يديه فمر مسرعا فسمعت حسا فاذا خدم معهم كراسى مرصعة بالجوهر فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن شماله ثم جاءت الجوارى وعليهن تيجان الذهب فقعدت عن يمينه وعن يساره على تلك الكراسى ثم جاءت جارية ايضا كانها الشمس حسنا على راسها تاج وعلى ذلك التاج طائر لم ار احسن منه وفى يدها جامة فيها مسك فتيت وفى يدها الاخرى جامة فيها ماء ورد فأومات تلك الجارية وصفرت بالطائر الذى على تاجها فوقع فى جامة المسك فاضطرب فيها ثم صفرت به ثانيا فوقع فى جامة ماء الورد فاضطرب فيها ثم اومات اليه فطار ثم نزل على صليب فى تاج على جبلة فلم يزل يرفرف حتى نفض ما فى ريشه عليه فضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت انيابه ثم التفت الى الجوارى اللواتى على يمينه فقال لهن اضحكننا فاندفعن يغنين فجعلن يخفقن عيدانهن ويقلن

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الاول

الى قوله أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهموا برد يصفق بالرحيق السلسل

فضحك جبلة ثم قال أتدرى من يقول هذا قلت لا قال حسان بن ثابت شاعر النبى ثم اشار الى الجوارى اللواتى عن يساره وقال ابكيننا فاندفعن يغنين ويخفقن عيدانهن ويقلن لمن الدار اقفرت بمعان بين أعلى اليرموك فالجمان

ذاك مغنى لال جفنة فى الدهر وحق تعاقب الازمان

قال فبكى جبلة حتى سال دمعه على لحيته ثم قال اتدرى من يقول هذا قلت لا قال حسان ثم انشد الابيات التى أولها * تنصرت الاشراف الى آخرها ثم سالنى عن حسان اخى هو قلت نعم فامر له بكسوة وانا ايضاً كذلك ثم امر لحسان بمال ونوق موقورة براً ثم قال لى ان وجدته حيا فادفع اليه الهدية واقرئه منى السلام وان وجدته ميتا فادفعها الى أهله وانحر النوق على قبره قال فلما اخبرت عمر رضى الله عنه بخبره

وما اشترطه على وما ضمنت له قال فهلا ضمنت له الأمرة فاذا أفاءالله بحكمه وقضى علينا بحكمته ما كان الا ما أراد ثم جهزنى ثانياً الى هرقل وأمرنى ان أضمن له مااشترط فلما دخلت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته (وقيل) إنه قدم أهل الكوفة على عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكون سعد بن أبى وقاص فقال من يعذرنى من أهل الكوفة ان وليتهم التقى ضعفوه وان وليتهم القوى فجروه فقال له المغيرة بن شعبة ياأمير المؤمنين ان التقى الضعيف له تقاه ولك ضعفه وان القوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره قال صدقت أنت القوى الفاجر فاخرج اليهم فلم يزل عليهم أيام عمر وعثمان ومعاوية حتى مات (وقيل) دخل عمرو بن معد يكرب الزبيدى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر أخبرنى عن أجبن من لقيت وأحيل من لقيت وأشجع من لقيت قال خرجت مرة أريد الغارة فبينما أنا سائر اذا بفرس مشدود ورمح مركوز واذا رجل جالس كاعظم ما يكون من الرجال خلقا وهو محتب بحمائل سيفه فقلت له خذ حذرك فانى قاتلك فقال ومن أنت قلت أنا عمرو بن معديكرب الزبيدى فشهق شهقة فمات فهذا أجبن من رأيت. وخرجت مرة حتى انتهيت الى حى فاذا أنا بفرس مشدود و رمح مركوز واذا صاحبه فى وهدة يقضى حاجته فقلت خذ حذرك فانى قاتلك قال وما أنت فاعلمته بى فقال ياأبا ثور ما أنصفتنى اعطنى عهدا انك لاتقتلنى حتى اركب فرسى مثلك فاعطيته عهدا فخرج من الموضع الذي كان فيه واحتبى بحمائل سيفه وجلس فقلت ماهذا فقال ماانا براكب فرسي ولا بمقاتلك فان نكثت عهدك فانت اعلم بناكث العهد فتركته ومضيت فهذا أحيل من رأيت . وخرجت مرة حتى انتهيت الى موضع كنت أقطع فيه الطريق فلم أر أحدا فاجريت فرسى يمينا وشمالا واذا أنا بفارس فلما دنا منى فاذا هو غلام حسن نبت عذاره من أجمل من رايت من الفتيان واحسنهم واذا هو قد اقبل من نحو اليمامة فلما قرب مني سلم على فرددت عليه السلام وقلت من الفتى قال الحارس بن سعد فارس الشهباء فقلت له خذ حذرك فانى قاتلك فقال الويل لك فمن انت قلت عمرو بن معد يكرب الزبيدى قال الذليل الحقير والله مايمنعنى من قتلك الا استصغارك فتصاغرت على نفسى ياامير المؤمنين وعظم عندى ما استقبلنى به فقلت دع هذا وخذ حذرك فانى قاتلك والله لاينصرف الا احدنا فقال اذهب

ثكلتك أمك فأنا من أهل بيت ما أثكلنا فارس قط قلت هو الذي تسمعه قال اختر لنفسك فاما ان تطرد لي واما أن أطرد لك فاغتنمتها منه فقلت له اطرد لي فاطرد وحملت عليه فظننت اني وضعت الرمح بين كتفيه فاذا هو صار حزاما لفرسه ثم عطف علي فقنع بالقناة رأسي وقال خذها اليه واحدة ولولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك قال فتصاغرت نفسي عندي وكان الموت أحب الي مما رأيت فقلت له والله لا ينصرف الا أحدنا فعرض مقالته الاولى فقلت له اطرد لي فاطرد فظننت اني تمكنت منه فاتبعته حتى ظننت اني وضعت الرمح بين كتفيه فوثب من فرسه فاذا هو صار لبيا لفرسه ثم عطف علي فقنع بالقناة رأسي وقال خذها اليك ثانية فتصاغرت على نفسي جداً وقلت والله لا ينصرف الا أحدنا فاطرد حتى ظننت اني وضعت الرمح بين كتفيه فوثب من فرسه فاذا هو على الأرض فاخطأته فاستوى على فرسه واتبعني حتى قنع بالقناة رأسي وقال خذها اليك ثالثة ولولا كراهتي لقتل مثلك لقتلتك فقلت اقتلني أحب الي ولا تسمع فرسان العرب بهذا فقال ياعمرو انما العفو عن ثلاث واذا استمكنت منك في الرابعة قتلتك وأنشد يقول

وكدت أغلاظا من الأيمان ان عدت ياعمرو الى الطغيان
لتجدن لهب السنان أولا فلست من بني شيبان

فهبته هيبة شديدة وقلت له ان لي اليك حاجة قال وما هي قلت أكون صاحبا لك قال لست من اصحابي فكان ذلك أشد علي واعظم مما صنع فلم ازل اطلب صحبته حتى قال ويحك أتدري أين أريد قلت لا والله قال أريد الموت الاحمر عيانا قلت أريده معك قال امض بنا فسرنا يومنا أجمع حتى اتانا الليل ومضى شطره فوردنا على حي من أحياء العرب فقال لي ياعمرو في هذا الحي الموت الاحمر فاما ان تمسك على فرسي فانزل وآتي بحاجتي وإما ان تنزل وأمسك فرسك فتأتيني بحاجتي فقلت بل انزل أنت فانت أخبر بحاجتك مني فرمى الي بعنان فرسه ورضيت بان اكون له سائسا ثم مضى الى قبة فاخرج منها جارية لم تر عيناي أحسن منها حسنا وجمالا فحملها على ناقته ثم قال ياعمرو فقلت لبيك قال اما ان تحميني وأقود الناقة أو أحميك وتقودها فقلت احمني انت فرمى الي بزمام الناقة ثم سرنا حتى أصبحنا قال ياعمرو قلت ماشأنك قال التفت فانظر هل ترى أحدا فالتفت فرأيت رجالا فقلت اغذذ السير ثم قال ياعمرو

انظر ان كانوا قليلا فالجلد والقوة وهو الموت الاحمر وان كانوا كثيرا فليسوا بشيء فالتفت وقلت هم أربعة اوخمسة قال اغذذ السير ففعلت و وقف وسمع وقع حوافر الخيل عن قرب فقال ياعمر و كن عن يمين الطريق وقف وحول وجهه دوا بنا الى الطريق ففعلت و وقفت عن يمين الراحلة و وقف عن يسارها ودنا القوم منا واذاهم ثلاثة نفر شابان وشيخ كبير وهو أبو الجارية والشابان اخواها فسلموا فرددنا السلام فقال الشيخ خل عن الجارية ياابن أخي فقال ما كنت لاجابها ولا لهذا أخذتها فقال لأحد بنيه اخرج اليه فخرج وهو يجر رمحه فحمل عليه الحارس وهو يقول

من دون ماترجوه خضب الزابل   من فارس ملثم مقاتل
ينمي الى شيبان خير وائل   ما كان يسري نحوها بباطل

ثم شد عليه بطعنة قد منها صلبه فسقط ميتا فقال الشيخ لابنه الآخر أخرج اليه فاقبل الحارس وهو يقول

لقد رايت كيف كانت طعنتي   والطعن للقرم الشديد الهمة
والموت خير من فراق خلتي   فقتلي اليوم ولا مذلتي

ثم شد عليه بطعنة سقط منها ميتا فقال له الشيخ خل عن ظعينة ياابن أخي فاني لست كمن رايت فقال لا فقال الشيخ يابن اخي اختر لنفسك فان شئت نازلتك وان شئت طاردتك فاغتنمها الفتى ونزل فنزل الشيخ وهو يقول

ما ارتجي عند فناء عمري   سأجعل التسعين مثل شهر
تخافني الشجعان طول دهري   ان استباح البيض قصم الظهر

فاقبل الحارس وهو ينشد ويقول

بعد ارتحالي ومطال سفري   وقد ظفرت وشفيت صدري
فالموت خير من لباس الغدر   والعار اهديه لحي بكر

ثم دنا فقال له الشيخ يابن اخي ان شئت ضربتك فان ابقيت فيك بقية فاضربني وان شئت فاضربني فان ابقيت في بقية ضربتك فاغتنمها الفتى وقال انا ابدأ فقال الشيخ هات فرفع الحارس يده بالسيف فلما نظر الشيخ انه قد هوى به الى راسه ضرب بطنه بطعنة فقد منها امعاءه ووقعت ضربة الفتى على راس الشيخ فسقطا ميتين . فاخذت اربعة افراس واربعة اسياف ثم اقبلت الى الناقة فقالت الجارية ياعمرو والى

اين ولسنا باصحاب ولست كمن رايت فقلت اسكتي فقالت ان كنت لي صاحبا فاعطني سيفاً او رمحا فان غلبتني فانا لك وان غلبتك قتلتك فقلت ما انا بمعط ذلك وقد عرفت اهلك وجراءة قومك وشجاعتهم فرمت نفسها عن البعير ثم اقبلت تقول

ابعد شيخي ثم بعد اخوتي   يطيب عيشي بعدهم ولذتي
واصحبن من لم يكن ذا همة   هـلا تكون قبل ذا منيتي

ثم هوت الى الرمح وكادت تنزعه من يدي فلما رايت منها ذلك خفت ان ظفرت بي قتلتني فقتلتها فهذا اشجع من رايت (قيـل) اتى رجل الى عمر بن الخطاب يستحمله فقال له خذ لك بعـيرا من ابل الصدقة فتناول ذنب بعير فجذبه فاقتلعـه فتعجب عمر رضي الله عنه من شدته وقوته فقال له هل رايت اقوى منك من احد قال نعم . خرجت بامراة من اهلي اريد بها زوجها فنزلت الى حوض فاقبل رجل معه ذود فضرب ذوده الى الحوض فسار ر المراة فنادتني فما انتهيت اليها حتى خالطها فجئت لأدفعه عنها فاخذ راسي بين عضديه وجنبه فما استطعت التحرك حتى قضى وطره منها فقالت اي فحل هذا فامهلته حتى امتلأ نوما فقمت له بالسيف فضربت ساقه فانتبـه فتناول رجله فرماني بها فاخطأني واصاب راس بعير فقتله فقال عمر رضي الله عنه مافعلت بالمراة فقال هذا حديث الرجل فكرر عليه السؤال فلم يزده ففطن انه قتلها (ويحكى) ان عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه كان عنده جارية جميلة وكان يحبها ولم يتمكن منها خوفا من زوجته فمضت يوما زوجته لحاجة ثم عادت فوجدته هو والجارية معتنقين نائمين فقالت افعلتها قال لم اكن فاعلها قالت فاقرا فقال اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قال

علمت بان وعـد الله حق   وان النار مثوى الكافرينا
وان العرش فوق الماء طاف   وفوق العرش رب العالمين
وتحمله ملائكة كـرام   مـلائكة الاله مسـومينا

قالت صدقت وكذبت عيناي قال فذهبت واخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه وصار يكررها ويقول كيف قلت اهـ

(اول دولة بني امية معاوية بن ابي سفيان رضي الله تعالى عنهما)

جلس يوما في مجلس كان له بدمشق وكان الموضع مفتتح الجوانب الاربعة يدخل

فيه النسيم من كل جانب فبينما هو جالس ينظر الى بعض الجهات وكان يوما شديد الحر وكان وسط النهار وقد لفحت الهواجر اذ نظر الى رجل يمشي نحوه وهو يتلظى من حر التراب ويحجل في مشيته حافياً فتامله وقال لجلسائه هل خلق الله اشقى ممن يحتاج الى الحركة في هذا الوقت فقال بعضهم لعله يقصد امير المؤمنين فقال والله لئن كان قاصدي لأجل شيء لأعطينه او مظلوما لأنصرنه يا غلام قف بالباب فان طلبني هذا الاعرابي فلا تمنعه من الدخول علي فخرج فوافاه فقال ما تريد قال امير المؤمنين قال ادخل فدخل فسلم فقال له معاوية ممن الرجل قال من تميم قال فما الذي جاء بك في هذا الوقت قال جئتك مشتكيا وبك مستجيرا قال ممن قال من مروان بن الحكم وانشد

اتيتك لما ضاق في الارض مذهبي فياغوث لاتقطع رجائي من العدل
وجد لي بانصاف من الجائر الذي بلاني بشيء كان ايسره قتلي
سباني ابن سعدي وانبرى لخصومتي وجار ولم يعدل واغصبني اهلي
وهم بقتلي غير ان منيتي تانت ولم استكمل الرزق من اجلي

فلما سمع معاوية كلامه قال له مهلا يا اخا العرب اذكر قصتك وابن لي عن امرك فقال يا امير المؤمنين كانت لي زوجة وكنت لها محبا وكنت بها قرير العين طيب النفس وكانت لي جذعة من الابل كنت استعين بها على قوام حالي وكفاية اودي فاصابتنا سنة اذهبت الخف والحافر فبقيت لا املك شيئا فلما قل ما بيدي وذهب مالي وفسد حالي بقيت مهانا ثقيلا على الذي يالفني وابعدني من كان يشتهي قربي فلما علم ابوها مابي من سوء الحال وشر المآل اخذها مني وجحدني وطردني فاتيت الى عاملك مروان بن الحكم لنصرتي فلما احضر اباها وسأله عن حالي فقال ما اعرفه قط فقلت اصلح الله الامير ان رأى ان يحضرها ويسألها عن قول ابيها ففعل فلما حضرت وقعت منه موقع الاعجاب فصار لي خصما وعلي منكرا واظهر لي الغضب وبعث بي الى السجن فبقيت كانما خررت من السماء او استهوت بي الريح في مكان سحيق ثم قال لابيها هل لك ان تزوجنيها على الف دينار وعشرة آلاف درهم وانا ضامن خلاصها من هذا الاعرابي فرغب ابوها في البذل وأجابه الى ذلك فلما كان من الغد بعث الي واحضرني وقال طلق سعاد فقلت لا فسلط علي جماعة من غلمانه فاخذوا يعذبونني بانواع العذاب فلم اجد لي بدا من طلاقها ففعلت فاعادني الى السجن فمكثت فيه الى

ان انقضت عدتها افتزوجها واطلقني وقد اتيتك راجيا وبك مستجيرا واليك ملتجئا وانشد

في القلب مني غرام	للنار فيه استعار
والجسم مرمى بسهم	فيه الطبيب يحار
وفي فؤادي جمر	والجمر فيه شرار
والعين تهطل دمعا	فدمعها مدرار
وليس الا بربي	وبالامير انتصار

ثم اضطرب واصطكت لهاته وصار مغشيا عليه واخذ يتلوى كالحية فلما سمع معاوية كلامه وانشاده قال تعدى بن الحكم في حدود الدين واظلم واجترأ على حرم المسلمين ثم قال لقد أتيتني يا اعرابي بحديث لم اسمع بمثله قط ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب الى مروان بن الحكم كتابا يقول فيه : انه قد بلغني انك تعديت على رعيتك في حدود الدين وينبغي لمن كان والياً ان يكف بصره عن شهواته ويزجر نفسه عن لذاته ثم كتب بعده كلاما طويلا اختصرته وانشد يقول

وليت امرا عظيما لست تدركه	فاستغفر الله فعل امرىء زاني
وقد اتانا الفتى المسكين منتحبا	يشكو الينا ببث ثم احزاني
اعطي الاله يمينا لا يكفرها	شيء وأبرأ من ديني وايماني
ان أنت خالفتني فيما كتبت به	لاجعلنك لحما بين عقبان
طلق سعاد وعجلها مجهزة	مع الكميت ومع نصر بن ذبيان

ثم طوى الكتاب وطبعه واستدعى الكميت ونصر بن ذبيان وكان يستنهضهما في المهمات لأمانتهما فاخذا الكتاب وسارا حتى قدما المدينة فدخلا على مروان بن الحكم وسلما عليه وسلما اليه الكتاب وأعلماه بصورة الحال فصار مروان يقرأ ويبكي ثم قام الى سعاد واعلمها ولم يسعه مخالفة معاوية فطلقها بمحضر الكميت ونصر بن ذبيان وجهزهما وصحبتهما سعاد ثم كتب مروان كتابا يقول فيه

لا تعجلن امير المؤمنين فقد	اوفى بنذرك في سر واعلان
وما اتيت حراما حين اعجبني	فكيف ادعى باسم الخائن الزاني
اعذر فانك لو ابصرتها لجرت	فيك الاماني على تمثال انسان
فسوف يأتيك شمس ليس يدركها	عند الخليفة من انس ومن جان

ثم ختم الكتاب ودفعه الى الرسولين وسارا حتى وصلا الى معاوية وسلما اليه الكتاب فقرأه وقال لقد احسن في الطاعة واطنب في ذكر الجارية ثم امر باحضارها فلما

رآها رأى صورة حسناء لم ير أحسن منها فخاطبها فوجدها فصيحة اللسان حسنة البيان فقال على بالاعرابى فأتى به وهو فى غاية من تغير الحال فقال يا اعرابى هل لك عنها من سلوة واعوضك عنها ثلاث جوار نهد ابكار مع كل جارية الف دينار واقسم لك فى بيت المال كله سنة ما يكفيك وما يغنيك فلما سمع الاعرابى كلام معاوية شهق شهقة ظن معاوية انه مات بها فقال له معاوية ما بالك فقال الاعرابى استجرت بعدلك من جور ابن الحكم فبمن استجير من جورك وانشد

لا تجعلنى فداك الله من ملك   كالمستجير من الرمضاء بالنار
اردد سعاد على حيران مكتئب   يمسى ويصبح فى هم وتذكار
أطلق وثاقى ولا تبخل على بها   فان فعلت فانى غير كفار

ثم قال يا أمير المؤمنين لو أعطيتنى الخلافة ما اخذتها دون سعاد وانشد يقول

ابى القلب الاحب سعد وبغضه   على لساء ما لهن ذنوب

فقال له معاوية انت مقر على انك طلقتها ومروان مقر بانه طلقها ونحن نخبرها فان اختارت سواك تزوجناها وان اختارتك حولناها اليك قال افعل فقال ما تقولين ياسعاد ايما احب اليك امير المؤمنين فى عزه وشرفه وقصوره وسلطانه وامواله وما أبصرتيه عنده أومروان ابن الحكم فى تعسفه وجوره أوهذا الاعرابى فى جوعه وفقره فانشدت هذا

وان كان فى جوع واضرار   اعز عندى من قومى ومن جارى
وصاحب التاج اومروان عامله   وكل ذى درهم عندى ودينار

والله يا أمير المؤمنين ما انا بخاذلته لحادثة الزمان ولا لغدرات الايام وان له صحبة قديمة لاتنسى ومحبة لا تبلى وانا احق من أن يصبر معه فى الضراء كما تنعمت معه فى السراء فتعجب معاوية من عقلها ومودتها وموافاتها فدفع لها عشرة الاف درهم ودفع مثلها للاعرابى وأخذها وانصرف (ومن ثمرات الاوراق) عن الاجوبة الهاشمية وبلاغتها فى المحل الرفيع انه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد ابن عقبة وعتبة ابن ابى سفيان والمغيرة ابن شعبة فقالوا يا أمير المؤمنين ابعث الى الحسن ابن على يحضر لدينا فقال لهم ولم قالوا كى نوبخه ونعرفه ان اباه قتل عثمان فقال لهم معاوية انكم لن تطيقوه ولن تنصفو منه ولا تقولوا له شيئا الا كذبكم ولا يقول لكم ببلاغته شيئا الا صدقه الناس فقالوا ارسل اليه فانا نكفيه فارسل معاوية فلما حضر قال

ياحسن انى لم ارسل ولكن هؤلاء ارسلوا اليك فاسمع مقالتهم فقال الحسن رضى الله عنه فليتكلموا ونحن نسمع فقام عمر ابن العاص فحمد الله واثنى عليه ثم قال ياحسن هل تعلم ان اباك اول من اثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله تعالى به ثم قام الوليد بن عقبة فحمد الله واثنى عليه ثم قال يابنى هاشم كنتم اصهار عثمان ابن عفان فنعم الصهر كان لكم لقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقربكم ويفضلكم ثم بغيتم عليه وقتلتموه وقد اردنا قتل أبيك فانقذنا الله منه ولوقتلناه ما كان علينا ذنب ثم قام عتبه بن ابى سفيان فقال ابا حسن ان اباك قد تعدى على عثمان فقتله حسدا على الملك والدنيا فسلبهما الله منه ولقد اردنا قتل ابيك حتى قتله الله تعالى ثم قام المغيرة ابن شعبة وقال كلاما سبا لعلى وتعظيما لعثمان فقام الحسن رضى الله عنه فحمد الله واثنى عليه وقال بك ابدا يامعاويه لم يشتمنى هؤلاء ولكن انت شتمتنى بغضا وعداوة وخلافة لجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم التفت الى الناس وقال انشدكم الله ان الذى شتمته هؤلاء اما كان ابى وهو اول من آمن بالله وصلى الى القبلتين وانت يامعاوية كافر تشرك بالله وكان مع ابى لواء النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر ولواء المشركين معك ثم قال انشدكم الله اما كان معاوية يكتب لجدى محمد صلى الله عليه وسلم فارسل اليه يوما فرجع الرسول وقال هو يا كل فرد اليه الرسول ثلاث مرات كل ذلك يقول هو يا كل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا اشبع الله بطنه اما تعرف ذلك من بطنك ثم قال وانشدكم الله الا تعلمون ان معاوية كان يقود بابيه وهو على جمل واخوه هذا يسوقه فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما قال وانت تعلم ذلك اما انت ياعمرو فقد تنازعك خمسة من قريش فغلب عليك شبه الامهم وهو اقلهم حسبا واسواهم منصبا ثم قمت وسط قريش فقلت انى شانىء محمدا بثلاثين بيتا من الشعر فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم انى لا أحسن الشعر اللهم العن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة ثم انطلقت الى النجاشى بما عملت وعلمت فكذبك وردك خائبا فانت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والاسلام فلا نلومك على بغضك الان واما انت ياابن ابى معيط فكيف نلومك على سبك لابى وقد جلدك ابى فى الخمر ثمانين جلدة وقتل اباك صبرا بامر جدى وقتله جدى بامر ربى ولما قدمه للقتل قال من للصبية بعدى يا محمد فقال جدى لهم النار فلم يكن لهم عند جدى غير النار ولم يكن لهم عند

ابى غير السوط واما انت ياعتبة فكيف تعيب احداً بالقتل ولا تعيب نفسك
فلم لاقتلت الذى وجدته على فراشك مضاجعاً از وجتك ثم امسكتها بعد ان بغن واما
انت ياعور ثقيف ففى اى شىء تسب عليا افى بعده من رسول الله صلى الله عليه وسلم
ام الحاكم بجائر فى رعيته فى الدنيا فان قلت فى شىء من ذلك كذبت وكذبك الناس وان
زعمت ان عليا قتل عثمان فقد كذبت وكذبك الناس وانما مثلك كمثل بعوضة وقعت على
نخلة فقالت لها استمكى فانى اريد ان أطير فقالت لها ماعلمت بوقوعك فكيف يشق
على طيرانك فكيف ياأعور ثقيف يشق علينا سبك ثم نفض ثيابه وقام فقال لهم معاوية
الم اقل لكم لا تنتصفون منه فوالله لقد اظلم على البيت حين قال (وروى) ان
معاوية خرج يوما حاجا فمر بالمدينه ففرق على اهلها اموالا جزيلة ولم يحضر الحسن
ابن على فلما حضر قال له معاوية مرحبا مرحبا برجل تركنا حتى نفذ ما عندنا وتعرض
لنا ليبخلنا فقال الحسن رضى الله عنه كيف ينفذ ماعندك وخراج الدنيا يجبى اليك
فقال له قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند فقال الحسن قد
رددته عليك وانا ابن فاطمة الزهراء (وقيل) ان معاويه جلس يوما مع اصحابه
اذا أقبلت قافلتان من البريه فقال لبعض من كان بين يديه انظروا هؤلاء القوم
وأتونى باخبارهم فمضوا وعادوا وقالوا يا أمير المؤمنين احدها من اليمن والاخرى
من قريش فقال ارجعوا اليهم وادعوا قريشا يأتونا وأما أهل اليمن فينزلون فى اماكنهم
الى أن نأذن لهم فى الدخول فلما دخلت قريش سلم عليهم وقربهم وقال اتدرون
يا أهل قريش لم أخرت أهل اليمن وقربتكم قالوا لا قال لانهم لم يزالوا يتطاولون
علينا بالفخار ويقولون ماليس فيهم وانى أريد اذا دخلوا غدا وأخذوا اماكنهم من
الجلوس ان اقيم فيهم نذيرا والقى عليهم من المسائل ما أقل به اكرامهم وأرخص به مقامهم
وكان المقدم عليهم رجلا يقال له الطرماح بن الحكم الباهلى فاقبل على اصحابه وقال
أتدرون يا أهل اليمن لم أخركم ابن هند وقدم قريشا قالوا لا قال لانه فى غداة غد
يقوم فيكم نذيرا ويلقى عليكم من المسائل مايقل به اكرامكم ويرخص به مقامكم فاذا
دخلتم عليه واخذتم اماكنكم من الجلوس وسألكم عن شىء فلا يجيبه أحد غيرى
فلما كان من الغد دخلوا عليه وأخذوا اماكنهم فنهض معاوية قائما على قدميه وقال
ايها الناس من تكلم فالعربية قبل العرب وعلى من انزلت العربية مقام الطرماح وقال

نحن يامعاوية ولم يقل ياامير المؤمنين فقال لماذا فقال لانه لما نزلت العرب ببابل وكانت العبرانية لسان الناس كافة ارسل الله تعالى العربية على لسان يعرب بن قحطان الباهلي وهو جدنا فقرأ العربية وتداولها قومه من بعده الى يومنا هذا فنحن يامعاويه عرب بالجنس وانتم عرب بالتعليم فسكت معاويه زمانا ثم رفع رأسه وقال ايها الناس من اقوى العرب اعانا ومن شهد له بذلك فقال الطرماح نحن يامعاوية قال ولم قال لان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم فكذبتموه وسفهتموه وجعلتموه مجوناً فأويناه ونصرناه فأنزل الله (والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا) وكان النبي صلى الله عليه وسلم محسنا لنا متجاوزا عن سيئاتنا فلما لم تعمل انت كذلك كانك خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسكت زمانا ثم رفع رأسه وقال ايها الناس من افصح العرب لسانا ومن شهد له بذلك فقال الطرماح نحن يامعاوية قال ولم ذلك قال لان امرا القيس بن جعفر الكندي قال في بعض قصائده

يطعمون الناس غبا * في السنين الممحلات * في جفان كالجوابي * وقدور راسيات

وقد تكلم بالفاظ جاء مثلها في القرآن وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فسكت معاوية زمانا وقال ايها الناس من اقوى العرب شجاعة وذكرا ومن شهد له بذلك قال الطرماح نحن يامعاوية قال ولم ذلك قال لان منا عمرو بن معديكرب الزبيدي كان فارسا في الجاهلية وفي الاسلام وشهد له بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال معاوية واين انت وقد اتى به مصفدا بالحديد فقال له الطرماح ومن اتى به قال معاوية اتى به علي قال الطرماح والله لو عرفت مقداره لسلمت اليه الخلافة ولا طمعت فيه ابدا فقال له معاوية اتحجني ياعجوز اليمن قال نعم احجك ياعجوز مصر لان عجوز اليمن بلقيس آمنت بالله وتزوجت بنبيه سليمان بن داود عليهما السلام وعجوز مصر جدتك التي قال الله في حقها (وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) قال فسكت معاوية زمانا ثم رفع راسه وقال جزاك الله خيرا من صاحب واعطاه واحسن اليه انتهى

(حكاية اجنبية عن المقام) يحكى ان بهرام لما ولى الملك بعد ابيه اقبل على اللهو واللذات والتنزه والصيد ولا يفكر في ملكه ولا في رعيته حتى خربت البلاد من يده وخربت في ايامه وخلت بيوت الاموال ففي بعض الايام ركب الى بعض

منازهه وصيده وهو يسير نحو المدائن وكانت ليلة مقمرة فدعا بالموبذان وهو عند المجوس كالحاخام عند اليهود والقسيس عند النصارى لامر خطر بباله فجعل يحادثه فتوسطا فى سيرهما بين خربات كانت من امهات الضياع قد خربت فى مدة ملكه لا انيس فيها الا اليوم واذا ببوم يصيح وصاحبته تجاوبه من تلك الخربات فقال بهرام اترى ان احدا من الناس اعطى فهم لغة هذا الطائر المصوت فى الليل فقال الموبذان ايها الملك انا ممن خصصه الله بذلك قال فماذا يقول هذا الطائر ومايقول الطائر الاخر فقال هذا يوم ذكر يخطب بومة ويقول لها متعيني بنفسك حتى يخرج من بيننا اولاد يسبحون الله ويبقى لنا فى هذا العالم عقب يكثرون الترحم علينا فاجابت ان الذى تدعونى اليه لى فيه الحظ الاكبر والنصيب الاوفر فى العاجل والاجل الا انى اشترط عليك خصالا ان اعطيتها اجبت الى ذلك فقال لها الذكر وما تطلبينه منى قالت ان تعطينى من خربات امهات الضياع عشرين قريه مما خربت فى ايام هذا الملك السعيد فقال له الملك فما الذى قال لها الذكر قال كان من قوله لها اذا دامت ايام هذا الملك السعيد اقطعك منها الف قرية خراب فما تصنعين قالت فى اجتماعنا يحصل ظهور النسل وكثرة الذكر فنقطع لكل ولد من اولادنا ضيعة من هذه الخربات فقال لها الذكر هذا أسهل أمر سألتنيه وأنا ملىء بذلك ما حيي هذا الملك فلما سمع هذا الكلام من الموبذان تاثر من نفسه واستيقظ من نومه وفكر فيما خوطب به فنزل من ساعته ونزل بنزوله الناس وخلا بالموبذان فقال أيها القائم بامر الدين الناصح للملك والمنبه له عما أغفله من أمور ملكه واضاعة بلاده ورعيته ماهذا الكلام الذى خاطبتنى به فقد حركت منى ما كان ساكنا فقال صادفت من الملك السعيد وقت سعد العباد والبلاد فجعلت الكلام مثلا وموعظة على لسان الطائر عند سؤال الملك اياى عما سال فقال له الملك ايها الناصح اكشف لى عن هذا الغرض ما المراد منه فقال أيها الملك ان الامر لا يتم الا بالشريعة والقيام لله بطاعته ولا قوام الشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل للمال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل وهو الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب جل وعلا وجعل له قيما وهو الملك فقال اما ما وصفت فحق فابن لى عما اليه تقصد واوضح لى فى البيان قال نعم انك عمدت الى الضياع فاقطعتها الخدم واهل البطالة فعمدوا الى

ما تعجل من غلاتها فاستعجلوا من المنفعة وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسوحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على الرعية فانجلوا عن ضياعهم وهلكت الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من طاف بها من الملوك والامم لعلمهم بانقطاع المواد التي بسببها تستقيم دعائم الملك فلما سمع الملك ذلك أقام في منزله ثلاثة ايام واحضر الوزراء والكتاب وارباب الدواوين فانتزعت الضياع من ايدي الخاصة والحاشية وردت الى أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوى من ضعف منهم فعمرت البلاد بذلك واخصبت وكثرت الاموال عند الجباة وقويت الجنود وانقطعت مواد الاعداء وأقبل الملك يباشر الامور بنفسه فحسنت سيرته وانتظم ملكه حتى كانت ايامه بعده تدعى بالاعياد لما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل

(حكاية أخرى أجنبية) حكى عن الاصمعى انه قال دخلت البصرة أريد بادية بني سعد وكانت على البصرة يومئذ خالد بن عبد الله القسر فدخلت عليه يوما فوجدت قوما متعلقين بشاب ذي جمال وكمال وأدب ظاهر بوجه زاهر حسن الصورة طيب الرائحة جميل البزة عليه سكينة ووقار فقدموه الى خالد فسالهم عن قصته فقالوا هذا لص أصبناه البارحة في منازلنا فنظر اليه فأعجبه حسن هيئته ونظافته فقال خلوا عنه ثم ادناه منه وساله عن قصته فقال له ماحملك على ذلك وأنت في هيئة جميلة وصورة حسنة قال حملني الشره في الدنيا وبذا قضى الله سبحانه وتعالى فقال له خالد ثكلتك أمك أما كان لك في جمال وجهك وكمال عقلك وحسن ادبك زاجر لك عن السرقة قال دع عنك هذا أيها الامير وأنفذ ما امرك الله تعالى به فذلك بما كسبت يداى (وما الله بظلام للعبيد) فسكت خالد ساعة يفكر في امر الفتى ثم ادناه منه وقال له ان اعترافك على رؤس الاشهاد قد رابني وانا ما أظنك سارقا وان لك قصة غير السرقة فاخبرني بها فقال ايها الامير لايقع في نفسك سوى ما اعترفت به عندك وليس الى قصة اشرحها لك الا اني دخلت دار هؤلاء فسرقت منها مالا فادركوني واخذوه مني وحملوني اليك فامر خالد بحبسه وامر مناديا ينادي في البصرة الا من احب ان ينظر الى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغد فلما استقر الفتى في الحبس ووضع في رجليه الحديد تنفس الصعداء ثم انشأ يقول

هددني خالد بقطع يدى ... ان لم ابح عنده بقصتها
فقلت هيهات ان ابوح بما ... تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به ... أهون للقلب من فضيحتها

فسمعه الموكلون فاتوا خالدا وأخبروه بذلك فلما جن الليل أمر باحضاره عنده فلما حضر استنطقه فرآه أديبا عاقلا لبيبا ظريفا فاعجب به وامر له بطعام فاكلا وتحادثا ساعة ثم قال له خالد قد علمت ان لك قصة غير السرقة فاذا كان غدا وحضر الناس والقضاة وسالتك عن السرقة فانكرها واذكر فيها شبهات تدرأ عنك القطع فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ادرؤا الحدود بالشبهات ثم أمر به الى السجن فلما اصبح الناس لم يبق بالبصرة رجل ولا امرأة الا حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى و ركب خالد ومعه وجوه اهل البصرة وغيرهم ثم دعا بالقضاة وامر باحضار الفتى فاقبل يحجل فى قيوده ولم يبق احد من النساء الا بكى عليه وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب فامر بتسكيت الناس ثم قال له خالد ان هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم فما تقول قال صدقوا أيها الامير دخلت دارهم وسرقت مالهم قال له خالد لعلك سرقت دون النصاب قال بل سرقت نصابا كاملا قال فلعلك شريك القوم فى شيء منه قال بل هو جميعه لهم لاحق لى فيه فغضب خالد وقام اليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط وقال متمثلا بهذا البيت

يريد المرء ان يعطى مناه ... ويابى الله الا ماأراد

ثم دعا بالجلاد ليقطع يده فحضر واخرج السكين ومد يده ووضع عليها السكين فبرزت جارية من صف النساء وعليها أثاو وسخ فصرخت ورمت بنفسها عليه ثم أسفرت عن وجه كانه البدر وارتفع للناس ضجة عظيمة كاد ان تقع منها فتنة ثم نادت باعلى صوتها ناشدتك الله ايها الامير لاتعجل بالقطع حتى تقرأ هذه الرقعة ثم وضعت اليه رقعة ففضها خالد فاذا هى مكتوب فيها

اخالد هذا مستهام متيم ... رمته لحاظى من قسى الحمالق
فاصماه سهم اللحظ منى فقلبه ... حليف الجوى من دائه غير فائق
اقر بما لم يفترقه لانه ... رأى ذاك خيرا من هتيكة عاشق
فمهلا على الصب الكئيب لانه ... كريم السجايا فى الهوى غير سارق

فلماقرأ الابيات تنحى وانعزل عن الناس واحضر المرأة ثم سالها عن القصة فاخبرته ان هذا الفتى عاشق لها وهي له كذلك وانه اراد زيارتها وان يعلمها مكانه فرمى بحجر الى الدار فسمع ابوها واخوتها صوت الحجر فصعدوا اليه فلما أحس بهم جمع قماش البيت كله وجعله صرة فاخذوه وقالوا هـذا سارق واتوا به اليك فاعترف بالسرقة واصر على ذلك حتى لا يفضحني بين اخوتي وهان عليه قطع يده لـكي يستر علي ولا يفضحني كل ذلك لغزارة مروأته وكـرم نفسه فقـال خالد انه خليق بذلك ثم استدعى الفتى اليه وقبل مابينَ عينيه وامر باحضار ابى الجـارية وقال له ياشيخ انا كنا عزمنا على انفاذ الحـكم فى هذا الفتى بالقطع وان الله عصمني من ذلك وقد امرت له بعشرة آلاف درهم لبـذله يده وحفظه لعرضك وعرض ابنتك وصيانته لكمامن العـار وقد امرت لابنتك بعشرة آلاف درهم وأنا أسلك ان تاذن لى فى تزويجها منه فقال الشيخ قداذنت ايها الامير بذلك قال فحمد الله واثنى عليه وخطب خطبه حسنه وقال للفتى قد زوجتك هذه الجارية فلانة الحاضرة باذنها و رضاها واذن ابيها على هذا المال وقدره عشرة آلاف درهم فقال الفتى قبلت هذا التزويج وامر بحمل المال الى دار الفتى مزفوفا فى الصوانى وانصرف الناس مسرورين ولم يبق احد فى سوق البصرة الا نثر عليهما اللوز والسكر حـتى دخلا الى منزلهما مسرورين مزفوفين قال الاصمعي فما رايت يوما اعجب منه اوله بكاء وترح وآخره سرور وفرح (وهـذه حكاية تشابه ماتقدم) (قال حماد الرواية) كنت عند جعفر بن سليمان بالبصرة اذ اتى بشاب حسن الوجه ومعه جارية كانها قضيب بان فقال صاحب الشرطة اصلح الله الامير انى وجدت هذه وهذا مجتمعين فى خلوة وليس لها بمحرم فقال جعفر للفتى ماتقول فقال صدق ولقد طال والله غرامي بها منذ ثلاث سنين والله ماامكنني الخلوة بها الا فى هذا الوقت وانشد يقول

عنيت من ربى أفوز بقربها فلما تهيا لى المنا عاقه العسر
فوالله بل والله ما كان ريبـة وماكان الا اللفظ والضحك والبشر
فدونـكم جلدى ولا تجلدونها فكم من حرام كان من دونه ستر

قال فجعلت الجارية تبكى بكاء شديدا فقال لها وانت لم تبكين فقالت والله شفقة مما حل به وكيف اختلت حتى خرجت وكيف بلينا بهذه البلية قال انحبينه قالت

فلم غررت بنفسي قال لها انت حرة أم مملوكة قالت بل مملوكة فامرها فدخلت الدار واحضر مولاها فاشتراها منه بمائة دينار واعتقها و زوجها الفتى و وهب له مائة دينار وكساها فانشد الفتى يقول

لقد جدت يا ابن الاكرمين بنعمة جمعت بها بين المحبين فى ستر
فلا زلت بالاحسان كهفاً وملجأ وقد جل ماقد كان منك عن الشكر

(فى ايام دولة عبد الملك بن مروان)وهو اول من تسمى عبد الملك فى الاسلام وكان يلقب برشح الحجر ذكره فى حياة الحيوان وذكر محمد بن الهيثى ان عبد الملك ابن مروان بعث كتاباً الى الحجاج بن يوسف يقول فيه . بسم الله الرحمن الرحيم الى الحجاج بن يوسف اذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسير لى ثلاث جوار مولدات نهدا ابكارا يكون اليهن المنتهى فى الجمال واكتب لى بصفة كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنحاسين ثم امرهم بما امر به امير المؤمنين وامرهم ان يخوصوا فى البلاد ففاصوا حتى وقعوا على الغرض ورجعوا الى الحجاج بثلاث جوار نهد ابكار مولدات ليس لهن مثيل وكان الحجاج فصيحا فجعل ينظر الى كل واحدة منهن وثمنها من المال فوجدهن لا يقومن بقيمة وان ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتاباً الى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل وصلنى كتاب امير المؤمنين متعنى الله تعالى ببقائه يامر فيه ان اشترى له ثلاث جوار مولدات نهد ابكار وان اكتب له بصفة كل واحدة منهن وثمنها اما الجارية الاولى اطال الله بقاء امير المؤمنين فانها لطيفة السوالف عظيمة الروادف كحلاء العينين حمراء الوجنتين قد انهدت نهداها والتفت فخذاها كانها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل

بيضاء فى طرفها دعج يزينها كانها فضة قد شابها ذهب

وثمنها يا امير المؤمنين ثلاثون الف درهم . واما الجارية الثانية فانها فائقة فى الجمال معتدلة القدوالكمال يشفى السقيم من كلامها الرخيم وثمنها يا أمير المؤمنين ثلاثون الف درهم . واما الجارية الثالثة فانها فاترة الطرف لطيفة الكهف عظيمة الردف شاكرة للقليل مساعدة للخليل بديعة الجمال كانها خشف غزال وثمنها ثمانون الف درهم وطوى الكتاب وختمه ودعا بالنخاسين وقال تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى لأمير المؤمنين فقال احد النخاسين ايد الله الامير انى رجل كبير وضعيف عن السفر ولى ولد ينوب

عنى افتأذن لى ان اجهزه قال نعم فتجهزوا وخرجوا فى بعض مسيرهم نزلوا ليستريحوا فى بعض الاماكن فنامت الجوارى فهبت ريح فانكشفت احداهن وهى الكوفية فظهر نور ساطع وكان اسمها مكتوبا فنظر اليها ابن النخاس وكان شابا جميلا ففتن بها الساعته فاتاها على غفلة من اصحابه وجعل يقول

امكتوم عينى لا تمل من البكا　　وقلبى باسهام الاسى يسترشق
امكتوم كم من عاشق قتل الهوى　　وقلبى رهين كيف لا اتعشق

فاجابته تقول . لوكان حقا ما تقول لزرتنا　　ليلا اذا هجعت عيون الحسد

فلما جن الليل انقض ابن النخاس بسيفه وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فاخذها واراد الهرب بها ففطن به اصحابه فاخذوه وكتفوه واوثقوه بالحديد ولم يزل مأسورا معهم الى ان قدموه الى عبد الملك فلما قدموا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب وفتحه وقرأه فوجد الصفة موافقه فى اثنتين ولم توافق فى الثالثه ورأى بوجهها صفره وهى الجارية الكوفية فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق الصفه التى ذكرها الحجاج فى كتابه وما هذا الاصفرار الذى بها وهذا الانتحال فقالوا ياأمير المؤمنين نقول وعلينا الامان قال ان صدقتم آمنتم وان كذبتم هلكتم فخرج احد النخاسين واتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يدى أمير المؤمنين واخبروه بما فعل بكى بكاء شديدا وايقن بالعذاب ثم انشا يقول

امير المؤمنين اتيت رغما　　وقد شدت الى عنقى يدايا
مقرا بالقبيح وسوء فعلى　　ولست بما رميت به بريا
فان تقتل ففوق القتل ذنبى　　وان تعفو فمن جود عليا

فقال له الملك يا فتى ما حملك على ما فعلت استخفافا بنا ام هوى للجارية فقال وحقك يا أمير المؤمنين وعظيم قدرك ماهو الاهوى بالجارية فقال هى لك بما اعدلها فاخذ الغلام الجارية بما اعده لها أمير المؤمنين من الحلى والجمال وسار بها فرحا مسرورا حتى اذا كانا ببعض الطريق نزلا منزلا ليلا فتعانقا فلما اصبح الصباح واراد الناس الرحيل بهوهما فوجدا ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما فى الطريق ومضى خبرهما الى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فبكى عليهما وتعجب من ذلك اه

(وهذه حكاية تشابهها فى العشق) حكى عن عبد الله ابن معمر القيسى انه قال

حججت سنة الى بيت الله الحرام فلما قضيت حجى عدت لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فبينما انا ذات ليلة جالس بين القبر والروضة اذ سمعت انينا عاليا وحنينا باديا فانصت اليه فاذا هو يقول هذه الابيات

اشجاك نوح حمائم السدر فاهجن منك بلابل الصدر
ام عز نومك ذكر غانية اهدت اليك وساوس الفكر
ياليلة طالت على دنف يشكو الغرام وقلة الصبر
اسلمت من يهوى لحر جوى .متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد انني كلف مغرى بحب شبيهة البدر
ما كنت احسبني بها شجنا حتى بليت وكنت لا أدرى

(قال) ثم انقطع الصوت ولم أدر ما جاءني فبقيت حائرا واذا به قد اعاد البكاء والحنين وانشأ يقول هذه الابيات

اشجاك من ريا خيال زائر والليل مسود الذوائب ماكر
واقتاد مقلتك الهوى برسيسه واهتاج مقلتك الخيال الزاهر
ناديت ليلى والظلام كانه يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كانه ملك ترحل والنجوم عساكر
ياليل طلت على محب ماله الا الصباح مساعد ومؤازر
فاجابنى مت حتف انفك واعلمن ان الهوى لهو الهوان الحاضر

قال فنهضت عند ابتدائه الابيات اؤم الصوت فما انتهى الاخر الابيات الا وانا عنده فرأيته غلاما ما سال عذاره وقد خرق الدمع فى وجنتيه خرقين فقلت نعمت غلاما فقال وأنت فمن الرجل قلت عبد الله بن معمر القيسى قال الك حاجة قلت له كنت جالسا فى الروضة فما راعنى هذه الليلة الا صوتك فبنفسي افديك ما الذى تجده قال اجلس فجلست قال انا عتبة ابن الحباب ابن المنذر ابن الجموح الانصارى غدوت الى مسجد الاحزاب فبقيت راكعا وساجدا ثم اعتزلت غير بعيد فاذا بنسوة يتهادين كالاقمار وفى وسطهن جارية بديعة الجمال كاملة الملاحة فوقفت على وقالت ياعتبة ماتقول فى وصال من يطلب وصالك ثم تركتنى وذهبت فلم اسمع لها خبرا ولا وقفت لها على اثر فانا حيران انتقل من مكان الى مكان ثم صرخ وانكب على الارض

مغشيا عليه ثم افاق كانما صبغت ديباجتا خديه بورس ثم انشا يقول هذه الابيات

اراكم بقلبي من بلاد بعيدة ... تراكم تروني بالقلوب على بعد
فؤادي وطرفي يأسفان عليكم ... وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست الذ العيش حتى اراكم ... ولوكنت في الفردوس أوجنة الخلد

قال فقلت له يا ابن اخي تب الى ربك واستقل من ذنبك فان بين يديك هول المطلع فقال هيهات ما انا بسائل حتى يؤب القارظان ولم أزل به حتى طلع الفجر فقلت قم بنا الى مسجد الاحزاب فقمنا اليه فجلسنا حتى صلينا الظهر واذا بنسوة قد اقبلن وأما الجارية فليست فيهن فقلن ياعتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاشفت ما بك قال وما بالهاقلن اخذها ابوها وارتحل الى السما فسالتهن عن الجارية فقلن هي ريا بنت الغطريف السلمي فرفع رأسه وانشا يقول

خليلي ريا قد أجد بكورها ... وسار الى ارض السماوة عيرها
خليلي اني قد عيبت عن البكا ... فهل عند عيري عبرة استعيرها

فقلت له يا عتبة اني وردت بمال جزيل أريد به اهل الستر والله لابذلنه امامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضا قم بنا الى مسجد الانصار فقمنا حتى اشرفنا على ما ئهم فسلمت واحسنوا الرد ثم قلت أيها الملا ما تقولون في عتبة وأبيه من سادات العرب قلت فانه رمي بداهية من الهوى فاريد منكم المساعدة الى السماوة قالوا سمعا وطاعه وركبنا وركب القوم معنا حتى اشرفنا على منازل بني سليم فاعلم الغطريف بمكاننا فخرج مبادرا واستقبلنا وقال حييتم يا كرام قلنا وانت حييت انا لك اضياف فقال نزلتم باكرم منزل ثم نادى يامعشر العبيد انزلوا فنزلت العبيد ففرشت الانطاع والنمارق وذبحت النعم والغنم فقلنا لسنا بذائقين طعامك حتى تقضي حاجتنا فقال وما حاجتكم قلنا نخطب ابنتك الكريمة لعتبة بن الحباب ابن المنذر المعالي المفخر الطيب العنصر فقال يا أخي ان التي تخطبونها أمرها الى نفسها وأنا ادخل واخبرها ثم نهض مغضبا ودخل الى ريا فقالت يا أبت مالي أرى الغضب بين عينيك فقال وردلي قوم من الانصار يخطبونك مني فقالت سادات كرام استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم لمن الخطبة فيهم قال لفتى يعرف بعتبة ابن الحباب قالت سمعت عن عتبة هذا انه يفي بما وعد ويدرك ما طلب قال أقسمت لازوجنك به ابدا فقد نما الى بعض

حديثك معه قالت ما كان ذلك قال ولكن اقسمت انى ما ازوجك به قالت أحسن اليهم فان الانصار لا يردون ردا قبيحا فاحسن الرد قال باى شىء قالت اغلظ عليهم المهر فانهم يرجعون قال ما احسن ما قلت ثم خرج مبادرا فقال ان فتاة الحى قد اجابت ولكن اريد لها مثل مهرها فمن القائم به قال عبد الله انا فقال اريد لها الف سوار من ذهب احمر وخمسة الاف درهم من ضرب هجر ومائة ثوب من الابراد والحبر وخمسة اكرشه من العنبر قال قلت لك ذلك فهل اجبت قال اجل فانفذ عبد الله نفرا من الانصار الى المدينة المنورة فاتوا بجميع ما ضمنه وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لاكل الطعام قال فاقمنا على هذا الحال اربعين يوما ثم قال خذوا فتاتكم فحملناها على هودج وجهزها بثلاثين راحله من التحف وانصرف وسرنا حتى اذا بقى بيننا و بين المدينه المنوره مرحلة خرجت علينا خيل تريد الغارة واحسب انها من بنى سليم فحمل عليها عتبة ابن الحباب فقتل عدة رجال وانحرف راجعا وبه طعنة ثم سقط الى الارض واتتنا النجدة من مكان تلك الارض فطردوا عنا الخيل وقد قضى عتبة نحبه فقلنا واعتبتاه فسمعتنا الجارية تقول واعتبتاه فالقت نفسها من فوق البعير وانكبت عليه الجارية وصارت تصيح وتقول

تصبرت لا انى صبرت وانما ... اعلل نفسى انها بك لاحقه
ولو انصفت روحى لكانت الى الردى ... امامك من دون البرية سابقه
فما احد بعدى و بعدك منصف ... خليلا ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت شهقة قضت نحبها واحتفرنا لهما قبرا واحدا وواريناهما التراب ورجعت الى ديار قومى واقمت سبع سنين ثم عدت الى الحجاز ووردت المدينه المنوره للزيارة فقلت لاعودن الى قبر عتبة فاتيت الى القبر فاذا شجرة عليها غصائن حمر وصفر وخضر فقلت لارباب المنزل ما يقال لهذه الشجرة فقالوا شجرة العروسين فاقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفت وكان آخر العهد به (ومثل ما تقدم من العشق ما ورد فى كتمان الهوى مع تحقق النظر عند اعلانه) ما حكى عن بعض المعربين من ذوى النعم قال انا بينا فى منزل اذ دخل على خادم لى ومعه كتاب فقال رجل بالباب دفع الى هذا الكتاب ففتحته فاذا فيه شعر

تجنبك البلاء ونلت خيرا ... ونجاك المليك من الهموم

فمنذك لومننت شفاء نفسي   واغضاء ضنين من الكلوم

فقلت عاشق والله وقلت للخادم اخرج واتني به فخرج فلم ير احدا فتعجبت من امره واحضرت الجوارى كلهن من يخرج منهن ومن لم يخرج منهن وسالتهن عن ذلك فحلفن انهن لا يعرفن من حديث هذا الكتاب شيئا فقلت انى لم افعل ذلك بخلا بمن يهوى منكن فمن عرفت بحال هذا الفتى فهى هبة منى له بمالها ومائة دينار وكتبت جوابه اشكره على ذلك واساله قبولها ووضعت الكتاب فى جنب البيت ومائة دينار وقلت من عرف شيئا فلياخذه فمكث الكتاب والذهب اياما لا ياخذه احد فغمنى ذلك هذا قنع ممن يحبه بالنظر فمنعت من يخرج من جوارى من الخروج فما كان الا يوما او بعض يوم اذ دخل على الخادم ومعه كتاب وقال هذا من بعض اصدقائك بعث به اليك فقلت اخرج واتنى به فخرج فلم يجده ففتحت الكتاب فاذا فيه

ماذا اتيت الى روح معلقة   عند التراقى وحاد الموت حاديها
حثثت حاديها ظلما فجد بها   فى السير حتى تخلت عن تراقيها
والله لو قيل لى تاتى بفاحشة   وان عقابك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذى اخشى عقوبته   ولا باضعافها ما كنت آتيها
لولا الحياء لبحنا بالذى سكنت   بيت الفؤاد وابدينا امانيها

قال فغمنى امره فقلت للخادم لا ياتيك احد بكتاب الا قبضت عليه قال وقرب موسم الحاج فبينما انا قد افضت من عرفة واذا فتى الى جانبى على ناقة لم يبق منه الا الخيال فسلم على فرددت عليه السلام ورحبت به فقال اتعرفنى فقلت وما نكرك بسوء فقال انا صاحب الكتابين فانكببت عليه فقلت له يا أخى لقد غمنى امرك واقلقنى كتمانك لنفسك ووهبت لك طلبك ومائة دينار فقال بارك الله لك انما اتيتك مستحلا من نظر كنت انظره على غير حكم الكتاب والسنة فقلت غفر الله لك وللجارية فسر معى الى منزلى لاسلمها اليك ومائة دينار ومثلها فى كل سنة فقال لا حاجة لى بذلك فالححت عليه فلم يفعل فقلت له اما اذا ابيت فعرفنى من هى من جوارى لاكرمها من اجلك ما حييت فقال ما كنت لاسميها لاحد وودعنى وانصرف وكان آخر العهد به انتهى

(وحكى) ان الحجاج انفرد يوما من عسكره فلقى اعرابيا فقال له يا وجه العرب كيف الحجاج فقال ظالم غاشم قال له هلا شكوته الى عبد الملك بن مروان قال اظلم

واعشم عليهما لعنة الله فبينما هو كذلك اذ تلاحقت به عساكره فعلم الاعرابى انه الحجاج فقال الاعرابى ايها الامير السر الذى بينى و بينك لا يطلع عليه احد الا الله فتبسم الحجاج واحسن اليه وانصرف (وذكر) اهل التواريخ ان الحجاج بن يوسف الثقفى سهر ليلة وعنده جماعة منهم خالد بن عرفطة فقال ياخالد ائتنى بمحدث المسجد والناس اذذاك يطلبون المقام فى المسجد فانتهى الى شاب قائم يصلى فجلس حتى سلم ثم قال اجب الامير قال ابعثك الامير الى قاصداً قال نعم فمضى معه حتى انتهى الى الباب فقال له خالد كيف انت ومحادثة الامير قال سيجدنى كما يحب ان شاء الله تعالى فلما دخل عليه قال له الحجاج هل قرأت القرآن قال نعم وقد حفظته قال فهل تروى شيئا من الشعر قال مامن شاعر الا واروى عنه قال فهل تعرف من انساب العرب ووقائعها قال لا يذهب عنى شىء من ذلك فلم يزل يحدثه بكل ما احب حتى اذاهم بالانصراف قال ياخالد مر للفتى ببرذون وغلام ووصيفة وأربعة آلاف درهم فقال الفتى اصلح الله الامير بقى من حديثى اظرفه واعجبه فعاد الحجاج الى مجلسه وقال حدثنى فقال اصلح الله الامير هلك والدى وانا طفل صغير فنشأت فى حجر عمى وله ابنة بسنى وكان فى التصابى من الصبا وما كنا فيه اعجوبة حتى اذا بلغت وبلغت تنافس الخطاب فيها وبذلوا فيها اموالا لجمالها وكمالها فلما رايت ذلك خامرنى السقم وضنيت ورميت على الفراش ثم عمدت الى خابية عظيمه فملأتها رملا وصخرا وقيرت رأسها ودفنتها تحت فراشى فلما تم على ذلك ايام بعثت الى عمى فقلت ياعمى انى كنت اريد السفر فوقعت على مال عظيم وخفت ان اموت ولا يعلمه احد فان حدث بى أمر فاخرجه واعتق عنى عشر نسمات واحجج عنى عشر حجج وبجهز عنى عشر رجال بخيولهم واسلحتهم وتصدق عنى بالف دينار ولا تبال ياعم فان المال كثير فلما سمع عمى مقالتى اتى امرأته فاخبرها بقولى فما كان باسرع من ان اقبلت بجواريها حتى دخلت فوضعت يدها على راسى ثم قالت والله ياابن اخى ماعلمت بسقمك وما حل حتى اخبرنى ابو فلان الساعة واقبلت تلاطفنى وتعالجنى بالادوية وحملت لى لطائف وردت الخطاب عن ابنتها فلما رايت ذلك تماملت ثم بعثت الى عمى ان الله عز وجل قد احسن الى وعافانى فابتع لى جارية مقخصالها وكمالها كيت وكيت ولا يسالونك شيئا الا اعطيته فقال ياابن اخى ما يمنعك من ابنة عمك فقلت هى من

أعز خلق الله تعالى علي اني قد خطبتها قبل ذلك فامتنعت قال كلا ان الامتناع
كان من قبل أمها وهي الان سمحت و رضيت بذلك فقلت شانك فرجع الى امراته
فاخبرها بقولي فجمعت عشيرتها فزوجوني إياها فقلت عجل علي يابنة عمي كيف شئت
ثم اوريك الخابية فاهديت الي ولم تدع شيئا يصنع باشراف النساء الا فعلته ثم زفت
ابنتها علي واحضرتها بكل ماوجدت اليه سبيلا واخذ عمي متاعا من التجارة بعشرة
آلاف درهم وكان ياتينا في كل صباح من قبل ابويها لطائف وتحف مدة فلما كان
بعد ذلك بايام اتاني عمي وقال يا ابن اخي انا قد اخذنا من التجار متاعا بعشرة آلاف
درهم وليسوا صابرين على حبس الثمن قلت شانك والخابية فمر مسرعا حتى جاء بالرجال
والحبال فاستخرجها وحملها ومر مسرعا عليها الى منزله فلما فتحها كان فيها ماعلمت
فما كان باسرع من ان جاءت امها بجواريها فلم تدع في منزلي كثيرا ولا قليلا الا
حملته فبقيت مهانا على الارض وحفتنا كل الجفاء فهذا حالي اصلح الله الامير فانا
من خجلي وضيق صدري آوي الى المساجد فقال الحجاج ياخالد مر الفتى بثياب
ديباج وفرس ارمنية وجارية و برذون وغلام وعشرة آلاف درهم وقال يافتى اغد الى
خالد غدا حتى تستوفي منه المال فخرج الفتى من عند الحجاج قال فلما انتهيت الى
باب داري سمعت ابنة عمي تقول ليت شعري ما ابطىء يابن عمي اقتل ام مات ام
عرض له سبع قال فدخلت عليها وقلت يا ابنة عمي ابشري وقري عينا فاني دخلت على
الحجاج فكان من القصة كيت وكيت وحكيت لها ما كان من أمري فلما سمعت
الفتاة مقالتي لطمت وجهها وصاحت فسمع ابوها وامها واخوانها صراخها فدخلوا
عليها وقالوا لها ماشانك فقالت لابيها لا وصل الله رحمك ولا جزاك عني وعن ابن
اخيك خيرا جفوته وضيعته حتى اصابته الخفة وذهب عقله اسمع مقالته فقال العم
يا ابن اخي ماحالك فقلت والله مابي من باس الا اني دخلت على الحجاج وذكر له
من امره ما كان وانه امر له بمال جزيل فقال العم لما سمع مقالته هذه مرة صفراء
ثائرة فباتوا يحرسونه تلك الليلة فلما اصبحوا بعثوا الى المعالج فجعل يعالجه و يسعطه
مرة و يسهله اخرى فيقول الفتى والله مابي من باس وانما ادخلت على الحجاج فكان
كيت وكيت فلما راى الفتى ان ذكر الحجاج لا يزيده الا بلاء كف عنه وعن ذكره
ثم قال له ماتقول في الحجاج قال ما رايته ثم خرج المعالج فقال لهم قد دهب عنه

الاذى ولكن لا تعجلوا بحل قيده فبقى الفتى مقيدا مغلولا فلما كان بعد ايام ذكره الحجاج فقال يا خالد ما فعل بالفتى فقال اصلح الله الامير ما رأيته منذ خرج من حضيرة الامير قال فابعث اليه احدا قال فبعث اليه خالد حرسيا فمر الحرسى على عم الفتى فقال له ما فعل ابن اخيك فان الحجاج طلبه قال ان ابن اخى لفى شغل عن الحجاج قد ابتلى ببلاء فى عقله قال لا ادرى ما تقول لابد من الذهاب به الساعة فدخل عليه العم فقال يا ابن اخى ان الحجاج قد بعث فى طلبك افاحلك قال لا الا بين يديه فحمله فى قيوده وغله على ظهور الرجال حتى ادخل على الحجاج فلما نظره من بعد جعل يرحب به حتى انتهى اليه فكشف قيده وغله وقال اصلح الله الامير ان آخر امرى اعجب من اوله وحدثه بحديثه فعجب الحجاج وقال يا خالد اضعف للفتى ما كنا قد امرنا له فقبض المال اجمع وحسن حاله ولم يزل مسامرا للحجاج حتى مات (وحضر) اعرابى عند الحجاج فقدم الطعام فاكل الناس منه ثم قدمت الحلوى فترك الحجاج الاعرابى حتى اكل منها لقمه ثم قال من اكل من الحلوى ضربت عنقه فامتنع الناس من اكلها وبقى الاعرابى ينظر الى الحجاج مرة والى الحلوى مرة ثم قال ايها الامير اوصيك باولادى خيرا ثم اندفع يا كل فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه وامر له بصله (وحكى) ان الحجاج امر صاحب حراسته ان يطوف بالليل فمن وجده بعد العشاء ضرب عنقه فطاف ليلة فوجد ثلاثة صبيان يتمايلون وعليهم أثر الشراب فاحاط بهم وقال لهم من انتم حتى خالفتم الامير فقال الاول

انا ابن من دانت الرقاب له ... ما بين مخزومها وهاشمها
تأتى اليه الرقاب صاغرة ... ياخذ من مالها ومن دمها

فامسك عن قتله وقال لعله من اقارب امير المومنين وقال الثانى

انا ابن الذى لا ينزل الدهر قدره ... وان نزلت يوما فسوف تعود
ترى النار افواجا الى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

فامسك عن قتله وقال لعله من اشراف العرب وقال الثالث

انا ابن الذى خاض الصفوف بعزمه ... وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لا تنفك رجلاه منهما ... اذا الخيل فى يوم الكريهة ولت

فامسك عن قتله وقال لعله من شجعان العرب فلما اصبح رفع امرهم الى الحجاج

فاحضرهم وكشف عن حالهم فاذا الاول ابن حجام والثانى ابن فوال والثالث ابن حائك فتعجب الحجاج من فصاحتهم وقال لجلسائه علموا اولادكم الادب والله لولا الفصاحة لضربت أعناقهم ثم اطلقهم وانشد

كن ابن من شئت واكتسب ادبا يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

وقيل امر الحجاج بقتل اسرى فقتل منهم جماعه فقال رجل منهم وقد عرض للقتل ياحجاج ان كنا أسانا فى الذنب فما أحسنت فى العفو والله تعالى يقول فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فامامنا بعد وأما فداء فهذا قول الله فى الكفار فكيف بالمسلمين وقد قال الشاعر

وما نقتل الاسرى ولكن نفكهم اذا أثقل الاعناق حمل الغلائل

فقال الحجاج أف لهؤلاء الجيف والله لو قال هؤلاء مثل ماقال هذا الرجل ماقتلت منهم احدا ولكن اطلقوا بقيتهم (قال الراوى) ولما ولى الحجاج العراق قال على بالمرأة الحرورية فلما حضرت قال لها كنت بالامس فى وقعة ابن الزبير تحرضين الناس على قتل رجالى ونهب اموالى قالت نعم قد كان ذلك ياحجاج فالتفت الحجاج الى وزرائه وقال ماترون فى امرها فقالوا عجل بقتلها فضحكت المرأة فاغتاظ الحجاج وقال ماأضحكك قالت وزراء اخيك فرعون خير من وزرائك هؤلاء قال وكيف ذلك قالت لانه استشارهم فى موسى فقالوا أرجه واخاه اى أنظره الى وقت آخر وهؤلاء يسالونك تعجيل قتلى فضحك الحجاج وامر لها بعطاء واطلقها (وحكى) ان هند بنت النعمان كانت أحسن نساء زمانها فوصف للحجاج حسنها فخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى الف درهم ودخل بها ثم انها انحدرت معه الى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة فاقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ثم ان الحجاج رحل بها الى العراق فاقامت معه ماشاء الله ثم دخل عليها فى بعض الايام وهى تنظر فى المرآة وتقول

وما هند الا مهرة عربية سلالة افراس تحللها بغل
فان ولدت مهرا فلله درها وان ولدت بغلا فجاء به البغل

فلما سمع الحجاج كلامها انصرف راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فاراد

الحجاج طلاقها فانفذ اليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتى الف درهم وهى التى كانت لها عليه وقال يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها يقول لك ابو محمد الحجاج كنت فبنت وهذه المائتا الف درهم التى كانت لك قبله فقالت اعلم يا ابن طاهر انا والله كنا فما حمدنا ثم بنا فما ندمنا وهذه المائتا الف هى لك ببشارتك بخلاصى من كلب ثقيف ثم بعد ذلك بلغ امير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها فارسل اليها يخطبها لنفسه فارسلت اليه كتابا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين ان الكلب ولغ فى الاناء فلما قرأ عبد الملك بن مروان الكتاب ضحك من قولها وكتب اليها يقول اذا ولغ الكلب فى اناء احدكم فليغسله سبعا احداهن بالتراب فغسل الاناء يحل الاستعمال فلما قرأت كتاب امير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت اليه تقول بعد الثناء عليه اعلم يا امير المؤمنين انى لا أجرى العقد الا بشرط فان قلت ما الشرط اقول ان يقود الحجاج جملى من المعرة الى بلدك التى انت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التى كان فيها اولا فلما قرأ ذلك الكتاب عبد الملك ضحك ضحكا شديدا وارسل الى الحجاج يامره بذلك فلما قرأ الحجاج رسالة امير المؤمنين اجاب ولم يخالف وامتثل الامر وارسل الحجاج الى هند يامرها بالتجهز فتجهزت وسار الحجاج فى موكبه حتى وصل المعرة بلد هند فركبت فى محمل وركب حولها جواريها وخدمها فترجل الحجاج وهو حاف واخذ بزمام البعير يقوده ويسير بها فاخذت تهزأ عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم انها قالت لدايتها يا دايتى اكشفى لى ستار المحمل لاشم رائحة النسيم فكشفته فوقع وجهها فى وجهه فضحكت عليه فانشدت تقول

فان تضحكى يا هند يارب ليلة ... تركتك فيها كالقباء المفرج

فاجابته تقول: وما نبالى اذا ارواحنا سلمت ... بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والعز مرتجع ... اذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل تلعب وتضحك الى ان قربت من بلد الخليفة فلما قربت من البلد رمت من يدها دينارا على الارض وقالت يا جمال انه سقط منا درهم فادفعه الينا فنظر الحجاج الى الارض فلم ير الا دينارا فقال انما هو دينار فقالت بل درهم قال بل دينار فقالت الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله منه دينارا فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جوابا

ثم دخل بها على الملك بن مروان فتزوج بها (قال) عون بن ابى شداد العبدى بلغنى ان الحجاج بن يوسف لما ذكرله سعيد بن جبير ارسل فى طلبه فلما حضر ومثل بين يديه قال ما اسمك قال سعيد بن جبير قال انت شقى ابن كثير قال بل امى كانت أعلم باسمي منك قال شقيت انت وشقيت امك قال الغيب يعلمه غيرك لأبدلنك بالدنيا ناراً قال لو علمت ان ذلك بيدك لاتخذتك الهاً قال فما قولك فى على أفى الجنة ام فى النار قال فما قولك فى الخلفاء قال لست عليهم بوكيل قال فأيهم احب اليك قال ارضاهم للخالق قال فايهم ارضى للخالق قال علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم قال فما بالك لاتضحك قال ايضحك مخلوق خلق من طين والطين تا كله النار قال فمالنا نضحك قال لو تستو القلوب قال ثم امر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فوضعه بين يديه فقال سعيد ان كنت جمعت هذا لتفتدى به من فزع يوم القيامة فصالح والا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما ارضعت ولاخير فى شيء جمع الدنيا الا ماطاب و زكا ثم دعا الحجاج بالات اللهو فبكى سعيد فقال الحجاج و يلك ياسعيد اخترأى قتله تريد قال اختر لنفسك ياحجاج فوالله لاتقتلنى الاقتلك الله مثلها فى الاخرة قال افتريد ان اعفوعنك قال ان كان العفو من الله فبلى واماانت فلا قال اذهبوا به فاقتلوه فلما خرج من الباب ضحك فاخبر الحجاج بذلك فأمر برده وقال مااضحكك قال عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك فامر بالنطع فبسط بين يديه وقال اقتلوه قال (وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين) قال وجهوه لغير القبلة قال سعيد (فاينما تولوا فثم وجه الله) قال كبوه لوجهه فقال سعيد :(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) فقال الحجاج اذبحوه فقال سعيد اشهد ان لااله الا الله واشهد ان محمداً عبده ورسوله اللهم لاتسلطه على احد يقتله بعدى فذبح على النطع رحمه الله تعالى فكان رأسه بعد قطعه يقول لااله الا الله وعاش الحجاج بعدها خمسة عشر يوما وذلك فى سنة خمس وتسعين وكان عمر سعيد رضى الله تعالى عنه تسعاً واربعين سنة والله اعلم

(خلافة الوليد بن عبد الله ابن مروان)

كان يختم القرآن فى ثلاث وكان يختم فى رمضان سبعة عشرة ختمة قال ابراهيم بن علية كان يعطينى اكياس الدنانير أقسمها فى الصالحين وكان يقول لولاان الله عز

وجل ذكر اللواط فى كتابه العزيز ماظننت ان احداً يفعله قال الحافظ بن عساكر كان الوليد عند اهل الشام افضل من خلفائهم بنى المسجد بدمشق وفرض للمجذومين مايكفيهم وقال لاتسالوا الناس وأعطى كل مقعد خادم وكل اعمى قائدا وذكر أن جملة ما انفق على المسجد الأموى اربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل وما كمل بناؤه الا اخوه سليمان لما ولى الخلافة وفعل خيرات كثيرة وآثاراً حسنة وبعد هذا كله فقد روى ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال لما ادرج فى اكفانه غلت يداه الى عنقه فسال الله العفو والعافية

(خلافة سليمان بن عبدالملك بن مروان)

(فمما) يذكر من محاسنه ان رجلا دخل عليه وقال ياامير المؤمنين أنشدك الله والاذان فقال سليمان اما انشدك الله فقد عرفناه فما الاذان قال قوله تعالى (فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين) فقال سليمان ماظلمتك قال ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الارض وقال والله لارفعت خدى من الارض حتى يكتب له برد ضيعته فكتب الكتاب وهو واضع خده على الارض ولما سمع كلام ربه الذى خلقه وخوله فى نعمه خشى من لعن الله وطرده رحمه الله (قيل) انه اطلق من سجن الحجاج ثلثمائة الف نفس مابين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً مشيرا وكان شرها فى الاكل نكاحا (قال) ابن خلكان فى ترجمته انه كان ياكل كل يوم نحو مائة رطل شامى . قال محمد بن سيرين رحمه الله سليمان افتتح خلافته بخير وختمها بخير فتحها باقامة الصلاة لمواقيتها الاولى وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه (وقال) ابى سويد حدثنى ابو زيد الاسدى قال دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس فى ايوان مباط بالرخام الاحمر مفروش بالديباج الاخضر فى وسط بستان ملتف قد اثمر واينع على راسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها وقد غابت الشمس وغنت الاطيار فتجاوبت وصفقت الرياح على الاشجار فتمايلت فقلت السلام عليك ايها الامير وكان مطرقا فرفع رأسه وقال ياأبا زيد فى مثل هذا الحين تصابحنا فقال اصلح الله الامير أوقامت القيامة قال نعم على اهل المحبة ثم اطرق مليا ورفع رأسه وقال ياابا زيد مايطيب فى

يومنا هذا قلت اعز الله الامير قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مقلوفة الناء اشربها من كفها وامسح في بخدها فاطرق سليمان مليا لا يرد جوابا تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق فلما رأ ابن الوصائف ذلك تنحين عنه ثم رفع راسه فقال يااباز يد حضرت في يوم انقضاء اجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك والله لاضربن عنقك او تخبرني ما انا وهذه الصفة من لبك قلت نعم ايها الامير كنت جالساً على باب اخيك سعد بن عبد الملك فاذا بجارية قد خرجت من باب القصر كانها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب اسكندراني يظهر منها بياض ثدييها وتدوير سرتها ونقش نكتتها وفي رجليها نعلان صراران قد اشرق بياض قدميها على حمرة اعليها بذؤابتين تضربان حقويها ولها صدغين كانهما نونان وحاجبان قد تقوسا على محاجر عينيها وعينان مملوءتان سحرا وانف كانه قصبة بلور وفم كانه جرح يقطر دما وهي تقول عباد الله من لي بدواء من لا يسلو وعلاج من لا يسمو طال الحجاب وابطا الجواب فالقلب طائر والعقل عازب والنفس والهة والفؤاد مختلس والنوم محتبس رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا ولو كان الى الصبر حيلة والى العزاء سبيل لكان امرا جميلا ثم اطرقت ملياً ورفعت راسها فقلت ايتها الجارية انسية انت ام جنية سماوية ام ارضية فقد اعجبني ذكاء عقلك واذهلني حسن منطقك فسترت وجهها بكفها كانها لم ترني ثم قالت اعذر ايها المتكلم فما اوحش الساعد بلا مساعد والمقاساة لصب معاند ثم انصرفت فوالله اصلح الله الامير ما اكلت طيباً الا غصصت به لذكرها وما رايت حسناً الا سمج في عيني لحسنها فقال سليمان يا ابا زيد كاد الجهل يستفزني والصبا يعاودني والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت اعلم يا ابا زيد ان تلك الجارية التي رايتها هي الذلفاء التي قيل فيها

كأنما الذلفاء ياقوتة قد اخرجت من كيس دهقان

شراؤها على اخي بالف الف درهم وهي عاشقة لمن باعها والله ان مات الا يموت بحبها ولا يدخل القبر الا بغصتها وفي الصبر سلوة وفي توقع الموت هيبة قم يا ابا زيد في دعة الله يا غلام ثقله ببدرة فاخذتها وانصرفت قال فلما افضت الخلافة له صارت اليه الذلفاء فامر بفسطاط فاخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء مونقة زهراء حدائق بهجة تحتها من انواع الزهر من اصفر فاقع واحمر ساطع وابيض

ناصح وكان لسليمان مغن يقال له سنان كان به يأنس واليه يسكن فامره ان يضرب فسطاطه بالقرب منه فكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان الى ذلك المنتزه فلم يزل فى اكل وشرب وسرور وانعم حبور الى ان انصرف شىء من الليل فذهب الى فسطاطه وذهب سنان ايضا فنزل به جماعة من اخوانه فقالوا له نريد قرى اصلحك الله قال وما قرا كم قالوا اكل وشرب وسماع قال اما الاكل والشرب فمباحان لكم واما السماع فقد عرفتم غيرة امير المومنين ونهيه الا ما كان فى مجلسه قالوا لا حاجة لنا بطعامك وشرابك ان لم تسمعنا قال فاختار وا صوتاً واحداً اغنيكموه قالوا اغننا بصوت كذا وكذا قال فشرع يتغنى بهذه الابيات

محجوبة سمعت صوتى فأرقها ... من آخر الليل لما نبه السحر
فى ليلة البدر ما يدرى مضاجعها ... اوجهها عنده ام عنــده القمر
لم يحجب الصوت حراس ولا غلق ... فدمعها لطروق الصوت ينحدر
لو مكنت لمشت نحوا على قدم ... وكاد من لينها للمشى ينفطر

قال فلما سمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت الى صحن الفسطاط فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافه الا رات ذلك كله فى نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكنا من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج الى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال ماهذا يازلفاء فقالت

الا يارب شخص رائع ومشوه ... قبيح المحايا واضح الاب والجد
يروعك منه صوته ولعله ... الى امة يعزى معا والى عبد

فقال سليمان دعينى من هذا المحال فوالله لقد خطر قلبك منه ياغلام على بسنان فدعت الذلفاء خادما لها وقالت له ان سبقت رسول امير المؤمنين الى بسنان فحذرته فلك عشرة آلاف درهم وانت حر لوجه الله تعالى فخرج الرسولان فسبق رسول امير المؤمنين فلما اتى به قال ياسنان الم انهك عن مثل هذا قال ياامير المؤمنين حمانى الشمول وانا عبد امير المؤمنين وغرس نعمته فان راى امير المؤمنين ان يعفو عنى فليفعل قال قد عفوت عنك ولكن اما علمت ان الفرس اذا صهل دقت له الحجر وان الفحل اذا هدر ضبعت له الناقة وان الرجل اذا تغنى صغت اليه المرأة واياك والعود الى ما كان منك فيطول غمك انتهى (وقيل) كان فى ايام سليمان رجل يقال له خزيمة بن بشر من

بنى أسد كانت له مروءة ظاهرة ونعمة وحسنة وفضل وبر بالاخوان فلم يزل على تلك الحاله حتى قعدبه الدهر فاحتاج الى اخوانه الذى كان يتفضل عليهم وكان واسيهم فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم اتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال يا ابنة عمى قد رأيت من اخوانى تغيرا وقد عزمت على ان الزم بيتى الى ان ياتينى الموت فاغلق بابه واقام يتقوت بما عنده حتى نفذ وبقى حائرا وكان يعرفه عكرمة الفياض الربعى متولى الجزيرة وانما سمى بذلك لاجل كرمه فبينما هو فى مجلسه اذ ذكر خزيمة ابن بشر فقال عكرمة الفياض ماحاله فقالوا قد صار الى امر لا يوصف وانه اغلق بابه ولزم بيته قال افما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولا مكافئا فقالوا لا فامسك عن الكلام ثم لما كان الليل عمد الى اربعة آلاف دينار فجعلها فى كيس وخرج سرا من اهله ومعه غلام يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فاخذ الكيس من الغلام ثم ابعده عنه وتقدم الى الباب فدفعه بنفسه فخرج اليه خزيمة فناوله الكيس وقال اصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه على يده ثم امسك بلجام الدابة وقال له من أنت جعلت فداك فقال له عكرمة ياهذا ماجئتك فى هذا الوقت والساعة وأريد أن تعرفنى قال فما أقبله الا ان عرفتنى من انت فقال انا جابر عثرات الكرام قال زدنى قال لا ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس الى ابنة عمه فقال لها ابشرى فقد اتى الله بالفرج والخير ولو كانت فلوسا فهى كثيرة قومى فاسرجى قالت لاسبيل الى السراج فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير ولا يصدق واما عكرمة فانه رجع الى منزله فوجد امرأته قد فقدته وسالت عنه فاخبرت بركوبه فانكرت ذلك وارتابت وقالت له والى الجزيرة لا يخرج بعد هدو من الليل منفردا من غلمانه فى سر من اهله الا الى زوجة اوسرية فقال اعلمى انى ماخرجت فى واحده منهما قالت فخبرنى فيم خرجت قال يا هذه ماخرجت فى هذا الوقت وانا اريد أن يعلم بى احد قالت لا بد أن تخبرنى قال تكتميه اذا قلت قالت فانى افعل فاخبرها بالقصة على وجهها وما كان من قوله و زدت عليه ثم قال اتحبين ان احلف لك ايضا قالت لا فان قلبى قد سكن وركن الى ماذكرت (واما) خزيمة فلما اصبح صالح الغرماء واصلح ما كان من حاله ثم تجهز يريد سليمان بن عبد الملك وكان نازلا يومئذ بفلسطين فلما وقف ببابه واستاذن دخل الحاجب فاخبره بمكانه وكان مشهورا بمروءته وكرمه وكان سليمان

عارفا به فلما دخل سلم عليه بالخلافة فقال له سليمان بن عبد الملك يا خزيمة
ما ابطاك عنا قال سوء الحال قال فما منعك من النهضة الينا قال ضعفى يا أمير المؤمنين
قال فبما نهضت الينا الآن قال لم اعلم يا أمير المؤمنين الا انى بعد هدو من الليل لم أشعر
الا و رجل يطرق الباب وكان من امره كيت وكيت واخبره بقصته من اولها الى آخرها
فقال سليمان هل تعرف الرجل فقال خزيمة ماعرفته ياامير المؤمنين لانه كان متنكرا
وماسمعت من لفظه الا انا جابر عثرات الكرام قال فتلهب وتلهف سليمان بن
عبد الملك على معرفته وقال لو عرفناه لكافأناه على مروءته ثم قال على بقناة فاتى
بها فعقد لخزيمة بن بشر المذكور على الجزيرة عاملا عوضا عن عكرمة الفياض فخرج
خزيمة طالب الجزيرة فلما قرب منها خرج عكرمة واهل البلد للقائه فسلما على
بعضهما ثم سارا جميعا الى ان دخلا البلد فنزل خزيمة فى دار الامارة وامر ان يأخذ
لعكرمة كفيلا وان يحاسب فحوسب فوجد عليه فضول اموال كثيرة فطالبه بأدائها
قال مالى الى شيء من ذلك سبيل قال لابد منها قال ليست عندى فاصنع ما انت
صانع فامر به الى الحبس ثم انفذ اليه من يطالبه فارسل يقول انى لست ممن يصون
ماله بعرضه فاصنع ما شئت فامر أن يكبل بالحديد فاقام شهراً كذلك أو أكثر فاضناه
ذلك وأضر به وأبلغ ابنة عمه خبره فجزعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاة لها وكانت
ذات عقل ومعرفة وقالت لها امضى الساعه الى باب هذا الامير خزيمة بن بشر
وقولى عندى نصيحة فاذا طلبت منك فقولى لااقولها الا للامير خزيمة بن بشر فاذا
دخلت عليه فسليه أن يخليك فاذا فعل ذلك فقولى ما كان جزاء جابر عثرات
الكرام منك كافاته بالحبس والضيق والحديد ففعلت الجارية ذلك فلماسمع خزيمة
كلامها نادى برفيع صوته واسوأتاه وانه لهو قالت نعم فامر لوقته بدابته فاسرجت
و بعث الى وجوه أهل البلد فجمعهم اليه واتى بهم الى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة
ومن معه فرآه قاعدا فى قاعة الحبس متغيرا اضناه الضر والألم وثقل القيود فلما نظر
اليه عكرمة والى الناس احشمه ذلك فنكس رأسه فاقبل خزيمة حتى كب على
رأسه فقبله فرفع عكرمة اليه رأسه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعالك وسوء
مكافاتى قال يغفر الله لنا ولك ثم أتى بالحداد ففك القيود عنه وامر خزيمة ان توضع
القيود فى رجل نفسه فقال عكرمة ماذا تريد فقال اريد أن ينالنى من الضر مثل

ما نالك قال اقسم عليك بالله لا تفعل فخرجا جميعا حتى وصلا الى دار خزيمة فودعه عكرمة واراد الانصراف فقال ما أنت ببارح قال وما تريد قال أغير حالك وان حيائى من ابنة عمك أشد من حيائى منك ثم امر بالحمام فاخلى وادخلاه معا فقام خزيمة وتولى أمره وخدمه بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمله وحمل عليه مالا كثيراً ثم سار معه الى داره واستاذنه فى اعتذار الى ابنة عمه فاستعذر اليها وتذمم من ذلك قال ثم ساله بعد ذلك ان يسير معه الى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ مقيم بالرملة فانعم له بذلك وسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فاعلمه بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال والى الجزيرة يقدم بغير امرنا ماهذا الا لحادث عظيم فلما دخل قال له قبل ان يسلم ما وراءك ياخزيمة قال الخير ياأمير المؤمنين قال فما الذى أقبلك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فاحببت ان اسرك به لما رأيت من تلهفك وتشوقك الى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض قال فاذن له بالدخول فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وادناه من مجلسه وقال يا عكرمة ما كان خيرك له الا وبالا عليك ثم قال سليمان اكتب حوائجك كلها وما تحتاج اليه فى رقعة ففعل ذلك فامر بقضائها من ساعته وأمر له بعشرة آلاف دينار وسفطين ثيابا ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وارمينيه واذربيجان وقال له امر خزيمة اليك ان شئت ابقيته وان شئت عزلته قال بل اردده الى عمله ياامير المؤمنين ثم انصرفا من عنده جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته والله اعلم

(خلافة امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ونفعنا به)

امه ام عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فهو تابعى جليل قال الامام احمد ابن حنبل ليس أحد من التابعين قوله حجة الا عمر ابن عبد العزيز كان رضى الله عنه عفيفا زاهداً ناسكا عابداً مؤمنا تقيا صادقا ازال ما كان بنو امية تذكر به عليا رضى الله عنها على المنابر وجعل مكان ذلك قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان الآية ولما ولى الخلافة وفد الشعراء اليه واقاموا ببابه اياماً لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك اذ مر بهم رجاء ابن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير قام اليه وانشد ابياتا منها

يا أيها الرجل المرخى عمامته　　هذا زمانك فاستاذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر شيئا من امرهم ثم مر بهم عدى بن ارطاة فقال جرير ابياتا آخرها قوله

لاتنس حاجتنا لقيت مغفرة   قد طال مكثى عن اهلى وعن وطنى

قال فدخل عدى على عمر وقال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة واقوالهم نافذة قال ويحك يا عدى مالى وللشعراء قال أعز الله أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح واعطى ولك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة قال كيف قال امتدحه العباس بن مرداس السلمى فاعطاه حلة قطع بها لسانه قال أو تروى من قوله قال نعم وانشد

رأيتك يا خير البرية كلها   نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا   عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان امراً مدنسا   واطفأت بالاسلام نارا تضرما
فمن مبلغ عنى النبى محمدا   وكل امرىء يجزى بما كان قدما
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه   وقومت ركنا شامخا قد تهدما

فقال ويلك ياعدى من بالباب منهم قال عمر بن ابى ربيعة قال أوليس هو الذى يقول

ثم نبهتها فمرت كعابا   طفلة ماتبين رجع الكلام
ساعة ثم أنها الى قالت   ويلتى قد عجلت يابن الكرام

فلو كان عدو الله اذ فجر كتم على نفسه لكان أستر له لايدخل على والله أبداً فمن بالباب سواه قال الفرزدق قال أوليس هو الذى يقول

هما دلتانى من ثمانين قامة   كما انقض باز اكتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الارض قالتا   أحى فيرجى أم قتيل نحاذره

لايدخل على والله ابدا فمن سواه منهم قال الاخطل قال ياعدى اوليس هو الذى قال

ولست بصائم رمضان طوعا   ولست بآكل لحم الاضاحى
ولست بزاجر عيسا بكوراً   الى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعود ادعو   قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا   واسجد عند مبتلج الصباح

والله لا يدخل على ابداً وهو كافر فمن بالباب سوى من ذكرت قال الاحوص قال اوليس هو الذى يقول   الله بينى وبين سيدها   يفر بها عنى واتبعه

فمن بالباب دون من ذكرت ايضا قال جميل ابن معمر قال اوليس هو الذى يقول

فياليتنا نحيا جميعا وان امت　　يوافق موتى موتها وضريحها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بعدها صالحا لكان اصلح والله لا يدخل على ابداً فهل احد سوى من ذكرت قال جرير قال اوليس هو الذى يقول

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيارة فارجعى بسلام

فان كان ولا بد فهو الذى يدخل فلما مثل بين يديه قال ياجرير اتق الله ولا تقل الاحقا فانشد قصيدته الرائية المشهورة التى منها

انا لنرجو اذا ما الغيث اخلفنا　　من الخليفة ما نرجو من المطر

جاء الخلافة او كانت له قدرا　　كما اتى ربه موسى على قدر

هذى الارامل قد قضيت حاجتها　　فمن لحاجة هذا الارمل الذكر

الخير ما دمت حيا لا يفارقنا　　بوركت ياعمر الخيرات من عمر

فقال ياجرير لا ارى لك فيمن ههنا حقا قال بلى ياامير المؤمنين انا ابن سبيل منقطع فاعطاه من طيب ماله مائة درهم وقال ويحك ياجرير لقد ولينا هذا الامر ولم نملك الا ثلثمائة درهم فمائة اخذها عبد الله ومائة اخذتها ام عبد الله ياغلام اعطه المائة الاخرى فاخذها جرير وقال والله لهى احب مال اكتسبته فى عمرى ثم خرج فقال له الشعراء ماوراءك ياجرير فقال ما يسوءكم خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وانى عنه لراض وانشد يقول

رايت رقى الشيطان لا تستفزه　　وقد كان شيطانى من الجن راقيا

(خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان)

قال ابو الفرج الاصبهانى فى كتاب الاغانى قال يونس الكاتب خرجت الى الشام فى خلافة هشام بن عبد الملك ومعى جارية فانية وكنت علمتها جميع مانحتاج اليه وانا اقدر فيها ان تساوى مائة الف درهم قال فلما قربنا من الشام نزلت القافلة على غدير من الماء ونزلت ناحية منه واصبت من طعام كان معى واخرجت ركوة كان فيها نبيذ فبينما انا كذلك واذا بفتى حسن الوجه والهيئة على فرس اشقر ومعه خادمان فسلم على وقال اتقبل ضيفا قلت نعم فاخذا بركابه ونزل وقال اسقنا من شرابك فسقيته فقال ان شئت ان تغنى صوتا فغنيته

حازت من الحسن ما لاحازه البشر　　فلذ لى فى هواها الدمع والسهر

فطـرب طربا شديداً واستعاده مراراً ثم قال قل لجاريتك فلتغن فامرتهـا فغنته

جوورة حار قلبي في محاسنها فلا قضيب ولا شمس ولا قمر

فطرب طربا شديداً واستعاده مرارا ولم يزل مقـيما الى ان صلينا العشاء ثم قال ما اقدمك علينا هذا البلد قال اردت بيع جاريتي هذه قال فكم املت فيها من الثمن قلت ما اقضى به ديني واصلح به حالى قال ثلاثون الفا قلت ما احوجني الى فضل الله والمزيد فيه قال ايقنعك اربعون الفا قلت فيها قضاء ديني وابقى صفراليد قال قد اخذناها بخمسين الفا من الدراهم ولك بعد ذلك كسوة ونفقة طريقك واشركك في حالى ابدا ما بقيت فقلت قد بعتكها قال افتثق بي ان اوصل ذلك غدا واحملها معي او تكون معك الى ان احمل ذلك اليك غدا فحملني السكر والحياء مع الخشية منه على ان قلت نعم قد وثقت بك فخذها بارك الله لك فيها فقال لاحد غلمانيه احملها على دابتك وارتدف وراءها وامض بها ثم ركب فرسه وودعني وانصرف فما هو الا ان غاب عني ساعه فعرفت موضع خطئي وغلطي وقلت ماذا صنعت بنفسي اسلم جاريتي الى رجل لم اعرفه ولا ادرى من هو وهب انى عرفته فمن اين الصلة اليه فجلست مفكراً الى ان صليت الصبح ودخل اصحابي دمشق وجلست حائرا لاادرى ماذا اصنع وقرعتني الشمس وكرهت المقام فهممت بالدخول الى دمشق ثم قلت لمن آمن ان الرسول يأتي فلا يجدني فاكون قد جنيت على نفسي جناية ثانية فجلست في ظل جدار هناك فلما اضحى النهار فاذا احد الغلامين الذين كانا معه قد اقبل علي فما اذكر انى قد سررت بشيء اعظم من سروري ذلك الوقت بالنظر اليه فقال يا سيدى ابطأ عليك فلم اذكر له شيئا مما كان بي ثم قال لى اتعرف الرجل قلت لا قال هو الوليد بن هشام ولى العهد فسكت عند ذلك ثم قال قم فاركب واذا معه دبة فركبتها وسرنا الى ان وصلنا الى داره فدخلت اليه واذا بالجارية قد وثبت وسلمت علي فقلت ما كان من امرك قالت انزلني الى هذه الحجرة وامرلي بما احتاج اليه فجلست عندها ساعة واذا قد اتاني خادم له فقال لى قم فقمت فادخلني على سيده فاذا هو صاحبي بالامس وهو جالس على سريره فقال من تكون فقلت يونس الكاتب قال مرحبا بك قد كنت والله اليك بضنين وكنت اسمع بخبرك فكيف كان مبيتك في ليلتك قلت بخير اعزك الله قال فلعلك ندمت على ما كان منك البارحة وقلت دفعته

جاريتى الى رجل لااعرفه ولا أعرف اسمه ولا من اى البلاد هو فقلت معاذ الله ايها الامير ان اندم ولو اهديتها الى الامير كانت اقل واخس وما قدر هذه الجارية فقال والله لكنى ندمت على اخذها منك وقلت رجل غريب لا يعرفنى وقد دهمته وسفهت عليه فى استعجالى لاخذ الجارية افتذكر ما كان بيننا قلت نعم قال بعتنى هذه الجارية بخمسين الف درهم قلت نعم قال هات ياغلام المال فوضعوه بين يديه فقال هات ياغلام الف دينار فاتى بها ثم قال ياغلام هات خمسمائة دينار أخرى فجاء بها ثم قال هذا ثمن جاريتك فضممه اليه وهذه الف دينار لحسن ظنك بنا وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك وما تبتاعه لاهلك رضيت قلت رضيت وقبلت يديه وقلت والله لقد ملات عينى ويدى ثم قال والله انى لم ادخل بها ولا شبعت من غنائها على بها فجاءت فامرها بالجلوس فجلست فقال لها غنى فانشدت تقول

ايامن حاز كل الحسن طرا ويا حلو الشمائل والدلال
جميع الحسن فى عجم وعرب وما فى الكل مثلك يا غزالى
فاعطف يا مليح على محب بوعدك او بطيف من خيال
حلالى فيك ذلى وافتضاحى وطاب لمقلتى سهر الليالى
وما انا فيك اول مستهام فكم قبلى قتلت من الرجال
رضيتك لى من الدنيا نصيبا وانت اعز من روحى ومالى

فطرب طرباً شديدا وشكر حسن تاديبى لها وتعليمى اياها ثم قال ياغلام قدم له دابة بسرجها وآلتها لركوبه و بغلا لحمل حوائجه وثقله ثم قال يا يونس اذا بلغك ان هذا الامر قد افضى الى فالحق بى فوالله لاملان لك يدك ولاعلين قدرك ولاغنيتك ما بقيت قال فاخذت المال وانصرفت فلما افضت الخلافة اليه سرت اليه فوفى والله بوعده وزاد فى اكرامى وكنت معه على اسر حال وأسنى منزلة وقد اتسعت احوالى وكثرت اموالى وصار لى من الضياع والاملاك ما يكفينى الى مماتى و يكفى من بعدى ولم أزل معه حتى قتل عفا الله عنه (وقيل) انه لما حج هشام فى ايام ابيه طاف بالبيت وجهد ان يصل الى الحجر الاسود ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام فنصب له منبر وجلس عليه ينظر الى الناس ومعه جماعة من اهل الشام فبينما هو كذلك اذ اقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن ابى طالب رضى الله عنهم اجمعين وكان من احسن الناس

وجهاً واطيبهم ارجاً فطاف بالبيت فلما انتهى الى الحجر الاسود تنحى له الناس حتى استلمه فقال رجل من اهل الشام من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة فقال هشام لا أعرفه مخافة ان يرغب فيه اهل الشام وكان ابو فراس الفرزدق حاضرا فقال انا والله اعرفه فقال الشامى من هذا يا ابا فراس فقال

هذا الذى تعرف البطحاء وطاته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقى الطاهر العلم
اذ راته قريش قال قائلها	الى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى الى ذروة العز التى قصرت	عن نيلها عرب الاسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته	ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
فى كفه خيزران ريحه عبق	من كف اروع فى عرنينه شمم
يغضى حياء ويغضى من مهابته	فما يكلم الا حين يبتسم
ينشق نور الهدى من نور غرته	كالشمس ينجاب عن اشراقها القتم
مشتقة من رسول الله نبعته	طابت عناصره والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله	بجده انبياء الله قد ختموا
الله شرفه قدرا وعظمه	جرى بذاك له فى لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره	العرب تعرف من انكرت والعجم
كلتا يديه غياث عم نفعهما	يستوكفان ولا يعروها عدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره	يزينه اثنان خلق الحسن والشيم
حمال اثقال اقوام اذا افترحوا	حلو الشمائل يحلو عنده نعم
ما قال لا قط الا فى تشهده	لولا التشهد كانت لاؤه نعم
عم البرية بالاحسان فانقشعت	عنها الغياهب والاملاق والعدم
من معشر حبهم دين وبغضهم	كفر وقربهم منجى ومعتصم
ان عد اهل التقى كانوا ائمتهم	اوقيل من خير اهل الارض قيل هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم	ولا يدانيهم قوم وان كرموا
هم الغيوث اذا ما ازمة ازمت	والاسد اسد الشرى والباس محتدم
لا ينقص العسر بسطاً من اكفهم	سيان ذلك ان اثروا وان عدموا

مقدم عند ذكر الله فاذكرهم في كل بدء ومختوم به الكلم
يابى لهم ان يحل الذم ساحتهم خلق كريم وايد بالندى هضم
اى الخلائق ليست فى رقابهم لاولية هذا اوله نعم
من يعرف الله يعرف اولية ذا فالدين من بيت هذا ناله الامم

فلما سمع هشام غضب وحبس الفرزدق فانفذ له زين العابدين رضى الله عنه باثنى عشر الف درهم فردها وقال مدحته لله لا للعطاء والصلات فقال زين العابدين انا اهل بيت اذا وهبنا شيئا لا نعود فيه فقبلها الفرزدق انتهى (ومما يحكى) ان هشام بن عبد الملك كان ذات يوم فى صيده وقنصه اذ نظر الى ظبي تتبعه الكلاب فتبعه واحاله الى خباء اعرابى يرعى غنما فقال هشام ياصبي دونك هذا الظبي فاتنى به فرفع الصبي رأسه اليه وقال له ياجاهل بقدر الاخيار لقد نظرت الى باستصغار وكلمتني باحتقار فكلامك كلام جبار وفعلك فعل حمار فقال هشام ياصبي ويلك أما تعرفني فقال قد عرفني بك سوء ادبك اذ بدأتني بكلامك قبل سلامك فقال ويلك انا هشام بن عبد الملك فقال الاعرابى لاقرب دارك ولا حيي مزارك ما اكثر كلامك واقل اكرامك فما استتم حتى احدقت به الجيوش من كل جانب كل منهم يقول السلام عليك ياامير المؤمنين فقال هشام اقصروا الكلام واحفظوا الغلام فقبضوا عليه ورجع هشام الى قصره وجلس فى مجلسه وقال على بالغلام البدوى فاتى به فلما رأى الغلام كثرة الغلمان والحجاب والوزراء والكتاب وأبناء الدولة وأرباب الصوله لم يكترث بهم ولم يسأل عنهم بل جعل ذقنه على صدره وجعل ينظر حيث تقع قدماه الى ان وصل الى هشام فوقف بين يديه ونكث رأسه الى الارض وسكت الغلام وامتنع من الكلام فقال بعض الخدام ياكلب العرب مامنعك أن تسلم على أمير المؤمنين فالتفت اليه مغضبا وقال يابردعة الحمار منعني من ذلك طول الطريق ونهر الدرجة والتعويق فقال هشام وقد تزايد به الغضب ياصبي قد حضرت فى يوم دنا فيه أجلك وخاب فيه املك وانصرم فيه عمرك فقال له الصبي والله ياهشام لئن كان فى المدة تأخير ماسرني من كلامك لا قليل ولا كثير فقال له الحاجب بلغ من امرك ومحلك يااخس العرب ان تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة فقال له مسرعا لقيت الخذل ولامك الويل والهبل اما سمعت ماقاله الله تعالى يوم تاتى كل نفس تجادل عن نفسها فاذا كان الله يجادل جدالا فمن

هشام حتى لايخاطب خطابا فعندذلك قام هشام واغتاظ غيظاً شديدا وقال ياسياف على برأس هذا الغلام فقد اكثر الكلام فبما خطر على الاوهام فقام السياف واخذ الغلام وبركه فى نطع الدم وسل سيف النقمة على رأسه وقال ياامير المؤمنين عندك المذل بنفسه المتقلب فى رمسه أأضرب عنقه وانا برىء من دمه قال نعم فاستاذنه ثالثة فهم ان ياذن له فضحك الصبي حتى بدت نواجذه فازداد هشام منه تعجبا وقال يا صبي اظنك معتوها ترى انك مفارق الدنيا ومزايل الحياة وانت تضحك هزأ بنفسك فقال يا امير المؤمنين لئن كان فى المدة تأخير ولم يكن فى الاجل تقصير ماضرنى منك قليل ولا كثير ولكن ابيات حضرت الساعة فاسمعها فقتلى لايفوت فاكثر الصموت فقال هشام هات واوجز فهذا اول اوقاتك من الآخرة وآخر اوقاتك من الدنيا فانشد يقول

نبئت ان الباز علق مرة … عصفور برساقه المقدور
فتعلق العصفور فى اظفاره … والباز منهمك عليه يطير
فاتى لسان الحال يخبر قائلا … ها قد ظفرت وانني ماسور
مثلى فما يغنى لمثلك جوعة … ولئن اكلت فانني محقور
فتبسم الباز المذل بنفسه … طربا واطلق ذلك العصفور

قال فتبسم هشام وقال وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تلفظ بهذا من اول وقت من اوقاته وطلب مادون الخلافة لاعطيته ياخادم احش فاه درا وجوهرا واحسن جائزته ودعه يمضى الى حال سبيله

(ابتداء الدولة العباسية)

كان القائم بهذه الدولة أبو مسلم الخراسانى وكان اسمه عبد الرحمن بن مسلم فمن قوله

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت … عنه ملوك بنى مروان اذحشدوا
مازلت اسعى بجهد فى دمارهم … والقوم فى غفلة والناس قدرقدوا
حتى ضربتهموا بالسيف فانتبهوا … من نومة لم ينمها قبلهم احد
ومن رعى غنما فى ارض مسبعة … ونام عنها تولى رعيها الاسد

(اولهم أبو عبد الله السفاح) ذكر ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء عن خالد بن صفوان انه دخل يوما على ابى العباس السفاح وليس عنده احد فقال يا امير المؤمنين انى والله مازلت منذ قلدك الله خلافته أطلب ان أصيرمك بمثل هذا الموقف فى الخلوة

فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بامساك الباب فعل حتى نفرغ فامر الحاجب بذلك فقال ياامير المؤمنين انى فكرت فى امرك واستجليت الفكر فيك فلم أر أحدا له قدرة واتساع فى الاستمتاع بالنساء ولا أضيق فيهن عيشاً منك انك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين فاقصرت عليها فان مرضت مرضت وان غابت غبت وان عزلت عزلت وحرمت ياأمير المؤمنين على نفسك التلذذ بما يشتهى منهن فان منهن الطويلة التى تشتهى لحسنها والبيضاء التى تحب لرؤيتها والسمراء اللعساء والصفراء الذهبية ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الالسنة العذبة والجواب الحاضر وبنات سائر الملوك وما يشتهى من نضارتهن ونظافتهن وتحال خالد لسانه فاطنب فى صفات ضروب الجوارى وشوقه اليهن فلما فرغ من كلامه قال له السفاح ويحك ملات مسامعى ماأشغل خاطرى والله ماسلك مسامعى كلام أحسن من هذا فاعد على كلامك فقد وقع منى موقعاً فاعاد عليه خالد كلامه باحسن مما ابتدأ به ثم قال له انصرف فانصرف وبقى العباس مفكراً فدخلت عليه ام سلمة زوجته وكان قد حلف لها أنه لا يتزوج عليها ولا يتخذ عليها سرية ووفى لها فلما رأته على تلك الحالة قالت له انى لا انكرك ياأمير المؤمنين فهل حدث شىء تكرهه أو أتاك خبرا ارتعت له قال لا فلم تزل به حتى اخبرها بمقالة خالد فقالت له وماقلت لابن الفاعلة فقال لها اينصحنى وتشتمينه فخرجت الى مواليها وامرتهم بضرب خالد قال خالد فخرجت من الدار مسرورا بما ألقيت الى أمير المؤمنين ولم أشك فى الصلة فبينما انا واقف اذ اقبل موالى ام سلمة يسالون عنى فحققت الجائزة فقلت لهم ها أنا واقف فاستبق الى أحدهم بخشبة فغمزت برذونى فلحقنى وضرب كفل البرذون وركضت ففرت منهم واستخفيت فى منزلى أياما ووقع فى قلبى انى منى من ام سلمه فبينما انا ذات يوم جالس فى المنزل فلم اشعر الا بقوم قد هجموا على فقالوا أجب أمير المؤمنين فسبق الى قلبى انه الموت فقلت انا لله وانا اليه راجعون لم أر دم شيخ أضيع من دمى فركبت الى دار أمير المؤمنين فاصبته جالسا ولحظت فى المجلس بيتا عليه ستور رقاق وسمعت حساً خفيفا خلف الستر فاجلسنى ثم قال ياخالد أنت وصفت لامير المؤمنين صفة فاعدها فقلت نعم ياأمير المؤمنين أعلمتك ان العرب ماشتقت اسم الضرتين الامن الضر وان أحدا لم يكثر من النساء اكثر من واحدة الاكان فى ضر وتنغيص فقال السفاح لم يكن هذا من

كلامك اولا قالت بلى يا امير المؤمنين واخبرتك ان الثلاث من النساء يدخلن على الرجل البؤس وتشييب الرؤس فقال برئت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت سمعت هذا منك اولا مرفى حديثك قلت بلى يا امير المؤمنين واخبرتك ان الاربع من النساء شر مجتمع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه قال والله ماسمعت منك هذا اولا قلت بلى يا امير المؤمنين واخبرتك ان ابكار الاماء رجال الا انه ليست لهن خصاء قال امير المؤمنين افتكذبني قلت افتقتلني قال خالد فسمعت ضحكا خلف الستر ثم قلت واخبرتك ان عندك ريحانة قريش وانت تطمح بعينك الى النساء والجوارى فقيل لى من وراء الستر صدقت ياعماه هذا حديثك ولكنه غير حديثك ونطق بما فى خاطره عن لسانك فقال السفاح مابك قاتلك الله قال خالد فانسللت وخرجت فبعثت الى ام سلمه بعشرة آلاف درهم وبرذونا وتخت ثياب انتهى (وروى) ان ابا دلامة الشاعر كان واقفا بين يدى السفاح فى بعض الايام فقال سلنى حاجتك فقال له ابودلامة اريد كلب صيد فقال اعطوه اياه فقال ودابة اتصيد عليها فقال اعطوه دابة فقال وغلام يقود الكلب والصيد فقال اعطوه غلاما فقال وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه فقال اعطوه جارية فقال هؤلاء يا امير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها فقال اعطوه دارا تجمعهم ثم قال وان تكن لهم الدار فمن اين يعيشون قال قد قطعتك عشرة ضياع عامرة وعشرة غامرة من فيافى بنى اسرائيل قال وما معنى الغامرة يا امير المؤمنين قال مالا نبات فيها قال قد اقطعتك يا امير المؤمنين مائة ضيعة عامرة من فيافى بنى سعد فضحك منه وقال اعطوها كلها عامرة قال الحافظ فانظر الى خرفه بالمسالة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية وجعل ياتى بمسئلة مسئلة على ترتيب وفكاهة حتى نال ماساله ولو سال ذلك بديهة لما وصل اليها (وروى) عن الحسن بن الحصين قال لما افضت الخلافة الى بنى العباس كان من جملة من اختفى ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك ولم يزل مختفيا الى ان اضناه واضجره الاختفاء فاخذ له امان من السفاح وكان ابراهيم رجلا اديبا بليغا حسن المحاضرة فحظى عند السفاح فقال له لقد مكثت زمانا طويلا مختفيا فحدثنى باعجب مارايت فى اختفائك فانها كانت ايام تقدير فقال يا امير المؤمنين وهل سمع باعجب من حديثى لقد كنت مختفيا فى منزلى انظر منه الى البطحاء فبينما انا على مثل ذلك

واذا باعلام سود قد خرجت من الكوفه تريد الحيرة فوقع فى ذهنى انها خرجت تطلبنى فخرجت متنكرا حتى اتيت الكوفة من غير الطريق وانا والله متحير ولا اعرف بها احدا واذا انا بباب كبير فى رحبة منيفة فدخلت فى تلك الرحبة فوقفت قريبا من الدار واذا برجل حسن الهيئة وهو راكب فرسا ومعه جماعة من اصحابه وغلمانه فدخل الرحبة فرآنى واقفا مرتابا فقال لى ألك حاجة قلت غريب خائف من القتل قال ادخل فدخلت الى حجرة داره فقال لك هذا وهيا لى ما أحتاج اليه من فرش وآنية ولباس وطعام وشراب واقمت عنده و والله ماسالنى قط من انا ولا ممن اخاف وهو فى اثناء ذلك يركب فى كل يوم و يعود متعوبا متأسفا كانه يطلب شيئاً فاته ولم يجده فقلت له يوما اراك فى كل يوم تركب وتعود متعوبا متأسفاً كانك تطلب شيئا فاتك فقال لى ان ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل ابى وقد بلغنى انه مختف من السفاح وانا اطلبه لعلى اجده وآخذ بثارى منه فتعجبت والله ياأمير المؤمنين من هربى وشؤم بختى الذى ساقنى الى منزل رجل يريد قتلى و يطلب ثاره منى فكرهت الحياة واستعجلت الموت لما نالنى من الشدة فسالت الرجل عن اسم ابيه وعن سبب قتله فعرفنى الخبر فوجدته صحيحا فقلت ياهذا قد وجب على حقك وان من حقك ان ادلك على قاتل ابيك واقرب اليك الخطوة واسهل عليك ما بعد فقال اتعلم أين هو قلت نعم فقال اين هو فقلت والله انا فخذ بثارك منى فقال لى اظن ان الاختفاء اضناك فكرهت الحياة قلت لعم انا والله قتلته يوم كذا وكذا فلما علم صدقى تغير لونه واحمرت عيناه واطرق رأسه ساعة ثم رفع رأسه الى وقال لى اما ابى فسيلقاك غدا يوم القيامة فيحاكمك عند من لايخفى عليه خافية واما انت فاست مخفر ذمتى ولا مضيما نزيلى اخرج عنى فانى لا آمن من نفسى عليك بعد هذا اليوم ثم وثب ياامير المؤمنين الى صندوق فاخرج منها صرة فيها خمسمائه دينار وقال لى خذ هذه واستعن بها على اختفائك فكرهت اخذها وخرجت من عنده وهو اكرم رجل رأيت فبقى السفاح يهتز طربا و يتعجب (وعن) الهيثم بن عدى قال كان ابو العباس السفاح تعجبه المسامرة ومنازعة الرجال فحضرت ذات ليلة فى مسامرة ابراهيم بن مخرمة الكردى وناس من بنى الحرس بن كعب وهم اخواله وخالد بن صفوان بن ابراهيم التميمى فخاضوا فى الحديث وتذاكروا فى مضر واليمن فقال ابراهيم ياامير المؤمنين

ان اليمن هم العرب الذين دامت لهم الدنيا وكانت لهم القرى ولم يزالوا ملوكا ار بابا
و ورثوا ذلك كابرا عن مكابر منهم النعمانيات والمنذريات والقابوسات والتبابعة ومنهم
من مدحته الزبر ومنهم غسيل الملائكة ومنهم من اهتز لموته العرش ومنهم من كلمه
الذئب ومنهم الذى كان ياخذ كل سفينة غصبا وليس شيء له خطر الا واليهم ينسب
من فرس رائع اوسيف قاطع او درع حصينة او حلة مصونه او درة مكنونة ان
سئلوا اعطوا وان سيموا ابوا وان نزل بهم ضيف قروا لا يبلغهم مكابر ولا ينالهم
مفاخرهم العرب العرباء وغيرهم المتعربة قال ابو العباس السفاح ما اظن التميمى يرضى
بقولك ثم قال له ما تقول يا خالد قال ان اذنت لى فى الكلام تكلمت قال اذنت لك
فى الكلام فتكلم ولا تهب احدا فقال اخطا يا أمير المؤمنين المقتحم بغير علم والناطق
بغير صواب فكيف يكون ماقاله وان القوم ليست لهم السن فصيحه ولا حجة
رجيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة وهم منا على منزلتين ان حادوا عن قصدنا
اكلوا وان جازوا حكمنا قتلوا يفخرون علينا بالنعمانيات والمنذريات وغير ذلك
مما سناتى عليه ونفخر عليهم بخير الانام واكرم الكرام سيدنا محمد عليه افضل الصلاة
والسلام ولله المنة علينا وعليهم لقد كانوا اتباعه فيه عزوا وله اكرموا منا النبى صلى
الله عليه وسلم ومنا الخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور والمسعى وزمزم والمقام والمنبر
والركن والحطيم والمشاعر والحجابة والبطحاء مع مالا يخفى من المآثر ولا يدرك
من المفاخر فليس يعدل بنا عادل ولا يبلغ فضلنا قول قائل ومنا الصديق والفاروق
والوصى واسد الله وسيد الشهداء ذو الجناحين وسيف الله عرفوا الله وا تاهم اليقين
فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ثم التفت الى ابراهيم فقال اعالم انت بلغة
قومك قال نعم قال فما اسم العين قال الجحجمة قال والسن قال الميذن قال والاذن قال
الصنارة والاصابع قال الشناتر قال واللحية قال الذئب قال والذئب قال الكنع
قال افمؤمن انت بكتاب الله قال نعم قال فان الله تعالى يقول (انا انزلناه قرآنا
عربيا لعلكم تعقلون) وقال تعالى (بلسان عربى مبين) وقال (وما ارسلنا من رسول
الا بلسان قومه) فنحن العرب والقرآن بلساننا نزل ألم تر ان الله تعالى قال العين
بالعين ولم يقل الجحجمة بالجحجمة وقال السن بالسن ولم يقل الميذن بالميذن وقال الاذن
بالاذن ولم يقل الصنارة بالصنارة وقال (يجعلون اصابعهم فى اذانهم) ولم يقل

شذناتوهم وقال (لا تاخذ بلحيتي ولا برأسي) ولم يقل بذنبي وقال تعالى (فاكله الذئب) ولم يقل فاكله الكلب ثم قال اسالك عن اربع ان اقررت بهن قهرت وان جحدتهن كفرت قال وما هن قال الرسول منا او منكم قال منكم قال فالقرآن نزل علينا أو عليكم قال عليكم قال فالبيت الحرام لنا أو لكم قال لكم قال فالخلافة فينا أوفيكم قال فيكم قال خالد فما كان بعد هذه الاربع فهو لكم

(خلافة ابى جعفر المنصور)

قيل انه كان يحفظ الشعر من مرة وله مملوك يحفظه من مرتين وكان له جارية تحفظه من ثلاث مرات وكان بخيلا جدا حتى أنه كان يلقب بالدوانيقي لانه كان يحاسب على الدوانق فكان اذا جاءشاعر بقصيدة قال له ان كانت مطروقة بان يكون أحد حفظها أو أحد انشاها أى بان كان اتى بها احد قبلك فلا نعطيك لها جائزة وان لم يكن احد يحفظها نعطيك زنة ما هى مكتوبة فيه فيقرا الشاعر القصيدة فيحفظها الخليفة من أول مره ولو كانت الف بيت ويقول للشاعر اسمعها منى وينشدها بكمالها ثم يقول له وهذا المملوك يحفظها وقد سمعها المملوك مرتين مرة من الشاعر ومرة من الخليفة فقرأها ثم يقول الخليفة وهذه الجارية التى خلف الستارة تحفظها ايضا وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتقرؤها بحروفها فيذهب الشاعر بغير شىء (قال الراوى) وكان الاصمعى من جلسائه وندمائه فنظم ابياتا صعبة وكتبها على قطعة عمود من رخام ولفها فى عباءة وجعلها على ظهر بعير وغير حليته فى صفة اعرابى غريب وضرب له لثاما ولم يبين منه غير عينيه وجاء الى الخليفة وقال انى امتدحت امير المؤمنين بقصيدة فقال ياأخا العرب ان كانت لغيرك لانعطيك عليها جائزة والا نعطيك زنة ماهى مكتوبة عليه فانشد الاصمعى هذه القصيدة

صوت صفير البلبل هيج قلبى الثمل	الماء والزهر معا
مع زهر لحظ المقل وانت ياسيدى دلى	وسيدى ومولى
وكم وكم تيمنى غزيل عقيقل	قطفت من وجنته
بالشم ورد الخجل وقلت بس بسبسنى	فلم يجد بالقبل
وقال لا لا لا لا وقد غدا مهرولى	والخودمالت طربا
من فعل هذا الرجل وولت ولوة	ولى ولى ياولى

فقلت لا تولولى وبنى اللؤلؤى لما رآنه آشمطا
يريد غير القبل وبعده ما يكتفى الا بطيب الوصل لى
قالت له حين كذا انهض وجد بالنقلى وفتيـة سـقونى
قهيوة كالعسـلى شممتها فى انفى ازكى من القرنفل
فى وسط بستان حلى بالزهر والسرور لى والعود دندن دنلى
والطبـل طبطبلى والرقص قد طبطبلى والسقف سقسقلى
شو واوشو واوشاهشو على ورق سفرجلى وغرد القمرى يصيح
من ملل فى مللى فلو ترانى راكبا عـلى حمار اهزلى
يمشى على ثلاثة كمشية العرنجلى والناس ترجمجملى
فى السوق بالقلقلى والكل كعكع كعكع خلفى ومن حوللى
لكن مشيت هاربا من خشية العقيقلى الى لقاء ملك
معظـم مبجـل يامر لى بخلعة حمراء كالدم دملى
اجر فيهـا ماشيا مبغـددا للذيل انا الاديب الالمعى
من حى ارض الموصل نظمت قطعا زخرفت تعجز الادبلى

اقول من مطلعها صوت صفير البلبلى

(قال الراوى) فلم يحفظها الملك لصعوبتها ونظر الى المملوك والى الجارية فلم يحفظها أحد منهما فقال يا أخا العرب هات الذى هى مكتوبة فيه اعطيك زنته قال يامولاى إنى لم أجد ورقا اكتب فيه وكان عندى قطعة عمود من رخام من عهد ابى وهى ملقات ليس لى بها حاجة فنقشتها فيها فلم يسع الخليفة الا انه اعطاه وزنها ذهبا فنفذ مافى خزينته من المال فاخذه وانصرف فلما ولى قال الخليفة يغلب على ظنى ان هذا الاصمعى فاحضره وكشف عن وجهه فاذا هو الاصمعى فتعجب منه ومن صنيعه وأجازه على عادته قال ياأمير المؤمنين ان الشعراء فقراء واصحاب عيال وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية فاذا أعطيتهم ماتيسر ليستعينوا به عـلى عيالهم لم يضرك والله اعـلم (وذكر الغزالى) وابن بليان وغيرهمـا ان اباجعفر المنصور حج ونزل فى دار الندوة وكان يخرج سحرا فيطوف بالبيت فخرج ذات ليلة سحرا فبينما هو يطوف إذ سمع قائلا يقول اللهم اشكو اليك ظهور البغى

والفساد فى الارض ومايحول بين الحق واهله من الطمع فهرول المنصور فى مشيته
حتى ملأ سمعه ثم رجع الى دار الندوة وقال لصاحب شرطته ان بالبيت رجلا
يطوف فائتنى به فخرج صاحب الشرطة فوجد رجلا عند الركن اليمانى فقال اجب
امير المؤمنين فلما دخل عليه قال انا الذى سمعتك آنفا تشكو الى الله من ظهور البغى
والفساد فى الارض ومايحول بين الحق واهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعى
ماامرضنى فقال ياامير المؤمنين ان الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق واهله
وامتلأت بلاد الله بذلك بغيا وفسادا انت هو فقال له المنصور ويحك كيف يدخلنى
الطمع والصفراء والبيضاء ببابى وملك الارض فى قبضتى فقال الرجل سبحان الله
ياامير المؤمنين وهل داخل احدا من الطمع ماداخلك استرعاك الله امور المؤمنين
واموالهم فاهملت امورهم واهممت بجمع اموالهم واتخذت بينك وبين رعيتك حجابا
من الجبس والاجر وحجبة معهم السلاح وامرت ان لا يدخل عليك الا فلان
وفلان نفرا استخلصتهم لنفسك وامرتهم على رعيتك ولم تامر بايصال المظلوم ولا الجائع
ولا العارى ولا احدا الا وله فى هذا المال حق فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم
لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الاموال وتقسمها قالوا هذا خان الله ورسوله فالنا
لانخونه فاجمعوا على ان لا يصل اليك من اموال الناس الا ما ارادوا فصار هؤلاء
شركاءك فى سلطانك وانت غافل عنهم فاذا جاء المظلوم الى بابك وجدك اوقفت
رجلا ينظر فى مظالم الناس فان كان الظالم من بطانتك غالى صاحب المظالم بالمظلوم
وسوف من وقت الى وقت فاذا اجتهد وظهرت انت صرخ بين يديك فضربه
اعوانك ضربا شديدا ليكون نكالا لغيره وانت ترى ذلك ولا تنكر لقد كانت
الخلفاء قبلك من بنى امية اذا اتت اليهم الظلامة ازيلت فى الحال ولقد كنت اسافر
الصين ياامير المؤمنين فقدمت مرة فوجدت الملك الذى به قد فقد سمعه فبكى فقال
له وزراؤه ما يبكيك ايها الملك لا ابكى الله لك عينا الا من خشيته فقال والله ما بكيت
لمصيبة نزلت بى وانما ابكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا يسمعه ثم قال ان كان سمعى ذهب
فان بصرى يذهب نادوا فى الناس لا يلبس احد ثوبا احمر الا مظلوم وكان يركب
الفيل طرفى النهار ويدور فى البلد لعله يجد احدا لابسا ثوبا احمر فيعلم انه مظلوم
فينصفه هذا الامير رجل مشرك غلبت عليه رأفته على شح نفسه بالمشركين وانك

مؤمن بالله ورسوله وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يا امير المؤمنين لا تجمع الأموال الا لأحدى ثلاث فان قلت انما اجمع الأموال لمصالح الملك فقد اراك الله عبرة فى الملوك والقرون من قبلك ما اغنى عنهم ما اعدوا من الأموال والرجال والكراع حين اراد الله بهم ما اراد وان قلت انما اجمع للولد فقد اراك الله عبرة فيمن تقدم من جمع المال للولد فلم يغن ذلك عنهم شيئا بل ربما مات فقيرا ذليلا حقيرا وان قلت انما اجمعه لغاية هى اجسم من الغاية التى انت فيها فوالله ما فوق منزلتك الا منزلة لا تدرك الا بالعمل الصالح فبكى المنصور بكاء شديدا ثم قال وكيف اعمل وقد فرت منى العباد ولم تقربنى والصالحون لم يدخلوا على فقال يا امير المؤمنين افتح الباب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وخذ المال بما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وانا ضامن من هرب ان يعود اليك فقال المنصور نفعل ان شاء الله تعالى وجاء المؤذن فاذن للصلاة فقام وصلى فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجده فقال لصاحب الشرطة على بالرجل الساعة فخرج يطلبه فوجده عند الركن اليمانى فقال اجب امير المؤمنين فقال ليس الى ذلك من سبيل فقال اذن يضرب عنقى فقال ولا الى ضرب رقبتك من سبيل ثم اخرج من مزود كان معه ورقا مكتوبا فقال له خذه فان فيه دعاء الفرج من دعا به صباحا ومات من يومه مات شهيداً ومن دعا به مساء ومات من ليلته مات شهيداً وذكر له فضلا عظيما وثوابا جزيلا فاخذه صاحب الشرطة واتى به الى المنصور فلما رآه قال له ويلك او تحسن السحر قال لا والله يا أمير المؤمنين ثم قص عليه القصة فامر المنصور بنقله وأمر له بالف دينار وهو هذا : اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت بما تحت ارضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وانقاد كل شىء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والاخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم وغم أصبحت وأمسيت فيه فرجا ومخرجا اللهم ان عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى وسترك عن قبيح عملى أطمعنى ان اسالك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه ادعوك آمنا واسالك مستانسا فانك انت المحسن الى وأنا المسىء الى نفسى فيما بينى وبينك تتودد الى بالنعم وأتبغض اليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك فجد بفضلك

واحسابك على انك انت الرؤف الرحيم انتهى من حياة الحيوان (وحدث) عبد الله الباتاجى قال دخل ابن أبي ليلى على ابي جعفر المنصور وكان ابن ابي ليلى قاضيا فقال ابو جعفر ان القاضي يرد عليه من ظرائف الناس ونوادرهم امور فان كان ورد عليك شيء فحدثنيه فقد طال على يومى والله ياامير المؤمنين قد ورد على منذ ثلاثة ايام امر ماورد على مثله. اتتني عجوز تكاد ان تنال الارض بوجهها او تسقط من انحنائها فقلت انا بالله و بالقاضي ان ياخذ لي بحقي وان يعينني على خصمي قلت ومن خصمك قالت ابنة اخ لي فدعوت بها فجاءت امرأة ضخمة ممتلئة شحما فجلست منبهرة فذهبت العجوز تتظلم فقالت الشابة اصلح الله القاضي مرها فلتسكت حتى اتكلم بحجتي وحجتها فان لحنت بشيء فلترد على فان اذنت لى اسفرت فقالت العجوز ان اسفرت قضيت لها فقلت لها اسفرى فاسفرت عن وجه والله ماظننت ان يكون مثله الا في الجنة فقالت اصلح الله القاضي هذه عمتى مات والدى وتركني يتيمة في حجرها فربتني فاحسنت التربية حتى اذا بلغت مبلغ النساء قالت لى يا بنت اخى هل هل لك في التزوج قلت ما اكره ذلك يا عمتى قالت العجوز نعم قالت فخطبني وجوه اهل الكوفة فلم ترض الا رجلا صيرفيا فتزوجني فكنا كاننا ريحانتان ما نظن ان الله خلق غيره يغدوا الى سوقه ويروح على بما رزقه الله تعالى فلما رات العمة موقعه منى وموقعى منه حسدتنا على ذلك وكانت لها ابنة فشوفتها وهيأتها لدخول زوجي فوقعت عينه عليها فقالت ياعمتى هل لك ان تزوجيني ابنتك فقالت نعم بشرط فقال لها وما الشرط فقالت تصير امر ابنة اخى الى قال قد صيرت امرها اليك قالت فانى قد طلقتها ثلاثا بتة وزوجت بنتها زوجي فكان يغدو عليها ويروح فقلت لها ياعمتى اتاذنين لى ان انتقل عنك قالت نعم فانتقلت عنها وكان لعمتى زوج غائب فقدم فلما توسط منزلها قال مالى ارى ربيبتنا قالت طلقها زوجها فانتقلت عنا فقال ان لها من الحق علينا ان نعزيها بمصيبتها فلما بلغني مجيئه الى تهيات له وتشوفت فلما دخل على عزانى بمصيبتى . ثم قال ان فيك بقية من الشباب فهل لك ان اتزوج بك قلت ما اكره ذلك ولكن على شرط قال لى وما الشرط قلت تصير امر عمتى بيدى قال فانى قد فعلت وصيرت امرها بيدك قلت فانى قد طلقتها ثلاثا بتة قال فقدم على بثقله من الغد ومعه ستة آلاف درهم فاقام عندى ما اقام ثم انه اعتل وتوفى فلما انقضت عدتى

جاءزوجي الاول الصيرفي يعزيني بمصيبتي فلما بلغني مجيئه تهيأت له وتشوفت له فلما دخل علي قال لي يافلانة انك تعلمين انك كنت اعز الناس علي واحبهم الي وقد حلت المراجعة فهل لك في ذلك قلت له لا اكره ذلك ولكن اجعل امر ابنة عمتي بيدي قال فاني قد فعلت قلت فاني قد طلقتها ثلاثا بته اصلح الله القاضي فرجعت الي زوجي فراعتدائي عليها فقالت العجوز انا فعلت مرة وانت فعلت مرة بعد اخرى فقلت ان الله لم يوقت في هذا وقتا وقد قال (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله) فواحدة بواحدة والبادي اظلم فقال القاضي ان زوج العمة لم يكن له ان يتزوج ابنة اخيها وهي في عدته فارادت العجوز ان تتولى التفريق بينه وبينها استيفاء لها ومجازاة لها على فعلها فقال لها قد فرقت بينكما قومي الى منزلك انتهى (وخطب) المنصور يوما بالشام فقال ايها الناس ينبغي لكم ان تحمدوا الله تعالى على ما وهبكم الله في فاني منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذي كان يجيئكم فقال اعرابي ان الله اكرم من ان يجمعك انت والطاعون علينا

(خلافة المهدي)

اسمه محمد بن المنصور حدثنا داود بن رشيد قال قلت للهيثم بن علي باي شيء استحق سعيد بن عبد الرحمن ان ولاه المهدي القضاء وانزله منه تلك المنزلة الرفيعة فقال ان خبره باتصاله المهدي ظريف فان احببت شرحته لك قلت والله قد احببت قال اعلم انه وافى الربيع الحاجب حين افضت الخلافة الى المهدي وقال له استاذن لي على امير المؤمنين فقال له من انت وما حاجتك قال انا رجل قد رأيت لامير المؤمنين اعزه الله رؤيا صالحة وقد احببت ان تذكرني له فقال الربيع ياهذا ان القوم لا يصدقون فيما يرونه لانفسهم فكيف بما يراه لهم غيرهم فاحتل بحيلة غير هذا فقال ان لم تخبره بمكاني سألت من يوصلني اليه واخبره اني سألتك الاذن لي عليه فلم تفعل فدخل الربيع على المهدي فقال له يا امير المؤمنين انكم قد اطمعتم الناس في انفسكم فقد احتالوا عليكم بكل ضرب فقال له المهدي هكذا تصنع الملوك فماذا قال رجل بالباب يزعم انه رأى لامير المؤمنين ايده الله رؤيا حسنا وقد احب ان يقصها عليك فقال المهدي ياربيع اني والله أرى الرؤيا لنفسي فلا تصح لي فكيف يمكن ادعاؤها ممن لعله قد افتعلها قال والله قلت له مثل هذا فلم يقبل قال هات الرجل

قال فادخل عليه سعيد وكان له رؤية وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان طلق فقال له مارايت بارك الله فيك قال رأيت ياامير المؤمنين آتيا أتانى فى منامى فقال اخبر أمير المؤمنين أنه يعيش ثلاثين سنة فى الخلافة وآية ذلك انه يرى فى ليلته الاتية فى منامه كانه يقلب يواقيت ثم يعدها فيجد ثلاثين ياقوتة كانها قد وهبت له فقال المهدى ماأحسن مارأيت ونحن نمتحن رؤياك فى ليلتنا المقبلة على ماأخبرتنا فان كان الأمر على ماذكرت اعطيناك فوق ماتريد وان كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك لعلمنا ان الرؤيا الصالحة ربما صدقت وربما اختلفت قال ياأمير المؤمنين فما أصنع انا الساعة اذا سرت الى منزلى وعيالى واخبرتهم انى كنت عند أمير المؤمنين اكرمه الله ثم رجعت صفر اليد فقال له المهدى فكيف نعمل فقال يعجل لى ياأمير المؤمنين اعزه الله تعالى ماأحب واحلف له بالطلاق انى قد صدقت فامر له بعشرة آلاف درهم وأمر بان يؤخذ له كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم فقبض المال وقال له من يكفلك فمد عينه الى خادم حسن الوجه والزى وقال له هذا يكفلنى فقال له المهدى اتكفله ياغلام فاحمر وخجل وقال نعم ياأمير المؤمنين فكفله وانصرف سعيد بن عبد الرحمن بالعشرة آلاف درهم فلما كانت تلك الليلة رأي المهدى ماذكر له سعيد وأصبح سعيد فوافى الباب واستاذن فاذن له فلما وقعت عين المهدى عليه قال له اين مصداق ماقلت لنا عليه فقال له وما رأى أمير المؤمنين فتلكع فى جوابه فقال له امرأتى طالق ان لم تكن رأيت شيئا قال له المهدى ماأجراك على هذا الحلف بالطلاق فقال لانى احلف على صدق قال المهدى فقد والله رايت ذلك مبيناً فقال سعيد الله اكبر فانجزلى ياأمير المؤمنين ماوعدتنى قال حباً وكرامة ثم أمر له بثلاث آلاف دينار وعشر تخوت ثياب من كل صنف وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلات فاخذ ذلك وانصرف فلحق به الخادم الذى كان كفله وقال سالتك بالله هل لهذه الرؤية من أصل فقال لا والله فقال الخادم وكيف وقد رأى أمير المؤمنين ماذكرته قال هذا من المخاريف التى لااب لها وذلك انى لما لقيت هذا الكلام خطر بباله وحدث به نفسه واسر به قلبه واشتغل به فكره ففى ساعة نام خيل لها ماحل فى قلبه واشتغل به فكره فنام فرآه فقال الخادم قد حلفت بالطلاق قال طلقت واحدة وبقيت معى على اثنتين فاز يدفى مهرها عشرة دراهم واتحصل على عشرة آلاف

درهم وثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت من أصناف الثياب وثلاثة مراكب فارهة فبهت الخادم وتعجب من ذلك فقال له سعيد قد اصدقتك وجعلت ذلك مكافأة على كفالك فأستتر على ثم طلبه المهدى لمنادمته فنادمه وحظى عنده وقلده القضاء على العسكر فلم يزل كذلك حتى مات (ويحكى) ان المهدى خرج يتصيد فسار به سيره حتى دخل الى خباء اعرابى فقال يااعرابى هل من قرى قال نعم فاخرج له قرص شعير فاكله ثم اخرج له فضلة من لبن فسقاه ثم اتاه بنبيذ فى ركوة فسقاه قعباً فلما شرب قال ياأخا العرب اندرى من انا قال لا والله قال انا من خدم أمير المؤمنين الخاصة قال بارك الله فى موضعك وناوله قعباً آخر ثم سقاه فشرب به فقال يااعرابى أتدرى من انا قال زعمت انك من خدم امير المؤمنين الخاصه قال لا بل انا من قواد أمير المؤمنين قال رحبت بلادك وطاب مرادك ثم سقاه ثالثا فلما فرغ منه قال يااعرابى أتدرى من انا قال زعمت انك من قواد أمير المؤمنين قال لا ولكنى أمير المؤمنين فاخذ الاعرابى الركوة وأوكاها وقال والله لو شربت الرابع لادعيت انك رسول الله فضحك المهدى حتى غشى عليه وأحاطت به الخيل ونزلت اليه الملوك والاشراف فطار قلب الاعرابى فقال له لاباس عليك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال (وقيل) كان لاسماء بنت المهدى جارية يقال لها كاعب وكانت بكراً ناهدا ذات حسن وجمال وقد واعتدال وكانت بنت ست عشرة سنة قال فتلاعب عليها ابونواس لينال منها اربه فتمنعت مرارا فظفر بها ليلة من الليالى فى ناحية من نواحى القصر فسكها فبكت وقالت الموت دون ذلك فقال ابونواس فى نفسه هذا جزع الابكار فتركها مدة فاتفق انه خرج من القصر ليلة فوجدها نائمة سكرى فتقرب منها وحل السراويل من وسطها ودهمها فاذا هى خالية من البكارة فارتاع وظن انه يكون اتاها دم فلم يجز وقام عنها وندم على ما كان منه وأخذ يقول

وناهدة الثديين من خدم القصر	مرقرقة الخدين لينة الشعر
كلفت بها دهرا على حسن وجهها	طويلا وماحب الكواعب من أمرى
فما زلت بالاشعار حتى خدعتها	وروضتها والشعر من خدع السحر
أطالبها شيئا فقالت بعبرة	أموت به داء ودمعتها تجرى
فلما تعانقنا توسطت لجنة	غرقت بها يا قوم فى لجج البحر

فصحت أغثني ياغلام فجاءني ... وقدزلفت رجلي و رحت الى صدري
ولولا صياحي بالغلام وانه ... تداركني بالحبل رحت الى القمر
فاقسمت عمري لا ركبت سفينة ... ولاسرت طول الدهر الا على الظهر

(حكاية اجنبية) قال المبرد صعدت من البصرة الى بغداد فررت بدير الهاقولة فرأيت مجنونا فيه فلم أرقط أظرف منه و يده على صدره فلما دنوت منه انشأ يقول

الله يعلم انني كمد ... لا أستطيع أبث ما أجد
روحان لى روح تملكها ... بلد وأخرى حازها بلد
وأرى الصبابة ليس ينفعها ... صبر وليس لمثلها جلد
وأظن ظاعنتي كشاهدتي ... بمكانها تجد الذى أجد

فقلت أحسنت والله لله درك يامجنون فأهوى لشيء يرميني به فبعدت عنه فقال لى الشأنك ما تحبه واستحسنته وتقول لى يامجنون وتكون مع الزمان علي فقلت له اخطأت فقال اذن اعترفت بخطأك ثم قال أنشدك شعراً غيره قلت نعم فانشأ يقول

ما أقتل البين للمحب وما ... اوجع قلب المحب بالكمد
عرضت نفسي على البلاء لقد ... اسرع فى مهجتي وفى كبدى
يا حسرتى اذا بت معتقلا ... بين اختلاج الهموم والسهد

فقلت أحسنت والله زدنا فقال

ان فتشوني فمحرق الكبد ... او كشفوني فناحل الجسد
أضعف مابى و زادنى ألماً ... انى لست اشكو النوى الى أحد

فقلت أحسنت والله زدنا فقال يا فتى اراك كلما أنشدتك بيتا قلت زدنا وما ذاك الالمفارقة حبيب أوخل اريب ثم قال احسبك ابا العباس المبرد بالله ماهو أنت قلت انا فمن أين عرفتني فقال وهل يخفى القمر انشدنى من شعرك ماتنتعش به روحى فانشدته

بكيت حتى بكى من رحمتى الطلل ... ومن بكائى بكت اعداد اذا رحلوا
يا منزلى الحى أين الحى قد نزلوا ... نفسي تساق اذا ما سيقت الابل
أنعم صباحا سقاك الله من طلل ... غيثا وجاد عليك الوابل الهطل
سقيا لعهدهم والدار جامعة ... والشمل ملتئم والحبل متصل
فطال ما قد لعمنا والحبيب بها ... والدهر يسعد والواشون قد غفلوا

قد غير الدهر ما قد كنت اعرفه   والدهر ذو دول بالناس ينتقل
بانوا فبان الذى قد كنت آمله   والبين أعظم ما يبلى به الرجل
فالشمل مفترق والقلب محترق   والدمع منسكب والركب مرتحل
كأن قلبى لما سار عيسهم   صب به دنف او شارب ثمل
لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم   ونوروها وسارت بالهوى الابل
وقابت من خلال السجف ناظرها   ترنو الى ودمع العين منهمل
ياحادى العيس عرج بى أودعهم   ياحادى العيس فى ترحالك الاجل
انى وحقك لا أنسى مودتهم   ياليت شعرى لطول العهد ما فعلوا

(قال) ابو العباس المبرد فلما أتممت شعرى قال لى مافعلوا قلت ماتوا فصاح صيحة عظيمة وخر مغشيا عليه فحركته فوجدته قد مات رحمة الله عليه انتهى

(خلافة موسى الهادى بن محمد)

لم أر فيه شيئاً ومن رأى فيه شيئا فليضمه (قال) بعض الفضلاء من حيث ان المؤلف أمر بان من رأى شيئا فليضمه فرأيت هذا النذر اليسير مذكورا فى تاريخ الاسحاقى فأحببت ذكره امتثالا لامره فقلت ذكر صاحب السكردان أن الهادى كان يوما فى بستان يتنزه على حمار ولا سلاح معه وبحضرته جماعة من خواصه وأهل بيته فدخل عليه حاجبه واخبره ان بالباب بعض الخوارج له باس ومكايد وقد ظفر به بعض القواد فامر الهادى بادخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على يديه فلما أبصر الخارجى الهادى جذب يديه من الرجلين واختطف سيف احدهما وقصد الهادى ففر كل من كان حوله و بقى وحده وهو ثابت على حماره حتى اذا دنا منه الخارجى وهم ان يعلوه بالسيف أومأ الى وراء الخارجى وأوهمه ان غلاما وراءه وقال ياغلام اضرب عنقه فظن الخارجى ان غلاما وراءه فالتفت الخارجى فنزل الهادى مسرعا عن حماره فقبض على عنق الخارجى وذبحه بالسيف الذى كان معه ثم عاد الى ظهر حماره من فوره واتباع الهادى ينظرون اليه ويتسللون عليه وقد ملؤا منه حياء ورعبا فما عاتبهم ولا خاطبهم فى ذلك بكلمة ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم ولم يركب الا جوادا من الخيل فانظر الى هذا المقدار فى ثبات جاش الملوك فانه قل من يفعل ذلك وهذه مرتبة لم يصل اليها احد الا نادرا (حكى) عبد الحق انه قال مما ابتلى به الهادى

من المحبة انه كان مغرما بجارية تسمى غادر وكانت من أحسن النساء وجها واطيبهن
غناء اشتراها بعشرة آلاف دينار فبينما هو يشرب مع ندمائه اذ فكر ساعة وتغير لونه
وقطع الشراب فقيل له ما بال أمير المؤمنين قال وقع فى قلبي انى أموت وان أخى هرون
يلى الخلافة و يتزوج غادر فامضوا واتونى برأسه ثم رجع عن ذلك وأمر باحضاره
وحكى له ما خطر بباله فجعل هرون يترفق به فقال لا أرضى حتى تحلف لى بكل ما احلفك
به انى اذا مت لا تتزوج بها فرضى بذلك وحلف ايمانا عظيمة ودخل الى الجارية
وحلفها أيضا على مثل ذلك فلم يلبث بعد ذلك سوى شهرومات وولى الخلافة هرون
الرشيد فطلب الجارية فقالت ياأمير المؤمنين كيف نصنع بالايمان فقال قد كفرت عنك
وعنى ثم تزوج بها ووقعت فى قلبه موقعا عظيما وافتتن بها أعظم من أخيه الهادى
حتى كانت تسكر وتنام فى حجره فلا يتحرك ولا ينقلب فبينما هى فى بعض الليالى
وهى فى حجره نائمة اذا بها انتبهت فزعة مرعوبة فقال لها ما بالك فديتك قالت رأيت
اخاك الهادى الساعة فى النوم فانشدنى هذه الابيات

اخلفت عهدى بعد ما جاوزت سكان المقابر
ونسيتنى وحنثت فى أيمانك الزور الفواجر
ونكحت غادرة اخى صدق الذى سماك غادر
لا يهنك الالف الجد يد ولا تدر عنك الدوائر
ولحقتنى قبل الصباح وصرتى حيث غدوت صائر

قالت ثم ولى عنى وكان الابيات مكتوبة فى قلبي ما نسيت منها كلمة قال لها هذه
أحلام الشيطان فقالت كلا والله ياأمير المؤمنين ثم اضطربت بين يديه وماتت فى
تلك الساعة ولا تسأل عن هرون الرشيد وما لقى بعدها اه

(خلافة هرون الرشيد بن محمد المهدى)

هو اخو موسى الهادى وهو الخامس من بنى العباس (قال) ابراهيم الموصلى فى
تهنئة الخلافه عند ما ولى الرشيد بعد أخيه موسى الهادى

الم تر ان الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهرون واليها ويحيى وزيرها

(وقدم) اعرابى حين ولى هرون الخلافة فقيل له فيم جئت قال أتيت برسالة قال ائت

بها قال اتاني آت في منامي فقال ائت أمير المؤمنين فابلغه هذه الابيات

تـوارثت الخلافة من قريش تزف اليكـا ايد عروسـا
الى هرون تهدى بعد موسى تميس وما لها ان لا تميسا

فاعطاه الرشيد عطاء جزيلا وصرفه وقد بويع له بالخلافة في الليلة التي توفي فيها اخوه و ولد في تلك الليلة المأمون وكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها في بني العباس مات فيها خليفة و ولى فيها خليفة و ولد فيها خليفة ولما بويع الرشيد قلد جعفر بن يحيي بن خالد البرمكي وزارته وسيأتي ايقاع الرشيد بابرامكة وسبب ذلك (ويحكى) ان هرون الرشيد مر في بعض الايام و بصحبته جعفر البرمكي واذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعرج عليهن يريد الشراب واذا احداهن تقول

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت المنام كي أستريح وتنطفي
نار تأجج في العظام دنف تقلبه الاكـ ـف على بساط من سقام
اما أنا فكما علمـ ـت فهل لوصلك من دوام

فاعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها فقال لها بنت الكرام هذا من قولك ام من منقولك قالت من قولي قال ان كان كلامك صحيحا فامسكي المعنى وغيري القافية فانشدت تقول قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الوسن

كي استريح وتنطفي نار تاجج في البدن دنف تقلبه الاكـ
ـف على بساط من شجن اما انا فكما علمـ ـت فهل لوصلك من ثمن

فقال لها والاخر مسروق قالت بل كلامي فقال ان كان كلامك ايضا فامسكي المعنى وغيري القافية فقالت قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الرقاد

كي استريح وتنطفي نار تاجج في الفؤاد دنف تقلبه الاكفـ
ـف على بساط من حداد اما انا فكما علمـ ـت فهل لوصلك من سداد

فقال لها والاخر مسروق فقالت بل كلامي فقال ان كان كلامك فامسكي المعنى وغيري القافية فقالت قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الهجوع

كي استريح وتنطفي نار تاجج في الضلوع
دنف تقلبه الاكـ ـف على بساط من دموع
اما انا فكما علمـ ـت فهل لوصلك من رجوع

فقال لها امير المؤمنين انت من أى هذا الحى قالت من اوسطه بيتا واعلاه عمودا فعلم امير المؤمنين انها بنت كبير الحى ثم قالت وأنت من أى راعى الخيل فقال من اعلاها شجرة وأينعها ثمرة فقبلت الارض وقالت أيد الله امير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب فقال الخليفة لجعفر لا بد من أخذها فتوجه جعفر الى ابيها وقال له امير المؤمنين يريد ابنتك فقال حبا وكرامة تهدى جارية لامير المؤمنين مولانا ثم جهزها وحملها اليه فتزوجها ودخل بها فكانت عنده من أعز نسائه واعطى والدها ما يستره بين العرب من الانعام ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة الى رحمة الله تعالى فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب فلما شاهدته وعليه الكآبة نهضت ودخلت الى حجرتها وقلعت كل ما عليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وأقامت النعى له فقيل لها ما سبب هذا فقالت مات والدى فمضوا الى الخليفة فاخبروه فقام واتى اليها وسالها من أعلمها بهذا الخبر قالت وجهك يا أمير المؤمنين قال كيف ذلك قالت منذ انا عندك ما رأيتك هكذا ولم يكن لى من أخاف عليه الا والدى لكبره وتعيش رأسك انت يا أمير المؤمنين فتغرغرت عيناه بالدموع وعزاها فيه وأقامت مدة وهى حزينة على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم اجمعين

(ويحكى) ان امير المؤمنين هرون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى فى قصره بين المقاصير فرأى جارية من جواريه نائمة فاعجبته فداس على رجلها فانتبهت فرأته امير المؤمنين فاستحيت منه وقالت يا امين الله ما هذا الخبر . فاجابها بقوله

قلت ضيف طارق فى ارضكم هل تضيفوه الى وقت السحر

فاجابته تقول بسرور وهناء سيدى اخدم الضيف بسمعى والبصر

فبات عندها الى الصباح فسال امير المؤمنين من بالباب من الشعراء قيل له ابو النواس فامر به فدخل عليه فقال له هات على يا امين الله ما هذا الخبر فانشد يقول

طال ليلى حين وافانى السهر فتفكرت فاحسنت الفكر

قمت امشى فى المجال ساعة ثم اجرى فى مقاصير الحجر

فاذا وجه جميل مشرق زانه الرحمن من بين البشر

فلمست الرجل منها موطئا فدنت منى ومدت لى البصر

واشارت لى بقول مفصح يا امين الله ما هذا الخبر

قالت ضيف طارق فى ارضكم　　هل تضيفوه الى وقت السحر
فاجابت بسرور سيدى　　اخدم الضيف بسمعى والبصر

قال فتعجب امير المؤمنين من ذلك وامرله بصلة (ويحكى) ان هرون الرشيد هجر جارية له ثم لقيها فى بعض الليالى فى القصر سكرى تدور فى جوانب القصر وعليها مظروف خز وهى تسحب اذيالها من التيه والعجب وسقط رداؤها عن منكبيها والريح ابان نهديها كانهمـا رمانتان ولها ردفان ثقيلان فراودها عن نفسها فقالت ياامير المؤمنين هجرتنى هذه المدة وليس لى علم بملقاتك فانظرنى الى غدحتى اتهيأ وآتيك فلما اصبح قال للحاجب لاتدع احداً يدخل على الا فلانة وانتظرها فلم تجيء فقام ودخل عليها وسالها انجاز الموعد فقالت ياامير المؤمنين . كلام الليل يمحوه النهـار . فقام واستدعى الشعراء فدخـل عليـه ابو نواس والرقاشى وابو مصعب فقال لهم هاتوا على كلام الليل يمحوه النهار فقال الرقاشى اناقائل فى ذلك ثلاثة ابيات

اتسلوها وقلبك مستطار　　وقد منع القرار فلاقرار　　وقد تركتك صبا مستهاما
فتاة لاتزور ولا تزار　　فولت وانثنت تيها وقالت　　كلام الليل يمحوه النهار

وقال ابو مصعب وانا قائل فى ذلك ثلاثة ابيات وانشد بقول

اما والله لو تجدين وجدى　　لما سمعت فى بغداد دار
اما يكفيك ان العين عبرى　　ومن ذكراك فى الاحشاء نار
تبسمت الفتاة بغير ضحك　　كلام الليـل يمحوه النهـار

وقال ابو نواس وانا قائل فى ذلك اربعة ابيات وانشد يقول

وخود اقبلت فى القصر سكرى　　ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح اردافا ثقالا　　وغصنا فيـه رمان صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها　　من التخميش وانحل الازار
فقلت الوعد سيدتى فقالت　　كلام الليـل يمحوه النهـار

فقال الرشيد قاتلك الله كانك كنت معنا اومطلعا علينا وامر لكل واحد بخلعة سنية وخمسة آلاف درهم ولابى نواس بعشرة آلاف درهم (وذكر) الخطيب فى بعض مصنفاته ان الرشيد دخل يوما وقت الظهر الى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منهـا فوجدها تغتسل فلمـا راته تجللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئا فاعجبه

ذلك الفعل واستحسنه ثم عاد الى مجلسه وقال من بالباب من الشعراء قالوا له ابونواس و بشار فقال ليحضروا فقال ليقل كل منكما ابياتا توافق ما في نفسي فأنشأ بشار يقول

محبتكم والقلب صار اليكمو ... بنفسي ذاك المنزل المتحبب
اذا ذكروا الهجران لا عن ملامة ... وذكراهم ينتمى الى محب
وقالوا تحبينا ولا قرب بيننا ... فكيف وانتم حاجتى تتجنبوا
على انهم احلى من الشهد عندنا ... وأعذب من ماء الحياة واطيب

فقال أحسنت ولكن ما أصبت ما في نفسي فقل انت يا ابي نواس فجعل يقول

نضت عنها القميص لصب ماء ... فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت ... بمعتدل ارق من الهباء
ومدت راحة كالماء منها ... الى ماء معد في اناء
فلما ان قضت وطرا وهمت ... على عجل لتاخذ للرداء
رات شخص الرقيب على التدانى ... فاسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل ... فظل الماء يجرى تحت ماء
فسبحان الاله وقد براها ... كاحسن ما تكون من النساء

فقال الرشيد سيفا ونطعا فقال له ولم يا أمير المؤمنين قال أمعنا كنت قال لا والله ولكن شيء خطر ببالى فامر له باربعة آلاف درهم وصرفه (ويحكى) أن امير المؤمنين الرشيد ارق ذات ليلة أرقا شديدا فقام من فراشه ومشى من مقصورة الى مقصورة وقلقه زائد ونفسه محصورة فلما اصبح قال على بالاصمعى فخرج الطواشى الى البوابين فقال لهم يقول لكم امير المؤمنين ارسلوا أحدا خلف الاصمعى فلما حضر اعلم الخليفة به فاجلسه ورحب به وقال يا أصمعى اريد منك ان تحدثنى باجود ما سمعت من أخبار النساء واشعارهن فقال سمعا وطاعة لقد سمعت كثيرا ولم يعجبنى سوى ثلاثة ابيات انشدهن ثلاث بنات فقال حدثنى حديثهن فقال . اعلم يا أمير المؤمنين انى توجهت سنة الى البصرة فاشتد على الحر فطلبت مقيلا أقيل فيه فلم اجد فبينما انا التفت يمينا وشمالا اذا انا بساباط مكنوس مرشوش وفيه دكة من خشب وعليها شباك مفتوح تفوح منه رائحة المسك فدخلت بالساباط وجلست على الدكة واردت الاضطجاع فسمعت كلاما عذبا من فم جارية حسناء وهى تقول يا اختى انا جلسنا

يومنا هذا على وجه الصبوح تعالين نطرح ثلاثمائة دينار وكل منا تقول بيتا من الشعر فكل من قالت البيت الاعذب الاملح كانت الثلاثمائه دينار لها فقلن حبا وكرامة فقالت الكبرى عجبت له ان زاد فى النوم مضجعى ولو زارنى مستيقظا كان اعجبا قالت الوسطى وما زارنى فى النوم الا خياله فقلت له اهلا وسهلا ومرحبا فقالت الصغرى بنفسى واهلى من ارى كل ليلة ضجيعى وريّاه من المسك اطيبا فقلت ان كان لهذا الكلام جمال فقد تم الامر على كل حال فنزلت عن الدكة واردت الانصراف واذا بالباب قد فتح وخرجت منه جاريه وهى تقول اجلس يا شيخ فطلعت على الدكة ثانيا وجلست فدفعت الى ورقة فنظرت خطا فى نهاية الحسن مستقيم الالفات مجوف الهاآت مدور الواوات مضمونه. نعلم الشيخ أطال الله بقاءه اننا ثلاث بنات اخوات جلسنا الصبوح وطرحنا ثلثمائة دينار وقد جعلناك الحكم فى ذلك فاحكم بما تراه والسلام فقلت للجارية على بدواة وقرطاس فاحضرتها فانشات اقول

احدث عن خود تحدثن مرة	حديث امرئ ساس الامور وجربا
ثلاث كبكرات الصحارى جحافل	حللن بقلب للمشوق معذبا
خلون وقد نامت عيون كثيرة	من الراقدين المشتهين التغيبا
فبحن بما يخفين من داخل الحشا	نعم واتخذن الشعر لهوا وملعبا
فقالت عروب ذات عز عزيزة	وتبسم عن عذب المقالة اشنبا
عجبت له ان زار فى النوم مضجعى	ولو زارنى مستيقظا كان اعجبا
فلما انقضى مازخرفت وتضاحكت	تنفست الوسطى وقالت تطربا
وما زارنى فى النوم الا خياله	فقلت له اهلا وسهلا ومرحبا
واحسنت الصغرى وقالت مجيبة	بلفظ لها قد كان اشهى واعذبا
بنفسى واهلى من ارى كل ليلة	ضجيعى وريّاه من المسك اطيبا
فلما تدبرت الذى قلن وانبرى	لى الحكم لم اترك لذى اللب معتبا
حكمت لصغراهن فى الشعر اننى	رايت الذى قالت جميلا واصوبا

قال الاصمعى ثم رفعت الرقعة الى الجارية فلما صعدت الى القصر فاذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامة قائمة فقلت ما بقى لى اقامة فنزلت عن الدكة واردت الانصراف واذا بالجارية تنادى وتقول اجلس يا اصمعى فقلت ومن اعلمك اننى

الاصمعى فقالت ياشيخ ان خفى علينا اسمك فما خفى علينا نظمك فجلست واذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الاولى وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها واردت الانصراف واذا بالجارية تنادى وتقول اجلس يا اصمعى فرفعت بصرى اليها فنظرت كفا أحمر فى كف اصفر فخلته البدر يشرق من تحت الغمام ورمت لى بصرة فيها ثلاثمائة دينار وقالت هذا صار لى وهو منى لك هبة فى نظير حكومتك فقال لى يا امير المؤمنين لاى شىء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى . فقلت له يا امير المؤمنين ان بيت الكبرى قالت

عجبت له ان زار فى النوم مضجعى وهو محمول معلق على شرط

قد يقع ولا يقع وأما الوسطى فمر بها طيف خيال فى النوم فسلمت عليه وبيت الصغرى ذكرت انها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشمت منه انفاسا اطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولا يفدى بالنفس الا من هو أعز من النفس فقال الخليفة أحسنت يا اصمعى ثم دفع الى ثلاثمائة دينار فاخذتها وانصرفت فكنت أقول لله درك من شعر أخذت فى حكومتى منه ثلاثمائة دينار وفى حكايته مثلها وهو أعلم (ومما حكى) عن الاصمعى فى نوادره قال سهرت ليلة عند الرشيد فى الرقة فقال لى من معك يا عبدالله يؤنسك فقلت يا امير المؤمنين مالى انيس غير الوحدة فامسك واقبل فى حديث ما شاء الله ثم نهض ونهض من بحضرتى فلما صرت الى منزلى واذا بخادم الامير يقرع الباب فخرجت فاذا ضوء شمع وضجة وغوغاء ومعهم جارية فلما رآنى الخادم دنا منى وقبل يدى وقال لى يقول لك امير المؤمنين قد أمرنا لك عن يؤنسك وهى جارية من خواصه وشىء من المال فشكرت امير المؤمنين ودعوت له وتقدم الخادم بادخال الجارية ومعها من الالات والخدم والجوارى والفرش مالم ار مثله الا عند امير المؤمنين ثم ودعنى الخادم وانصرف فلما نظرت الى الجارية رأيتها أحسن الناس وجها واجملهم قدا وشكلا وظرفا واكثرهم مجونا فدخلنى لها هيبة وانقباض فقالت ماهذا الحياء البارد السمج الذى لا وجه له أين ملحك ونوادرك ثم قالت لجارية من الجوارى هات ما عندك فجاءت باحسن ما يكون من الطعام فاكلنا وهى مع ذلك تباسطنى وتؤانسنى بالحديث والملاعبة ثم دعت بالشراب فشربت وسقتنى ثم قالت ما بقى بعد الاكل والشرب الا النوم والخلوة فقامت ولبست من الثياب ما ارادت والبستنى ثيابا فاخرة مبيضة وتفرق

من كان عندنا ثم اضجعت الى جانبي فلما جمعنا الفراش أصابني من الحصر وانقطاع الانعاظ والرخاوة مالم اكن اعهده قبل ذلك فجعلت تقلبه بيدها وتغمزه فلا يزداد الا انكماشا وموتا فلما أعينها الحيلة فيه ويئست من قيامه ومضى من الليل اكثره قالت عظم الله أجرك ثم نهضت ولبست ثياب الحداد ودعت بقسط فاخرجت منه مناديل صغارا وحنوطاً وقالت نم على ظهرك يا بطال فاستولى على الخجل حتى انى لم اقدر اخالفها فى شيء مما تامرنى به فى جميع ما تفعله فى فغسلته وحنطته وكفنته بتلك المناديل فلما فرغت همت بجواريها وقامت معهن فى بكاء ونحيب ونوح وندب وصراخ باشد ما يكون وما زلن على ذلك الى وقت السحر ثم قالت ما بقى الا ما يتولاه الرجال من الصلاة والدفن وولت عنى فقمت وانا اخزى خلق الله حالا ولبست ثيابى وصليت الفجر وسرت من وقتى وساعتى الى الرشيد فانكر الحاجب حضورى فى ذلك الوقت وأعلم الرشيد بى فاذن لى فدخلت وهو قاعد فى مصلاه فقال لى ويحك ما دهاك فى هذا الوقت فقلت يا امير المؤمنين خبرى عجيب وأمرى غريب فبالله عليك يا أمير المؤمنين الا مارحمتنى من هذه الجارية التى انفذتها الى فلا حاجة لى بها فقال لى امير المؤمنين وما السبب لذلك وما الخبر الذى دهاك وليس لها عندك حين من الزمان فشرحت له القصة من أولها الى آخرها حتى بلغت الى اقامة الصلاة فاشتد ضحكه حتى انه كاد يستلقى على قفاه وسمعت الضحك من كل ناحية فى الدار من الجوارى وغيرهن ثم قال نحن الى هذه احوج منك اليها وقد كنا غافلين عنها ثم انه امر بحملها الى داره وعوضنى عنها خمسين الف درهم وترك جميع ما حل معها فى منزلى وخرجت مجردة فحظيت بعد ذلك عند الرشيد حتى انه لم يتقدم عليها أحد من نظائرها وسميت من وقتها الاصمعية الى ان توفيت رحمة الله عليهم اجمعين.

(ويروى) انه لما دخل هرون الرشيد الى مكة شرفها الله تعالى وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف سبقه اعرابى فشق ذلك على الرشيد فالتفت الى حاجبه منكرا فقال الحاجب للاعرابى تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين فقال الاعرابى ان الله قد ساوى بين الامام والرعية فى هذا المقام فقال عز وجل (سواء العاكف فيه والباد . ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم) فلما سمع الرشيد من الاعرابى ذلك راعه امره فامر صاحبه بالكف عنه ثم جاء

الرشيد الى الحجر الاسود ليستلمه فسبقه الاعرابى فاستلمه ثم أتى الرشيد الى المقام المصلى فسبقه الاعرابى فصلى فيه فلما فرغ الرشيد من صلاته قال لحاجبه ائتنى بهذا الاعرابى فاتاه الحاجب فقال اجب أمير المؤمنين فقال مالى اليه من حاجة ان كان له حاجة فهو احق بالقيام الى والسعى فقام الرشيد حتى وقف بازاء الاعرابى وسلم عليه فردعليه السلام فقال له الرشيد ياأخا العرب أجلس هنا بامرك فقال الاعرابى ليس البيت بيتى ولاالحرم حرمى وكلنا فيه سواء فان شئت فاجلس وان شئت تنصرف (قال الراوى) فعظم ذلك على الرشيد وسمع مالم يكن فى ذهنه وما ظن أنه يواجهه أحد هذا الكلام فجلس الرشيد وقال يااعرابى اريد أسالك عن فرضك فان أنت قمت به فانت بغيره أقوم وان أنت عجزت عنه فانت عن غيره اعجز قال الاعرابى سؤالك هذا سؤال تعلم ام سؤال تعنت فتعجب الرشيد من سرعة جوابه وقال بل سؤال تعلم فقال له الاعرابى قم فاجلس مقام السائل من المسؤل قال فقام الرشيد وجثى على ركبتيه بين يدى الاعرابى فقال قد جلست فاسال عما بدالك فقال له اخبرنى عما افترض الله عليك فقال له تسالنى عن اى فرض عن فرض واحد امعن خمسة امعن سبعه عشر امعن اربعة وثلاثين امعن خمسة وثمانين امعن واحدة فى طول العمر امعن واحدة من اربعين امعن خمسة من مائتين قال فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاءبه ثم قال له سالتك عن فرضك فاتيتنى بحساب الدهر قال ياهرون لولاأن الدين بالحساب لما اخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة قال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينابها وكفى بنا حاسبين) قال فظهر الغضب فى وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال ياهرون ولم يقل له ياأمير المؤمنين و بلغ مبلغاً شديداً غيران الله تعالى عصمه منه وحال بينه و بينه لما علم انه هو الذى انطق الاعرابى بذلك فقال له الرشيد يااعرابى ان فسرت ماقلت نجوت والاامرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة فقال له الحاجب ياأمير المؤمنين اعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف قال فضحك الاعرابى من قولهما حتى استلقى على قفاه فقال مم تضحك قال عجباً منكما اذلا ادرى ايكما اجهل الذى يستوهب اجلا قد حضر ام يستعجل اجلالم يحضر قال فهال الرشيد ماسمعه منه وهانت نفسه عليه ثم قال الاعرابى

اما سؤالك عما افترض الله على فقد افترض على فرائض كثيرة فاما قولى لك عن
فرض واحد فهو دين الاسلام واما قولى لك عن خمسة فهى الصلوات واما قولى لك
عن سبعة عشر فهى سبعة عشر ركعة واما قولى لك عن اربعة وثلاثين فهى السجدات
واما قولى لك عن خمسة وثمانين فى التكبيرات واما قولى لك عن واحدة فى طول
العمر فهى حجة الاسلام واحدة فى طول العمر كله واما قولى لك عن واحدة من
اربعين فهى زكاة الشياه شاة من اربعين واما قولى لك خمس من مائتين فهى زكاة
الورق قال فامتلأ الرشيد فرحا وسرورا من تفسير هذه المسائل ومن حسن كلام
الاعرابى وعظم الاعرابى فى عينيه وتبدل بغضه محبة ثم قال الاعرابى سالتنى فاجبتك
وأنا اريد ان اسالك فاجبنى قال قل فقال الاعرابى ما تقول فى رجل نظر الى امرأة
وقت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة فلما كان وقت الظهر حلت له فلما كان وقت
العصر حرمت عليه فلما كان وقت المغرب حلت له فلما كان وقت العشاء حرمت عليه فلما
كان وقت الصبح حلت له فلما كان وقت الظهر حرمت عليه فلما كان وقت العصر
حلت له فلما كان وقت المغرب حرمت عليه فلما كان وقت العشاء حلت له فقال
والله يا اخا العرب لقد اوقعتنى فى بحر لم يخلصنى منه غيرك فقال له انت خليفة ليس
فوقك شىء ولا ينبغى ان تعجز عن مسئلة فكيف عجزت عن مسئلتى وانا رجل
بدوى لاقدرة لى فقال الرشيد قد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك فأشتهى اكرامالى
ولهذا المقام تفسير ذلك فقال حبا وكرامة ولكن على شرط ان تجبر الكسير وترحم الفقير
ولا تزدرى بالحقير فقال حبا وكرامة ثم قال اما قولى لك رجل نظر الى امراة وقت
صلاة الفجر فكانت عليه حراما فهو رجل نظر الى امة غيره وقت الفجر فهى حرام
عليه فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له فلما كان وقت العصر اعتقها فحرمت عليه
فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له فلما كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه
فلما كان وقت الفجر راجعها فحلت له فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه
فلما كان وقت العصر اعتق عنها فحلت له فلما كان وقت المغرب ارتد عن الاسلام
فحرمت عليه فلما كان وقت العشاء تاب ورجع الى الاسلام فحلت له قال فاغتبط
وفرح به واشتد اعجابه به ثم امر له بعشرة آلاف درهم فلما حضرت قال لا حاجة لى
بها ردها الى اصحابها فقال انى اريد ان اجرى لك جراية تكفيك مدة حياتك

قال الذى اجرى عليك يجرى على قال فان كان عليك دين قضيناه عنك قال لا ولم يقبل منك شيئا ثم انشد يقول

هب الدنيا تواتينا سنينا　　فتكدر ساعة ولذ حينا
فما ابغى لشىء ليس يبقى　　واتركه غدا للوارثينا
كانى بالتراب على يحثى　　وبالاخوان حولى نادبينا
ويوم تزفر النيران فيه　　وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقى وجلال ربى　　لينتقمن منهم اجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنب　　فكيف يكون حال المجرمينا

فلما فرغ من انشاده تأوه الرشيد وساله عن أهله وبلاده فاخبر انه موسى الرضى ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم اجمعين وكان يتزيا بزى اعرابى زاهدا فى الدنيا وتباعدا عنها فقام اليه الرشيد وقبل ما بين عينيه ثم قرأ (الله اعلم حيث يجعل رسالته) وانصرف رحمة الله عليهم اجمعين (وقال) السجستانى أرق الرشيد ليلة فوجه الى الاصمعى والى الحسين الخليع فاحضرهما وقال عللانى وابدأ أنت ياحسين فقال حسين نعم ياامير المؤمنين خرجت فى بعض السنين منحدرا الى البصرة ممتدحا محمد بن سليمان الزينبى بقصيدتى فقبلها وأمرنى بالمقام فخرجت ذات يوم الى المربد وجعلت المهالبة طريقى فاصابنى حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لاستسقى واذا انا بجارية كانها قضيب ينثنى واسعة العينين أزجة الحاجبين مفتوحة الجبين عليها قميص جلنارى ورداء عدنى قد غلب شدة بياض بدنها على حمرة قيصها تتلألأ من تحت القميص شدين كرمانتين وبطن كطى القباطى وعكن كالقراطيس ولها جمة جعدت بالمسك محشوة وهى ياأمير المؤمنين متقلدة خرزا من الذهب والجوهر يزهر بين نهديها وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان نجلاوان وخدان أسيلان وانف اقنى تحته ثغر كاللؤلؤ واسنان كالدر وقد غلب عليها الطيب وهى والهة حيرانة ذاهبة فى الدهليز ورائحة تخطر على اكباد محبيها فى مشيتها وقد خالط اصوات نعلها خلاخيلها فهى كما قال الشاعر فيها

كل جزء من محاسنها　　كائن من حسنها مثلا

فهبتها ياامير المؤمنين ثم دنوت منها لاسلم عليها فاذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك فسلمت عليها فردت بلسان منكسر وقلب حزين حريق مسعر فقلت لها ياسيدتى انى شيخ غريب اصابنى عطش افتامرين بشربة من ماء تؤجرين عليها

قالت اليك عنى ياشيخ فانى مشغولة عن الماء وادخار الزاد قلت لاى علة ياسيدتى قالت لانى عاشقة لمن لا ينصفنى واريد من لا يريدنى ومع ذلك فانى ممتحنة برقباء فوق رقباء قلت ياسيدتى على بسيطة الارض من تريدنه ولا يريدك قالت نعم وذلك لفضل ماركب فيه من الجمال والكمال والدلال قلت وماوقوفك فى هذا الدهليز قالت ههنا طريقه وهذا اوان اجتيازه فقلت ياسيدتى هل اجتمعتما فى وقت من الاوقات ووجب حديث فى هذا القرب فتنفست الصعداء وأرخت دموعها ثم انشات تقول

وكنا كغصنى بان فى كل روضة   نشم جنى اللذات فى عيشة رغد
فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع   فما من رأى فردا يحن الى فرد

قلت ياهذه فما بلغ من عشقك لهذا الفتى قالت ارى الشمس على حائطهم أحسب انها هو وربما اراه بغتة فابهت ويهرب الدم والروح من جسدى وابقى الاسبوع والاسبوعين بغير عقل فقلت لها اعذرينى فانت على ما بالك من الصبا وشغل البال بالهوى وانتحال الجسم وضعف القوى أرى ما بك من تغيير اللون ورقة البشرة فكيف لو لم يمكث الهوى لكنت مفتنة فى ارض البصرة قالت والله قبل محبتى هذا الغلام كنت تحفة الدلال والجمال والكمال واقد فتنت جميع ملوك البصرة حتى افتتنى هذا الغلام قلت ياهذه فما الذى فرق بينكما قالت نوائب الدهر ولهذا شى وحديثه شان من الشؤون وذلك انى كنت قعدت فى نيروز ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الجميلات وكانت فيهن الحوراء جارية شيراز وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم وكان بى ولعة فلما دخلت رمت بنفسها على تقطعنى قرصا وعضا ثم خلونا نتمرن القهوة الى ان يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا وكانت تلاعبنى والاعبها فتارة انا فوقها وهى فوقى فحملها السكر الى ان ضربت يدها الى تكتى فحلتها من غير ريبة كانت بيننا ونزلت سراويلى ملاعبة فبينما نحن كذلك اذ دخل علينا حبيبى فرأى ذلك فاشماز لذلك وصدف عنى صدوف المهرة العربية اذا سمعت صلاصل لجامها فولى خارجا فانا ياشيخ منذ ثلاث سنين اسال جمعيته فلا ينظر الى بطرف ولا يكتب لى بحرف ولا يكلم لى رسولا ولا يسمع منى قليلا فقلت لها ياهذه من العرب هو أم من العجم فقالت ويحك هو من جملة ملوك البصرة فقلت لها شيخ هو ام شاب فنظرت الى شزرا وقالت انك احمق هو مثل القمر ليلة البدر أجرد له

طرة كذلك الغراب لا يعيبه شيء غير انحرافه عني قلت لها ما اسمه قالت ماذا تصنع
به قلت اجتهد في لقاءه فاتعرف الفضل بينكم قالت على شرط ان تحمل اليه رقعة
قلت لا اكره ذلك فقالت اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بابي السخاء وقصره بالمربد
ثم صاحت في الدار ياجواري الدواة والقرطاس وشمرت عن ساعدين كانهما طوقان
من فضة وكتبت بعد البسملة سيدي ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبي عن تقصيري
ودعائي ان دعوته هجنة ورعونة ولولا بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير لكان
لما تكلفته خادمك من كتابة هذه الرقعة معنى مع ياسها منك لعلمها تركك الجواب
سيدي جد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع الى الدهليز تحيي بها نفسا ميتة واخطط
بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة واجعلها عوضا عن تلك الخلوات التي كانت
بيننا في الليالي الخاليات التي انت ذاكرها لها سيدي الست لك محبة مدنفة فان رجعت
الى الايسة كنت لك شاكرة واعد خادمة والسلام فتناولت الكتاب وخرجت فاصبحت
غدوة الى باب محمد بن سليمان فوجدت مجلسا محتفلا بالملوك ورايت غلاما زان المجالس
وفاق على من فيه جمالا وبهجة قد رفعه الامير فوقه فسالت عنه فاذا هو ضمرة
ابن المغيرة فقلت في نفسي بالحقيقة حل بالمسكينة ما حل بها ثم قمت وقصدت المربد
ووقفت على باب داره فاذا هو قد ورد في موكب فوثبت اليه وبالغت في الدعاء
له وناولته الرقعة فلما قرأها وفهم معناها قال ياشيخ قد استبدلنا بها فهل لك ان تعود
الى الديار قلت نعم فصاح في الدار اخرجوا الربدا فاذا انا بجارية خالوطية الكفين
ناهدة الثديين تمشي مشية مستوحل من غير وحل فناولها الرقعة وقال اجيبي عنها
فلما قرأتها اصفرت وعرفت وقالت ياشيخ استغفر الله مما جئت به فخرجت ياامير
المؤمنين وانا اجر رجلي حتى اتيتها واستاذنت عليها فقالت ما وراءك فقلت البؤس
والياس فقالت ماعليك منه فاين الله والقدر ثم امرت لي بخمسمائة دينار ثم جزت
بعد ايام ببابها فوجدت غلمانا وفرسانا فدخلت فاذا اصحاب ضمرة يسالونها
الرجوع اليه فقالت لا والله لا والله لا نظرت له وجها فاوردت على رقعة فاذا فيها بعد
التسمية سيدتي ولا ابقاني عليك أدام الله حياتك لوصفت شطرا من غدرك وبسطت
شطر غبني عليك وسلكت ظلامتي فيك اذا كنت الجانية على نفسك ونفسي والمظهرة
السوء العهد وقلة الوفاء والمؤثرة علينا غيرنا فخالفت هواي والله المستعان على ما كان

من سوء اختيارك والسلام واوقفتني على ماحمله اليها من الهدايا والتحف العظيمة فاذا هو بمقدار ثلاثين الف دينار ثم رايتها بعد ذلك وقد تزوج بها ضمرة فقال الرشيد لولا ان ضمرة سبقني اليها لكان لها معي شان من الشؤن انتهى (وحكى) مسرور الخادم قال ارق الرشيد ارقا شديدا ليلة من الليالي فقال يامسرور من على الباب من الشعراء فخرجت الى الدهليز فوجدت جميل بن معمري العذري فقلت اجب امير المؤمنين فقال سمعا وطاعة فدخلت ودخل معي الى ان صار بين يدي هرون الرشيد فسلم بسلام الخلافة فرد عليه وامره بالجلوس فقال له الرشيد ياجميل اعندك شيء من العجيبة قال نعم ياامير المؤمنين أيما احب اليك ماعاينته ورأيته أوما سمعته ووعيته فقال بل حدثني عما عاينته ورأيته فقال نعم ياامير المؤمنين أقبل علي بكلك واصغالي باذنك قال فقصد الرشيد الى مخدة من الديباج الاحمر المزركشة بالذهب محشوة بريش النعام فجعلها تحت فخذه ثم مكن منها مرفقيه وقال هلم بحديثك فقلت اعلم ياامير المؤمنين اني كنت مفتونا بفتاة محبا لها وكنت آلفها اذ هي سؤلي وبغيتي من الدنيا وان اهلها رحلوا بها لقلة المرعى فاقمت مدة لم ارها ثم ان الشوق اقلقني وجذبني اليها فراودتني نفسي بالمسير اليها فلما كانت ذات ليلة من الليالي هزني الوجد اليها فقمت وشددت رحلي على ناقتي واعتممت بعمتي ولبست اطماري وتقلدت بسيفي وتنكبت حجفتي وركبت ناقتي وخرجت طالبا لها وكنت اجد في السير فسرت وكانت ليلة مظلمة مدلهمة وانا مع ذلك اكابد هبوط الاودية وصعود الجبال اسمع زئير الاسد وعواء الذئاب واصوات الوحوش من كل جانب وقد ذهل عقلي وطاش لبي ولساني لايفتر عن ذكر الله تعالى فبينما انا اسير كذلك اذ غلبني النوم فاخذت بي الناقة على غير الطريق التي كنت فيها وزاد علي النوم واذا انا بشيء لطمني على راسي فاستنبهت فزعا مرعوبا واذا باشجار وانهار وماء واطيار على تلك الاغصان تترنم بلغاتها والحانها واشجار تلك المرج مشتبكة بعضها ببعض فنزلت عن ناقتي واخذت زمامها بيدي ولم ازل اتلطف بها الى ان خرجت بها من تلك الاشجار الى ارض فلاة فاصلحت كورها واستويت راكبا على ظهرها ولا ادري الى اين اذهب ولا الى اين ماتسوقني الاقدار فمددت نظري في تلك البرية فلاحت لي نار في صدرها فوكزت ناقتي وسرت طالبا الى ان وصلت الى تلك النار فتقربت منها وتاملت واذا

بخباء مضروب ورمح مركوز وراية قائمة وخيل واقفة وابل سائمة فقلت فى نفسى
يوشك أن يكون لهذا الخباء شان عظيم فانى لا أرى فى هذه البرية سواه ثم تقدمت
خلف الخباء فقلت السلام عليكم يا أهل الخباء ورحمة الله وبركاته فخرج الى من الخباء
غلام من ابناء تسعة عشر كانه البدر اذا اشرق والشجاعة لائحة بين عينيه فقال
وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا اخا العرب انى اظنك ضالا عن الطريق فقلت
الامر كذلك ارشدنى يرحمك الله تعالى فقال يا اخا العرب ان ارضنا هذه مسبعة
وهذه الليلة مظلمة موحدة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش ان يفترسك
فانزل عندى على الرحب والسعة فاذا كان الغد ارشدتك الى الطريق فنزلت عن ناقتى
وعلقتها بفاضل زمامها ونزعت ما كان على من اطمار وجلست ساعة واذا بالشاب
قد عمد الى شاة فذبحها والى نار فاضرمها واججها ثم دخل الخباء واخرج ابزارا ناعمة
ولحما مطيباً واقبل يقطع من اللحم ويشوى على النار ويطعمنى ويتنهد تارة ويبكى
تارة اخرى ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديدا وانشد يقول

لم يبق الا نفس خافت ومقلة انسا باهت لم يبق فى أعضائه مفصل
ألا وفيه سقم ثابت فدمعه جار وأحشاؤه توقد الا انه ساكت
تبكى له اعداؤه رحمة ياويح من يرثى له الشامت

قال جميل فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت ان الغلام عاشق ولهان ولا يعرف الهوى
الا من ذاق طعم الهوى فقلت فى نفسى انا فى منزل الرجل وأتهجم عليه فى السؤال
فردعت نفسى وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية فلما فرغت من الاكل قام
الشاب ودخل الخباء وأخرج طشطا نظيفا وابريقا حسنا ومنديلا من الحرير أطرافه
مزركشة بالذهب الاحمر وقمقما مملوأ من الماورد الممسك فتعجبت من ظرفه ورقة
حاشيته وقلت فى نفسى ما اغرب الطرف فى البادية ثم غسلنا ايدينا وتحدثنا ساعة ثم
انه قام ودخل الخباء وقطع بينى وبينه بقطع من الديباج الاحمر ثم خرج وقال ادخل
يا وجه العرب وخذ مضجعك فقد لحقك فى هذه الليلة تعب وفى سفرك هذا نصب
مفرط قال جميل فدخلت فاذا انا بفراش من الديباج الاخضر فعند ذلك نزعت ما كان
على من الثياب وبت ليلة لم أنم عمرى مثلها فلم أزل كذلك وأنا متفكر فى امر هذا
الشاب الى أن جن الليل ونامت العيون فلم أشعر الا بجس خفى لم أسمع الطف منه

ولا أرق حاشية فرفعت سجاب المضرب ونظرت فاذا أنا بصبية لم أر أحسن منها وجها الى جانبه وهما يبكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والجوى وشدة اشتياقهما الى التلاقى فقلت بالله العجب من هذا الشخص الثانى وهذا بيت فرد فانى لم أر فيه غير الفتى وليس حوله أحد ثم قلت فى نفسى لاشك ان هذه الجارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام وقد تفرد بها فى هذا المكان وتفردت به فحققتها فاذا هى انسية عربية اذا رمت تخجل الشمس المضيئة وقد أضاء الخباء من نور وجهها فلما تحققت انها محبوبته غلبتنى الغيرة على الحب فارخيت الستر وغطيت وجهى ونمت فلما اصبحت لبست ثيابى وتوضأت لصلاتى وصليت ما كان على من الفرض ثم قلت له يا اخا العرب هل لك أن ترشدنى الى الطريق فقد تفضلت على فنظر الى وقال على رسلك ياوجه العرب الضيافة ثلاثة ايام وما كنت بالذى يدعك الا بعد الثلاثة ايام قال فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسالته على اسمه ونسبه فقال أما نسبى فانا من بنى عذرة وانا فلان بن فلان وعمى فلان فاذا هو ابن عمى يا أمير المؤمنين وهو من أشرف بيت فى بنى عذرة قال فقلت يا ابن العم ما حملك على ما أراه منك من الانفراد فى هذه البرية وكيف تركت عبيدك وأماءك وانفردت بنفسك فى هذا المكان فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامى تغرغرت عيناه بالبكاء ثم قال يا ابن العم انى كنت محباً لابنة عمى مفتونا بها هائماً بحبها مجنونا عليها لا أطيق الفراق عنها فزاد عشقى لها فخطبتها من عمى فابى ان يزوجنيها وزوجها الى رجل من بنى عذرة ودخل بها وأخذها الى المحلة التى هو فيها من العام الاول فلما بعدت عنى وحجبت عن النظر اليها حملتنى لوعات الهوى وشدة الشوق والجوى على تركى اهلى ومفارقتى عشيرتى وخلانى وجميع امتعتى وانفردت بهذا البيت فى هذا البرية وألفت وحدتى فقلت واين ابياتهم قال هى قريبة فى ذروة هذا الجبل وفى كل ليلة عند نوم العيون وهدو من الليل تنسل من الحى سرا بحيث لا يشعر بها أحد فاقضى منها بالحديث الوطر وتقضى هى كذلك وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل (ليقضى الله امرا كان مفعولا) أو يأتينى الامر على رغم الحاسدين (أو يحكم الله لى فهو خير الحاكمين) قال جميل فلما حدثنى الغلام يا امير المؤمنين غمنى امره وصرت من ذلك فى حيرة لما أصابنى عليه من الغيرة فقلت له يا ابن العم هل لك ان ادلك على حيلة اشير بها عليك

وفيها ان شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشد والنجاح وبها يفرج الله عليك الذى تخشاه فقال لى قل ياابن العم فقلت له اذا كان الليل وجاءت الجارية فاردفها على ناقتى فانها سريعة الرواح واركب انت جوادك وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة جميعا فلما يصبح الصباح الا وقطعت بكم برارى وقفار وتكون قد بلغت مرادك وظفرت بمحبوبة قلبك وارض الله واسع فضاها وأنا والله مساعدك ماحييت بروحى ومالى وسيفى فلما سمع ذلك فقال لى ياابن العم حتى اشاورها فى ذلك فانها عاقلة لبيبة بصيرة بالامور قال جميل فلما جن الليل وحان وقت مجيئها وهو منتظر الوقت المعلوم فأبطأت عن عادتها فرأيت الفتى وقد خرج من باب الخباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التى تهب من نحوها وانشد يقول

ريح الصبا تهدى الى نسيما من بلدة فيها الحبيب مقيم
يارح فيك من الحبيب علاقة افتعلمين من يكون قدوم

ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية وهو يبكى ثم قال لى ياابن العم ان لبنت عمى فى هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عنى عائق ثم قال لى كن مكانك حتى آتيك الخبر ثم اخذ سيفه وجحفته ثم غاب عنى ساعة من الليل ثم اقبل وعلى يديه شىء يحمله ثم صاح الى فاسرعت اليه فقال اتدرى ياابن العم ماالخبر فقلت لا والله فقال فجعت فى ابنة عمى فى هذه الليلة فانها كانت توجهت الينا كعادتها اذ عرض لها فى طريقها اسد فافترسها ولم يبق منها الا ماترى ثم انطرح ما كان على يده فاذا هو مشاش الجارية وما فضل من عظامها ثم بكى بكاءشديدا ورمى الترس من يده واخذ كساه على يده ثم قال لاتبرح الى ان آتيك ان شاء الله تعالى ثم سار فغاب عنى ساعة ثم عاد وبيده راس الاسد فطرحه على يده ثم طلب الماء فاتيته به فغسل فم الاسد وجعل يقبله ويبكى وئن وزاد حزنه عليها وانشد يقول

الا ايها الليث المغمر بنفسه هلكت لقد هيجت لى بعدها شجنا
وصيرتنى فردا وقد كنت الفها وصيرت بطن الارض لى ولها وطنا
اقول لدهر خاننى بفراقها وغارعليها ان اكون لها حزنا

ثم قال ياابن العم سالتك بالله وبحق القرابة والرحم التى بينى وبينك الا حفظت وصيتى انك سترانى الساعة ميتا بين يديك فاذا كان كذلك فغسلنى وكفنى انا وهذه

الفاضل من مشاش الجاريه فى هذا الثوب وادفنا فى قبر واحد واكتب عليه ماياتى

كنا على ظهرها والعيش فى رغد　　والشمل مجتمع والدار والوطن

ففرق فى الدهر والتصريف الفتنا　　وصار يجمعنا فى بطنها الكفن

قال ثم بكى بكاء شديدا ثم دخل المضرب وغاب عنى ساعة وخرج وجعل يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا فلما رأيت ذلك منه عظم على وكبر عندى حتى كدت الحق به من شدة حزنى عليه ثم تقدمت اليه وفعلت به ما أمرنى من الغسل وكفنتهما جميعا ودفنتهما فى قبر واحد وأقمت عند قبرهما ثلاثة ايام ثم ارتحلت وأقمت سنين اتردد الى زيارتهما وهذا ما كان من حديثهما يا أمير المؤمنين (قال) فلما سمع الرشيد كلامه استحسنه وخلع عليه وأجازه جائزة حسنة والله أعلم (حكاية اجنبية) قال اسحق بن ابراهيم الموصلى بينما انا ذات يوم فى منزل وكان زمن الشتاء وقد انتشرت السحب وتراكمت الامطار بقطر كافواه القرب وامتنع الغادى والمقبل من المسير فى الطرقات لما فيها من الامطار والوحل وأنا ضيق الصدر اذلم ياتنى احد من اخوانى ولم اقدر على المسير اليهم من شدة الوحل والطين فقلت لغلامى أحضر لى طعاما وشرابا فتنغصت ان لم يكن معى من يؤانسنى ولم ازل أتطلع من الطاقات وأراقب الطرقات حتى اقبل الليل فتذكرت جارية لبعض اولاد المهدى كنت اهواها وكانت عارفة بالغناء وتحريك الملاهى فقلت فى نفسى لو كانت الليلة عندنا لتم سرورى وطالت ليلتى مما انا فيه من الفكر والقلق واذا بداق يدق الباب وهو يقول * أيدخل محبوب على الباب واقف * فقلت فى نفسى لعل غرس التمنى ثمر فقمت الى الباب فاذا بصاحبتى وعليها مرط اخضر قد اتشحت به وعلى رأسها وقاية من الديباج تقيها من المطر وقد غرقت فى الطين الى ركبتها وابتل ماعليها من المزاريب وهى فى حال عجيب فقلت لها ياسيدتى ما الذى اتى بك فى هذه الاوحال فقالت قاصدك جاءنى ووصف ماعندك من الصبابة والشوق فلم يسعنى الا الاجابة والاسراع نحوك فعجبت من ذلك وكرهت ان أقول لها انى لم ارسل اليها احد فقلت الحمد لله على جمع الشمل بعد ماقاسيت من الم الصبر ولو كنت ابطأت على ساعة كنت أحق بالسعى اليك فانى كثير الصبابة نحوك ثم قلت لغلامى هات الماء فاقبل بسخافة فيها ماء حار حتى اصلح لها حالها ثم امرته ان يصب الماء على رجليها وتوليت غسلها ثم دعوت ببدلة من افخر

الملبوس فالبستها اياها بعد ان نزعت ما كان عليها وجلست ثم استدعيت بالطعام فابت
فقلت هل لك فى الشراب فقلت نعم فتناولت اقداحا ثم قالت من يغنى لى فقلت
لها انا ياسيدتى فقالت لا أحب فقلت بعض جوارى قالت لا اريد فقلت غن أنت
قالت ولا انا قلت فمن يغنيك قالت التمس من يغنى لى فخرجت اطاعة لها الا انى
آيس من ان اجد احدا فى مثل هـذا الوقت فلم أزل حتى بلغت الشارع فاذا انا
باعمى يختبط الارض بعصا وهو يقول لاجزى الله من كنت عندهم خيرا ان غنيت
لم يسمعوا وان سكت استخفوا فقلت امغن انت قال نعم قلت فهل لك ان تتم ليلتك
عندنا وتؤنسنا قال ان شئت خذ بيدى فاخذت بيده وسرت الى الدار وقلت لها
ياسيدتى اتيت بمغن اعمى تلتذ به ولا يرانا فقالت على به فادخلته وعزمت عليه فى الطعام
فاكل اكلا لطيفا وغسل يديه وقدمت اليه الشراب فشرب ثلاث اقداح ثم قال لى
من تكون قلت اسحق بن ابراهيم الموصلى قال لقد كنت اسمع بك والان فرحت
بمنادمتك فقلت ياسيدى فرحت عن بشرك فقال غن يا اسحق فاخذت العود على سبيل
المجون وقالت السمع والطاعة فلما غنيت واقضى الصوت قال يااسحق قاربت ان
تكون مغنيا فصغرت على نفسى والقيت العود من يدى فقال ماعندك من يحسن الغناء
قلت عندى جارية قال مرها فاتغن فقلت تغن وانت واثق بغنائها قال نعم فغنت
قال ماصنعت شيئا فرمت العود من يدها مغضبة وقالت الذى عندنا جدنا به فان
كان عندك شيء فتصدق به فقال على بعود لم تمسه يد فامرت الخادم فجاء بعود
جديد فضرب فى طريق لا أعرفها واندفع يغنى هذه الابيات

سرى يقطع الظلماء والليل عاكف حبيب باوقات الزيارة عارف
وما راعنا الا السلام وقولها ايدخل محبوب على الباب واقف

قال فنظرت الى الجارية شزرا وقال سر بينى وبينك ماوسعه صدرك ساعة واودعته
لهذا الرجل فخلف لها ثم اعتذرت اليها واخذت اقبل يديها وادغدغ ثديها واعض
خديها حتى ضحكت ثم التفت الى الاعمى وقلت غن ياسيدى فاخذ العود وغنى هذه
الابيات الا ربما زرت الملاح وربما لمست بكفى البنان المخضبا
ودغدغت رمان الصدور ولم ازل اعضعض تفاح الخدود المنكبا

فقلت لها ياسيدتى فمن اعلمه بما نحن فيه قالت صدقت ثم تجنبناه فقال انى لحاقن فقلت

ياغلام خذ الشمعة وامض بين يديه فخرج وابطأ فخرجنا فى طلبه فلم نجده واذا الابواب مغلقة والمفاتيح فى الخزانة فلا ندرى فى السماء صعدوا فى الارض هبط ثم علمت انه ابليس وانه قاد لى ثم انصرف فتذكرت قول ابى نواس حيث قال

عجبت من ابليس فى كبره وخبث ما اضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة وصار قوادا لذريته

(حكى) أن الخليفة هرون الرشيد قلق فى بعض الليالى قلقاً شديداً فاستدعى بوزيره جعفر البرمكى وقال له ياوزير ان صدرى ضيق ومرادى الليلة نتفرج فى شوارع بغداد وننظر فى مصالح العباد بشرط ان لا يعرفنا احد من الناس وننزيا بزى التجار الاكياس فقال السمع والطاعة فقاموا فى الوقت والساعة وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا لباس التجار الخليفة والوزير جعفر ومسرور السياف الاكبر وتمشوا من مكان الى مكان حتى وصلوا الى الدجلة فرأوا بالامر المقدر شيخا قاعداً فى شختور فتقدموا اليه وسلموا عليه وقالوا ياشيخ نشتهى من فضلك واحسانك ان تفرجنا الليلة فى مركبك وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بها فقال لهم الشيخ ومن يقدر على الفرجة والخليفة هرون الرشيد ينزل فى حراقة صغيرة الى الدجلة ومعه مناد ينادى معاشر الناس كافة جيد وردىء شيخ وصبى خاص وعام عبد وغلام كل من نزل فى مركب بالليل وشق الدجلة ضربت عنقه او يشنق على صارى مركبه وكانكم الساعة بالحراقة وهى مقبلة فقال له الخليفة هرون الرشيد وجعفر البرمكى ياشيخ خذ هذين الدينارين وادخل بنا قبوا من هذه الاقبية الى ان تروح الحراقة فقال لهم الشيخ هاتوا الذهب والله المستعان فاخذ الذهب وعوم بهم قليلا واذا بالحراقة اقبلت وفيها الشموع والمشاعل فقال لهم الشيخ اماقلت لكم ياستار لا تكشف الاستار فقال هرون الرشيد والوزير جعفر البرمكى ادخل بنا ياشيخ فى قبو من الاقبية حتى تمضى هذه الحراقة فدخل الى قبو ووضع عليهم مئزرا اسود وصاروا يتفرجون من تحت المئزر واذا بالحراقة قد اقبلت والشمع يوقد فيها واذا فى مقدم الحراقة مشاعلى بيده مشعل من الذهب الاحمر يوقد فيه بالعود القاقلى وعلى المشاعلى قباء اطلس احمر بطراز مزركش اصفر وعلى راسه شاش موصلى وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الاخضر ملآنة من العود القاقلى وهو يوقد به عوض الحطب ومشاعلى آخر مؤخر

الحراقة مثله ومائتا مملوك واقفون ميمنة وميسرة وكرسى منصوب من الذهب الاحمر وعليه شاب حسن جالس كالقمر وعليه خلعة سوداء بطرازين من الذهب الاصفر وبين يديه انسان كانه الوزير جعفر وعلى رأسه خادم كانه مسرور بسيف مشهور وعشرون نديما فقال الخليفة ياجعفر قال لبيك ياامير المؤمنين قال لعل ان يكون هذا احد اولادى اما المأمون او محمد الامين فلما وصلت الحراقة اليهم واذا بالمشاعلى ينادى معاشر الناس كافة الخاص والعام والجيد والردىء والعبد والغلام جهاوات وغير جهاوات قد رسم خليفتنا هذا ان كل من تفرج فى الدجلة اوفتح طاقته حل ماله وضرب رقبته ومن لا يصدق يجرب (قال) فتامل الخليفة هرون الرشيد فى الشاب وهو جالس على كرسى من الذهب اذ كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال ثم التفت الى الوزير وقال ياوزيرى قال لبيك ياامير المؤمنين قال والله ماابقى شيئا من شكل الخليفة وهذا الذى بين يديه كانه انت ياجعفر لامحالة والخادم الذى على راسه كانه مسرور وهذا وهؤلاء الندماء كانهم ندمائى وقد حار عقلى فى هذا الامر فقال له الوزير وانا والله ياامير المؤمنين كذلك ثم تقدمت الحراقه الى ان غابت عن العين فعند ذلك اخرج الشيخ الشختور الذى فيه الجماعة من تحت القبوة وقال الحمد لله على السلامة الذى لم يصادفنا فقال الخليفة ياشيخ وهذا الخليفة ينزل كل ليلة فى الدجلة قال نعم ياسيدى له على هذا الحال سنة كاملة فقال الخليفة ياشيخ نشتهى من فضلك واحسانك ان تقف لنا ليلة غد فى هذا المكان ونحن نعطيك خمسة دنانير فانا قوم غرباء وقصدنا التنزه ونحن نازلون فى الفندق فقال الشيخ السمع والطاعة ثم ان الخليفه وجعفر ومسرور توجهوا من عند الشيخ المراكبى الى القصر وقلعوا ماعليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار وجلس كل واحد فى مرتبته ودخلت الامراء والحجاب والنواب وانعقد المجلس بالناس ولما انقضى النهار وتفرقت الاجناد قال الخليفة هرون الرشيد لوزيره جعفر انهض بنا للفرجه على الخليفه الثانى فضحك جعفر ومسرور ولبسوا لبس التجار وخرجوا منشرحين الصدور وكان خروجهم من باب السر فلما وصلوا الى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الشختور لهم فى الانتظار فنزلوا عنده فى المركب فلما استقروا مع الشيخ المركبى واذا بالخليفة الثانى فى الحراقه وقد اقبلت عليهم فتأملوها واذا فيها مائتا مملوك غير المماليك الاول

والمشاعلية تنادي على عادتهم فقال الخليفة ياوزير هذا شيء لوسمعت به ماصدقت ولكن رايت هذا عيانا ثم ان الخليفة قال لصاحب الشختور ياشيخ هذه عشرة دنانير وسر بنا في مساواتهم فانهم في النور ونحن في الظلام ننظرهم ونتفرج عليهم وهم لا ينظروننا فاطلق الشيخ الشختور في مساواتهم وسار في ظلام الحراقة ولم يزالوا سائرين في اثرهم الى آخر البساتين واذا بزربيه بطول الحراقة التصقت عليها واذا بغلامين واقفين ومعهما بغلة مسرجة ملجمة فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء وزعقت المشاعلية والجاوشية واشتالت الغاشية وطلع هرون الرشيد وجعفر ومسرور الى البر وشقوا بين المماليك وساروا قدامهم فلاحت من المشاعلية التفاته فراوا ثلاثة انفار لبسهم لبس التجار وهم غرباء فانكروهم وغمزوا عليهم فمسكوهم واحضروهم بين يدى الخليفة الثاني فلما نظرهم قال كيف وصلتم الى هذا المكان وما الذي جاء بكم في مثل هذا الوقت قالوا يامولانا اليوم كان قدومنا ونحن قوم غرباء تجار وخرجنا نتمشى الليلة واذا بكم قد اقبلتم وجاء هؤلاء وقبضوا علينا واوقفونا بين ايديكم وهذا خبرنا فقال لهم الخليفة الثاني طيبوا قلوبكم فلا باس عليكم لانكم قوم غرباء واذا كنتم من بغداد لضربت اعناقكم للمخالفة ثم التفت الى وزيره وقال خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة فقال سمعاً وطاعة ثم ساروا الى ان وصلوا الى قصر عظيم الشان محكم البنيان ماحواه سلطان قصر قام من التراب وتعلق باكناف السحاب بابه من خشب الساج مرصع بالذهب الوهاج يدخل منه الى ايوان بفسقية وشاذروان وستر مسبول وفرش تذهل العقول وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الايام
فيه العجائب والغرائب نوعت فتحيرت في نعتها الاقلام

قال فدخل الخليفة الثاني الى القصر والجماعة في خدمته الى ان جلس على كرسي من الذهب مرصع بالدر والجوهر وعلى الكرسي بشخانة من الحرير الاخضر لا يرى مثلها الا عند كسرى وقيصر مزركشة بالذهب الاحمر معلقة في بكرة من الصندل رباطتها من الحرير الاصفر هذا وقد جلس الندماء في مراتبهم وصاحب سيف النقمة واقف بين يديه فمدوا السماط واكلوا ورفعوا الخوان ولا يديهم غسلوا واحضرت له المدام ووضعت الطاسات والاواني وصفت الاباريق والكاسات والفناني ودار

للدور الى ان وصل الى الخليفة هرون الرشيد فامتنع من الشراب فقال الخليفة الثانى لجعفر مابال صاحبك لا يشرب فقال يامولاى له مدة ماشرب فقال الشاب عندى مشروب غير هذا يصلح لصاحبك على بشراب التفاح ففى الحال أحضر فقدم بين يدى هرون الرشيد وقال كلما وصل الى الدور فاشرب من هذا ولا يزالون يشربون فى أنشراح وتعاطى اقداح الى ان تمكن الشراب من رؤسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم فقال الرشيد لوزيره والله ياوزير عندنا آنية مثل هذه الانية فيا ليت شعرى من يكون هذا الشاب فبينما هما يتحادثان بلطافة اذ لاحت من الشاب التفاتة فوجد الوزير يسارر الخليفة فقال المساورة عربدة فقال الوزير ماثم عربدة الا ان رفيقى هذا يقول سافرت غالب البلاد ونادمت الملوك وعاشرت الاجناد مارايت احسن من هذا النظام ولا مثل آنية هذا المدام الا ان اهل بغداد يقولون الشراب بلا اسماع من جملة المجون فلما سمع الخليفة الثانى هذا الكلام تبسم وانشرح وكان بيده قضيب فضرب به على مدورة واذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيا من العاج مصفحا بالذهب الوهاج وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال فنصب الخادم الكرسى وجلست عليه الجارية وهى كالشمس الصاحية وبيدها عود من صنعة الهنود وشدته وحنت اليه بعد ان ضربت اربعة وعشرين طريقة عليه فاذهلت العقول وعادت الى الطريقة الاولى وجعلت تقول

لسان الهوى من مقاتى لك ناطق ... يخبر عنى اننى لك عاشق
ولى شاهد من طرف قابى معذب ... وقلبى جريح من فراقك خافق
وكم اكتم الحب الذى قد اذابنى ... وقلبى قريح والدموع سوابق
وما كنت ادرى قبل حبك ما الهوى ... ولكن قضا الرحمن فى الخلق سابق

(قال) فلما سمع الخليفة الثانى هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمه وشق البدلة التى كانت عليه الى الذيل فاسبلت عليه البشخانة واتى ببدله غيرها احسن منها فلبسها وجلس على عادته فلما وصل القدح اليه ضرب القضيب على المدورة واذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل كرسيا من الذهب وخلفه جارية أحسن من الاولى وجلست على الكرسى وبيدها عود يكمد الحسود وانشدت تقول

كيف اصطبارى ونار العشق فى كبدى ... والدمع مع مقلتى طوفانيه مدد

والله ماطاب لى عيش امر به   وكيف يفرح قلب حشوه كمد

(قال) فصرخ الشاب صرخة عظيمة وشق ماعليه الى الذيل واسبلت عليه البشخانة على العادة واتى ببدله غيرها احسن منها فلبسها واستوى جالسا ودار المدام وانبسط الكلام فلما وصل القدح اليه ضرب القضيب على المدورة ففتح الباب وخرج منه خادم ومعه كرسي وخلفه جارية فجلست ومعها عود يذهل الاسود فغنت وانشدت تقول

اقصروا هجركم وقلوا جفاكم   ففؤادى وحقكم ماسلاكم
وارحموا مدنفا كئيبا حزينا   ذا غرام متيما فى هواكم
قد براه السقام عن عظم وجد   يتمنى من الاله رضاكم
يابدورا محلكم لا فؤادى   كيف اختار فى المنام سواكم

قال فصرخ الشاب وشق ما عليه من الثياب فارخوا عليه البشخانة واتوا ببدلة غيرها وعاد الى حالته مع ندمائه ودارت الاقداح وطاب الانشراح فلما وصل القدح اليه ضرب القضيب على المدوره ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسيا وخلفه جارية فجلست على الكرسي جلسة تخلب العقول واخذت العود وغنت تقول

ترى ينصرم حال التهاجر والقلا   ويرجع ما قد انقضى لى اولا
ايام كنا والديار تلمنا   فى طيب عيش والحواسد غفلا
غدر الزمان بنا وفرق شملنا   من بعد هاتيك المنازل والخلا
اتروم منى ياعذولى سلوة   وارى فؤادى لايطيع العذلا
فدع الملام وخلنى بصبابتى   القلب من انس المحبة ماخلا
ياسادة نقضوا العهود وبدلوا   لاتحسبوا قلبى لبعدكم سلا

(قال) فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخة عظيمة وشق ماعليه من الثياب ووقع الى الارض مغشيا عليه وسقط منه القوى والحيل فارادوا ان يرخوا عليه البشخانه على العادة فوقعت حبالها بالارادة فلاحت من هرون الرشيد التفاتة فنظر على اجناب الشاب اثر مقارع فقال الرشيد بعد النظرة والتاكيد لجعفر انه شاب مليح الا انه لص قبيح وما عند احد منه خبر هل رايت ما على جنبيه من الاثر وقد اسبلت البشخانة عليه على العادة واتى ببدلة غيرها فلبسها وقد افاق من غشيته فاستوى جالسا على العادة مع الندماء فحانت منه التفاتة فوجد جعفرا والخليفة يتحدثان فقال لهما

ما الخبر يافتيان قال جعفر يامولاى خير لاشك ولا خفاء ان رفيق هذا من التجار الكبار وسافر جميع الامصار وصحب ملوك واخيار وقال ان الذى حصل من مولانا الخليفة فى هذه الليلة اسراف عظيم لم ار احدا فعل هذا الفعل فى هذه الاقاليم لانه شق كل بدلة بخمسمائة دينار وهذا شيء زايد فى العيار فقال الشاب يا هذا المال مالى والقماش قماشى وهذا من بعد أنعامى على الخدم والحواشى فان كان كل بدلة شققتها هى لواحد من الندماء الحضار وقد رسمت لهم ان العوض على كل بدلة خمسمائة دينار فانشد ذلك عند الوزير جعفر وقال

بنت المكارم وسط كفك منزلا   فجميع مالك للانام مباح
واذا المكارم اغلقت ابوابها   يوما فانت لقفلها مفتاح

(قال) فلما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك رسم له بالف دينار وبدلة ثم دارت بينهم الاقداح وطاب لهم شراب الراح فقال الرشيد ياجعفر اساله عن الضرب الذى رايناه على جنبه حتى ننظر مايقول فى جوابه فقال الوزير يامولاى لا تعجل وترفق بنفسك والصبر اجمل فقال وحياة راسى وتربة العباس ان لم تساله اخمدت منك الانفاس فعند ذلك التفت الشاب الى الوزير وقال مالك مع رفيقك وما الخبر فقال خير يامولانا فقال سالتك بالله الا مااخبرتنى بخبره ولا تكتم عنى شيئا من امره فقال يامولاى انه ابصر على جنبيك اثر سياط فتعجب من ذلك غاية العجب وقال يالله العجب الخليفة يضرب وقصده يعلم السبب فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال اللهم فنعم : اعلموا ان حديثى عجيب وامرى غريب لو كتب بالابر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر ثم تاوه وان واشتكى وبكى وانشد

حديثى عجيب حاز كل العجائب   وحق الاله قد عرف بالمواهب
فان شئتمو ان تسمعوا لى فانصتوا   و يطرب هذا الجمع من كل جانب
واصغوا الى قولى ففيه اشارة   وان كلامى صادق غير كاذب
لانى قتيل من غرام ولوعة   وقاتلتى فاقت جميع الكواعب
لها مقلة كحلا وخد مورد   ويقتلنى منها قسى الحواجب
وقد حس قلبى ان فيكم امامنا   خليفة هذا الوقت ابن الاطايب
وثانيكمو يدعى الوزير بجعفر   حقيقة يدعى صاحب وابن صاحب

وثالثكم مسرور سياف نقمة　　فان كان هذا القول حقا بصائب
فقد نلت ماارجوه على كل حالة　　وجاء سرورالقلب من كل جانب

قال فعند ذلك حلف له جعفر انهم لم يكونوا المذكورون فضحك الشاب وقال الذي أعرفكم به انى ما أنا أمير المؤمنين وانما سميت نفسي بهذا الاسم لابلغ ماأريده من أبناء المدينة واسمى على بن محمد الجوهرى وان ابى كان من الاعيان ومات وخلف لى أموالا لانا كلها النيران من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان وياقوت وجوهر وزمرد وبهرجان وحمامات وغيطان وبساتين وفناديق وطواحين وعبيد وجوار وغلمان فلما كان فى بعض الايام وانا جالس فى حانوتى وحولى الحشم والخدم واذا انا بجارية قد أقبلت على بغلة وفى خدمتها ثلاث جوار كانهن الاقمار ونزلت على دكانى وجلست وقالت انت على بن محمد الجوهرى فقلت لها مملوكك وعبد رقك فقالت هل عندك عقد جوهر يصلح لمثلى فقلت لها ياستى الذى عندى يحضر بين يديك فان أعجبك شيء يكون بسعد المملوك وان لم يعجبك شيء منه فبسوء حظى وكان عندى مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شيء منها وقالت اريد احسن مما رأيت وكان عندى عقد صغير شراؤه على والدى بمائة الف دينار ولم يوجد مثله عند احد السلاطين الكبار فقلت ياسيدتى بقى عندى عقد الفصوص والجواهر الذى لم يملكه احد من الاصاغر والاكابر فقالت ارنى اياه فلما راته قالت هذا الذى طول عمرى أتمناه ثم قالت بكم ثمنه فى الاسعار فقلت شراؤه على والدى بمائة الف دينار فقالت ولك خمسة آلاف زائدة فقلت لها ياسيدتى العقد وصاحبه فى الرق بين يديك ولاخلاف فقالت لابد من الفائدة ولك المنة الزائدة وقامت من وقتها عجلة وركبت البغلة بسرعة وقالت ياسيدى نور الدين باسم الله قم صحبتنا لتأخذ الثمن فان نهارك اليوم بنا مثل اللبن فقمت وقفلت الدكان وسرت معهن فى أمان الى ان وصلنا الدار فوجدتها دارا عليها السعادة لائحة وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد العجيب هذه الابيات

الا يادار لايدخلك حزن　　ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار انت لكل ضيف　　اذا ماضاق بالضيف المكان

فنزلت الجارية ودخلت الدار وامرت بجلوسى الى ان ياتى الصيرفى فجلست على باب الدار ساعة لطيفة واذ بجارية خرجت الى وقالت ياسيدى ادخل الى الدهليز فان

جلوسك على الباب قبيح فقمت الى الدهليز وجلست على الدله ساعة واذا بجارية خرجت الى وقالت ياسيدى تقول لك سيدتى ادخل واجلس على جانب الايوان حتى تقبض مالك فقمت فدخلت وجلست حيث امرتني واذا بكرسى من الذهب وعليه ستارة من الحرير الاحمر واذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من تحتها تلك الجارية التي اشترت مني العقد وقد اسفرت عن وجه كانه دائرة القمر والعقد فى عنقها فاندهش عقلي وحار ذهني ولبي من رؤية هذه الجارية وحسنها فلما راتني قامت من على الكرسى وسعت نحوى وقالت يانور الدين هل رايت جميلة مثلى فقلت ياسيدتى الحسن كله فيك وهومن بعض معانيك فقالت ياعلى. اعلم انى احبك وما صدقت بك الا لما صرت عندى ثم انها طوقت على وعانقتنى فقبلتها وقبلتنى ثم جذبتني وعلى صدرها رمتنى فلما علمت منى انى اريدان اهم بها قالت ياعلى اتريد ان تجتمع بى فى الحرام والله ما كان يفعل الاثام ويرضى بقبيح الكلام فانى بكر عذراء مادنا منى احد ولست مجهولة فى البلد اتعلم من انا فقلت لا والله وحلفت لها يمينا فقالت انا الست دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكى واخى جعفر فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطرى عنها وقلت ياسيدتى مالى ذنب فى التهجم عليك انت التى اطمعتينى فى احسانك والوصول الى جانبك فقالت لاباس عليك ولابد من الاحسان اليك فان امرى بيدى والقاضى ولى عقدى والقصدان اكون لك وتكون لى ثم انها دعت بالقاضى والشهود وبذلت المجهود فلما حضروا قالت لهم هذا نور الدين على بن الجوهرى قد طلب زواجى ودفع لى هذا العقد مهرى وانا قد قبلت ورضيت ثم ان القاضى حمد الله تعالى واثنى عليه وكتب الكتاب فدخلت عليها بعد ان اعطت للقاضى شيئا ماله حساب واحضرت المدام واحضرت الاقداح باحسن نظام فلما شعشعت الخمره فى رؤسنا امرت جارية عودية ان تغنى فانشدت تقول

قلبي وآمالى بباب رجاكمو	لا بتغى فى الكون غير رضاكموا
ياجيرة جاروا على ببعدهم	حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو ياسادتى حاشاكمو	صبا معنى مغرما بهواكمو
بالله جودوا وارحموا المتيم	لا يستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى اشتياقى فوق طول رضاكمو	فاذا شجاه حسنكم ناجاكمو

(قال)فاطربتنا الجاريه بحسن غنائها ولم تزل الجوارى يغنين جاريه بعد جاريه وينشدون الاشعار الى ان غنت عشر جوار فعند ذلك اخذت العود الست دنيا وانشدت تقول

اقسم بلين قوامك المياس انى لنار الهجر منك اقاسى
فارحم اصب فى هواك مقيم يا بدر تم انت سيد الناس
انعم بوصلك كم ابيت بليلة اجلو جمالك فى ضياء كاس
ما بين ورد جمعت الوانه مع نرجس ايضا وحسن الاس

(قال)الشاب ثم انى اخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه الابيات

سبحان رب جميع الحسن اعطاك حتى بقيت انا من بعض اسراك
يامن لها ناظر تسبي الانام به خذى الامان لنا من سحر عيناك
فالماء والنار فى حديثك قد جمعا والورد و ردى نبت فى وسط خداك
انت الغرام قلبي والنعيم له فما امرك فى قلبى واحلاك

(قال)فلما سمعت منى ماقلت فرحت فرحا شديدا ثم انها صرفت الجوارى وقمنا الى احسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الالوان ونزعت ماعليها من الثياب وخلوت بها خلوة الاحباب فوجدتها بكرا وفرحت بها فرحا لم اجده فى عمرى منها وفيها انشدت

ياليل دم لى لا اريد صباحا يكفى بوجه معانقى مصباحا
طوقته طوق الحمام بساعدى وجعلت كفى للمنام مباحا
هذا هو الفوز العظيم فمن لنا متعانقين فلا نريد براحا

فاقمت عندها شهرا كاملا وقد نسيت الدكان والاهل والاوطان الى ذات يوم من الايام قالت يانور الدين قد عزمت اليوم على المسير الى الحمام وانت اقعد على هذا السرير الى ان ارجع اليك فقلت سمعا وطاعه وحلفتنى ان لا انتقل من موضعى فاخذت جواريها وذهبت الى الحمام فوالله يااخوانى مالحقت تخرج من راس الزقاق الا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز واى عجوز وقالت يانور الدين الست زبيدة تدعوك فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك فقلت والله على عين ما اقوم من مقامى حتى تاتى الست دنيا فقالت العجوز يانور الدين لا تخل الست زبيده تصير عدوتك فقم كلمها وارجع فقمت من وقتى اليها والعجوز امامى الى ان اوصلتنى الى الست زبيدة فلما وصلت اليها قالت يانور الدين انت معشوق الست دنيا فقلت مملوكك وعبد رقك

فقالت صدق الذى وصفك بالحسن والجمال فانك فوق الوصف والمقال ولكن غن لى شيئا حتى اسمعك فقلت السمع والطاعة فاتتنى بعود فغنيت عليه وانشدت أقول

قلب المحب مع الاحباب متعوب	وجسمه بيد الاسقام منهوب
مافى الركائب من زمت حمولهم	الا وكان له فى الظعن محبوب
استودع الله فى حيكم قمرا	بهواه قلبى وعن عيناى محجوب
يرضى ويغضب ما أحلى تدلله	وكل ما يفعل المحبوب محبوب

فقالت لى حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك فلقد كملت فى الحسن والظرف والمعنى قم الى مكانك قبل ما تجىء اليك الست دنيا فلم تجدك فتغضب عليك فقبلت الارض وخرجت والعجوز امامى الى ان أوصلتنى الى الباب الذى خرجت منه فدخلت وجئت الى السرير لاجلس فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير فقعدت عند رجليها وصرت اكبسها ففتحت عينيها فرأتنى فجمعت رجليها ورفستنى ورمتنى من على السرير وقالت يانور الدين خنت اليمين وكذبت وذهبت الى الست زبيدة والله لولا خوفى من الهتيكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها ثم قالت لعبدها ياصواب قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب فلا حاجة لنا به فتقدم ذلك الخادم الى وشرط ذيلى وعصب عينى واراد أن يضرب رقبتى فقامت اليها الجوارى الكبار والصغار وقلن لها ياستاه ماهو باول من اخطا وماعرف خلقك وانت ماتبغضينه وما فعل ذنبا يوجب ان تقتليه فقالت والله لا بد ان أؤثر فيه اثرا ثم انها امرت بضربى فضربت على أضلاعى بالضرب الذى رأيتموه وأمرت باخراجى فأخرجونى وابعدونى عن القصر ورمونى ورجعوا وتركونى فلممت نفسى ومشيت قليلا قليلا الى ان وصلت الى منزلى واحضرت جراحا اوريته الضرب فلاطفنى وسعى فى مصالحى فلما صح جسمى دخلت الحمام وزالت عنى الاوجاع والاسقام وجئت الى الدكان واخذت جميع مافيها وبعته وجمعت ثمنه واشتريت اربعمائة مملوك ماجمعهم احد من الملوك يرجع معى فى كل يوم مائتان وعملت هذه المركب الحراقة بالف ومائتين من الذهب العين وسميت نفسى بالخليفة ورتبت من معى من الخدم كل واحد فى وظيفته وناديت كل من تفرج فى الدجلة ضربت عنقه بلامهلة ولى على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على اثر ثم أنه بكى وأن واشتكى وانشد يقول

والله ما كنت طول الدهر ناسيها ... ولا دنوت الى من ليس يدنيها
كانها البدر فى تكوين خلقتها ... سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولا ذنب لى الا محبتها ... فكيف حال الذى قد بات ناعيها
وصيرتنى حزينا ساهراً دنفاً ... والقلب قد حار منى فى معانيها

(قال) فلما سمع هرون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب تعجب غاية العجب وقال سبحان من جعل لكل شىء سببا ثم انهم طلبوا من الشاب الانصراف واضمر الرشيد للشاب الانصاف وان يتحفه غاية الاتحاف فانصرفوا من عنده سائرين والى قصر الخلافة طالبين ولما استقر بهم فى منزلهم الجلوس غيروا ما كان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة وكذلك مسرور سياف النقمة والعطب فقال الخليفة لجعفر المهاب ياوزيرى علىّ بالشاب فخرج اليه بالحشم والخدم وسار الى منزل الشاب فخرج اليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر أجب أمير المؤمنين فقال سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين فسار معه الى القصر وهو من الترسيم عليه فى حصر فلما دخل الى الخليفة ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ورأى الشاب الخليفة عرفه فقبل الارض بين يديه ودعاله بدوام العز وأثنى عليه وقال السلام عليك ياأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين وقامع المفسدين وامام المتقين هناك الله بما اعطاك وجعل الجنة ماواك والنار مثوى لاعداك وانشد يقول

لازال بابك كعبة مقصودة ... وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى فى البلاد بأسرها ... هذا المقام وانت ابراهيم

فعند ذلك تبسم الخليفة فى وجهه ورد عليه السلام وأظهر له الاحسان والاكرام وقربه اليه وأجلسه بين يديه وقال له يانور الدين أريد أن تحدثنى بحديثك الليلة يامسكين فانه من أعجب الامور فقال الشاب العفو ياأمير المؤمنين اعطنى منديل الامان ليهدأ روعى ويطمئن قلبى فقال الخليفة لك الامان فشرع الشاب يحدث بالذى جرى له من أوله الى آخره فعلم الخليفة من غير اطالة أن الصبى عاشق لامحالة فقال الخليفة أتحب ان اردها اليك يامسكين قال نعم ياأمير المؤمنين ثم انشد

ان رمت احسانا فهذا وقته ... او رمت معروفا فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد الى الوزير وقال له احضر أختك الست دنيا بنت الوزير

يحيي فاحضرها فقال لها أتعرفين من هذا فقالت أين من النساء معرفة بالرجال فتبسم وقال يادنيا كم عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها الى آخرها والامر لايخفى وان كان مستوراً فقالت كان في الكتاب مستورا وانا أستغفر مما جرى واسأل من فيض الفضل العفو عني فضحك الخليفة واحضر القاضي والشهود وعقدله ثانياً عليها وحصل له سعد السعود وجعله نديمه وزاد تكريمه وعاش بقية عمره في اهنا عيش ونعمة يجالس الخليفة في الليل والنهار وتؤانسه الست دنيا ذات الفخار وهذا ماانتهى الينا من التخليص والله اعلم

(حكى والله اعلم بغيبه واحكم) ان الرشيد ارق ذات ليلة ارقاشديداً فاستدعى جعفراً وقال اريد منك ان تزيل ما بقلبي من الضجر فقال الوزير ياامير المؤمنين كيف يكون على قلبك ضجر وقد خلق الله اشياء كثيرة تزيل الهم عن المهموم والغم عن المغموم وانت قادر عليها فقال الرشيد وما هي ياجعفر فقال له قم بنا الان حتى نطلع فوق سطح هذا القصر ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها والقمر وحسن طلعته لانه وجه من تحب كما قيل

كانما حسن السماء وزرقها قد رقمت فيها افانين الصور
فكانما البدر حين لاح لنا في بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد ياجعفر ماتلفت نفسي الى شيء من ذلك فقال ياامير المؤمنين افتح شباك القصر الذى يطلع على البستان وتفرج على حسن تلك الاشجار واسمع صوت تغريد الاطيار وانظر الى هدير الانهار وشم روائح تلك الازهار واسمع الناعورة التى كانها انين محب فارق محبوبه وهى كما قال فيها بعض واصفيها

وناعورة غنت وغنت وقدحدت تعبر عن حال المشوق وتعرب
ترقص عطف البان تيها لانها تغني له طول الزمان ويشرب

واما ان تنام ياامير المومنين الى ان يدركنا الصباح فقال ياجعفر ماتلتفت نفسي الى شيء من ذلك فقال ياامير المؤمنين افتح الشباك الذى يطلع على الدجلة حتى نتفرج على تلك المراكب والملاحين وهذا يصفق وهذا ينشد مواليا وهذا يقول دوبيت وهذا يعمل كيت وكيت فقال الرشيد ماتلفت نفسي الى شيء من ذلك قال جعفر قم ياامير المؤمنين حتى ننزل الى الاصطبل الخاص وننظر الى الخيل العربيات

وتتفرج على حسن الوانها ما بين ادهم كالليل اذا اظلم واشقر واشهب وكميت واحمر واخضر وابلق واصفر والوان تحير العقول . فقال الرشيد ماتلفت نفسى الى شيء من ذلك فقال جعفر يا امير المؤمنين عندك فى قصرك ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الى سنطرية احضر الجميع واحضر العقار المروق فلعل ان يزول مابقلبك من الضجر فقال ماتهم نفسى الى شيء من ذلك فقال جعفر يا امير المؤمنين مابقى الا ضرب عنق مملوكك جعفر فانى قد عجزت عن اجازة هم مولانا فقال ياجعفر اما سمعت قول ابن عمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من فم مولانا احلى فقال الرشيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرح امتى ثلاث ان يرى بعينه شيئا مارآه او يسمع شيئا ماسمعه او يطأ مكانا ماوطئه فيتفق ياجعفر ان يكون فى بغداد مكان ماوطئناه اوشيء ماسمعناه اوموضع مارايناه فقال جعفر اتاذن لى يا امير المؤمنين ان اطلع الى مجلس النوبة وانظر احدا من المسافرين احضره بين يدى امير المؤمنين لعله ان يحدثك بحديث ماسمعته فقال الرشيد قم وافعل فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ ابى الحسن الخليع الدمشقى المسامر قال فلما رأى امير المؤمنين سلم فاحسن وترجم وابلغ ثم قال يا امير المؤمنين وحامى حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وعلى آله وصحبه اجمعين اطال الله بقاك وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لاعداك لاخمدت لك نار ولا آغيظ لك جار ثم انشد

دام لك العز والبقاء ما اختلف الصباح والمساء
ودمت مادامت الليالى بعدة ما لها انقضاء
الناس ناس بكل ارض وانت من فوقهم سماء

قال فرد على الشيخ السلام وقال اجلس ياابا الحسن وحدثنا بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط فقال الشيخ يا امير المؤمنين احدثك بشيء سمعته باذنى او بشيء رايته بعينى قال الرشيد ياشيخ ابا الحسن التى تراه العين احسن من الذى تسمعه الاذن فقال الشيخ يا امير المؤمنين افرغ لى ثلاث اشياء منك فقال ماهى الثلاثة فقال ذهنك وسمعك وقلبك فقال الرشيد هات ياابا الحسن فقال يا امير المؤمنين لى عادة انى اسافر كل سنة الى البصرة للامير محمد سليمان الزينبى واقعد عنده احدثه الاسمار واورد له الاخبار وانشد له الاشعار ولى عليه رسم الف دينار آخذها وأعود الى بغداد فاتفق لى فى سنة من السنين انى سافرت الى البصرة على عادتى ودخلت على

الامير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الاول والثانى والثالث فركب الى الصيد وتركنى فى منزله واوصى ارباب دولته بخدمتى واكرامى الى ان يعود واوصى الطباخ الذى لا يطعمنى الا شيئا تشتهيه نفسى فاشتهيت السمك فقلت للطباخ فعمل لى من السمك عدة الوان فاكلت وطاب لى الاكل حتى ثقل على فؤادى فقلت ما يصرف عنى هذا الا المشى ولى عدة اسفار الى البصرة ما اعرف فيها مكانا واريد اليوم أجعلها حجة وفرجة ثم انى نزلت امشى فى شوارع البصرة فعطشت عطشا شديدا وناهيك بعطش السمك فقلت فى نفسى ان تناولت شربة من السقاء لا تطيب نفسى لانه يشرب منه اصحاب الامراض وكبرت نفسى على أن احملها الى شاطىء الدجلة وقلت مالى الا ان أقصد بعض دور المحتشمين واطلب منها شربة من ماء فاتيت الى درب فيه خمسة دور داران مقابلتان لدارين ودار صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت باذيال السحاب ولها باب مقنطر مزخرف بعصائب طولانية مفروش عليها حصر عبدانية والباب ساج مصفح بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضة وستر من الحرير الاصفر المدثر ومكتوب عليه هذه الابيات

الا يا دار لا يدخلك حزن	ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار انت لكل ضيف	اذا ما ضاق بالضيف المكان

قال فقلت فى نفسى من هذه الدار اشرب الماء فاتيت الى الباب فسمعت صوتا وقائلا يقول

بالله ربكما عرجا على سكنى	وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بى قولا فى حديثكما	ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فان تبسم قولا فى ملاطفة	ماضر لو بوصال منك تسعفه
وان بدا لكما فى وجهه غضب	فغالطاه وقولا ليس نعرفه

(قال) فقلت يا حبذا ان كان قائل هذا الصوت شخصا صورته على قدر صوته واحتشمت ثم انى قويت قلبى ورفعت الستر ودخلت الى الدهليز الى ان انتهيت الى آخره ومددت طرفى واذا انا بدار قد اقبلت منه عليها السعادة وزالت عنها الشقاوة ورأيت فى صدر المكان ايوانا وبركه وشاذروانا وفى ذلك الايوان تخت من الساج وقوائمه مصفح بالذهب الوهاج وفوق التخت فراش من الحرير الاطلس ومسند مزركش وعليه جارية ناعمة خماسية القد قاعمة النهد لا بالطويله الشاهقة ولا بالقصيرة اللاصقة

باشهر من علم تربية العجم على اكتاف الخد بخد اسيل وطرف كحيل وخصر نحيل وردف ثقيل ان اقبلت فتنت وان ولت قتلت كما قيل فيها بعض واصفها

كما اشتهت خلقت حتى اذا اعتدلت ... في قالب الحسن لا طول ولا قصر
جرى بها الشحم حتى دار اعكنها ... طي القباطي فلا شمن ولا غور
كانها فرغت من ماء أؤلوة ... في كل جارحة من حسنها قمر

الا ان الجارية يا امير المؤمنين قد حكمت عليها يد الايام ونزلت بها جميع الاسقام وعند راسها طبيب وهو يجس يدها ويقول ياست بدور الضارب ضارب والساكن ساكن ولا برد ولا حمى ولا شيء تشتكيه اكثر من سهر الليل وجريان الدمع لعل الست في قلبها هوى من احد فلما سمعت كلام الطبيب انشدت تقول

اذا هممت بكتمان الهوى لطفت ... مدامعي بالذى اخفي من الالم
فان ابح افتضح من غير منفعة ... وان كتمت فدمعي غير منكتم
لكن الى الله اشكو ما اكابده ... من طول وجد ودمع غير منصرم

(قال) فنهض الطبيب قائما على قدميه فناولته صرة فيها عشرون دينارا ثم التفتت الى وقالت من اين يا شيخ فقلت لها من بغداد حملني العطش الى ان اتيت الى هنا فقالت لعل ان يكون على يدك فرجي فانا اكتب لك ورقة فتسال عن بيت الامير عمرو وتعطيها له فان رددت على الجواب فانا اعطي لك خمسمائة دينار ثم كتبت وهي تقول اما بعد بعجز لساني وبكل جناني عن بث الاشواق ولكن اسال الكريم الخلاق ان يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق والامر الموافق وانا القائلة حيث اقول

سروري من الدنيا لقاؤكم وقربكم ... وحبكم فرض وما منكم بد
ولي شاهد دمعي اذا ماذكرتكم ... جرى فوق خدى لا يطاق له رد
اذا الريح من نحو الحبيب تنسمت ... وجدت لمسراها على كبدي برد
فوالله ما احببت ماعشقت غيركم ... ولا كنت الا ما حييت لكم عبد
سلام عليكم مامر فراقكم ... فلا كان منكم ما جرى آخر عهد

اما بعد فهذا كتاب من ليلها في تحيب ونهارها في تعذيب لا تركن الى عاذل ولا يصغى الى قائل قد غلبتها ايدى الفراق ولو شرحت بعض ما عندها للفسيح ضاق وما وسعته الاوراق ولكن اسال الله الكريم الخلاق ان يمن علينا بالتلاق وانشدت

احبة قلبي وان جرتمو على فكل المنى انتم رحلتم وفي القلب خلفتمو
لهيباً فهلا ترفقتمو واودعتمو يوم ودعتمو باحشاى نارا واضرمتمو
وما كنتمو تعرفون الجفا على شؤم بختي تعلمتمو

قال الف لا اوحش الله منكم والسلام مني عليكم عدد شوقي اليكم ماحن الغريب الى الاوطان فرحم الله من قرأ كتابي وتعطف بردجوابي وانشدت تقول

احبابنا مارق دمعي لفرقتكم يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لي بعدكم جلد ولا فؤاد ولا صبر ارجيه
فكم امني فؤادي بالهوى كذبا ولست اول من بانت غواشيه

(وقال) ثم انها طوت الكتاب وختمته بعد ان نثرت فيه فتات المسك والعنبر وناولته اياه فاخذته واتيت الى دار الامير عمرو فوجدته في الصيد والقنص فجلست على بابه ساعة انتظره واذا به قد اقبل وهو راكب على حصان اشقر من الخيل الضمر يساوي ملك كسرى قيصر من أولاد الابجر الذى كان لعنتر ان طلب الحق وان طلب لم يلحق والامير في ظهره كانه البدر في منزلته والمماليك قد احدقوا به كما تحدق النجوم بالقمر وهو بخد اسيل وطرف كحيل وخصر نحيل وردف ثقيل وله عذار اخضر فوق خد احمر وثغر جوهر وعنق مرمر كما قال فيه ابن معشر

قمر تكامل في نهاية حسنه مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه والشمس تغرب في شقائق خده
ملك الجمال باسره فكانما حسن البرية كلها من عنده

(قال) ابو الحسن فما امهلته دون اقبلت ركابه فلما نظر الى ترجل واعتنقني واخذ بيدي وادخلني الدار وانشد يقول ماظن الزمان يأتي بهذا غيراني رايته في منامي
(قال) فلما جلس على البركة أقبل على يحدثني ساعه واذا بالمائدة قد وضعت بين ايدينا واذا عليها من الوان الطعام مادرج وطاير في الاسحار وتناكح في الاوكار من قطا وسمان وافراخ حمام وبط مسمن ودجاج محمر وأفراخ رضع وبعلبكات السكر فقال لي بسم الله كل يا شيخ ابا الحسن فقلت لا والله يامولاى مااكلت لك طعاما ولا شربت لك مدما الاان قضيت لي حاجتي فقال يا ابا الحسن كان هذا منا لاول أين الكتاب الذى للست بدور فقلت ياسيدى وماهي الست بدور فقال التي جئت

من عندها تطلب شربة من الماء منها ووجدت عندها الطبيب وجرى لك معها ماهو كيت وكيت فقلت يامولاى أكنت حاضرا فقال لو كنت حاضرا فلاى شيء كتبت الكتاب فقلت لوجاء احد من عندها واعلمك فقال انه لا يجسر احد من غلمانها يقابلنى فقلت ولاراح احد من عندك اليها فقال هى اخس واحقر من ان يمضى اليها احد من عندى فقلت ياسيدى الغيب لا يعلمه الا الله تعالى والوحى ما نزل الا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياعاقل اما سمعت قول القائل

قلوب العاشقين لها عيون	ترى مالا يراه الناظرون
واجنحة تطير بغير ريش	الى ملكوت رب العالمين

فقلت صدق يامولاى ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ثم بصق فيه وداسه برجله ورماه فى البركة فصعب على فلما علم منى ذلك قال مم غيظك اقعد الليلة عندى كل واشرب وخذ منى الخمسمائة دينار التى وعدتك بها الست بدور وانا احب اليك منها وانشد يقول

رايت شاة وذئبا وهى ماسكة	باذنه وهو منقاد لها سارى
فقلت اعجوبة ثم التفت ارى	مابين نابه ملقى نصف دينار
فقلت للشاة ماذا الالف بينكما	والذئب يسطو بانياب واظفار
تبسمت ثم قالت وهى ضاحكة	بالتبر يكسر ذاك الضيغم الدار

(قال) فلما سمعت كلامه ياامير المؤمنين تقدمت واكلت بحسب الكفاية والنهاية ثم انتقلنا الى مجلس الشراب وقدمت بين ايدينا البواطى والسقحيات فتناول الامير عمرو وشرب وسقانى وانا احدثه وانادمه الى ان قرب الغروب فقال ياابا الحسن ما لذة الامير اذا شرب الى المساء من غير غناء فقلت يقال الشراب بلا طرب ولا سماع الدن اولى به فقال لى قم بسم الله فقمت معه الى مجلس وحضيرة تنقط بالذهب واللازورد العجقب وهى مزخرفة قد عبقت ازهارها وضحكت سلاحيها وصفت بواطيها ورفعت اقداحها فجلس الامير عمرو واجلسنى بجانبه وقدمت بين ايدينا الشموع واسرجت القناديل فنظرت الى مجلس عجيب وحضيرة مليحة ثم قلت يامولاى قد تقدم القول ان الشراب بلاسماع الدن اولى به فصفق بكف على كف واذا بثلاث جوار قد اقبلن كانهن الاقمار الواحدة تحمل عودا والثانية تحمل دفا والثالثة تحمل مزمارا ثم نقرت الدفية على دفها واصلحت العودية عودها وزمرت الزامرة

بزمارها فخيل لى ان المجلس الذى نحن فيه يرقص بنا ثم ان الدفية غنت تقول

أحبابنا انى من يوم فرقتكم ... على فراش الضنا مازلت مضطجعا

داويت قلبى بحسن الصبر بعدكم ... عسى يفيق من الاسقام ما نفعا

فوالله يا امير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها فلما فرغت الدفية ضربت العودية على عودها طرقا عديدة ثم رجعت الى الطريقة الاولى وانشدت

أمؤنس طرفى لاخلا منك ناظرى ... وجامع شملى لاخلا منك مجلسى

ويا ساكن قلبى ومافيه غيره ... يحل فما استوحشت فيه لمؤلسى

وبالله ياعين الورى من ملاحة ... تصدق على صب من الصبر مفلس

انلنى الرضى حتى اغيظ به العدا ... وياموحشى من بعدما كان مؤاسى

رضاك الذى ان نلته نلت رفعة ... والبسنى فى الناس اشرف ملبس

(قال) والله يا امير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب ثم التفتت العودية نحو الدفية وقالت لها يا فلانة الحسنى ان تقولى مثل هذا فقالت الدفية انا احفظ ابياتا اظن انك لا تحفظين لهن وزنا ولا قافية ولا عروضا فقالت العودية هات ما عندك فنقرت الدفية على دفها باناملها ورفعت صوتها وهى تقول

كررت ورددذ كرهم فى مسمعى ... فهم الشفا لتألمى وتوجعى

اقصر بعذلك ياعذول فان لى ... قلبا لعذلك لايفيق ولا يعى

فقالت لها العودية انا احفظ الوزن والقافية والعروض فقالت لها الدفية هات فضربت العودية طريقة من اثنين واثنين وأربعة واربعة وثمانية وثمانية وستة عشر وستة عشر ثم عادت الى الطريقة الاولى وانشدت تقول

ان لم أسل وادى الاسيل بادمعى ... اعلم بانى فى الصبابة مدعى

ياسعد ان جئت الغوير وعاينت ... عيناك بان المنحنى فلترجع

وخذ الحذار من العذول المختفى ... واحذر يصيدك لحظ ذات البرقع

(قال) والله يا امير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام كل منا ورقص فلما فرغت الجاريه قال لها سيدها غنى لى عن الذى بقلبى وحدى فعندها ساوت عودها وقالت

ما كنت اول رامق صبا صبا ... نحو التصابى وهو فى عشر الصبا

فعلام يعذلنى العذول على البكا ... لولا الغرام لها عدوت معذبا

حكم الهوى بحكمه فى مهجتى ولقد غدا قلبى به متقلبا
ياللرجال خبا الهوى بحشاشتى ناراً فما تخبو على ذاك الخبا
ولقد سبا قلبي غزال لو رأت بلقيس طلعته لما سكنت سبا
ولقد هربت من الغرام فقال لى مهلا رويدا أين منى تهربا

فلما سمع الامير عمرو ذلك صرخ ووقع على الارض مغشيا عليه فقالت الجارية يامولاى انه قد نام سيدى فان اخترت ان تنام فقم نم فى مرقدك وان اخترت الشراب فدونك ونحن بين يديك الى الصباح فقمت ونمت فلما اصبحت قمت وسالت عن الامير عمرو فقالت بعض الجوارى انه قد سرح الى الصيد والقنص فاخذت شاشاً لالبسه فرايت تحته كيسا فيه الف دينار فاخذته واتيت الى الست بدور واذا بها واقفه خلف الباب تنتظر وهى تقول

يارسولى الى الحبيب اعتذرلى فلعل الحبيب يقبل عذرى

ثم قل للحبيب عنى بلطف اى ذنب جرى فاوجب هجرى

فلما راتنى قالت ياشيخ اقمحام شعير فقلت لا والله ماهو الا روان والله مارضى يقرأ مكتوبك ولا يرد جوابك فرمت الى صرة فيها مائة دينار وقالت اذهب ياابا الحسن مامضى الليل وانى النهار على شىء الا وازاله وغيره ويغير الله ما فى القلوب ثم انها اغلقت الباب فى وجهى ومضت وعدت الى دار الامير محمد بن سليمان الزينبى فلقيته قد جاء من الصيد فقعدت عنده اياما واخذت رسمى وعدت الى بغداد ثم انى فى السنة الثانية سافرت الى البصرة على ماجرت العاده به ومضيت الى الامير عمرو بن جبير الشيبانى لا تمتع بذلك الوجه المليح والقد الرجيح فوجدت الدار متغيرة الاثار والعبيد لابسين السواد فلما رايت ذلك بكيت وانشدت اقول

يادار اين ترحل السكان وسرت بهم من بعدها الاظعان

بالامس كان بك الضيا مع الهنا واليوم فى عرصاتك الغربان

فسمعنى بعض الغلمان فظهر لى وقال من ذا الذى يبكى على ديارنا ويندب منازلنا كفى بنا ما عندنا فقلت له ياعبد الخير ان صاحب هذه الدار كان من اصدق الناس الى فما فعل الزمان به فقال لى الغلام يامولاى هو فى قيد الحياة وهو يطلب الموت فلا يجده فقلت له بالله عليك خذ لى الطريق فقال لى الغلام يامولاى من اقول

فقالت قل الشيخ ابو الحسن الخليع الدمشقي المسامر قال فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لى بسم الله ادخل فدخلت فوجدت الامير عمرو نائما وعندرأسه طبيب وهو يجس يده و يقول له يامولاى الضارب ضارب والساكن ساكن لا يردولا حمى ولا تشتكى غير سهر الليل وجريان الدمع فلما سمع الامير عمرو وكلام الطبيب بكى وانشد

قال الطبيب لقومى حين جس يدى ... هذا فتاكم و رب البيت مسحور

فقلت ويحك قد قاربت فى صفتى ... عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم انه ناوله كتابا فيه بعضه دنانير فاخذها الطبيب وانصرف ثم التفت الامير عمرو الى وقال ياشيخ ابا الحسن اما تنظر الى هذا الحال الذى وقعت فيه فقلت لك حاشاك من الاسواء ماسبب ذلك قال مااعرف له سببا الا ان هجر الست بدور قد قتلنى وحبها أضنى فؤادى فقلت يامولاى العام الماضى تركتك اميرا واليوم أتيت لقيتك اسيرا فما السبب فقال الامير عمرو ياشيخ انى فى ليلة من الليالى ركبت فى الشط وقد شحنت مركبى من سائر الازهار والفواكه والرياحين والطعام والمدام واوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار وقد غرقنا فى البسط و بقينا فى لعب وضحك الى ثلث الليل الاول واذا قد اقبل من صدر الشط مركب وهى تعزف بالطارات والدفوف وتضىء كضوء الشمس وفيها وهج عظيم فقلت للملاح قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينا أحسن تعبية مركبنا اوهذه المركب فمددت عينى فرأيت صاحبتى الست بدور وهى بين جواريها وغلمانها تلعب وتضحك وهى مثل اسمها اسم على مسمى فلما وقعت عينى عليها كانما رمت فى قلبى سهما فقلت فى نفسى ما فارقت هـذا الوجه المليح بذنب ثم انى تذكرت العهد القديم الذى كان بيننا فلم اقدراصبر فمددت يدى واخذت تفاحة ورميتها الى الست بدور فالتفتت فرأتنى فقالت للملاح ارجع بنا الى البر نحن خرجنا هذه الليلة ننشرح فارسل الله هـذا الفتى ينغض علينا عيشنا فلما سمعتها تشتمنى اضرمت النار فى قلبى ثم قلت لنفسى انت كنت المطلوب فصرت الطالب فلم يهنأ لى عيش فى هذه الليلة وقلت للملاح ارجع الى الشط ثم انى نزلت ومضيت الى منزلى وما ذقت طعم المنام فلما اصبحت لم يقر لى قرار وصرت اترقب ان يأتى احد من عندها ثلاثة ايام فلم يأتى لى احد فبعثت من يعرض بذكرى لها فدعت عليهم وشتمتهم فكتبت لها بعدذلك الف كتاب فلم تردلى جوابا وقدرميت

روحى على كل كبير فى البصرة فيدخلون عليها فلم تقبل ولم تزدد الاجفاء ولى مدة انتظرك ياشيخ ابا الحسن حتى ابعث معك كتابا وانا احلف لك ان هى ردت لك جوابه اعطيتك الف دينار وان لم ترد جوابه اعطيتك مائة دينار فقلت له اكتب فدعا بدواة وقرطاس وكتب فى اول الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من متيم يشكو اليك الصبابة ويسألك بالله ان تردى جوابه اما بعد فانه يعجز لسانى ويكل جنانى مما انا فيه من طول السهر ودوام الفكر وبكى لبكاء صم الحجر فالف الف لا اوحش الله منك والسلام عليك ثم ختم الكتاب وناولنى اياه فاخذته واتيت به الى دار الست بدور فلقيت الباب على غير تلك الحالة الاولى عليه ستر مرخى وبواب وخادم فقلت لا اله الا الله كان هذا الباب بالامس خالياً من الاصحاب واليوم عليه خادم وبواب ثم انى تقدمت الى الخادم وقلت له قم ياوالدى ادخل واستاذن على مولاتك الست بدور وقل لها الشيخ ابوالحسن الخليع الدمشقى يطلب الدخول فغاب ثم عاد وقال بسم الله ادخل فدخلت فسمعت الست بدور وهى تقول

ولا صبرن على الزمان وجوره حتى يعود كما أريد واشتهى

قال فلما دخلت رأيتها قاعدة على حالة البره وبين يديها جارية تروح عليها فتقدمت وقبلت يدها وجلست فنظرت واذا عليها غلالة لازوردية وجميع جسدها بائن من تحت الغلالة كانها عمود مرمر وعلى الغلالة مكتوب هذه الابيات

اقبلت فى غلالة زرقاء لازوردية كلون السماء فتاملت فى الغلاله التى قمر الصيف فى ليالى الشتاء ليتنى كنت للمليحة عقدا او برقعا للوجه مثل الرداء اوقميصا من الحرير خفيفا لاصقا للفؤاد والاحشاء ضربتنى بخنجر العشق حتى صرت ملقى مخضبا بدمائى تركتنى على الطريق ونادت من يصلى على قتيل هوائى

ثم انى لما فرغت من قراءة الاشعار قالت لجاريتها هات لى بدله قماش ثم غيرت ما كان عليها وجلست ثم أمرت باحضار المائدة وقالت بسم الله كل ياابا الحسن فقلت لا والله لا أكلت لك طعاما ولا شربت عندك مداما حتى تقضى حاجتى فقالت كان هذا من الاول لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك الى الامير عمر وقبل مجيئك الينا فقلت لها انا مارحت فقالت تكون شيخا وتكذب انت ماعبرت عنده ولقيت الطبيب وهو يقول له كيت وكيت وجرى لك معه كذا وكذا وهذا الكتاب فى طى

عمامتك و بالامارة قال لك ان ردت الجواب اعطيتك الف دينار وان لم ترد لى الجواب اعطيتك مائة دينار فقلت ياستى من اعلمك بهذا فقالت اليس القائل يقول

قلوب العاشقين لها عيون   ترى مالا يراه الناظرون

وانا ياشيخ ابا الحسن اعشق منه وارى اكثر ممن يراه فقلت صدقت يامولاتى كان ذلك ثم ناولتها الكتاب ففضته وعرفته ثم انها مزقته و بسقت عليه وداسته ورمته فى البركة فلما رايت ذلك قلت فى نفسى هذا بذاك وقرض الدين لابد له من وفاء الا انى حصل لى بعض غيظ على الالف دينار التى تفوتنى فنظرت الى وعرفت منى ذلك فقالت ياشيخ اباالحسن مم غيظك ان كان وعدك بالف دينار فبت الليلة عندى وكل واشرب والتذ واطرب وخذ لك غدا منى الف دينار وامض فى وداعة الله فقلت ياسيدتى يكاد الامير عمرو ان يموت فقالت دعنا من هذا الكلام ثم ان المائدة حضرت فاكلنا بحسب الكفاية فلما فرغنا قالت ياشيخ تعرف لعب الشطرنج قلت ما العب الا على الحكم والرضا فقالت نعم ثم دعت بالشطرنج فوضع بين ايدينا ولعبت معها الدست الاول فغلبتنى فامرت الجوارى ان يرمونى فى البركة فمسكونى و رمونى فى البركة وضحكت على ساعة ثم اخرجونى وقد ابتلت جميع حوائجى فلما رأتنى على تلك الحالة امرت ببدلة من القماش من افخر الملبوس فلبست ثم قالت اتلعب ايضا على الحكم والرضا قلت نعم فلعبنا فتغايرت عليها وأتيت لها بحكاية لطيفة مشغلة وأشغلتها وسرقت القطع الى ان غلبتها وتحكمت فيها وقلت اريد الالف دينار وجواب الكتاب فاعطتنى الالف دينار وطلبت الدواة والقرطاس واطرقت راسها وكتبت تقول

الا ياعمرو كم هذا العناء   وكم هذا التجلد والاذاء

كتبت الى تشكو ماتلاقى   من الاسقام اذ نزل القضاء

فسقم لايزال بطول دهر وداء ماله ابدا دواء ولو ساعدتنا ياعمرو يوما لساعدناك اذا نزل البلاء فمش صبا ومت كدا حزينا فواحدة بواحدة جزاء فلما فرغت ناولتنى الورقة فقرأتها فقلت ياستى بالله عليك لاتفعلى وارحمى الامير عمرو واكتبى له غير هذا فقالت ياشيخ انت رسول والا فضولى وطفيلى فقلت فضولى وطفيلى و يغيظ القطط ويخلف انه ما يبيت الا فى الوسط و يغنى بليت بكم فضحكت من كلامى وقالت حكمتك فى نفسى فقلت ياست بدور اين تلك المحبة التى كنت تحبينها للامير

عمر فلو ابصرتيه ماعرفتيه من شدة مايقاسى من الأسقام والالام والامراض فلما
سمعت ذلك قالت اخبرنى عن اقوى شيء به من المرض فقلت ياسيدتى ما اقدر
أصف لك بعض مافيه من الم المرض فتغرغرت عيناها بالدموع ثم قالت يعز
على ماوصفت لى عنه وروحى لروحه الفداء فالحمد لله الذى جعل اجتماعنا على
يديك ثم دعت بقرطاس وكتبت فى اول الكتاب بسم الله ثم انها ابتدأت تنشد

وصل الكتاب فلاعدمت اناملا ... عنيت به حتى تضوع طيباً
ففضته وقرأته فوجدته ... لخفى اوجاع القلوب طبيباً
فكان موسى قد أعيد لامه ... أوثوب يوسف قد أتى يعقوبا

المملوكة تقبل الارض وتنهى ان شوقها شديدوغرامها ماعليه من مزيد ومأمولها من
الحميد المجيد ان يجمع شملها بك قبل أن تريد وأقول

اشتاقكم حتى اذا نهض الهوى ... لمقامكم قعدت بى الايام
والله انى لو وصفت صبابتى ... فنى المداد وقلت الاقلام

ثم انها نثرت فيه فتاة المسك والطيب وطوتها وحققتها وناولتنى اياها فاخذتها وقمت
مسرعا وانا فرحان الى ان أتيت دار الامير عمرو فدخلت الدهليز فسمعته يقول

ترى حرمت كتب المحبة بيننا ... أسحر أم القرطاس اصبح غالياً

فاستاذنت عليه ودخلت فلما رآنى قال لى أقمح ام شعير فقلت له قمح مغربل ليس
فيه كدر ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه فلما فهم معناه تهلل وجهه بالفرح فبكى وقال

هجم السرور علىّ حتى انه ... من عظم ماقد سرنى ابكانى
ياعين قد صار البكا لك عادة ... تبكين فى فرح وفى احزان

فلما فرغ من البكاء قال لى ياشيخ ماظن ان الحديد يلين ولا الصخر يذوب لعل
ان تكون صنعت هذا الكتاب من عندك فقلت يامولاى والله ماصنعته ولا كتبته
بل هو خطها بيدها فبينما هو يخاطبنى اذا هى عبرت علينا تخطر فى قوامها وهى تنشد

زوروكم لاتؤاخذكم بجفوتكم ... ان الكريم اذالم يستزر زارا

فلما رآها الامير عمرو نهض قائما على قدميه ورمى بروحه عليها واعتنقها واعتنقته
ساعة زمانية ثم تقدمت الى الامير عمرو وقلت له يامولاى المثل يقول العصفور
يتقلى والصياد يتقلى وانتم تقولون واطرباه وانا اقول واحزناه فقالت بدور صدق

الشيخ اعطه الذى وعدته به فقال الامير عمرو لبعض غلمانه اعط الشيخ ابا الحسن
الفا وخمسمائة دينار يستحق والله اكثر من ذلك فمضى الغلام وعاد بسرعة ومعه
كيس وناولنى اياه واعطتنى الست بدور مثله ثم انى ودعتهم وخرجت الى ان اتيت
الى الامير محمد بن سليمان الزينبي وقعدت عنده على عادتى واخذت رسمى الذى عليه فى
كل سنة وعدت الى بغداد فما رأيت سنة ابرك منها حصل لى فيها اربعة آلاف
دينار وهذا جملة الحديث فتعجب الخليفة وقال ماقصرت يا شيخ ابا الحسن خذ من
جعفر الف دينار لانك انت الذى ازلت عنى ما بقلبي فقال جعفر ومن عند امير
المؤمنين الف دينار لانه هو الذى ازال عنه ما كان يجده فقال ابو الحسن صدق
الوزير ابقاه الله تعالى ثم انه قبض الالفى دينار ومضى الى منزله والله اعلم
(وهذا سبب قتل البرامكة وما وقع لهم مع الرشيد)
والقصة فى ذلك على ما رواه ابراهيم بن اسحق بن أبى نور زاهر بن صقلاب قال
بلغنى انه كان هرون الرشيد يجلس بالليل مع جعفر البرمكى فقال له يوما لا يطيب لى
ذلك الا بحضر اختى ميموتة ولكن لا يجوز الا ان كتبت لك عليها لا باحة النظر من
غير أن تقربها فاتفق على ذلك وعقد له عليها ثم احضرها فكانت تحضر لذلك المجلس
الا انه زاد غرامها وعشقها فيه وكان لجعفر البرمكى امرأة تزين له الجوارى كل ليلة
فجاءت ميمونة لها وارشتها بمال فزينتها له وادخلتها عليه فظن انها جارية فواقعها
فلما اصبحوا قالت له انا ميمونة وقد كنت اسالك ان تساعدنى على مودتك فتأبى
فلما آيست منك احتلت عليك بما رايت فى هذه الليلة وان لم تواظب لاكونن سببا
فى سبب نعمتك وهل انت الا زوجي فقال لها جعفر ويلك اهلكتيني واهلكت
نفسك وكان كما قال ولم يزرها حتى ظهر امرها للرشيد فهذا كان سبب قتل البرامكة
وهذا ابتداء الحديث (قال) المبرد قال ابوعبدالله المارستانى عن يحيى بن اكثم القاضى
قال سالك اسمعيل بن يحيي الهاشمى عن سبب زوال نعمة البرامكة قال انم اعرف
صحة الخبر وباطن القصة كان سبب ذلك انى كنت مع الرشيد يوماً من الايام راكبا
الى الصيد فبينما نحن نسير اذ نظر الى موكب بالبعداء عترضنا فقال لى يا اسمعيل لمن هذا
. فقلت هو لاخيك جعفر بن يحيي فالتفت يمينا وشمالا الى من معه فى موكبه فاذاهو
شرذمة يسيرة ثم نظر الى الموكب الذى فيه جعفر فلم يره فقال يا اسماعيل ما فعل جعفر

وموكبه فقلت ياسيدى قد مضى اخوك فى طريق ولم يعلم بموضعك فقال مارآنا اهلا
ان يزيننا بموكبه و يجملنا بجيشه فقلت العفو ياامير المؤمنين لو علم بمكانك ماتعداك
وما سار الا بين يديك واعتذرت بما حضر لى من الكلام ثم سرنا حتى انتهينا الى
ضيعة عامرة ومواشى كثيرة وعمارة حسنة وكان الطريق يدور عليها فدرنا حتى وردنا
باب القرية فنظر الرشيد الى البيدر والى كثرة الغلال فيه والمواشى و يسار اهلها فالتفت
الى وقال يااسمعيل لمن هذه الضيعة قلت لاخيك جعفر بن يحيي فسكت ثم تنفس
الصعداء ثم سرنا ولم يزل يمر بكل ضيعة أعمر من الاخرى وكلما مر وسالنى عن ضيعة
قلت لجعفر بن يحيي حتى سرنا و وصلنا الى المدينة فلما اردت وداعه والانصراف
الى منزلى نظر الى من كان حواليه نظرة فعلموا ما اراد فتفرقوا و بقيت انا وهو فقال
يااسمعيل قلت لبيك ياامير المؤمنين فقال انظر الى البرامكة اغنيناهم وافقرنا اولادنا
واغفلنا امرهم فقلت فى نفسى بلية والله قلت لماذا ياامير المؤمنين قال نظرت لهؤلاء
وغلفت عن هؤلاء لانى لا اعرف لاحد من اولادى ضيعة من ضياع البرامكة على
طريق واحد على قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم غير ذلك على غير هذا الطريق
فى سائر البلدان فقلت ياامير المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات واموالهم
وكل ما يملكون لك فنظر الى نظرة جبار عنيد ثم قال ما عد البرامكة بنى هاشم الا عبيدهم
وانهم هم الدوله وان لا نعمة لبني العباس الا والبرامكة انعموا عليهم بها فقلت امير
المؤمنين ابصر من غيره بخدمه ومواليه فقال والله يااسمعيل انك لتعلم انى قلت هذا
وكانى اراك ان تعلمهم بكلامى فتتخذ لك عندهم وانى آمرك ان تكتم هذا الامر
فانه ما علم به احد غيرك ومتى بلغهم شيء مما جرى علمت انه ما افشاه الا انت فقلت
ياامير المؤمنين اعوذ بالله ان يكون مثلى يفشى سرك قال وكان هذا القول اول ما ظهر
من امر البرامكة ثم ودعته وانصرفت متفكرا فى ايقاع الحيلة عليهم فلما كان من الغد
بكرت اليه وجلست بين يديه وكان فى محل يشرف على الدجلة من شرقى مدينة باب
السلام وبازائه منزل جعفر من الجانب الغربى وكانت المواكب من جميع الاصناف
من قائد وامير وعامل يردون فى كل يوم الى قصر جعفر فالتفت الى وقال يااسمعيل
هذا ما كنا فيه بالامس انظر الى باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب وانا
ما على باب دارى احد فقلت ياامير المؤمنين ناشدتك الله ان لا تعلق نفسك بشيء من

هذا وان جعفر انما هو عبدك وخادمك ووزيرك وصاحب جيوشك اذا لم يكن الجيش على بابه فعلى باب من يكون وانما بابه باب من ابوابك فقال يا اسماعيل انظر الى دوابهم الست ترى اعجازهم الى قصرى وتروث بازائنا ونحن ننظر اليها والله هذا هو الاستخفاف بعينه والله لا اصبر على ذلك ثم غضب غضباً شديدا وامتلأ غيظا فامسكت عن الكلام وقلت والله هذا قضاء من الله سابق وحكم لا محالة واقع ثم استاذنته فى الانصراف ورجعت الى منزلى فلقينى جعفر فى الطريق يريد الرشيد فتواريت عنه حتى مضى فدخل اليه وسلم عليه فاجلسه عن يمينه واكرمه غاية الاكرام وبش فى وجهه وحادثه ساعة ووهب له خادما من خاصة خدمه وأنبلهم وأوضحهم وجها وأكملهم ظرفا كاتباً حاسباً لبيبا فسر جعفر سرورا كاملا ووقع فى قلبه أجل موقع وكان دسيسا عليه وبلية لديه يرفع أخباره الى الرشيد ويحصى عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتاً بوقت نخلا به جعفر يومه ذلك وليلته واحتجب من أجله الناس فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت الى جعفر فسلمت عليه فلما خلا مجلسه ولم يبق عنده غيرى وذلك الخادم واقف وعلمت ان الخادم يحصى علينا اخبارنا فقلت أيها الوزير اصيحة أتاذن لى فى الكلام قال تكلم وكان الرشيد ولاه كورة خراسان كلها وما يضاف اليها وينسب لها قبل هذا الغلام بايام وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان وضرب الناس مضاربهم بها وهم متاهبون للسفر فقلت ياسيدى انت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسعة الاقطار عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد امير المؤمنين لكان احظى لمنزلتك عنده فلما قلت ذلك نظر الى مغضباً وقال والله يا اسماعيل ما أكل الخبز الا بفضلى ولا قامت هذه الدولة الا بنا اما كفى انى تركته لا يهتم بامر شىء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ولازالت للامور الجليلة أدبرها حتى مد عينيه الى ما ادخرته واخترته لولدى وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع والله لان سالنى شيئا من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعا فقلت والله ياسيدى ما كان مما ظننت شىء ولا تكلم امير المؤمنين بحرف قال فما هذا الفضول منك فقعدت بعدها هنيهة ثم قمت الى منزلى ولم اركب اليه ولا الى الرشيد لانى صرت بينهما فى حال تهمة وقلت فى نفسى هذا الخليفة وهذا وزيره واى شىء لى بالدخول بينهما ولا شك فى زوال نعمة البرامكة وان أمورهم قد انثلمت قال وحدثنى خادم

ام جعفر ان الخادم الذى وهبه الرشيد لجعفر كتب الى الرشيد بما كان بينى وبينه
وما تكلم به من الكلام الغليظ قال فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثة أيام
متفكراً فى إيقاع الحيلة على البرامكة فدخل فى اليوم الرابع على زبيدة فخلا بها
وشكا لها مافى قلبه واطلعها على الكتاب الذى رفعه اليه الخادم وكان بين جعفر
وزبيدة شر وعداوة قديمة فلما تملكت الحجة عليه بالغت فى المكر بهم واجتهدت
فى هلاكهم وكان الرشيد يتبرك بمشاورتها فقال أشيرى على برأيك الموافق الرشيد
فانى خائف ان يخرج الامر من يدى ان يمكنوا من خراسان وتغلبوا عليها فقالت
يا أمير المؤمنين مثلك مع البرامكة كمثل رجل سكران غريق فى بحر عميق فان كنت
قد افقت من سكرتك وتخلصت من غرقتك اخبرتك بما هو أصعب عليك واعظم
من هذا بكثير وان كنت على الحالة الاولى تركتك فقال لها قد كان ما كان فقولى
اسمع منك فقالت ان هذا الامر اخفاه عنك وزيرك وهو اصعب مما انت فيه
واقبح واشنع فقال لها ويحك وما هو فقالت انا أجل من ان أخاطبك به ولكن
تحضر ارجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضربا فانه يعرفك الخبر وكان الرشيد
قد احل جعفر محلا لم يحله أخوه ولا أبوه وأمره ان يدخل على الحريم فى السفر
والحضر وابرز اليه جواريه واخواته وبناته لانه كان بينهما رضاع سوى امرأته
زبيدة فانه لم يكن رآها ولا دخل عليها ولا قضى لها حاجة ولا هى أيضاً تستقضيه
حاجة فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة وجدت سبيلا على البرامكة فحطت
على جعفر انه يدخل على الحريم فى غياب الرشيد ويقضى حوائجهن لانهن لا يستترن
منه وكان ذلك بامر الرشيد ماحدث من جعفر قال فخرج الرشيد واستدعى بارجوان
الخادم واحضر السيف والنطع وقال برئت من المنصور ان لم تصدقنى فى حديث
جعفر لاقتلنك فقال الامان ياامير المؤمنين قال نعم اعلم ان لك الامان
فقال اعلم ان جعفر قد خانك فى اختك ميمونة ودخل بها منذ سبع سنين
وولدت منه ثلاث بنين احدهم له ستة سنين والاخر له خمس سنين والثالث عاش
سنتين ومات قريبا والاثنان قد انفذهما الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى
حامل بالرابع وأنت أذنت له بالدخول على أهل بيتك وأمرتنى ان لا امنعه فى أى
وقت شاء ليلا أونهارا قال امرتك ان لا تحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لم لا اخبرتنى

اول مرة ثم امر بضرب عنقه على الفور ودخل على زبيدة وقال لها أرأيت ما امنى
به جعفر وما ارتكب من هتك ستري ونكس رأسي وفضحني بين العرب والعجم
فقالت هذه هي شهوتك وارادتك عمدت الى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب
الرائحة جبار في نفسه ادخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله وهي احسن منه وجهاً
وانظف منه ثوبا واطيب منه رائحة لكنها لم تر رجلا قط غيره فهذا جزاء من جمع
بين النار والحطب فخرج من عندها مكروبا فدعا بخادمه مسرور وكان قاسي القلب
فظا غليظا قد نزع الله الرحمة من قلبه فقال يامسرور اذا كان الليلة بعد العتمة فائتني
بعشرة من الفعلاء جلاداً ومعهم خادمان قال نعم فلما كان بعد العتمة جاء مسرور
ومعه الفعلاء فقام الرشيد وهم بين يديه حتى اتى المقصورة التي فيها اخته فنظر اليها
وهي حامل فلم يكلمها بشيء ولم يعاتبها على ما فعلت وامر الخادمين بادخالها في صندوق
كبير في مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليها وثيابها كما هي والقفل عليها وقد علمت
انها بعد قتل ارجوان لاحقة به فلما علم انه استوثق بها دعى بالفعلاء ومعهم المعاول
والزنابيل فحفروا وسط تلك المقصورة حتى بلغوا الماء وهو قاعد على كرسي ثم قال
حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه في تلك الحفرة ثم قال ردوا التراب عليه ففعلوا وسووا
الموضع كما كان ثم اخرجهم وقفل الباب واخذ المفتاح معه وجلس في موضعه
والفعلاء والخادمان بين يديه ثم قال يامسرور خذ هؤلاء القوم واعطهم اجرتهم
فاخذهم مسرور وجعلهم في جواليق وخيط عليهم بعدان ثقلهم بالصخر والحصى
ورماهم في وسط الدجلة ورجع من وقته فوقف بين يديه فقال يامسرور فعلت ما امرتك
به قال وفيت القوم اجرتهم فدفع اليه مفتاح البيت وقال احفظه حتى اسالك
عنه وامض الان فانصب في وسط المحل القبة التركية ففعل ذلك واوفاه قبل
الصبح ولم يعلم احد ما يريد فلما جلس في مجلسة وكان يوم الخميس يوم موكب
جعفر قال يامسرور لا تتباعد عني ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم
ودخل جعفر بن يحيي البرمكي فسلم عليه فرد عليه السلام احسن رد ورحب به وضحك
في وجهه فجلس في مرتبته وكانت اقرب المراتب الى امير المؤمنين ثم حدثه ساعة
وضاحكه فاخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحي فقراها عليه وامر ونهى
ومنع ونفذ الامور وقضى حوائج الناس ثم استاذن جعفر في الخروج الى خراسان

في يومه ذلك فدعا الرشيد بالمنجم وهو جالس بحضرته فقال الرشيد كم مضى من النهار قال ثلاث ساعات ونصف وأخذ له الارتفاع وحسب له الرشيد بنفسه ونظر في نجمه فقال يا أخي هذا يوم نحوسك وهذه ساعة نحس ولا أرى الا انه يحدث فيها حدث ولكن تصلي الجمعه وترحل في سعودك وتبيت في النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق بالنهار فانه اصلح من اليوم فما رضي جعفر بما قاله الرشيد حتى أخذ الاضطرلاب من يد المنجم وأقام واخذ الطالع وحسب الطالع لنفسه وقال والله صدقت يا أمير المؤمنين ان هذه الساعة ساعه نحس وما رأيت نجما اشد احترافا ولا اضيق مجرى من البروج في مثل هذا اليوم ثم قام وانصرف الى منزله والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويبجلونه الى ان وصل الى قصره في جيش عظيم وأمر ونهى وانصرف الناس فلم يستقر به المجلس حتى بعث اليه الرشيد مسرورا وقال له امض الى جعفر وائتني به الساعة وقل وردت كتب من خراسان فاذا دخل الباب الاول اوقف الجند واذا دخل الباب الثاني أوقف الغلمان واذا دخل الثالث فلا تدع احدا يدخل معه من غلمانه بل يدخل وحده فاذا دخل في صحن الدار فمل به الى القبة التركيه التي امرتك بنصبها فاضرب عنقه وائتني برأسه ولا توقف احدا من خلق الله على ما أمرتك به ولا تراجعني في امره وان لم تفعل أمرت من يضرب عنقك ويأتيني برأسك ورأسه جمله وفي دون هذا كفاية وانت اعلم وتبادر قبل ان يبلغه الخبر من غيرك فمضى مسرور واستأذن على جعفر فدخل عليه وقد نزع ثيابه وطرح نفسه ليستريح فقال سيدي اجب امير المؤمنين قال فانزعج وارتاع منه وقال ويلك يامسرور انا في هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر قال وردت وردت كتب من خراسان يحتاج ان تقرأها فطابت نفسه ودعا بثيابه فلبسها وتقلد بسيفه وذهب معه فلما دخل من الباب الاول اوقف الجند وفي الثاني اوقف الغلمان ومال به الى القبة المضروبة في صحن الدار وادخله فيها فحس بالبلاء وقال لمسرور ما الخبر قال انت تدري ما القضية وما كان الله ليهملك ولا ليغفلك فقد امرني امير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسه اليه الساعة فبكى جعفر وجعل يقبل يدي مسرور ورجليه ويقول ياخي يامسرور قد علمت لك كرامتي دون جميع الغلمان والحاشية وان حوائجك عندي مقضية في سائر الاوقات وانت تعرف موضعي ومحلي من امير المؤمنين وما يوحيه الى من الاسرار ولعل ان يكونوا بلغوه عني باطلا وهذه مائة الف دينار

أحضرها لك الساعة قبل ان اقوم من موضعى هذا وخانى اهيم على وجهى فقال
لاسبيل الى ذلك ابدا قال فاحمانى اليه واوقفنى بين يديه فلعله اذا وقع نظره على
تدركه الرحمة فيصفح عنى قال مالى سبيل الى ذلك ابدا ولا يمكننى مراجعته وقد
علمت انه لاسبيل الى الحياة ابدا قال فتوقف عنى ساعة وارجع اليه وقل له قد فرغت
مما امرتنى به واسمع مايقول وعد فافعل ماتريد فان فعلت ذلك وحصلت الى السلامة
فانى اشهد الله وملائكته انى اشاطرك فى نعمتى مما ملكته يدى واجعلك امير الجيش
واملكك امر الدنيا ولم يزل به وهو يبكى حتى طمع فى الحياة قال له مسرور ربما يكون
ذلك وحل سيفه ومنطقته واخذهما ووكل اربعين غلاما من السودان يحفظونه ومضى
مسرور ووقف بين يدى الرشيد وهو جالس يقطر غضبا وفى يده القضيب المولع
ينكت به الارض فلما راه قال له ثكلتك امك مافعلت فى امر جعفر فقال ياامير المؤمنين
قد انفذت امرك فيه قال فاين رأسه قال فى القبة قال ائتنى برأسه الساعة فرجع
مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله ان يصلى الثانية حتى سل سيفه الذى
اخذه وضرب عنقه واخذ رأسه بلحيته فطرحه بين يدى امير المؤمنين وهو يشخب
دماً فتنفس الصعداء وبكى بكاء شديداً وجعل ينكت فى الارض اثر كل كلمة ويقرع
اسنانه بالقضيب ويخاطبه ويقول ياجعفر الم احلك محل نفسى ياجعفر ما كافاتنى ولا
عرفت حقى ولا حفظت عهدى ولا ذكرت نعمتى ولا نظرت فى عواقب الامور
ولا تفكرت فى صروف الدهر ولا حسبت تقلب الايام واختلاف احوالها ياجعفر
خنتنى فى اهلى وفضحتنى بين العرب والعجم ياجعفر اسات الى والى نفسك ولا
تفكرت فى عاقبة امرك قال مسرور وانا واقف بين يديه وهو ينكت فى الارض
فى كل كلمة ولم يزل كذلك الى ان اذن لصلاة الظهر فدعا بماء فتوضأ للصلاة وخرج
للجامع فصلى بالناس جماعة ثم التفت بوجهه لقصور جعفر ودوره وقبض على ابيه
واخيه وجميع اولاد البرامكة ومواليهم وغلمانهم واستباح مافيه ووجه مسرو رالى
المعسكر فاخذوا جميع مافيه من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك فلما اصبح يوم
السبت فاذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو الف انسان وترك من بقى منهم
لايرجع الى وطنه وشتت شملهم فى البلاد ولم يقدر احدمنهم على كسرة خبز وحبس
اباه يحيى واخاه الفضل فى مطمورة وامر بجثة جعفر فصلبت على الجسر ببغداد ثم بعث

الى خراسان ان يوطن بلادها وامر الناس فردوا مضار بهم ودخل العسكر واستقرت
له الامور واحضر على بن عيسى بن هامان فولاه خراسان ثم وجه الى مدينة
النبي صلى الله عليه وسلم فاتى بالصبيين ولدى جعفر من اخته ميمونة فادخلا عليه فى
بيته فلما رآهما اعجب بهما وكان فى نهاية من الحسن والجمال فاستنطقهما فوجد لغتهما
مدنية وفصاحتهما هاشمية وفى الفاظهما عذوبة و بلاغة فقال لكبيرهما ما اسمك يا قرة
عينى قال الحسن وقال للصغير ما اسمك يا حبيبي قال الحسين فنظر اليهما و بكى بكاء
شديدا ثم قال يعز على حسنكما وجمالكما لا رحم الله من ظلمكما ولم يدر يا ما يراد بهما
ثم قال يا مسرور ما فعلت بالمفتاح الذى دفعته لك وامرتك بحفظه قال هو حاضر
يا امير المؤمنين قال فائتنى به ثم دعا بجماعة من الغلمان والخدم وامرهم ان يحفروا
فى البيت حفرة عميقة ودعا مسرورا وامره بقتلهما ودفنهما مع امهما فى تلك الحفرة
رحمهم الله تعالى جميعاً وهو مع ذلك يبكى بكاء شديدا حتى ظننت انه رحمهما ثم
مسح عينيه من الدموع وامر ان لا تذكر البرامكة فى مجلس ولا يستعان بمن بقى منهم
فى المدينة ابدا فخرجوا على وجوههم فى البلاد شاردين متنكرين وقطع الله دابرهم
قال فلما كان بعد مدة من هلاك البرامكة وجد الرشيد رقعة تحت مصلاة فيها خطاب
وابيات من الشعر فبحث عنها فقال ان صاحب السر عملها فبعث اليه فسأله عنها
فقال يا امير المؤمنين وجدتها فى صحن الدار ولا اعلم من طرحها فاخذتها وطرحتها
تحت مصلاك فقيل ان ذلك من زبيده انهلك من بقى من البرامكة فعملت الرقعة
للرشيد وحركته و زادت فى غيظه فاستدعى فى الوقت بالفضل بن يحيى وضربه
سياطا حتى كاد ان يهلكه و زاد فى حديده واغلاله ثم استدعى بيحيي وكان شيخاً
كبيرا و زاد فى حديده واغلاله ايضاً وكان قد نشا فى النعيم فتذكر فقد جعفر وتشتت
الاهل فكتب كتاباً الى الرشيد يستعطفه و يسأله ان يخفف عنه من القيد والغل
وهو بسم الله الرحمن الرحيم الى امير المؤمنين ونسل المهديين وامام المسلمين وخلافة
رسول رب العالمين من عبد اسلمته ذنوبه واوسقته عيوبه وخذله شقيقه و رفضه
صديقه وخانه الزمان وأناخ عليه الخزلان ونزل به الحدثان فصار الى الضيق بعد
السعة وعالج الموت بعد الدعة وشرب كاس الموت مترعة وافترش السخط بعد الرضا
واكتحل السهر بعد الكرى فنهاره فكر ونومه سهر وساعته شهر وليله دهر قد عاين

الموت مرارا وشارف الهلاك جهاراً ياأمير المؤمنين قد اصابتني مصيبتان الحال والمال اما المال فان ذلك منك ولك وكان في يدي عارية منك ولا باس برد العواري الى أهلها واما المصيبة بجعفر فبجرمه وجراءته عاقبته بما استخف من امرك وكان جزاؤه فوق ما استحق واما الفقير فاذكر ياامير المؤمنين خدمتي وارحم ضعفي ووهن قوتي وهب لي رضاك فمن مثلي الزلل ومن مثلك الاقالة ولست اعتذر ولكن اقر وقد رجوت ان اوز رضاك فتقبل عذري وصدق نيتي وظاهر طاعتي وتلويح حجتي ففي ذلك ما يكتفي به امير المؤمنين و يرى الخليفة فيه و يبلغ المراد منه ثم انشا يقول

قل للخليفة ذي الصنا ئع والعطايا الفاشية وابن الخلائف من قريـ
ـش والملوك العاليه راس الامور وخير من ساس الامور الماضيه
ان البرامكة الذيـ ـن يرموا لديك بداهيه عمتهمو لك سخطة
لم تبق منهم باقية فكأنهم مما بهم أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم خلع المذلة باديه مستضعفون ومطرودون
بكل ارض قاصيه بعد الامارة والوزارة والامور الساميه
ومنازل كانوا بها فوق المنازل عاليه اضحو وجلو مناهمو
منك الرضا والعافيه يامن يريد لي الردى يكفيك و يحك مابيه
يكفيك اني مستبا ح عترتي ونسائيه يكفيك ما ابصرته
ذل وذل مكانيه فلقد رايت الموت من قبل الممات علانيه
و بكاء فاطمة الـ كبيرة والدموع الجاريه ومقالها يتفجع
ياسواتي و ياشقائيه من لي وقد غلب الزما ن على جميع رجاليه
يالهف نفسي لهفها ماللزمان وماليه او ما سمعت مقالتي
ياذا الفروع الزاكيه ياعطفة الملك الرضا عودي علينا ثانيه

فلما وقف الرشيد على الرقعة كتب على ظهرها هذه الابيات

يا آل برمك انكم كنتم ملوكا عاتيه فعصيتموا وطغيتموا
وكفرتموا نعمائيه هذي عقوبة من عصى من فوقه وعصانيه
اجرى القضاء عليكموا ماخنتموه علانيه من ترك نصح امامكم
عند الامور البادية

ثم اردفه بقوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ياتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) فلما قرأها يحيي وهو بالسجن اخذته الحى لوقته وساعته وكان ينام على التراب وايس من الحياة وعلم انه ليس له خلاص مما هو فيه من السجن انتهى (ثم) ان الرشيد نذر الحج فخرج وخرج معه العسكر وكان خروجه فى رمضان فكانت تضرب لهم السرادقات المكللة بالديباج مفروشة بالحرير يخرج من سرادق الى سرادق والناس محدقون به حتى وصل الى الحرم وحج فاتفق ان يحيي مات فى السجن فكتب رقعة واوصى ولده الفضل ان يوصلها الى الرشيد وكتب فيها هذه الابيات

ستعلم فى الحساب اذا التقينا غدا يوم القيامة من الظلوم وينقطع التلذذ عن اناس من الدنيا وتنقطع الهموم تنام ولم تنم عنك المنايا تنبه للمنيـــة يانؤم تروم الخلد فى دار المنايا وكم قد رام غيرك ماتروم الى ديان يوم الدين نمضى

وعند الله تجتمع الخصوم

قال فلما قدم الرشيد انفذها اليه الفضل فلما قراها علم بموته فقال مات والله يحيي ومات الجود والكرم والسخاء والله لو كان حيا لفرجت عنه ثم امر باطلاق الفضل ابنه واستوزره مكان اخيه جعفر رحمة الله عليهم اجمعين (قال بعض البرامكة شعرا)

ان البرامكة الكرام تعلموا   فعل الكرام فعلموه الناسا
كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنو   لم يهدموا مما بنوه اساسا
واذا هم صنعوا الصنائع فى الورى   جعلوا لها طول البقاء لباسا
فعلام تسقيني وانت سقيتني   من مر هجرك من جنابك كامنا
آنستني متفضلا افلا ترى   ان انقطاعك يوحش الايناسا

(وسئل) اسحق الموصلى عن سخاء اولاد يحيي بن خالد فقال أما الفضل ففعله يرضيك وأما جعفر فقوله يرضيك واما محمد فيفعل ما يجد (وفى يحيي يقول القائل)

سالتك الندى هل انت حر فقال لا   ولكنني عبـــد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة   توارثني من والد بعد والد

(وفى الفضل يقول القائل)

اذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة   رأيت بها عشب السماحة ينبت

فليس بسعال اذا سئل حاجة ولا بعكب فى ثرى الارض ينكت

(وفى محمد يقول القائل)

سألت الندى والجود مالى أراكما تبدلتما عزا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما فقالا أصبنا فى ابن يحيى محمد
فقلت فهلا متما بعد موته وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أقمنا كى نعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

(وذكر) الحافظ السيوطى ان منتهى الكرم للوزراء البرامكة كاد ان لا يوجد أحد من العظماء الا وللبرامكة عليه كرم كماء السماء وتكرم جعفر بخمسين الف دينار من الذهب وتكرر منه كثيرا فى ولايته كلها من غير من ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض حتى صار يضرب بهم المثل الاكبر بقولهم تبرمك فلان (ومن) كرم جعفر انه تكرم فى يوم على الف شاعر اعطى كل شاعر الف درهم والدرهم ثلاثة أنصاف فضة (ومن) كرمه انه تكرم على من هجاه بخمسة آلاف دينار وعفا عن تاديبه وتعذيبه (ولما) وقع بهم من الامر ما أوقع الرشيد صار امرهم الى ماسيوصف من الفقر والذل والاهانة (فمن) ذلك ماقاله محمد بن غسان صاحب ولاية الكوفة وقاضيها قال دخلت على أمى فى يوم عيد اضحى فرأيت عندها عجوزا فى اطمار رثة واذا لها بيان ولسان فقلت لامى من هذه قالت هذه خالتك عتابة ام جعفر البرمكى بن يحيى فسلمت عليها وقلت لها أصار بك الدهر الى ما ارى قالت نعم يا بنى ان الذى كنا فيه كان عارية ارتجعها الدهر منا قال فقلت حدثينى ببعض شانك قالت خذه جملة لقد مضى على عيد اضحى مثل هذا منذ ثلاث سنين وعلى رأسى اربعمائة وصيفة وانا ازعم ان ابنى عاق لى وقد جئتكم اليوم أطلب جلدى شاة اجعل احدهما شعارا والاخر دثارا قال فغمنى ذلك وابكانى فوهبت لها بعض دنانير كانت عندى والله اعلم (ومن) قول يحيى بن خالد لابنه جعفر يا بنى مادام قلمك يرعف فامطره معروفا (ومن) كلام جعفر اذا احببت انساناً من غير سبب فارج خيره واذا بغضت انساناً من غير سبب فتوق شره (وقال) يحيى بن سلام الابرش قال حدثنى ابى قال خرج الرشيد للصيد يوما بعد ماباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بنى برمك فرأى لوحا مكتوبا فيه هذه الابيات

يا منزلا لعب الزمان باهله فابادهم بتفريق لايجمع ان الذين عهدتهم فيامضى

كان الزمان بهم يضر وينفع   اصبحت تفزع من رآك وطالما   كنا اليك من المخاوف نضرع
ذهب الذين يعاش فى اكنافهم   وبقى الذين حياتهم لا تنفع
(قال) فبكى الرشيد واقبل على الاصمعى وقال اتعرف شيئا من اخبار البرامكة تحدثنى به فقال الاصمعى ولى الامان قال ولك الامان فقال احدثك بشىء شاهدته بعينى من الفضل بن يحيى وذلك انه خرج يوما للصيد والقنص وهو فى موكبه اذ رأى اعرابيا على ناقة قد اقبل من صدر البرية يركض فى سيره قال هذا يقصدنى فقلت ومن اعلمك قال لا يكلمه احد غيرى فلما دنا الاعرابى ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير والجم الغفير وسمع الغوغاء والضجة ظن انه أمير المؤمنين فنزل وعقل راحلته وتقدم وقال السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته قال اخفض عليك ماتقول فقال السلام عليك ايها الامير قال الان قاربت اجلس فجلس الاعرابى فقال له الفضل من اين اقبلت يا اخا العرب قال من قضاعة قال من ادناها ام من أقصاها قال من اقصاها قال الاصمعى فالتفت الى الفضل وقال كم من العراق الى ارض قضاعة فقلت ثمانمائة فرسخ فقال يا اخا العرب مثلك لم يقصد ثمانمائة فرسخ الى العراق الا لشىء قال قصدت هؤلاء الاماجد الامجاد الذين قد اشتهر معروفهم فى البلاد قال من هم قال البرامكة قال الفضل يا اخا العرب البرامكة خلق كثير وفيهم جليل وخطير ولكل منهم خاصة وعامة فهلا افردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك واتيته لحاجتك قال اجل قال اطولهم باعا واسمحهم كفا قال من هو قال الفضل بن يحيى بن خالد فقال له الفضل يا اخا العرب ان الفضل جليل القدر عظيم الخطر اذا جلس للناس مجلسا عاما لم يحضر مجلسه الا العلماء والفقهاء والادباء والشعراء والكتاب والمناظرون للعلم اعالم انت قال لا قال افاديب انت قال لا قال افعارف انت بايام العرب واشعارها قال لا قال هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة قال لا فقال يا أخا العرب غرتك نفسك مثلك يقصد الفضل بن يحيى وهو كما عرفتك عنه من الجلالة فبأى ذريعة او وسيلة تقدم عليه قال والله يا أمير المؤمنين ماقصدته الا لاحسانه المعروف وبكرمه الموصوف وبيتين من الشعر قلتهما فيه فقال الفضل يا اخا العرب انشدنى البيتين فان كانا يصلحان ان تلقاه بهما اشرت عليك بلقائه وان كانا لا يصلحان ان تلقاه بهما بررت بشىء من مالى ورجعت الى باديتك وان كنت لا تستحق بشعرك

شيئا قال افتفعل ايها الامير قال نعم قال فانى اقول

ألم تر ان الجود من عهد آدم تحدر حتى صار يعطه الفضل
ولو ان اما مسها جوع طفلها غذته باسم الفضل لاغتذى الطفل

قال احسنت فان قال لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر واخذ الجائزة عليهما

قال اقول قد كان آدم حين حان وفاته اوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه ان ترعاهموا فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الابناء

قال احسنت يا اخا العرب فان قال لك الفضل ممتحنا هذان البيتان اخذتهما من افواه الناس فانشدنى غيرهما ما تقول وقد رمقتك الادباء بالابصار قال اقول

ملت جها بذ فضل وزن نائله ومل كاتبه احصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة خلق ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال احسنت فان قال لك هذان البيتان ايضا أخذتهما من أفواه الناس قال اقول

وللفضل صولات على مال نفسه يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو ان رب المال ابصر ماله لصلى على مال الامير واذنا

حسنت فان قال لك الفضل هذان البيتان مسروقان قال اذن اقول

ولو قيل للمعروف نادى اخا العلا لنادى باعلى الصوت يا فضل يا فضل
ولو انفقت جدواك من رمل عالج لاصبح من جدواك قد نفد الرمل

قال احسنت يا اخا العرب فان قال لك الفضل هذان البيتان مسروقان ايضا قال اقول

وما الناس الا اثنان صب وباذل وانى لذاك الصب والباذل الفضل
على ان لى مثلا كما ذكر الورى ليس لفضل فى سماحته مثل

قال احسنت يا اخا العرب فان قال لك الفضل انشدنى غيرهما ما تقول قال اقول ايها الامير

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد فقامت به التقوى وقام به العدل
وقام به المعروف شرقا ومغربا ولم يك للمعروف بعد ولا قبل

قال احسنت يا اخا العرب فان قال لك قد ضجرنا من الفاضل والمفضول انشدنى بيتين على الكنية لا على الاسم فماذا تقول قال اذن اقول

الا يا ابا العباس يا واحد الورى ويا ملكا خد الملوك له نعل
اليك تسير الناس شرقا ومغربا فرادى وازواجا كانهم نحل

قال احسنت يا اخا العرب فان قال لك الفضل انشدنا غير الاسم والكنية والقافية
قال والله لئن زادنى الفضل وامتحننى بعد هذا لاقولن اربعة أبيات ماسبقنى اليها
عربى ولا اعجمى ولئن زادنى بعدها لاجعن قوائم ناقتى هذه واجعلها فى حرام الفضل
وارجعن الى قضاعة خاسرا ولا ابالى فنكس الفضل راسه وقال اسمعنى الابيات
الاربعة قال

اولائمة لامتك يافضل فى الندى فقلت لها هل يقدح اللوم فى البحر
أتنهين فضلا عن عطاياه للغنى فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطر
كان نوال الفضل فى كل بلدة تحدر هذا المزن فى مهمه قفر
كان وفود الناس فى كل وجهة الى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر

قال فامسك الفضل عن فيه وسقط على وجهه ضاحكا ثم رفع راسه وقال يا اخا
العرب انا والله الفضل بن يحيى سل ما شئت فقال سالتك بالله ايها الامير انك هو
قال نعم قال له فاقلنى قال اقالك الله اذكر حاجتك قال عشرة آلاف درهم قال الفضل
اذدريت بنا و بنفسك يا اخا العرب تعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة آلاف وامر
بدفع المال فلما صار المال اليه حسده وزير الفضل وقال يامولاى هذا اسراف ياتيك
جلف من اجلاف العرب بابيات استرقها من اشعار العرب فتجزيه بهذا المال فقال
أستحقه بحضوره الينا من ارض قضاعة قال الوزير اقسمت عليك يامولاى الا اخذت
سهماً من كنانتك وركبته فى كبد قوسك وأومأت به الى الاعرابى فان رد عن نفسه
ببيت من الشعر والا استعطفت مالك ويكون له فى بعضه كفاية فاخذ الفضل سهماً
وركبه فى كبد قوسه وأوما الى الاعرابى وقال له رد سهمى ببيت من الشعر فانشا يقول

لقوسك قوس الجود والوتر والندى وسهمك سهم العز فارم به فقرى

قال فضحك الفضل وانشا يقول

اذا ملكت كفى منالا ولم انل فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله اخلاف الذى قد بذلته فلا مسعدى بخلى ولا متلفى بذلى
ارونى بخيلا نال مجدا ببخله وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره اعط الاعرابى مائة الف درهم لقصده وشعره ومائة الف درهم
ليكفينا شر قوائم ناقته فاخذ الاعرابى المال والصرف وهو يبكى فقال له الفضل مم
بكاؤك يا اعرابى استقلالا بالمال الذى اعطيناك قال لا ولكنى ابكى على مثلك يا كله

التراب وتواريه الارض وتذكرت قول الشاعر

لعمرك ماالرزية فقد مال ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

وتوجه الاعرابى بالمال مسرورا رحمة الله عليهم اجمعين (ويحكى) ان الرشيد قال لابى نواس بعنى ذقنك قال بكم قال بالف دينار قال بعتك فقال الرشيد لخازن داره ادفع له الف دينار فدفعها له فاخذها وربطها وقال ياامير المؤمنين خذ ما اشتريت قال لا ولكن جعلتها وديعة عندك قال فمضى ابو نواس واشتغل بامره ولهوه وهو خائف على ذقنه من امير المؤمنين قال فبينما هو متفكر فى شىء يفعله اذ جاءه قاصد أمير المؤمنين فلم يقدر ان يتكلم دون ان قام معه ودخل الى دار الخلافة فوجده فى جمع كثير من خواص المملكة واعون الدولة وكان من شانه ان يجلس بالقرب من امير المؤمنين فتحادثوا وتماجنوا فضرط أبونواس ضرطة مزعجة ازعجت الحاضرين فضحكوا جميعاً وضحك امير المؤمنين وقال له فى ذقنك فقال له فى الحال والله اعلم هى ذقن من فقال امير المؤمنين قدوهبتها لك ياملعون فاخذها وانصرف وكسب الالف دينار بهذه الحيلة والله اعلم انتهى (ويحكى) ان الرشيد امر بقتل ابى نواس فقال اتقتلنى شهوة لقتلى فقال لا بل انت مستحق للقتل قال فبم استحقيت القتل قال بقولك الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا اذا امكن الجهر

فقال ياامير المؤمنين افتعلم انه سقانى وشربت فقال له امير المؤمنين اظن ذلك فقال ياامير المؤمنين افتقتلنى على وقد قال الله تعالى ان بعض الظن اثم فقال له الرشيد قدقلت ايضاً ماتستحق به القتل فقال ماهو فقال له قولك

ماجاءنا احد يخبر أنه فى جنة من مات اوفى نار

فقال له هل جاءنا احد قال لا قال اتقتلنى على الصدق فقال له الرشيد اولست القائل

يااحمد المرتجى فى كل نائبة كن سيدى نعص جبار السموات

فقال له ياامير المؤمنين اوصار القول فعلا فقال لااعلم قال افتقتلنى على مالم تعلم فقال له امير المؤمنين دع هذا كله فقد اعترفت فى مواضع كثير من شعرك بالزنا قال ابونواس قدعلم الله هذاقبل علم امير المؤمنين بقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تر انهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون) فقال الرشيد خلوا عنه فقال

نحن الذى جاء الكتاب مخبرا بعفاف انفسنا وفسق الالسن

(وعن)محمد بن نافع قال رايت ابا نواس فى النوم بعد موته فقلت يا ابانواس فقال لات حين كنية فقلت الحسن بن هانىء قال نعم قلت مافعل الله بك قال غفرلى بابيات قلتها فى علتى قبل موتى هى تحت الوسادة فسالت اهله فقلت هل قال أخى شعرا قالوا لانعلم الاانه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئا لا ندرى ماهو فدخلت ورفعت وسادته واذاانا برقعة مكتوب فيها

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة فلقدعلمت بان عفوك اعظم ان كان لايرجوك الامحسن فمن الذى يدعوويرجوالمجرم مالى اليك وسيلة الاالرجا وجميل عفوك ثم انى مسلم

(معن بن زائدة الشيبانى) كان من الكرماء وكان عاملا بالبصرة فحضر على بابه شاعر واقام مدة يريد الدخول فلم يتهياله فقال يوما لبعض الخدام اذا دخل الاميرالبستان فعرفنى فلما دخل أعلمه بذلك فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة والقاها فى الماء الذى يدخل البستان وكان معن جالساً على القناة فلما رأى الخشبة اخذها وقراهذفاذا فيهاهذاالبيت مكتوب

ايا جودمعن ناج معنا بحاجتى فليس الى معن سواك رسول

فقال من الرجل صاحب هذه فاتى به اليه فقال كيف قلت فانشده البيت فامرله بعشرة بدر فاخذها وانصرف فوضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان فى اليوم الثانى اخرجها من تحت البساط ينظر فيها ودعا بالرجل فامرله بمائة الف درهم فلما كان اليوم الثالث فعل بمثل ذلك فتفكر الرجل وخاف ان ياخذمنه مااعطاه فخرج من البلد بما كان معه فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يوجد فقال معن والله هممت ان اعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار وفيه يقول القائل

يقولون معن لا زكاة لماله	وكيف يزكى المال من هو باذله
اذاحال حول لم يجد فى دياره	من المال الاذكره وجمائله
تراه اذاما جئته متهللا	كانك تعطيه الذى انت آمله
هوالبحر من اى النواحى اتيته	ولجته المعروف والبر ساحله
تعودبسط الكف حتى لوانه	اراد انقباضا لم تطعه انامله
فلوأن مافى كفه غيرنفسه	لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن دعني أهب الاموال حتى اعف الاكرمين عن اللئام (ويروى) ان معن بن زائدة خرج فى جماعة يتصيدون فاعترضهم قطيع ظباء فتفرقوا فى طلبة وانفرد معن خلف ظبي فلما ظفر به نزل فذبحه فرأى شخصا مقبلا من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه وقال له من اين اتيت قال اتيت من ارض قضاعة وانى لى بها ارضا لها عدة سنين مجدبة وقد اخصبت فى هذه السنة فزرعتها قثاة فطرحت فى غير وقتها فجمعت منه ما استحسنته وقصدت الامير معن بن زائدة لكرمه المشهور ومعروفه المأثور واحسانه المذكور فقال له كم املت منه قال الف دينار فقال ان قال لك كثير قال خمسمائة دينار قال ان قال لك كثير قال ثلثمائة دينار قال ان قال لك كثير قال مائتى دينار قال ان قال لك كثير قال مائة دينار قال ان قال لك كثير قال خمسين دينار قال ان قال لك كثير قال افلا اقل من ثلاثين قال فان قال لك كثير قال ادخل قوائم حمارى فى حرامه وارجع الى اهلى خائبا فضحك معن منه وساق جواده حتى لحق بعسكره ونزل منزله وقال لحاجبه اذا اتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل بى على فأتى بعد ساعة فلما دخل على الامير معن لم يعرفه لهيبته وجلاله وكثرة خدمه وحشمه وهو متصدر فى دست مملكته فلما سلم عليه قال له الامير معن ما الذى اتى بك يا أخا العرب قال أملت الامير واتيته بقثاة فى غير اوانها قال فكم أملت فينا قال الف دينار قال كثير قال خمسمائة دينار قال كثير قال ثلثمائة دينار قال كثير قال مائتى دينار قال كثير قال مائة دينار قال كثير قال والله لقد كان ذلك الرجل الذى قابانى على مشؤما ثم قال خمسين دينار قال كثير قال أفلا أقل من ثلاثين قال فضحك معن وسكت فعلم الاعرابى انه صاحبه فقال ياسيدى ان لم تعطنى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب وها أنا مع معن جالس فضحك معن حتى استلقى على قفاه ثم استدعى بوكيله وقال اعطه الف دينار وخمسمائة دينار وثلثمائة دينار ومائتى دينار ومائة دينار وخمسين دينارا وثلاثين دينارا ودع الحمار مربوطا مكانه فبهت الاعرابى وتسلم الفى دينار ومائة وثمانين دينارا فرحمة الله عليهم اجمعين (وقيل) كان معن بن زائدة فى بعض صيوده فعطش فلم يجد مع غلمانه ماء واذا بثلاث جوار قد أقبلن حاملات ثلاث قرب فسقينه فطلب شيئاً من المال مع غلمانه فلم يجده فدفع لكل واحدة منهن عشرة اسهم من كنانته نصولها من ذهب فقالت احداهن ويلكن لم تكن هذه الشمائل

الا لمعن بن زائدة فلتقل كل واحدة منكن شيئاً من الابيات

فقالت الاولى يركب فى السهام نصول تبر ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح واكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية ومحارب من فرط جود بنانه عمت مكارمه الاقارب والعدا
صيغت نصول سهامه من عسجد كى لا يفوته التقارب والندى

وقالت الثالثة ومن جوده يرمى العداة باسهم من الذهب الابريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عند انقطاعه ويشترى الاكفان منها قتيلها

وكان مع كرمه صاحب شهامة (فن) ذلك انه سعى رجل فى افساد دولة المهدى وكان من الكوفة فعلم به المهدى فهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة الف درهم فاقام الرجل حيناً مختفياً ثم ظهر فى بغداد فبينما هو فى بعض الشوارع اذ رآه رجل من الكوفة فعرفه فاخذ بمجامع طوقه ونادى هذا طلبة امير المؤمنين فبينما الرجل على تلك الحالة وقد اجتمع حوله خلق كثير اذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه فالتفت فاذا هو بمعن بن زائدة فقال ياابا الوليد اجرنى أجارك الله فوقف فقال للرجل الذى تعلق به ماتريد منه قال هذا طلبة امير المومنين أهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة الف درهم فقال له معن دعه ثم قال ياغلام اردفه فاردفه وكر راجعاً الى داره فصاح الرجل معن حال بينى و بين من طلبه أمير المؤمنين ولم يزل صارخا الى ان اتى قصر المهدى فامر المهدى باحضار معن فاتته الرسل فدعا معن اولاده ومماليكه وقال لا تسلموا الرجل و واحد منكم يعيش ثم سار الى المهدى فدخل وسلم فلم يرد عليه ثم قال يامعن اتجير علينا عدونا قال نعم ياامير المؤمنين قال المهدى ونعم ايضاً واشتد غضبه فقال معن ياامير المؤمنين بالامس بعثنى الى اليمن مقدم الجيش فقتلت فى طاعتك فى يوم واحد عشرة آلاف رجل ولى مثل هذا ايام كثيرة فما رايتمونى اهلا ان اجير رجلا واحد استجار بى ودخل منزلى فسكت غضب المهدى وقال قد اجرنا من اجرت ياابا الوليد قال معن فان رأى امير المؤمنين ان يصله بصلة يعلم منها موقع الرضا فان الرجل قد انخلع من صدره خوفا قال قد امرنا له بخمسين الف درهم قال ياامير المؤمنين ان صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية قال قد امرنا له بمائة الف درهم قال عجلها ياامير المؤمنين فان خير البر عاجله فاحضر معن الرجل وقال له خذ صلة

امير المومنين وقبل يده واياك ومخالفة خلفاء الله فى ارضه فما كل مره تسلم الجرة فارسلها الناس مثلا واخذ الرجل المال واستغفر الله انتهى (وكان) معن لا يغيظ احدا ولا احدا يغيظه فقال بعض الشعراء انا اغيظه لكم ولو كان قلبه من حجر فراهنوه على مائة بعير ان اغاظه اخذها وان لم يغظه دفع مثلها فعمد الرجل الى جمل فذبحه وسلخه ولبس الجلد مثل الثوب وجعل اللحم من خارج والشعر من داخل والذباب يقع عليه ويقوم ولبس برجليه نعلين من نعل الجمل وجعل اللحم من خارج والشعر من ناحية رجليه وجلس بين يدى معن على هذه الصورة المشروحة ومد رجليه فى وجهه وقال

انا والله لا ابدى سلاما ... على معن المسمى بالامير

فقال معن السلام لله ان سلمت رددت عليك وان لم تسلم ما عتبنا عليك (فقال الشاعر)

ولا انزل بلادا انت فيها ... ولو حزت الشام مع الثغور

فقال له البلاد لله ان نزلت مرحبا بك وان رحلت كان الله فى عونك (فقال الشاعر)

وارحل عن بلادك الف شهر ... أجد السير فى أعلى القفور

فقال له مصحوبا بالسلامة (فقال الشاعر)

اتذكر اذ قميصك جلد شاة ... واذا نعلاك من جلد البعير

فقال له اعرف ذلك ولا انكره (فقال الشاعر)

وتأوى كل مصطبة وسوء ... بلا عبد لديك ولا وزير

فقال له ما نسيت ذلك يا اخا العرب (فقال الشاعر)

ونومك فى الشتاء بلا رداء ... وأكلك دائما خبز الشعير

فقال الحمد لله على كل حال (فقال الشاعر)

وفى يمناك عكاز قوى ... تذود به الكلاب عن الهرير

فقال له ماخفى عليك خبرها اذ هى كعصى موسى (فقال الشاعر)

فسبحان الذى اعطاك ملكا ... وعلمك القعود على السرير

فقال له بفضل الله لا بفضلك (فقال الشاعر)

فعجل يا ابن ناقصة بمال ... فانى قد عزمت على المسير

فامر له بالف دينار (فقال الشاعر)

قليـــل ما امرت به فانى ... لاطمع منك بالشىء الكثير

قامر له بالف دينار اخرى (فقال الشاعر)

فثلث اذا ملكت الملك رزقا   بلا عقل ولا جاه خطير

قامر له بثلثمائة دينار (فقال الشاعر)

ولا ادب كسبت به المعانى   ولا خلق ولا رأى منير

قامرله بار بعمائة دينار (فقال الشاعر)

فامر له بخمسمائة دينار وما زال يطلب منه الزيادة حتى استكمل الفى دينار فاخذها وانصرف متعجبا من حلم معن وعدم انتقامه منه ثم قال فى نفسه مثل هذا لا ينبغى أن يهجى بل يمدح واغتسل ولبس ثيابه ورجع اليه فسلم عليه ومدحه واعتذر له بان الحامل له على هجوه المائة بعير التى صار الرهان عليها فى نظير اغاظته فامر له بمائة بعير يدفعها فى نظير الرهان وبمائة اخرى لنفسه فاخذها وانصرف والله اعلم

(خلافة المامون بن الرشيد واسمه عبد الله)

(روى) بعض اهل الادب ان فتى من اهل الكوفة قد فاق اهل زمانه فى الادب والفصاحة فضاق صدره وعيل صبره فخرج الى بغداد واكترى فى بعض خاناتها منزلا واجمع رأيه على ان يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه اوملكه وتربص لذلك ان يرى وجها الى ان عزم المامون ان يشرب يوما هو وصنوه المعتصم فامر المامون بالاستعداد ليوم سماه ليخلوا فيه مع الجوارى فظهر خبرهما بذلك وعرف الناس ذلك اليوم فعزم هذا الاديب المذكور على ان يتطفل فى ذلك على المامون واخيه المعتصم فمضى الى اخوانه واصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وزردية ومن آخر منطقة وخفا وسيفاً ومن آخر برذونا ومن آخر مايحتاج اليه من الطيب واستعد لذلك اليوم ودخل الحمام سحرا وتطيب ولبس وركب عند طلوع الشمس الى دار المعتصم وقال للحاجب عرف الامير انى رسول امير المؤمنين واستاذن لى عليه فسعى الحاجب عدوا حتى اخبر المعتصم فاذن له فلما دخل عليه ومثل بين يديه قال له سيدى ان امير المؤمنين يقرئك السلام ويقول انسيت الوعد الم يقدم اليك بالركوب لنخلو ولنستريح يومنا هذا قال المعتصم لا والله ما نسيت ذلك ولكن تربصت ساعة ونمت نومة لا تقوى بذلك على انتصاب سائر النهار فقال الفتى فعجل الان ايها الامير فانه

آمرني ان لا أفارقك حتى آتيه بك فامر المعتصم باسراج مركوبه واسرع في التاهب ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه والمعتصم لا ينكر شيئا من كلام الفتى ويتأمل للطافته وهياته ولم يتوهم الا انه من بعض خواص المامون واخذ الفتى يحدث المعتصم واقبل عليه بكليته ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه حتى بلغ باب الخليفة فالقى الفتى نفسه عن دابته واخذ يمشي بين يديه والحجاب لا ينكرون منه شيئا ويظنون انه من خدم المعتصم حتى نزل واخذ الفتى بركابه ودخل المجلس فلما استقر في مجلسه جلس الفتى بين يديه وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم مصغ اليه تعجبا مما يسمع من حسن كلامه واخبر المامون ان المعتصم قد وصل ومعه رفيق لا يعرف من هو فقال المامون اخي قد عرف ان هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي ان يحضره احد من الناس الا من هو عديل النفس وقد احسن اخي اذ جعل لنا ثالثا فان المجلس اذا لم يحضره اكثر من اثنين تعطل لقيام احدهما الى الصلاة والى ما لا بد منه ثم خرج من ساعته فرحا وليس له همة الا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قدره وعقله فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المامون نهض قائما فقبل يد المامون وعاد الى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن اخباره وغرائب اشعاره كانه يغرف من بحر وهو مع ذلك يوهم المامون انه من خواص المعتصم فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المامون واظهر الحسد لاخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه وامر المامون باحضار المائدة فنصبت بانواع الطعام فاكلوا وغسلوا ايديهم ولمجلس الشراب انتقلوا وأمر المامون باحضار الجواري من غير ستارة فحضرن واخذن في الغناء فامن صوت يمر الا والفتى عارف به وبالغناء ومتى قيل وفيمن قيل فعز في عين المامون حتى ملا عينه وتزايد حسده لاخيه في صحبة مثله فمس الفتى بول ولم يجد للمدافعة سبيلا فقام وهو متيقن انهما سيذكرانه ويتواصفان امره وحاله اذا خلا المجلس فما هو الا ان غاب من بين ايديهما حتى قال المامون لاخيه المعتصم يا ابا اسحق من صاحبك هذا فوالله ما رايت رجلا قط اكثر منه فقال المعتصم والله ما اعلم من هو وانه جاءني مبكرا برسالة امير المؤمنين فقال المامون سالتك بالله يا اخي اهو كذلك فقال اي والله الذي لا اله الا هو فقال المامون طفيلي ورب الكعبة وغضب وامر الجواري بالنهوض فنهضن واقبل الفتى راجعا فلما نظر

الى خلو المجلس من الجوارى والى تغير وجه المامون وقف على رأس المجلس واقبل بوجهه على المعتصم وقال يا ابا اسحق كانى بك قد اخذت فى نوع الزور والبهتان وما هكذا وعدتنى ثم قال والله ياامير المؤمنين مابليت من احد من الناس مثل ما بليت من هذا الانة دائما ابدا يعرضنى لمثل هذا واشباهه و يغرى بى و يوقعنى فى كل ورطة من ملاعبتك التى لا تحتمل وتودى الى مؤاخذة امير المؤمنين ولم يزل يأتى بهذا وامثاله حتى شك المامون فى امره والتفت الى اخيه المعتصم وقال سالتك بالله يااخى بحياتى عليك الا مااعلمتنى بحقيقة امره فقال المعتصم ياامير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك و ولايتك ان كنت اعرفه أو رأيته قط الا فى يومى هذا فقال الفتى كذب والله ياامير المؤمنين لقد كنت معه دهرى الطويل وفى موضع كذا وكذا وان هذا فعله معى ابدا فضحك المامون تعجباً وقال ادخل فدخل وامره بالجلوس فجلس ثم قال لك الامان ان تصدقنى فصدقه الحديث على وجهه فاعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه وامر باعادة الجوارى الى مجلسهن فطربوا سائر يومهم فقال له المامون اخبرنى باعجب مالحقك فى قدومك من الكوفة الى بغداد واجعله نظما فقال

بينا انا راقد فى البيت مكتئب ... مفكر فى حصول الكد والقوت
وليس فى البيت لى شىء الم به ... و بى من الجوع مايدنى الى الموت
اذا بصوت بباب الدار اسمعه ... والاذن مصغية منى الى الصوت
ناديت من ذا الذى ارجوه لى فرجا ... نادى أنا فرج زن لى كرا البيت

فضحك المامون حتى استلقى على فراشه ثم ضرب برجله الارض من شدة اعجابه وقال ثم ماذا قال ياامير المؤمنين فخرجت فاذا هو صاحب الخان يطالبنى بالكراء فوعدته بان يرجع الى مرة اخرى فمضى ومضيت على وجهى لا اعلم اين اتوجه فسالت كل من لقيته من صديق لى كنت استانس به فخطر على بالى بيتان من الشعر فى ذلك وهما

غريب الدار ليس له صديق ... جميع سؤاله اين الطريق
تعلق بالسؤال لكل شخص ... كما يتعلق الرجل الغريق

فاشرفت ياامير المؤمنين على جارية كانها البدر ليلة كماله وهى تقول

ترفق ياغريب فكل حر ... يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة انت فيها ... صبرت لها أتيح لها الطريق

ثم قالت خذ هذه وادفع بها فاقتك فوالله ماهى الا مواساة من قوت و رمت الى صدرى
القرطاس واذا فيه عشرة دراهم فرجعت من فورى فوجدت صاحب الكراء قائماً على
الباب فدفعت اليه خمسة دراهم واستعنت بالباقى وهذا ما حمانى على ما فعلت والشأ يقول

كم آت فعلا غير مستحسن ... جهلا بفعل الاحسن الاملح
لكنني فى حالة اوجبت ... ضرورة اتيان مستقبح

فاعجب المامون امره واستحسنه وامر له بمائة الف درهم يصلح بها شانه والحقه بمراتب
الخاصة و رفعت منزلته عنده وصار اقرب الناس اليه وآخر خرج من عنده واول
داخل اليه وسمى طفيلى المعتصم وانشد للمامون يقول

كانت لقلبى اهواء مفرقة ... فاستجمعت اذ راتك العين اهوائى
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلا بذلك عن دينى ودنيائى
وصار يحسدنى من كنت احسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى

فاستحسن المامون من الابيات وامر بكتبها على الستارة وصار الفتى اذا حضر يوم سرور
المامون لم يكن للمامون هم الا اقتراح هذه الابيات الى ان ينقضى المجلس ثم ان الفتى
بعد ان حسنت حالته ارسل الى الدار التى اشرفت عليه منها الجارية فاذا هى لرجل
من فعل بغداد من مباشريها وقد مات ولم يخلف ولدا سوى تلك الجارية وماماته
حتى تضعضع حاله فاعلم المامون بذلك فامر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار
الفتى والجارية فى نعمة عظيمة بقية عمرها والله اعلم (وسرق) شاب سرقة فاتى به
الى المامون فامر له بقطع يده فتقدم لتقطع يده فانشد يقول

يدى ياامير المؤمنين اعيذها ... بعفوك ان تلقى نكالا يشينها
فلا خير فى الدنيا ولا راحة بها ... اذا ماشمال فارقتها يمينها

وكانت ام الشاب واقفة على رأسه فبكت وقالت ياامير المؤمنين انه ولدى و واحدى
ناشدتك الله الا رحمتنى وهدأت لوعتى وجدت بالعفو عمن استحق العقوبة فقال
المامون هذا حد من حدود الله تعالى فقالت ياامير المؤمنين اجعل عفوك عن هذا
الحد ذنبا من الذنوب التى تستغفر منها فرق له المامون وعفا عنه (وفى حياة الحيوان)
قال رايت فى بعض المجاميع بخط بعض العلماء الاكابر ان المامون اشرف يوما من
الايام فرأى رجلا قائما و بيده فحمة وهو يكتب بها على حائط قصرة فقال المامون

لبعض خدمه اذهب الى ذلك الرجل فانظر ما كتب وائتني به فبادر الخادم الى الرجل مسرعا وقبض عليه وقال ما كتبت فاذا هو قد كتب هذه البيتين

يا قصر جمع فيك الشؤم واللؤم ... متى يعشش فى اركانك البوم
يوما يعشش فيك البوم من فرحى ... اكون اول ما ينعاك مرغوم

ثم ان الخادم قال له اجب امير المؤمنين فقال الرجل سالتك بالله لا تذهب بى اليه فقال الخادم لابد من ذلك ثم ذهب به فمثل بين يدى امير المؤمنين والله اعلم بما كتب فقال له المامون ويلك ما حملك على هذا فقال يا امير المؤمنين انه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الاموال والحلى والحلل والطعام والشراب والفرش والاوانى والامتعة والجوارى والخدم وغير ذلك بما يقصر عنه وصفى ويعجز عنه فهمى وانى يا امير المؤمنين قد مررت عليه الان وانا فى غاية من الجوع والفاقة فتوقفت متفكرا فى امرى وقلت فى نفسى هذا القصر عامر عال وانا جائع ولا فائدة لنا فيه فلو كان خرابا ومررت به لم اعدم رخامة اوخشبة اومسمارا ابيعه واتقوت بثمنه اوما علم امير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر

اذا لم يكن للمرء فى دلة وامرىء ... نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير انه ... يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

فقال المامون يا غلام اعطه الف درهم ثم قال الى هى لك فى كل سنة مادام قصرنا عامر باهله مسرورا بدولته وانشدوا فى معنى ذلك

اذا كنت فى امر فكن فيه محسناً ... فعما قليل انت ماض وتاركه
فكم دحت الايام ارباب دولة ... وقد ملكوا اضعاف ما انت مالكه

(ويقال) ان المامون شرب يوما ومعه القاضى يحيى بن اكثم فمال الساقى على القاضى حتى وقع سكران فامر المامون ان يلقى عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كانه ميت وصنع بيتين شعرا وقال لمغنيته خذى العود دغنى على رأسه فغنت وقالت

ناديته وهو حبى لا حراك له ... مزمل فى ثياب من رياحين
فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى ... فقلت خذ قال كفى لا يوافقنى

فاستيقظ يحيى لرنة العود والجارية تغنى البيتين فقام وقال

ياسيدى وامير الناس كلهم ... قد جار فى حكمه من كان يسقينى

سقانى الراح لم يمزج سلافتها حتى بقيت سليب العقل لا الدين

(قال) الواقدى كان ابراهيم بن المهدى ادعى لنفسه الخلافة بالرى واقام مالكها سنة واحدى عشر شهراً واثنى عشر يوما وله اخبار كثيرة (فمما حكاه) قال لما دخل المامون الرى فى طلبى أثقل على الطلب وجعل لمن دل عليه واتاه بى مائة الف درهم فخفت على نفسى وتحيرت فى امرى فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما ادرى اين اتوجه فمررت بزقاق لاينفذ فقلت لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم انا لله وانا اليه راجعون وخفت أن رجعت على اثرى تعلموا بى فرأيت فى صدر الزقاق عبداً اسود قائما على باب داره فتقدمت اليه وقلت له عندك موضع اقيم فيه ساعة من نهار قال نعم وفتح الباب فدخلت الى بيت نظيف فيه حصر نظيفة و بسط ومخدات جلد ثم انه اغلق على الباب ومضى فخفت ان يكون سمع الجعالة فى حقى وانه عرفنى ومضى ليدلهم على فبقيت مثل الحبة فى المقلاة قلقاً ميتاً من الخوف فبينما انا كذلك اذ اقبل ومعه حمال حامل كل ما احتاج اليه من لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد ثم التفت الى وقال جعلنى الله فداك انا رجل حجام وانا اعرف انك تنفر منى لما اتولاه من معيشتى فشأنك بما لم تقع عليه يدى وكان حاجة الى الطعام فقمت وطبخت قدرا ما ظننت انى اكلت مثلها قدرا فلما قضيت اربى قال لى هل لك ان تشرب شيئاً فانه يسلى الهم ويزيل الغم ويعهد للنفس الفرح قلت ما اكره ذلك رغبة فى مؤانسته فاتى بقطر ميز جديد وحضر لى بقلا وفاكهة فى اوان جدد من فخار ثم قال بعد ذلك ان اذنت لى جعلت فداك ان اقعد بناحية منك واتى بشراب فاشرب مسرورا بك فقلت افعل ففعل وشرب ثلاثا ثم دخل الى خزانة له فاخرج عودا مصلحا ثم قال ياسيدى ليس من قدرى ان اسالك ان تغنى ولكن قد وجب على مروءتك حرمتى فان رايت ان تشرف عبدك بان تغنى لنفسك والعبد يسمع فافعل فقلت له ومن اين لك انى احسن الغناء فقال متعجبا سبحان الله انت اشهر من ذلك انت ابراهيم ابن المهدى خليفتنا بالامس الذى جعل المامون لمن يدل عليك مائة الف درهم فلما قال ذلك عظمت مروءته عندى وعلمت ان نخوته اجل مما يذل فتناولت العود فاصلحته وقدمر بخاطرى ذكر اهلى وولدى فقلت

وعسى الذى أهدى ليوسف اهله وأعزه فى السجن وهو غريب
ان يستجيب لنا فيجمع شملنا فالله رب العالمين قريب

فقال ياسيدى اجعل ماتغنيه مما اقتضيك به قلت نعم فقال غن لى

ان الذى عقد الذى انعقدت به   عقد المكاره فهو يملك حلها
فاصبر فان الله يعقب راحة   فلعلها ان تنجلى فلعلها

محسن عندى اقتراحه وشربت ثم قالت غن لى

وراء مضيق الخوف متسع الامن   وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تياسن فالله ملك يوسفاً   خزائنه بعد الخلاص من السجن

ففرح وشرب وقالت غن لى

اذا الحادثات بلغن النهى   وكان لهن تذوب المهج
وحل البلاء وقل العزاء   فعند التناهى يكون الفرج

فغنيته وحسن فى نفسه اقتضايه وانست به واستظرفته ثم قال ان رايت ياسيدى
ان تاذن لى ان اغنى ماخطر ببالى وان كنت من غير اهل هذه الصناعة فقلت يكون
ذلك زيادة فى ادبك ومروءتك فاخذ العود ثم قال دستور ثم ضرب عليه وغنى يقول

شكونا الى احبابنا طول ليلنا   فقالوا لنا ما اقصر الليل عندنا
وذاك لان النوم يغشى عيونهم   سريعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا .
اذامادنا الليل المضر بذى الهوى   جزعنا وهم يستبشرون اذا دنا
فلو انهم كانوا يلاقون مثل ما   تلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فقلت والله ذهب عنى ما كان عندى من الفزع وسالته يغنى فغنى يقول

تعيرنا انا قليل عدادنا   فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا انا قليل وجارنا   عزيز وجار الاكثرين ذليل
وانا لقوم لا نرى الموت سبة   اذا مارأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا   وتكرهه آجالهم فتطول

فوالله لقد اجاد وذهب عنى كل ما كان من الفزع والجزع واستانست به واخذنى
من الطرب مالا مزيد عليه وعالجنى النوم قبل اوانه فنمت ولم استيقظ الا بعد المغرب
وجال فكرى فى هذا الحجام وادبه وظرفه وكيف غناؤه وادبه وارادته ان يسليني
عما انا فيه واشارته الى تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره فقعدت وغسلت وجهى
وايقظته واخذت خريطة كانت صحبتى فيها دنانير ومصاغ لها قيمة فدفعتها اليه

وقلت له انت فى وداعة الله وحفظه فانى ماض عنك وأسالك ان تصرف مافى هذه الخريطة فى بعض مهماتك ولك عندي اذا أمنت المزيد فاعادها على مبادرا وقال يا سيدى الصعلوك منا لاقيمة له عند أهـل الرياسات ويظنون فيه الظنون الزديئة افاخذ على ما وهبنى الله من قربك وحلولك فى منزلى ثمنا لا والله فالحت عليه فاخذ موسى له بيده وقال والله ان راجعتنى لاخون نفسى فخشيت عليه واخذت الخريطة واثقلنى حملها فلما انتهيت الى باب الدار قال ياسيدى ان هذا الموضع اخفى لك من غيره وليس عندى فى موءنتك ثقل فاقم عندى الى ان يفرج الله عنـك فرجعت وسالته ان يكون منفقاً من تلك الخريطه فلم يفعل وكان كل يوم يفعل بى مثل مافعـل فى اليوم الاول قال فاقمت اياما فى اطيب عيش واهنئه ثم سئمت من الاقامه عنـده وخشيت انثقل عليه فتركنى ومضى يجددلنا حالنا فلبست ثيابى وتزينت بزى النساء بالخـف والنقاب وخرجت فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف والفزع امر شديد ومشيت لاعبر الجسر واذاهو قد رش ورجـل قائم فابصرنى بعض من كان فى خدمتى من الجند فتعلق بى وقال طلبه امير الموءمنين فدفعته فى صـدره فوقع فى الزقاق وصار عبرة وتبادر الناس اليه فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت زقاقا فوجدت بابا وامرأة واقفه فيه فقلت ياسيدة النساء احقنى دمى فانى رجل خائف فقالت ادخـل فدخلت فاطلعتنى الى غرفه وفرشت لى وقدمت لى طعاما وقالت ليهدا روعك فانه لا يعلم بك مخلوق ولو أقمت سنه ماعليـك باس واذا بالباب يدق فخرجت وفتحت الباب فاذاهو صاحبى الذى دفعتـه على الجسر وهو مشدوخ الراس ودمه يسيل على ثيابه فقالت له مادهاك قال ان حديثى عجيب وامرى غريب ظفرت بالفتى وقد انفلت من يدى قالت وكيف قال ابراهيم ابن المهـدى لقيتـه فتعلقت به فدفعنى فاصابنى ماترين من حالى ولو حملته الى امـير الموءمنين لاخـذت منه ماية الف درهم قال فاخرجت له حزاقا ودر ورا وفرشت له بعد كبس جرحه فنام قليـلا وطلعت وقالت اظنك صاحب القصه قلت نعم فقالت انى خائفه عليك ثم جددت لى الكرامه واقمت عندها ثلاثة ايام ثم قالت لى انى خائفه عليـك من هـذا الرجل لئلا يطلع على امرك فينم عليك فانج بنفسك فسالتها امهالى الى الليل فلما دخل الليل لبست زى النسـاء وخرجت من عندها واتيت الى بيت مولاة لنا فلما رانى

بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتي وخرجت كانها تريد كرامتي فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام للضيافة فظننت خيرا فلم أشعر الا بابراهيم الموصلي بخيله ورجاله والمولاة معه حتى سلمتني اليه فرايت الموت عيانا وحملت مثل ما انا الى امير المؤمنين فجلس مجلساً عاما وامر بادخالي عليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة فقال لي لا سلمك الله ولا حفظك ولا رعاك فقلت ياأمير المؤمنين ان ولي الثار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى وما تناولته يد الاقدار ربما مدله من أسباب الرجاء ما يامن معه عادية الدهر وقد جعلك الله فوق خلقه واصبح عفوك فوق كل ذي عفو فان تاخذ فبحقك وان تعف فبفضلك وانشدت أقول

ذنبي اليك عظيم وانت أعظم منه فخذ بحقك أولا فاصفح بحلمك عنه
ان لم اكن في فعالي من الكرام فكنه

قال فرفع رأسه الى فقلت مبتدرا

أتيت ذنباً عظيما وأنت للعفو أهل فان عفوت فمن وان جزيت فعدل

قال فرق المامون واسترجع فرايت روائح الرحمة في شمائله ثم اقبل على أخيه ابي اسحق محمد المعتصم وابنه العباس وجميع من حضر من خاصته وقال ما ترون في امره فاشار الكل بقتلي الا انهم اختلفوا في القتل فقال المامون لاحمد بن ابي خالد ما تقول يا احمد فقال ياامير المؤمنين ان قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله وان عفوت لم نجد مثلك في العفو فنكس المامون راسه الى الارض وجعل يخط في الارض باصبعه ثم رفع راسه وقال

قومي همو قتلوا أمين اخي فاذا رميت يصيبني سهمي

ثم قال المامون لا باس عليك ياعم فقلت ذنبي ياامير المؤمنين اعظم من ان افوه معه بعذر وعفوك اعظم من ان انطق معه بشكر ولكن اقول شعراً

ان الذي خلق المكارم حازها في صلب آدم للامام السابع ملئت قلوب الناس منك مهابة
وتظل تكلؤهم بقلب خاشع ما ان عصيتك والغواة تمدني اسبابها الا بنية طائع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله عفو ولم يشفع اليك بشافع
ورحمت اشبالا كافراخ القطا وحنين والدة بقلب جازع

فقال المامون لا تثريب اليوم عليك قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فانشدت اقول: رددت مالي ولم تبخل علي به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي

امنت منك وقد خولتنى نعما نعم الحياتين من موت ومن عدم
فلو بذلت دمى ابغى رضاك به والمال حتى اسل النعل من قدمى
وان جحدتك ماوليت من نعم انى الى اللؤم اولى منك بالكرم

فقال المامون ان من الكلام كلاما كالدرر وهذا منه وامر لى بمال وخلع على وقال يا عم ان ابا اسحق والعباس اشارا بقتلك فقال انهما نصحاك يا امير المؤمنين ولكن فعلت ما انت اهله ودفعت ماخفت انما دفعت بما رجوت فقال المامون اقدمات حقدى بحياة عذرك وقد عفوت عنك ثم سجد المامون طويلا ثم رفع راسه وقال يا عم اتدرى لم سجدت قلت شكرا لله تعالى على ما اوقعك عليه وملكك اياى فى يدك تفعل بى ما تشاء فقال لى اخطات ولكن اشكر الله تعالى على ما الهمنى من العفو عنك من قبل نفسى ثم قال واعظم من عفوى عنك اننى لم اجرعك مرارة امتنان الشافعين فحدثنى بما كان من امرك فشرحت له ماجرى لى مع الحجام والجندى وزوجته والمولاة التى اسلمتنى فامر المامون باحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة فلما حضرت قال المامون ما حملك على ما فعلت من تسليمك ابراهيم مع انعامه عليك قال رغبة فى المال قال هل لك من ولد او زوج قالت لا فامر بضربها مائة سوط واخذ بتخليدها فى السجن ثم احضر الجندى وامراته والحجام فسال الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل قال رغبة فى المال فقال انك اولى بان تكون حجاما من ان تكون خداما وكل من يلزمه الجلوس فى مكان الحجام ليتعلم الحجامة واحسن الى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال هذه امراة ادبية تصلح للمهمات وسلم للحجام دار الجندى وما فيها وخلع عليه واثبته برزقه فى الديوان وزيادة الف دينار فى كل سنة ولم يزل كذلك الى ان مات والله اعلم (وعن محمد بن عبد الله التميمى) قال حدثنا احمد بن محمد الحريرى قال كان لحمنة بنت عبد الله الهاشمى من الاموال مالا يسعه الديوان ولا تاكله النيران لكثرته وكانت أدب نساء بنى هاشم وافصحهن لسانا واقولهن شعرا فدخلت على المامون يوما وكانت تحبه غاية الحب سرا وكان المامون جالسا فى ايوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه احد من الخلفاء قبله وكان قد تالق فى بنائه وكان فيه من كل صورة فى البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة وقد فرشه ببساط من الديباج الاصفر واسبل عليه ستورا من الحرير الصينى وقد أقام فيه اربعمائة وصيفة بقراطق الحرير وقد

لبسن الوشي بطرر وشمور واصداغ وهن بقد واحد لا تزيد الواحدة منهن على الاخرى
اقام مائتين عن يمينه ومائتين عن يساره فقال يا حمنة هل كان لابيك اولبعلك اولاحد
من الخلفاء مثل هذا الايوان مع فرشه ومثل هؤلاء الجوارى معز ينتهن فقالت يا امير
المؤمنين متعك الله به وعمره بك فلقد اوتيت ملكا عظيما تستاهله لترفك وشرفك فان
اجبت خادمتك حمنة اجلستك فى مجلس لم تجلس فى مثله قط واصادتك صيدا لم تصد
مثله قط واسقتك شرابا لم تشرب مثله قط وكان عنده يحيي بن اكثم فقال لها ياحمنة
قد اجبتك الى ماسالتينى ولكن لا ينفعنى ولا يهنأ لى ذلك الا بمشهد من يحيي بن اكثم
فانه لا يطيب لى مجلس الا به فقالت نعم يا امير المؤمنين ثم ضربت يدها بجيبها فاخرجت
منه مخزنة من ذهب احمر محشوة مسكا اذفر فدفعها الى يحيي وقالت يايحيي ان الاجير
لا يعمل حتى يستوفى اجرته وهذه اجرتك منى لكن مستحثا لى امير المؤمنين غدا عند
الزوال فى المسير الى منزل خادمته فقال حبا وكرامة ثم خرجت من عنده فهيات ما تحتاج
اليه للمامون وغيره فلما كان من الغد جلس المامون فى مجلس السلام فلما زالت
الشمس وصارت فى كبد السماء قال يحيي يا امير المؤمنين الحاجة التى عرضت عليك
الامس ففطن المامون لذلك وقام من مجلسه ولبس ثياب التجار ولبس يحيى مثل
ذلك ودعا بحمارين مصر يين بغاشيتين وركباهما حتى اتيا دار حمنة فدقا الباب دقة
خفيفا فسمعته فاقبلت بنفسها حتى فتحت الباب واقبلا يمشيان جميعا حتى انتهوا الى
بيت فى بستان قد حمل على اربعة اعمدة من الرخام الاحمر المنقوش واذا فى صدر
البيت اربعة اسطر منقوشة بالدر وصنوف الجوهر وهى

ماسرنى ان فؤادى ولا ... ان لسانى بالمدام حلا ... وان لى ملك بنى هاشم
يحيى الى اول اولا ... ان لم اشاهدك ايامالكى ... تاتى الى بيتى كذا مقبلا
ياسائلى روحى بلا علة ... انت المعافى وانا المبتلى

فقال المامون يايحيى ماملك احد من الخلفاء مثل هذا البيت واذا فرشه ارمنى مجفور
منقوش باللالىء واذا فوق الارمنى مطارح من الديباج الاخضر حشوها حواصل
الريش وفى البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف
فى اوانى الذهب والفضة وهى تفوح منه روائح لا يدرى ماهى من طيبها ثم اخرجتهما
الى اربعة ميادين فيها انواع الرياحين حول البيت فقال ان هذا الاسحر مؤثر ثم

دعت لهما عائدتين من الجزع اليماني قوائمها منها قطعه واحدة فوضعت وقدمت عليها الالوان الغريبة فقال المامون ماطعمت مثل هذا الطعام قط ثم دعت بالطشط والابريق فغسلا ايديهما ثم امرت بشراب فقدمت اليهما قناني الزجاج الشامية المرتفعة الصافية والبلور فيها شراب قد اتت عليه الاعوام والايام فهى تحكى الهواء لرقتها والياقوت لحمرتها والزنجبيل لحدتها ووضعت بين ايديهما مع اقداح وانطال تشا كل ذلك فقال المامون والله مارايت مثل هذا قط ثم اخرجت جاريتين عليهما ثياب الوشي الكوفى المنسوج بالذهب وعلى رؤسهما مقانع رشيدية وتيجان الذهب مكللة بالجوهر فجلستا وفى حجرهما العيدان المبسوطة الموزونة فحركتا الاوتار وغنتا بصوت شجى مليح من انواع الاغانى وغرائب الاصوات فقال المامون هذه الجنة بما ترى فيها من غرائب الطيب والجوهر فقال يحيى وقد بقى لنا ياامير المؤمنين شرط آخر فقال وما هو يايحيى قال الصيد ياامير المؤمنين قال قد صدقت يايحيى ثم قال ياحمنة مافعل الصيد فقالت قوما اليه فقام المامون ويحيى حتى دخل بستانا لم يرى مثله وقد كانت زينت البستان باحسن مايقدر عليه واتخذت فيه الوان الطيور من الفاخت والقمري والهزاز والطواويس فكانت الاطيار تغنى من روس الاشجار وتغرد بالسر والاجهار وكانت قد زينت مائة جارية نواهدا بكار بطرر وشعور وخدود ومباسم ساطعات الانوار ترى كل واحدة منهن ابهى من صاحبتها واحسن وعليهن من الوان الثياب مايعجز عنـه الوصف وفى وسطهن مناطق الذهب الاحمر وتقدمت اليهن وقالت لهن اذا رايتن المامون ويحيى تهادين ما بين الاشجار فلما دخل المامون ويحيى البستان فعلن ما كانت امرتهن فتضاعف السرور على المامون ثم قال يحيى مارأيك فى هذا الصيد ياامير المؤمنين فقال المامون لوكان انا كلب لاصطدنا هولاء فقال يحيى انا كلبك ياامير المؤمنين فعدا المامون ويحيى فاصطادا منهن صبية فقالت حمنة سالتك بحق اجدادك الا ماخليت عن الجوارى لابخل ابخل بهن عليك وقد فهمت المعنى فيه وقد كانت حمنة تغار على المامون فخلى عن الجوارى وقال ليحيى دونك والصيد اذن انت محل فقال يحيى لو كان لى كلب لاصطدت من هولاء فقال المامون انا كلبك فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الارض وعدا خلفهن فاخذ منهن خمسة فقالت حمنة يايحيى لك الخمسة ولا غيرة لى عليك وانما اغار على المامون لحاجتى اليه فقال يحيى

والله ياامير المؤمنين لقد رايت الهوى الغالب فى حماليق عينيها ولا تم لنا النعمة الا بتز و يحك اياها ان رايت ذلك فقال المامون انا برىء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنتصف من جدى العباس ان ذهبت من البستان ولم اتزوجها ثم قال يايحيى وخطب خطبة النكاح فخطب يحيى وامهرها المامون الف الف دينار واقطعها مائة من منتخبات الضياع فحمدت حمنة الله سرورا بما ظفرت به من تزويج المامون اياها وأمرت ليحيى بعشرة الف دينار و رجع المامون الى منزله و زفت اليه فى تلك الليلة فواقعها فحملت بالعباس ابنه انتهى (وحكى) ان المامون خرج يوما على زبيدة ام الامين فرأها تحرك شفتيها بشىء لا يفهمه فقال لها يا اماه اتدعين على لكونى قتلت ابنك وسلبته ملكه فقال والله ياامير المؤمنين قال فما الذى قلتيه قالت يعفنى امير المؤمنين فالح عليها وقال لا بد أن تقوليه قالت له قلت قبح الله اللجاجة قال وكيف ذلك قالت لانى لعبت يوما مع امير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا فغلبنى فامرنى ان اتجرد من اثوابى واطوف القصر عريانة فاستعفيته و بذلت له اموالا لا تحصى فلم يعف عنى فتجردت من اثوابى وطفت القصر عريانة وانا حنقة عليه ثم عاودنا للعب فغلبته فامرته ان يذهب الى المطبخ و يطا اقبح جارية واشوهها خلقة فاستعفانى عن ذلك فلم اعفه فنزل لى عن خراج مصر والعراق فابيت وقلت والله لتطانها فالححت عليه واخذت بيده وجئت به الى المطبخ فلم ار جارية اقبح ولا اقذر ولا اشوه خلقة من امك مراجل فامرته ان يطاها فوطئها فعلقت منك بك فكنت سببا لقتل ولدى وسلبه ملكه فولى المامون وهو يقول قاتل الله اللجاجة اى التى لحبها عليها حتى اخبرته بهذا الخبر انتهى (و روى) عن عامر القهروى عن اشياخه قال أمر المامون ان يحمل اليه من اهل البصرة عشرة رجال كانوا قد رموا عنده بالزندقة فحملوا اليه فرءاهم طفيلى فراهم مجتمعين فظن خيرا ومضى معهم الى الساحل وقال ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة فانسل ودخل الزروق وقال لا شك انها نزهة فلم يكن الا يسير وقد قيد القوم وقيد معهم فعلم انه وقع فيما لا طاقة له به ورام الخلاص فلم يقدر وساروا الى ان وصلوا الى بغداد وادخلوا على المامون فاستدعى بهم باسمائهم واحد بعد واحد وجعل يذكره بفعله و يقوله و يضرب عنقه حتى لم يبق الا الطفيلى وفرغت العشرة فقال المامون للموكل من هذا فقال لا اعلم ياامير المؤمنين غير انا رايناه معهم فجئنا به فقال ياامير المؤمنين

امراته طالق ان كان يعرف من احوالهم شيئاً ولا يعرف غير لا اله الا الله محمد رسول الله وانما رايتهم مجتمعين فظننت انها وليمة يدعون اليها فلحقت بهم فضحك المامون وقال اوقد بلغ من شؤم التطفل ان يحل بصاحبه هذا المحل قد سلم هذا الجاهل من القتل ولكن يؤدب حتى لا يعود الى مثلها وكان ابراهيم بن المهدى حاضرا فقال يا امير المؤمنين هبه لى وانا احدثك عن نفسي فيما وقع لى فى التطفل من العجب فقال وهبته لك هات حديثك فقال يا امير المؤمنين خرجت متنكرا يوما انظر الى سكك بغداد فاستهوى بى الطرب والتفرج فانتهى بى المسير الى موضع شممت فيه رائحة طعام وابازير قد فاحت وهفت نفسى اليها و وقفت يا امير المؤمنين لا اقدر على المشى فرفعت بصرى واذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رايت احسن منه فبقيت حائرا ونسيت رائحة الطعام لذلك الكف فاخذت فى عمل الحيلة الى الوصول اليها فاذا بجانب المكان خياط فسلمت عليه فرد على السلام فقلت يا سيدى لمن هذه الدار فقال لرجل من البزازين فقلت ما اسمه فقال فلان قلت هو ممن يشرب الخمر قال نعم واظن ان عنده اليوم أصحاب تجار مثله فبينما نحن فى الكلام اذاقبل رجلان فقال لى هذان ندماؤه فقلت له ما اسمهما وما كنيتهما فقال لى فلان الفلانى وفلان الفلانى فحركت وراءها رجلى فلحقتهما فقلت جعلت فداءكما استبطأكما فلان اعزه الله ولم ازل معهما حتى اتيت البيت فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب البيت بينهما لم يشك فى انى معهما فرحب بى واجلسنى فى افضل الاماكن ثم جيء بالمائده ونقلت اليها الالوان فقلت فى نفسى هذه الالوان قد من الله على ببلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ثم جيء بالماء فغسلنا ايدينا ثم نقلنا الى مجلس المنادمة فاذا شكل مليح ما رايت احسن منه ولا أظرف ورايت صاحب المكان يتلطف بى و يقبل على لظنه انى ضيف لاضيافة وهم على الحالة هذه الى ان شربنا فخرجت علينا جارية كانها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت من غير خجل ولا احتشام وجلست واتى بعود فجسته احسن جس واذا هى حاذقة فى الصناعه وغنت تقول

توهمها فكرى فاصبح خدها وفيه مكان الوهم من نظرى اثر
وصافحها كفى فالم كفها فمن ضم كفى فى اناملها عقر

فهيجت يا امير المؤمنين بابالى فطربت لحسن شعرها وحذقها ثم غنت تقول

اشرت الى اهل عرفت مودتي ... فردت بطرف العين انى على العهد
فحادت عن الاظهار عمدا بسرها ... وحادت عن الاظهار ايضا على عمد

فحسدتها يا امير المؤمنين على حذاقتها واصابتها معنى الشعر فضحكت لما اصابني من الطرب الذى لم املك نفسي معه ثم غنت تقول

أليس عجيباً ان بيتاً يضمنا ... واياك لا تلهو ولا تتكلم
سوى اعين تبدى سرائر انفس ... وتقطيع انفاس على النار تضرم
اشارة افواه وغمز حواجب ... وتكسير اجفان وكف يسلم

فزاد حسدي لها يا امير المؤمنين على حذاقتها واصابتها معنى الشعر لانها لم تخرج عن المعنى وقلت بقى عليك يا جارية شيء فرمت العود من يدها وقالت متى كنتم تحضرون الغناء فندمت على ما كان مني ورايت القوم كانهم قد انكروا على فقلت في نفسي فاتني جميع ما املت واحببت ان اتلافى قضيتي فقلت اثم عود غير هذا قالوا نعم فاحضروا عودا فاصلحت ما اردت اصلاحه ثم قلت

ما للمنازل لا تجيب حزينا ... أصممن ام قدم المدى فبلينا

فما أتممت شعري حتى وثبت الجارية الى وانكبت على يدي تقبلها وتقول المعذرة اليك يا سيدي والله ما علمت مكانك ولا سمعت بهذه الصناعة من احد ثم زادوا اكرامي وطربوا غاية الطرب فشربت عدة اقداح ثم غنيتهم ابياتا فرايت من طربهم شيئاً عظيما حتى قلت ان ارواحهم فارقت ابدانهم فسكت ساعة حتى تراجعوا الى عقولهم وقلت

هذا محبك مطوى على كمده ... وجدا وأدمعه تجرى على جسده
له يد تسال الرحمن راحته ... مما به واليد الاخرى على كبده
يا من رى كلفا في حبه دنفاً ... كانت منيته في عينه ويده

قال فجعلت الجارية تصيح وتقول هذا والله الغناء والذى كنا فيه ليس بشيء وشرب القوم فلما جاءهم البسط واخذ المجلس منتهاه امر صاحب البيت عبدين له ان يحفظا النديمين الى منزلهما وخلوت معه فقال والله يا سيدي ذهب ما مضى من عمري باطلا حيث لم اعرفك قبل يومي هذا فبالله يا مولاى من انت فجعلت اردعليه وهو يقول ويقسم على حتى اعلمته من انا على الحقيقة فلما سمع ذلك قام على قدميه وقال عجيب ان تكون هذه المكارم الا لمثلك وقد اصابني من الدهر نعم لا اقوم بشكرها ثم قال اترى هذا يقظة ام منام اقسمت انى لا ازال هذه الليلة قائما الى ان تاذن لى فانى

احقر من ان اجالس الملوك فاقسمت عليه بان يجلس ثم اخذ فى الكلام وجعل يعرض على السبب الذى اوجب حضورى عنده بالطف تعريض فاخبرته بامرى على الحقيقة ولم اخفه شيئا ثم قلت له الطعام قد نلت منه بغيتى و بقى الامر الاخر فوثب الى باب القاعة وقال كل منكن تلبس افخر ثيابها وتخرج علينا من المخدع ثم استدعى بهن وجعل يقول يافلانة وهن يخرجن واحدة بعد واحدة وانا لا ارى صاحبة الكف والمعصم الى ان انت ار بعون امرأة فقال والله ما بقى الا اختى وها انا مخرجها اليك فقلت افعل فقال حبا وكرامة ثم استدعاها فنزلت فرايت يدها ومعصمها فاذاهى التى رايتها قلت هذه الحاجة فامر غلمانه لوقته ان ياتوا بعشرة شهود ثم قام واخرج عشرين الف درهم والفا اخرى فلما حضروا قال لهم هذا سيدى ابراهيم بن المهدى يخطب اختى فلانة واشهدكم انى قد زوجتها له وامهرتها عنه عشرين الف درهم فقلت قبلت الزواج ثم دفع الالف دينار التى كان اخرجها لهم فشكروه ودعوا وانصرفوا ثم قال ياسيدى امهد لك بعض البيوت لتنام مع اهلك فاعجبنى ما كان من كرمه واستحييت ان ادخل بها فى داره فقلت له بل اجعلها فى عمارية واحملها الى منزلى فوحقك ياامير المؤمنين لقد حمل معها من الفرش والاثاث ماضاقت به بيوتنا فاولدتها هذا الغلام القائم بين يديك ياامير المؤمنين فتعجب المامون من كرم الرجل وقال لله دره ما اكرمه والله ماسمعت بمثله قط ثم اطلق الطفيلى وامر باحضار الرجل واستنطقه فاعجبه حسن منطقه وعقله وادبه فصيره من جملة خواصه ومنادميه والله اعلم

(ذكر خلافة ابراهيم المعتصم بن هرون الرشيد)

هو ثامن خلفاء بنى العباس وكان شديد القوة ما كان فى بنى العباس مثله فى القوة والشجاعة والاقدام (قيل) انه اصبح ذات يوم وكان برده شديدا وثلجه عنيدا فلم يقدر احد على اخراج يده ولا امساك قوسه فاوتر المعتصم فى ذلك اليوم اربعة آلاف قوس وكان يدعى المثمن وانشد ابو تمام حبيب بن أوس الطائى يمتدحه

ان جس عودا رايت الخيل راقصة ... كانها من سماع هزها امم
اوحركت يده اليمنى له وترا ... على اعاديه غنى البوم والرخم

كان يقول بخلق القران وضرب على ذلك احمد بن حنبل على ان يقول ذلك فلم يقل وله معه كلام طويل فانظره فى حياة الحيوان (ومن لطائف الحكايات) ماروى عن

احمد بن داؤد القاضى انه قال جيء بتميم بن جميل الى المعتصم اسيرا وكان قدخرج عليه فما رايت رجلا عرض عليه الموت فلم يكترث بهسواه ثم دعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه نظر اليه فاعجبه حسنه وقده ومشيه الى الموت غيرمكترث فاطال الفكر فيه ثم كلمه لينظر اين عقله ولسانه من جماله فقال ياتميم ان كان لك عذر فات به فقال أما اذا اذن اميرالمؤمنين فى الكلام فانى اقول (الحمد لله الذى أحسن كل شيء خلقه و بدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) ياامير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث المسلمين واخمد بك نارالباطل وأنار بك سبل الحق ان الذنوب تخرس الالسنة وتصدع القلوب وأيم الله لقدعظمت الجريمة وانقطعت الحجة وساء الظن الا فيك وهو أشبه بك واليق ثم انشد يقول

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ... يلاحظنى من حيث لا اتلفت
وأكبر ظنى انك اليوم قاتلى ... وأى امرىء مما قضا الله يفلت
ومن ذا الذى يأتى بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الاوس بن تغلب موقف ... يسل على السيف فيه و يصمت
وما جزعى من ان اموت وانى ... لاعلم ان الموت شيء مؤقت
ولكن خلفى صبية قد تركتهم ... وا كبادهم من حسرة تتفتت
كانى اراهم حين انعى اليهم ... وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا فى سرور ونعمة ... اذود الردى عنهم وان مت موتوا
فكم قائل لايبعد الله داره ... وآخر جذلان يسر و يشمت

قال فبكى المعتصم ثم قال ان من البيان لسحر كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ياتميم كاد والله ان يسبق السيف العذل قدغفرت لك الهفوة و وهبتك للصبية ثم عقد له ولاية على عمله واعطاه خمسين الف دينار (وذكر) صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغنى قال تطفلت تطفيلة قامت على امير المؤمنين المعتصم بتسعين الف درهم قيل له وكيف ذلك قال شربت معه ليلة الى الصبح فلما اصبحنا قلت له ياامير المؤمنين ان رايت ان اخرج الى الرصافة فاتنسم الى وقت انتباه اميرالمؤمنين قال نعم فامر البوابين ان يتركونى فخرجت امشى فى الرصافة واذا بجارية كان الشمس تشرقه من جبينها فتبعتها ورايت معها زنبيلا فوقفت على فاكهانى واشترت سفرجلة بدرهم

وانصرفت فتبعتها فالتفتت فرأتني فقالت يا ابن الفاعلة الى اين قلت خلفك ياسيدتي فقالت ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك احد فيقتلك فتأخرت ومشيت ومشت امامي ثم التفتت فرأتني فشتمتني شتما قبيحا ثم جاءت الى دار كبير فدخلت فيها وجلست انا عند الباب وقد ذهب عقلي ونزلت على الشمس وكان يوما حارا فلم ألبث أن جاء فتيان كانهما بدران على حمارين فلما وصلا الى الباب أذن لهما فدخلا ودخلت معهما فظنا ان صاحب المنزل قد دعاني وجيء بالطعام فاكلنا وغسلنا ايدينا فقال لنا صاحب المنزل هل لكم في فلانة فقالوا ان تفضلت قال فاستدعى بتلك الجارية فخرجت فاذا هي صاحبتي وورائها وصيفة تحمل عودها فوضعته في حجرها فغنت وشربوا وطربوا وهي تلاحظني وتشك في فقالوا لمن هذا الصوت فقالت لسيدي مخارق فلم ألبث ان قلت يا جارية شدي يدك فشدت اوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه قال فاستدعيت بدورة وقضيب وغنيت الصوت الذي قالته الجارية فقاموا إلي وقبلوا رأسي قال وكان مخارق من أحسن الناس صوتاً وكان يوقع بالقضيب توقيعاً عجيبا قال ثم غنيت الصوت الثاني والثالث فكادت عقولهم تطير فقالوا بالله من أنت يا سيدي فقلت مخارق فقالوا وما سبب مجيئك قلت طفيلي اصلح الله شانكم واخبرتهم بخبري فقال صاحب البيت لصديقيه اما تعلمون اني اعطيت في هذه الجارية ثلاثين الف درهم فامتنعت من بيعها قالا نعم قال هي له فقال صديقاه علينا عشرون الف درهم وعليك عشرة آلاف قال مخارق فملكوني الجارية وجلست عندهم الى العصر وانصرفت بها وكلما مررت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول يامولاتي اعيدي كلامك فتستحي مني فاحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلت الى أمير المؤمنين فقيل لي انه انتبه فطلبك في منازل ابناء القواد فلم يجدك وتغيظ غيظا شديدا فدخلت عليه ويدي في يدها فلما رآني سبني وشتمني فقلت يا امير المؤمنين لا تعجل وحدثته الحديث فضحك وقال نحن نكافئهم عنك فاحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين الف درهم والله أعلم انتهى (حكاية غريبة عن محلها) قال الاصمعي دعاني بعض العرب الكرام الى قرى الطعام فخرجت معه الى البرية فاتوا بباطية باذنين وعليها السمن غارق فجلسنا للاكل واذا باعرابي ينسف الارض نسفاً حتى جلس من غير نداء فجعل يا كل والسمن يسيل على كراعه فقلت لاضحكن الحاضرين عليه

كانك أثلة فى ارض هش   أتاها وابل من بعد رش

فالتفت الى بعين مبحلقة وقال لى الكلام اتى والجواب ذكر وانت

كانك بعرة فى است كبش   مدلاة وذاك الكبش يمشى

فقلت له هل تعرف شيئا من الشعر او ترويه فقال كيف لااقول الشعر وانا أمه وأبوه فقلت ان عندى قافية تحتاج الى غطاء فقال هات ماعندك فغطست فى بحور الاشعار فما وجدت قافية أصعب من الواو المجزومة فقلت

قوم بنجد قدعهدناهم   سقاهم الله من النو

قلت أتدرى النوماذا فقال :نو تلالا فى دجا ليلة   حالكة مظلمة لو

فقلت له لو ماذا فقال :   لو سار فيها فارس لانثنى   على بساط الارض منطو

فقلت له منطو ماذا فقال :   منطوى الكشح هضيم الحشا   كالباز ينقض من الجو معلو

فقلت له الجو ماذا فقال :   جو السماء والريح تعلو به   أشم ريح الارض فاعلو

فقلت فاعلو ماذا فقال :   فاعلو لما عيل من صبرة   فصار نحو القوم ينعو

فقلت ينعو ماذا فقال :   ينعو رحالا للفتى شرعت   كفيت مالاقوا ومايلقو

(قال) فعلمت انه لاشىء بعد الفناء ولكن اردت ان أثقل عليه فقلت له و يلقوا ماذا فقال

ان كنت ماتفهم ماقلته   فانت عندى رجل بو

فقلت له البو ماذا فقال البو سلخ قد حشى جلده   بالف قرنان تقول أو

فقلت او ماذا فقال   أو اضرب الرأس بصوانة   تقول فى ضربتها قو

فخفت ان أقول قو ماذا فيضربنى ويكون البيت فقلت له أنت ضيفى الليلة فقال لايابى الكرامة الا لئيم فقلت لزوجتى اصنعى لى دجاجة ففعلت فاتيته بها وجئته أنا وزوجتى وابناى وابنتاى وقلت له فرق يا بدوى فقال الراس للراس واعطانى الراس وقال الولدان جناحان لهما الجناحان والبنتان لهما الرجلان والمرأة لها العجز وأنا زائر لى الزور واكل الدجاجة ونحن ننظر اليه و بتنا نتحدث فلما أصبحنا قلت لزوجتى اصنعى لى خمس دجاجات ففعلت واتيته بالدجاج وقلت له اقسم يا بدوى فقال تريد شفعا او وترا فقلت ان الله وتر يحب الوتر فقال كانك تريد بالفرد فقلت نعم فقال أنت وزوجتك دجاجة وابناك دجاجة وابنتاك دجاجة وانا دجاجتان فقلت لاارضى بهذه القسمة فقال كانك تريد شفعا فقلت نعم فقال انت و ولداك

دجاجة وزوجتك وابنتاها دجاجة وانا ثلاث دجاجات والله لأحول عن هذه القسمة قال الاصمعي فغلبني مرتين مرة في الشعر ومرة في الدجاج ثم انصرف انتهى.

(خلافة أمير المؤمنين الواثق بالله تعالى)

قال ابنه محمد الذي يقال له المهتدي بالله كان أبي الواثق بالله اذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا في ذلك المجلس فبينما نحن عنده اذ أتي بشيخ مقيد فقال ائذنوا لأبي عبدالله يعني ابن أبي دؤاد وأصحابه وأدخل الشيخ مقيدا فقال السلام عليك يا امير المؤمنين فقال لاسلم الله عليك فقال الشيخ يا امير المؤمنين بئسما أدبك المؤدب قال الله تعالى واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها وأنت والله ماحييتني بها ولا بأحسن منها فقال ابن أبي دواد يا أمير المومنين الرجل متكلم فقال الواثق كلمه فقال للشيخ ماتقول في القرآن فقال الشيخ لم تسالني ولي السؤال أسأله فقال الامير سله فقال الشيخ لابن ابي دؤاد ماتقول في القرآن فقال مخلوق فقال الشيخ هذا شيء علمه النبي وابو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الراشدون أم شيء لا يعلمونه فقال لا يعلمونه فقال سبحان الله شيء لا يعلمه النبي ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الصحابة ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت قال فخجل وقال أقلني فقال قد فعلت والمسئلة بحالها قال نعم قال ماتقول في القرآن فقال مخلوق قال هذا شيء علمه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم والخلفاء الراشدون ام لم يعلموه قال علموه ولم يدعو الناس اليه قال أفلا وسعك ماوسعهم قال ثم قام ابي فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع احدى رجليه على الأخرى وهو يقول هذا شيء لم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت سبحان الله انتهى (فائدة) روى الدارقطني وشيخه والحاكم وابن عدي عن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان في محفل من اصحابه اذ جاء اعرابي من بني سليم قد اصطاد ضبا وجعله في كمه ليذهب به الى رحله فرأى جماعة محتفلين بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال على من هؤلاء قالوا على الذي يزعم انه نبي فاتاه فقال يا احمد مااشتملت النساء على ذي لهجة اكذب منك ولولا ان تسميني العرب عجولا لقتلتك فسررت بقتلك الناس أجمعين فقال عمر يارسول الله دعني أقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما علمت ان الحليم

كادان يكون نبياً ثم أقبل الاعرابى على رسول الله صلى عليه وسلم فقال واللات والعزى ولا آمنت بك حتى يؤمن بك هـذا الضب وأخرج الضب من كمه وطرحه بين يدى رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياضب فتكلم الضب بلسان فصيح عربى صريح يفهمـه القوم جميعاً فقال لبيك وسعديك يارسول رب العالمين فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم من تعبد قال الذى فى السماء عرشه وفى الارض سلطانه وفى البحر سبيله وفى الجنة رحمته وفى النار عذابه قال فمن انا ياضب قال انت رسول رب العالمين وخاتم النبيين قد افلح من صدقك وخاب من كذبك فقال الاعرابى أشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله حقاً والله لقد أتيتك وما على وجه الارض أبغض منى اليـك والله لأنت الساعـة أحب إلى من نفسى ومن ولدى فقـد آمن بك شعرى وبشرى وداخلى وخارجى وسرى وعلانيتى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى هداك الى هـذا الدين الذى يعلو ولا يعلى عليه ولا يقبله الله تعالى الا بصلاة ولا يقبل الصلاة الا بقراءة قال فعلمنى فعلمه النبى صلى الله عليه وسلم الحمـد لله وقل هو الله احـد فقال يارسول الله ماسمعت فى البسيط ولا فى الرجز احسن من هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذا من كلام رب العالمين وليس بشعر اذا قرأت قل هو الله أحـد ثلاثا اوقال ثلاث مرات فكأنك قرأت القرآن كله فقال الاعرابى إن إلهنا يقبل اليسير و يعطى الكثير انتهى باختصار من حياة الحيوان الكبرى (و وقف) رجل على الواثق فقال ياامير المؤمنين صل رحمك وارحم اقاربك وارحم رجـلا من اهلك فقال الواثق من أنت فانى لا أعرفك قبل اليوم قال ابن جدك آدم فقال ياغلام اعطه درهما فقال ياأمير المؤمنين وما أصنع بالدرهـم قال أرأيت لو قسمت المال بين إخوتك أولاد جـدى أكاد ينوبك منـه حبـه فقال لله درك ما ازكى فهمك فامر له بعطاء وانصرف مكرماً

(خلافة المتوكل على الله تعالى)

(حكى) أن أبو القاسم على بن محمد الذهبى عن أبى عبـد الله النحوى قال لما حج محمد بن عبد الله بن طاهر رأى فى الطواف جارية فى نهاية الحسن فسال عنها فقيـل انها لرجل من الأدباء قدر واها الأشعار والاخبار والنحو والعروض وقـد احسنت ضرب العود وطريق الغناء فاشتراها بمائة الف درهم فلما قدم بها مدينة دار السلام

شغف بها شغفا شديداً واخفى امرها وما يجده منها تخوفا من امير المؤمنين المتوكل وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها اياما لا يظهر للناس فيظنون انه زمن وأمره معها مستو رفقطن به سويد بن أبى العالية صاحب البريد وكان بينه وبين محمد منافرة فلم يجد سوى مايكيده به الا أن كتب الى المتوكل وهو نازل على ار بعة فراسخ من بغداد كتابا نسخته . بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد يا امير المؤمنين فان محمد بن عبد الله اشترى جارية بمائة الف درهم فهو يصطبح معها و يقضى زمانه كله معها وقد اشتغل بها عن النظر فى امور المسلمين وعن التوقيع فى قصص المظلومين ولا يأمن امير المؤمنين ان تخرب له بغداد مع كثرة مافيها من الغوغاء فيتعب امير المؤمنين فى اصلاحها وقد انهى المملوك ذلك الى امير المؤمنين ايده الله وهو أعلى رأيا والسلام عليه و رحمة الله و بركاته قال فلما قرأ المتوكل الكتاب رفع رأسه الى نرجس الخادم وقال له امض الساعة الى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل عليه داره بغتة من غير اذن وانظر الى مايصنع ثم خذ منه جاريته فلانة وائت بها من غير تاخير فمضى نرجس من ساعته وكان محمد قد اصطبح معها فى ذلك اليوم فدخل عليهما نرجس من غير استئذان فلم يشعر محمد الا وهو واقف عليه فتغير وجهه وانقطع لونه وفاضت عيناه وارتعدت فرائصه لعلمه ان نرجسا مادخل عليه من غير اذن الا وقد اضمر له السوء فقال له يانرجس ماالذى اقدمك قال امير المؤمنين امرنى ان آخذ جاريتك هذه قال يانرجس هذا يوم قد حضر شره وغاب خيره وقد ترى مانحن فيه وانا لا أخالف ماأمر به امير المؤمنين ثم امر الخادم بكرسى فجلس عليه بعد ان امتنع ساعة وقال ان مثلى لا يجلس مع مثلك ثم ان محمداً نظر الى الجارية و بكى بكاء شديداً وقال لها غنى لا نزود منك فاخذت العود وغنت بصوت حزين تقول

لله من لمعذبين رماهما	بشماتة العذال والحساد
اما الرحيل فحين جد تحملت	مهج النفوس به من الاجساد
من لم يبت والبين يصدع شمله	لم يدر كيف تفتت الاكباد

ثم انهما اعلنا بالبكاء والنحيب والشهيق فرحمهما الخادم ورق لهما ثم عاين ماحل بهما فقال ايها الامير ان اردت ان امضى وادعكما على ما انتما عليه واتعلل عنكما لامير المؤمنين فعلت فقال يانرجس من خلفه مثل ابى سويد كيف يمكنه التعلل

ولكن ارتفق بنا فقالت الجارية والله ياسيدى لاملكنى غيرك ابداولئن دفعتنى اليه لاقتلن نفسى فقال لها محمد لوكان غير امير المؤمنين لكان فى ذلك اوسع حيلة ولقد وددت ان ياخذ منى امير المؤمنين جميع ما املك و يعزلنى عن عملى و يبقيك على ولكن هذا قضاء الله وقدره ثم التفت الى نرجس وقال لقد شاهدت منى ومن هذه الجارية ماشهد قلبك علينا بالمحبة والمودة والالفة وليس يخفى عن علمك ان صنائع المعروف تقى مصارع السوء ومثلك من يصنع المعروف مع مثلى فخذها وامض بها الى امير المؤمنين وقل ما شئت مما يليق بمروءتك ثم التفت اليها وقبلها و بكى و بكت وبكى نرجس ثم اخذها وخرج وهى تبكى وتخمش خدها ووجهها ثم حملها نرجس على بغلة امير المؤمنين وسارحتى دخل على المتوكل فلما رآه قال ما وراءك يا نرجس قال و رائى ياامير المؤمنين كل بلية ثم انه جلس بين يديه وقص عليه حالهما ولم يخف شيئاً فقال المتوكل وكل هذا الوجد بجده محمد من هذه الجاريه فقال ياأمير المؤمنين والذى خفى أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها فرق عليه قلب المتوكل وقال يانرجس ارجع بها الساعة اليه من وقتك هذا وأدركه قبل أن تزهق روحه وقد أمرت له بمائة الف درهم ولها مع ذلك مثله وجعلت أمر ابى سويد اليه يصنع به مايشاء ثم كتب له توقيعا بذلك ودفعه الى نرجس فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخل عليه فوجده عريانا يتقلب على حصر سامان من شدة الكرب والوجد وقد أحدقت به الجوارى يروحنه بالمراوح فقال ابشر يامحمد ان امير المؤمنين قد رد جاريتك عليك من غير أن يوقع نظره عليها وقد حكمك فى ابى سويد ثم ناوله التوقيع بذلك ودخلت الجارية عليه فوثب اليها وعانقها وقبلها ساعة ثم خرج فجلس على باب داره و بعث الى ابى سويد فلما حضر دفع اليه التوقيع فلما قرأه قال اعوذ برضاك من سخطك و بعفوك من عقوبتك وان تهدم منى ركنا انت شيدته وانت صنيعة اصطنعتها الى مثلى فمثلى من هفا ومثلك من عفا ثم قام فقبل البساط فقال له محمد لا ابدل نعمة الله كفراً ثم امر له بخمسين الف درهم فقالت الجارية وانا ايضا اهب له خمسين الف درهم مما وهبه لى امير المؤمنين شكرا لله تعالى على ذلك ثم اقره على ما كان عليه وأمر ان يحمل المال بين يديه الى منزله و رجع محمد والجارية الى ما كان عليه فى اطيب عيش واحسن حال متظاهرين بذلك غير مستترين

(خلافة امير المؤمنين المعتصم بالله أحمد)

كان يسمى السفاح الثاني لانه جدد ملك بني العباس بعد أن أحلقته الاتراك واذلته وفي ذلك يقول علي بن العباس الرومي

كما بابي العباس انشيء ملككم   كذا بابي العباس أيضاً يجدد

(ولقد اتفق) في أيامه على ماحكي امر فظيع كشفه الله له بهيبته في نفوس الناس فانه كان لا يتجرأ احدهم ان يكتم مافي نفسه مخافة صولته لانه كان لشدة حذقه يتخيل لهم انه يعلم مافي نفس الانسان من الضمير فاتفق ان احد وزرائه واكبر قواده بنى بناء عاليا مشرفا على منازل جيرانه فلم يعارضه أحد فيه من جيرانه لمكانته من سلطانه وعزه وكان يجلس كثيراً في ذلك البناء فرأى يوما من الايام في داره من دور جيرانه جارية بارعة الجمال فولع بها فسال عنها فاخبرانها بنت احد التجار فارسل الى والدها خاطبا فقال له ابوها وكان من اهل اليسار ليس أزوجها الامن تاجر مثلي فانه ان تزوجها من هو مثلي لم يظلمها وان ظلمها قدرت على النصفة منه وانت ان ظلمتها لم اقدر لها على النصفة منك ولا على الحيلة لنصرتها فلم يزل يرومه في ذلك بكل امر وتوسط اليه بالاكابر والاماثل من الناس وهو مع ذلك يمتنع فلما يئس منه ان يجيبه شكا الى احد خواصه فقال له الف مثقال يقوم لك هذا فقال كيف ذلك والله لو علمت اني انفق عليها مائتي الف مثقال اواكثر وتاتيني بها لفعلت قال له عليك ان تحضر لي الف دينار فامر باحضارها فمشى بها ذلك الرجل الى عشرة رجال كانوا عدولا عند القاضي في شهادتهم وذكر لهم الامر وقال هذا امر ليس عليكم من الله فيه تبعة فانه يصدقها كذا وكذا الفاً واغلى لهم المهر وانكم تحيون نفسا اشرفت على الهلاك ويكون لكم عنده مع هذا من الجاه ماترغبون وابوها انما هو عاضل لها في الزواج والا فما يمنعه من ذلك وقد خطبها مثل فلان في جلالة قدره ومكانة امره وقد اعطاه صداقاً لا يعطى الالبنت ملك ثم هو مع هذا يابى هل هذا الاعضل بين ولكن لكم الف مثقال لكل واحد منكم مائة وتشهدون انه قد زوجها منه فانه اذا علم ابوها بانكم قد شهدتم عليه رجع الى هذا اذليس فيه الا الخير والخيرة فاخذ الشهود كل واحد منهم مائة وشهدوا ان اباها زوجها على صداق مبلغه كذا ورفعوا في الصداق الى غاية ماترفع اليه صدقات الملوك فلما علم ابوها بذلك زاد نفارا واباء فمشى

الوزير وذلك القائد الى القاضي وقال انى تزوجت فلانة بنت فلان على هذا الصداق وهؤلاء شهدوا عليه ثم قد ناكرني وانكر الشهود وقد اردت ان ادفع له حق ابنته وآخذها فامر القاضي باحضار الشهود فشهدوا عنده واحضر مال النقد بين يدى القاضي والرجل على انكاره تماديا فامر القاضي بامضاء الحكم عليه وان تؤخذ ابنته منه احب أو كره وامر بحمل المال اليه فلما وصلت الجارية عند الوزير لم يزل ابوها يروم الوصول الى المعتصم وكان المعتصم غليظ الحجاب لا يصل اليه احد من غير الخاصة فقيل للرجل انه يحضر كل يوم ساعة من النهار على بنيان له بقصره فان استطعت ان تكون مع جملة رجال الخدمه تصل اليه وتكلمه بما اردت ففعل الرجل ذلك وغير شكله ودخل في جملة رجال الخدمه للبناء فلما كان ذلك الوقت الذى كانت عادة امير المومنين المعتصم يقف فيه على ذلك البناء خرج ذلك الرجل فترامى الى الارض وجعل يحثو التراب على راسه ويستغيث فساله عن شانه فقص عليه القصه فارسل المعتصم في ذلك المقام خلف ذلك القائد واغلظ عليه في القول فحملته هيبته له وقلة اقدامه على الكذب عليه ان وصف له الصورة على ما كانت عليه وهو يطمع ان يعذره في ذلك اذ قد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها وامر باحضار الشهود فصنعوا مثل صنيع صاحبهم وذلك كله رهبة له وإجلالا ان يخاطبوه بكذب مع تخيلهم انه يصفح لهم عن هذه الذلة اذ قد ارادوا إحياء نفس ذلك الوزير وايضاً قد دفع له بين يدى القاضي نقدا لا يكون إلا في صدقات الملوك وقد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها فكانه قد اخذها بحقها او باكثر من حقها فلما تحققت عنده جلية الخبر امر ان يصلب كل شاهد منهم على باب داره وان يوضع ذلك الوزير في جلد ثور طرى السلخ ويضرب بالمرازب حتى يختلط عظمه ولحمه بدمه ثم امر به لما صنع به ذلك ان يفرغ بين يدى ثور كانت عنده فلما لعقت تلك الثور ذلك الدم امر الرجل ابا البنت ان ياخذ ابنته وياخذ كل ما ذكروا لها على ذلك الوزير في صداقها من عقار ودور ومال ثم مات المعتصم وولى ابنه المقتدر وكان صبياً صغير السن فعادت الاتراك الى ما كانت عليه من ذلك والله اعلم

(ويحكى) ان بعض الملوك ارسل رجلا من بطانته الى بعض الجهات ليعرف خبر عاملها وبظالمه باخبار الرعيه فلما وصل الرجل فطن له العامل فارسل اليه بمال وتحف

ثم قال عرفت ماجئت له وانا راغب اليك بكتاب تكتبه الى الملك تذكر فيه انى حسن السيرة وسالك طريق العدل فان انت فعلت ذلك فلك مني ماتشتهي رغبتك اليه من الخير والعطاء وان ابيت ذلك امرت الشرطيين ان ينهوا الى من امرك فى الملا مايوجب قتلك اما حداً وإما سياسة فاقتلك بحضر من قاضي البلد ووجوه الناس فتذهب كامس الماضي فلما لم يجد الرجل يداً من موافقته ولم يكن ليخونه مرسله كتب بحضرته كتابا الى الملك اما بعد اعز الله الملك واكرمه فانى قدمت الى مدينة كذا وكذا فوجدت العامل فلاناً آخذا بالحزم عاملا بالعزم قدساوى بين رعيته وعدل بينهم فى اقضيته وارضى بعضهم بعضاً وجعل طاعته عليهم فرضا وانزلهم منه منزلة الاولاد واذهب ما بينهم من الاحقاد واراحهم من السعي فى الدنيا وفرغهم للعمل فى الاخرى اغنى القاصد وارضى الوارد فجميع اهل عمله داعون للملك يودون النظر الى الكريم وجهه والسلام (فلما) وصل الكتاب منه الى الملك فكر فيه وقال لوزيره ان فلانا لم يكن عندي بتهم فان كتابه هذا يدل على ظلم العامل فالتمس لى رجلا يصلح لعمله فانى قد عزلته فقال الوزير اصلح الله الملك وكيف ذلك قال لان قوله اخذا بالحزم عاملا بالعزم اى انه خائف مني لما اعتمده فى الولاية واما قوله ساوى بين رعيته وعدل بينهم فى اقضيته فمعناه انه لم يخص احداً بظلمه بل الجميع سواء وقوله وارضى بعضهم بعضا اى ذهبت احقادهم لان الشدائد تذهب الاحقاد وقوله انزلهم منزلة الاولاد معناه اخذ اموالهم ورأى انها له اخذا من قوله صلى الله عليه وسلم انت ومالك لابيك وقوله واراحهم من السعي فى الدنيا معناه انه اخذ اموالهم ولم يترك مايسعون به ولا مابه يتجرون وقوله فرغهم للعمل فى الاخرى معناه انهم لزموا المساجد والعبادة لفقرهم وقوله اغنى القاصد وارضى الوداد فانه يعني نفسه اى أنه اعطاه مالا ليكتب الى بذلك واما قوله فجميع اهل عمله داعون لنا معناه أن يبصرنا الله بامرهم ونطلع على ماهم فيه وقوله يودون النظر لوجهنا اى يشكون الينا مالقوه منه ويستغيثون بنا ثم ان الملك طلب العامل واحضره الى بابه وانصف الناس منه ورد عليه ما كان ظلمهم فيه واقتص منه وقابله على فعله

(وهذه القصيدة الزينبية)

صرمت حبالك بعد وصلك زينب والدهر فيه تصرم وتقلب

نشرت ذوائبها التي تزهو بها ... سوداً و رأسك كالثغامة اشيب

واستنفرت لما راتك وطالما ... كانت تحن الى لقاك وترغب

وكذاك وصل الغانيات فانه ... آل ببلقعة و برق خلب

فدع الصبا فلقد عداك زمانه ... وازهد فعمرك مر منه الاطيب

ذهب الشباب فماله من عودة ... واتى المشيب فاين منه المهرب

دع عنك ماقد كان في زمن الصبا ... واذكر ذنوبك وابكها يامذنب

واذكر مناقشة الحساب فانه ... لابد يحصي ماجنيت ويكتب

لم ينسه الملكان حين نسيته ... بل اثبتاه وانت لاه تلعب

والروح فيك وديعة اودعتها ... ستردها بالرغم منك وتسلب

وغرور دنياك التي تسعى لها ... دار حقيقتها متاع يذهب

والليل فاعلم والنهار كلاهما ... انفاسنا فيها تعد وتحسب

وجميع ماخلفته وجمعته ... حقا يقيناً بعد موتك ينهب

تباً لدار لايدوم نعيمها ... ومشيدها عما قليل يخرب

فاسمع هديت نصيحة اولاكها ... بر نصوح للانام مجرب

صحب الزمان واهله مستبصرا ... ورأى الامور بما تؤوب وتعقب

لاتامن الدهر الخؤن فانه ... مازال قدما للرجال يؤدب

وعواقب الايام في لذاتها ... غصص يذل لها الاعز الانجب

فعليك تقوى الله فالزمها تفز ... ان التقي هو البهي الاهيب

واعمل بطاعته تنل منه الرضا ... ان المطيع له لديه مقرب

واقنع ففي بعض القناعة راحة ... واليأس عما فات فهو المطلب

فاذا طمعت كسيت ثوب مذلة ... فلقد كسي ثوب المذلة اشعب

وتوق من غدر النساء خيانة ... فجميعهن مكايد لك تنصب

لاتامن الانثى حياتك انها ... كالأفعوان يراع منه الانيب

لاتامن الانثى زمانك كله ... يوما ولو حلفت يميناً تكذب

تغري بلين حديثها وكلامها ... واذا سطت فهي الصقيل الاشطب

وابدأ عدوك بالتحية ولتكن ... منه زمانك خائفا تترقب

واحذره ان لاقيته متبسما فالليث يبدو نابه اذ يغضب
ان العدو وان تقادم عهده فالحقد باق في الصدور مغيب
واذا الصديق رأيته متملقا فهو العدو وحقه يتجنب
لا خير في ود امرى متملق حلو اللسان وقلبه يتلهب
لقاك يحلف انه بك واثق واذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب
وصل الكرام وان جفوك بهفوة فالصفح عنهم بالتجاوز أصوب
واختر قرينك واصطفيه تفاخراً ان القرين الى المقارن ينسب
ان الغني من الرجال مكرم وتراه يرجى ما لديه ويرهب
ويبش بالترحيب عند قدومه ويقام عند سلامه ويقرب
والفقر شين للرجال فانه حقاً يهون به الشريف الانسب
واخفض جناحك للاقارب كلهم بتذلل واسمح لهم ان اذنبوا
وذر الكذوب فلا يكن لك صاحبا ان الكذوب يشين حرا يصحب
وزن الكلام اذا نطقت ولا تكن ثرثارة في كل ناد تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب
والسر فاكتمه ولا تنطق به ان الزجاجة كسرها لا يشعب
وكذاك سر المرء ان لم يطوه نشرته السنة تزيد وتكذب
لا تحرصن فالحرص ليس بزائد في الرزق بل يشقي الحريص ويتعب
ويظل ملهوفا يروم تحيلا والرزق ليس بحيلة يستجلب
كم عاجز في الناس يأتي رزقه رغدا ويحرم كيس ويخيب
وارع الامانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطب المكسب
واذا اصابك نكبة فاصبرلها من ذا رايت مسلماً لا ينكب
واذا رميت من الزمان بريبة او نالك الامر الاشق الاصعب
فاضرع لربك انه ادنى لمن يدعوه من حبل الوريد واقرب
كن ما استطعت عن الانام بمعزل ان الكثير من الورى لا يصحب
واحذر مصاحبة اللئيم فانه يعدي كما يعدي السليم الاجرب

واحذر من الظلوم سهما صائباً ... واعلم بان دعاءه لا يحجب
واذا رأيت الرزق عز ببلدة ... وخشيت فيها أن يضيق المذهب
فارحل فارض الله واسعة الفضا ... طولا وعرضا شرقها والمغرب
ولقد نصحتك ان قبلت نصيحتى ... فالنصح اعلى مايباع ويوهب

انتهى من حياة الحيوان (وما أحسن قول صالح بن عبد القدوس)

المرء يجمع والزمان يفرق ... ويظل يرقع والخطوب تمزق
ولان يعادى عاقلا خبيراً له ... من أن يكون له صديق احمق
فاربا بنفسك ان تصادق احمقا ... ان الصديق على الصديق مصدق
وزن الكلام اذا نطقت فانما ... يبدى عقول ذوى العقول المنطق
ومن الرجال اذا استوت احلامهم ... من يستشار اذا استشير فيطرق
حتى يجيل بكل واد قلبه ... فيرى ويعرف مايقول وينطق
لاالفينك ثاويا فى غربة ... ان الغريب بكل سهم يرشق
ما الناس الا عاملان فعامل ... قد مات من عطش وآخر يغرق
والناس فى طلب المعاش وانما ... بالجد يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون الناس حسب عقولهم ... الفيت أكثر من ترى يتصدق
لكنه فضل المليك عليهم ... هذا عليه موسع ومضيق
واذا الجنازة والعروس تلاقيا ... ورأيت دمع نوائح يترقرق
سكت الذى تبع العروس مبهتا ... ورايت من تبع الجنازة ينطق
واذا امرء لسعته افعى مرة ... تركته حين يجر حبلا يفرق
بقى الذين اذا يقولوا يكذبوا ... ومضى الذين اذا يقولوا يصدقوا

(وذكر بن الجوزى فى الاذكياء وغيره)

ان عمران بن حطان كان احد الخوارج وهو القائل يمدح عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنهما الله تعالى على قتل الامام على بن ابى طالب رضى الله عنه

يا ضربة من تقى ما اراد بها ... الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
انى لاذكره يوما فاحسبه ... اوفى البرية عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الارض اقبرهم ... لم يخلصوا دينهم بغيا وعدوانا

فبلغت القاضي ابا الطيب الطبرى رحمه الله تعالى هذه الابيات فقال مجيبا له
انى لابرا مما انت قائله عن ابن ماجم الملعون بهتانا انى لاذكره يوما فالعنه
دينا والعن عمران بن حطانا عليك ثم عليه الدهر متصلا لعائن الله اسرارا واعلانا
فانتمو من كلاب النار جاء لنا نص الشريعة برهانا وبهتانا
اشار ابو الطيب رحمه الله تعالى الى قوله صلى الله عليه وسلم الخوارج كلاب النار
انتهى من حياة الحيوان (ومنه) ما روى عن نافع بن ابى عمر رضى الله عنه قال
جاءوا برجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فشهدوا عليه أنه سرق جملا لهم فامر به
النبي صلى الله عليه وسلم ان يقطع فولى الرجل وهو يقول اللهم صل على محمد حتى
لا يبقى من صلاتك شيء و بارك على محمد حتى لا يبقى من بركاتك شيء وسلم على محمد
حتى لا يبقى من سلامك شيء فتكلم الجمل وقال يامحمد انه برىء من سرقتى فقال النبي
صلى الله عليه وسلم من ياتيني بالرجل فابتدره سبعون من اهل بدر فجاءوا به الى
النبي صلى الله عليه وسلم فقال ياهذا ماقلت آنفاً فاخبره بما قال فقال النبي صلى
الله عليه وسلم لذلك نظرت الملائكة يخترقون سكك المدينة حتى كادوا يحولون بيني
و بينك قال لتردن على السراط و وجهك اضوأ من القمر ليلة البدر انتهى

(وهذه القصيدة يقال انها لامير المؤمنين الراضي بالله)

زيادة المرء فى دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لا ثبات له ... فان معناه فى التحقيق فقدان
ياعامرا لخراب الدهر مجتهدا ... بالله هل لخراب الدهر عمران
و ياحريصا على الاموال يجمعها ... انسيت ان سرور المال احزان
راع الفؤاد عن الدنيا و زخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران
واوع سمعك امثالا أفصلها ... كما يفصل ياقوت ومرجان
احسن الى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الانسان احسان
وكن على الدهر معوانا لذى امل ... يرجو رضاك فان الحر معوان
من جاد بالمال مال الناس قاطبة ... اليه والمال للانسان فتان
من كان للخير مناعا فليس له ... عند الخليقة اخدان واخوان
لاتخدشن بمطل وجه عارفة ... فالبر يخدشه مطل وليان

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح لما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فانت بالنفس لا بالجسم انسان
من يتق الله يحمد فى عواقبه و يكفه شر من عزوا ومن هانوا
حسب الفتى عقله خلا يعاشره اذا تحاماه اخوان وخلان
لا تستشر غير شخص حازم فطن قد استوت منه إسرار و إعلان
فللتدابير فرسان اذا ركضوا فيها ابروا كما للحرب فرسان
وللامور مواقيت مقدرة وكل امر له حد وميزان
من رافق الرفق فى كل الحوادث لم يندم عليه ولم يذممه انسان
ولا تكن عجلا فى الامر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران
وذو القناعة راض فى معيشته وصاحب الحرص ان أثرى غضبان
كفى من العيش ماقد سد من رمق ففيه للحر ان حققت غنيان
هما رضيعا لبان حكمة وتقى وساكنا وطن مال وطغيان
من مد طرفا بفرط الجهل نحو هوى أغضى عن الحق يوما وهو خزيان
من استشار صروف الدهر قام له على حقيقة طبع الدهر برهان
من عاشر الناس لاقى منهم نصبا لان طبعهم بغى وعدوان
ومن يفتش على الاخوان مجتهدا فجل اخوان هذا الدهر خوان
من يزرع الشر يحصد فى عواقبه ندامة ولحصد الزرع ابان
من استنام الى الاشرار نام وفى قميصه منهم صل وثعبان
من سالم الناس يسلم من غوائلهم وعاش وهو قرير العين جذلان
من كان للعقل سلطان عليه غدا وما على نفسه للحرص سلطان
وان أساء مسيء فليكن لك فى عروض زلته صفح وغفران
ذا نبا بكريم موطن فله وراءه فى بسيط الارض اوطان
لا تحسبن سرورا دائما ابدا من سره زمن ساءته ازمان
ياظالما فرحا بالعز ساعده ان كنت فى سنة فالدهر يقظان
ياأيها العالم المرضى سيرته ابشر فانت بغير الماء ريان
ويا اخا الجهل لو اصبحت فى لجج فانت مابينها لاشك ظمآن

دع التكاسل فى الخيرات تطلبها … فليس يسعد بالخيرات كسلان
صن حر وجهك لا تهتك غلالته … فكل حر لحر الوجه صوان
لا تحسب الناس طبعاً واحداً فلهم … غرائز لست تحصيها والوان
ما كل ماء كصداء لوارده … نعم ولا كل نبت فهو سعدان
من استعان بغير الله فى طلب … فان ناصره عجز وخذلان
واشدد يديك بحبل الله معتصما … فانه الركن ان خانتك اركان
لا ظل للمرء يغنى عن تقى ورضا … وان اظلته اوراق وافنان
سحبان من غير مال باقل حصر … وباقل فى ثراء المال سحبان
والناس اخوان من والته دولته … وهم عليه اذ عادته أعوان
يا رافلاً فى الشباب الرحب منتشياً … من كاسه هل اصاب الرشد نشوا
لا تغترر بشباب ناعم خضل … فكم تقدم قبل الشيب شبان
ويا أخا الشيب لو نصحت نفسك لم … يكن لمثلك فى الاسراف أمعان
هب الشبيبة تبدى عذر صاحبها … ما بال شيبك يستهوى به شيطان
كل الذنوب فان الله يغفرها … ان شيع المرء إخلاص وايمان
وكل كسر فان الله يجبره … وما لكسر قناة الدين جبران
احسن اذا كان امكان ومقدرة … فلا يدوم على الانسان امكان
فالروض يزدان بانوار فاغمه … والحر بالعدل والاحسان يزدان
خذها سوائر امثال مهذبة … فيها لمن يبتغى التبيان تبيان
ما ضر حسانها والطبع صائغها … ان لم يصغها قريع الشعر حسان

وذيل عليها بعضهم فقال

وكن لسنة خير الخلق متبعاً … فانها لنجاة العبد عنوان
فهو الذى شملت للخلق انعمة … وعمهم منه فى الدارين احسان
جبينه قمر قد زانه خفر … وثغره درر غر ومرجان
والبدر يخجل من انوار طلعته … والشمس من حسنه الوضاح تزدان
ومذ اتى ابصرت عمى القلوب به … سبل الهدى ووعت للحق آذان
به توسلنا فى محو زلتنا … لربنا انه ذو الجود منان

يارب صل عليه ماهمى مطر فاينعت منه اوراق واغصان
وابعث اليه سلاما زاكياً عطراً والآل والصحب لا تفنيه ازمان

(ومن اللطائف) ماحكاه محمد بن يزيد المبرد قال كان ابو عثمان المازنى جاء اليه يهودى وساله ان يقرئه كتاب سيبويه و بذل له مائة دينار فامتنع ابو عثمان من ذلك فقلت سبحان الله ترد مائة دينار مع فاقتك وحاجتك الى درهم واحد فقال نعم يااباالعباس اعلم ان كتاب سيبويه يشتمل على ثلاثمائة آية من كتاب الله ولم ارد ان امكن منها كافراً فسكت ولم يتكلم قال المبرد فامضت الايام حتى جلس الواثق يوما للشرب وحضر علم ندماءه فغنت جارية فى المجلس هذا الشعر

اظلوم ان مصابكم رجلا اهدى السلام تحية ظلم

فنصبت رجلا فلحنها بعض الحاضرين من الندماء وقال الصواب الرفع لانه خبر ان وقالت الجارية ماحفظته من معلمى الا هكذا ثم وقع النزاع بين الجماعة فمن قائل الصواب معه ومن قائل الصواب معها فقال الواثق من بالعراق من اهل العربية ممن يرجع اليه فقالوا بالبصرة ابو عثمان المازنى وهو اليوم واحد عصره فى هذا العلم فقال الواثق اكتبوا الى والينا بالبصرة يسيره الينا معظما مبجلا فما كان الأيام حتى وصل الكتاب الى البصرة فامر الوالى اباعثمان بالتوجه وسيره على بغال البريد فلما وصل دخل على الواثق فرفع مجلسه وزاد فى اكرامه وعرض عليه البيت فقال الصواب مع الجارية ولا يجوز فى رجل غير النصب لان مصاب مصدر بمعنى الاصابة و رجلا منصوب به والمعنى ان إصابتكم رجلا اهدى السلام تحية ظلم فظلم خبر ان ولا يتم الكلام إلا به ففهم الواثق كلام ابى عثمان وعلم ان الحق ماقالته واعجب به وانقطع الرجل الذى انكر على الجارية ثم امر الواثق لابى عثمان المازنى بالف دينار واتحفه بتحف وهدايا كثيرة لاهله و وهبت له الجارية جملة اخرى ثم سيره الى بلده مكرماً فلما وصل جاء المبرد فقال له ابو عثمان كيف رايت يااباالعباس تركت لله مائة فعوضنى الفاً فقال المبرد من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه . انتهى (وعن) انس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سالت الله الاسم الاعظم فجاءنى جبريل به مختوماً وهو اللهم انى اسالك بالاسم المخزون المكنون الطاهر المطهر المقدس المبارك الحى القيوم قالت عائشة بابى وامى علمنيه فقال ياعائشة نهينا عن تعليمه النساء

والصبيان والسفهاء اه (فائدة) كان أبو عبد الله بن يحيي الضنيعى من أصحاب الشافعى وكان إماماً صالحاً عالماً من أهل اليمن من اقران صاحب البيان من تصنيفه احترازات المهذب والتعريف فى الفقه روى ان اناساً ضربوه بالسيوف فلم تقطع سيوفهم فيه فسئل عن ذلك فقال كنت اقرأ (ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم . فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله. انا نحن نزلنا الذكر وانا له حافظون . وحفظناها من كل شيطان رجيم . وحفظا من كل شيطان مارد . وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم . ان كل نفس لما عليها حافظ . ان بطش ربك لشديد) الى آخر السوره وينبغى ان يزاد فيها (ان ربى على كل شيء حفيظ) ثم قال كنت خرجت يوما مع جماعة فرايت ذئباً يلاعب شاة عجفاء ولا يضرها بشيء فلما دنونا منه نفر منها الذئب فوجدنا فى عنق الشاة كتاباً مربوطا فيه هذه الآيات المتقدمة انتهى (فائدة) قال معاذ بن جبل احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراأى عين الشمس فخرج سريعاً فثوب الصلاة فصلى وتجوز فى صلاته فلما سلم دعا بصوته فقال لنا على مصافكم كما أنتم ثم انفتل الينا فقال امانى ساحدثكم ماحبسنى عنكم الغداة الا انى قمت من الليل فتوضات وصليت ماقدرلى فنعست فى صلاتى حتى استثقلت فاذا انا بربى تعالى فى احسن صورة فقال يا محمد فقلت لبيك يارب قال فيم يختصم الملا الا على قلت ربى لا أدرى قال تعالى فى الكفارات والدرجات وفى رواية قلت فى الكفارات والدرجات قال فما هن قلت مشى الاقدام والجماعات والجلوس فى المساجد بعد الصلوات واسباغ الوضوء على المكروهات ثم قال فيم قلت إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة بالليل والناس نيام قال سل قلت اللهم انى اسالك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وان تغفر لى وترحمنى واذا اردت بعبادك فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون اسالك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنى الى حبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انها حق فادرسوها ثم تعلموها (قال) ابو عيسى هذا حديث حسن صحيح انتهى من حياة الحيوان فى حرف النون وقال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك فقال هو اخفى فيكم من دبيب النمل وسادلك على شيء اذا فعلته اذهب الله عنك صغار الشرك

وكباره تقول اللهم انى اعوذ بك شيئاً وانا اعلم واستغفرك لما لا اعلم انك انت علام الغيوب تقولها ثلاث مرات انتهى (فائدة) اذا علقت عين الهدهد على صاحب النسيان ذكر ما نسيه ودمه اذا قطر فى البياض العارض فى العين اذهبه (وروى) احمد والبزار ورجال احمد ثقات من حديث ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم راى رجلا يشرب قائما فقال له ايسرك ان يشرب معك الهر قال لا قال فقد شرب معك الشيطان (وروى) الطبرانى باسناد صحيح عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم مر باعرابى وهو يدعو فى صلاته يقول يامن لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون ولا يصفه الواصفون ولا تغيره الحوادث ولا يخشى الدوائر يعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار وعدد قطر الامطار وعدد ورق الاشجار وعدد ما اظلم عليه الليل واشرق عليه النهار ولا توارى منه سماء سماء ولا ارض ارضا ولا بحر الا ويعلم فى قعره ولا جبل الا ويعلم ما فى وعره اجعل اللهم خير عمرى آخره وخير عملى خواتيمه وخير ايامى ايام لقائك فوكل النبي صلى الله عليه وسلم بالاعرابى رجلا فقال اذا صلى فأتنى به فلما صلى اتاه به وقد كان اهدى للنبي صلى الله عليه وسلم ذهب من بعض المعادن فلما اتى الاعرابى اوهب له الذهب وقال ممن انت ايها الاعرابى قال من بنى عامر بن صعصعة فقال صلى الله عليه وسلم هل تدرى لم وهبت لك هذا الذهب، قال للرحم التى بيننا وبينك يارسول الله قال صلى الله عليه وسلم ان للرحم حقا ولكن وهبت لك الذهب لحسن ثنائك على الله عز وجل (حكاية فى القطا) يقال نزل عمرو بن امامة على قوم من مراد فطرقهم ليلا فاثاروا القطا من اماكنها فراتها امراة يقال لها حذام فلما رات القطا طار ليلا نبهت زوجها مع رجال من قومها فقالت لهم * ولو ترك القطا ليلا لناما *

فلم يلتفتوا الى قولها واخلدوا الى مضاجعهم فقام رجل منهم وقال

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

فنفر القوم والتجئوا الى واد قريب منهم واعتصموا به حتى اصبحوا وامتنعوا من عدوهم فضرب به المثل (وذكر بعض اهل التواريخ) ان ملكا من الملوك خرج يدور فى ملكه فوصل الى قرية عظيمة فدخلها منفردا فاخذه العطش فوقف بباب دار من دور القرية وطلب ماء فخرجت اليه امراة جميلة بكوز ماء رناولته اياه فلما نظر لها افتتن

بها فراودها عن نفسها وكانت المرأة عارفة به فعلمت أنها لا تقدر على الامتناع منه
فدخلت وأخرجت له كتاباً وقالت له انظر فى هذا الكتاب حتى اصلح من أمرى
ماتحب وأعود فاخذ الملك الكتاب ونظر فيه واذا فيه الزجر عن الزنا وماعد الله
تعالى لفاعله من العذاب الاليم فاقشعر جلده ونوى التوبة وصاح بالمراة واعطاها
الكتاب ومر ذاهباً وكان زوج المراة غائباً فلما حضر أخبرته الخبر فتحير فى نفسه
وخاف ان يكون قد وقع غرض الملك فيها فلم يتجاسر على وطئها بعد ذلك ومكث
على ذلك مدة فاعلمت المرأة أقاربها بحالها مع زوجها فرفعوه الى الملك فلما مثل
بين يدى الملك قال أقارب المرأة اعز الله مولانا الملك ان هذا الرجل قد استأجر
منا ارضاً للزراعة فزرعها مدة ثم عطلها فلا هو يزرعها ولا هو يتركها لنؤجرها لمن
هو يزرعها وقد حصل الضرر للارض ونخاف فسادها بسبب التعطيل لان الارض
اذا لم تزرع فسدت فقال الملك لزوج المراة ما يمنعك من زرع ارضك فقال اعز الله
مولانا الملك انه قد بلغنى ان الاسد قد دخل ارضى وقد هبته ولم اقدر على الدنو منها
لعلمى انه لاطاقة لى بالاسد ففهم الملك القصة فقال ياهذا ان ارضك طيبة صالحة
للزراعة فازرعها بارك الله لك فيها فان الاسد لن يعود اليها ثم امر له ولزوجته بصلة
حسنة وصرفه (وقال) الكسائى دخلت على الوليد ذات يوم وهو فى ايوانه وبين يديه
مال كثير قد امر بتفرقته على خدمه الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله وكان
كثيراً ما يحدثنى فقال هل علمت اول من سن هذه الكتابة فى الذهب والفضة قلت
هو يا سيدى عبد الملك بن مروان قال فما كان السبب فى ذلك قلت لا اعلم
غير انه هو اول من احدث هذه الكتابة قال سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان
اكثر من بمصر نصرانياً على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية وكان طرازها اباً
وابناً وزوجة وبنتاً فلم يزل كذلك صدر الاسلام كله يمضى على ماكان عليه الى ان
ملك عبد الملك فتنبه له وكان فطناً فبينما هو ذات يوم جالس اذ مر به قرطاس فنظر
الى طرازه فامر ان يترجم بالعربية ففعل ذلك فانكره وقال ما اغلظ هذا فى دين الاسلام
ان يكون طراز القراطيس هكذا وهى تعمل فى الاوانى والثياب وهما يعملان بمصر
وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد فامر بالكتاب الى عبد العزيز
ابن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز الذى يعمل على الثياب والقراطيس

والستور وغيرذلك وان تعمل صناع القراطيس سورة التوحيد وهو شهد الله ان لا اله الا هو هذا طراز القراطيس الى هذا الوقت ولم ينقص ولم يزد ولم يتغير وكتب الى عمال الافاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منه بالضرب الوجيع والحبس الطويل بعدما اثبت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل الى بلاد الروم منها وانتشر خبرها ووصل الى ملكهم فترجم له ذلك الطراز فانكره وعظم عليه واستشاط غيظاً فكتب الى عبد الملك انى اعمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم تزل تطرز بطراز الروم الا ان ابطلته فان كان من تقدمك من الخلفاء قد اصاب فقد اخطات وان كنت قد اصبت فقد اخطؤا فاختر من هاتين الخلتين ايهما شئت واحببت وقد بعثت اليك بهدية تليق بمحلك واحببت ان ترد طراز تلك القراطيس الى ما كان عليه وجميع ما كان يطرز اولا لاشكرك عليها وتامر بقبض الهدية وكانت عظيمة القدر فلما قرا عبد الملك كتابه رد الرسول واعلمه انه لا جواب له ورد الهدية فانصرف بها الى صاحبه فلما وافاه اضعف الهدية ورد الرسول الى عبد الملك وقال انى ظننت انك استقللت الهدية فلم تقبلها ولم تجبنى الى كتابى فاضعفت الهدية وانا ارغب اليك مثل ما رغبت فيه اولا من رد الطراز الى ما كان عليه فقرا عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية فكتب اليه ملك الروم كتاباً يقتضى مجاوبة كتابه ويقول انك قد استخففت بجوابى وهديتى ولم تسعفنى بحاجتى فتوهمت انك استقللت الهدية فاضعفتها فجريت على سبيلك الاول وقد اضعفتها لك ثالثا وانا احلف بالمسيح لتامرن برد الطراز الى ما كان عليه اولا او لآمرن بنقش الدراهم والدنانير فانك تعلم انه لا ينقش شيء منها الا ما ينقش فى بلادى ولم ار الدراهم والدنانير نقشت فى بلاد الاسلام فينقش عليها شتم نبيك فاذا قراته ارفض جبينك عرقاً فاحب ان تقبل هديتى وترد الطراز الى ما كان عليه اول الامر وكانت هدية برزتنى ويبقى الامر بينى وبينك فلما قرا عبد الملك الكتاب صعب عليه وعظم وضاقت به الارض قال احسبنى اشام مولود ولد فى الاسلام لانى جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتم هذا الكافر ما يبقى الى ابد الدهور ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب اذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم فجمع اهل الاسلام واستشارهم فلم يجد عندهم رايا يعمل به فقال له

روح بن زنباع انك لتعلم المخرج من هذا الامر ولكنك تتعمد تركه فقال ويحك بم
قال عليك بالباقر من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم قال صدقت ويمكنه يا روح
الرأى فيه قال نعم فكتب الى عامله بالمدينة أن أرسل محمد بن على بن الحسين مكرما
ومتعه بمائة الف درهم لجهازه وثلثمائة درهم لنفقته وارو ح عليه في جهازه وجهاز
من يخرج معه من أصحابه وحبس الرسول قبله الى موافاة محمد بن على فلما وافاه
اخبره الخبر فقال محمد رضى الله عنه لا يعظم هذا عليك فانه ليس بشيء من جهتين
احداهما ان الله عز وجل لم يكن ليطاق ماتهدد به صاحب الروم في رسول الله صلى الله
عليه وسلم والثانية تدعوا في هذا الوقت بصناع يضربون سككا للدراهم والدنانير
وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذاكر رسول الله صلى الله عليه وسلم احداهما
في وجه الدرهم والدينار والاخرى في الوجه الثانى وتجعل في مدار الدرهم او الدينار
ذكر البلد الذى يضرب فيه والسنة التى تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير وتعمد الى
وزن ثلاثين درهماً عددا من الثلاثة اصناف العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة
منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون اوزانها جميعا احدى
وعشرين مثقالا فيجزؤها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب
صنجاة من قوارير لا تستحيل الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة
والدنانير على وزن سبعة مثاقيل وكانت الدراهم في ذلك الوقت انما هى الكسروية
التى يقال لها اليوم البغلية لان راس البغل ضربها لعمر بن الخطاب رضى الله عنه
بسكة كسروية في الاسلام مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسى مكتوب
بالفارسية (نوش خور) اى كل هنيئاً وكان وزن الدرهم منها قبل الاسلام مثقالا
والدراهم التى كان وزن العشرة منها وزن ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل
هى السامرية الخفاف والمثقال ونقشها نقش فارس ففعل ذلك عبدالملك وامره محمد بن
على بن الحسين رضى الله عنه أن يكتب السكة في جميع بلدان الاسلام وان يقدم
الى الناس في التعامل بها وان يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم
والدنانير وغيرهما وان تبطل وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكة الاسلامية
ففعل عبد الملك ذلك ورد رسول ملك الروم اليه بذلك ويقول ان الله عز وجل مانعك
مما قد اردت ان تفعله وقد قدمت الى عمالى في اقطار البلاد كذا وكذا وبابطال

السكك والطراز الرومية فقيل لملك الروم افعل ما كنت تهددت به ملك العرب فقال
اردت ان اغيظه بما كتبت اليه لانى كنت قادرا عليه بالمال وغيره برسوم الرسوم
فاما الان فلا افعل لان ذلك لا تتعامل به اهل الاسلام وامتنع من الذى قال وثبت
ما اشار به محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم الى اليوم ثم رمى يعنى الوليد بالدرهم
الى بعض الخدم انتهى من حياة الحيوان (ومما جاء فى الذكاء والفهم) ما حكى عن
المامون انه غضب على عبد الله بن طاهر وشاور اصحابه فى الايقاع به وكان قد
حضره فى ذلك المجلس صديق له فكتب اليه كتابا فيه بسم الله الرحمن الرحيم ياموسى
فلما فضه ووجد ذلك تعجب وجعل يطيل النظر اليه ولا يفهم معناه وكانت له
جارية واقفة على راسه فقالت له ياسيدى انى افهم معنى هذا فقال وما هو قالت انه
اراد قوله تعالى ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وكان قد عزم على الحضور
الى المامون فثنى العزم عن ذلك واعتذر للمامون فى عدم الحضور فكان سبب سلامته
(واحسن) من ذلك ما ذكره ابن خلكان قال ان بعض الملوك غضب على بعض
فامره وزيره ان يكتب له كتابا يشخصه به وكان للوزير العامل عناية فكتب اليه
كتابا وكتب فى آخره ان شاء الله تعالى وجعل فى صدر النون شدة فعجب العامل
كيف وقعت هذه الحركة من الوزير اذ من عادة الكتاب ان لا يشكلوا كتبهم ففكر
فى ذلك فظهر له انه اراد ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فكشط الشدة وجعل مكانها
الفاً وختم الكتاب واعاده فلما وقف عليه الوزير سر بذلك وفهم انه اراد انا لن
ندخلها ابدا ما داموا فيها اه (وفى) تاريخ بغداد ووفيات الاعيان ان ابا حنيفة
كان له جار اسكافى يعمل نهاره فاذا رجع الى منزله ليلا تعشى ثم شرب فاذا دب الشراب
فيه غنى اضاعونى واى فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
ولا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى ياخذه النوم وابو حنيفة يسمع صوته كل
ليلة وكان ابو حنيفة يصلى الليل كله ففقد ابو حنيفة صوته فسال عنه فقيل اخذه
العسس منذ ليال فصلى ابو حنيفة الفجر من غده ثم ركب بغلته واتى الى دار الامير
فاستاذن عليه فقال ائذنوا له واقبلوا به راكبا ولا تدعوه ينزل حتى يطا البساط ففعل
به ذلك فوسع له الامير من مجلسه وقال له ما حاجتك قال اشفع فى جارى فقال الامير
اطلقوه وكل من اخذ فى تلك الليلة فخلوهم ايضا وذهبوا وركب ابو حنيفة بغلته

وخرج والاسكافى يمشى وراءه فقال له أبو حنيفة هل أضعناك فقال بل حفظت ورعيت فجزاك الله خيرا عن حرمة الجوار ثم تاب الرجل ولم يعد الى ما كان يفعل (وقال) الشافعى قلت لمالك هل رأيت أبا حنيفة قال نعم رأيت رجلا لو كلمك فى هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته (فائدة) اذا عسر على المرأة ولادتها فليكتب لها بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا هو الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم. الحمد لله رب العالمين . كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون (فائدة اخرى للصداع) ذكر فى حياة الحيوان أن مسلمة بن عبد الملك لما حاصل عمورية حصل له صداع فلم يركب فى الحرب فقال أهل عمورية للمسلمين ما لاميركم لم يركب فقالوا عرض له صداع فاخرجوا النا برنساً وقالوا ألبسوه له يزل عنده مايجد فلبسه فشفى ففتشوا فيه فلم يجدوا فيه غير بطاقة مكتوب فيها هذه الايات (بسم الله الرحمن الرحيم ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . بسم الله الرحمن الرحيم يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا بسم الله الرحمن الرحيم الان خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا . بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص . بسم الله الرحمن الرحيم حمعسق بسم الله الرحمن الرحيم . واذا سالك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان . بسم الله الرحمن الرحيم الم ترالى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا . بسم الله الرحمن الرحيم وله ماسكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم) فقال المسلمون من اين لكم هذا انما انزل هذا على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قالوا وجدنا هذا محفوظا فى حجر فى كنيستنا قبل ان يبعث نبيكم بسبعمائة عام انتهى (وعن) ابى الدرداء قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بنا كلب فما بلغت رجله يده حتى مات فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من الداعى على هذا الكلب فقال رجل من القوم انا يارسول الله قال فما قلت قال قلت اللهم انى اسالك بان لك الحمد لا اله الا انت الحنان المنان بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام اكفنا هذا الكلب بما شئت فقال صلى الله عليه وسلم لقد دعا الله بالاسم الاعظم الذى اذا دعا به اجاب واذا سئل به اعطى وهذا الحديث فى السنن الاربعة ومسند أحمد وكتابى الحاكم وابن حبان قيل وكانت صلاة العصر يوم الجمعة وان الرجل الدعى سعد بن ابى وقاص انتهى من حياة الحيوان (فائدة منه

ايضاً)تكتب هولاء الكلمات وتجعل فى انبوبة وتدفن فى الزرع والكرم فانه لا يؤذيه الجراد باذن الله تعالى وهى بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اللهم اهلك صغارهم واقتل كبارهم وافسد بيضهم وخذ بافواههم على معايشنا وارزاقنا انك سميع الدعاء (انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه واستجب منا ياارحم الراحمين وهو عجيب مجرب (فائدة) قال القرافى اتفق الناس على تكفير ابليس بقضيته مع آدم عليه الصلاة والسلام وليس الكفر فيها لامتناعه من السجود والا لكان كل من امر بالسجود وامتنع منه كافرا وليس كفره بكونه حسد ادم عليه الصلاة والسلام على منزلته من الله تعالى والا لكان كل حاسد كافرا وليس كفره بعصيانه وفسوقه والا لكان كل عاص وفاسق كافرا وقد اشكل ذلك على جماعة من الفقهاء وينبغى انه انما كفر بنسبة الحق جل جلاله الى الجور والتصرف الذى ليس بمرضى ويظهر ذلك من فوى قوله انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ومراده ان الزام العظيم الجليل بالسجود للحقير من الجور والظلم وهذا وجه كفره لعنه الله تعالى وقد اجمع المسلمون على من نسب الله تعالى لذلك فهو كافر انتهى من حياة الحيوان ومنه قول الشاعر

خليلى ان قالت بثينة ماله ... اتانا الى وعد فقولا لها لها
اتى وهو مشغول بعظم الذى به ... ومن بات طول الليل يرعى السهاسها
بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى ... اذا برزت لم يبق يوما بها بها
لها مقلة كحلا وخد مورد ... كأن اباها الظبي اوامها مها
دهتنى بود قاتل وهو متلفى ... وكم قتلت بالمزج من ودها دها

هى من مزج النغف بنون وغين معجمتين مفتوحتين ثم فاء دود يكون فى انف الابل والغنم الواحدة نغفة انتهى عن الاصمعى (وقال) ابوعبيدة هو الدود الابيض يكون فى النوى وماسوى ذلك الدودليس بنغف (وروى) مسلم عن النواس بن سمعان فى حديثه الذى رواه فى الدجال ويبعث الله ياجوج وماجوج فيرسل عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ومعنى قوله فرسى قتلى وقيل للواحدة فريس من فرس الذئب الشاة وافترسها

(حكاية الهامة)

(روى) أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود قال كنت عند كعب الاحبار وهو عند عمر بن الخطاب فقال كعب الاحبار ياأمير المؤمنين ألاأخبرك بأغرب شيء رأيته فى كتب الانبياء ان هامة جاءت الى سليمان بن داود عليهما السلام فقالت السلام عليك يانبي الله فقال وعليك السلام ياهامة أخبرينى كيف لاتاكلين من الزرع قالت يانبي الله ان آدم أخرج من الجنة بسببه قال فكيف لاتشربين الماء قالت لانه غرق فيه قوم نوح فمن أجل ذلك لااشربه فقال لها كيف تركت العمران وسكنت الخراب قالت لان الخراب ميراث الله تعالى فانا أسكن ميراث الله قال الله تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الاقليلا وكنا نحن الوارثين) فالدنيا ميراث الله كلها قال سليمان فما تقولين اذا جلست فوق خربة قالت أقول أين الذين كانوا يتنعمون فيها قال سليمان فما صياحك فى الدور اذا مررت عليها قالت أقول ويل لبنى آدم كيف ينامون وأمامهم الشدائد قال سليمان عليه السلام فمالك لاتخرجين بالنهار قالت من كثرة ظلم بنى آدم لانفسهم قال فاخبرينى ما تقولين فى صياحك قالت أقول تزودوا ياغافلون وتهيؤا لسفركم سبحان خالق النور فقال سليمان ليس فى الطيور طير انصح لابن آدم ولا أشفق عليه من الهامة ومافى قلوب الجهال أبغض منها والهامه بتخفيف الميم على المشهور طير الماء (وفى كتاب فردوس الحكم) قال آية من كتاب الله تعالى من قرأها يؤمن من الهوام (انى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة الاهوآخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم) «فائدة» اليحمور حمار الوحش وفى كتاب العرائس لابى الفرج الجوزى ان بعض طلبة العلم خرج من بلاده فرفقه شخص فى الطريق فلما كان قريباً من المدينة التى قصدها قال له ذلك الشخص قد صارلى عليك حق وذمة وانا رجل من الجان ولى اليك حاجة قال وماهى قال اذا اتيت مكان كذاوكذا فانك تجد فيه دجاجات بينهن ديك أبيض فاسال عن صاحبه واشتره منه واذبحه فهذه حاجتى اليك قال فقلت له ياأخى وأنا أيضاً أسالك حاجة قال وماهى قلت فاذا كان الانسان ماردلاتعمل فيه العزائم والح بالادمى منا مادواؤه قال يؤخذ له وتر قدر شبر من جلد اليحمور ويشدبه ابهام المصاب من يده شداً وثيقاً ثم يؤخذله من دهن السذاب البرى ويقطر فى أنفه الايمن أربعاً وفى الايسر

ثلاثاً فان الماسك به يموت ولا يعود الى أحد بعده قال فلما دخلت المدينة أتيت الى ذلك المكان فوجدت الديك عند العجوز فسالتها بيعه فابت فاشتريته منها باضعاف ثمنه فلما اشتريته وملكته تمثل لى من بعيد وقال لى بالاشارة اذبحه فذبحته فخرج على عند ذلك رجال ونساء فجعلوا يضربونني ويقولون ياساحر فقلت لست بساحر فقالوا انك منذ ذبحت الديك أصيبت شابة عندنا بجني وانه منذ مسكها لم يفارقها فطلبت منهم وتراً قدر شبر من جلد يحمور وشيئاً من دهن السذاب البرى فاتوا بهما فشددت ابهامى المصابة شداً وثيقاً فلما فعلت بها ذلك صاح قائلا وأنا علمتك على نفسى ثم قطرت من الدهن فى انفها الايمن أربعاً وفى الايسر ثلاثا فخرج من وقته ميتاً وشفى الله تلك الشابة ولم يعاودها بعدها شيطان (وقال اسحق) غدوت يوما وأنا منحصر من ملازمتى أمير المؤمنين فعرضت نفسى على ان أطوف فى الصحراء وأتفرج وقلت لغلمانى اذا جاء رسول الخليفة أو غيره فلا تعرفوه مكانى فطفت وعدت وقد حمى النهار فوقفت فى فضاء استريح فلم البث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً وعليه جارية راكبة عليها فاخر الثياب ورايت لها قواماً حسنا وطرفا فاترا فحدثت نفسى بانها مغنية ثم دخلت الدار التى أنا واقف عليها ثم لم البث ان جاء شابان جميلان واستأذنا فاذن لهما فدخلا ودخلت معهما فظنا ان صاحب الدار دعانى وظن صاحب البيت انى معهما وجلسنا فاتى بالطعام فاكلنا وبالشراب فوضع ودخلت الجارية وفى يدها عود فغنت وشربنا فسالهما صاحب المنزل عنى فاخبراه انهما لا يعرفانى فقالوا هذا طفيلى لكنه ظريف فاجملوا عشرتى فشربنا ودار الكاس فغنت الجارية تقول

ذكرتك اذ مرت بك ام شادن ... امام المطايا وهى بالشرب تسمح
من المولفات الرمل قد ابدى ثغرها ... شعاع الضحى من وجهها يتوضح

فادته اداء حسناً ثم غنت صوتا من القديم والحديث تقول

قل لمن صد لاهيا ... ونأى عنى جانبا ... قد بلغت الذي اردت وان كنت لاعبا

فاستعدته منها لاصححه عليها فاقبل على احد الرجلين يعنفني ويقول ماراينا طفيليا اصفق وجها منك لم ترض بالتطفل حتى اقترحت وهذا غاية المثل طفيلى ويقترح فاطرقت وجعل صاحبه يكفه وهو لا يلتفت ثم قاموا الى الصلاة وتاخرت بعدهم قليلا واخذت عود الجارية وشددت طبقته واصلحته اصلاحا حسنا محكما وعدت الى موضعى وعادوا واخذ ذلك الرجل فى عربدته على وانا صامت واخذت الجارية

العود وجسته فانكرت حاله وقالت من جس عودى قالوا ماجسه أحد قالت بلى والله لقد جسه حاذق متقدم وشد طبقته وأصلحه اصلاح متمكن من الصناعة قلت لها انا قالت بالله خذ واضرب فاخذته وضربت ضربا عجيبا فيه نقرات محركة فما بقى منهم احد الا وثب وجلس بين يدى وقال صاحب المجلس أقسم بالله ان لك فى الصناعة أصواتا غريبة فبالله عليك الا عرفت بنفسك فقلت انا اسحق الموصلى والله انى لاتيه على الخليفة اذا طلبت وانتم ترون صاحبكم هذا يسمعنى ما اكره لكونى تادبت معكم ودخلت عندكم والله لا نطقت بحرف ولا جلست حتى تخرجوا هذا الممقوت فقال له صاحبه من مثل هذا خفت عليه واخذوا بيده وسحبوه واخرجوه وعادوا فبادرت وغنيت الاصوات التى غنتها الجارية من صنعتى فقال لى الرجل هل لك فى خصلة قلت ماهى قال تقيم عندنا اسبوعا والمكافأة الجارية والجهاز لك قلت نعم افعل واقمت عنده اسبوعا لا يعرف احد أين انا والمامون يطلبنى فى كل حين وكل موضع ولم يقع احد على خبرى فلما انقضت الايام تسلمت الجارية والجهاز والخادم وجئت بذلك الى منزلى و ركبت من وقتى الى المامون فلما رآنى قال يا ابا اسحق ويحك اين كنت فاخبرته الخبر فقال على بالرجل الساعة فدللتهم على موضعه فاحضره وساله المامون فاخبره بالقصة فقال انت ذو مروءة وسبيلك ان تعان عليها وأمر له بمائة الف وقال له لا تعاشر ذلك النذل المعربد انتهى ومن كلام الاحوص فى حضرة يزيد) غنته جارية بين يديه

آذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحب ميعاد السلو المقابر
ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر

فطرب يزيد وقال لمن الشعر قالت لا ادرى قال ابعثوا الى الزهرى وكان قد ذهب من الليل شطره فاتى به فلما صعد اليه قال لا باس عليك ان ندعوك الا لخير فجلس وساله عن قائل هذا الشعر فقال الاحوص قال ما فعل به قال قد اطال حبسه فامر بتخلية سبيله وان يدفع له ار بعمائة دينار ثم قدم عليه بعد ذلك فاجازه واحسن اليه احسانا جزيلا وكانت المغنية جارية يزيد بن عبد الملك انتهى (وحكى) مسرور الخادم ان الرشيد قصد الركوب فى غير عادته فقلت له اين تريد ياامير المؤمنين فى هذا الوقت قال الى منزل ابراهيم الموصلى قال فمضى حتى انتهى الى منزل ابراهيم الموصلى فخرج وتلقاه وقبل حافر حماره وقال ياأمير المؤمنين فى مثل هذه الساعة تظهر

قال نعم شوق طرق بي اليك ثم نزل وجلس في مجلس الايوان وأجلس ابراهيم فقال له ابراهيم ياسيدي استنبط شيئا تاكله قبل الشراب قال نعم فجاء بطعوم كانما كان معداً له فاصاب منه يسيرا ثم دعا بشراب حمل معه فقال له الموصلي ياسيدي اغنيك ام تغنيك اماؤك قال بل الجواري فخرجت جواري ابراهيم فاخذن صدر الايوان وجانبيه فقال ابراهيم ايضربن كلهن أم واحدة واحدة فقال بل يضربن اثنتان اثنتان وواحدة واحدة تغني قال فضربت اثنتان وغنت واحدة منهن فقالت

اذا دعي باسمها داع يحدثني كادت لها مهجتي من حرها تقع
لو أن لي صبرها أو عندها جزعي لكنت أعقل ما آتي وما أدع
لا احمل اللوم فيها والغرام بها ما كلف الله نفسا غير ماتسع

ثم غنت اخرى فقالت

طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها
هل يطمسون من السماء نجومها باكفهم او يطمسون هلالها
شهدت من الانفال آخر آية فاردتمو بمحالكم ابطالها

ثم غنت اخرى فقالت

شطت سعاد واضحى البين قداري واورثتك سقاما تصدع الكبدا
فما احتيالك انجد الرحيل بهم وخلفوك غداة البين منفردا
لااستطيع لهم صبرا ولا جلداً ولا تزال احاديثي بهم جددا

(قال) فقام حتى وصل صدر الايوان واخذ بجانبيه والرشيد يسمع ولا ينصت لشيء من غنائهن الى ان غنته صبية من صدر الايوان من حاشية الصفة هذين البيتين لابي نواس

يامورى الزند قد اعيت قوادحه اقبس بما شئت من قلبي بمقباس
ما اقبح الناس في عيني واسمجهم اذا نظرت فلم انظرك في الناس

فطرب الرشيد لغنائها واستعاد الصوت مرارا وشرب ارطالا وسال الجارية عن صنائعه فامسكت فاستئذناها فتقاعست فامر بها فاقبلت بين يديه فاخبرته بشيء اسرته اليه فدعا بحماره فركبه ثم التفت الى ابراهيم الموصلي وقال له ماضرك ان تكون خليفة فكادت روحه تخرج حتى دعاه بعد ذلك وادناه قال وكان الذي اخبرته به سرا ان الصنعة في الصوت لاخته علية بنت المهدي وكانت الجارية لها فوجهتها الى ابراهيم الموصلي يطارحها

(ومن قول ابى نواس)

دع عنك لومى فان اللوم اغراء ودوانى بالتى كانت هى الداء
صفراء لاتنزل الاحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء
من كف ذات حرفى زى ذى ذكر لها محبان لواط وزناء
قامت بابريقها والليل معتكر فلاح من وجهها فى البيت لألاء
فارسلت من فم الابريق صافية كانما اخذها للعقل اخفاء
رقت على الماء حتى لايلائمها لطافة وخفى من شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها حتى تولد أنوار وأضواء
دارت على فتية دل الزمان لهم فما يصيبهمو الا بما شاؤا
فقل لمن يدعى فى العلم توسعة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

(وقال الشاعر)

كعصفور فى كف طفل يهينها تذوق مرار الموت والطفل يلعب
فلا الطفل ذوعقل يرق لحالها ولا الطير مطلوق الجناحين يهرب

(وروى) البيهقى فى الشعب عن مالك بن دينار قال مثل قراء هذا الزمان مثل رجل نصب فخا فجاء عصفور فدنا الى الفخ وقال مالك متغيباً فى التراب فقال التواضع فقال لم انحنيت قال من طول العبادة قال فما هذه الحبة التى فى فيك قال اعددتها للصائمين فلما تناول الحبة امسك الفخ عنقه فقال العصفور ان كان العباد يخنقون خنقك فلاخير فى هذه العبادة اليوم انتهى (قال) الشافعى رضى الله عنه اربعة أشياء تزيد فى الجماع اكل العصافير وأكل الاطريفل واكل الفستق وأكل الجرجير واربعة اشياء تزيد فى العقل ترك الفضول من الكلام والسواك ومجالسة الصالحين والعمل بالعلم واربعة تقوى البدن اكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان واربعة توهن البدن كثرة الجماع وكثرة الهم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة اكل الحموضة انتهى من حرف العين

(الامام احمد ومناقبه رضى الله تعالى عنه)

مات سنة مائتين واحدى واربعين وحرر من حضر فى جنازته فكانوا ثمانمائة الف ومن النساء ستين الفاً واسلم يوم موته رضى الله عنه عشرون الفاً من اليهود والنصارى والمجوس انتهى (وقال) الامام النووى فى تهذيب الاسماء واللغات ان المتوكل امر

ان يقاس الموضع الذى وقف الناس فيه للصلاة على الامام احمد فبلغ مقام الف الفى وخمسمائة وقد حزن عليه رضى الله تعالى عنه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس وقال محمد بن خزيمة لما بلغنى موت الامام احمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه اغتممت غماً شديدا فرأيته فى المنام وهو يتبختر فى مشيته فقلت يا ابا عبد الله ماهذه المشية فقال مشية الخدام فى دار السلام فقلت مافعل الله بك قال غفر لى وتوجنى والبسنى نعلين من ذهب وقال يا احمد هذا بقولك القرآن كلامى غير مخلوق ثم قال الله تعالى يااحمد ادعنى بتلك الدعوات التى بلغتك عن سفيان التى كنت تدعو بهن فى دار الدنيا فقلت يارب اسالك بقدرتك على كل شىء ان لاتسالنى عن شىء واغفر لى كل شىء فقال جل وعلا يااحمد هذه الجنة فادخلها (وانشد) بعضهم فى تاريخ موت الائمة الاربعة ومولدهم الامام ابى حنيفة والامام مالك والامام الشافعى والامام احمد بن حنبل

تاريخ نعمان يكن سيف سطا ومالك فى قطع جوف ضبطا
والشافعى صين ببرند واحمد بسبق امر جعد
فخذ على ترتيب نظم الشعر ميلادهم فموتهم فالعمر

وكذا فى تاريخ الائمة الخمسة المحدثين الامام الترمذى وابو داود والامام مسلم والنسائى والامام البخارى (وقد جمع بعضهم مالك فى بيت واحد)

اذا رمت الحديث فلذ بخمس تكن مثل المسافة فى الحياة
تعطر درعه مارص لسج بنور للمحدث للوفاة

بيان ذلك ان التاء اشارة للترمذى والدال اشارة لابى داود والميم اشارة للامام مسلم والنون للنسائى والباء للبخارى والله اعلم (ويحكى انه اتى برجل مدنى سكران الى بعض الولاة فامر باقامة الحد عليه وكان الرجل طويلا والجلاد قصيرا فلم يتمكن من ضربه فقال الجلاد للمدنى تقاصر لينالك الضرب فقال ويلك الى اكل الفالوذج تدعونى والله لوددت ان اكون اطول من عوج بن عنق وانت اقصر من ياجوج وماجوج فاستظرفه الامير وخلى سبيله انتهى من حلية الكميت ومن قول بن المعتز

وجاءنى فى قميص الليل مستترا يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
ولاح ضوء صباح وكاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر
وكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسال عن الخبر

«ولبعضهم عفا الله عنه»

جرى دمعي من الحال الذي بي ــ كجري الماء في أول أبيب
ومع هذا فلا أقطع رجائي ــ لان الله الطف من أبي بي

«ومن كلام الشافعي رضي الله عنه»

لم يدر طعم الفقر من هوفي غني ــ ومصحح الاعضاء ليس كمبتلي
كم فاقة مستورة بمروءة ــ وضرورة قد غطيت بتجمل
وتبسم من تحته قلب شجي ــ قد صادفته غمة لاتنجلي
والناس جمعاً عند كل كفؤه ــ والهم مفترق وما أحد خلي
لو سود الهم الملابس لم تجد ــ بيض الثياب على امرىء في محفل
واذا اراد المرء يجلو همه ــ عن نفسه من نفسه لا ينجلي

ومن كلام العارف بالله تعالى الشيخ عبدالرحيم البرعي رحمه الله تعالى في ارض اليمن

رياض نجد بكم جنان ــ فضية أنوارها حسان ــ وترب واديكمو بنجد
كمسك وحصباوها جمان ــ والروض من شمكم عبير ــ والزهر ورد و زعفران
والجارفي ربعكم عزيز ــ والحرف أرضكم يصان ــ فكم سفكتم دمي ودمعي
اماعلى الفاتل الضمان ــ ورمت أخفي الهوى ودمعي ــ من شدة الوجد ترجمان
يالاعون اقصروا ملامي ــ رفقا بمن قلبه ملان ــ لا تذكروا الظاعنين عندي
فلي وللظاعنين شان ــ قالوا هواهم عليك حتم ــ فقلت عهد الهوى يصان
قالوا فكم تكتم التصابي ــ قلت المعني بهم معان ــ قالوا فقد فارقوك ربما
قلت هم الناس حيث كانوا ــ قالوا فدعهم قلت كلا ــ لعل قلبا قسا يلان
ليت الصبا الحاجرى ينبي ــ عن جيرة البان يوم بانوا ــ هل عهدهم عهدهم بنجد
باق ام استؤمنوا فخانوا ــ يا محسنا بالزمان ظنا ــ هل تدري ما يفعل الزمان
لا تتبع النفس في هواها ــ ان اتباع الهوى هوان ــ واخجلتي من عتاب ربي
ان قيل اسرفت يا فلان ــ الى متى أنت في الملاهي ــ تصير مرخى لك العنان
لو خوفتك الجحيم بطشي ــ لشوقت قلبك الجنان ــ عندي لك الصفح وهو بري
وعندك السيف والسنان ــ ماتستحي كاتبا كريما ــ يحصي به الفعل واللسان
وتستحي شيبة تراها ــ في النار مسحوبة تهان ــ انت شجاع على المعاصي

وانت عن طاعتى جبان * لم ينهك الشيب عن حدودى * ولا رسول ولا القرآن
ترضى بان تنقضى الليالى * وما انقضى حر بك العوان * اى أوان تتوب فيه
هل بعد قطع الرجا اوان * آثرت غيرى على لكن * كما يدين الفتى يدان
ياسيدى هذه عيوبى * وانت فى الخطب مستعان * يامن له فى العصاة شأن
البر والعطف والحنان * يامن ملابره النواحى * لم يخل من بره مكان
عفوا فانى رهين ذنب * حاشاك ان يغلق الرهان * فاغفر لعبد الرحيم والطف
بخائف ماله امان * وسامح الكل من ذنوب * غدا بها يشهد البنان
وصل يا ذا العلا وسلم على من اخلاقه حسان

(وهذه) قصيدة الامام الولى العارف بالله تعالى أبى محمد بن أبى عمران اليشكرى نفعنا الله به قال العلامة بدر الدين بن فرحون احد أصحاب ناظمها ان بعض الصالحين رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام قال البدر واشك هل كان هو الشيخ اوغيره وانشد هذه القصيدة فلما بلغ آخرها قال النبي صلى الله عليه وسلم رضيناها رضيناها وهى هذه

دار الحبيب احق ان تهواها ونحن فى طرب الى ذكراها
وعلى الجفون اذا هممت بزورة يابن الكرام عليك ان تغشاها
فلانت انت اذا حللت بطيبة وظللت ترتع فى ظلال رباها
مغنى الجمال من الخواطر والتى سلبت قلوب العاشقين حلاها
لاتحسب المسك الذكى كتربها هيهات اين المسك من رياها
طابت فان تبغى لطيب يا فتى فادم على الساعات ثم تراها
وابشر ففى الخبر الصحيح تقررا ان الاله بطيبة سماها
واختصها بالطيبين لطيبها واختارها ودعا الى سكناها
لاكالمدينه منزل وكفى بها شرفا حلول محمد بفناها
خصت بهجرة خير من وطئ الثرى واجلهم قدرا واعظم جاها
كل البلاد اذا ذكرن كاحرف فى اسم المدينة لاخلا معناها
حاشا مسمى القدس فهى قريبة منها ومكة انها اياها
لافرق الا ان ثم لطيفة مهما بدت يجلو الظلام سناها

جزم الجميع بان خير الارض ما ... قد حاز ذات المصطفى وحواها
ولهم لقد صدقوا بما كنها علت ... كالنفس حين زكت زكى ماواها
وبهـذه ظهرت مزية طيبة ... فغدت وكل الفضل فى معناها
حتى لقد خصت بهجرة حبه ... الله شرفها به وحباها
مابين قبر النبي ومنبر ... حيا الاله رسوله وسقاها
هـذى محاسنها فهل من عاشق ... كلف شجى ناحل بنواها
انى لارهب من توقع بينها ... فيظل قلبي موجعا أواها
ولقلما ابصرت حال مودع ... الا رثت له نفسي وشجاها
فلكم اراكم قافلين جماعة ... فى اثر اخرى طالبين سواها
قسما لقد اكسى فؤادى بينكم ... جزعا وفجر مقلتى مياها
ان كان يزعجكم طلاب فضيلة ... فالخير اجمعه لدى مثواها
اوخفتموا بها سرا فتاملوا ... بركات بقعتها فما ازكاها
اف لمن يبغى الكثير لشهوة ... ورفاهة لم يدر ماعقباها
فالعيش ما يكفى وليس هو الذى ... يطغى النفوس الى خسيس مناها
يارب اسال منك فضل قناعة ... بيسيرها وتحصنا بحماها
فارضاك عنى دائما ولزومها ... حتى توافى مهجتى اخراها
وانا الذى اعطيت نفسي سؤلها ... فقبلت دعواها فيابشراها
بجوار اوفى العالمين بذمة ... واعز من باقرب منه يباهى
من جاء بالايات والنور الذى ... داوى القلوب من العمى فشفاها
اولى الانام بخطة الشرف التى ... تدعى الوسيلة خير من يعطاها
انسان عين الكون شرف وجوده ... يتلو اكسير المحامد طاها
حسبى فلست افى ببعض صفاته ... لو ان لى عدد الورى افواها
كثرت محاسنه واعجز حصرها ... فغدت وما نلقى لها اشباها
انى اهتديت من الكتاب باية ... فعلمت ان علاه ليس يضاهى
ورايت فضل العالمين محددا ... وفضائل المختار لاتتناهى
كيف السبيل الى تقصى مدح من ... قال الاله له وحسبك جاهه

ان الذين يبايعونك انما ... هم من يقال يبايعون الله
هذا الفخار فهل سمعت بمثله ... واها لنشأتها الكريمة واها
صلوا عليه وسلموا فبذلكم ... تهدى النفوس لرشدها وغناها
صلى عليه الله غير مقيد ... وعليه من بركاته انماها
وعلى الاكابر آله سرج الهدى ... اكرم بعترته ومن والاها
وكذا السلام عليه ثم عليهم ... وعلى صحابته التى زكاها
اعنى الكرام اولى النهى اصحابه ... فئة التقى ومن اهتدى بهداها
والحمد لله الكريم وهذه ... نجزت ونظنى انه يرضاها

وهذا آخرها والحمد لله وحده (ولبعضهم شعرا)

لله فى ملكه خاتم ... تجرى المقادير على نقشه
لا تنبشن الشر تبلى به ... واحذر على ذلك من نبشه
مصارع الدهر لها سطوة ... تنزل السلطان عن عرشه
واطفى الكبش باحم الكلا ... اذرج راس الكبش فى كرشه
اذا بغى المرء على جنسه ... لا بد ان ينكب فى فرشه

(قوله صلى الله عليه وسلم انت مالك لابيك) ذكر العلامة الشمس العلقمى فى حاشية على الجامع الصغير عن جابر قال جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان ابى اخذ مالى فقال النبى صلى الله عليه وسلم للرجل اذهب فاتنى بابيك فنزل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك اذا جاء الشيخ فاساله عن شىء قاله فى نفسه ما سمعته اذناه فلما جاء الشيخ قال له النبى صلى الله عليه وسلم ما بال ابنك يشكوك اتريد ان تاخذ ماله فقال يارسول الله هل انفقه الا على احدى عماته اوخالاته اوعلى نفسى فقال عليه الصلاة والسلام ايها الشيخ دعنا من هذا اخبرنى عن شىء قلته فى نفسك ما سمعته اذناك فقال الشيخ والله يارسول الله ما يزال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا لقد قلت فى نفسى شيئا ما سمعته اذناى فقال له قل فانا اسمع فقال

غذيتك مولودا وعلتك يافعا ... تعل بما اسدى اليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم ابت ... لسقمك الا ساهرا اتململ
كانى انا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى وعيناى تهمل

تخاف الردى نفسي عليك وانها لتعلم ان الموت شيء مسجل
فلما بلغت السن والغاية التي لها مدة قد كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وظافظة كانك انت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل

قال فحينئذ أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بجلباب ابنة وقال أنت ومالك لأبيك. انتهى (وحكى الاصمعي) قال خرجت في طلب الاعاجيب من الاحاديث فلاحت لي بلدة بيضاء كانها الغمامة فدخلتها فاذا هي خراب وليس فيها ديار ولا أنيس فبينما أنا أدور في نواحيها اذ سمعت كلاما فطار قلبي فأنصت فاذا هو كلام موحش فسللت سيفي ودخلت ذلك المكان فاذا أنا برجل جالس وبين يديه صنم وفي يديه قضيب وهو يبكي وينكت به الارض ويقول

أما ومسيح الله لو كنت عاشقاً لمت كما ماتت وماضمني لحدي
وكم أنسلي بالحديث وبالمنى وبالعبرات السائلات على خدي
واني وان لم ياتني الموت سرعة لامسي على جهد وأضحي على جهد

قال فلما سمعت ذلك منه هجمت عليه فلم يشعر بي الا أن قلت له السلام عليك فرفع رأسه وقال عليك السلام من أين أنت ومن جاء بك الى هذا المكان فقلت الله جاء بي قال صدقت وهو الذي أفردني في هذا المكان فقلت له ما بالك تشير الى هذا الصنم الذي بين يديك فقال لي ان حديثي عجيب وأمري غريب فقلت له حدثني به ولا تخف منه شيئا فقال لي اعلم اننا قد كنا قوما من بني تميم وكنا على دين المسيح وكان دعاؤنا مستجابا وكانت هذه الصنمة ابنة عمي وكنت انا واياها فلما كبرت حجبها عمي عني فكنت أحبها سرا فبينما أنا ذات ليلة وأنا عندها اذ سمعت عمي يدق الباب فادخلتني سردابا وقامت هي ففتحت الباب ودخل عمي فقال لها اين عبد المسيح فقالت اني لم أره فقال لها اني سمعت كلامه عندك فقالت لم تسمع شيئا وانما خيل لك فقال لا والله ان لم تصدقيني والا دعوت عليك ان كنت كاذبة فيمسخك الله حجرا فقالت له ان كنت كاذبة فرفع طرفه الى السماء وقال اللهم يارب الاولين والاخرين ان كنت تعلم ان ابنتي هذه كاذبة في قولها فأمسخها حجرا فسخها الله حجرا ولي أربعون سنة في هذا المكان وأنا أتقوت من نبات الأرض وأشرب من هذه

الانهار وأتسلى بالنظر الى هذه الصنمه الى ان يحكم الله لى بالموت ثم بكى وأنشد يقول

وحق الذى أبكى واضحك والذى　　امات واحيا والذى خلـق الخلقا
لئن قلت ان الحب يقتـل الفـتى　　وان الفتى بعـد التفرق لا يبقى
لقد قلت حقا واسال العبرة التى　　تسيـل وسيـل الدمع منى لا يرقا

(قال) الاصمعى ثم قام ذلك الشاب وتوارى عنى بجدار من تلك الجدر ونزع المسوح التى كانت عليه ولم يبق عليه الا ما يوارى سوأته فتاملته فاذا عيناه تدور فى أم رأسه فقلت فى نفسى هذا أراد ان يطلعنى على نحول جسده ثم أقبل على وهو عريان وقال لى يافتى انى قائل ثلاث أبيات وكان منى ما كان فاذا أنا امت فكفنى أنا واياها فى هذه الجبة وادفنا فى هذا الجون وضمنا بالتراب واكتب على قبرنا هذه الأبيات

من لم يكن يحسب أن الهوى　　يقتـل فلينظر الى مضجعى
لم يبق لى حـول ولا قوة　　الا خيال الشمس فى موضعى
أشكو الى الرحمن جهد البلا　　اشارة بالطرف والأصبـع

(قال) الاصمعى هذا وانا أنظر اليه وأسمع شعره واتعجب منه ومن أمر الصنمة واذا به وقع على الارض مستلقيا على قفاه وشهق شهقة فارقت روحه جسده قال الاصمعى فكفنتهما ودفنتهما فى ذلك الجون وكتبت على قبرهما تلك الابيات وتركتهما وانصرفت وانا متعجب غاية العجب انتهى (ولما) عزم احمد بن طولون على بناء الجامع المعروف به فى مصر القاهرة انفق عليه مائة الف دينار ورتب فيه للعلماء والقراء وأرباب الشعائر والبيوت فى كل شهر عشرة آلاف دينار وللصدقة فى كل يوم مائة دينار وكان مشتملا على خصال حميدة (منها) ان فقيراً كان بجواره وله امرأة وبنت وكانا يغزلان الصوف للسوق لتجهيز البنت وكانت البنت لم تفارق البيت وما نظرت الى السوق قط ولا خرجت فسالت أمها واياها ان تخرج معهما الى السوق فوعداها بذلك فلما قصدا بيع الغزل خرجت معهما الى السوق فروا بباب الامير المسمى بالفيل وتمادى الاب والام وتركاها ولم يشعرا بوقوفها فبقيت البنت حائرة لا تدرى اين تذهب وكانت ذات جمال عظيم فخرج الامير المسمى بالفيل فلما رآها افتتن بها فمسكها ودخل بها ثم امر الجوارى ان يغسلنها وينظفنها ويلبسنها احسن الملبوس ويطيبنها بانواع الطيب ويجلينها له ففعلن ذلك فدخل عليها وازال بكارتها هذا وابواها قد حزنا عليها ولم يزالا يطوفان

عليها جميع الاماكن فلم يقعا لها على خبر فلم يزالا يبكيان فلما جن الليل واذا بشخص يطرق الباب فخرج ابوها وفتح الباب فقال الرجل لابيها ان الامير المسمى بالفيل اخذ ابنتك وازال بكارتها فلما سمع ذلك كاد يجن وكان لاحمد بن طولون مؤذن وكان قد عاهده على انه اذا حدثت فاحشة من الفواحش يؤذن فى غير الوقت ليحضره و يستفهم منه الواقعة وكان المؤذن بينه و بين ابى البنت صداقة فجاء اليه واخبره بخبره فصعد واذن فسمعه احمد بن طولون فارسل خلفه فاخبره بالقضية فاستدعى بابوى البنت وخباهما فى خزانة وكان وقت مجىء الفيل للخدمة فلما دخل على عادته قال له نهنيك بالعروس الجديدة فقال له ومن اين لى عروس جديدة قال اتنكرنى وهذا ابو الجارية وامها واخرجهما اليه فلما رآهما نكس راسه خجلا من الامراء الحاضرين فقال له احمد بن طولون ارفع رأسك ثم قال لابيها تزوج ابنتك مملوكى هذا على صداق قدره الف دينار مقدمة وخمسمائة دينار موجلة قال نعم فامر باحضار الشهود وعقد العقد بينهما و وضعوا خطوطهم ثم بعد انصراف الشهود امر السياف بضرب عنق الفيل فرماه بين يديه وقطع راسه وقال احمد بن طولون لابى الجارية ابنتك ورثت زوجها وقد مكنتها مما بقى من تركته فامضوا مع السلامة فانصرفوا شاكرين لانعامه داعين له على افعاله فانظر الى هذا العدل العظيم والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم (ومما نقل عن بعضهم)

توق رعاك الله تسعا من البشر	فصحبتهم تفضى الى البؤس والضرر
وهم احول مع اعرج ثم احدب	كذا كوسج يتلو نشاط امع الكدر
واياك والانف الطويل ثم اصفرا	فانهما بيت الخيانة والخطر
كذا غائر الصدغين خارج جبهة	كذا ازرق العينين فالحذر الحذر
توقاهمو تحيا سليما من الردى	وباعدهمو ياذا الفراسة والنظر

بحمد الله ذى القوة والباس قد تم طبع كتاب اعلام الناس بالمطبعة اليوسفيه الكائنة بباب الخلق بمصر المحمية

(فهرست كتاب اعلام الناس . فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس)


Bibliotheca Alexandrina
03800706